

ماثيو كار

الدين والدم

إبادة شعب الأندلس

ترجمة : مصطفى قاسم

ماثيو كار



إبادة شعب الأندلس

ترجمة

د. مصطفى قاسم

مراجعة

د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

DP53.M87 C3712 2013
Carr, Matthew, 1955-
[Blood and Faith]
الدم و الدين : إبادة شعب الأندلس / تأليف ماثيو كار ؛ ترجمة مصطفى محمد عبد الله قاسم. مراجعة د. أحمد خريس -أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
588 ص.

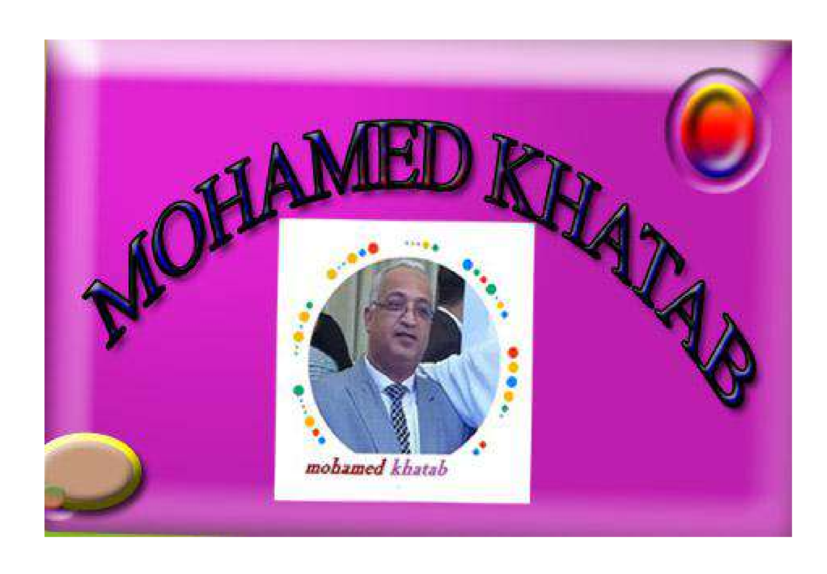
ترجمة كتاب : Blood and Faith : The Purging of Muslim Spain
تدمك: 7-201-17-9948-978
1- المسلمون في إسبانيا. 2- إسبانيا-تاريخ-القرن 17.
أ- قاسم، مصطفى محمد عبد الله.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Matthew Carr
Blood and Faith: The Purging of Muslim Spain



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY



الدِين والدم

إبادة شعب الأندلس

المحتويات

الباب الأول:

الغزو للتنصير

الباب الثاني:

قطيع واحد.. راعٍ واحد

الباب الثالث:

الكارثة

إهداء

ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا الكُتاب والمؤرخون الكبار الذين تناولوا موضوع الموركسيين من قبلي بفترة طويلة. فمع أني كنت أتبع غرائزي واهتماماتي، وأعبّر عن منظوراتي وأفكاري، فقد كنت إلى حد كبير رحالة في أرض استكشَفَتْها -سابقاً- ووضَعَت خرائطها بحوثُ كُتاب آخرين وأعمالهم. ولقد حرصتُ على أن أذكر أسماءهم في الهوامش وقائمة المراجع، لكنني أود أن أوجه شكراً خاصاً لتريفور دادسون Trevor Dadson، الذي كانت مقترحاته القيّمة، في المراحل الأولى لكتابة هذا الكتاب، دافعاً لي إلى البحث عن «صوت المورسكيين».

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى إيزابيل أغيري Isabel Aguirre بالأرشيف الحكومي الإسباني في شلمنقة، التي بذلت كل ما تستطيعه لتجعل من زيارتي للأرشيف مثمرة إلى أقصى حد. كما أتوجه بالشكر أيضاً إلى ميغيل نافارو Miguel Navarro؛ المؤرخ الرسمي لكورتيس دي بايا Cortes de Pallas، الذي اصطحبني في رحلة لا تنسى إلى الأماكن المورسكية في المرتفعات البلنسية، واستضافني إلى واحدة من أشهى الأكلات التي أكلتها في حياتي، وهي طبق الأرز البلنسي.

وأتوجه بالشكر أيضاً إلى فريق مكتبتي المحلية في ماتلوك Matlock بديربشاير، الذي استجاب بصبر إلى طلباتي المتواصلة للكتب والمقالات من مختلف أنحاء البلاد.

وأخيراً وليس آخراً، لا يفوتني أن أعبّر عن عظيم شكري وامتناني إلى زوجتي جين Jane وابنتي لارا Lara؛ رفيقتيّ الدائمتين، اللتين كانتا دوماً عوناً لي في السراء والضراء. فقد عاشتا معي لعامين ونصف وسط المورسكيين، سواء أكان ذلك على هواهما أم لا.

إلى هؤلاء جميعاً، أهدي هذا الكتاب، مع كل الحب والتقدير.

تقديم المترجم[1]

مآسي الهوس الديني
تحذير من إسبانيا القرن السادس عشر

الأندلس.. يا له من اسم محبب إلى قلب كل عربي، سواء أقربت بلاده من الأندلس أم بعدت، وسواء أعرف الكثير عنها أم القليل. وما أكثر المدن والأحياء والشوارع والمؤسسات، وحتى المحلات الصغيرة والمجموعات والمنتديات على مواقع الإنترنت، التي تحمل اسم الأندلس أو إحدى حواضرها، وما أكثر حديثنا عن فتح الأندلس وفاتحيها وأحداثها ومعاركها، وما أكثر إشادتنا بأمجاد الأندلس وإنجازاتها العلمية والفكرية والثقافية والمعمارية، وما سادها من تسامح فكري وديني وتعددية وقبول للآخر، في زمن كانت أوروبا تحرق فيه المخالفين في الفكر والعقيدة.

لكن كيف كانت نهاية الأندلس، وماذا حدث لشعبها؟ هل انتهى شعب الأندلس بسقوط الممالك الأندلسية، بمعنى هل غادر شعبها البلاد إلى شمال إفريقيا أو غيرها من بلاد المسلمين مع حكامه المهزومين، أم

(1) على امتداد صفحات الكتاب، يشير الرقم المذكور بين قوسين معقوفين مرتفعين [ ] إلى هوامش الفصول التي جمعها المؤلف بعد المتن، في حين يشير الرقم المذكور بين قوسين هلاليين مرتفعين ( ) إلى الهوامش التوضيحية، التي ذيّل بها المترجم صفحات الكتاب [المترجم].

بقي في بلاده وعاش تحت الحكم النصراني الجديد؟[1] وماذا حدث لمن قبلوا العيش تحت حكم الممالك النصرانية، وكيف سارت حياتهم، وكيف كانت علاقاتهم بالدولة والكنيسة و«مواطنيهم» النصارى؟ هل ذابوا في المجتمعات النصرانية، وتلاشت خطوط الفصل الدينية والثقافية، التي كانت تفصلهم عن النصارى زمنَ الممالك الإسلامية؟ وكيف تعاملت الممالك النصرانية مع الاختلاف الديني والثقافي للمسلمين، الذين خضعوا لسلطانها؟ إنها تساؤلات لا أظن كثيراً من محبي الأندلس يملكون إجابات عنها. إن هذا الكتاب يجيب عن هذه التساؤلات وغيرها.

لا بد أن أعترف بداية بأن معرفتي بالأندلس أو أيبيريا الإسلامية- قبل قراءة هذا الكتاب- كانت تقف عند عام 1492، الذي سقطت فيه آخر ممالك المسلمين (غرناطة) ودانت للملكين الكاثوليكيين فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية. ولا بد أن أعترف أيضاً بأنني حين كنت أقرأ عن أهوال محاكم التفتيش الأوروبية، التي وقف أمامها غاليليو غاليلي، وتراجع عن آرائه عندما عرضت عليه أدوات التعذيب، والتي قضت مثلاً بحرق الفيلسوف الإيطالي جوردانو برونو على الخازوق لهرطقاته المتعلقة بتأييده النظام الكوبرنيكي، وقد كانت تستخدم أدوات تعذيب بشعة من نوع «العروسة الحديدية»، وهي إطار حديدي كان يقحم مئات المسامير ببطء في جسم الضحية، ولا يتركها إلا بعد أن تتحول إلى كتلة دموية حية، لتلقى بعد ذلك في حفرة من السكاكين الدوّارة – لا بد أن أعترف بأنني حين كنت أقرأ عن محاكم التفتيش هذه، لم أتخيل يوماً أن المسلمين كانوا من زبائنها التعساء، بالطبع في إسبانيا والبرتغال.

(1) يحرص المترجم على استخدام مصطلحات عصر الاسترداد والحروب الصليبية والجهاد الإسلامي، ولذلك يستخدم مصطلح «النصرانية» ومشتقاته بديلاً عن مصطلح «المسيحية» ومشتقاته للعصر ما قبل الحديث [المترجم].

لقد ظهرت في العقود الثلاثة الماضية بحوث كثيرة حول آخر من بقوا من أيبيريا الإسلامية، والذين أطلق عليهم الإسبان الاسم الازدرائي: «المورسكيين»، الذي يعني «الأندلسيين الصغار»، لكن أحداً منها لم يستطع أن يفلت من أسوار «الغيتو الأكاديمي»، كما فعل ماثيو كار بكتابه الرصين والمحايد والمتوازن والشامل، الذي يقدم قصة المورسكيين ومصيرهم المأساوي لجمهور القراء العام، والمتخصص، على حد سواء.

تبدأ القصة بالحرب «الصليبية» التي غزت، لعشر سنوات، مملكة غرناطة الأندلسية، وانتهت بسقوطها عام 1492، الذي كان -في الوقت نفسه- بداية لعملية طويلة من التطهير الديني والعرقي «لإسبانيا المقدسة»، استهلت باليهود الإسبان في هذا العام المشؤوم نفسه، ثم تحولت إلى المسلمين على مدى أكثر من قرن، وهي حرب صليبية؛ لأن الجيوش النصرانية ضمت في صفوفها كثيراً من المتطوعين الأجانب، الذين جذبهم الوعد البابوي بغفران ذنوب من يحاربون الكفار، فضلاً عن فرص النهب، التي كانت توفرها أمثال تلك الحروب.

يبدأ الكتاب بعد المقدمة التي تحدد الهدف منه بمدخل يوجز تاريخ الأندلس منذ فتحها عام 711 على يد القائد المسلم طارق بن زياد، مطوفاً بممالكها القوية وحواضرها الزاهرة وحروبها ضد الممالك النصرانية في أراغون وقشتالة، ثم يتوقف قليلاً أمام سقوط غرناطة، فيعرض بإيجاز حروب الاستنزاف الطويلة، التي سبقت حصار غرناطة عام 1491. فلم تسقط غرناطة في حرب كبرى بين جيشين، بل سقطت عبر حروب كثيرة دامت عقداً من الزمن، إذ «شق زهاء ستين ألف فارس وجندي من المشاة طريقهم عبر الوديان النهرية والسهول حتى جبال غرناطة العالية، مدعومين بأرتال إمدادات ووحدات غير نظامية، كانت مهمتها الوحيدة حرق محاصيل العدو وتدميرها». وفي هذا الحصار الخانق،

اضطر أهل غرناطة إلى أكل الخيول والكلاب والجرذان، وفي النهاية اضطر السلطان محمد الثاني إلى توقيع اتفاقية استسلام المملكة، وتوجه إلى منفاه في جبال البشرات، تاركاً خلفه شعباً ذاهلاً من صدمة الاستسلام. وبذلك اكتملت عملية «استرداد»[1] النصارى لأيبيريا، ووجد المسلمون في غرناطة أنفسهم خاضعين لحكام نصارى، تماماً كما حدث مع المسلمين في الممالك الإسلامية الأخرى، التي سقطت قبل غرناطة.

كان سقوط غرناطة سقوطاً لحالة «الاستثناء الأيبيري»، التي أقرّت التعايش السلمي والقبول المتبادل بين المسلمين والنصارى واليهود في أيبيريا الإسلامية والنصرانية[2]، على خلاف حالة العداء والحرب الدائمة بين المسلمين والنصارى في كل الأماكن الأخرى، طيلة القرون التي فصلت بين ظهور الإسلام حتى أوائل العصر الحديث. وحتى إن كان «هذا التعايش لم يصل إلى حد الأركادية[3] ما قبل الحديثة للتعددية الدينية والثقافية، التي تخيلها بعض المؤرخين، فإنها كانت أكثر تسامحاً من النظام الجديد الذي تلا انهيارها النهائي». فبعد أن كانت القاعدة هي القبول

(1) يثير الحدث التاريخي الواحد مشاعر متناقضة لدى الشعوب والجماعات المختلفة، ولذلك تجد للحدث الواحد أسماء أو ترجمات مختلفة، ومن أمثلة ذلك مصطلح Reconquista، الذي يشير في اللغات الأوروبية إلى «استرداد» إسبانيا من المسلمين أو إعادة فتحها، على أساس أنها كانت أوروبية نصرانية قبل الفتح الإسلامي، في حين نترجمه نحن العرب والمسلمين إلى «سقوط الأندلس»، مع ما يتضمنه ذلك من تأكيد على «عروبة» أو «إسلامية» الأندلس بعد القرون الثمانية، التي كانت فيها جزءاً من العالم الإسلامي، وإحدى أبرز حواضره. ومن ذلك أيضاً مصطلح conquest الذي يترجمه المؤيدون للحدث إلى «فتح»، في حين يترجمه الكارهون له إلى «غزو» أو حتى «احتلال» [المترجم].

(2) كان التعايش بين أتباع الأديان الثلاثة هو القاعدة في الممالك النصرانية، كما في الممالك الإسلامية، قبل اكتمال عملية الاسترداد وتوحيد إسبانيا، ومن أمثلته في الممالك النصرانية مملكة قشتالة في عهد الملك ألفونسو العاشر في القرن الثالث عشر [المترجم].

(3) أركادية منطقة جبلية في بلاد اليونان القديمة اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قسم لهم، وتستخدم الكلمة للدلالة على البلاد المتسامحة، التي تلفظ الكراهية والعنف وتتبنى قيم التسامح والتفاهم والتعايش [المترجم].

المتبادل «المشروط» بين أصحاب الأديان الثلاثة، والحرية الدينية «المقيدة» لأتباعها، حل نموذج التطهير الديني والشوفينية الثقافية في أيبيريا النصرانية[1].

كان اليهود أول ضحايا هذا التحول المشؤوم، فعلى الرغم من أن اتفاقات الاستسلام ضمنت للأندلسيين من مسلمين ويهود ومولدين[2] الاحتفاظ بدينهم ومؤسساتهم الدينية، فإن الملكين نقضا هذه المعاهدات ومعها نموذج التعايش السابق، وشرعا في تنصير اليهود قسراً. فمع اكتمال «الاسترداد» وتوثق علاقات إسبانيا بالعالم النصراني، اكتسبت النصرانية الإسبانية الطابع الجهادي، الذي كان سائداً في أوروبا آنذاك، وبدأ رجال الدين يحرضون الغوغاء ضد اليهود؛ «قتلة المسيح»، وبدأت عمليات التنصير القسري لليهود الذين خُيّروا بين التعميد والنفي، مع وضع عراقيل شديدة أمام الخيار الثاني؛ ضيّعت معنى الاختيار. وبالفعل نُصّر عشرات الآلاف من اليهود في أشهر قليلة. وحتى بعد أن نُصّروا، لم يسلم اليهود من الأذى، إذ استصدر فيردناند وإيزابيلا في عام 1477 مرسوماً بابوياً أجاز تشكيل محكمة تفتيش في قشتالة، لكشف الزنادقة الذين ارتدُّوا إلى «شريعة موسى»، ظلت تلاحق المُنَصّرين اليهود حتى قضت على كل أثر لليهودية في إسبانيا، وكذلك في البرتغال، التي ضغط

(1) ترجع «المشروطية» و«التقييد» في الأندلس إلى أن أصحاب الدينين الآخرين غير المهيمنين- النصرانية واليهودية في حالة الممالك الإسلامية والإسلام واليهودية في حالة الممالك النصرانية- لم يكن مسموحاً لهم بالترويج لدينهم، وضم أتباع جدد أو التعبير عن دينهم بصورة تفوق الدين المهيمن، مع أن حرية العقيدة كانت مكفولة للجميع، ولم تبذل أي محاولة لإدخال الناس قسرا في الدين المهيمن. وهذه الحالة وإن كانت القاعدة في جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه، مثل مصر وبلاد الشام والعراق وتركيا، فقد كانت تمثل استثناء للرفض الأوروبي القاطع للإسلام ومحاولة اجتثاثه. ولذلك كان اقتراب إسبانيا من أوروبا والكنيسة الرومانية بعد الاسترداد، فاتحة لانتقال عدوى الهوس الديني و«الجهادية» النصرانية إليها [المترجم].

(2) المولدون هم النصارى الإسبان، الذين اعتنقوا الإسلام في زمن الممالك الإسلامية [المترجم].

الملكان على ملكها ليفعل باليهود ما فعلاه بهم.

يعرض الفصل الثالث أحوال المسلمين في أيبيريا كلها بعد سقوط غرناطة. لقد تشكّل الأندلسيون من العرب والأمازيغ والمولدين، وتذهب بعض التقديرات إلى أن عددهم بلغ ستة ملايين في بداية القرن الثاني عشر، لكن مع نهاية القرن الخامس عشر، انخفض هذا العدد إلى ما بين خمسمائة وستمائة ألف نسمة، من إجمالي سكان إسبانيا، البالغ عددهم سبعة أو ثمانية ملايين نسمة. كان معظم الأندلسيين يعيشون في الريف ويعملون بالزراعة والبستنة، فضلاً عن الحرف الحضرية، وغيرها من الأعمال المتواضعة، ذلك أن هجرة الطبقة العليا الأندلسية من الأعيان والمثقفين لم تترك من المسلمين غير القاعدة البروليتارية للأندلس. وهكذا تحول الأندلسيون المسلمون من سادة البلاد وحكامها إلى مستضعفين يعملون في أدنى المهن والحرف، ويتعرضون من حين لآخر إلى هبات عنف من جانب النصارى، لكنهم مع ذلك عاشوا في جماعات منفصلة، واستطاعوا أن يحافظوا على دينهم وثقافتهم وتقاليدهم وسط مجتمع نصراني معادٍ.

لكن إسبانيا «الكاثوليكية» الطامحة إلى الوحدة والنقاء الدينيين، والمتطلعة إلى قيادة العالم النصراني، ما كانت لتسمح ببقاء المسلمين على دينهم. فبعد التخلص من اليهود، بدأت ماكنة القمع والتنصير و«تفتيش الأرواح» الكاثوليكية تحول أنظارها إلى الأقلية الدينية والعرقية الأخرى على أراضيها، وشرعت فور غزو غرناطة في تنصيرهم قسرياً، وهي العملية التي بدأها رجل الدين المتعصب ثيسنيروس، الذي عُيّن رئيساً لأساقفة غرناطة عام 1499. فبعد أن أخفق ثيسنيروس في إقناع المسلمين بالتخلي عن دينهم واعتناق النصرانية، استخدم الشدة والتعذيب والسجن لإجبار المسلمين على اعتناق النصرانية، ولقد بدأ رئيس الأساقفة بحامد الثغري؛

ذلك القائد الذي أبلى بلاء حسناً في حروب الدفاع عن الممالك الإسلامية، إذ أُجبِر الـمُعذَّب على إعلان اعتناقه النصرانية بوحي من الله جاءه في المنام وهو في سجن ثيسنيروس. بدأ رئيس الأساقفة بالمولدين، وحين ثار الناس في ربض البيازين العربي بغرناطة على هذا الانتهاك لمعاهدات الاستسلام، استخدم السيف لتنصيرهم، و«في السادس عشر من يناير 1500، نعق ثيسنيروس كالغراب في مجلس الكنيسة قائلاً: ‹لا يوجد الآن في المدينة إنسان واحد غير نصراني، وكُرّست كل المساجد كنائس›».

لكن مسلمي غرناطة لم يذعنوا جميعاً إلى هذا الترتيب الجديد، ولم يمض وقت طويل حتى اندلعت الثورة. فرّ زعماء البيازين بدينهم إلى جبال البشرات، التي كانت فضلاً عن كونها حصناً طبيعياً، موطناً لأكثر المسلمين تمسكاً بدينهم. وقد عمّت الثورة جبال البشرات، وفرض المسلمون انتقاماً بشعاً على السكان النصارى المحليين، وبخاصة رجال الدين الذين كانوا رمزاً لقهرهم. وسرعان ما امتدت الثورة إلى مقاطعة «المرية» المجاورة. فحشد الملكان الكاثوليكيان ثمانين ألف جندي لسحق الثورة. كانت أسلحة المسلمين بدائية مقارنة بجيش إسبانيا الذي كان في طريقه إلى أن يصبح من أقوى جيوش أوروبا والعالم. ولذلك انهارت المدن والقرى الثائرة تباعاً بعد مقاومة شرسة. ومع أن كثيراً من المسلمين، ولاسيما النساء، فضّل الموت على التنصير، فإن غالبيتهم قد انحنوا للتيار وقبلوا التعميد، اعتقاداً منهم بأنهم سيتركون وشأنهم بعد ذلك. وجرى تعميد المسلمين وسط أجواء احتفالية، وكان الآلاف يُعمّدون، وتُكَرّس المساجد كنائس وسط أغان ودق أجراس الكنائس، وبذلك نُصِّر كل مسلمي غرناطة في بضعة أشهر.

وفي قشتالة أصدرت إيزابيلا مرسوماً يُخيّر المسلمين بين التنصير والنفي، لكن الشروط هنا أيضاً كانت تميل بشدة إلى الخيار الأول، إذ لم

يكن مسموحاً لمن آثروا النفي أن يأخذوا معهم الذهب أو الفضة وسلعاً أساسية كثيرة أخرى، وحرموا أيضاً من السفر البري عبر أراغون للتأكد من أنهم لن يستقروا هناك، وكانت موانئ المغادرة مقصورة على خليج بيسكاي الأطلسي، ولم يكن مسموحاً لهم التوجه إلى أي بلد إسلامي كانت قشتالة في حالة حرب معه، وقد حرمهم ذلك من الهجرة إلى معظم العالم الإسلامي، والأهم من ذلك كله أنهم لم يكن مسموحاً لهم اصطحاب أولادهم دون عمر الرابعة عشرة، وبناتهم دون عمر الثانية عشرة، الذين تقرر أن يُعطَوا لعائلات قشتالية، كي تنشئهم تنشئة نصرانية. وفي مختلف أنحاء قشتالة، تحول التعميد الجماعي إلى احتفالات مدنية، في حين كانت المساجد تُكرّس كنائس أو تهدم، وكانت العائلات المسلمة تُعمّد علناً بأكملها، وتتخذ أسماء نصرانية أمام حشود مبتهجة.

لم يكن دين الأندلسيين وحده هدفَ الاستئصال، وإنما ثقافتهم وتقاليدهم، التي كانت ترتبط في كثير من جوانبها بالإسلام. فأصدر حكام إسبانيا، بين عامي 1511 و1526، سلسلة من المراسيم الملكية والأوامر؛ قصد بها استئصال ثقافة الأندلسيين وتقاليدهم، التي رأوا أنها تعيق تبنيهم الصادق للنصرانية. وكان اللباس الأندلسي، وبخاصة لباس المرأة وغطاء الوجه النسائي المعروف بالملحفة، هدفاً لعدوانية خاصة من جانب المسؤولين ورجال الدين النصارى.

ثم جاء الدور على مسلمي أراغون، وهم الأقدم بين جماعات المدجنين[1] في إسبانيا كلها. لكن التنصير هنا لم يحدث بمراسيم من الدولة أو على أيدي موظفيها، وإنما عبر ثورة قامت بها الطوائف الحرفية المحلية،

(1) المدجّنون: هم المسلمون العرب والأمازيغ، الذين بقوا تحت حكم الممالك النصرانية واحتفظوا بدينهم، والمدجن من الفعل دجَن بمعنى أقام بموضع أو سكنه، لكن الأرجح أن الاسم مأخوذ من الخضوع والإذعان، باعتبار أنهم قبلوا العيش تحت سلطان أعدائهم [المترجم].

جمعت بين الراديكالية الاجتماعية والشوفينية الدينية. كان المسلمون العاملون في ضِياع ملاك الأراضي النصارى يشكّلون منافساً اقتصادياً للمزارعين النصارى. كما شكّل المسلمون جزءاً من الجيوش الإقطاعية والملكية، التي تصدت لثورة الطوائف. ولذلك فسرعان ما تحولت الثورة على الإقطاعيين «المتغطرسين» إلى حملة إبادة وتنصير «للأندلسيين الكفار». ومع أن الدولة والكنيسة لم تدفعا هذا التنصير أو تقفا وراءه، فإنهما قبلتا بنتيجته، ورفضتا مطالب ملاك الأراضي بنقض تنصير الأندلسيين، لأنه جرى تحت حد السيف. وأصدر الإمبراطور شارل في إبريل من عام 1525 مرسوماً أقر التعميد القسري. وكما حدث في غرناطة، فقد ثار مسلمو قشتالة وأغلقوا بلداتهم وقراهم بالمتاريس، لكن ضعف إمكاناتهم أدى إلى هزيمتهم هناك أيضاً، وتلا الهزيمة فرار بعضهم إلى شمال إفريقيا، وانضمام غالبيتهم إلى صفوف المُنَصّرين الجدد من الأندلسيين.

ظن المسلمون، عبر الانحناء للريح وقبول التعميد، أنهم سيُتركون وشأنهم، وحينها سيكون بمقدورهم أن يحافظوا على دينهم الإسلامي في حياتهم المنزلية وثقافتهم وعاداتهم، مع التخفي وراء واجهة نصرانية. لكن تعميدهم، الذي جرى تحت حد السيف بكل معنى الكلمة، أوقعهم تحت طائلة محكمة التفتيش، التي كانت معنية بالهرطقة بين النصارى فقط.

أنشئت محكمة التفتيش أول مرة في القرن الثاني عشر في إطار الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بهدف «محاربة البدع» وانتهاك «القانون الكنسي»، ثم توسعت بعدها إلى بلدان أوروبية أخرى. ومع أن محاكم التفتيش كانت تعقد بأمر بابوي، وتخضع للكنيسة الرومانية، فقد ضغط الملكان الكاثوليكيان على البابا لإنشاء محاكم تفتيش إسبانية تابعة للتاج للحفاظ على القوامة الكاثوليكية في ممالكهما، وبخاصة ضد هرطقات المُنَصّرين اليهود، ولاحقاً المُنَصّرين المسلمين. تعاملت المحكمة في البداية مع اليهود

المُنَصّرين، ونجحت فعلاً في قطع دابر اليهودية تماماً من إسبانيا. وعلى مدار القرن السادس عشر، كان المسلمون هم الضحية الأولى لمحكمة التفتيش التي مدت فروعها إلى كل المدن الحاوية مُنَصّرين أندلسيين. وحتى القرى والبلدات النائية لم تسلم من زيارات محكمة التفتيش الكريهة، التي كانوا يطلقون عليها اسم «محكمة الشيطان». وكانت محكمة التفتيش على حد وصف «ماثيو كار» شكلاً من الأجهزة الأمنية الحديثة، ولاسيما ما يعرف بأجهزة أمن الدولة أو الأمن الوطني، إذ كان الاختلاف أو الانشقاق الديني يعدان إضعافاً للدولة وخيانة لها، لذلك كانت مهمة المحكمة ضمان الوحدة الدينية والتماثل المطلق.

وبعد التنصير الأوّلي للمسلمين، أعفى حكام إسبانيا المسلمين من بطش محكمة التفتيش، وقدموا لهم برامج تبشيرية محدودة ويائسة، لم تفد إلا في تأكيد اليأس من تحويل المُنَصّرين المسلمين إلى نصارى حقيقيين. على أن اعتناق النصرانية حقاً - من منظور الحكام ورجال الدين الإسبان - استلزم القطيعة مع كل مفردات الثقافة الأندلسية، من عادات أكل ونوعية أطعمة وملابس، وبخاصة النسائية، واستخدام اللغة القشتالية ونسيان اللغة العربية، وممارسات الزواج ودفن الموتى وإدخال المواليد في الجماعة، ونبذ الموسيقى والرقصات الأندلسية، وهي قطيعة يصعب إنجازها حتى لو أرادت الجماعة المضطهَدة ذلك. وحين «أخفق» المورسكيون في الاستفادة من «الكرم والشهامة» الإسبانيين، وقاموا بثورتهم الكبرى التي عُرِفت بحرب البشرات (1568-1570) للحفاظ على هويتهم، أخضعوا لمعاملة وحشية من جانب محكمة التفتيش، لدرجة أن المسلمين شكّلوا 82٪ ممن حاكمتهم محكمة التفتيش الغرناطية بين عامي 1560 و1571، وهو نشاط جارتها فيه أفرع المحكمة في سرقسطة وبلنسية وأراغون وقشتالة. وظلت محكمة التفتيش تفتك بهم، حتى طردهم تماماً من إسبانيا

في نهاية العقد الأول وأوائل العقد الثاني من القرن التالي، كما ظل من بقي منهم بعد الطرد هدفاً لها، فبين عامي 1615 و1700 شكّل الأندلسيون 9٪ من ضحايا هذه المحكمة الدموية.

ورغم سخف المحاكمات التي كانت تفتش في «ضمائر» الناس بالتعبير الحديث، وتحاكمهم على جرائم تافهة مثل الاستحمام أو غسل الرأس أو غسل «أعضاء الجسم المخزية»، باعتبارها دليلاً على ممارسة الشعائر الإسلامية، فقد كانت المحكمة تحترم الشكليات وما نسميه اليوم «عدالة الإجراءات»، فكانت المحكمة تخصص أحد أعضائها للدفاع عن المتهم، مع أنه لم يكن يفعل شيئاً غير حث المتهم على الاعتراف. وكانت المحكمة تتبع ترتيبات وإجراءات ثابتة. فحين كانت تحط بمدينة أو قرية، كانت تبدأ بعد القداس بقراءة «مرسوم العفو»، الذي يحدد الهرطقات ويحض الرعية على الاعتراف للمحكمة بما ارتكبوه منها «لإراحة ضمائرهم»، أو الإبلاغ عن الآخرين الذين لديهم بيّنة على ارتكابهم هذه الهرطقات. ونظراً لأنه مرسوم «عفو»، فإن الأشخاص الذين كانوا يتطوعون بالاعتراف على أنفسهم في خلال فترة العفو (من ثلاثين إلى أربعين يوماً)، كانت المحكمة تتصالح معهم دون عقوبات قاسية. وبعد الاستعاضة عن «مرسوم العفو» بـ«مرسوم الإيمان»، ألغيت فترة العفو، في تحول نحو الشدة مع المهرطقين. وكان المخبرون أو الواشون هم مصدر المعلومات الأساسي للمحكمة في اتهام الناس وإدانتهم. وفي حالة المسلمين، كان جيرانهم النصارى يبلغون المحكمة عن جرائم لهم مثل «رفض أكل لحم الخنزير»، أو «التفوه باسم محمد» في لحظة غضب، أو التلبس بالاستحمام أو غسل «الأعضاء المخزية»، إلى غيرها من الجرائم السخيفة وغير العقلانية، التي عُذِب المسلمون وأحرقوا بسببها.

كان المتهم يحتجز أحياناً لسنوات قبل أن تفحص قضيته، بل وقبل أن

يعرف تهمته. وفي أثنائها، كانت تصادر ممتلكاته لتغطية تكاليف المحاكمة وإعاشته في السجن، مما دفع المتهمين إلى الفقر والعوز، حتى لو ثبتت براءتهم في النهاية، ثم تأتي المرحلة الأقسى من الإجراءات الشكلية وهي المحاكمة. وهنا تبرز السمة الأبشع للمحكمة وهي التعذيب، الذي كان يحدث بأدوات وأساليب يعرض الكتاب الحالي بعضها، منها المِخْلَعة والكعم والإغراق الكاذب والتكبيل في الحديد والتعليق في السقف والأذرع خلف الظهر مع ربط أثقال بقدمي المعذب.

وتحت التعذيب البشع، كان المتهمون يعترفون غالباً بالتهم، التي يراد منهم الاعتراف بها، وحينها تأتي الأحكام المتراوحة بين البراءة وتعليق المحاكمة، وهي نادرة جداً، والكفارة والنفي والغرامات والسجن والعزل في المعتزلات الرهبانية، أو تسليم المدان إلى «الذراع العلماني للدولة»، المرادف للإعدام حرقاً على الخازوق. ومن باب تأكيد المحكمة على الشكليات، كانت الإجراءات -إذا مات المتهم قبل تنفيذ الحكم- تستكمل، فتحرق المذنب عبر صورة أو تمثال له. لكن الحرق على الخازوق كان حكماً معتاداً في مدن المسلمين وقراهم، فقد شكّل على سبيل المثال 40٪ من الأحكام، التي أصدرتها محكمة التفتيش البلنسية بعد عام 1530.

وأياً كانت العقوبة، فقد قُدِّم المدانون في العرض التكفيري auto de fe، الرامز إلى عودة المذنب إلى الكنيسة في حالة عدم الإعدام، أو بث الرعب في نفوس الآخرين في حالة المدانين المحكوم عليهم بالإعدام. حضرت هذه العروض القيادات الدينية والعلمانية بالمدينة أو المملكة أو حتى الإمبراطور نفسه إن كان موجوداً، فضلاً عن حشود كبيرة من عامة الناس، حيث كانت تقام في أوسع الميادين وفي أيام الإجازات. وكانت العروض التكفيرية تبدأ عادة من الليلة السابقة بمواكب «الصليب الأخضر» للإعلان عن الحدث، وتدوم طيلة اليوم، وتبدأ بقداس

كاثوليكي، وصلاة، ثم استعراض عام للمدانين أمام الجمهور، ثم قراءة الأحكام، ثم اقتياد المدانين إلى مكان الحرق، وسط تهليل الغوغاء ورجمهم للمدانين، ومحاولة اختطافهم من أيدي الجنود، وأخيراً يشد المدان إلى خازوق فوق كومة من الحطب، ويحرق حياً، وسط أصوات مبتهجة من الغوغاء، واستحسان من رجال الدين والدولة.

كانت هذه محكمة التفتيش التي أُخْضِع لها المسلمون بعد تنصيرهم القسري. ومع اشتداد نشاطات «الجهاد البحري»، الذي يسميه الغربيون «القرصنة»، على المدن الساحلية والسفن الإسبانية من جانب حكام شمال إفريقيا ومسلميه، اشتدت محكمة التفتيش في مطاردة الموركسيين بتهم الخيانة والتعاون مع القراصنة والتخطيط للثورة بمساعدة السلطان العثماني وحكام شمال إفريقيا، إلى جانب التهم القديمة المتعلقة بممارسة الإسلام سراً.

كشفت تحقيقات محكمة التفتيش عن وجود «حياتين متوازيتين» كان الموركسيون يحيونهما في نشاطاتهم اليومية. فكانوا نصارى على السطح، ومسلمين من الداخل، وهي الازدواجية التي تمسكوا بها بعد وصول فتاوى إليهم، منها فتوى مفتي وهران أحمد بن جمعة، التي تحثهم على «التمسك بدينهم كالقابض على الجمر» مع مصانعة النصارى بأداء الشعائر النصرانية المفروضة عليهم. فكانوا يصومون رمضان، ويحتفلون بالأعياد الإسلامية، ويصلون في بيوتهم ليلاً، فرادى أو جماعات. وقد كشفت محكمة التفتيش حالات صلاة جماعية، وخطباً دينية، واجتماعات سرية لقراءة القرآن، والاستماع لخطب الفقهاء والوعاظ المتجولين. وكانوا بعد أن يعمِّدوا أطفالهم في الكنائس، يرجعون إلى بيوتهم ليغسلوهم جيداً من زيت التعميد، ثم يقومون بطقوس التسمية والعقيقة والختان في سرية تامة. وهو ما كان يحدث أيضاً في الزواج ودفن الموتى، عبر أمثلة بطولية

كثيرة لرفض القهر والانصياع للغالبين.

وكانت النساء المورسكيات، كما أكد رجال الدين النصارى مراراً وتكراراً، أقوى حراس التقاليد الإسلامية، وربما كن لذلك هدفاً لمراسيم وإجراءات تقييدية كثيرة. ويقدم الكتاب أمثلة رائعة لمورسكيات دافعن عن تقاليدهن دفاعاً أشد من الرجال، فمنهن إيزابيل دي مدريد التي اعتقلت لأنها ردت على سب النصارى لها بـ«كلبة أندلسية» بالقول: «أنا أندلسية، وأبي وأمي كانا أندلسيين وماتا أندلسيين، وأنا أيضاً أندلسية، وسأموت أندلسية»، وماريا لا مونخا، التي قالت لمحكمة التفتيش بقونكة: «إن العالم كله لن يوقفها عن القول إنها أندلسية، فذلك كان مصدراً عظيماً للفخر بالنسبة إليها»، ولويسا ايرنانديث من بلدة تيناخاس بقونكة، التي قدمت لمحكمة التفتيش لأنها فقدت أعصابها وصاحت قائلة: «الأندلسي الواحد يساوي عشرة من النصارى» وذلك حين سمعت طفلاً مورسكياً يهان في الشارع[1]. ومنهن أيضاً المورسكية ثركمودونيا التي قاتلت بسيف ودرع، وقيل إنها قتلت ثمانية عشر جندياً نصرانياً بيديها في حرب البشرات، وسعى الجنود النصارى لاقتناصها بالرصاص للتغلب على تأثيرها الملهم في المدافعين الآخرين. ومنهن أيضاً مورسكية أخرى قاتلت في الشوارع في هذه الحرب بسيف في يد، وتحت ذراعها الآخر أخواها الصغيران قبل أن يقتل ثلاثتهم.

ومع تتويج فيليب الثاني، دخلت إسبانيا فترة عاصفة من تاريخها كانت

(1) لاحظ أن الناس في ذلك الزمان كانوا يخلطون أو يماهون بين القومية، أو العرق إن شئت، والانتماء الديني، فكان الإسلام قومية ووطناً للأندلسيين وكذلك المسيحية بالنسبة إلى الإسبان، ولذلك فإن التعبير عن الانتساب «للقومية الأندلسية» هو شكل آخر للتعبير عن الانتماء للإسلام، ولايزال هذا الخلط قائماً إلى اليوم في الكتابات الغربية التي تستخدم كلمة «الإسلام» للإشارة إلى المسلمين أو العرب، وفي فكرة الأمة الإسلامية عند تيارات الإسلام السياسي [المترجم].

لها نتائج درامية على الموريسكيين، فدخلت إسبانيا عدداً من الحروب مع إنجلترا البروتستانتية والثوار الكالفينيين الهولنديين والهوغونوت الفرنسيين. وبالتوازي مع ذلك شدّدت الدولة حربها على المهرطقين في الداخل. وفي ذلك، قال فيليب للبابا بيوس الرابع في عام 1564: «إنني أفضل أن أفقد كل ممالكي وأن أفقد حياتي مئة مرة لو استطعت، على أن يلحق أي أذى بدين الله الحقيقي، فأنا لن أكون يوماً حاكماً لزنادقة». وجاءت المواجهة بين إسبانيا والإمبراطورية العثمانية لتزيد موقف الموريسكيين سوءاً، لأنهم كانوا يُتهمون دائماً بأنهم «طابور خامس» للأتراك ولحكام شمال إفريقيا داخل إسبانيا. وتناوبت على الموريسكيين في هذه السنوات فصول من التبشير اليائس والإخضاع لمحكمة التفتيش، والأوامر والمراسيم التي تستهدف القضاء على ثقافتهم.

كان من أشد هذه المراسيم تقييداً للحريات الموريسكية، وافتئاتاً على ثقافتهم، مرسوم غرناطة، الذي أصدره فيليب في نوفمبر 1566، والذي تضمن حظر استخدام اللغة العربية والحمامات العامة الأندلسية، واللباس الأندلسي، وبخاصة غطاء الوجه النسائي، ومنع الموسيقى والرقصات الأندلسية، وحرق الكتب والمخطوطات المكتوبة باللغة العربية، ومنعهم من غلق أبواب بيوتهم في أيام الجُمع، لضمان عدم تأدية الصلاة. وجاء تعيين بيدرو دي ديثا عضو المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش الطموح والمعادي للموريسكيين رئيساً لمحكمة غرناطة، ليزيد الموقف تفجراً، إذ صمم على تطبيق المرسوم بحذافيره، رغم محاولات العقلاء من أمثال الوجيه الموريسكي فرانثيسكو نونيث مولاي تخفيف حدة اشتراطات المرسوم. ورفض الموريسكيون المرسوم وحاولوا أن يشتروا بالمال عفواً أو إرجاء له من فيليب، كما كانوا يفعلون مع أبيه، لكن دون جدوى. وهنا بدأ الإعداد السري للثورة الكبرى المعروفة بحرب البشرات، بتجنيد الرجال

والاتصال بحكام شمال إفريقيا والسلطان العثماني طلباً للمساعدة وتخزين الأسلحة انتظاراً للحظة انطلاق الثورة. وبدأ ابن جهور الصغير يحرض الموركسيين على الثورة ويجمع أسماء المستعدين للانضمام إليها. وفي نهاية عام 1568، انتخب الثوار موريسكياً يدعى فرناندو دي بالور؛ ارتد إلى اسمه الأندلسي محمد بن أمية، سلطاناً للأندلس.

كانت حرب البشرات من أكثر الحروب «الأهلية» الإسبانية دموية، لدرجة جعلت مندوسه مركيز موندخار يطلق عليها اسم «الحرب القذرة». لجأ الثوار كالعادة إلى جبال البشرات لوعورتها وكثرة الموركسيين فيها. وكالعادة أيضاً صب الثوار جام غضبهم على رجال الدين المحليين. وعلى منوال الحروب والثورات السابقة، تميزت هذه الحرب بدرجة من الدموية من جانب الإسبان أدانها حتى بعض المحاربين والمؤرخين الإسبان. كانت هذه الحرب غير متكافئة بكل المقاييس؛ فالثوار كانوا في الغالب يقاتلون بحجارة وأسلحة قديمة في مقابل جيش كان من أقوى جيوش أوروبا؛ عركته حروب متواصلة على جبهات كثيرة. ولذلك فرغم بسالة الثوار واستماتتهم في القتال، هزموا وأَخَذت مدنهم وقراهم تتساقط الواحدة تلو الأخرى. وتجلت وحشية الإسبان في الإعدام الفوري لقرى كاملة وبيع آلاف الأسرى لتجار العبيد، الذين كانوا يرافقون الجيوش النصرانية. وهنا أيضاً أثبتت المرأة الموركسية قوة وعزة فريدتين، إذ قاتلت جنباً إلى جنب مع الرجال، وبعد الهزيمة فضلت كثيرات منهن أن يلقين بأنفسهن وأطفالهن من فوق الجبال رفضاً لذل العبودية أو الاغتصاب من جانب الجنود النصارى. ودبّ الخلاف في قيادة معسكر الثوار، وقتل ابن أمية في ظروف غامضة، وعين عبدالله بن عبو خلفاً له، وحاول الأخير أن يواصل الجهاد، لكن تكالب الجيوش النصرانية التي استدعيت من الخارج أدى في النهاية إلى تشتيت الثوار من حوله. وظل ابن عبو يقاتل إلى

أن قتل وأحرقت جثته، وبذلك انتهت آخر الحروب الكبرى للمسلمين في الأندلس.

وبعد «الهزيمة» جاء «العقاب»، إذ أمر فيليب بإبعاد المسلمين عن غرناطة. فأبعد الموريسكيون أولاً في يونيو 1569 عن ربض البيازين، ثم أبعد كل الموريسكيين من غرناطة إلى قشتالة. وهكذا اجتمعت على الموريسكيين الغرناطيين «حرب قذرة» تلاها مباشرة تشريد وإبعاد عن بيوتهم ومدنهم وقراهم. ففي وسط الأمطار الغزيرة وثلوج الشتاء الأولى، اقتيد الموريسكيون إلى نقاط تجميعهم في غرناطة فيما وصفه دون خوان أنه «أبشع منظر في العالم، ذلك أنه في لحظة المغادرة هطلت أمطار وثلوج غزيرة وعصفت الرياح، فالتصق هؤلاء القوم المساكين ببعضهم وهم ينوحون». وقد أبعد الرجال أولاً، تلتهم النساء في مرحلة تالية، وقد وصف خينيس بيريث دي هيتا النساء الموريسكيات وهن «يبكين وينظرن إلى بيوتهن ويعانقن جدرانها ويقبلنها مرات ومرات، متذكرات ماضيهن المجيد وإبعادهن الحالي والمستقبل المشؤوم الذي ينتظرهن» في إبعاد جماعي شبّهه بسقوط طروادة. وكثير من العائلات لم يلتئم شملها ثانية، وتعرض الكثير من الموريسكيين للاختطاف في أثناء الترحيل من جانب اللصوص ومرافقيهم أنفسهم، لبيعهم عبيداً في أسواق النخاسة الإسبانية، التي راجت تجارتها رواجاً كبيراً على حساب الثورة والثوار.

ورغم هزيمة الثوار وقتل عشرات الآلاف من الموريسكيين، ورغم إبعاد المسلمين الغرناطيين عن بيوتهم وتشتيتهم في قشتالة، ظل الموريسكيون في أراغون، وتحديداً في بلنسية، يشكّلون «الخوف الكبير» للحكام ورجال الدين الإسبان. كانت محكمة التفتيش هي المولّد لهذا الخوف بما روّجته من تقارير حول وجود اتصالات بين الموريسكيين والسلطان العثماني وحكام شمال إفريقيا. وبالفعل كان الموريسكيون يقدمون الدعم المعلوماتي

لقراصنة شمال إفريقيا في غاراتهم على السواحل الإسبانية. وإلى جانب إطلاق يد محكمة التفتيش، التي أفنت عائلات كاملة وأخضعت قرى وبلدات كاملة، لتحقيقات متواصلة كان الحرق على الخازوق معتاداً فيها، كما تعرض المورسكيون لحملات متكررة لمصادرة الأسلحة، ومنعوا من العمل في الحرف المتعلقة بإنتاج السلاح، وأبعدوا عن المناطق الساحلية تماماً.

وهكذا، دُفع الأندلسيون إلى أسفل السلم الاجتماعي، ورُكّزوا في مهن وحرف «متواضعة» مثل البغالين والباعة المتجولين، حتى باتوا في نظر الإسبان «أراذل الناس». وهنا يقدم ماثيو كار نظرية مفيدة لتفسير التمييز والاضطهاد. يرى كار أن التمييز، سواء بسبب الدين أو العرق أو البيولوجيا أو الثقافة أو غيرها من أوجه الاختلاف، يستخدم دائماً لتبرير الهيمنة والإقصاء، وحتى الإبادة، من جانب الجماعة التي تفترض في نفسها التفوق. صحيح أن كراهية الإسلام وماضي السيطرة الإسلامية على إسبانيا كانت من أسباب التمييز ضد المسلمين واضطهادهم، لكن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية تتجلى أيضاً في شروط المُقْطعية[1] المجحفة، التي قبل بها المسلمون من مُقْطِعيهم[2]، ولم يكن يقبل بها الفلاحون النصارى، وكانت كذلك سبباً في سخط المُقْطَعين[3] النصارى على نظرائهم المسلمين في ثورة الطوائف الحرفية. ولكي يقبل الفرد أو الجماعة المعينة العمل بمهن «حقيرة» وتقاضي أجور أقل، وقبول ظروف عمل سيئة، ومكانة اجتماعية دونية، لا بد أولاً من سرديات الوضاعة، التي تحتقرهم وتحط من شأنهم، أياً كانت أسباب هذه الدونية دينية أو

(1) المُقْطعية vassalage حالة المُقْطَع أو شروط إقطاع الأرض له [المترجم].

(2) المُقْطِع سيد إقطاعي تستأجر منه الأرض [المترجم].

(3) المُقْطَع vassal شخص يقطعه السيد الإقطاعي أرضاً لقاء إيجار أو حصة من المحصول وتعهده بتقديم المساعدة العسكرية إليه [المترجم].

عرقية أو بيولوجية أو غيرها، ولا بد أيضاً أن تستدمج الجماعة المضطهَدة هذه السرديات، ويتجلى ذلك في التخوف الذي أبداه رئيس أساقفة بلنسية خوان دي ريبيرا لمساعده خايمي بليدا من طرد الموركسيين من إسبانيا، حين قال: «ربما نضطر في المستقبل لأن نأكل الخبز والأعشاب ونصلح أحذيتنا بأنفسنا». فرئيس الأساقفة، الذي أسهم أكثر من أي شخص آخر في طرد المسلمين لعدم صدقهم في النصرانية، لم يخش على «خلاص أرواحهم» كما كان يتشدق دائماً، وإنما خشي من فقدان عبيد طائعين.

ومن الغريب أن اشتداد اضطهاد النصارى الإسبان للمسلمين كان في جزء منه ناتجاً عن ممارسة أوروبا شمال البرانس للتمييز ضد الإسبان أنفسهم. فمن غرائب علم اجتماع التمييز والاضطهاد البشريين، أياً كان مبرره، أن الجماعات التي تمارس التمييز ضد غيرها وتحتقرها، تكون هي نفسها موضوعاً للتمييز والاحتقار من جانب جماعات أخرى، ومثال ذلك أن الرأي العام الشعبي والرسمي في أوروبا على امتداد العصور كان يرى أن إفريقيا «البربرية والهمجية» تبدأ من جنوب البرانس، بمعنى أنها تضم إسبانيا نفسها التي كانت ترى نفسها على قمة هرم الحضارة. وبذلك نكون إزاء ممارسة التمييز والاضطهاد أمام هرم، يمارس فيه كل مستوى أعلى التمييز ضد كل مستوى أو مستويات أدنى منه. وعلى هرم التمييز والاضطهاد، تمارس الجماعات الوسيطة أشد درجات العنف والقمع ضد الجماعات الأدنى منها، كي تثبت وحسب للجماعات الأعلى أنها جزء منها، وكي تطهر نفسها من الدونية التي تنظر إليها بها الجماعات الأعلى على الهرم بدماء وأشلاء الجماعات الأدنى. فهنا تندفع الجماعات الوسيطة بعقدة النقص لديها إلى اضطهاد الجماعات «الأدنى» أو محل اضطهادها، كي تفصل وحسب نفسها عنها وتتبرأ منها.

ودخلت «المسألة الموركسية» طوراً جديداً مع تعيين خوان دي ريبيرا

رئيساً لأساقفة بلنسية في عام 1568؛ ذلك الرجل المتعصب والمتعالي الذي لعب الدور الأكبر، يليه مساعده خايمي بليدا، في طرد الموركسيين من إسبانيا. بدأ ريبيرا بتقديم برامج تبشيرية للمسلمين للتغلب على نقص إيمانهم النصراني وطلب لهم العفو من الملك. لكنه سرعان ما أعلن يأسه منهم، مما جعل ماثيو كار يشك في أن الرجل إنما بدأ هذه البداية كي يؤكد للملك استحالة تحويل الموركسيين إلى نصارى صادقين. من أدلة ذلك أنه حثّ الكهنة العاملين في المناطق الموركسية على مواصلة «العمل مع أولئك الناس الذين يمقتوننا»، وطمأنهم إلى أن الإخفاق في بلوغ نتائج ملموسة سيكون إيجابياً لإسبانيا «لأن صاحب الجلالة ... سيطهرها من الكفار».

وجاءت النهاية حين اعتلى فيليب الثالث العرش ومعه مستشاره الفاسد الدوق ليرما، الذي اكتمل بوجوده أبطال مسرحية الطرد: ريبيرا وبليدا وليرما وفيليب الثالث. كان فيليب الثالث حاكماً متردداً، وكان إلى درجة كبيرة ألعوبة بأيدي معاونيه. ومع تحسن الوضع الدولي لإسبانيا بعد انشغال الإمبراطورية العثمانية عنها بمشكلاتها في الأناضول وبلاد فارس وتوصل إسبانيا إلى اتفاقيات سلام مع فرنسا ثم مع أعدائها في شمال أوروبا، استطاع ثلاثي الطرد أن يدفعوا فيليب إلى اتخاذ القرار بطرد جميع الموركسيين من إسبانيا. فبعد سيل من التقارير من ريبيرا وأمثاله وبعد توصية مجلس الدولة أكثر من مرة بطرد الموركسيين، أمر فيليب الثالث في الثالث والعشرين من يونيو 1609 بالشروع فوراً في طرد الموركسيين إلى شمال إفريقيا. وبدأت عمليات وحشية لاجتثاث أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف موركسي من بلادهم. وفي صبيحة الرابع والعشرين من سبتمبر 1609، أخذ المنادون في مدينة بلنسية يعلنون مرسوم الطرد بمصاحبة الطبول والقرون والأبواق. وبدأت قوافل الإبعاد تسوق المطرودين من

مدنهم وقراهم إلى المدن الساحلية التي جرى شحنهم منها بالسفن إلى سواحل شمال إفريقيا. وشملت المرحلة الثانية من الطرد مسلمي غرناطة ومرسية وأندلوسيا، والمرحلة الثالثة مسلمي قشتالة، وبعدها أراغون وقطلونية.

تعرض المورسكيون لأهوال كثيرة حتى قبل أن يغادروا بيوتهم. فكان النصارى يهجمون عليهم في بيوتهم لسرقة ممتلكاتهم وقتلهم في حالات كثيرة. وفي أثناء الترحيل إلى الموانئ تعرضوا إلى السرقة والاختطاف، حتى من جانب الجنود المرافقين لهم. وكانت المآسي الأكبر في انتظارهم على السفن التي تآمر عليهم بحارتها في حالات كثيرة، فسرقوا ممتلكاتهم واغتصبوا نساءهم، وألقوا بهم في البحر أو باعوهم عبيداً أو ألقوا بهم على شواطئ معزولة. وحتى المورسكيون الذي هاجروا براً عن طريق فرنسا، لم تخلُ رحلتهم من السرقة والابتزاز والقتل في بعض الأحيان. ومن المورسكيين أيضاً من رفض الطرد ولجأ إلى الثورة، وهؤلاء قمعتهم الجيوش النصرانية وباعتهم لتجار العبيد واقتادت بعضهم إلى السواحل لإبعادهم. وحتى بعد الوصول إلى شمال إفريقيا، تعرض بعضهم للقتل والسرقة والاغتصاب من القبائل البدوية الخارجة على القانون.

وتواصلت عمليات الطرد إلى أن أعلن فيليب في شهر أغسطس 1614 الإنهاء الرسمي للطرد. وفي أقل من خمسة أعوام، طرد حكام إسبانيا زهاء ثلاثمائة ألف رجل وامرأة وطفل إلى المنفى أو أرسلوهم إلى الموت، واستأصلوا آخر بقايا الحضارة الأندلسية، التي بدأت قبل ألف عام تقريباً، حين وصلت جيوش طارق بن زياد أول مرة إلى الصخرة التي حملت اسمه.

وفي الفصل الأخير وتحت عنوان «الحساب»، يعدّد المؤلف أشكال الخراب التي لحقت بإسبانيا جراء الطرد. فقد أخليت مئات القرى من

سكانها، وتعطلت أراض شاسعة عن الإنتاج، ودخلت إسبانيا انحطاطها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الطويل. لقد قدم رجال الدين المتعصبون الطرد باعتباره مرضاة لله بإبعاد الكفار، على أمل أن رضا الله الناتج عنه سيفتح لإسبانيا آفاق التقدم والتوسع والانتصار على أعدائها. لكن على خلاف ذلك، كان القرن السادس عشر هو آخر عهد إسبانيا بالقوة والهيمنة، وظلت في تراجع مستمر حتى آخر عهد الدكتاتور فرانكو في أواخر القرن العشرين.

وكما بدأ كار كتابه بمدخل أبرز فيه أن مأساة الموريسكيين كانت دوماً جزءاً من دينامية متواترة تكررت في سياقات أخرى كثيرة سعت فيها أغلبية مهيمنة إلى إعادة صياغة هويتها أو تعريفها عبر الاستئصال المادي لأقليات يفترض أنها غير متجانسة، وأن وجودها مدنّس أو مفسِد، يختتم الكتاب بخاتمة تعد بياناً للتعايش وقبول الآخر والاختلاف. يبرز كار في خاتمته التماثل والتطابق بين خطاب إسبانيا القرن السادس عشر «الكاثوليكية» المعادي للإسلام والرافض للتعددية، الذي اعتبر اختلاف الثقافة نقصاً في الوطنية ومبرراً للطرد من جانب، وخطاب معاداة الإسلام ورفض الثقافة الإسلامية في الغرب المعاصر «العلماني» من جانب آخر.

فيرصد كار الحركة في الموقف الأوروبي من الأقليات والمهاجرين نحو الأحادية الثقافية، وتخوين تعبيرات الاختلاف الثقافي، وسرديات الخوف من الهلاك السكاني الوشيك بسبب ارتفاع الخصوبة الإسلامية، وشيخوخة المجتمع الأوروبي.

* * *

لقد أراد ماثيو كار بكتابه أن يذكّر القراء الغربيين في الأساس بمأساة شعب حوربت ثقافته بأبشع الأساليب، واجتث من أرضه أخيراً بسبب الاختلاف في الدين والثقافة، كي يبرز لهم أن التضييق على المسلمين

وغيرهم من المهاجرين في أمور الدين والثقافة في الوقت الراهن لا يختلف كثيراً عما كانت تفعله الحكومات الدينية في إسبانيا وأوروبا فيما قبل العصر الحديث.

وإذا كان المؤلف «الغربي» قد وجد أن الدرس الأول الذي يمكن استخلاصه من قصة الموريسكيين يكمن في تحذير الغرب من الانسياق وراء الخطاب الشوفيني المعادي للإسلام ومفردات الثقافة الإسلامية حتى لا يجد الغرب نفسه في مربع إسبانيا «الكاثوليكية»، إذا كان هذا كذلك، فإن القارئ العربي يمكن أن يستخلص دروساً أخرى من الكتاب منطلقاً من واقع مجتمعه وظرفياته.

وأول هذه الدروس- في رأيي- هو التماثل الذي يكاد يصل حد التطابق بين حالة الهوس الديني في إسبانيا القرن السادس عشر والخطاب الديني «الدعوي» الذي فرض نفسه على المجتمعات العربية بعد «ثورات الربيع العربي». وأنا أقصد بالخطاب الدين «الدعوي» أو نسخة الإسلام «الدعوي»، ذلك الخطاب وتلك النسخة التي يروّج لها من يسمون بـ«دعاة» الفضائيات، الذين لا ينتسبون في الغالب إلى المؤسسات الدينية الرسمية، مثل الأزهر في مصر. وهؤلاء في معظمهم أناس لم يدرسوا الدين بروية، مقتبلَ حياتهم، في مدارسه وجامعاته، وإنما تخرجوا في غالبيتهم من تخصصات غير دينية، ثم درسوا الدين إما من الكتب أو على أيدي «دعاة» آخرين، ولذلك تجدهم- في مصر مثلاً- ساخطين على الأزهر وعلمائه، ورافضين مرجعيته. ومنهم أيضاً خريجون من الأزهر لم يحصلوا فيه على المكانة «التي يستحقونها»، ولذلك أيضاً تجدهم ناقمين على الأزهر كمؤسسة، ويزايدون على علمائه لسحب البساط من تحت أقدامهم. ويفترض من اسمهم أنهم مكرسون «للدعوة» إلى الإسلام بين المسلمين، بما يتضمنه ذلك من أن المسلمين يحتاجون للدعوة كغير

المسلمين. ونظراً لأنهم تعلموا الدين في سنوات قليلة على طريقة «حرق المراحل»، فقد وقعت غالبيتهم في الظن بأنهم كانوا في جاهلية قبل دراسة الدين، ورأوا المجتمع كله في حالة جاهلية ينبغي أن تقاوم وتصحح، أو بالأحرى تبدد بـ«فتح» و«إسلام» جديدين.

فثمة تشابهات مذهلة بين الخطاب الديني التكفيري الحاقد في إسبانيا زمن الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش من جانب، والخطاب الديني «الدعوي» العربي في أيامنا من جانب آخر. فالاثنان قائمان على «تديين» كل شيء في المجتمع، بمعنى النظر في كل أمر من منظور الدين أولاً وأخيراً، مع تبني رؤية سطحية وقشرية للدين، وبث الحقد والكراهية تجاه المخالفين في الرأي داخل الدين الواحد والمذهب الديني الواحد، وليس خارجه فقط.

يتجلى التشابه بين الخطاب الديني في إسبانيا القرن السادس عشر «الكاثوليكية» والخطاب الإسلامي «الدعوي» لدى عرب العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين في اقتراف أبشع الأفعال أو تبريرها باسم الدين ومرضاة لله وطلباً للتأييد الإلهي.

كان رجال الدين الإسبان يصفون المسلمين دوماً أنهم عرق ملعون، وكفار فاسقون، وبرابرة دون مرتبة البشر، ووحوش لهم رؤوس الكلاب، وذئاب مفترسة وكلاب ضارية، وما إليها. وهي الأوصاف نفسها التي نعتوا بها النصارى المخالفين لهم في الرأي أو المذهب ممن أطلقوا عليهم المهرطقين. ولعل من اللافت للنظر أن نجد الإسلام «الدعوي» عندنا قد تجاوز نعت غير المسلمين بالكفار إلى تكفير المسلمين أنفسهم المخالفين له في الرأي، داخل مذهبه «السني» نفسه وليس أتباع المذاهب الأخرى، بل أخذ مروّجو هذا الخطاب يسبّون مخالفيهم بأنهم «صراصير» و«كلاب» و«لوطيون» و«أنجاس» و«دنس» إلى غيرها من الشتائم، التي ستجدها

تتواتر كثيراً على ألسنة رجال الدين الكاثوليكيين في القرن السادس عشر، والتي لم تكن معتادة من علماء الدين المسلمين. حتى إن بعضهم برّر ما نسب إليهم من سب وشتائم بأن الرسول الكريم كان يسب ويلعن، بل زعم بعضهم أن الرسول كان يأمر بتعذيب الناس لإنطاقهم باعترافات. ثمة تشابه- إذن- بين نسخة من الإسلام تستبيح لعن المخالفين وتكفيرهم وتبرر ذلك باتباع الرسول، والمسيحية الأوروبية فيما قبل العصر الحديث.

ومما يرتبط بذلك في كتابنا أنك ستجد أن رجال الدين كانوا المحرك لكل عمليات القتل والإبادة والتطهير والتهجير والاضطهاد والتعذيب وبث الحقد والكراهية في نفوس أتباعهم تجاه المسلمين والمخالفين في الدين من أصحاب الديانات الأخرى، أو حتى داخل المذهب المسيحي الواحد. وستجد أن رجال السياسة كانوا دوماً أقرب إلى الرفق والحلول غير العنيفة من رجال الدين، وستجد أن من رجال الدين من قدم اقتراحات بشعة للتخلص من الأندلسيين، من قبيل الحرق والإخصاء ووضعهم في سفن بلا أشرعة ثم خرقها في عرض البحر إلى غيرها من اقتراحات كان رجال الدولة غير الدينيين يرفضونها ويشمئزون منها. بل إن رجال الدين الإسبان، كما يرد كثيراً في هذا الكتاب، كانت تؤرقهم مظاهر التعايش وقبول الآخر التي شهدوها بين المسلمين والنصارى. فقد كان عامة الناس من أتباع الدينين الكاثوليكي والإسلامي مستعدين دوماً للتعايش والاندماج في هوية ثقافية واحدة مزيج من الثقافتين، وقد فعلوا ذلك في حالات كثيرة. لكن المؤسسة الدينية ورجالها كانوا يعتبرون ذلك خطراً على الدين الكاثوليكي، ولذلك أصدروا القوانين للفصل بين الجماعتين وتمييز المسلمين في الفضاءات العامة، وأخذوا في بث العنف والحقد والكراهية في أتباعهم تجاه المسلمين.

ليس غريباً- إذن- أن الحروب الدينية قديماً كانت أشنع الحروب،

وأن خطوط الفصل والاصطفاف الديني أو الحضاري حديثاً من أصعبها تجاوزاً. وليس غريباً أيضاً أن تجد عامة الناس، في العروض التكفيرية، يقطّعون المحكوم عليهم بالإعدام حتى قبل أن يصلوا إلى محارقهم. كيف لا وهم قد بُشّروا بأن ذلك طريق إلى الجنة وتقرب إلى الله؟ وكيف لا وهم يتعرضون إلى شحن يومي يطفح بالكراهية والازدراء لهؤلاء المختلفين في الدين؟

لذلك أجد أن الحدث الأسعد في التاريخ الإنساني، كما يوحي لي هذا الكتاب، هو انتقال أوروبا إلى العصر الحديث، بقيمه ومبادئه وأفكاره الجديدة القائمة على الحرية عموماً وحرية العقيدة والضمير والتسامح وقبول التنوع، ليس فقط لأن أوروبا شقت بذلك طريقاً للبشرية سارت فيه كل أمم الأرض وشعوبها وحضاراتها وثقافاتها خلفها، وإنما لأن الأوروبيين كانوا الأشد تعصباً وتطرفاً في دينهم بين أمم الأرض وشعوبها. فلو لم ينتج هذا التحول غير إراحة البشر، والأوروبيين أنفسهم، من ويلات الحروب الدينية والتعصب الديني الأوروبي لكفى به نتيجة. وربما بسبب هذا التطرف في «تديين» المجتمع نفسه كانت أوروبا أول الناجين من صيغ الحكومات الدينية وسيطرة الدين الرسمي على حياة الناس، كما سيرد بعد قليل.

ففي مقابل المؤلف الذي رأى أن الدرس القادم من إسبانيا القرن السادس عشر النصرانية يتمثل في تحذير أوروبا المعاصرة من الانجرار إلى خطاب النقاء الديني وتخوين الأقليات الدينية، يرى المترجم أن تحذيراً مماثلاً يجب أن يرفع في وجه أصحاب الإسلام «الدعوي»، الذين اقتربوا في خطابهم كثيراً من خطاب رجال الدين الإسبان في مبالغتهم في «تديين» المجتمع، ورفضهم للمخالفين في الرأي وتفكيرهم وتخوينهم، وفي فحشهم وبذاءتهم في وصف الخصوم والمخالفين، وقبل كل شيء في

استغلال الدين لبلوغ القوة، سواء أكانت سلطة أم مالاً.

أما الدرس الثاني الذي يلّح عليه الكتاب، وهو مرتبط بالدرس الأول، فهو أن إسبانيا النصرانية لم تكن يوماً دولة دينية أو «ثيوقراطية» كما يحب أنصار الإسلام «الدعوي» أن يقولوا! فالدولة الدينية هي التي يقع على رأس هرم السلطة فيها رجل دين أو رجال دين. وهذه الحالة لم تتوافر في إسبانيا، أو في معظم الدول الغربية، إبان الفترة التي ننعتها بفترة «الدول الدينية». فباتباع التصنيف المسيحي «ديني» و«علماني»، يفترض أن تكون الدولة التي يحكمها شخص من غير رجال الدين دولة «علمانية» أو على الأقل دولة غير دينية. وهو ما أرى أنه ينطبق على إسبانيا وغيرها من الدول الأوروبية فيما قبل العصر الحديث. فالناس في أوروبا وإسبانيا كانوا ولا يزالون «يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ولم يتنازل الملوك يوماً عن سلطتهم لأحد باسم الدين ولم يقبلوا بأن يصبح لهم أنداد، حتى وإن كان البابا نفسه، الذي بدت سلطته روحية فقط، تماماً كما هي الآن.

لكن إذا كانت الحال كذلك، فما وجه الاختلاف بين أوروبا العصور الوسطى وأوروبا الحديثة؟ ومن أين جاءت فكرة فصل الكنيسة عن الدولة إذن؟ أعتقد أن ما عاشته أوروبا في عصورها المظلمة لم يكن «دولاً دينية» بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما دول غير دينية انطبعت بحالة من الهوس الديني. فإسبانيا مثلاً كانت تحكمها أسر ملكية، قد يلقب بعض أفرادها بألقاب دينية، لكنها أولاً وأخيراً حكومات غير دينية. ومصدر الالتباس يكمن في حالة الهوس الديني، التي سيطرت على إسبانيا وأوروبا ووجدت طريقها إلى الحكام والحكومات، وسعى رجال الدين جاهدين خلالها إلى تلبيس الحكام بها. ونجا منها حكام من أمثال ألفونسو العاشر القشتالي حتى فيرديناند الأراغوني نفسه، في حين وقع خلفاؤهما في حبائلها. بل يمكن القول، على خلاف فكرة الحكومة الدينية أو «حكم الدين»،

أن الدين في الحالة الأوروبية استخدم من جانب الحكام ورجال الدين لأغراض سياسية واقتصادية واجتماعية نفعية، بمعنى أنه حُكِم ولم يحكم. وتلك هي طبيعة الأمور، لأن الدين لا ينطق وإنما ينطق به الرجال. صحيح أن البابا حاول في بعض الحالات أن يخلع بعض الحكام، كما في حالة جون ملك إنجلترا في نهاية العقد الأول من القرن الثالث عشر، لكن على طول الطريق كان الدين يستخدم من جانب الحكام «غير الدينيين» لتطويع رعاياهم، وفي أحيان كثيرة رغم أنف البابوية، وحتى في هذه الحالة الاستثنائية، نجح جون في البقاء على عرشه بدفع جزية للبابا إنوسنت الثالث.

يكمن الفارق- إذن- بين أوروبا الحديثة وما سبقها في حالة الهوس الديني التي روّج لها رجال الدين، وجعلت المجتمع كله مكرساً لأهداف الدين وغاياته كما رآها رجال الدين، وبسببها عاشت أوروبا في الظلام ودخلت حروباً دينية حصدت أرواح مئات الآلاف، وقمع ملايين الناس وعذبوا واضطهدوا، وبسببها أيضاً صممت أوروبا على فصل الكنيسة عن الدولة، بمعنى عدم الخلط بين الدين والسياسة. وللأسف يروّج أنصار الإسلام «الدعوي» عندنا لحالة الهوس الديني نفسها. فالخصوم السياسيون يتحولون فجأة إلى عصاة أو كفار يحاربون شرع الله، والسياسة والدولة تتحولان من أداتين لقضاء حاجات الناس وتقدم المجتمع إلى أداتين لفرض شرع الله وضبط الحياة بضوابط الشرع كما فهموه هم فقط.

ومع أن الأديان جميعها تحوي في صفحاتها وتاريخها كل ما يرومه الطالب، تجد المهووسين دينياً في أوروبا عصور الظلام وأصحاب الخطاب «الدعوي» الظلامي عندنا يركزون على الجوانب التي تحض على العنف والحقد ونبذ الآخر. فعلى خلاف الأمر النصراني بالتسامح والحب والسلام ونبذ العنف والكراهية والصراع، ركز رجال الدين النصارى في

هذه العصور على جانب من النصرانية يأمر بقتل الناس وحرقهم أحياء وتمزيق أجسادهم بالكلاليب، ويجيز إدخال الناس في الدين عنوة وقسراً، ناهيك عن صكوك الغفران وغيرها من الممارسات المعروفة. وفي الإسلام أيضاً جوانب مشرقة في قرآنه وسيرة نبيه، في حين تجد دعاة الخطاب الظلامي يركزون على أمور من قبيل الولاء والبراء، وتكفير المجتمع، واختزال الإسلام في قشور المظهر، وتهميش الأخلاقيات والقيم والغايات التي جاء الإسلام ليرسيها. وكأننا في الحالتين أمام رجال دين يفرضون نسختهم الخاصة من الدين، على أنها الدين المنزّل والوحيد.

يجد بعضهم أملاً في حالة الهوس الديني عندنا، على أساس أنها تبشر بتغيير جذري في ثقافة المجتمع ورؤيته للعالم من النوع الذي حدث في أوروبا وصنع المجتمع الحديث، فقد ذهب بيرنارد لويس إلى أن الحكم الديني في إيران والتراتبية الدينية الشيعية التي اقتربت كثيراً من التراتبية الكنسية سيؤديان حتماً إلى قطيعة من النوع الذي حدث في أوروبا، وهي ليست قطيعة مع الدين، وإنما مع استخدام الدين في السياسة، أو ما سمي في الحالة الغربية «فصل الكنيسة عن الدولة». وفي الإسلام السني أيضاً، قد تقود حالة الهوس الديني من أصحاب الإسلام «الدعوي» إلى قطيعة مماثلة، وكأن «تديين» المجتمع يجب أن يصل إلى حده الأقصى، حتى ينتفض المجتمع ويصحح هذا الوضع، جاعلاً الأمور في نصابها.

والدرس الثالث الذي يبرزه الكتاب هو أن القارئ لتاريخنا العربي الإسلامي وتاريخ أوروبا يجد أن تبادلاً للأدوار والمواقع قد حدث بين الثقافتين. فالعرب المسلمون الذين مارسوا التعددية الثقافية والتسامح الديني في زمن «الوحدة الدينية» و«النقاء الديني» في أوروبا النصرانية، فأعطوا للنصارى واليهود حرية العبادة والاحتكام إلى شرائعهم في ظل الحكم الإسلامي، يتجهون اليوم باندفاع إلى شكل من التعصب الديني

والشوفينية الدينية يجعلهم لا يكفرون غير المسلمين فحسب، وإنما يكفرون إخوانهم في الدين، الذين يختلفون معهم في درجة التدين أو مدى «إظهاره» أو حتى الموقف السياسي، على نحو ما حدث في أوروبا «عصور الظلام». وستجد في هذا الكتاب أيضاً أن من الأمور التي كرهها رجال الدين الإسبان في المسلمين افتتانهم بالرقص والموسيقى والتنزه والحب والعشق وغيرها من مفردات الثقافة المعتدلة «المحبة للحياة»، وهي الثقافة التي تبناها الغرب الحديث، وينبذها «دعاتنا» طلباً لمجتمع «طاهر» يخلو من كل أشكال المتع والمباهج.

لكل ما سبق أرى أن الرسالة الضمنية الأوسع للكتاب، تأتي في وقت نحن في أمس الحاجة إليها في مجتمعاتنا العربية، التي تعيش حالة من السيولة وإعادة التشكل، بعد أن اجتاز بعضها ثورات هدمت نظماً استبدادية قديمة، وتسعى إلى بناء نظم جديدة. ففي هذه العملية، هيمنت على المشهد جماعات وأحزاب تستخدم الدين وسيلة للصعود السياسي والوصول إلى الحكم، وتلعب على الحس الديني الساذج لدى الشعوب، فتروّج بينها أفكاراً تبث الكراهية ونبذ الآخر الداخلي والخارجي، وترفض التعايش والقبول، وتحط من قيمة الإنسان، سواء المرأة أو المخالف في الفكر والرأي. وينبغي أن نتذكر جميعاً أن أبشع الأعمال الوحشية تكون ممكنة فقط- كما يعلمنا التاريخ الذي يقدمه الكتاب- حين تُنزع الصفة الإنسانية عن الخصوم، ويُحط من شأنهم. فما المشكلة في قتل «الكفار الأنجاس» أو تعذيب «الكلاب اللوطين»؟ لا مشكلة بالطبع.

* * *

وأخيراً، فإنك ستجد في هذا الكتاب مآسي ومظالم وأهوالاً لم تكن تتخيلها، تعرض لها المسلمون على أيدي النصارى الإسبان، باسم الدين للأسف. وكل ما أتمناه أن تصلك الرسالة العكسية: انظر: كيف أدى

التعصب الديني والدوغماطية الفكرية والشوفينية العرقية والقومية إلى دفع البشر إلى اقتراف أفعال «شيطانية». فالمترجم لم يقصد قط بترجمته هذا الكتاب- والمؤلف بالتأكيد- إثارة الكراهية والأحقاد بين أتباع الأديان المختلفة، وتحديداً إثارة كراهية المسلمين للمسيحيين على إطلاقهم أو المسيحيين الإسبان، الذين فعلوا في المسلمين الأندلسيين ما فعلوا، وإنما قصدا أن يستنير المرء وينأى بنفسه عن مثل هذه الأحقاد. وإذا كنا لا نستطيع أن نحاكم التاريخ، أو بالأحرى المذنبين فيه، من وجهة نظرنا طبعاً، فبإمكاننا أن نستخدم هذا التاريخ كي نحاكم أنفسنا ثم نصحح رؤانا.

وأعلم أنك تقرأ كتاباً عن فترة ومجتمع كانا من الأشد عداوة للإسلام، ولذلك تكثر فيه الأوصاف التي قد يعتبرها بعضهم «مسيئة» للإسلام. على أن الأمانة في الترجمة اقتضت الحفاظ على هذه الأوصاف والتعبيرات في مجملها، مع تخفيف بعضها، وتوضيح ما بقي في الحواشي. وتَذكّر أننا لا نجد غضاضة في نقل الأوصاف المسيئة التي ألصقها كفار قريش بالرسول الكريم والإسلام.

* * *

على أن المهمة الأصعب التي تواجه المترجم في ترجمة الكتابات التاريخية، ولاسيما حول أمم ودول انقطع وجودها منذ قرون، كما هي الحال مع الأندلس والأندلسيين، تتمثل في التعامل مع أسماء الأشخاص والأماكن والأحداث. فعمر الأندلس البالغ ثمانية قرون أو يزيد، أنتج بالتأكيد أسماء عربية لكل المدن والقرى والجبال والأنهار «الإسبانية»، وأنتج حتى «نطقه» الخاص لأسماء الأعلام الإسبانية، لكن انقطاع الوجود الإسباني أضاع كثيراً من هذه الأسماء، أو جعلها غير متداولة وغير معروفة. لذلك سيستخدم المترجم الأسماء الأندلسية للأماكن والأشخاص والأحداث

متى توافرت وكانت مؤكدة، وفي هذه الحالة سيشير في حاشية إلى الاسم نفسه في اللغات الأوروبية، وفي حال عدم توافر الأسماء الأندلسية، أو عدم تمكن المترجم من معرفتها، سيقوم بنقل الاسم الأوروبي الوارد في الكتاب إلى الحروف العربية بالطريقة المعتادة، مع كتابة الاسم الأجنبي بجانبه، مع التقيد طبعاً بقواعد نطق اللغة الإسبانية التي تختلف كثيراً عن اللغة الإنجليزية.

وقبل أن أنهي تقديمي للكتاب، لا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر لمشروع «كلمة» بهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، على دوره البارز في إثراء الثقافة العربية، ورفد المكتبة العربية بكتب عظيمة طال انتظارها قبل تدشين المشروع. وأشكر «كلمة» أيضاً على أن خصتني بهذا الكتاب الذي أتشرف بأن يضاف إلى رصيدي من أعمال الترجمة.

وحتى لا تنسيكم الفقرات الأخيرة مأساة الأندلس التي ستقرؤون فصولها فيما يلي، أنهي تقديمي بهذه الأبيات من قصيدة «رثاء إشبيلية» للشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي:

تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهرِ نسيانُ

يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً ... كأنها في مجال السبقِ عقبانُ

وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيرانُ

وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان؟

ماذا التقاطُع في الإسلام بينكمُ ... وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ؟

ألا نفوسٌ أبّاتٌ لها هممٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ ... أحال حالهمْ جور وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفر عُبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوان
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ
يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت كأنما ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

المترجم

د. مصطفى قاسم


Twitter: @ketab_n

مقدمة

بين عامي 1609 و1614، أمر فيليب الثالث ملك إسبانيا بطرد السكان المسلمين جميعاً من الأراضي الإسبانية. فطُرِد زهاء ثلاثمائة وخمسين ألف رجل وامرأة وطفل قسراً من بيوتهم، وأُجْلوا عن بلادهم في واحدة من أكبر عمليات إبعاد السكان المدنيين في التاريخ الأوروبي، وهي تفوق – كذلك- طرد اليهود من إسبانيا، الذي نُفِذ في وقت سابق، عقب غزو النصارى لغرناطة عام 1492. وعلى خلاف اليهود، عُمِّد كل المسلمين قسراً في المذهب الكاثوليكي، بدايةَ القرن السادس عشر. وعلى مدى أكثر من مئة عام، عاش الموريسكيون[1]، وهو الاسم الذي أطلق على رافضي التنصير، حياة خطرة وسط مجتمع نصراني، سعى إلى استئصال تقاليدهم الدينية والثقافية، واضطهدهم حين ثبت أنهم غير راغبين أو غير مؤهلين للانصياع لتلك المطالب.

تيقن حكام إسبانيا، مع بداية القرن السابع عشر، من أن الموريسكيين جميعاً لن يجتازوا هذا التحول. وتبلور إجماع مؤثر، صوّرهم على أنهم جماعة أجنبية لها انتماءات سياسية ودينية خارج حدود إسبانيا، وأن أعضاءها

(1) الموريسكيون Moriscos كلمة إسبانية معناها «الأندلسيين الصغار» أو «أنصاف الأندلسيين»، استخدمها الأوروبيون، خاصة في شبه جزيرة أيبيريا، للإشارة إلى المسلمين الذين نُصّروا قسرا في إسبانيا والبرتغال بعد سقوط ممالك المسلمين في الأندلس، ومع الوقت أصبحت الكلمة تستخدم بشكل ازدرائي للإشارة إلى الكاثوليك بالاسم فقط، الذين يُشتبه في أنهم يطبقون تعاليم الإسلام وطقوسه سراً [المترجم].

رفضوا الاندماج في المجتمع النصراني، وأن وجودهم يشكّل تهديداً للسلامة الدينية لإسبانيا، وخطراً على الأمن الداخلي للدولة. وفي عام 1609، وبعد أعوام من التردد والنقاشات الرسمية الملتوية، أصدر فيليب ووزراؤه القرار المتطرف بإبعاد المورسكيين جميعاً عن التراب الإسباني. ولقد لقي قرار الطرد حينذاك ترحيب غالبية المؤرخين المرتبطين بالدولة، إذ اعتبروه قراراً جذرياً يحقق التطهير الديني لإسبانيا، وأن من شأنه أن يجلب لها الرخاء والمكانة والنجاح العسكري. لكن كثيراً من الإسبان بدأ، بعد بضعة أعوام من الإنهاء الرسمي للمرسوم، يرى أن ذلك خطأ، إن لم يكن كارثة.

وأخذت الأجيال المتعاقبة تولّد تفسيراتها المختلفة لهذا الحدث. ففي القرن التاسع عشر، رحب المؤرخون الإسبان المحافظون بإبعاد المورسكيين، واعتبروه مَعْلَماً أساسياً في التطور القومي لإسبانيا. فبالنسبة إلى مانويل دانبيلا كولادو (1830-1906) Manuel Danvila Collado، بدا الطرد عملاً ضرورياً، وإن كان قاسياً، صحيح أنه «لم ينطو على أي شفقة أو رحمة بالمورسكيين، لكن الوحدة الدينية كانت تلوح في سماء إسبانيا متألقة مشرقة، ويا سعد ذلك البلد الذي يكون متحداً في مشاعره الكبرى»[1]. كما أثنى أمين المحفوظات والحاكم المدني فلورنسيو جانيه (1831-1877) Florencio Janer على الفوائد التي جلبها الطرد لإسبانيا في شكل «وحدة الدين وأمن الدولة»، وإبعاد «حضارة شرقية تفتقر إلى الأفكار والمقومات الأساسية للحضارة الحديثة»[2].

ونظر كُتاب آخرون إلى الطرد من منظور عرقي، وليس دينياً. فكتب الناقد الأدبي الإسباني من القرن التاسع عشر مارسلينو منينديث بيلايو Marcelino Menendez Pelayo «إن من الحماقة أنْ نعتقد أن المعارك الوجودية والصراعات الضارية غير الدينية بين الأعراق يمكن أن تنتهي

بغير الطرد والإبادة. وعادة ما يستسلم الجنس الأدنى وتكون الغلبة في النهاية لمبدأ القومية الأقوى والأكثر عنفواناً»[3]. ونظر المؤرخ العسكري البريطاني فوللر J. F. C. Fuller إلى الطرد على أنه «صرخة بالدم من أجل عرق الشعب الإسباني وروحه، وهو دافع في غاية القوة»[4]. وفي كتابهما «تاريخ إسبانيا» (1934)، دفع المؤرخان الفاشيان لويس برتراند Louis Bertrand والسير تشارلز بتري Charles Petrie بأنه لولا إبعاد الموريسكيين، لأصبحت إسبانيا «واحدة من تلك البلدان اللقيطة، التي تترك الأجانب يتقاسمونها ويستغلونها، ولا تمتلك فناً أو فكراً أو حضارة تميزها»[5].

في حين تبنى المؤرخون الليبراليون بوجه عام موقفاً أقل تأييداً من الطرد. ففي كتابه الملحمي «تاريخ إسبانيا العام» (1850–1858) المكون من ثلاثين مجلداً، وصف المؤرخ الإسباني موندستو لافوينتي Modesto Lafuente الطرد أنه «أبشع إجراء يمكن تخيله»، وأنه أسهم يقيناً في التراجع الاقتصادي والسياسي لإسبانيا لاحقاً. ونظر المتأسبن[1] ومؤرخ محكمة التفتيش الأمريكي هنري لي Henry C. Lea إلى إبعاد الموريسكيين بوصفه انتصاراً للتعصب الديني على المصالح العقلانية للدولة، إذ ضحى بالرخاء المادي والتطور الفكري لإسبانيا من أجل وحدة الدِين.

ويتفق غالبية المؤرخين على وحشية عملية الطرد، بغض النظر عن مدى قبولهم أهدافها. وكثيراً ما يوصف إبعاد الموريسكيين أنه مأساة تاريخية، حكمت بالضياع على عشرات الآلاف من الرجال والنساء، الذين فقدوا بيوتهم وموارد أرزاقهم، فضلاً عن حياتهم في حالات كثيرة. على أن الطرد –أيضاً– جريمة تاريخية لا تنسى. فحتى بعد أربعمائة عام، لاتزال هذه الجريمة تبدو وكأنها من وقائع العصر الحديث. وتاريخ

(1) المتأسبن– على وزن المستعرب أو المستشرق– هو العالم المتخصص في كل ما يتصل بالإسبان وبلادهم وتاريخهم ولغتهم وأدبهم [المترجم].

الدولة القومية يحفل بحوادث إبعاد لجماعات زائدة أو غير مرغوب فيها عن أراضيها وبيوتها، أو إبادتها جسدياً لتحقيق تجانس الدولة دينياً أو عرقياً أو ثقافياً. وينطوي إبعاد المورسكيين في أهدافه ودوافعه وفي توليفة التنظيم البيروقراطي واستخدام الموارد الإدارية والعسكرية والاقتصادية لإبعاد أولئك السكان المدنيين غير المرغوب فيهم، على مكونات كثيرة من تلك التي أصبحنا نربطها بظاهرة «التطهير العرقي».

وتعد عمليات الترحيل والمذابح التي اقترفت بحق الأمريكيين الأصليين في أثناء توسيع الحدود الأمريكية غرباً، وحملة «التريك» الشرسة التي قتلت زهاء مليون أرمني في عامي 1915-1916، والنقل الجماعي للنصارى الأتراك إلى اليونان والمسلمين اليونانيين إلى تركيا بعد الحرب اليونانية-التركية في عام 1923، والمحرقة النازية، والعمليات الوحشية لتبادل السكان المسلمين والهندوس التي تلت إعلان دولتي الهند وباكستان الحديثتين، وإبعاد[1] الفلسطينيين عن أرضهم عام 1948، والحروب الأهلية في يوغسلافيا السابقة- تعد كلها أحداثاً وقعت على منوال حملة التطهير الكبرى التي حدثت في إسبانيا بين عامي 1609 و1614.

وإذا كان ثمة من يدفع بأن التوقعات والفرضيات التي أدت إلى الطرد كانت من بنات زمنها وتقتصر عليه، فإن الرد على ذلك هو أن مأساة المورسكيين كانت جزءاً من دينامية متواترة تكررت في سياقات أخرى كثيرة، سعت فيها أغلبية قوية إلى إعادة صياغة هويتها أو تعريفها عبر الاستئصال المادي لأقليات يفترض أنها غير متجانسة، وأن وجودها مدنِس أو مفسِد، أو إبعاد هذه الأقليات.

***

(1) المصطلح المستخدم هنا هو exodus بمعنى الخروج أو الرحيل أو النزوح الجماعي، لكن هذه المعاني تشير إلى فعل طوعي إرادي لم يتوافر في حالة الفلسطينيين، الذين طردوا بالقوة من بلادهم عبر عمليات حرق القرى والمدن والإبادة الجماعية للسكان [المترجم].

لقد أظهرت الحضارة الأيبيرية «الأندلسية»[1]، أكثر من أي فترة أخرى في التاريخ الإسلامي، قدرة استثنائية على استدعاء نفسها في فترات تاريخية مختلفة، والتسلل إلى أجندات سياسية مختلفة، ذلك أن المنظورات التاريخية المتضاربة حول الطرد تتماس دائماً مع الجدل الأوسع حول الوجود الإسلامي في إسبانيا، ومعنى الهوية القومية الإسبانية، والقيمة النسبية للحضارة «الشرقية» في مقابل الحضارة «الغربية»، والعلاقة بين الإسلام والمسيحية. ففي العالم الإسلامي، ترتبط الذاكرة التاريخية للأندلس غالباً بالحنين إلى فترة ماضية من العظمة والإنجاز الثقافيين الإسلاميين، كثيراً ما يُبخَس إسهامها مقارنة بإسهام أوروبا. وعلى امتداد معظم تاريخ إسبانيا الحديث، كان الإسبان ينظرون إلى الماضي الإسلامي بخزي؛ باعتباره انحرافاً غير ذي صلة أو مدمراً لجوهر إسبانيا الأوروبي والنصراني.

لقد امتعض كثير من الإسبان من فكرة أن «إفريقيا تبدأ من جبال البرانس»[2]، التي قال بها لأول مرة ألكسندر دوما Alexandre Dumas، ورددها من بعده مراقبون أجانب آخرون. وفي القرن التاسع عشر، كان عدد من الكُتاب الأجانب، البروتستانتيين بالدرجة الأولى، يقارنون كثيراً

---

(1) الكلمة المستخدمة في مثل هذه المواضع هي moor أو moro أو moorish التي تعني «مغاربي»، إذ يبدو أن الإسبان ربطوا مسلمي بلادهم بالمغاربة، نظرا لأنهم كانوا العنصر الغالب في إسبانيا في القرون الأخيرة للحكم الإسلامي. وقد وسّع الأوروبيون دلالة الكلمة في مراحل تاريخية مختلفة للإشارة إلى المسلمين جميعاً، ومن هنا أطلق الغزاة الإسبان اسم «المورو» على مسلمي الفلبين، وهو التوسيع نفسه الذي حدث مع كلمة «عربي» وكلمة «تركي» في أزمان سيادة هذين العنصرين وقيادتهما العالم الإسلامي. لكن شعب الأندلس لم يكن يتكون من المغاربة فقط، وإنما من كثير من مناطق وأعراق العالم الإسلامي آنذاك، وعلى رأسهم العرب، وأيضاً من سكان أيبيريا الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، كما تنطوي كلمة «مورو» على شكل من الازدراء، ولذلك آثر المترجم أن يترجم هذا المصطلح إلى «أندلسي» ومشتقاته اللغوية [المترجم].

(2) يُعرّب اسم هذه الجبال أيضاً إلى «البرينيه» [المترجم].

بين رؤية عاطفية إيجابية للأندلس من ناحية، وإسبانيا المعاصرة التي اعتبروها قاعدة متخلفة للتعصب الكاثوليكي من ناحية أخرى. وتواصل الجدل حول الماضي الإسلامي حتى القرن العشرين. فنجد- من جانب- كُتاباً من أمثال برتراند وبتري، كان الإسلام في إسبانيا بالنسبة إليهما «خالياً من أي مكون حضاري»، وكلوديو سانشيث ألبورنوث Claudio Sanchez-Albornoz الذي صوّر كيف «حرّفت إفريقيا البربرية[1] ناقصة العقل... المصير المستقبلي لأيبيريا وشوهته»[6]. وعلى الجانب الآخر، نجد مفكرين إسباناً من أمثال أمريكو كاسترو Américo Castro وفرانثيسكو ماركيث بيانوبا Francisco Márquez Villanueva والروائي والكاتب خوان غويتيسولو Juan Goytisolo، احتفوا بالأندلس لكونها إسهاماً إيجابياً في التاريخ الإسباني، وحزنوا على دمارها.

واليوم، في مطلع القرن الحادي والعشرين، لاتزال إسبانيا الأندلسية تتسلل إلى الأجندات السياسية المعاصرة، في الوقت الذي يتورط فيه العالمان الإسلامي والغربي في مواجهة معقدة ومتعددة الأوجه ذات أبعاد سياسية وثقافية ودينية. من ذلك تحذير أسامة بن لادن ومساعده أيمن الظواهري في رسالة مصورة في أكتوبر 2001 من أن «العالم أجمع يجب أن يعرف أننا لن نقبل بأن تتكرر مأساة الأندلس مرة أخرى». كما ذكر منفذو تفجيرات مدريد المفزعة في الحادي عشر من مارس 2004 «فقدان» الأندلس، كأحد المبررات «لعمليات محطة القطارات المميتة». وطالب

(1) «البربرية» هنا ليست صفة من الاسم الآخر لشعب الأمازيغ (البربر Berber) الذي يقطن شمال إفريقيا منذ القدم، والذي لعب دوراً بارزاً ورئيساً في الحضارة الأندلسية، وإنما هي الصفة barbarian [من البرابرة]، بمعنى الهمج أو المتوحشين، وهو الوصف الذي أطلقته الحضارة الأوروبية في مختلف مراحلها منذ الإغريق القدماء، على أعدائها، سواء الفايكنغ أوالجرمان القادمون من الشمال أو الفرس والعرب والأمازيغ والأتراك القادمون من الجنوب والشرق، وفيما بعد على الشعوب التي اصطدموا بها في العالم الجديد [المترجم].

زكريا موسوي الذي يسمى بالمختطف العشرين في محاكمته عن دوره في هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، «بعودة إسبانيا إلى المغاربة»[1]. وكما سعت القاعدة وفروعها إلى حشد ذكرى الأندلس لأغراضها الدعائية، استُدعي الماضي الإسلامي في إسبانيا كتفسير للحاضر، إذ زعم رئيس الوزراء الإسباني السابق خوسيه ماريا أثنار في محاضرة له في جامعة جورج تاون في سبتمبر 2004 أن «مشكلة إسبانيا مع القاعدة والإرهاب الإسلامي لم تبدأ بأزمة العراق، ولا علاقة لها بقرارات الحكومة، بل عليك أن توغل في الماضي لألف وثلاثمائة عام على الأقل، أو لأوائل القرن الثامن، حين رفضت إسبانيا التي غزاها المغاربة حينذاك أن تصبح جزءاً آخر من العالم الإسلامي، وخاضت معركة طويلة لاستعادة هويتها»[7].

تنحو هذه السجالات حول معنى الأندلس، ودخولها في السجالات المعاصرة، إلى تجاهل حملة التطهير المؤلمة التي كتبت كلمة النهاية للأندلس. ويسود بين عامة الناس ميل إلى ربط نهاية إسبانيا الإسلامية بعام 1492 البالغ الأهمية، الذي توحدت فيه إسبانيا تحت الحكم النصراني، مع تجاهل حقيقة أن أكثر من نصف مليون مسلم بقوا في البلاد بعد ذلك التاريخ. لقد تعرفتُ على قصة الموريسكيين أولَ مرة في عام 1992، حين كنت أعيش في إسبانيا أثناء الاحتفال بمرور خمسمائة عام على سقوط غرناطة ورحلات كولومبوس. وفي خضم حملة الاحتفال والاحتفاء بالذات التي قادها الإعلام، طوى النسيان الجانب المظلم من ماضي إسبانيا الإمبراطوري أو حُيّد بكلمات مبتذلة وتلطيفية، ولم يحظ طرد الموريسكيين باهتمام يذكر. أما أنا فلم أتمكن من الإفلات من التأثر بمأساة هؤلاء المسلمين، الذين

(1) أبقيتُ على كلمة «المغاربة» هنا لأن الأندلسيين كشعب لم يعد موجوداً، إلا إذا كانت بقايا الموريسكيين في المغرب العربي لاتزال مميزة عن بقية السكان [المترجم].

نُصِّروا، والذين كانوا يتحدثون الإسبانية ويكتبون بالعربية، والذين اعتبرهم الكاثوليك الإسبان نصارى سيئين، واعتبرهم إخوانهم في الدين مسلمين سيئين، والذين تمزقوا حتى بعد طردهم بين الارتباطات المتعارضة بدينهم الإسلامي ووطنهم الإسباني.

ومنذ ذلك الحين- أي الاحتفال بذكرى سقوط غرناطة- أصبح الطرد وثيق الصلة بعصرنا الحالي على نحو موجع. ففي أوروبا، ولّدت هجمات الحادي عشر من سبتمبر وحالة الطوارئ الدولية اللاحقة ضد الإرهاب مناخاً مسمماً يقوم على الخوف ورُهاب الأجانب، تركز على المهاجرين عامة، وعلى المسلمين الأوروبيين خاصة. وفي الوقت الذي كان فيه كثير من السياسيين الأوروبيين يستعيضون عن أفكار المواطنة المتعددة الثقافات «الفاشلة»[1] بمفهوم صارم وأحادي للهوية القومية يعتبر التنوع الثقافي تهديداً، تأتي قصة المورسكيين كمثال مروّع للعواقب الوخيمة التي يمكن أن تنشأ عن دمج الجماعات بالقوة. وفي الوقت الذي يثير فيه المفكرون المحافظون أفكاراً مغرضة حول «صدام الحضارات»؛ ذلك المفهوم الذي ينصرف عموماً إلى الصدام بين الإسلام والغرب «اليهودي-المسيحي»، يذكّرنا التدمير الوحشي للأندلس بمدى سيولة هذه المقولات. فللوهلة الأولى، لا يبدو ثمة تشابه بين السياسيين في أوروبا الديمقراطية الليبرالية، الذين يطالبون المسلمين إما بالانصياع للأفكار الأوروبية عن التسامح العلماني أو مغادرتها من ناحية، وملوك القرن السادس عشر الكاثوليك الذين طالبوا اليهود والمسلمين باعتناق

(1) إن وضع الكلمات والعبارات بين مزدوجين كما في هذه الحالة معناه أنها ليست رؤية المؤلف ولا وصفه ولا صياغته، وإنما رؤية مَنْ يعرض آراءهم وصياغتهم، فهو على العكس من ذلك تماماً يريد بالكتاب كله أن يكون صرخة من أجل التعايش بين مختلف الثقافات والحضارات واحترام خصوصيات كل ثقافة أو حضارة، وهي صرخة ضد العنصرية والكراهية والحقد بأي اسم كان، الدين أو العرق أو القومية [المترجم].

النصرانية وأحرقوهم على الخازوق[1] حال رفضهم من ناحية أخرى، في حين أن الديناميات والفرضيات التحتية للفترتين ليست متباعدة كما قد يبدو.

توجد أدبيات وفيرة حول الموريسكيين، حللت الفترة عبر عدد من المنظورات: التاريخي واللغوي والثقافي والديني والأدبي والأنثروبولوجي. وليس هذا الكتاب معنياً بالإضافة إلى جهود السابقين في هذه الأدبيات، أو أن يستكشف أرضاً جديدة. فهدفي أكثر تواضعاً من ذلك، وهو أن أقدم قصة الموريسكيين للقراء، الذين ربما لم يسمعوا عنها شيئاً. وهي قصة معقدة ومثيرة للاضطهاد الديني والثقافي والثورة والتعصب والكراهية. لكنها قصة للفرص الضائعة أيضاً، والقرارات السيئة والسياسات الرديئة، والمنظورات والإمكانات التي أهملت أو أهدرت. واليوم، في عام الذكرى الأربعمائة للطرد، أريد أن أقدم للقارئ العام هذا الفصل المظلم من التاريخ الإسباني، وأستخلص منه الدروس الممكنة لمأزقنا الحالي، إن وجِدت.

(1) قد يفهم من عبارة «الحرق على الخازوق» أن المدان كان يحرق في اللحظة التي يتم إدخال خازوق في مؤخرته، كما حدث مثلاً في العقوبة البشعة التي أنزلها الغزاة الفرنسيون في مصر بالمناضل سليمان الحلبي؛ قاتل كليبر قائد الحملة الفرنسية في السابع عشر من يونيو 1800، فلقد أعدموه بإدخال خازوق في مؤخرته وشده عليه جنباً إلى جنب مع حرق يده اليمنى. لكن عبارة «الحرق على الخازوق» على امتداد الكتاب تعني فقط أن المسكين كان يشد إلى خازوق أو وتد أو عمود أو يربط فيه فوق كومة من الحطب لتثبيته أثناء حرقه حياً [المترجم].


Twitter: @ketab_n

مدخل
«نهاية مآسي إسبانيا»

لا يفصل مدينة طنجة المغربية عن إسبانيا غير واحد وثلاثين ميلاً بحرياً، وهي بذلك أضيق نقطة في البحر الأبيض المتوسط الذي يفصل بين أوروبا وإفريقيا. ومن ذلك المكان بدأ تاريخ إسبانيا الإسلامية في إحدى ليالي ربيع عام 711، بعد أقل من قرن من وفاة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم- حين عبر القائد المسلم طارق بن زياد وسبعة آلاف محارب أمازيغي المضيق، ونزلوا على الصخرة التي تعرف الآن باسم جبل طارق. على أن الغرض من هذه الحملة لم يكن واضحاً. كانت مقاطعة إسبانيا الرومانية السابقة، على مدار القرون الثلاثة السابقة، تسيطر عليها قبائل قوطية من ألمانيا، كانت قد عبرت جبال البرانس واحتلت أيبيريا في أثناء تفكك الإمبراطورية الرومانية. وفي عام 589، تحولت الطبقة القوطية الحاكمة في إسبانيا من النصرانية الآريوسية[1] إلى الكاثوليكية، وأقامت مملكة نصرانية أيبيرية قوية كانت عاصمتها طليطلة[2]. ومن غير المرجح أن يكون طارق قد تخيل أنَّ باستطاعة هذا الجيش الصغير أن يسقط القوط، وأن تطلعاته في تلك المرحلة ربما لم تتجاوز الإغارة والسلب.

---

(1) نسبة إلى الكاهن السكندري آريوس (توفي في عام 336)، الذي قال بأن الابن (المسيح) غير مساو للآب (الله) في الجوهر [المترجم].

(2) Toledo في اللغات الأوروبية [المترجم].

كان الملك القوطي لُذريق[1] يقوم بحملة على بلاد الباسك حين علم بالوجود الإسلامي على أراضيه، فزحف فوراً ناحية الجنوب على رأس جيش قوي قُدّر عدده بثلاثين ألف رجل أو يزيد. وفي يوليو اشتبك الجيشان في ميدان المعركة[2] في مكان قريب من وادي لكة[3] بمقاطعة قادس[4] الحالية. ورغم التفوق العددي الساحق للقوط، فقد دُحر لذريق وقُتل، ومعه أغلب محاربيه البارزين.

وبعد هذا النصر المذهل، اغتنم طارق الفرصة، وشن هجوماً مزدوجاً جريئاً على أندلوسيا[5] وشمالاً نحو طليطلة عاصمة القوط. وبحلول نهاية العام، كانت طليطلة قد استسلمت بلا مقاومة، وتمكن جيش طارق من قضاء الشتاء في العاصمة بلا إزعاج. وبعد وصول تعزيزات من شمال إفريقيا[6] في الربيع التالي، مدّ المسلمون سيطرتهم سريعاً إلى بقية شبه الجزيرة. وفي غضون ثلاثة أعوام، تقلص الوجود النصراني جنوب جبال البرانس إلى جيب صغير في جبال أوسرتياس Asturias الوعرة، وزالت إسبانيا القوطية من الوجود نهائياً.

أطلق المسلمون اسم الأندلس al-Andalus، بمعنى أرض الونداليين[7]، على الأراضي التي فتحوها. وبالنسبة إلى النصارى

(1) Rodrego في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) تسمى هذه المعركة في التاريخ الإسلامي معركة شذونة أو وادي لكة أو سهل البرباط، وتسمى في المصادر الأوروبية معركة وادي غواديلتي أو دي لا غونا دي لا خاندا [المترجم].

(3) Guadalete في اللغات الأوروبية [المترجم].

(4) Cádiz في اللغات الأوروبية [المترجم].

(5) أندلوسيا Andalusia منطقة في جنوب إسبانيا تضم مقاطعات المبرة وقادس وقرطبة وأولبة وجاين ومالقة وأشبيلية، واسمها مشتق من كلمة «الأندلس» العربية [المترجم].

(6) ينصرف مصطلح «شمال إفريقيا» طوال الكتاب على دول المغرب العربي الثلاث المغرب والجزائر وتونس تحديداً، وكذلك موريتانيا وطرابلس بدرجة أقل، وهو في حالات كثيرة ترجمة لمصطلح Barbary بمعنى بلاد الأمازيغ أو أرض البربر [المترجم].

(7) الونداليون Vandals قبائل جرمانية اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمال إفريقيا في القرن ـ

الأيبيريين، أصبح الفاتحون يعرفون باسم المورو moro أو المور moor من الكلمة اللاتينية mauri أو maurusci، وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على أمازيغ شمال إفريقيا. ومن منظور العالم النصراني اللاتيني، كان غزو الكفار لإسبانيا القوطية كارثة لا تصدق. فـ «حتى لو تحولت أوصال الإنسان إلى ألسنة، لما استطاعت الطبيعة البشرية أن تعبّر عن خراب إسبانيا وشرورها الكثيرة والكبيرة»، كما رُثي فتح إسبانيا في كتاب «تاريخ عام 754» اللاتيني مجهول المؤلف، الذي كُتب بعد نصف قرن تقريباً من الأحداث التي يصفها[1].

نظر بعض النصارى إلى سقوط القوط بوصفه عقاباً إلهياً على الفساد الأخلاقي للذريق وبلاطه. ووجد غيرهم تفسيراً في خيانة اليهود الذين قيل إنهم فتحوا أبواب طليطلة للغزاة. وألقت بعض التواريخ النصرانية باللائمة على مسؤول بيزنطي غامض يدعى الكونت خوليان Count Julian أو الخائن الأكبر، الذي قيل إنه شجع المسلمين على دخول إسبانيا، وكان دليلهم في التحرك انتقاماً من الملك لذريق الذي اغتصب ابنة الكونت. ولفترة قصيرة، بدا أن التقدم الإسلامي عازم على الاستمرار إلى ما بعد جبال البرانس، حيث شن القادة العرب في شمال إسبانيا سلسلة من غارات النهب على وادي الرون ومناطق أكيتين Aquitaine ببلاد الغال(1).

لكن، بعد هزيمة الجيش العربي-الأمازيغي في سلسلة من المعارك المربكة

= الخامس الميلادي، وفي عام 455 احتلت روما ونهبتها، وهذا الاسم بذلك ربما يكون بديلاً لمصطلح القوط الغربيين Visigoth الذين ينتمي إليهم لذريق والطبقة الحاكمة لإسبانيا قبل الفتح الإسلامي [المترجم].

(1) كان اسم «بلاد الغال» Gaul يطلق في العصر الحديدي والعصر الروماني على المنطقة التي تضم حالياً فرنسا ولوكسمبورغ وبلجيكا ومعظم سويسرا والجزء الغربي من شمال إيطاليا والأجزاء من هولندا وألمانيا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين. وتنظر فرنسا الحديثة إلى الغال، وفيما بعد الإمبراطورية الكارولنجية، على أنهم سلفها [المترجم].

حول بواتييه[1] في عام 732 أمام الملك الفرنجي شارل مارتل، اكتفى المسلمون بدعم سيطرتهم على أراضيهم جنوب جبال البرانس.

أخذ المؤرخون الغربيون، من إدوارد غيبون Edward Gibbon فصاعداً، يرددون القول بأن بواتييه كانت اللحظة الفارقة في التاريخ الأوروبي، حيث أُنقِذت الحضارة الغربية فيها للمرة الأولى من الحشود الإسلامية، لكن المهاجمين الذين عبروا جبال البرانس ربما كانوا معنيين بالغنائم أكثر من الفتح، فلم يبد الأندلسيون اهتماماً كبيراً بممالك الفرنجة خلال القرون التالية. وسرعان ما تطورت الأندلس المنفصلة عن المراكز الرئيسة للقوة الإسلامية والنصرانية من مقاطعة حدودية نائية بالإمبراطورية الإسلامية إلى حضارة أندلسية-أيبيرية فريدة اشتملت مكوناتها على العرب السوريين واليمنيين، وأمازيغ شمال إفريقيا، و«الجنود الرقيق» السلافيين المعروفين بالصقالبة، الذين جاؤوا إلى إسبانيا كخدم للخليفة وشكّلوا لاحقاً إقطاعاتهم الخاصة، والنصارى القوط والروم-الإسبان، وأكبر تجمع يهودي في أوروبا[2]. ومع ازدياد أعداد المسلمين عبر الهجرة واعتناق الإسلام، اكتسبت مدن إسبانيا الرومانية والقوطية الطابع الشرقي والإسلامي تدريجياً، فانتشرت بها المساجد والمآذن والقصور والحمامات العامة والحدائق المزينة بالبرك والنخيل والروائح الحريفة والألوان الزاهية التي تميز شمال إفريقيا.

غيّر الأندلسيون أيضاً المنظر الطبيعي الأيبيري. فجلبوا محاصيل

---

(1) وقعت المعركة الرئيسة المعروفة باسم بواتييه Poitiers، أو بلاط الشهداء كما تعرف في التاريخ الإسلامي، في العاشر من أكتوبر 732، وانتصر فيها الفرنجة بقيادة شارل مارتل على المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي، وكانت أكبر هزيمة للمسلمين في فتح غرب أوروبا، وبسببها توقف هذا الفتح عند حدود الأندلس التاريخية [المترجم].

(2) تحمل هذه الفقرة تأكيدا لذهاب المترجم إلى ترجمة كلمة moor وmoro [مغاربي] إلى «أندلسي»، إذ تشير إلى المكونات العرقية المختلفة التي تكوّن منها شعب الأندلس [المترجم].

جديدة، مثل السكر والأرز والبرتقال والليمون والحرير والقهوة. وبفضل معرفتهم ومهارتهم في الزراعة والبستنة، أدخلوا تقنيات ري جديدة، ووسعوا النظم القائمة، من السهول الخصبة في منطقة غرناطة ووادي نهر الوادي الكبير[1] إلى تلال سيرانيفادا (جبل الثلج) والمنطقة الساحلية العشبية لبلنسية[2]. ووضع الإنتاج الزراعي للأندلس وصلاتها التجارية بالعالمين الإسلامي والنصراني الأسس الاقتصادية لثقافة حضرية عالمية جذبت العلماء والموسيقيين والمفكرين من أنحاء الإمبراطورية الإسلامية كافة. وبدأت الفترة الأكثر إشراقاً في تاريخ الأندلس في عام 755، حين شق أمير أموي هارب يدعى عبدالرحمن[3] طريقه من بغداد إلى إسبانيا، بعد أن ذبحت العائلة العباسية المنافسة عائلته. أسس عبدالرحمن خلافة أيبيرية جديدة، عاصمتها قرطبة، نافست بغداد ودمشق في ثرائها وعظمتها.

كانت قرطبة، في أوجها، إبان القرن العاشر، مدينة لا نظير لها في العالم النصراني، فزهت بطرقها المعبدة وشوارعها المضاءة ومستشفياتها ومدارسها وحماماتها العامة ومكتباتها العامة. وفي الوقت الذي كانت فيه أكبر مكتبة في أوروبا النصرانية تضم ستمائة مجلد على الأكثر، كانت الصناعة المنزلية للخطاطين العرب في قرطبة تنتج زهاء ستين ألف كتاب مكتوب باليد في العام، ويقال إن المكتبات العامة في عهد الخليفة الأموي الحكم[4] «المهيب والمتعلم والإداري» المولع بالكتب كانت تضم نحو

(1) Guadalquivir River في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Valencia في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الأموي القرشي الملقب بصقر قريش (731 إلى 788)، حفيد الخليفة هشام بن عبدالملك عاشر الخلفاء الأمويين، كان أحد الأمراء المرشحين لخلافة الدولة الأموية قبل أن يطيح بها العباسيون، ففر منهم إلى الأندلس، وأسس فيها خلافة قرطبة الأموية في عام 755، وبعدها اتخذ لقب عبدالرحمن الفاتح أو الداخل [المترجم].

(4) الحكم الثاني ابن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمستنصر بالله (13 يناير 915 إلى 16 أكتوبر 976)، تاسع الحكام الأندلسيين وثاني الخلفاء الأمويين، حكم من عام 961 إلى عام 976 [المترجم].

أربعمائة ألف مخطوطة في مختلف الموضوعات من الشعر واللاهوت إلى الفلسفة والطب والزراعة.

انعكس هذا المدى المتنوع للاهتمامات في عدد من العلماء والمفكرين الأندلسيين البارزين، منهم الفيلسوف واللاهوتي اليهودي موسى بن ميمون (1138-1204) والفيلسوف الموسوعي ابن رشد (1126-1198)، الذي كانت تعليقاته على أرسطو تُقرأ على نطاق واسع في أوروبا. ومن الشخصيات المعروفة بدرجة أقل رجل الدولة والمؤلف الغرناطي من القرن الرابع عشر ابن الخطيب، الذي ألّف أكثر من خمسين كتاباً في الموسيقى والشعر والطب والسفر، وعباس بن فرناس؛ معلم الموسيقى وعالم الرياضيات والفلكي القرطبي من القرن التاسع، الذي قفز ذات مرة من فوق مئذنة مسجد بمظلة اصطناعية ليرى إن كان يستطيع الطيران. استلهم العالم الثقافي الأندلسي من تقاليد متنوعة، هي الإسلامية واليهودية والنصرانية والأصول اليونانية-الرومانية، ومع ذلك فلم تحظ محاولات أبطاله الكبار للتوفيق بين المعرفة والفلسفة الدنيويتين، والمحددات الصارمة للمقدس، دائماً بقبول المرجعيات الدينية للأديان الثلاثة.

كان لهذه الاهتمامات أيضاً أصداء مهمة خارج إسبانيا. فإلى جانب صقلية الإسلامية، أصبحت الأندلس قناة فكرية بين العالم النصراني الأوروبي والعالم العربي، مكّنت أوروبا من إعادة بناء ارتباطاتها المقطعة بتراثها الكلاسيكي. فكانت قوافل الأمتعة من بغداد ودمشق تأتي بالكتب والمخطوطات العربية من المكتبات العامة ببغداد ودمشق إلى إسبانيا إلى جانب ترجمات النصوص اليونانية واللاتينية الكلاسيكية التي اختفت من أوروبا منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية. كما قطع سلسلة من العلماء

النصارى، من أمثال أبيلارد الباثي[1] وروبرت الشيستري[2] وجيرالد الكريموني[3] الرحلة الشاقة جنوب جبال البرانس لزيارة المكتبات العامة ومدارس الترجمة التي ازدهرت في أيبيريا الأندلسية والنصرانية، وترجمت هذه النصوص إلى اللغة اللاتينية، إلى جانب ترجمات الأعمال العربية في مجالات الكيمياء واللاهوت والرياضيات والفلك والطب. وقد شكّلت هذه اللقاءات جزءاً مما أسماه المؤرخ ريتشارد بوليت Richard Bulliet «النقل الهائل للثقافة والعلم والتقنية» من العالم الإسلامي إلى أوروبا، وهو النقل الذي أسهم في وضع الأساس لعصر النهضة الأوروبي، حتى وإن كانت الأندلس تشهد حينذاك تراجعها الطويل المؤلم[2].

***

كانت الإنجازات الثقافية للأندلس تقوم دائماً على بنية سياسية هشة، فبدت عرضة للخصومات العرقية والقبَلية وهبّات العنف المدمر. وفي أوائل القرن الحادي عشر انفجرت خلافة قرطبة كلها تقريباً بعد سلسلة من الثورات الأمازيغية، حوّلت القصر الأموي الفخم والمبهج المسمى المدينة الزهراء[4] إلى حطام مهجور يفترشه العشب. ولم يتمكن الحكام المتعاقبون من منع تفتيت الأندلس إلى عديد من الإمارات الصغيرة

---

(1) Abelard of Bath نسبة إلى مدينة باث الواقعة جنوب غرب إنجلترا [المترجم].

(2) Robert of Chester نسبة إلى مدينة شيستر البريطانية الواقعة على نهر دي بالقرب من الحدود مع ويلز [المترجم].

(3) Gerald of Cremona نسبة إلى مدينة كريمونا الواقعة في مقاطعة لومباردي بشمال إيطاليا على الضفة اليسرى لنهر البو [المترجم].

(4) المدينة الزهراء Madinat Azhara قصر عربي إسلامي محصن بناه الخليفة الأموي عبدالرحمن الثالث الملقب بالناصر (912–961) على الضواحي الغربية لقرطبة بين عامي 936 و940، كان بمثابة عاصمة للأندلس لاشتماله بين جدرانه على إدارة الأندلس وحكمها، وكان يضم صالات استقبال ومساجد ومكاتب إدارية وحدائق ودارأ لسك العملة وورشاً وثكنات ونزل إقامة وحمامات، وكانت المياه تصله عبر قنوات [المترجم].

عرفت باسم الطوائف أو دول الطوائف، في الوقت الذي كانت الممالك النصرانية في شمال أيبيريا تقوى وتشتد. وعلى مدار القرن الحادي عشر تعرض حكام الطوائف لضغط متزايد من أمراء الحرب والحكام النصارى في البرتغال وفي مملكة أراغون وقطلونية[1] المتحدتين حديثاً. وقبل الجميع من مملكة قشتالة وليون التي كان غزوها لطليطلة في عام 1085 بقيادة ألفونسو الخامس القشتالي؛ الإمبراطور المطالب بكل إسبانيا، نقطة التحول في العملية المعروفة باسم الاسترداد.

ورداً على التقدم النصراني، طلب حكام الطوائف العون من إمبراطورية المرابطين[2] الأمازيغية بشمال غرب إفريقيا التي حكمت إسبانيا الإسلامية من زهاء عام 1090 حتى عام 1145. وعلى مدى القرون القليلة التالية كانت أيبيريا فسيفساء معقدة من الممالك الإسلامية والنصرانية، التي كان حكامها في أغلب الأحيان أكثر انشغالاً بمتابعة صراعاتهم العائلية والإقليمية بعضهم مع بعض، من الكفاح المتبادل ضد العدو المشترك. فلم تكن إسبانيا النصرانية بحال من الأحوال متفقة أو متحدة في التزامها بالاسترداد كما يزعم المؤرخون اللاحقون، بل مرت فترات طويلة ظل الحكام النصارى فيها قانعين بانتزاع الجزية من الممالك الإسلامية بدلاً من غزوها، وكانت فترات الهدنة تقطعها حروب متفرقة لم تؤثر في

(1) Catalon في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) المرابطون: دولة إسلامية أمازيغية حكمت المغرب، وشكلت في القرن الحادي عشر إمبراطورية شملت المغرب والأندلس، كانت عاصمتها مراكش التي تأسست في عام 1062، ترجع أصول حكامها إلى القبائل الأمازيغية في لمتونة جنوب الصحراء الكبرى، لعبت دوراً كبيراً في تجنب سقوط الأندلس أمام الممالك النصرانية الأيبيرية، حين ألحق حاكمها يوسف بن تاشفين هزيمة ساحقة بائتلاف من الجيوش القشتالية والأراغونية بقيادة ألفونسو السادس في معركة الزلاقة في الثالث والعشرين من أكتوبر 1086 التي سميت بذلك الاسم لأن الجنود كانوا يتزلقون على الأرض بسبب الدماء الكثيرة التي أرقيت فيها، لكن هذه الإمبراطورية لم تدم طويلاً، إذ سقطت في أوج قوتها بسبب ثورة من قبائل مصمودة بقيادة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين [المترجم].

توازن القوة السائد. ومع ذلك ظل هدف استعادة الحكم النصراني في أيبيريا فكرة طموحة كانت تطرح جانباً لفترات، ثم يلتقطها مجدداً حكام نصارى متعاقبون، وظل توازن القوة يتحول ببطء، لكن بعناد، بعيداً عن إسبانيا الإسلامية.

وفي عام 1145، خلَفت دولة المرابطين في الأندلس دولة أمازيغية أخرى من شمال إفريقيا، هي دولة الموحدين[1]، التي حاول حكامها دون جدوى أن يوحدوا ملوك الطوائف للوقوف بوجه قشتالة وحلفائها. وجاءت نقطة التحول مع معركة العُقاب[2] عام 1212، حين تمكن تحالف الممالك النصرانية، ومنها قشتالة وأراغون والبرتغال، من هزيمة جيش إسلامي ضخم، فكان ذلك بمثابة النهاية لمحاولات الموحدين إيقاف التقدم النصراني. ومع انسحاب الموحدين من أيبيريا عام 1223، دخل الاسترداد أقوى فتراته وأنجحها. وأخذت قشتالة تفتح المدن الإسلامية الكبرى بالجنوب الواحدة تلو الأخرى، وبلغت العملية أوجها بسقوط إشبيلية[3] عام 1248. وفي الفترة نفسها انتزعت البرتغال الغرب[4] من

(1) الموحدون دولة إسلامية أمازيغية تأسست في القرن الثاني عشر في تنمل بجبال أطلس زهاء عام 1120 بقيادة ابن تومرت من قبائل مصمودة، تلاه عبدالمؤمن بن علي بين عام 1130 ووفاته في عام 1163، هزمت دولة المرابطين وامتد سلطانها على المغرب والأندلس، إلى أن تلقت هزيمة ثقيلة بقيادة محمد الثالث الملقب بالناصر (1199–1214) في معركة العُقاب في السادس عشر من يوليو 1212 أمام ائتلاف نصراني من أمراء قشتالة وأراغون ونبارة والبرتغال، تلا ذلك سقوط الممالك الإسلامية الأيبيرية، وبقي حكمها في المغرب بعد أن تآكلت ممتلكاتها لصالح دولة بني مرين واقتصرت أخيراً على مراكش، وقتل آخر ملوكها إدريس الثاني الملقب بالواثق على يد عبد في عام 1269، وبذلك ذهبت دولة الموحدين وولدت دولة المرينيين [المترجم].

(2) تعرف هذه المعركة في التاريخ الأوروبي المسيحي باسم Las Navas de Tolosa [المترجم].

(3) Sevile في اللغات الأوروبية [المترجم].

(4) الغرب Algarve منطقة في أقصى جنوب البرتغال فتحها العرب في أوائل القرن الثامن، واستردتها مملكة البرتغال في منتصف القرن الثالث عشر، واسمها الأوروبي مشتق من كلمة «الغرب» العربية [المترجم].

السيطرة الإسلامية وأكملت أراغون غزو بلنسية الإسلامية بقيادة الملك جيمس الفاتح.

وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت قشتالة وأراغون المملكتين المهيمنتين في أيبيريا النصرانية، ولم يبق تحت السيطرة الإسلامية غير إمارة غرناطة في الركن الجنوبي الشرقي من إسبانيا. وعلى مدى أكثر من قرنين ونصف، استطاعت غرناطة أن تحافظ على استقلالها الهش في عهد النصريين كدولة تابعة لقشتالة. ومع أن بني نصر تمكنوا من حين إلى آخر من مضاعفة ثراء الأندلس المتلاشي، كما يتجلى في إكمالهم قلعة قصر الحمراء الأسطورية، فقد كان بقاؤهم يعتمد دوماً على الانقسامات الداخلية في قشتالة أكثر من قوتهم الذاتية.

ومع زواج إيزابيلا القشتالية من فيردناند الأراغوني عام 1469، باتت أيام إمارة غرناطة معدودة. وقد تزامن اتحاد أقوى مملكتين نصرانيتين في إسبانيا مع فترة كان العالم النصراني اللاتيني فيها يترنح من سقوط القسطنطينية عام 1453 أمام الأتراك العثمانيين وزوال الإمبراطورية البيزنطية. التقط الزوجان الجديدان راية الاسترداد، مستلهمين دعوة البابوية لإعداد حملة صليبية جديدة، ومدفوعين في الوقت عينه برغبتهما في توحيد رعاياهما الهائجين بعد أعوام من النزاع العائلي والحرب الأهلية، وعزما على غزو آخر معاقل الإسلام على التراب الإسباني.

على أن المهمة لم تكن سهلة بحال من الأحوال. فغرناطة رغم ضعفها السياسي، لم تستسلم بسهولة للغزو العسكري. فقد وفرت بلداتها ومدنها المسوّرة وقلاعها المحصنة وتضاريسها الجبلية عقبات هائلة أمام الجيش المهاجم. لكن فيردناند وإيزابيلا المصممين على تجنب الفشل حشدا قواتهما ببطء. وفي ديسمبر 1481، اتخذا من غارة إسلامية على بلدة الزهراء الحدودية ذريعة لغزو الإمارة. وعلى مدار العقد التالي، شق زهاء ستين

ألف فارس وجندي من المشاة طريقهم عبر الوديان النهرية والسهول حتى جبال غرناطة العالية، مدعومين بأرتال إمداد ووحدات غير نظامية كانت مهمتها الوحيدة حرق محاصيل العدو وتدميرها. ضمّت الجيوش النصرانية في صفوفها كثيراً من المتطوعين الأجانب، جذبهم الوعد البابوي بغفران الذنوب لمن يحاربون الكفار، فضلاً عن فرص النهب التي كانت توفرها هذه الحروب. فقد شارك رماة وحاملو فؤوس إنجليز ومحاربون قدامى من حرب الوردتين[1] ومرتزقة سويسريون ولوردات وفرسان من أنحاء أوروبا كافة في حرب أسماها الدبلوماسي البندقي أندريا نافاجيرو Andrea Navagero «حرباً جميلة ربحناها بالحب».

لم تكن الفروسية والاتقاد الروحي اللذان يتغنى بهما المؤرخون النصارى حاضرَين دائماً في حرب الاستنزاف الطاحنة، التي تقررت نتيجتها بعمليات الحصار والكمائن والمناوشات، وليس عبر معارك كبرى. فقد كانت حرباً جمعت الاستخدام الجديد للبارود والمدفعية مع الطقوس والتقاليد القديمة لحروب القرون الوسطى، حيث كانت إيزابيلا وسيدات البلاط يراقبن المعارك من خيام حريرية، وكان الفرسان المتنافسون يتحدى بعضهم بعضاً لقتال فردي، واستخدمت المدافع لتحطيم أسوار المدن المحاصَرة وإرهاب سكانها، وكان السكان المحاصرون يُجوّعون حتى الاستسلام.

أشرفت إيزابيلا شخصياً على مهمة تمويل المجهود الحربي النصراني،

(1) حرب الوردتين Wars of the Roses سلسلة من الحروب الأسرية على عرش إنجلترا بين مؤيدي فرعين متنافسين من سلالة بلانتاجينيه، هما لانكستر ويورك، اتخذا من الوردة «الحمراء» والوردة «البيضاء» شعاراً لهما على التوالي، جرت على نحو متقطع بين عامي 1455 و1485، وكان النصر النهائي فيها لهنري تيودور من آل لانكستر على آخر ملوك يورك ريتشارد الثالث. تزوج هنري من إليزابيث اليوركية ابنة إدوارد الرابع ليوحد الأسرتين، وحكم آل تيودور إنجلترا وويلز لمدة 117 سنة [المترجم].

وجمعت الأموال عبر عدة وسائل، من فرض ضرائب خاصة على رعاياها اليهود إلى رهن مجوهراتها الخاصة في إحدى فترات توقف الحرب. وكان زوجها فيردناند الذي أدار العمليات العسكرية يجمع من القسوة والبراغماتية ما جعل ميكيافيللي يلقبه الأمير المثال لعصر النهضة. وكانت البلدات والمدن التي تستسلم تستطيع عموماً أن تتفاوض على شروط مواتية أو «معاهدات استسلام» كانت تحفظ لها الحياة والممتلكات وحرية العبادة. في حين كان السكان الذين يقاومون الغزو تنتظرهم معاملة أشد، تتراوح من الإعدام الفوري إلى العبودية. ففي مالقة[1]- على سبيل المثال- قاوم السكان المسلمون في عام 1487 هجمات وقصفاً مدفعياً متكرراً قبل أن يجبرهم الجوع على الاستسلام، فعوقب السكان على مواجهتهم بأن بيعوا جميعاً عبيداً، أو قُدِموا «هدايا» للحكام النصارى الآخرين.

كان المسلمون العاديون يقامون الغزو دائماً بإصرار أثار إعجاب أعدائهم أنفسهم. وقد أبدى المؤرخ الإسباني فرناندو دي بولغار Fernando de Pulgar إعجابه بالتحدي الذي أظهره سكان الحمة[2]، حين «بذل الأندلسيون كل قوتهم وطاقتهم في القتال، كما يتحتم على الرجل الشجاع أن يفعل حين يدافع عن حياته وزوجته وأطفاله من تهديد الرق. ولذلك لم يكونوا يحجمون عن القتال فوق جثث أطفالهم وإخوانهم وأحبتهم على أمل إنقاذ الباقين»[3]. لكن الموارد البشرية والمادية المتوافرة للجيوش المهاجمة كانت دائماً أكبر. من ذلك ما قاله مسلم غرناطي مجهول

(1) Malaga في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) وجه سقوط الحمة (الحامة) Alhama أمام جيوش ماركيز قادس ضربة قاسمة لمملكة غرناطة لأنه فتح الطريق إلى عاصمة المملكة، وقد شن المسلمون معركة شرسة لاسترداد الحامة في 1482، لكنهم فشلوا بسبب تدفق التعزيزات على المدينة من قشتالة وأراغون ولأن فيردناند وصل لقيادة الجيش بنفسه، ثم حاولت جيوش الملكين غزو لوشة Loja لكنها فشلت في آخر انتصار للمسلمين في الأندلس [المترجم].

لاحقاً حين تذكر: «هاجمنا النصارى من كل حدب وصوب في سيل لا ينقطع، فرقة بعد أخرى.. وأخذوا يضربوننا بحماس وإصرار كالجراد في كثرة فرسانهم وأسلحتهم ... وعندما ضعفت قوتنا، خيّموا في أرضنا وضربونا، بلدة بعد أخرى .. وأحضروا كثيراً من المدافع الكبيرة التي هدمت الأسوار الحصينة للمدن»[4]. وقد تقوّض الدفاع عن الإمارة أكثر بفعل قيادة مترددة ومتعاونة مع العدو كان حرصها على ضمان ممتلكاتها وامتيازاتها أهم من مقاومة الغزاة[1].

تجلى هذا الضعف في الحاكم النصري محمد الثاني عشر المعروف للإسبان باسم أبي عبيدل[2]، الذي تقلب بين فترات غير مؤثرة من المواجهة والعلاقات السرية مع العدو النصراني. على أن انقطاع المساعدات من شمال إفريقيا كان قد قرر مصير الإمارة. فتساقطت بلداتها ومدنها واحدة تلو الأخرى أمام التقدم النصراني، إلى أن وقفت جيوش فيردناند وإيزابيلا أخيراً على أبواب العاصمة الأسطورية لبني نصر: غرناطة نفسها.

***

---

(1) كانت غرناطة تغلي بالثورة والحروب الداخلية في أوج صراعها مع الملكين الكاثوليكيين. فبعد سقوط الحمة خرج الأميران أبوعبدالله ويوسف على والدهما أبي الحسن علي سلطان غرناطة انتصاراً لأمهما عائشة «الحرة» على ضرتها القشتالية الحسناء إيزابيلا دي سوليس (ثريا)، ودارت الحرب بين الطرفين، قُتل فيها يوسف، إلى أن نظم بنو السراج ثورة في مدينة غرناطة وأبعدوا الأب وأحلوا ابنه عبدالله (أبي عبيدل) محله، وبدأ الابن قتال الكاثوليك إلى أن أسرته إيزابيلا ثم أطلقت سراحه ليجد أباه قد استرد الحكم، فعادت الحرب بينهما، وحتى حين مات الأب تولى أخوه الزغل السلطنة واستأنف الحرب مع ابن أخيه، إلى أن ضج الناس ويئس الزغل وأبرم اتفاقاً مع إيزابيلا في عام 1489 وغادر إلى تلمسان. وحتى بعد أن استتب الأمر لعبدالله، تواصلت الثورات والمؤامرات والتواطؤ مع الأعداء من جانب كبار رجال دولته [المترجم].

(2) أبو عبدالله محمد الثاني عشر (من حوالي 1460 إلى 1527) آخر ملوك بني نصر والمسلمين عموماً في الأندلس الملقب بالغالب بالله، تولى الحكم بعد حرب أهلية ضد أبيه ثم عمه، وأسرته جيوش إزابيلا قبل أن تطلق سراحه ليعود إلى إمارته، أسماه الإسبان أبا عبيدل وأسماه أهل غرناطة الزغابي، بمعنى المشؤوم أو التعيس [المترجم].

وبحلول صيف عام 1491، كانت المدينة التي تغنى بها الشعراء النصارى والمسلمون على حد سواء تعيش حالة من البؤس والضيق. وبات بمقدور أبي عبيدل وحاشيته أن يروا من قصر الحمراء خيام الجيوش النصرانية وأعلامها وراياتها المعسكرة في مرج غرناطة، على بعد بضعة أميال. وداخل أسوار المدينة كان السكان متخمين بالجنود واللاجئين المدنيين القادمين من الريف الذي مزقته الحروب، وقد ظلت تصلهم إمدادات غذائية متضائلة من الوديان الواقعة وراء الحائط الثلجي لسيرانيفادا. ومع ذلك كان الفرسان المسلمون ينفذون هجمات متكررة خارج المدينة لتحدي نظرائهم النصارى في قتال فردي، وكان الجانبان يدخلان في مناوشات متقطعة، لكن إظهار شجاعة الفرسان على هذا النحو لم يجلب لسكان غرناطة المحاصَرين غير العزاء النفسي.

وفي يوليو أظهرت الجيوش النصرانية عزيمتها ومواردها المتفوقة، حين أحرقت نيران غير مقصودة فسطاطها تماماً. ففي بضعة أشهر استعاضوا عن هذا المعسكر بفسطاط بُني على شكل صليب أسموه سانتافيه Santa Fe [العقيدة المقدسة]. ومن خلال تأمين مواقعهم، آثر النصارى تجويع غرناطة حتى الاستسلام، بدلاً من تنفيذ هجمات مكلفة. وعلى مدار الصيف والخريف، راحت قوات فيردناند تنشر الدمار في وادي القرن[1] وجبال البشرات[2] وتحرق القرى وتحطم المحاصيل والبساتين التي كانت توفر الغذاء للمدينة. ومع بداية الشتاء انتهت الحال بالمسلمين والتجار اليهود والجنويين[3] والعبيد الأفارقة والأسرى النصارى في غرناطة إلى أكل الخيول والكلاب والجرذان. وفي نوفمبر، بدأ أبو عبيدل ومستشاروه

(1) Lecrín Valley في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Alpujarra Mountains في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) نسبة إلى جنوى الدولة-المدينة الإيطالية [المترجم].

مفاوضات الاستسلام مع السكرتير الملكي القشتالي ايرناندو دي ثافرا Hernando de Zafra. وفي الشهر التالي وقع الملك النصري اتفاقية سرية على تسليم المدينة في السادس من يناير 1492. وحين أثارت الشائعات حول هذه المفاوضات احتجاجات عنيفة في ربض البيازين[1] بالمدينة، طلب أبو عبيدل تقديم تاريخ التسليم خمسة أيام[2].

وفي ليلة أول أيام يناير، سُمح لفرقة من القوات النصرانية بالدخول سراً إلى قلعة قصر الحمراء، وفي الصباح التالي استيقظ سكان غرناطة المذهولون ليجدوا أن الحرب قد انتهت وأن رايات قشتالة والقديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين[3]، ذلك الحواري الذي أصبح أيقونة الاسترداد، ترفرف فوق الأسوار الحمراء الشاهقة لقصر أبي عبيدل الفخم. ومن أطول الأبراج- برج الرياح[4]- أعلن صليب فضي ضخم الانتصار النصراني لفيردناند وإيزابيلا اللذين كانا يراقبان من مسافة قصيرة ومعهما جيوشهما وحشد من الحاشية والنبلاء ورجال الدين.

---

(1) ربض البيازين Albaicín هو الحي العربي بغرناطة [المترجم].

(2) كان أبو عبيدل أو عبدالله الصغير وكبار قادته مهمومين بمصير أنفسهم وعائلاتهم وممتلكاتهم قبل صالح شعبهم ودولتهم، ربما لما تأكدت لهم الهزيمة، حتى أن الوزير أبي القاسم بن عبدالملك ومساعده في المفاوضات يوسف بن كماشة قبل أنهما كتبا إلى الملكين الكاثوليكيين خطاباً يؤكدان فيه إخلاصهما واستعدادهما لخدمتهما، بل إن أبا عبيدل نفسه رغم أنه عقد معاهدة استسلام ضمنت حقوق رعيته وسلامتهم وأمانهم كان معنياً في المقام الأول بخلاصه وممتلكاته، بل عقد هو ووزراؤه مع النصارى معاهدة سرية حصلوا بمقتضاها على ضياع وأموال نقدية، ولذلك فحين تسربت أنباء الموافقة على الاستسلام عم الحزن والغم ربوع غرناطة وانتفض الناس للدفاع عن المدينة، فما كان من أبي عبيدل إلا أن اتفق مع فيردناند على تسليم المدينة قبل الموعد في الثاني من يناير 1492، ويبدو أن إدخال القوات النصرانية ليلاً إلى قلعة قصر الحمراء كما سيرد في الفقرة التالية كان مقصوداً به عدم إفلات الأمر من يد أبي عبيدل وتسليم المدينة قبل أن يطيح به الثوار [المترجم].

(3) هكذا اسمه في اللغات الأوروبية Saint James the Moorslayer، مع مراعاة ترجمة moor إلى «أندلسيين» وليس «مغاربة» [المترجم].

(4) اسمه في المصادر العربية برج الحراسة [المترجم].

ولدى رؤية العلَم والصليب، تعالت الهتافات المبتهجة «قشتالة!»، وأُعْلِنت إيزابيلا «ملكة غرناطة» الجديدة. كانت العاطفة جياشة جداً لدرجة أن الجنود الأشداء تعالت أصواتهم بالبكاء وأخذ يعانق أحدهم الآخر. وسجدت إيزابيلا القشتالية «اللبؤة العظيمة» شكرا لله، وتبعها الجيش كله، فيما كانت الجوقة الملكية تغني ترنيمة Te Deum Laudamus [لك الحمد يا ألله]. وبعد ذلك قاد الكاردينال مندوسة Mendoza رئيس أساقفة طليطلة وأعلى رجل دين في المنطقة موكباً من الجنود والرهبان والأساقفة نحو المدينة المفتوحة في عرض مهيب للأبهة والقوة العسكرية القشتالية. وفي الجهة المقابلة، كان أبو عبيدل يخرج من قلعة قصر الحمراء ويهبط التل ومعه حاشية من الفرسان والأقارب والخدم. وعندما اقترب «الملك الصغير»، كما كان النصارى يدعونه باستهزاء، من الملكين، أعطى فيردناند مفاتيح المدينة التي ناولها بدوره إلى زوجته، فيما هلل المنادي الملكي: «صاحبي السمو الملك فيردناند والملكة إيزابيلا، اللذين ربحا مدينة غرناطة وكامل مملكتها بقوة السلاح من الأندلسيين الكفار».

كثيراً ما يصوِّر المؤرخون والكتاب والشعراء هذه اللحظة الأيقونية ويزخرفونها. ولعل تمثيلها البصري الأشهر هو لوحة فنان القرن التاسع عشر فرانثيسكو براديا أورتيث Francisco Pradilla y Ortiz، التي تصوّر أبا عبيدل معمماً وعبداً أسود حافياً يمسك بزمام حصانه، وفي الخلفية يظهر قصر الحمراء. وفي مواجهته يوجد فيردناند وإيزابيلا مدثرين بملابسهما المبهرجة ومحاطين بالحاشية والكهنة وسط بحر من الرايات والحراب والأعلام. إنها لوحة رومانسية لما كان في حقيقته عملاً قد سبق عرضه من أعمال المسرح السياسي، لأن النقل الفعلي للسلطة كان قد تم فعلاً في الليلة السابقة، لكنه مع ذلك يمسك بأهمية المناسبة من منظور أبطالها النصارى.

ثم شق الحاكم الأخير للأندلس طريقه بعيداً إلى المنفى في ضِياعه

الواقعة في جبال البشرات، ولم توقفه غير «الزفرة الأخيرة» الأسطورية[1]، حسرةً على مملكته الضائعة التي وجدت طريقها إلى الروايات الكثيرة لسقوط غرناطة، من واشنطن إرفينغ إلى سلمان رشدي. لكنه ترك خلفه رعاياه المهزومين، الذين أغلقوا عليهم بيوتهم، فبدت المدينة مهجورة «وكأنها مدينة ضربها الطاعون» بتعبير أحد المؤرخين اللاحقين. فلم يظهر مسلم واحد في شوارع غرناطة في اليوم الأول لاستيلاء القوات النصرانية المبتهجة على المدينة. وتوجه فيردناند وإيزابيلا مباشرة إلى قصر الحمراء، وقضيا فيه بقية اليوم. وفي وقت متأخر من مساء اليوم نفسه نزلا إلى المدينة ليتلقيا هتافات الجنود قبل العودة إلى فسطاط «العقيدة المقدسة»، فيما كان قصر الحمراء يجهز لاستقبال البلاط.

هكذا انتهى ما أسماه أحد المعاصرين «أسعد وأبهى يوم طلعت عليه الشمس في إسبانيا». فبالنسبة إلى الكاهن والمؤرخ الملكي أندريس بيرنالديث Andrés Bernáldez كان سقوط غرناطة الخاتمة المجيدة «للفتح المقدس والمهيب» الذي أثبت أن إسبانيا وحكامها كانوا مباركين من الرب[5]. وبالنسبة إلى بيتر مارتر الأنغياري[2] العالم الإيطالي بالبلاط القشتالي، كانت نهاية الإسلام الأيبيري تشير ضمناً إلى «نهاية مآسي إسبانيا» التي بدأت حين «جاء هذا الشعب الهمجي ... من موريتانيا قبل زهاء ثمانمائة عام تقريباً، وأنزل اضطهاده القاسي والمتغطرس بإسبانيا المحتلة»[6]. وفي أنحاء إسبانيا كافة، احتفل الناس بأخبار الاستسلام

(1) لايزال هذا المكان يعرف باسم «زفرة الأندلسي الأخيرة» el ultimo suspiro del moro، الذي بكى فيه أبو عبيدل، فقالت له أمه عائشة الحرة: «ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال»، مع أن غيرة عائشة من ضرتها القشتالية كانت السبب وراء خروج أبي عبدالله وأخيه يوسف على أبيهما، وما تلاه من حرب أهلية مضنية، كانت من العوامل الأساسية لضعف غرناطة وسقوطها [المترجم].

(2) Peter Martyr Anghieri نسبة إلى مدينة أو منطقة أنغياري Anghiera الإيطالية [المترجم].

بالولائم الشعبية والمواكب الدينية والقداسات الخاصة. وفي بعض المدن، استمرت المهرجانات والألعاب لأيام.

كما قوبل خبر فتح غرناطة بحماس مساو في أنحاء أوروبا كافة. ففي الوقت الذي كانت فيه الانتصارات النصرانية على الكفار قليلة ومتباعدة، وكانت أجراس الكنائس في النمسا وألمانيا تدق ثلاث مرات يومياً لتذكير سكانها بالتهديد الوجودي، الذي كان «الأتراك المروِّعون» يفرضونه عليهم، أُعْلِن فيردناند وإيزابيلا بطلَيْ العالم النصراني، وكافأهما البابا بلقب «الملكين الكاثوليكيين» los reyes católicos. وفي إنجلترا، جمع هنري السابع البلاط لصلاة خاصة في كاتدرائية القديس بول، وهناك وعظ الجمع بأن «ينشدوا لله أنشودة جديدة»، وأثنى على «بسالة ملكي إسبانيا فيردناند وإيزابيلا وتقواهما».

أما نتائج سقوط غرناطة في التاريخ الإسباني فقد أصبحت مادة مكررة: كيف حصل المغامر الجنوي المدعو كرستوفر كولومبوس أخيراً على الإذن من فيردناند وإيزابيلا للقيام برحلات الاستكشاف التي قدمت لإسبانيا إمبراطوريتها الشاسعة فيما وراء البحار، وكيف حُوّلت الطاقات العسكرية، التي تراكمت عبر قرون الحرب المقدسة ضد الكفار، إلى فتوحات جديدة نيابة عن الدِين، وكيف خرجت مملكة قشتالة الفقيرة من قرون العزلة، لتصبح إمبراطورية عالمية. لكن، بالنسبة إلى كل من المتنصرين والمسلمين المهزومين، الذين أصبحوا رعاياهم في إسبانيا النصرانية الموحدة، كانت نهاية حرب غرناطة فاتحة لنوع جديد من المواجهة لم يتوقعه أحد الطرفين أو يستعد له. وكي نفهم كيف تكشّف هذا الصراع، نحتاج إلى أن نرجع إلى الوراء بعيداً، نحو العالم الذي انتهى في ذلك اليوم المهم من شتاء عام 1492.

الباب الأول

الغزو للتنصير

وأيـن قرطبة دار العلوم فكم	مـن عـالم قـد سما فيها لـه شان
وأين حمص[1] وما تحويه من نزه	ونهرها العـذب فياض ومـلآن
قـواعـد كـن أركـان البـلاد فما	عسى البقاء إذا لم تبق أركـان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلـف هيمان
على ديـار مـن الإسـلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيـهـن إلا نـواقيـس وصلبان

أبو البقاء الرندي، رثاء إشبيلية (1267)

(1) كانت إشبيلية تعرف أيضاً باسم «حمص»، بسبب نزول جند الشام فيها أول ما نزلوا بالأندلس [المترجم].


Twitter: @ketab_n

1
الاستثناء الأيبيري

أنهى سقوط غرناطة ما كان يعد من عدة نواح انحرافاً استثنائياً عن المواجهة الدينية والجيوسياسية المريرة بين الإسلام والنصرانية. فقد وقعت أحداث معظم تاريخ الأندلس على خلفية الحملات الصليبية، حين كانت دعاية الحرب النصرانية تصوّر الساراكينوس[1] المسلمين دوماً أنهم «عرق ملعون»، وكفار فاسقون، وبرابرة دون مرتبة البشر، ووحوش لهم رؤوس كلاب لا يستحقون غير الإبادة. فوحشية الحرب الصليبية وخطاب الحرب المقدسة، الذي كان يجرد العدو من إنسانيته، والذي كان في الوقت عينه وقوداً لاستمرارها، كان يصحبها دائماً احتقار للإسلام نفسه، واشمئزاز منه.

فبالنسبة إلى نصارى القرون الوسطى، لم يكن الإسلام ديناً، بل «نِحلة ضالة» و«فيروساً مهلكاً» و«إهانة للرب»، وكانوا ينظرون إلى أتباعه أنهم

(1) الساراكينوس أو السراسنة Saracen مصطلح تاريخي بمعنى «الشرقيين» ويبدو أنه مشتق من الكلمة العربية، استخدم للإشارة إلى جماعات معينة، لكن بمعان مختلفة. فاستخدم في القرون الأولى لميلاد المسيح في اللغتين اليونانية واللاتينية للإشارة إلى سكان المناطق الصحراوية في مقاطعة البتراء الرومانية أو حولها، الذين كانوا مميزين عن العرب، وفي أوروبا في العصور الوسطى المبكرة بدأ استخدامه لوصف القبائل العربية، وفي القرن الثاني عشر أصبح مرادفاً لكلمة «مسلم» في أدب العصور الوسطى اللاتيني، وهو التوسيع للمصطلح الذي حدث قبل قرون بين البيزنطيين كما يتضح في الوثائق اليونانية البيزنطية من عهد الخلافة الأموية. ولا يخفى ما يتضمنه المصطلح من تحقير وازدراء [المترجم].

وثنيون وزنادقة وعباد أوثان و«عباد حجارة»، في إشارة إلى حجارة الكعبة في مكة. وبالنسبة إلى توما الأكويني[1]، كان المسلمون «أناساً غير عقلاء، تنقصهم الدربة في الأمور الإلهية والإنسانية، فهم أقرب إلى البهائم، وهم يقطنون البراري، ويجهلون كلية كل التعاليم الإلهية». وعلى مدار العصور الوسطى، كانت العداوة النصرانية تتكشف دائماً في كتيبات الجدل المعادية للإسلام، التي كانت تهاجم البطلان والتضاربات المفترضة في القرآن. وركز كثير من هذه الكتيبات هجومه على شخص النبي محمد نفسه، الذي اتهم كثيراً بأنه «نبي كاذب» و«ساحر» و«شهواني» ومتعدد الزوجات، خدع أتباعه السذج بوعود كافرة «بالجنس في الجنة»[2]. ودحض بعض الكُتاب الدينيين الادعاءات الإسلامية بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم- قد صعد إلى السماء في صحبة الملائكة[3]، وقالوا إن جثته أكلتها الكلاب والخنازير.

انتشرت هذه الكتيبات الجدلية في أيبيريا أيضاً، وبعضها كان ينتج خصيصاً للقراء الإسبان. ففي عام 1142 كلّف رئيس دير كلوني Cluny بجنوب فرنسا رجال دين إسباناً بإنجاز ترجمة لاتينية للقرآن، كي يُشرّحوا «أخطاءه». وثمة ترجمة مماثلة أنجزها مارك الطليطلي Mark of Toledo عام

---

(1) توما الأكويني Thomas Aquinas (من 1225 إلى مارس 1274) راهب دومينيكي إيطالي بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وفيلسوف وعالم دين بارز ضمن تقاليد الفلسفة السكولاستية، وأحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، وأحد الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وأبو المدرسة التوماوية في الفلسفة واللاهوت، يعرف بالعالم الأنغليكاني والعالم المحيط، ينسب إلى بلدة «أكوين» الإيطالية، أثر تأثيراً كبيراً على الفلسفة الغربية الحديثة، ولو فقط من باب الثورة على أفكاره في مسائل الأخلاق والقانون الطبيعي والنظرية السياسية [المترجم].

(2) كل الكلمات والعبارات المسيئة للإسلام ورسوله الكريم، وحتى للمسلمين والمورسكيين- كما أكدنا في حاشية سابقة- لا تعبر عن رأي المؤلف، ولا هي حتى من تعبيره، وإنما هي تعبير النصارى أو المؤلفين في تلك الأزمان، ولذلك وضعها مؤلفنا بين مزدوجين، فهو يورد هذه الآراء بلغة أصحابها وحسب [المترجم].

(3) الإشارة إلى حادثة الإسراء والمعراج [المترجم].

1210 تضم تقديماً لرئيس أساقفة طليطلة، أوضح فيه كيف «أغوى محمد الشعوب البربرية بأوهام خيالية». وكشفت العاطفة المعادية للمسلمين في إسبانيا النصرانية عن نفسها في مفردات ازدرائية أشارت إلى الأندلسيين بألفاظ الساراكينوس الهاجريين (الأحفاد اللقطاء للمحظية هاجر كما ورد في التوراة[1]) و«أتباع محمد الأقذار» و«أعداء الرب». ومع أن

(1) الهاجريون Hagrites أو Hagarite فرع من الإسماعيليين ورد ذكره في التوراة، وهم سكان مناطق طور سيناء Jetur ونافش Naphish ونوباد Nobad الواقعة شرق جلعاد، يكنّ لهم اليهود– والنصارى تأثراً باليهود وتبنياً لروايتهم– عداوة قديمة، منذ أن حاربهم بنو رأوبين والجاديون في أيام الملك شاؤول وانتصروا عليهم، ودعا عليهم أساف بأن ينتقم الله منهم ويجعلهم «مثل الجل، مثل القش أمام الريح. كنار تحرق الوعر، كلهيب يشعل الجبال. هكذا اطردهم بعصفتك، وبزوبعتك روعهم. املأ وجوههم خزياً، فليطلبوا اسمك يا رب. ليخزوا ويرتاعوا إلى الأبد، وليخجلوا ويبيدوا. ويعلموا أنك اسمك يهوه وحدك، العلي على كل الأرض» (المزمور 83: 17–5). وكما سيرد في مواضع لاحقة من الكتاب فهم نسل إسماعيل ابن هاجر «الجارية» التي أمرت سارة إبراهيم– كما في رواية التوراة– بعد أن رزقها الله بإسحاق بأن يطردها هي وابنها من البيت، فأخذهما إلى بئر سبع أو برية فران، وهناك تعلقت به هاجر وتوسلت إليه ألا يتركهما في هذا المكان المقفر لأنها ستموت حتماً هي وطفلها، لكن إبراهيم أشاح وجهه عنها وانصرف داعياً الله لهما، ثم قفل عائداً إلى بلاد الشام. وتقول الرواية القرآنية إن إبراهيم استيقظ صباحاً فأمر هاجر بأن تتبعه بابنها الرضيع إسماعيل، فخرج بهما وهو لا يدري إلى أين يأخذهما، وكان كل ما مر بمكان فيه شجر ونخل وزروع قال: إلى ههنا يا رب؟ فيجيبه جبرائيل: امض يا إبراهيم، حتى وصل بهما إلى مكة، حيث لا زرع فيها ولا ماء، وهناك تركهما داعياً لهما الله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم: 37). وإسماعيل أيضاً تزوج من مصرية كأبيه، وهو في الإسلام نبي ابن نبي، لكنه في العهد القديم ليس نبياً، إذ قصرت التوراة النسل الوارث للنبوة في أبناء سارة: إسحاق ويعقوب. وإذا كان إسماعيل أبا العرب، أو على الأقل العرب المستعربة، فإن لعن الهاجريين ينصرف إلى العرب، مع أن الله كما ورد في سفر التكوين بالعهد القديم أنقذه وأمه من الهلاك وجعله أمة عظيمة: «فبكّرَ إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إيّاهما على كتفها والولد إسماعيل وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابلة بعيداً نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مُقابلة ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر. لا =

بعض المسلمين الإسبان كانوا يشيرون إلى أنفسهم باسم الأندلسيين، فإن المصطلح كان ازدرائياً عموماً حين يستخدمه النصارى واكتسب مدى من الدلالات الثقافية والدينية السلبية كانت توضع غالباً في مقابل طهر النصرانية وسموها.

وفي مقابل الأندلسيين المتوحشين والبرابرة والهمجيين، كان النصارى عقلانيين ومتمدنين. وفي حين كان النصارى يجلون العفة والتبتل، كان الأندلسيون داعرين ويخالطون نساء كثيرات[1] ويعجزون عن السيطرة على شهواتهم الجنسية. وبينما كان النصارى مسالمين ويوفون بالعهد ويحفظون الميثاق، كان نظراؤهم الأندلسيون يحبون الحرب وعدوانيين ومخادعين وخائنين. وبالنسبة إلى سانشو الرابع القشتالي كان «الأندلسيون مجرد كلاب... فتلك الأشياء التي يعتبرها النصارى شريرة وآثمة، يعتبرونها هم جيدة ومفيدة، والتي نعتبرها مفيدة للخلاص يعتبرونها هم آثمة»[2][1].

= تخافي لأنّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمّة عظيمة. وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران. وأخذت له أمُّه زوجة من أرض مصر» [المترجم].

(1) الإشارة هنا إلى تعدد الزوجات في الإسلام [المترجم].

(2) اعتاد الغرب، حتى قبل ظهور النصرانية، على نعت أعدائه بالبرابرة والهمج والمتوحشين ونزع الصفة الإنسانية عنهم وشيطنتهم وتحقيرهم، وفيما يخص أعداءه المشرقيين تحديداً، بدأ هذا الوصف التحقيري والنازع للإنسانية من جانب الإغريق الأثينيين بحق أعدائهم الفرس، وفيما بعد من جانب النصارى الأوروبيين عموماً بحق العرب المسلمين ثم الأتراك المسلمين، وظل باقياً حتى في كتابات العصور الحديثة المبكرة لكتاب مشاهير من أمثال ميكيافيللي وماكس فيبر وغيرهما، وحتى الآن لايزال هذا الميراث يتردد صداه في كتابات حديثة من تلك التي تروج لفكرة الصدام الحضاري بين الغرب والإسلام، كما سيتأكد في الفصل الأخير من هذا الكتاب عند كُتاب من أمثال بات يور وميلاني فيليبس. وللأمانة، فإن المسلمين طوروا أيضاً نسختهم من تكفير النصارى والتشكيك في كتابهم وعقيدتهم، فضلاً عن نعتهم بالبربرية والهمجية والقذارة، على نحو ما جاء- على سبيل المثال لا الحصر- في رسالة ابن فضلان =

على أنه كانت هناك بعض الاستثناءات لهذا التصوير السلبي، مثل المحاربين الأندلسيين المثاليين، الذين يصوّرون كثيراً في القصائد الغنائية النصرانية للقرون الوسطى على التخوم الغرناطية. فشخصية «الأندلسي النبيل» كانت فكرة نمطية ثابتة في الأدب الإسباني بالقرون الوسطى والعصر الحديث المبكر، وجدها نصارى كثر غريبة وساحرة. وكان هؤلاء الأندلسيون المصورون في الأدب دائماً فرساناً أو أرستقراطيين، وكانت فروسيتهم في العشق والقتال تضاهي فروسية نظرائهم النصارى، وصوِّروا غالباً بإجلال وإعجاب حتى ينقضا العداوة التي ميزت المواقف النصرانية من العدو الأندلسي. وقد أوجد التصوير النصراني الرومانسي للأندلسي في القصائد الغنائية بالقرون الوسطى المتأخرة، مثل شخصية

= عن بلاد جورجيا وروسيا والبلاد الإسكندينافية، حيث قال في الروس «وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب. ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة (الجميلات) للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه ... ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه (أنجسه). وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعه إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يتمخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي جانبه ففعل مثل فعل صاحبه ..»، وقال في الدغركيين: «كانوا يغتسلون في النهر، ويتخلصون من نفاياتهم خارج الأبواب .. ومع ذلك، لم يكونوا حقاً نظيفين، إلا بالمقارنة» يقصد مقارنة بقذارة الروس، وقال فيهم أيضاً «ويتألف مجتمع تريلبورغ غالباً من الرجال، وجميع النساء من الجواري، ولا توجد زوجات بين النساء. وينال الرجال من يشاؤون من النساء بحرية وكيفما يشاؤون»رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1959). وخشيةً من أن تجرح الأوصاف المسيئة للإسلام والمسلمين كبرياء القارئ العربي، فقد قررتُ للوهلة الأولى أن ألحق بالكتاب أحد كتيبات المسلمين الأوائل من هذا النوع، لكنني تذكرت أن الرسالة الأساسية للكتاب تتمثل في تعزيز التعايش والتسامح وقبول الآخر، ولذلك عدلتُ عن هذه الفكرة لأنها تحيل الكتاب إلى سجال في السباب والشتائم، بما يخرجه عن هدفه الأصلي [المترجم].

ابن عمار[1] المجهولة، شكلاً من الندية بين الجانبين، وكان فاتحة للميل إلى إضفاء طابع مثالي على الماضي الأندلسي والحنين إليه، الذي أسماه الدارس الفرنسي جورج سيروت Georges Cirot «الولع الأندلسي في الأدب» literary Maurophilia[2]. وكان الشعراء التروبادوريون[2] النصارى يتغنون كثيراً بجمال الأندلسيات، من الأميرات المحجبات الغامضات إلى العاميات الناطقات باللغة العربية في الغيتو[3] الإسلامي، اللاتي كلفوا بهن في كثير من القصائد والأغاني الشعبية.

غير أن عناصر الفتنة والتوق في التمثيلات الثقافية النصرانية لم تكن بحال من الأحوال كافية لإضعاف حدة العداء الديني للعدو الكافر، الذي كان العالم النصراني جله يعتبره مغتصباً ودخيلاً على الأراضي النصرانية. على أن تشويه الأندلسيين لم يتخذ طابعاً عرقياً بالمعنى الحديث.

(1) ابن عمار Abenamar قصيدة رومانسية من الأدب الإسباني للقرون الوسطى مكونة من ستة وأربعين بيتاً قصيراً، كتبت على شكل حوار بين الأندلسي ابن عمار والملك الكاثوليكي خوان الثاني القشتالي، تصف أحداثاً تاريخية وقعت في عام 1431 لكن مؤلفها وتاريخ تأليفها غير معروفين. تمجد القصيدة عظمة الأندلسيين وقتالهم من أجل استقلال مملكتهم، وتبدأ بثناء الملك على نبل ابن عمار. ينظر الملك إلى غرناطة من بعيد، ويسأل ابن عمار عن القلاع والقصور الشاهقة التي يراها بداخل المدينة، فيرد ابن عمار بوصف بعض العجائب المعمارية بالعاصمة الأندلسية، كقلعة قصر الحمراء والجامع وقصر بني نصر والأبراج الحمراء. وبعد أن رأى الملك غرناطة وسمع عن ثرائها، خاطب المدينة نفسها طالباً يدها للزواج، ومقدماً لها قرطبة وأشبيلية مهراً لها، لكنها أبت بكبرياء قائلة: «إنني متزوجة، ولست أرملة، وزوجي الأندلسي يهيم بي حباً» [المترجم].

(2) الشعراء التروبادوريون troubadour طبقة من الشعراء الغنائيين و«الشعراء الموسيقيين» اشتهروا في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر [المترجم].

(3) آثرتُ الاحتفاظ بكلمة «الغيتو» لإبراز المعاناة والاضطهاد اللذين تعرض لهما المسلمون في الأندلس، تماما مثل اليهود الذين عاشوا في «الغيتوهات» اليهودية التي عرفت بهم واستعطفوا بها وبالمحرقة– التي يخصص الكتاب الحالي فصلاً كاملاً عن طرد الموريسكيين باعتباره «المحرقة المستساغة»– العالم حتى ميزهم على البشر جميعاً وأعطاهم أرضاً ليست أرضهم وأمدهم بالدعم والحماية وخصهم بقوانين تحميهم من النقد، في تعارض صريح مع حرية الراي والتعبير [المترجم].

فعلى الرغم من أن بعض التواريخ النصرانية من القرون الوسطى تذكر سواد بشرة المحاربين الأندلسيين لتعزيز تمثيلاتها للمسلمين على أنهم أجانب وبرابرة، تضم الرسوم التوضيحية بكتاب الشطرنج لألفونسو الحكيم[1] أندلسيين سمراً يلعبون الشطرنج مع النصارى، ما يوحي بأن لون البشرة لم يكن وصمة عار في إسبانيا القرون الوسطى.

كان العداء النصراني الأيبيري يدفعه في الأساس إحساس بالتفوق الديني والثقافي، تعزز بفعل تجربة الغزو والإخضاع. لكن في حال تحييد الحقد الديني، ولو نظرياً على الأقل، فإن الشوفينية الثقافية كان من الصعب تأييدها بالأدلة. فقد يصوّر المؤرخون النصارى الأندلسيين على أنهم برابرة بدائيين، لكن هذه الفرضيات لم تكن تصمد كثيراً أمام الحضارة الإسلامية المجاورة التي تفوقت عليهم في إنجازاتها. من ذلك أن مؤلف «التاريخ العام الأول لإسبانيا» First General Chronicle of Spain الذي يعود إلى القرن الثالث عشر، عند وصفه غزو فيردناند الثالث القشتالي لإشبيلية عام 1248، لم يتمكن من كبح انبهاره بعجائبها، وقال: «لا توجد مدينة في العالم بهذا التناسق والتناغم».

ومع تقدم عملية الاسترداد، طوى النسيان قوة إسبانيا الأندلسية وإنجازاتها، وغدا العدو الأندلسي المرهوب الجانب سابقاً مستضعفاً ومحتقراً أكثر منه مصدر تهديد. وفي العصور الوسطى المتأخرة كانت مدن وقرى إسبانية كثيرة تنظم مواكب ورقصات مهرجانية كانت تعرف باسم «الأندلسيين والنصارى»، كان النصارى المحليون يلبسون فيها زي أندلسيين يهزمهم النصارى في معارك وهمية. وفي بعض الحالات، كان

---

(1) ألفونسو الحكيم Alfonso the Learned هو ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون وجليقية (حكم من 1252إلى 1284)، اهتم بالعلم، واتخذ القشتالية لغة للتعليم، وكان مؤلفاً غزير الإنتاج [المترجم].

النصارى يحتفلون بانتصارهم بتحطيم دمى للنبي محمد أو إغراق مقلِّد أو ممثل له في البئر المحلية[3].

* * *

على أن الحقد والعداوة لم يكونا من جانب النصارى فقط، فقد كان لإسبانيا الإسلامية مفردات تشويه واحتقار خاصة لوصف النصارى، منها وصفهم أنهم أعداء الله، والنصارى (أي أتباع الناصري[1])، والكلاب، والخنازير، والفرنجة، وهو مصطلح عام لكل النصارى الأوروبيين كان مرادفاً للهمجية والقتل وانعدام الثقافة. ومن ذلك وصف الجغرافي الأندلسي إبراهيم بن يعقوب للجليقيين[2] أنهم «غادرون وأقذار ولا يستحمون إلا مرة أو مرتين في العام وبالماء البارد. ولا يغسلون ملابسهم إلى أن تبلى، لأنهم يزعمون أن الأوساخ التي تتراكم نتيجة لعرقهم ترقق أجسامهم»[4]. وهذه الصورة للنصارى كأناس بدائيين أقذار غير متحضرين كانت تقترن دائماً بعداوة دينية لم تكن أقل عمقاً من نظيرتها النصرانية. ومع أن المسلمين قبلوا بعضاً من جوانب الدين النصراني، فإنهم رفضوا ما اعتبروه تعاليم كافرة، مثل الثالوث، وإلوهية المسيح، وبتولة مريم، وفي بعض الأحيان، كتب علماء الدين المسلمون كتيبات جدلية معادية للنصرانية، كانت تسخر من «الأخطاء» والتضاربات في الكتاب المقدس.

ليس غريباً إذن أن النزاعات المسلحة بين الممالك النصرانية والإسلامية

(1) ربما على منوال لفظ «النصارى» الذي استخدمه المسلمون قديماً، أطلق النصارى على المسلمين اسم «المحمديين» أو «الطائفة المحمدية»، ليس فقط من باب التحقير، كما سيرد في حواشي لاحقة، وإنما من باب إنكار دينهم وتكذيب نبيهم [المترجم].

(2) نسبة إلى منطقة جليقية Galicia في شمال غرب إسبانيا تتمتع الآن بحكم ذاتي، لكنها لم تكن يوماً دولة أو مملكة مستقلة، كما كانت الحال مع قشتالة مثلاً، لكنها مع ذلك لم تخضع يوماً للحكم الإسلامي، ولعبت دوراً في عملية الاسترداد لوقوعها على طرق الحج النصراني، وتُعرّب اليوم غاليسيا [المترجم].

في أيبيريا كانت متكررة، وتتميز في الغالب بنوع المذابح التي تصوّرها قصيدة «سيد» الملحمية من القرون الوسطى[1]، التي يتطلع فيها الفارس النصراني مينايا إلى قتال الأندلسيين «فأرفع الرمح وأشهر السيف، والدم يسيل إلى أعلى مرفقي». وطوال تاريخ غرناطة النصرية، كان المحاربون النصارى والمسلمون يقومون بعمليات هجوم على الماشية وغارات متبادلة شبه طقوسية، وكان الجانبان فيها يستعرضون رؤوس أعدائهم المقتولين وآذانهم كتذكار للحرب.

وفي كل مكان، اقترف النصارى والمسلمون كلاهما أعمالاً وحشية وانتهاكات كثيرة، أكدت وعززت العداوة المتبادلة بينهما، على أن الحروب بينهما في أيبيريا لم تكن جميعها بدافع الدين، حتى وإن كان خطاب الحرب المقدسة يثار غالباً من الجانبين كليهما كدعوة للحشد وتبرير للغزو. علاوة على أن الحروب الأيبيرية لم تكن تقع فقط بين النصارى والمسلمين، فقد تعاون الحكام المسلمون والنصارى أيضاً بعضهم مع بعض، وشكّلوا تحالفات عسكرية مؤقتة. وكان النصارى يقاتلون أحياناً إلى جانب قوات إسلامية ضد مسلمين آخرين، والعكس. وبطل الاسترداد العظيم رودريغو دياث دي فيفار أو «إل سيد»[2] قاتل بجانب المسلمين، وكذلك

(1) قصيدة سيد Poem of the Cid هي أقدم قصيدة ملحمية قشتالية محفوظة، تحكي قصة حقيقية للبطل القشتالي سيد أو إل سيد El Cid (اسمه الحقيقي «مينايا» Minaya، و«سيد» أو «السيد» كلمة من أصل عربي بمعنى القائد)، الذي خاض معارك شرسة ضد الأندلسيين في حرب الاسترداد، كي يسترد مكانته واعتباره عند ملك قشتالة ألفونسو السادس بعد أن نفاه الأخير عقب اتهامه بالسرقة بسبب وشاية من أعدائه [المترجم].

(2) رودريغو دياث دي فيفار Rodrigo Diaz de Vivar هو إل سيد المذكور في الحاشية السابقة، وهو محارب إسباني ولد عام 1048 تقريباً في فيفار بالقرب من برغش وتوفي في العاشر من يوليو 1099 في بلنسية، تكثر حوله القصص الموثوقة وغير الموثوقة، كان فارساً بارزاً في حرب الاسترداد، وتولى منصب القائد العام لجيش قشتالة وليون في زمن فيردناند الأول وابنه الملك سانشو الثاني وأخيه ألفونسو السادس، تجسدت بطولاته الحربية في قتاله لملوك الطوائف المسلمين. نفاه ألفونسو بعد معركة قبرة Cabra (1079) التي هزم فيها الأمير عبدالله حاكم =

ضدهم. وفي القرن الثاني عشر قاتل مرتزقة نصارى نيابة عن الحكام المسلمين في المغرب، في حين تحقق الغزو القشتالي لإشبيلية في عام 1248، الذي أثار الرثاء الحزين من جانب الشاعر الرندي بمساعدة جنود أندلسيين من غرناطة.

وبين هذه الحروب، امتدت أيضاً فترات طويلة من الاستقرار النسبي، كان النصارى والمسلمون يتصرفون فيها بما يتفق مع مصالحهم السياسية أو الإقليمية المحددة، وليس كممثلين لِدين كل منهما. ومن بداية الفتح الإسلامي لإسبانيا، كان الأندلسيون والنصارى مضطرين أيضاً للعيش جنباً إلى جنب على الأرض نفسها. ففي القرون الأولى للأندلس، عاش النصارى تحت الحكم الإسلامي. ومع الصعود النصراني بداية من القرن الحادي عشر فصاعداً، انقلبت هذه العملية، فوجد المسلمون أنفسهم يعيشون تحت حكم نصراني. وفي أثناء هذه القرون من المودة المفروضة، استطاع المسلمون والنصارى أحياناً أن يفصلوا أنفسهم عن المواجهة المؤلمة، التي كانت تتكشف في أماكن أخرى.

لكن، تظل طبيعة هذه العلاقة أحد أكثر الجوانب إثارة للجدل في تاريخ الأندلس. ففي أوائل القرن التاسع عشر، روّج كُتاب ورحالة أجانب، من أمثال شاتيوبرياند Chateaubriand وواشنطن إرفينغ، رؤية غربية لإسبانيا الأندلسية باعتبارها أنشودة رعوية شرقية حالمة في أسفل أوروبا، وباعتبارها الأركادية ما قبل الحديثة للتسامح الديني، عاش فيها اليهود والمسلمون والنصارى جنباً إلى جنب على أساس الاحترام المتبادل والمساواة. وكثيراً ما كان المؤرخون الليبراليون والبروتستانتيون في القرن

= غرناطة لأنه لم يستأذنه في الحرب أو بسبب الغيرة أو السرقة من الغنائم أو غير ذلك، فذهب إلى البرتغال فرفضوا خدماته، وذهب إلى دولة سرقسطة حيث رحب به أميرها يوسف المؤتمن ابن هود وولاه قيادة جيوشه وظل فيها في عهد خليفته المستعين الثاني، وفيها حصل على لقب «السيد» [المترجم].

التاسع عشر، ومنهم المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين-بول Stanley Lane-Poole، يصورون إسبانيا الأندلسية بلغة مماثلة.

وروّج بعض المؤرخين الإسبان الرؤية نفسها للأندلس لكن دون اللغة المنمقة. ففي كتابه «الإسبان: مقدمة إلى تاريخهم» (1948)، سكّ العالم اللغوي الإسباني الكبير أمريكو كاسترو تعبير «التعايش» convivencia لوصف التناغم بين الأديان الثلاثة، واعتبر ذلك جوهر الأندلس. ورأى كاسترو، المنفي الليبرالي في عهد دكتاتورية فرانكو، أن هذا التعايش كان بديلاً كونياً وجذاباً أكثر من الشوفينية القومية التي جسدها نظام فرانكو. قوبلت أفكار كاسترو برفض شديد من ناقده الرئيس كلوديو سانشيث ألبورونوث Claudio Sanchez Albronoz، ومنذ ذلك الحين يتحداها مؤرخون إسبان وأجانب، منهم ريتشارد فلتشر Richard Fletcher، الذي وصف التسامح الأيبيري بأنه «أسطورة من صنع الخيال الليبرالي الحديث»[5]. على أن هذا الجدل يصعب حسمه، جزئياً لأن الأدلة التاريخية مختلطة ومتناقضة، وكذلك لأن الأفكار الحديثة حول التسامح والتعددية الثقافية هي نفسها مفاهيم محل جدل، ومعانيها وتوقعاتها المعاصرة لا تفيد دائماً في تقييم العلاقات التي كانت سائدة في أيبيريا الإسلامية أو النصرانية.

منذ المراحل الأولى للفتح الإسلامي، كانت معاملة النصارى واليهود في أيبيريا الإسلامية تتحدد وفقاً للنظام القرآني المعروف بأهل الذمة أو العهد الذي يعطي «لأهل الكتاب» الحماية، لكنه يعتبرهم أقليات خاضعة في الدولة الإسلامية. فسُمح لليهود والنصارى بالعبادة وإدارة شؤون جماعاتهم، كل وفقاً لشريعته، لكن هذا الحكم الذاتي كان مقيداً دائماً. فلم يكن مسموحاً لأحد الدينين الدعاية لنفسه وضم أتباع جدد. ونظرياً على الأقل، لم يكن مسموحاً لهما ببناء كنائس أو معابد جديدة أو

القيام بمواكب دينية عامة أو دق أجراس الكنائس، وكذلك كان اليهود والنصارى يخضعون لضريبة رأس خاصة تعرف بالجزية، كان المسلمون معفيين منها.

كان اليهود هم المستفيدون الرئيسيون من هذه الترتيبات في الفترة المبكرة من عمر الأندلس، لأن الفتوحات الإسلامية حررتهم من منزلة المنبوذين، التي أخضعهم لها القوط. وفي عهد خلافة قرطبة، بلغ عدد من اليهود مكانة عالية في البلاطات الإسلامية كمستشارين وأطباء ورجال دولة ودبلوماسيين. ومن أمثلة هؤلاء حسداي بن شبروط الطبيب الشخصي لعبدالرحمن الثالث، الذي أدى عدداً من الخدمات الدبلوماسية للخليفة، ورعى حلقة من الشعراء والمفكرين اليهود شكّلت كتاباتهم إحدى أكثر الفترات إبداعاً في تاريخ إسبانيا اليهودية. ومن أمثلتهم أيضاً الشاعر ورجل الدولة إسماعيل بن النغريلة (993-1056)، الذي تمتع بحياة مهنية حافلة لأكثر من ثلاثين عاماً كوزير لحاكم غرناطة.

على أن هذا التسامح لم يكن دائماً أو عمومياً. ففي عام 1066، قُتل زهاء ثلاثة آلاف يهودي في غرناطة في مذبحة عامة لأسباب غير واضحة. وقد حدث اختلاف كبير في طريقة معاملة اليهود في قرطبة القرن العاشر ومعاملتهم اللاحقة في عهد دولة المرابطين والموحدين الأكثر صرامة ومحافظة في حقبة الطوائف، حين مورس التمييز ضدهم في الفترة الأخيرة، وأجبروا أحياناً على لبس شارات صفراء كعلامة على مكانتهم، بوصفهم رعايا من الدرجة الثانية. لكن حتى في عهد أكثر الحكام المسلمين قمعاً، لم تحدث محاولة منظمة لاستئصال اليهودية أو النصرانية من أيبيريا. ولم تخضع الكنيسة الأيبيرية للهجوم المدمر الذي يصفه المؤلفون المجهولون لكتاب «تاريخ إسبانيا» من القرن الثالث عشر:

دمرت المقادس، وهدمت الكنائس، ودنست الأماكن

> التي يعبد فيها الله ببهجة. وقذفوا الصلبان والمذابح خارج الكنائس. وأتلفوا الزيت المقدس والكتب وكل تلك الأشياء التي تمجد النصرانية وداسوها. ونسيت الأعياد والاحتفالات جميعها. وتحوّل جلال القديسين وجمال الكنيسة إلى قبح وقذارة. والكنائس والأبراج التي كانوا يستخدمونها لتمجيد الرب، باتت أماكن ينادون منها محمداً[6][1].

ترجع هذه الصورة للغزو البربري إلى السرديات الدعائية لعملية الاسترداد، لكنها تفتقر إلى الدقة التاريخية. ففي القرون الأولى لإسبانيا الإسلامية كان المسلمون أقلية في الممالك التي حكموها، ولم يكن من مصلحتهم إحداث مثل هذا الخراب، حتى لو أرادوا. فالسلطة الإسلامية في أيبيريا تأسست عبر اتفاقات أبرمت بالتفاوض وبالقوة العسكرية أيضاً، وقد وفروا للحكام النصارى المحليين استقلالاً دينياً في مقابل خضوعهم السياسي للحكم الجديد. ومن ذلك المعاهدة التي وقعت بين الحاكم المسلم عبدالعزيز[2] وتدمر[3] حاكم مرسية[4] القوطي في عام 713، التي نصت تحديداً على أن النصارى المحليين «لن يُكرهوا في أمور الدين، ولن تحرق كنائسهم، ولن تؤخذ منهم أشياؤهم المقدسة» شريطة أن يقسموا بالولاء لحكامهم الجدد، وأن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم[7].

---

(1) الإشارة للأذان بالتأكيد [المترجم].

(2) هو عبدالعزيز بن موسى بن نصير، الذي عيّنه أبوه على إشبيلية في عام 713، ثم ولاه الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك (674–717) على الأندلس، تزوج من أم عاصم أرملة لذريق فائقة الجمال التي ملكت زمامه، ويقال إنها أوعزت إليه بأن يضع تاجاً فوق رأسه وأن ينحني له الناس تشبهاً بملوك القوط التي كانت منهم، وقد أدى ذلك إلى قتله، ربما بسبب الشك في نواياه في الانفصال عن الخلافة الأموية [المترجم].

(3) أو تدمير Theodemir في اللغات الأوروبية [المترجم].

(4) Murica في اللغات الأوروبية [المترجم].

ومع استتباب الحكم الإسلامي في أيبيريا، تحولت أعداد كبيرة من النصارى الإسبان إلى الإسلام، إما بدافع الاقتناع أو جلب المنفعة، وأصبحوا يعرفون باسم المولدين. وأصبحت الجماعات النصرانية الباقية أقلية خاضعة في وسط ثقافة عربية/ إسلامية مهيمنة، وباتت تعرف باسم المستعربين أو الكاثوليك المستعربة. وكما هي الحال مع كل الأقليات، واجه المستعربون خطر تآكل سماتهم الدينية والثقافية المميزة على المدى الطويل من خلال الاتصال المستمر بثقافة الأغلبية المهيمنة. ومع أن بعض الحكام المسلمين أشركوا النصارى في بلاطهم، فإن الحراك الاجتماعي والمناصب العليا كانت مقصورة عموماً على المسلمين ومتحدثي اللغة العربية، ما عزز بلا شك إغراء اعتناق الإسلام. وحتى النصارى الذين آثروا ألا يعتنقوا الإسلام لم يسلموا من تأثير الثقافة الإسلامية المحيطة بهم. وكما يوحي اسمهم، فقد كان كثير من المستعربين يتحدثون اللغة العربية إضافة إلى اللغة اللاتينية، حتى إن الكنيسة المستعربة أدمجت اللغة العربية في القداس، وهو تطور لم يرض عنه النصارى خارج إسبانيا الذين اعتبروا الكنيسة الإسبانية مهرطقة في ذلك.

وبالنسبة إلى الكنيسة الإسبانية، كان التهديد الرئيس للدِين لا يأتي من الإكراه الديني الصريح، وإنما من تعرضه الطويل للثقافة العربية/ الإسلامية العلمانية، التي وجدها كثير من النصارى العاديين مغرية وجذابة، وحتى تحررية. ومن دلائل ذلك أن المؤلف النصراني بول ألباروس Paul Alvarus تحسر، في قرطبة القرن التاسع، من شعبية الشعر والأدب العربيين بين الشباب النصراني، إذ آلمه أن:

> يقبل النصارى على قراءة القصائد والقصص الخيالية العربية، ويدرسون علماء الدين والفلاسفة العرب، ليس بغرض دحضهم، وإنما لاكتساب لغة عربية

> صحيحة وبليغة. أين الرجل العادي الذي يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدس، أو الذي يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الحواريين؟ واحسرتاه! لقد غدا النصارى الموهوبون جميعاً يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بحماس، ويجمعون مكتبات ضخمة بأموال كثيرة، ويحتقرون الأدب النصراني لكونه غير جدير باهتمامهم. ونسوا لغتهم، لدرجة أنه في مقابل كل شخص يستطيع كتابة رسالة لصديق باللغة اللاتينية، يوجد ألف شخص يستطيعون التعبير عن أنفسهم بلغة عربية بليغة، ويكتبون قصائد بهذه اللغة أفضل من العرب أنفسهم[8].

فبالنسبة إلى ألباروس وغيره من النصارى الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، كان فقدان الهوية الثقافية اللاتينية يحمل معه أيضاً إمكانية اعتناق الإسلام. وقد دفعت هذه المخاوف معاصر ألباروس المؤثر؛ الكاهن القرطبي يوليوجيوس Eulogius، إلى بث عقيدة الاستشهاد بغرض دق إسفين بين الجماعات النصرانية والإسلامية في قرطبة القرن التاسع. ومع ذلك، فقد وصف يوليوجيوس قرطبة في عهد عبدالرحمن بأنها «سامية في الشرف، وواسعة في المجد، ومليئة بالثروات والطاقة، وتحفل بوفرة من كل مباهج العالم، التي تفوق قدرة المرء على التصديق أو التعبير»، وهو الواقع الذي عمّق يأس الرجل على مستقبل الكنيسة[9]. وبين عامي 850 و859 أعدم ثمانية وأربعون من أتباع يوليوجيوس في قرطبة بسبب الدعوة إلى دينهم أو سب النبي [الكريم] محمد. وبلغت الحركة أوجها بإعدام يوليوجيوس نفسه. ومع ذلك، فلم يفلح «شهداء قرطبة» في تغيير الترتيبات القائمة في المدينة، إذ ظل النصارى يعيشون

وفقاً للتشريع الممنوح لإخوانهم النصارى في مناطق إسبانيا الأخرى.

***

لكن مع تقدم عملية الاسترداد، انقلبت هذه الدينامية، إذ وجد المسلمون أنفسهم يعيشون كأقليات دائمة تحت الحكم النصراني. وجاءت معاملة هؤلاء المدجنين (أي من لم يغادروا إسبانيا بعد الاسترداد)، الذين وجدوا أنفسهم خاضعين لملوك نصارى، مماثلة تماماً لنظام أهل الذمة الذي طبق على النصارى في السابق. وقد تحدد المبدأ الأساسي للنظام الجديد في قانون الأجزاء السبعة، الذي أصدره الملك القشتالي ألفونسو العاشر في القرن الثالث عشر، والذي نص على أن «يعيش الأندلسيون بين النصارى على طريقة... اليهود نفسها، الذين يلتزمون بشرائعهم الخاصة ولا يسيئون إلى شرائعنا»[10]. على أن قانون الأجزاء السبعة رفض الاعتراف بشرعية الإسلام كدين أو «تشريع»، ووصفه بأنه «إهانة للرب». فحظر على المسلمين بناء المساجد في المدن النصرانية أو القيام بالأشكال العامة للعبادة الإسلامية، في حين سمح لهم باتباع دينهم داخل جماعاتهم. وفي القرن الثالث عشر أصدر جيمس الفاتح الأراغوني قانوناً مماثلاً للمدجنين في وادي أويتشو Uxó Valley ذهب أبعد من ذلك إلى:

> إننا نرغب في أن يعيش المسلمون وفقا لسنتهم [الشريعة الإسلامية] في الزواج وكل الأمور الأخرى. ويمكنهم أن يعبّروا علناً عن شريعتهم في صلواتهم والتعليم العام لأبنائهم [المشتمل] على قراءة القرآن، دون أن يلحق بهم أي أذى بسبب ذلك. ويمكنهم التنقل وراء أعمالهم في كل أراضي المملكة وألا يعيقهم أحد عن ذلك[11].

ذكرت قوانين الأندلسيين leyes de moros، التي عُرِفت بقوانين جيمس الفاتح، أدق التفاصيل الهادفة إلى تنظيم التفاعلات اليومية بين

المسلمين والنصارى، وتقليل إمكانية النزاع. فالوثيقة التي منحها جيمس لمسلمي بلنسية عام 1242 حددت لهم الأماكن المسموح لهم السفر إليها، والأعشار التي كان عليهم أن يدفعوها على القمح والشعير والمنتجات الزراعية الأخرى، وكيفية حصولهم على المياه، والأراضي والممتلكات التي سمح لهم بالاحتفاظ بها. وحظرت الوثيقة نفسها على النصارى أيضاً أن يجوروا على أراضي المسلمين، أو أن يمنعوا المسلمين من السفر، أو أي محاولة لتقييد شعائرهم الدينية. وثمة قوانين أخرى أرست حقوق وراثة الممتلكات داخل الجماعات الإسلامية، والضرائب والأعشار التي يدفعها الجزارون والمواخير والعاهرات من المسلمين، والعقوبات المختلفة على العلاقات الجنسية بين المسلمين والنصرانيات أو بين النصارى والمسلمات، وجرائم محددة مثل السرقة والقتل المتورط فيها أندلسيين ونصارى كضحايا أو جناة.

اختلفت هذه الاتفاقات بين أجزاء إسبانيا المختلفة، لكنها مع ذلك كانت الأساس لتعايش واهن، كان يتأثر دائماً بالتقلبات في المناخ السياسي والاجتماعي. فلم يكن التسامح الأيبيري يعني الاحترام المتبادل أو الاحتفاء بالتنوع الديني والثقافي كإنجاز إيجابي في ذاته. ففي إسبانيا الإسلامية والنصرانية على حد سواء كان يصحب التعايش غالباً الفصل أو العزل الذي كانت السلطات الدينية للأديان الثلاثة حريصة دائماً على الحفاظ عليه. فالمسلمون واليهود في الممالك النصرانية إبان القرون الوسطى عاشوا عادة منعزلين عن النصارى في أحياء منفصلة تسمى «موريريا»[1] و«خوديريا»[2] على التوالي. وكانت الجماعتان تتعرضان من حين إلى آخر إلى قوانين تحدد لباسهم ومظهرهم بغرض تمييزهم عن

(1) morería ومعناها بالإسبانية الأحياء الأندلسية [المترجم].

(2) judería ومعناها بالإسبانية الأحياء اليهودية [المترجم].

النصارى. ففي عام 1332، أُمِر المسلمون في قشتالة بإطلاق لحاهم أو حلق شعرهم على شكل حلقة، فيما كان المسلمون واليهود في أراغون القرن الرابع عشر محظوراً عليهم ارتداء بعض الألوان أو الخواتم المصنوعة من الذهب أو الأحجار الكريمة.

كان المقصود بعلامات التمييز من هذا النوع أن تضمن سهولة التعرف إلى أتباع الأديان الثلاثة وتقليل خطر العدوى الدينية، التي قد تنشأ عن القرب المكاني بينهم. وكان المقصود منها أيضاً أن تقلل إمكانية العلاقات الجنسية عبر خط التقسيم الديني. فالأديان الثلاثة كانت تحرّم هذه العلاقات، وأفردت لها عقوبات قاسية. ففي بعض الجماعات اليهودية، اقترح أحبار محليون تشويه اليهوديات اللاتي ضاجعن نصارى أو أندلسيين حتى لا يكن جذابات لمحبيهن، وحتى يكون ذلك ردعاً للأخريات عن اقتفاء أثرهن. وفي أراغون القرن الرابع عشر، كان المسلمون الذين يضاجعون نصرانيات يتعرضون لانتزاع أحشائهم وتقطيع أجسامهم أرباعاً، وكانت النساء يحرقن أحياء، في حين كان النصارى الذين يضاجعون مسلمات يلزمون بالجري عراة في الشوارع. وكانت المسلمات اللاتي يمارسن الجنس مع نصارى يتعرضن للجلد أو الرجم حتى الموت طبقاً لشريعتهن. لكن هذه العلاقات كانت تحدث حتماً، رغم ذلك، وكان يتسامح معها غالباً، وإن على مضض.

وبغض النظر عن أوامر السلطات الدينية للجماعات المحلية، كانت هذه الجماعات تصوغ ترتيباتها الخاصة، التي لم تكن تعكس دائماً أولويات حكامها. ففي عام 1382، حظرت السلطات البلدية في مدينة بيانة Vallbana البلنسية على المسلمين والنصارى أن يعيشوا معاً تحت سقف واحد لمنع «وقوع الشرور الكثيرة وخطر الموت وانتهاك الدِين الكاثوليكي». وفي عام 1436 تذمر مسؤولو الكنيسة في بلدة بروغة

Brihuega القريبة من طليطلة من أن «اليهود والأندلسيين لديهم علناً في بيوتهم خدم من النصارى؛ رجال ونساء، يأكلون ويشربون معهم باستمرار»، ومنعوا هذه الاتصالات. وفي أراغون القرن الخامس عشر، انتقد رئيس أساقفة سرقسطة[1] النصارى في تيروال Teruel الذين «يزدرون الدِين الكاثوليكي» بشراء اللحم من الجزارين المسلمين. حتى إن الحكام النصارى في نبارة[2] سمحوا بإقامة كازينو قمار داخل الجماعة الإسلامية للتغلب على التحريم الديني لمثل هذه الأفعال.

على أن الحدود بين الثقافات والحضارات تكون دائماً أكثر نفاذية مما يبدو، وقد أظهرت إسبانيا القرون الوسطى أمثلة كثيرة للتفاعلات اليومية بين أتباع الأديان الثلاثة، تحدّت الخصومة المتبادلة بينهم. فكان النصارى والمسلمون واليهود يختلطون في الأسواق المحلية، ويشترون ويبيعون فيما بينهم. ففي تيروال القرن الرابع عشر، باع رهبان نصارى أرضاً لمسلمين محليين وضمِنوا هذه الصفقة بالقسم: «لا إله إلا الله» الذي قبله الطرفان[12]. وربما كانت الكنيسة تحظر على النصارى شراء اللحم من الجزارين المسلمين، لكن هذا اللحم كان أرخص في بعض الأحيان، ما جعل النصارى يقبلون على شرائه. وكان البناؤون والحرفيون المسلمون يبنون الكنائس والكاتدرائيات، والأطباء المسلمون واليهود يطببون المرضى النصارى. وكان المسلمون يقامرون ويسكرون مع النصارى في الحانات. وكانوا يعملون جنباً إلى جنب في الحقول وأحياناً في مواقع العمل الحضرية. وكان التجار المسلمون والنصارى يؤسسون شركات تجارية معاً.

ثمة إشارات أيضاً على وجود حياة أيبيرية مشتركة شارك فيها أتباع

(1) Zaragoza في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Navarre في اللغات الأوروبية [المترجم].

الأديان الثلاثة على قدم المساواة. ففي عامي 1322-1323، اشتكت مجالس الكنائس في بلد الوليد[1] وطليطلة من أن النصارى واليهود والمسلمين كانوا يحضرون أفراح بعضهم وجنائزهم، وأن النساء النصرانيات كن يدعين صديقاتهن اليهوديات والمسلمات للقداس. وفي نوبة الجفاف التي ضربت بلدة باليس Valés في عام 1470، صلى اليهود والمسلمون والنصارى معا للاستسقاء. وحتى عام 1486، كان فيردناند مضطراً إلى أن يحظر على النصارى في بلدة طرطوشة[2] السماح للمسلمين بالصلاة في كنيستهم المحلية في الأيام المقدسة الإسلامية، التي كانوا يُسمعون فيها وهم «يهللون ويعظمون الاحتفالات والأشياء التي تأمرهم به ديانتهم الإسلامية[3]، وعاداتهم الشيطانية»[13]. وقد عبّر ابن عربي؛ الصوفي الأندلسي العظيم، في قصيدة مشهورة عما اعتبره الكثير تمثيلاً لجوهر التسامح الأندلسي قائلاً:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة　　فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف　　وألواح توراة ومصحف قرآن[14]

وعلى مدار معظم تاريخ الأندلس، لم يكن حتى هذا المثال مطمحاً، لكنه لم يغب كلياً. فالروح التي عبّر عنها ابن عربي يمكن أن تُرى في قبور الحكام النصارى والنصارى العاديين ذات النقوش المكتوبة باللغتين العربية واللاتينية، ولدى الشعراء اليهود القرطبيين، وفي أشعار المستعربين

(1) Valladolid في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Tortosa في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) العبارة المستخدمة في أمثال هذه المواضع هي Mahometan sect [الطائفة أو النحلة المحمدية] التي كان النصارى يستخدمونها للإشارة إلى الإسلام وأتباعه من باب التحقير وإنكار شرعية أو سماوية دينهم [المترجم].

الملغزة المعروفة باسم الخرجات[1]، التي كانت تكتب باللغة اللاتينية وتلحق بنهايات قصائد عبرية أو عربية أطول. وفي عام 1137، بعد عودة ألفونسو السابع إلى طليطلة من معركة أوريليا[2]، يسجل كتاب تاريخ باللغة اللاتينية أن المسلمين واليهود والنصارى شاركوا جميعاً في المواكب الموسيقية، واحتفلوا بالانتصار النصراني «وغنوا جميعا شكراً لله... كل بلغته». وفي «كتاب الألعاب» الذي ألفه الملك ألفونسو الحكيم ملك قشتالة العظيم بالقرن الثالث عشر، نرى نصرانياً وفارساً مسلماً يلعبان الشطرنج ورمحاهما منتصبان خارج الخيمة، والشطرنج نفسه، المستجلب من جانب العرب، كان ذا شعبية واسعة بين الطبقة الراقية النصرانية.

ومع أن ألفونسو شارك في غزو إشبيلية، الذي قاده أبوه فيردناند في عام 1248، فإنه أصر على أن تكتب النقوش على قبر أبيه باللغة اللاتينية والعربية والقشتالية والعبرية. كما كلّف «إمبراطور العلم»[3] فريقاً من الباحثين والعلماء بترجمة بعض الأعمال الرئيسة لأيبيريا الإسلامية إلى اللغة القشتالية. وشارك اليهود والمسلمون والنصارى جميعهم في التجربة الفكرية الفذة لطليطلة، وهي «مدرسة الترجمة»، حيث شكّلوا جماعة من العلماء كان طلب العلم بالنسبة إليهم يتجاوز الانقسامات الدينية. وعلى مدى قرون شكّلت أيبيريا منطقة التخوم بين الإسلام والنصرانية، وكما هي الحال في كثير من مناطق التخوم، سمح القرب المكاني والألفة بحدوث تبادلات وتأثيرات ثقافية، لم تكن ممكنة دائماً في أماكن أخرى.

---

(1) الخرجة kharja المعروفة أيضاً باسم المركز markaz هي القرار أو اللازمة الأخيرة في الموشح الغنائي الأندلسي، كانت تكتب باللغة العربية أو العبرية [المترجم].

(2) لم يجد المترجم شيئاً عن معركة أوريليا Aurelia، لكنها ربما كانت إحدى المعارك التي خاضها ألفونسو السابع القشتالي لضم مملكتي نبارة وأراغون، اللتين انفصلتا عن قشتالة بعد موت ألفونسو الأول [المترجم].

(3) أحد ألقاب ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون وجليقية [المترجم].

يمكن رؤية هذا التخصيب المتبادل في انصهار الأساليب والموضوعات المعمارية للمستعربين والمدجنين، وفي القفاطين الحريرية الأندلسية بين طبقة النبلاء القشتاليين، والوصفات الطبية العربية التي جُمِعت لملوك بلنسية، وشعبية الموسيقى الأندلسية في المجتمع النصراني. فكثيرا ما كان الحكام النصارى يستخدمون موسيقيين وراقصين أندلسيين لإدخال السرور على حاشيتهم، وكان الموسيقيون المسلمون يُدعون أيضاً إلى الكنائس النصرانية لإقامة سهرات عيد الفصح الطويلة على شرف السلطات الدينية. وعزف الموسيقيون الأندلسيون والنصارى الموسيقى معاً في سرور في مجموعة الأغاني الجميلة «أناشيد مريم العذراء» لألفونسو الحكيم[1]، ما يؤكد الحدود الثقافية غير الصماء، التي كثيراً ما كانت تصدم الرحالة النصارى إلى إسبانيا في القرون الوسطى. ففي عام 1466، وصف ليون دي روسمتال Leon de Rosmithal؛ بارون بوهيميا، زيارة قام بها إلى كونت قشتالي في برغش[2] استقبله هو وحاشيته فيها بـ«فتيات وسيدات جميلات مزينات بثراء على الطريقة الأندلسية، وكن في مظهرهن العام وأكلهن وشربهن يتبعن تلك الطريقة. ورقصت بعضهن رقصات جميلة على الطريقة الأندلسية، وكن جميعاً سمراوات بعيون سوداء». ووجد الرحالة التشيكي تأثيراً أندلسياً مماثلاً في البلاط القشتالي نفسه، الذي ذكر بنقمة أن الملك إنريكو الرابع[3] «يأكل ويشرب ويلبس على الطريقة الهمجية لأعداء النصارى»[15].

وانتُقِد إنريكو أيضاً على ميوله الأندلسية من جانب مؤرخين إسبان،

(1) أناشيد مريم العذراء (بالقشتالية Cantigas de Santa Maria، بالإنجليزية Canticles of Holy Mary) مجموعة من 420 قصيدة بالتدوين الموسيقي كتبت باللغة الجليقية–البرتغالية في عهد ألفونسو العاشر السابي، وعادة ما تنسب إليه [المترجم].

(2) Burgos في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) إنريكو Enrique باللغة القشتالية، وهنري Henry باللغات الأوروبية الأخرى [المترجم].

من أمثال ألونسو دي باليثيا Alonso de Palencia، الذي أسماه «عدو الدين الموالي للأندلسيين». لكن نفاذية الحدود الثقافية بين إسبانيا الأندلسية والنصرانية التي أذهلت الزوار الأجانب لم تكن تعني بالضرورة أن النزاع والعداوة قد تلاشيا. فالنبلاء القشتاليون الذين أحبوا الحرير الأندلسي أو استخدموا موسيقيين أندلسيين لتسليتهم كانوا في الوقت عينه يقاتلون العدو الإسلامي نيابة عن الدِين. لكن، مع أن المسلمين والنصارى واليهود كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض بعين العداء والريبة، بل والاشمئزاز، فقد اضطروا أيضاً لفترات طويلة أن يعيشوا ويعملوا ويتعبدوا جنباً إلى جنب، وأن يقبلوا وجود بعضهم كواقع معيش في الحياة الأيبيرية. وفي بعض الأوقات استطاعوا أن يتفاعلوا معاً بطرق يمكن أن نخرج منها بدروس إيجابية للحاضر. وإذا كان هذا التعايش لم يصل إلى حد الأركادية ما قبل الحديثة للتعددية الدينية والثقافية التي تخيلها بعض المؤرخين، فإنه كان أكثر تسامحاً بكثير من النظام الجديد الذي تلا انهياره النهائي.



2
الغالبون

كان اشمئزاز ليون دي روسمتال من التأثيرات «الوثنية» على البلاط القشتالي يعكس ارتياباً أوسع بين النصارى الأوروبيين في العلاقات المعقدة والغامضة التي ترسخت بين المسلمين والنصارى في أيبيريا. ففي عالم القرون الوسطى، الذي كانت تستحوذ عليه فكرة وضع خطوط فصل واضحة بين الأديان، والتماثل الكامل داخل الكنيسة، لم يكن قرب النصارى والمسلمين في إسبانيا، وضبابية الحدود الخارجية بين الثقافة والدين، التي ظهرت أحياناً في شكل اللباس واللغة والسلوك، موضع ترحيب في أوروبا. وربما كانت هذه العلاقات ممكنة في المقام الأول بفضل عزلة إسبانيا الجغرافية والسياسية عن بقية أوروبا. صحيح أن الكاثوليكية الإسبانية كانت تحتفظ دائماً بصلات روحية بالكنيسة الرومانية، حتى في أوج القوة الإسلامية، لكن هذه الصلات كانت ضعيفة دائماً، وكان الكهنة الإسبان مضطرين بحكم موقفهم إلى أن يقرّوا تسويات كان يستحيل تصورها في أي مكان آخر.

وحتى مع اكتمال الاسترداد، حين بدأت الكنيسة تستعيد سلطتها السياسية ومكانتها المهيمنة في شبه الجزيرة، ظل رجال الدين مضطرين إلى أن يأخذوا بعين الاعتبار واقعاً أيبيرياً لم تكن مقتضياته تتفق بالضرورة مع ما كان يحدث خارج حدود إسبانيا. فقد كان بإمكان باباوات الحرب

الصليبية أن يدعو النصارى إلى طرد الساراكينوس من الأراضي المقدسة، في حين كان من غير الممكن دائماً تنفيذ سياسة مماثلة في إسبانيا نفسها التي كان وجود المسلمين فيها دائماً ضرورة للاقتصاد المحلي للممالك النصرانية، ولأن النصارى الذين يعيشون خارج هذه الممالك كانوا عرضة لخطر المعاملة بالمثل. ومع أن الحكام النصارى بإسبانيا كانوا يقدمون الاسترداد دوماً كمشروع مقدس نيابة عن العالم النصراني كله، فقد بدت هناك دائماً فجوة بين الخطاب والممارسة. فحين أكمل جيمس الفاتح الغزو النصراني لبلنسية ومرسية، حرّضه البابا وبعض أساقفته على «إبادة الساراكينوس» من أراضيه التي ضمها حديثاً. على أن كلمة «إبادة» لم تكن تعني القتل بالضرورة، لأن أصلها اللاتيني exterminare كان يتضمن أيضاً فكرة الطرد. لكن الملك الأراغوني لم يكن بمقدوره أن يمتثل لهذه المطالب دون فقدان السكان الذين يفلحون الحقول ويحصدون ويزودون التاج نفسه بدخل كان أساسياً بالنسبة إليه.

وكانت معاملة اليهود تخضع غالباً لقيود مماثلة. فحتى حين كان اليهود يتعرضون لاضطهاد متزايد في أماكن أخرى من أوروبا، ظل الحكام النصارى في إسبانيا يظللون رعاياهم اليهود بحماية رسمية، بموافقة كارهة من الكنيسة. لكن التسامح الأيبيري كان دائماً أكثر هشاشة ومشروطية مما كان يبدو. ومع ازدياد اندماج إسبانيا في بقية العالم النصراني، باتت معاملتها لليهود والمسلمين أكثر تأثراً بالتطورات فيما وراء جبال البرانس.

***

دخلت الكنيسة اللاتينية، بداية من القرن الحادي عشر فصاعداً، أزمة سياسية وروحية طويلة، اقترن فيها الخوف من الانشقاق الديني الداخلي وفقدان السلطة البابوية بهوس الهرطقة المتنامي. وقد وصف مؤرخ العصور الوسطى مور R.I. Moore تطور العالم النصراني الغربي

في تلك الفترة بأنه «مجتمع قائم على الاضطهاد»، أخذت فيه «المؤسسات الحكومية والقضائية والاجتماعية توّجه عنفاً متعمداً ومجازاً اجتماعياً ضد جماعات من الناس تحددت بخصائص عامة مثل العرق أو الدين أو طريقة الحياة، وأصبحت العضوية في هذه الجماعات في ذاتها مبرراً كافياً لهذه الهجمات»[1].

ففي عام 1209، أطلقت البابوية حملة صليبية همجية داخلية ضد هرطقة الكاثار(1) في جنوب فرنسا المجاورة في حرب إبادة بكل معنى الكلمة. وبعد إبادة المعاقل الأخيرة للكاثار في عام 1229، عُقِدت محكمة تفتيش بابوية في تولوز لاستئصال من بقي منهم على قيد الحياة، وشقت نشاطات المحكمة طريقها أيضاً إلى شمال إسبانيا وقطلونية اللتين فر إليهما بعض الكاثار هرباً من الاضطهاد. وقابل هوس البابوية بالانشقاق الديني و«الدنس» الداخلي للهرطقة عزيمة متجددة على وضع حدود واضحة بين النصارى وغير النصارى. من ذلك أنه في عام 1215، أمر المجمع المسكوني الرابع لكنيسة لاتيران(2) اليهود والمسلمين في أنحاء العالم النصراني كافة بارتداء

---

(1) الكاثار Catharist (Albigensian) (بمعنى الطاهر في اللغة اليونانية) أتباع حركة دينية نصرانية بالاسم نفسه كانت تضم في عقيدتها عناصر ثنائية وغنوصية انتشرت في معظم أرجاء أوروبا، انطلقت من جنوب فرنسا في القرن الحادي عشر وازدهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وأخمدت في العقود الأولى من القرن الثالث عشر عن طريق الحملة الصليبية الكاثارية التي أبادت الكاثار ولم تترك لمحاكم التفتيش غير اللمسات الأخيرة [المترجم].

(2) مجالس أو مجامع لاتيران Lateran councils مجالس أو سندوسات إكليروسية للكنيسة الكاثوليكية عقدت في روما في قصر لاتيران المجاور لباسليقيا لاتيران، عقدت منها خمسة مجالس، دعا إلى رابعها- والثاني عشر بين المجامع المسكونية- البابا إنوسنت الثالث في التاسع عشر من أبريل 1213 وعقد فعلاً في الحادي عشر من نوفمبر 1215 وأدى الفارق الزمني الكبير بين تاريخ الدعوة وتاريخ الانعقاد إلى حضور كثيف من كبار رجال الدين النصارى من مختلف أرجاء العالم ما جعله يأخذ اسم «المجمع العظيم»، لحشد الجهود وجمع الأموال لدعم الحملات الصليبية بعد إخفاق حملتين وتآكل الإمبراطورية البيزنطية، وكان من مقرراته فرض لباس خاص على المسلمين واليهود في البلاد النصرانية لتمييزهم عن النصارى [المترجم].

لباس مميز لإزالة إمكانية «الخلط اللعينة» معهم. وطبقت هذه التعليمات في أيبيريا، لكن كما كانت الحال دائماً، لم تفرض أو تراعَ بالشدة الواجبة.

انجذبت إسبانيا كثيراً أيضاً إلى فلك العالم النصراني اللاتيني عبر ترسخ الحج إلى شنت ياقوب[1] وطائفة القديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين بداية من القرن الحادي عشر فصاعداً. ساق طريق الحج أعداداً متزايدة من النصارى إلى إسبانيا، حتى إنه عزز الأهمية الروحية لإسبانيا نفسها داخل العالم النصراني. ويدين رواج طائفة القديس جيمس بالكثير إلى جهود الدير البنيديكتي في كلوني بجنوب فرنسا، الذي ألّف رئيسه بالقرن الثاني عشر بيتر المبجل Peter the Venerable كتيّبين مؤثرين حول «هرطقة الساراكينوس»، كانا موجهين خصيصاً للقراء الإسبان. وكان رؤساء الأديرة الكلونيون[2] الأقوياء من أشد أنصار الحملات الصليبية، ووفرت صلاتهم الوثيقة بالحكام النصارى المشاركين في عملية الاسترداد، إضافة إلى دورهم الرئيس في تنظيم وتسهيل طريق الحج الشعبي إلى شنت ياقوب[3]، قناة أخرى لنقل العداء الأوروبي للمسلمين إلى إسبانيا.

تزامن الطابع الجهادي للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى المتأخرة مع فترة كان الحكام النصارى الأيبيريون يحققون فيها سلسلة من الانتصارات المذهلة على الأندلسيين، وبدا أن أَوَج الاسترداد لا يمكن صدُّه. وعلى خلاف الإسلام، كانت المعاملة النصرانية للمسلمين واليهود تأتي دائماً بمثابة تنازل براغماتي، وليست التزاماً دينياً، إذ كانت تسترشد في

(1) شنت ياقوب أو سانتياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela مدينة في منطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا ترجع جذورها إلى ضريح القديس جيمس الكبير، أو يعقوب بن زبدي كما يسمى في المصادر اللغة العربية، الذي يشكل الآن كاتدرائية المدينة، ويعد مقصداً للحجيج النصارى، ولعب وجوده على طريق الحج الكاثوليكي في القرن التاسع الذي لعب دوراً في حشد الدعم النصراني لاسترداد الأندلس وطرد المسلمين منها [المترجم].

(2) نسبة إلى مدينة كلوني الواقعة بجنوب فرنسا [المترجم].

(3) Santiago في اللغات الأوروبية، وتعني القديس يعقوب [المترجم].

المقام الأول بالرغبة في ضمان المعاملة بالمثل للنصارى، الذين كانوا يعيشون على الأراضي الإسلامية وبالمنافع الاقتصادية التي كان المسلمون واليهود يدرّونها على ممالك إسبانيا قليلة السكان. ومع اشتداد القوة النصرانية وتحول السكان النصارى مرة أخرى إلى الأغلبية في أيبيريا كلها، أصبح موقف المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم النصراني محفوفاً بالمخاطر. ولذلك قمعت ثورات المدجنين في أندلوسيا وبلنسية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بطريقة دموية وتلتها مذابح متقطعة لكن بشعة بحق المسلمين.

تجلى التحول في إسبانيا على نحو موجع في تغير معاملتها لليهود الإسبان. كان اليهود في العصور الوسطى المبكرة يلقون معاملة طيبة من الحكام النصارى في أيبيريا، حتى إن كثيراً من اليهود الأوروبيين بدؤوا يعتبرون سيفاراد Sefarad- اسم إسبانيا في اللغة العبرية- وطنهم الطبيعي. على أن إسبانيا لم تكن محصنة كلياً ضد اندلاع العنف المعادي للسامية والقمع الرسمي لليهود اللذين انتشرا في أنحاء أوروبا بعد الحملة الصليبية الأولى، لكن ظروف اليهود في أيبيريا النصرانية كانت مُرضية بما يكفي لجذب مهاجرين يهود من أوروبا، وأيضاً من دولتي المرابطين والموحدين اللتين كانتا أشد ممارسة للتمييز ضد اليهود. ونظرياً على الأقل، كان اليهود محميين من اضطهاد الحكام النصارى، الذين ثمنوا مهاراتهم الإدارية والمالية العالية، واستطاع اليهود في البلاطات النصرانية أحياناً أن يصعدوا إلى مناصب عالية كان يصعب تخيلها في أماكن أخرى في أوروبا. وبحلول العصور الوسطى المتأخرة، كانت إسبانيا قد أصبحت وطناً لأكبر تجمع يهودي على القارة، وكانت لدى اليهود الأيبيريون مبررات للتفاؤل حول مستقبلهم أكثر من معظم اليهود الأوروبيين الآخرين.

لكن ذلك كله بدأ يتبدد من أواخر القرن الثالث عشر فصاعداً، مع تأثر

إسبانيا بالكاثوليكية الجهادية التي كانت تنتشر عبر أوروبا والكراهية التي تجمعت على اليهود «قتلة المسيح». وفيما كانت كنيسة القرون الوسطى المبكرة مهيأة لقبول اليهودية إلى حد ما، أخذ علماء الدين والرهبان الواعظون على نحو متزايد يشجبون «اليهود الغادرين» ويطالبون اليهود إما باعتناق النصرانية أو الطرد من المجتمع النصراني. وفي إسبانيا، كما كانت الحال عبر أوروبا، وجدت هذه الدعوات جمهوراً متقبلاً وسط الأوبئة والمجاعات والحروب الأهلية الكارثية التي دمرت البلاد في القرن الرابع عشر، وبلغت ذروتها بأهوال الطاعون. وكان الاختيار يقع دوماً على اليهود ككبش فداء لهذه الكوارث، فكانوا يتهمون بتسميم النصارى وبقائهم آمنين. واشتدت معاداة السامية الشعبية بسبب السخط على المكانة التي بلغها بعض اليهود في المستويات العليا للمجتمع النصراني. وفي العقد الأخير من القرن الرابع عشر أنتجت هذه المشاعر سيلاً من الحقد والعنف سمّم العلاقة بين أتباع الأديان الثلاثة.

***

انفجرت هذه العواطف بوحشية إلى سطح المجتمع الأيبيري في عام 1391، حين قدم كاهن أندلوسي[1] يدعى فيران مارتنيث Ferrán Martínez سلسلة من الخطب الشريرة المعادية لليهود في إشبيلية. فانقض الغوغاء النصارى على الحي اليهودي وذبحوا كثيراً من قاطنيه. وأطلقت هذه المذبحة عاصفة من العنف عبر إسبانيا، فأحرق الغوغاء النصارى البيوت والمعابد اليهودية، وقُتل الآلاف من اليهود أو اضطُروا لاعتناق النصرانية كي ينقذوا حياتهم وممتلكاتهم. وقد تفجع أحد الناجين من هذه المذابح قائلاً: «انتحبي أيتها التوراة المقدسة المجيدة وارتدي ثياباً سوداء لأن شراح كلماتك المشرقة قضوا في النيران»، وكتب في لفيفة التوراة الخاصة

(1) نسبة إلى منطقة أندلوسيا Andalusia وليس للأندلس [المترجم].

بأبيه أنه «على مدار ثلاثة أشهر انتشرت الحرائق عبر المعابد المقدسة لمنفيي إسرائيل في سيفاراد... وكانت الكلمة العليا للسيف والذبح والدمار والتنصير الإجباري والأسر والسلب والنهب»[2].

وعلى مدار العقدين التاليين، آثر عشرات الآلاف من اليهود أن يعتنقوا النصرانية لتفادي الاضطهاد والتهديدات بمزيد من العنف. وأصبح هؤلاء اليهود المتحولون يعرفون باسم «المُنَصَّرين» conversos أو «اليهود المُنَصّرين» judeoconversos أو «النصارى الجدد»، لتمييزهم عن النصارى الإسبان «القدامى» الذين لم يكونوا من أسلاف يهود أو مسلمين. ومع أن السلطات الدينية والعلمانية أدانت العنف، فإنها لم تستطع أن تكبح مد الكراهية الذي انتشر خلال كثير من البلدات والمدن الإسبانية في تلك السنوات. لكنها أيضاً لم يكن لديها الرغبة لنقض آثاره. فبعد جدل مطول حول الشرعية اللاهوتية للتنصير القسري من خلال العنف والإكراه، أعلنت الكنيسة أن هذه المعمودية شرعية، وأعطت تصديقها بأثر رجعي على ما بدأه الغوغاء. وأسهمت السلطات النصرانية أيضاً في عملية التنصير. ففي عام 1412، أمرت الإنجليزية أم إيزابيلا والوصية على عرش قشتالة وليون كاثرين اللانكسترية اليهود والمسلمين بقطع كل الاتصالات الاقتصادية والاجتماعية مع المجتمع النصراني، وأن يتقيدوا بأحيائهم وإلا واجهوا الموت أو مصادرة ممتلكاتهم، فيما عرف بـ«قوانين كتالانيا»[1]، التي نتجت عن ضغوط من بابوية أفينيون[2] والراهب البلنسي الناري القديس بيسنتي فرير Vicente Ferrer (1350-1419) عضو جماعة «كلاب الرب» الدومينيكانية[3]، التي دعت إلى فصل

(1) كتالانيا Catalania هو اسم كاثرين باللغة القشتالية [المترجم].

(2) أفينيون Avignon مدينة في إقليم فوكلوز بجنوب شرق فرنسا تشتهر بقصور الباباوات، عاش فيها الكثير من الباباوات الحقيقيين والمزيفين، خاصة في القرن الرابع عشر [المترجم].

(3) تنتسب هذه الجماعة أو الأخوية إلى القديس دومينيك الذي تقول المصادر المبكرة أن أمه =

اليهود المُنَصّرين عن اليهود الباقين على دينهم لضمان ألا يرتدوا عن دينهم الجديد.

كان الخطيب الساحر فرير يحب الوعظ في المقابر في وقت الغروب، وفي هذا الموقف كان وجود التائبين واللاطمين يعزز التأثير العاطفي للخطب التي كان يحرض الناس فيها على ضرورة عزل اليهود والمسلمين عن المجتمع النصراني لأن «النصراني والكافر يجب ألا يعيشا معاً في بيت واحد لأن الإثم مُعْدٍ»[3]. وتأثر الرهبان الحفاة عبر إسبانيا بمواعظ فرير المهيّجة، فانقضوا على المعابد يلطمون أنفسهم ويأمرون اليهود بالاستماع إلى الخطب الليلية التي تحثهم على اعتناق النصرانية.

كان المقصود بقوانين كاثرين هو أن تأتي بالنتيجة عينها، وهي إجبار اليهود، وبدرجة أقل المسلمين، على الاختيار بين منزلة المنبوذين أو التنصر. ومنع اليهود من العمل في الحكومة القشتالية وكل المهن الأخرى التي يتصلون فيها بالنصارى، والسماح لهم بالعمل داخل جماعاتهم وحسب. ولقد أجبر الآلاف منهم على ترك منازلهم والانتقال إلى الغيتو المعزول لفصلهم عن النصارى، وأجبر آخرون على عيش حياة صعبة والجوع أو التجمد حتى الموت، في حين كان أحبارهم يصلون باستماتة في المقابر اليهودية لأرواح الصالحين لتتوسط نيابة عنهم. لقد كانت فترة مقيتة ومروّعة تبنى فيها كثير من اليهود اعتقاد عالم يهودي قال إن «السماء تغطيها سحابة [ثقيلة جداً] تمنع مرور أي صلاة إلى الله»[4].

ونتيجة لهذه الأحداث الكارثية عُمد زهاء ثلاثمائة ألف يهودي وعدد غير معلوم من المسلمين كـ«نصارى جدد». وكان هذان العقدان حداً

= العاقر حجت إلى سيلوس، وجاءها في المنام أن كلباً يقفز من رحمها يحمل مشعلاً ويحرق العالم، ومن هنا جاء اسم الجماعة، وجاء أيضاً من اللعب بالكلمات باسمها اللاتيني **Dominicanus** [الدومينيكانيين] وتقطيعه إلى **Domini canis** التي تعني «كلب الرب أو السيد» [المترجم].

فاصلاً في التاريخ الإسباني، إذ مهدا الطريق لأزمة اجتماعية متقيحة قُدّر لها أن تلتهم إسبانيا لبقية القرن الخامس عشر. على أن المُنَصّرين لم يقبلوا المعمودية جميعهم تحت الإكراه. فكثيرون منهم اعتنقوا النصرانية على أمل أن يضع ذلك حداً لإقصائهم والخطر الذي كانوا يعيشون فيه، وكان صدقهم في اعتناقها شديداً لدرجة أن علماء الدين اليهود كانوا يشجبونهم أحياناً ويتهمونهم بأنهم مرتدون. وعلى مدار النصف الأول من القرن الخامس عشر تحققت آمال المُنَصّرين بدرجة كبيرة، إذ غدا بمقدورهم الزواج مع النصارى وبلوغ مكانة بارزة في طبقة النبلاء والبلاط وكبار رجال الدين. لكن هذا النجاح سرعان ما أنتج رد فعل غادراً من القطاعات الأكثر عداء للسامية في المجتمع النصراني، التي اتهمت كثيراً من المُنَصّرين بالارتداد عن دينهم الجديد وأداء الطقوس اليهودية خلف واجهة نصرانية.

وفي القرن الخامس عشر، تحولت حملة شائعات ضد هؤلاء المارانو[1] (الخنازير)، كما كان هؤلاء المرتدون المزعومون يعرفون، إلى هوس سام في المجتمع النصراني، وبخاصة بين طبقة النبلاء الدنيا والطبقة الوسطى الحضرية اللتين اغتاظتا من مستوى اندماج المُنَصّرين وتزاوجهم مع النصارى، ولاسيما من طبقة النبلاء العليا. لا شك في أن بعض المُنَصّرين اليهود ارتدوا إلى اليهودية، لكن عددهم يختلف كثيراً عن الصورة التي رسمها المهيّجون المعادون للمُنَصّرين لمؤامرة واسعة شريرة من جانب المارانو في قلب إسبانيا النصرانية، وأنهم يمارسون السحر، ويعبدون أوثاناً كُفرية، وينفذون جرائم قتل طقوسية بحق الأطفال النصارى. وتعمقت

(1) المارانو marranos اسم إسباني من أصل عربي بمعنى «المحرَم» أطلقه النصارى في أيبريا على اليهود الذين اعتنقوا النصرانية أو نُصّروا كرهاً، وبعضهم ظل يؤدي الطقوس اليهودية سراً، وظهر المصطلح في عام 1492 مع مرسوم الحمراء الذي نقض اتفاقية غرناطة لعام 1491، واكتسب الاسم دلالات ازدرائية، إذ أصبح يعني الخنازير والأقذار والغادرين [المترجم].

كراهية المارانو بفعل تصوير اليهود كعرق أو سلالة أو ذرية ملعونة، انتقلت عقائدها الدينية الحقيرة خلال ذريتهم ودمهم «الفاسد».

وفي هذه الفترة ظهر المذهب العنصري المعروف بنقاء الدم limpieza de sangre على السطح لأول مرة كإحدى القوى الدافعة المهمة في المجتمع الإسباني. كان مفهوم نقاء الدم بدرجة ما تعديلاً للأفكار الأرستقراطية حول النسب النبيل و«الدم الأزرق»[1]. وفي حين كان النبيل الإسباني يبرر مكانته في التراتبية الاجتماعية على أساس «شرف» التحدر من نسبه المتفوق، رجع مذهب الدم الأزرق إلى قرابة دم متخيلة كانت تربط النصارى القدامى بماضي إسبانيا القوطي واللاتيني ما قبل الإسلامي. وفي مقابل هذا الاعتقاد بوجود نسب نصراني «نقي» غير مشوب، انتشر تصور لليهودية على أنها «سلالة» لا تمحى، أو «جرثومة» انتقلت خلال «الدم». ذهب هذا الخط الفكري بعيداً إلى حد الدفع بأن «الخزي» المستمد من هذا النجس لا تمحوه المعمودية أو التزاوج مع النصارى، ويشكّل مصدراً قوياً جداً للدنس، لدرجة أن «القطرة» الواحدة من هذا الدم مفسدة [بنجسها] تماماً.

فبعد قرون من التنصير والتزاوج بين كل الجماعات العرقية بإسبانيا، زعم بعض إسبان القرن الخامس عشر أنهم يمتلكون تحدراً سلالياً نقياً. لكن وهم النقاء والدنس أثبت أنه ليس أقل إقناعاً وجدوى في القرن الخامس عشر من العنصرية «العلمية» أو «البيولوجية» بالقرنين الثامن

(1) الدم الأزرق blue blood مصطلح إنجليزي يرجع لعام 1834، يشير إلى النسب أو الأصل النبيل، ظهر كترجمة للعبارة الإسبانية sangre azul التي تصف العائلة الملكية الإسبانية وعِلية النبلاء الذين زعموا أنهم من أصل قوطي، على خلاف الأندلسيين، ويبدو أن المصطلح نشأ من المجتمعات الأوروبية في العصور القديمة والوسطى ويميز بين الطبقات العليا التي تبدو أوردتها الدموية السطحية «زرقاء» بسبب بشرتها التي لم تسفعها الشمس، والطبقة العاملة التي ضيعت الشمس والأوساخ الناتجة عن العمل هذه الزرقة فيها [المترجم].

عشر والتاسع عشر أو النظريات العنصرية النازية، التي قدمت اليهود باعتبارهم قيحاً في «مخزون الدم» الألماني يحتاج إلى «تنظيف عرقي».

ويمكن القول إن مذاهب النقاء «الديني» الإسبانية كانت بمثابة القالب الذي صُبّت فيه تنويعاتها الأكثر تطرفاً فيما بعد. ففي مقابل منظري النقاء بالقرن الخامس عشر الذين صوّروا «الهرطقة» اليهودية كمصدر لتلوث الدم، بنى المستعمرون الإسبان ملاك العبيد لاحقاً مفهوم «الدم الأسود» لعبيدهم الزنوج على أساس من الارتباطات السلبية للون البشرة، لتبرير التراتبية الاستعمارية التي يهيمن عليها الإسبان «البيض» أنقياء الدم، وللأسف لايزال هذا المنطق مقبولاً في كثير من دول أمريكا اللاتينية إلى يومنا هذا. ففي مقابل مذهب نقاء الدم الإسباني الذي صنف الناس إلى أنصاف نصارى جدد أو أرباع نصارى جدد وفقاً لأنسابهم، صُنّف سكان مستعمرة هايتي الفرنسية لاحقاً إلى 128 درجة مختلفة من الدم الأسود إلى الدم الأبيض، كما اتبعت المجتمعات مالكة العبيد في منطقة الكاريبي الناطقة بالإنجليزية وجنوب الولايات المتحدة تصنيفات أنتجت تراتبيات مماثلة: أرباع زنوج وخلاسيين(1) وأثمان زنوج[5](2).

تُستدعى هذه التراتبيات دائماً، سواء كانت متخيلة من منظور العرق أو الدين أو القومية، لتبرير التمييز أو الاضطهاد أو الاستغلال، ولم تكن إسبانيا القرن الخامس عشر استثناء لذلك. فقد كانت الأهداف الرئيسة لمذهب النقاء هم المُتَنصّرين الذين وجد الإسبان في مكانتهم في المجتمع النصراني تحدياً وتهديداً متناميين. على أن هذه المذاهب لم تمر بلا تحد أو تشكيك فيها. ففي القرن الخامس عشر دحض النصارى والمُتَنصّرون، داخل الكنيسة وخارجها، مفهوم نقاء الدم بشدة على أسس دينية

(1) هم الأشخاص المولودون من أبوين أحدهما أبيض والآخر زنجي [المترجم].

(2) ثُمن الزنجي هو شخص نسبة الدم الزنجي إلى الدم غير الزنجي فيه تساوي ثُمن 1/8 [المترجم].

وأخلاقية، وانتقدوا الطريقة التي كان يستخدم بها لإقصاء المُنَصّرين، ومع ذلك استمرت حملة الشائعات ضد المارانو «الأفاعي» و«أبناء الشيطان»، واكتسبت أوجاً. ففي عام 1449، أصدر مجلس مدينة طليطلة تشريعاً يقضي بحرمان المُنَصّرين في المدينة من الوظائف العامة بسبب أصلهم اليهودي.

أصدر هذا القانون وسط ثورة سلمية ضد الوزير الأول المكروه لقشتالة ألبارو دي لونا Alvaro de Luna، الذي كان من أصل مُنَصّري، وسرعان ما تحولت إلى مذبحة بحق المُنَصّرين. تعرض الثوار إلى انتقادات قاسية من كبار رجال الدين الإسبان ومن البابا، وأبطل القانون والقوانين السابقة عليه، لكنها فُعّلت لاحقاً مرة أخرى، وأصبح القانون الطليطلي نموذجاً للقوانين المماثلة التي بدأت تتكاثر في الرهبنات الدينية والجامعات الإسبانية والمؤسسات الأخرى من أواخر القرن الخامس عشر فصاعداً. مهد ذلك الطريق لما أسماه جوزيف بيريث Joseph Pérez «التعصب الماكر لنقاء الدم... الذي سمّم روح الشعب الإسباني»[6].

على أن هذه العملية لم تحدث بين عشية وضحاها. وكان الشجب القوي لقانون طليطلة والحجج المشبوبة بالعاطفة المؤيدة والمعارضة لدمج المُنَصّرين مؤشراً على شدة الصراع الذي كان يحدث داخل المجتمع النصراني في القرن الخامس عشر. وبحلول النصف الثاني من ذلك القرن، بدأ هذا الصراع يشكّل تهديداً خطيراً على الاستقرار الاجتماعي والسياسي لإسبانيا.

* * *

وحتى قبل زواج فيردناند وإيزابيلا كانت أزمة المُنَصّرين قد بدأت تتخذ أبعاداً خطرة على الاستقرار. ففي إشبيلية التي كانت جماعة المُنَصّرين تحظى بمكانة بارزة فيها، وقعت في عام 1465 معارك شوارع ضارية بين المُنَصّرين والنصارى القدامى. وفي عام 1473، طرد المُنَصّرون من قرطبة

بعد معركة حشدوا فيها ثلاثمائة فارس مسلح. ووقعت اضطرابات أخرى معادية للمُتَنَصّرين في المدن الأندلوسية الأخرى في الفترة نفسها. وفي عام 1477، زار الملك والملكة أشبيلية، وهناك أخبرهما رجال الدين المحليون بأن «المتهودين»[1] المارانو تكاثروا بين جماعة المُنَصّرين. وتقول الأسطورة إن الملك والملكة أُخِذا إلى ضواحي المدينة في مساء يوم جمعة، وقيل لهما إن النار لا تضرم في حي المُنَصّرين في مثل هذا الوقت، وتلك علامة على أن قاطني الحي يلتزمون بعدم العمل في يوم السبت كما في تعاليم اليهودية. انزعج فيردناند وإيزابيلا كثيراً مما رأياه وسمعاه، لدرجة أنهما استصدرا مرسوماً بابوياً من البابا سكتوس الرابع أجاز تشكيل محكمة تفتيش في قشتالة لكشف الزنادقة الذين ارتدوا إلى «شريعة موسى».

أدخل فيردناند وإيزابيلا بذلك مؤسسة خبيثة قُدّر لها الهيمنة على المجتمع الإسباني أكثر من ثلاثة قرون. على أن إدخال محكمة التفتيش الإسبانية كان مطلباً قديماً لجماعة الضغط المعادية للمُتَنَصّرين، وجاءت مختلفة عن سلفها في القرون الوسطى في أن كبار موظفيها كان يعينهم حكام إسبانيا وليست البابوية. معنى ذلك أنها كانت تعمل كأداة سياسية في يد التاج الإسباني، حتى حين شنت حرباً ضد الهرطقة مع السلطة الدينية في البابوية. وفي عام 1480، فُوّض رجلا دين دومينيكانيان لإجراء تحقيقات تفتيشية كاملة حول مؤامرة المارانو في أشبيلية. وسرعان ما تحولت التحقيقات إلى حقبة من الإرهاب ضد جماعة المُنَصّرين، حين سمعت ابنة تاجر يهودي، أصبحت تعرف بعد ذلك بالعذراء الجميلة la hermosa hembra، أباها ومجموعة من الجيران يناقشون طرقاً للمقاومة،

(1) المتهودون judaizers مُصطلح مسيحي مشتق من كلمة لاتينية تعني «الذين يعيشون وفقاً للأعراف اليهودية»، كان يستخدم بشكل ازدرائي في القرون الوسطى، وكذلك للإشارة إلى اليهود الذين نصّروا قسراً وكانوا يمارسون اليهودية سراً، أو يعتقد فحسب أنهم كانوا يمارسونها سراً [المترجم].

ونقلت ما دار بينهم إلى حبيبها النصراني. ونتيجة لهذا الطيش، قُبِض على مئات المُنَصّرين وعذبوا وأحرقوا على الخازوق، منهم أبوها نفسه. وعوقب آخرون بغرامات ومصادرة ممتلكاتهم أو أكرهوا على ارتداء السامبينيتو[1] أو السترة التكفيرية بقية حياتهم كعلامة على الخزي الدائم.

قضى هذا الهجوم على جماعة المُنَصّرين الأشبيلية، فمدت محكمة التفتيش نشاطها إلى بلدات ومدن أخرى في قشتالة تحت إشراف المفتش العام المتعصب الكاردينال توماس دي توركومادا Tomas de Torquemada. وفي عام 1484، بدأ المكتب المقدس[2] العمل في أراغون، رغم المعارضة المحلية القوية التي اقتربت من الثورة والعصيان في بعض المدن الأراغونية. وحتى في أثناء حرب غرناطة، كان مفوضو محكمة التفتيش مصحوبين بمرافقين أو «مساعدين»[3] خضر الثياب يجوبون إسبانيا طولاً وعرضاً لاستئصال «عدوى» الهرطقة من المجتمع الإسباني. واعتادت البلدات والمدن في أنحاء إسبانيا كافة على النمط الطقوسي لهذه التحقيقات، التي كانت تبدأ بالقراءة العامة لمرسوم الإيمان الذي يدعو السكان للإبلاغ عن المتهودين المندسين في وسطهم أو الاعتراف بقائمة مفصلة بالممارسات المحرمة أو الإبلاغ عن العلامات الواضحة على ممارسة «الخرافة اليهودية». وكان من بين هذه الأدلة الإحجام عن أكل لحم الخنزير أو ارتداء ملابس نظيفة أو عدم العمل في يوم السبت أو دفن الموتى في تربة طاهرة أو عدم الإيماء بإشارة الصليب. وكان المذنبون الذين يعترفون طوعاً بهذه المخالفات

(1) السامبينيتو sambenito أو السانبينيتو Sanbenito ثوب تكفيري، استخدمته محاكم التفتيش الإسبانية، يشبه الوشاح، كان لونه أصفر ومرسوم عليه صلبان القديس أندرو للمهرطقين التائبين أو أسود مزخرف بصور رهبان وتنانين وشياطين للمهرطقين غير التائبين [المترجم].

(2) holy office اسم آخر لمحكمة التفتيش كان يستخدم في الكنيسة الرومانية [المترجم].

(3) المساعدون أو الأتباع familiars مكتب تابع لمحكمة التفتيش كانت وظيفته تتمثل في القبض على المتهمين أو المشتبه بهم [المترجم].

يمكن أن تنتظرهم معاملة مخففة في المحاكمة الأولى، لكن المذنبين الذين يكررون المخالفات كانوا عرضة للحرمان الكنسي واللعن المرعب الذي كان يعلن بمرسوم محكمة التفتيش في بلنسية:

> لعنهم الله في مأكلهم ومشربهم، وفي صحوهم ونومهم، وفي مجيئهم وذهابهم. ولعنوا في حياتهم وموتهم، ومُدّ لهم في ذنوبهم، وكان الشيطان دوماً عن يمينهم، وخاب عملهم، وقصرت أيامهم وأثمت، وتمتع غيرهم بممتلكاتهم، وتيتم أطفالهم وترملت زوجاتهم. وكتب الله الفاقة على أطفالهم، وألا يجدوا من يساعدهم، وأن يرجعوا فيجدوا منازلهم وأشياءهم قد أخذها المرابون، وألا يجدوا من يرحمهم، وأن يفتقر أطفالهم وينبذون، وتمحا أسماؤهم أيضاً، وأن يبقى إثمهم حاضراً أبداً في الذاكرة الإلهية[1][7].

وكانت عمليات الإبلاغ تؤدي إلى مزيد من الاعتقالات والتعذيب والاستجواب والسجن والمحاكم السرية. وكان المدانون يظهرون في العرض التكفيري الجماهيري المسرحي المعروف باسم «موكب الإيمان»[2]،

---

(1) هذا مثال «للحقد المقدس» الذي ورد في تقديم المترجم أنه أخذ يبرز في الخطاب الديني «الدعاتي» في دول ما بعد «ثورات الربيع العربي» [المترجم].

(2) يذكّرني الإيهام الكاذب في اسم «موكب الإيمان» الذي يشير إلى عرض المدانين وهم في طريقهم إلى الحرق على الخازوق، والجماهير الحاقدة تنهش فيهم وتتخطفهم من أيدي الجنود، يذكرني باسم «وزارة الحقيقة» في رواية «1984» للروائي الإنجليزي جورج أورويل التي كانت في حقيقتها وزارة تزييف التاريخ وفقاً لمصالح الطبقة الحاكمة، و«وزارة الوفرة» التي تشرف على النقص والمجاعة، و«وزارة السِلم» التي تشرف على الحرب وارتكاب الأعمال الوحشية. إذ يبدو أن الإيهام الكاذب وإطلاق أسماء جيدة وأخلاقية على ممارسات بشعة أقدم كثيراً من نظام الحكم الفاشي الذي تنبأ جورج أورويل بأنه سيسود العالم في عام 1984، ويبدو أيضاً أن جذوره دينية محضة، ومن أمثلته «الحرب المقدسة» و«الحقد المقدس» و«مرسوم الإيمان» وغيرها [المترجم].

وفيه كان الزنادقة «التائبون» الذين أنكروا آثامهم أو اعترفوا بمخالفات غير خطرة يُعرَضون وهم يرتدون قبعاتهم المخروطية والسامبينيتو ويحملون شموعاً مشتعلة[1]. أما المذنبون الأكثر جرماً، فكانوا «يسلمون إلى الذراع العلماني»؛ أي السلطات المحلية لتحرقهم على الخازوق. وبين عامي 1485 و1501، أحرق زهاء 2000 مُنَصّر حتى الموت، منهم 250 في طليطلة وحدها، في الفترة الأكثر دموية من تاريخ محكمة التفتيش.

وحتى في الوقت الذي كانت محكمة التفتيش تجري فيه تحقيقاتها العديمة الرحمة مع الهراطقة المارانو، ظل عشرات الآلاف من اليهود يؤدون علناً الطقوس والممارسات نفسها التي كانت تقود الآخرين إلى السجن والخازوق. لكن، نظراً لأنهم لم يتنصروا أصلاً، فقد ظلوا خارج سلطان محكمة التفتيش التي اعتبرتهم رغم ذلك مسؤولين عن إغواء إخوانهم السابقين في الدين للارتداد عن النصرانية.

وكلما كشفت محكمة التفتيش مزيداً من الأدلة على التهوّد بين المُنَصّرين، اشتد دفع مسؤولي المحكمة بأن وجود اليهود غير المُنَصّرين كان يفاقم المشكلة. فتحدث بعضهم عن إبادة السكان اليهود كلياً. وحرض آخرون فيردناند وإيزابيلا على إبعادهم عن التراب الإسباني. تردد الملكان الكاثوليكيان[2] في البداية في اتخاذ مثل هذه الخطوة المتطرفة. لكن في عام 1490، وبينما كانت الحرب في غرناطة تقترب من نهايتها، اكتُشفت جريمة مثيرة في بلدة لاغوارديا La Guardia بقشتالة اتُّهم فيها مجموعة من اليهود والمُنَصّرين بقتل طقوسي بشع لطفل نصراني.

(1) كان هذا العرض التكفيري auto da fe دائماً جزءاً من العقوبة فقط، وكان الجزء الآخر والأشنع، الذي بقي في ذاكرة الأوروبيين، هو الإعدام حرقاً على الخازوق [المترجم].

(2) تذكر أن لقب «الملكان الكاثوليكيان» منحه البابا لفيردناند وإيزابيلا بعد فتحهما لغرناطة مكافأة لهما على تطهير إسبانيا من الممالك الإسلامية وطرد اليهود في عام 1492، وسيشار إليهما طول الكتاب بهذا اللقب [المترجم].

لم يُعثر على طفل مقتول قط، ولم يتضح حتى أن أي عائلة في لاغوارديا قد فقدت طفلاً، لكن في أثناء تحقيقات محكمة التفتيش التي استمرت ستة عشر شهراً اعترف يهوديان وخمسة مُنَصّرون بأنهم صلبوا الطفل وانتزعوا قلبه كجزء من أحد طقوس السحر الأسود يفترض أنه كان موجهاً ضد محكمة التفتيش ذاتها. وفي السادس عشر من نوفمبر 1491، انتزعت أحشاء اليهوديين المدانين بكلاليب ساخنة في مكان عام، وأحرق المُنَصّرون الخمسة على الخازوق على جريمة ملفقة بالتأكيد. أخرجت قضية «طفل لاغوارديا المقدس» أسوأ الخزعبلات حول المؤامرة اليهودية لتقويض إسبانيا النصرانية، ولذلك تأكد توركومادا شخصياً من أنها حظيت بالدعاية القصوى. وربما أقنعت هذه القضية الملكين الكاثوليكيين أيضاً بضرورة تبني الحل الجذري لمشكلة المُنَصّرين، وهو ما حدث بعد استسلام غرناطة.

* * *

لم يكن التخلص من جماعة غير مرغوب فيها ظاهرة جديدة تخص أوروبا عصر النهضة. ففي العصر القديم، كثيراً ما أبعدت روما جماعات متمردة كشكل من العقاب الجماعي أو الإجراء الأمني، وقد كان الشتات اليهودي نفسه نتيجة لإحدى حالات الإبعاد العقابي بعد الثورة اليهودية ضد الاحتلال الروماني ليهودا[1] وتدمير المعبد الثاني بأورشليم[2]. وفي أثناء العصور الوسطى تعرض اليهود للطرد من جانب كثير من الحكام

(1) يهودا Judea هو اسم الجزء الجنوبي الجبلي من أرض إسرائيل، وقد سميت على اسم قبيلة إسرائيلية سيطرت على المنطقة خلال العصر الحديدي وأقامت مملكة يهودا التي استمرت حتى عام 586 قبل الميلاد، واستمر الاسم حتى الحروب اليهودية–الرومانية حين استبدل بمقاطعة فلسطين السورية [المترجم].

(2) هي بيت المقدس قديماً أو القدس «العربية» حالياً، على أن استخدام اسمها «اليهودي–المسيحي» لا يعني الاعتراف بيهوديتها ولا حتى مسيحيتها، وإنما جاء فقط من باب التقيد بالأسماء التي استخدمها أبطال الأحداث التي يعرضها الكتاب [المترجم].

النصارى، بدءاً بطرد إدوارد الأول اليهود من إنجلترا في عام 1290. كما حدث طرد جزئي للمسلمين أو جرت محاولات لتنفيذه هو الآخر في ممالك إسبانيا النصرانية في أثناء الاسترداد. على أن تلك الأحداث جميعها تهون أمام النكبة التي تعرض لها اليهود الإسبان في عام 1492، حين وقع فيردناند وإيزابيلا مرسوماً في قصر الحمراء في اليوم الأخير من شهر مارس قضى بتجريم التفاعل بين النصارى واليهود «الذين يبدو أنهم يسعون دائماً وبأي وسيلة تتوافر لهم إلى أن يفسدوا النصارى المخلصين ويخرجوهم من دينهم الكاثوليكي المقدس ويسلخوهم منه»[8].

وبعد أن أعلن الملكان الكاثوليكيان أن قرارهما جاء بعد استشارات متأنية مع «الأساقفة وكبار النبلاء ... وغيرهم من الأشخاص ذوي العلم والرأي»، أمرا كل اليهود في ممالكهما، أينما كان مكان إقامتهم، بأن يدخلوا في النصرانية أو يغادروا أرض إسبانيا في غضون أربعة أشهر وعشرة أيام. وفي أثناء هذا الوقت، كان متوقعاً منهم أن يبيعوا ممتلكاتهم ويسددوا ديونهم وينهوا أعمالهم التجارية. أحدث إعلان هذا المرسوم في أبريل حالة من الذعر واليأس بين السكان اليهود في قشتالة وأراغون. فآثر زهاء خمسين يهودياً اعتناق النصرانية، منهم الحبر اليهودي البارز وأمين بيت المال الملكي أبراهام سينيور Abraham Senior. في حين فضّل ما بين مئة ألف ومئة وخمسين ألف يهودي النفي على ترك دينهم. وعلى مدار صيف عام 1492، شق اليهود طريقهم إلى حدود إسبانيا وموانئها في نزوح جماعي وصفه الكاهن والمؤرخ أندريس بيرنالديث على النحو التالي:

> تركوا جميعاً مسقط رأسهم في حالة من اليأس، الأطفال والبالغون، والمسنون والشباب، مشياً على الأقدام، وعلى عربات، والسادة على حمير وغيرها من البهائم، وتوجهوا جميعاً إلى موانئ الترحيل. جازوا في رحلتهم

> خلال الطرق والحقول في حالة من البؤس، ليلاقي كل مصيره، فيقع بعضهم وينهض آخرون، ويموت بعضهم ويولد آخرون، ويمرض كثيرون، ولذلك لم يكن هناك نصراني واحد لم يأسف لحالهم ودعاهم إلى التعميد. وبعضهم تنصر على مضض وبقوا، لكنهم قليلون جداً. وفي الطريق كان الأحبار يشدّون أزرهم، وكانت النساء والشباب يغنون ويضربون الدفوف لتشجيع الناس وإدخال السرور عليهم، هكذا اجتازوا قشتالة ووصلوا إلى الموانئ[9].

ألقى بيرنالديث معادي السامية الشرس ومسؤول محكمة التفتيش، مثل نصارى كثر، باللائمة عن هذه المعاناة على اليهود الذين قادهم تمسكهم العنيد بـ«الهرطقة الموسوية الفاسدة» إلى «إنكار المخلّص والمسيح المنتظر الحقيقي، سيدنا ومخلصنا المسيح الذي يمد يديه مبسوطة لاستقبالهم دائماً». وكان مصير هؤلاء المنفيين مرعباً في كل الأحوال. فبعضهم قتلوا على السفن التي كان يفترض أن تنقلهم، أو غرقوا في العواصف، أو ماتوا من البرد والجوع. وماتت حمولة سفينة من المبعدين اليهود المتجهين إلى نابولي بسبب الكوليرا والزحار، ما تسبب في نشر الوباء بين السكان المحليين. وهاجر كثير من اليهود إلى شمال إفريقيا. ومع أن بعضهم وجدوا ملجأ آمناً في موانئ شمال إفريقيا ومدنها، فقد أُنزِل كثيرون منهم على سواحل وشواطئ معزولة، تعرضوا فيها للسرقة والقتل والاغتصاب من جانب القبائل البدوية المسلمة. وقد انكسر بعض اليهود بفعل هذه المعاملة وعادوا إلى ما أسماه بيرنالديث «أرض الشعب المتمدن» ووافقوا على التعميد[1].

(1) حتى في أشد لحظات همجيتهم، يصر الكتاب والمؤرخون الغربيون على وصف أنفسهم =

لكن الغالبية الساحقة لم ترجع إلى إسبانيا. ووجد كثيرون منهم استقبالاً أفضل في أراضي الإمبراطورية العثمانية التي قيل إن حاكمها السلطان بايزيد أبدى دهشته من «الملوك الإسبان الذين طردوا شعباً في ذكاء اليهود». وبعضهم استقر في تركيا، وآخرون في اليونان والبلقان وشمال إفريقيا. وتوجه كثير من اليهود إلى البرتغال المجاورة التي استقبلوا فيها بترحاب في البداية. لكن في عام 1497 أعطاهم الملك البرتغالي مانويل الأول الاختيار نفسه بين المعمودية أو النفي، وهو أمر فرضه عليه فيردناند وإيزابيلا في مقابل قبولهما زواجه من ابنتهما إيزابيلا. وأضاف الطرد البرتغالي لمسة جديدة للوحشية، حين أمر مانويل بأخذ كل الأطفال اليهود تحت عمر الرابعة عشر من آبائهم وإعطائهم لعائلات نصرانية لتربيتهم. وكان المقصود بذلك جزئياً هو إجبار آبائهم على التنصر بحيث تتمكن البرتغال من إنجاز التزامها أمام إسبانيا، مع الاحتفاظ بجماعة اعتبرت مصدراً اقتصادياً ثميناً. ومع أن معظم اليهود تنصروا في البرتغال، فقد تخلى بعضهم عن أطفالهم أو قتلوهم.

وجه الاستئصال الوحشي لليهود الإسبان ضربة قاتلة لتراث التعايش الذي ميّز القرون الوسطى. وكان أيضاً فاتحة لمرحلة جديدة في التاريخ الإسباني ستتمحور على السكان المسلمين طوال القرن التالي. على أن حكام إسبانيا لم يتبنوا الإبعاد الجماعي للسكان غير المرغوب فيهم لضمان

= بالتمدن والتحضر ووصف الآخرين بالهمجية والبربرية، وكأن طرد اليهود وإجبارهم على التنصر وقتلهم وتعذيبهم لم يحدث على أيدي «الشعب المتمدن». و«أرض الشعب المتمدن» لا تختلف هي الأخرى عن «وزارة الحقيقة» أو «وزارة السِلم» الأورويلية. مع أن اليهود ازدهروا طوال هذه القرون تحت الحكم العربي الإسلامي «الهمجي» في الأندلس والمغرب وكل الدول العربية على امتداد التاريخ القديم والوسيط والحديث، بل إن الممالك النصرانية التي نصّرت اليهود قسراً وطردتهم ورثتهم أصلاً «يهودا» عن ممالك وحكام مسلمين، وكان مآل اليهود المطرودين أنفسهم إلى الدولة العثمانية التي رحبت بهم، كما سيرد في الفقرة التالية [المترجم].

الوحدة الدينية لرعاياهم فحسب، بل إن الدولة أرادت أن تظهِر قدرتها اللوجستية على تنظيم الإبعاد على نطاق غير مسبوق. غير أن إبعاد اليهود لم يضع حداً لمشكلة المُنَصّرين التي ظلت تؤرق إسبانيا لقرنين آخرين، لكن أهميته تكمن في أن القيادات النصرانية، داخل وخارج إسبانيا، اعتبرته انتصاراً مبهجاً. من ذلك أن بيتر مارتر الأنغياري أثنى على مليكيه لاحقاً لأنهما كانا «أحكم الناس» حين طهرا ممالكهما من «جماعة ملوثة»، في حين منح البابا ألكسندر السادس فيردناند وإيزابيلا لقب «الملكين الكاثوليكيين» جزئياً كتقدير لقرارهما بطرد اليهود.

***

دخل المؤرخون في سجال طويل حول ما إذا كانت دوافع الطرد هي الدين أم الاقتصاد أم معاداة السامية. كانت كراهية اليهود بالتأكيد عاملاً مهماً، مع أن فيردناند وإيزابيلا لم يكونا شخصياً معاديين للسامية، إذ حظي اليهود والمُنَصّرون بمواقع بارزة في البلاط الملكي. ولا شك في أن كثيراً من النصارى استفادوا مادياً من الطرد، من المضاربين الذين اشتروا الأراضي والممتلكات اليهودية بأسعار زهيدة، إلى المدينين الذين أفلتوا من دائنيهم اليهود. واستفاد التاج أيضاً من مصادرة الممتلكات المشاع لليهود وبيعها وفرض ضريبة ركوب السفن على اليهود المنفيين. لكن فيردناند وإيزابيلا رفضا أيضاً عروضاً من كبار أحبار إسبانيا بدفع مبالغ كبيرة لإقناعهم بالتخلي عن المرسوم، وبالتأكيد خسر التاج أكثر على المدى البعيد من الطرد من الناحية الاقتصادية.

وصف فيردناند نفسُه إبعاد اليهود كبادرة تنم عن إنكار الذات، أراد بها حماية المُنَصّرين، «رغم الضرر الكبير الذي لحق بنا، إذ آثرنا وفضلنا إنقاذ الأرواح على مكاسبنا ومكاسب الأفراد»[10]. على أننا ينبغي ألا نأخذ هذه التقوى بمعناها الظاهري. فربما كان الإنقاذ الروحي

للمُنَصّرين أحد الدوافع، لكن الدِين ومصالح الدولة كانا لا ينفصلان في إسبانيا عصر النهضة. فقد قصد بالطرد جزئياً أن يرضي أعداء السامية المتطرفين الذين كان يمكن لكراهيتهم دائماً أن تتحول إلى الملك نفسه. وتأثر الطرد أيضاً بمناخ الحماسة الدينية النصرانية الذي هيمن على معظم إسبانيا وأوروبا في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر. فقد كانت فترة عاش فيها نصارى كثر في انتظار يوم الحساب الوشيك وبداية العصر الألفي النصراني الجديد[1].

ففي عشية حرب غرناطة انتشر في إسبانيا عدد من النصوص النبوئية، تنبأت بمجيء الإنكوبيرتو أو الخفي[2] أو «الخفاش العظيم» المصور في سفر الرؤيا[3]، الذي يهزم المسيح الدجال ويبدأ آخر الزمان وألفية نصرانية جديدة[4]. ووفقاً لـ«رسالة الوحي» واسعة الانتشار التي كتبها في

---

(1) العصر الألفي السعيد millennium اعتقاد لدى بعض الطوائف المسيحية بأنه سيأتي عصر ذهبي أو تتحقق الجنة على الأرض حين «يحكم المسيح» الأرض لمدة ألف عام قبل يوم الحساب الأخير [المترجم].

(2) الإنكوبيرتو L 'Encobret التي تعني «الخفي» The Hidden One في اللغة الإسبانية تشير إلى قائد غامض وساحر من بقايا الثوار في المراحل الأخيرة من ثورة طوائف الحرفيين في أراغون، يسمى أيضاً «الملك الخفي»، يعتقد أنه مختبئ من أجل سلامته ويظهر نفسه بأوامر إلهية لإنقاذ إسبانيا من الدمار. وحدّ الخفي الثوار لفترة قصيرة وبث الحماسة النصرانية في أتباعه وقادهم في غارات كر وفر ضد الحكومة الملكية والنبلاء غير المتعاونين والفلاحين المسلمين (المدجنين). وقُتل الخفي في الثامن عشر من مايو 1522 في بوراسوت Burhassot في مقاطعة بلنسية بإسبانيا وسرعان ما انهزم الثوار بعدها [المترجم].

(3) «الخفاش العظيم» great bat ربما هو «التنين العظيم» المخلّص، الذي يخلص العالم من الشيطان الذي ورد ذكره في الإصحاح الثاني عشر من سفر الرؤيا، حيث جاء فيه: «فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله طرح إلى الأرض وطرحت معه ملائكته. وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه لأنه قد طرح المشتكي على إخوتنا الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً» (الرؤيا، 12: 9-10) [المترجم].

(4) أو العصر الألفي السعيد- وفقا للمسيحية، وبخاصة البروتستانتية- الذي سيملك فيه المسيح المخلص على الأرض باعتباره «الملك الألفي» أو «الملك المقدس» لمدة ألف عام في آخر ←

عام 1486 نبيل قشتالي يدعى دون رودريغو بونسي الليونيDon Rodrigo Ponce de Leon كان فيردناند نفسه هو «الخفي»، الذي استطاع أن «يخضع كل الممالك من البحر إلى البحر، وسيحطم كل الأندلسيين في إسبانيا». وبالنسبة إلى بعض الإسبان أكد غزو غرناطة قدر إسبانيا باعتبارها «إسرائيل الجديدة»، التي اختارها الرب لتتولى مهمة استرداد أورشليم. وكان بحث كولومبوس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية يقصد به جزئياً توجيه هجوم مزدوج على الإسلام من الشرق والغرب.

حتى إن كولومبوس اصطحب معه مترجماً يهودياً يتحدث اللغة العربية، بدأ هذا المترجم في التحدث بالعربية مع السكان الأصليين المشدوهين في كوبا، اعتقاداً منه ومن كولومبوس بأنهما نزلا أرضاً إسلامية. وفي رسالته إلى فيردناند وإيزابيلا التي كتبها في عام 1493، وعد كولومبوس بأنه «في خلال سبعة أعوام من اليوم سيمكنني أن أزود جلالتكم بخمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي مشاة للحرب وغزو أورشليم الذي من أجله بدأنا هذا العمل»[11]. ومن المؤكد أن الملكين الكاثوليكيين كان يشتركان إلى حد ما في هذه التطلعات. ففي عام 1494، وزعت في إسبانيا أوامر بابوية بحملة صليبية لحشد الدعم لحملة عسكرية على شمال إفريقيا. وبعد ثلاثة أعوام استولت إسبانيا على ميناء مليلة المغربي، ونالت أول قواعدها العسكرية والتجارية في شمال إفريقيا.

والسؤال عما إذا كان فيردناند وإيزابيلا قد اعتبرا إبعاد اليهود مقدمة لحملة صليبية جديدة لايزال سؤالاً مفتوحاً، لكن الاعتقاد بأن التطهير الداخلي لإسبانيا كان ضرورياً لنيل التأييد الإلهي للغزو الخارجي سيثبت أنه موضوع متواتر على مدار القرن التالي. كما أفاد الدافع الجديد نحو

= الزمان تسمى أحياناً «أيام الماشيح» أو «أيام المسيح» سيسودها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان [المترجم].

الوحدة الدينية أيضاً وظيفة سياسية داخلية. ففي بلد كان لايزال عبارة عن خليط من الممالك خاضعة للهيمنة القشتالية وليس دولة موحدة، وفرّت الكاثوليكية إحساساً بالهدف الجماعي والهوية المشتركة التي يمكن أن ينضوي تحتها كل رعايا إسبانيا. على أن الدين لم يكن ضرورياً للحفاظ على السلطة المحلية للحكم الملكي فحسب، وإنما أفاد أيضاً في إضفاء الشرعية على أفعال إسبانيا على المستوى العالمي، بجعل هذه الأفعال مرادفة لمصالح الدِين ككل.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدوقيات والإمارات والدول المدينية[1] عبر أوروبا تبدأ في الاندماج في كيانات إقليمية أكبر، كان الحكام الأوروبيون يعتبرون التماثل الديني شرطا للسلم الاجتماعي والاستقرار السياسي الداخلي. وكان وجود جماعات يهودية ومسلمة كبيرة في إسبانيا يشكّل عقبات هائلة في طريق بلوغ هذا الهدف. فهؤلاء لم يكونوا متميزين عرقياً عن النصارى فحسب، وإنما كانوا أيضاً أقليات تذكّر النصارى دائماً بالوجود الإسلامي الذي كان مكروهاً في ذاته، داخل إسبانيا وخارجها. وكان وجود هذه الجماعات شاذاً على وجه الخصوص في بلد قدم نفسه بصفته سيف النصرانية. ورغم الاحتفال بانتصار فيردناند وإيزابيلا في غرناطة وفي أوروبا، ظلت قيادات نصرانية كثيرة تنظر إلى إسبانيا أنها بلد مشبوه يفسده اليهود والأندلسيون والزنادقة، وهي شكوك أكدها النطاق الواسع لحملات التطهير التي نفذتها محاكم التفتيش، بدل أن يدحضها.

(1) الدولة-المدينية أو الدولة-المدينة city-state كيان سياسي مستقل أو قائم بذاته، يتكون إقليمه من مدينة واحدة، أو مدينة واحدة كبيرة وملحقاتها، من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين مثل بابليون وأور، ومدن كنعان الفينيقية مثل صور وصيدا، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية مثل أثينا وإسبرطة وثيفا وكورينث، ثم البندقية وصقلية وغيرها من الدول المدينية الإيطالية، ومن أمثلتها المعاصر إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان [المترجم].

كانت هذه إذن إسبانيا في عهد الملكين الكاثوليكيين: بلد تشكّل عبر قرون من الحرب المقدسة ضد الكفار ونية القيام بمزيد من الغزو نيابة عن الدين، بلد رافق الشوفينية الدينية فيه خزي في تراثها السامي، بلد أرقته أفكار النقاء والدنس، بلد كان أقل إبداء للاختلاف الديني أو الثقافي فيه يمكن أن يقود الرجال والنساء إلى الخازوق. ومع تطهير إسبانيا من اليهود وتطلعها إلى الحملات الصليبية والغزو في الخارج، تحول انتباه حكامها إلى الكفار الباقين داخل حدودها: الأندلسيين.


Twitter: @ketab_n

3
المغلوبون

«قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء»(1)، هذا ما كتبه محمد المقري؛ المؤرخ المسلم من القرن السابع عشر لصعود الأندلس وانهيارها[1](2). قبل فترة طويلة من سقوط غرناطة، كان إيقاع الغزو قد بدأ يتحول بشكل حاسم لصالح إسبانيا النصرانية. ومع نهاية القرن الخامس عشر كانت قوة الأندلس وعظمتها قد أصبحت ذكرى قديمة لدى المسلمين الذين بقوا في أيبيريا. تذكر بعض التقديرات أن السكان المسلمين في أيبيريا في بداية القرن الثاني عشر، بما في ذلك الأمازيغ والعرب والسكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، كان عددهم زهاء خمسة ملايين ونصف المليون. ومع نهاية القرن الخامس عشر، كان عدد المسلمين في إسبانيا يتراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف نسمة، من إجمالي سكان إسبانيا، الذين كان عددهم يتراوح بين سبعة وثمانية ملايين نسمة[2]. وكان نصف السكان المسلمين تقريباً يعيشون في إمارة غرناطة السابقة، ومعظم الباقين في أماكن خاضعة لتاج أراغون، الذي شمل

---

(1) آل عمران: 26، ربما لا يعرف المؤلف أنها آية من القرآن [المترجم].

(2) المقري التلمساني هو أبو العباس أحمد بن محمد المقري القرشي الملقب بشهاب الدين (من 1578 إلى 1631) مؤرخ ولد وعاش في تلمسان الجزائرية، صاحب كتاب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» و«كتاب الرحلة إلى الشرق والغرب» الذي بقيت منه نسخة وحيدة أهدتها ابنة المستشرق الفرنسي جورج ديفلان عام 1993 إلى المكتبة الوطنية الجزائرية [المترجم].

مملكتي أراغون وبلنسية وإمارة قطلونية التي كان إجمالي سكانها مليون ونصف مليون نسمة تقريباً. وفي بلنسية شكل المسلمون البالغ عددهم مئة وثلاثين ألف شخص تسعة وعشرين بالمئة تقريباً من السكان، ما جعلهم ثاني أكبر تجمع إسلامي خارج غرناطة.

وفي أراغون نفسها، كان الخمسون ألف مسلم يشكّلون نحو خمسة عشر بالمئة من السكان، وكان ثمانية آلاف آخرون يشكّلون أقلية صغيرة في قطلونية. وكان هناك زهاء مائتي ألف مسلم مبعثرين عبر أراضي قشتالة الشاسعة، إضافة إلى جماعة مسلمة صغيرة في مملكة نبارة البرانسية التي ضمتها قشتالة في عام 1512 وفي جزر الكناري التي فتحتها مؤخراً. كان المسلمون في قشتالة يعيشون غالباً في جماعات صغيرة في البلدات والمدن النصرانية. وكان المسلمون في أراغون ريفيين بالدرجة الأولى. وكانت القرى والمستوطنات الإسلامية متفرقة عبر مملكة أراغون قليلة السكان من تلال البرانس في الشمال إلى السهول الجنوبية الواقعة في مهب الرياح وعلى الضفتين الخصبتين لنهر أبرة[1]، الذي يجري من أراغون عبر قطلونية إلى البحر.

وفي بلنسية أيضاً، كان المسلمون يعيشون غالباً في الريف. وبعد أكثر من قرنين من الاستعمار النصراني، كان السكان المسلمون قد أزيحوا تدريجياً بعيداً عن الساحل إلى المنطقة الداخلية الجبلية الأكثر جفافاً المعروفة بالقاطع. ومع أن بعض المسلمين البلنسيين واصلوا العيش قرب الساحل وفي الغيتوهات الحضرية في البلدات والمدن النصرانية، فقد كانت غالبية السكان المسلمين تعيش بعيداً عن المراكز السكانية النصرانية في القرى والريف. وعبر إسبانيا النصرانية كلها شكّلت هذه الجماعات أقليات كانت بمثابة برك ذات حواف صخرية خلّفها المد الإسلامي المنحسر. وفي

(1) Ebro في اللغات الأوروبية [المترجم].

غرناطة- في المقابل- ظل المسلمون يشكّلون الأغلبية لبضعة أعوام بعد الغزو. واختلفت هذه الجماعات عن بعضها كثيراً في علاقتها بالمجتمع النصراني ودرجة اندماجها الثقافي وارتباطاتها بالعالم الإسلامي. وبعد حرب غرناطة أثبتت هذه الاختلافات أنها مهمة، حيث واجه مسلمو إسبانيا مستقبلاً جديداً في إسبانيا النصرانية الموحدة.

***

من حيث المهن والحرف، كانت الجماعات المسلمة بإسبانيا تتشابه عموماً في القيام بأعمال متواضعة في المجتمع الأيبيري. فمع استتباب الاسترداد، اضطر الأرستقراطيون والقادة العسكريون وعلماء الدين والأطباء ورجال العلم الذين جذبتهم الأندلس سابقاً إلى مغادرة أيبيريا بحثاً عن وظائف جديدة في قلب العالم الإسلامي. وكانت الجماعات التي تركوها وراءهم تشكّل في معظمها القاعدة البروليتارية للأندلس، كالحرفيين والفلاحين والبستانيين والصناع وعمال البناء. وتذكر وثيقة من القرن الرابع عشر في مملكة أراغون أكثر من ثلاثين حرفة إسلامية مختلفة، منها المحاسب وصانع الأسلحة والنجار والمهرّج وعازف البوق وصاحب الخان والمزارع وجراح العيون[3]. وكان المسلمون يعملون أيضاً صباغين ودباغين وصناع أحذية وصنّاع دروع وراقصين وبستانيين وبغّالين.

وكانت النساء المسلمات يعملن خادمات وقابلات ومرضعات، وعمل بعضهن وصيفات للنساء وجليسات للأطفال النصارى، رغم المنع الرسمي لهذا القرب بين الطرفين. وحتى في غرناطة التي ظلت البنية الاجتماعية التقليدية فيها كما هي تقريباً، كانت غالبية السكان تتكون من فلاحين ومزارعين صغار وحرفيين حضريين. كانت هناك بالطبع استثناءات لهذه القاعدة البروليتارية. ففي غرناطة انضمت طبقة

الأعيان[1] ملاك الأراضي إلى النزوح الجماعي من الأندلس، لكن بقي أعيان كثيرون بعد الغزو وظلوا يتمتعون بالثروة والمكانة التي اعتادوا عليها. وفي كل مناطق إسبانيا الأخرى، كان هناك تجار وملاك أراض مسلمون أثرياء ازدهرت أعمالهم حتى تحت الحكم النصراني، كان بعضهم من الثراء بما مكّنهم من تأجير الأراضي والممتلكات للنصارى. ففي أراغون عملت عائلة البلوي[2] القوية مع الإدارة النصرانية، وظل أفرادها يشغلون منصب القاضي العام المهم- أي قاضي الاستئناف العالي في بلنسية وأراغون الإسلامية- كمنصب عائلي حتى في عهد فيردناند. وسمح لعائلة البلوي أيضاً بالتجارة الدولية، وكانت لها ارتباطات تجارية بتجارة التوابل امتدت إلى إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا. لكن هذه الحالات لم تكن شائعة، فعلى خلاف اليهود، نادراً ما كان المسلمون يشغلون مواقع اقتصادية وإدارية في المستويات العليا للمجتمع الإسباني، ولم يرتبطوا كذلك بالمهن المحتقرة مثل جمع الضرائب.

وفي مجتمع نصراني كان يحتقر العمل اليدوي، كانت المكانة الاجتماعية الاقتصادية المتواضعة للمسلمين الإسبان تولّد نحوهم الازدراء وليس الكراهية. وفي الوقت عينه كانت شهرة المسلمين بالاعتدال والتدبير والكد تجعلهم جذابين جداً لأرباب الأعمال وملاك الأراضي النصارى، وهي المزايا التي بقيت في أمثالٍ نصرانية مثل Quien tiene moro tiene oro (من يمتلك أندلسياً يمتلك ذهباً) و cuanto mas moros mas ganancia (زيادة الأندلسيين تعني زيادة الربح). فكان العامل المسلم سلعة ثمينة، وبخاصة في بلنسية وأراغون، التي كان معظم المسلمين فيها يعملون

(1) الطبقة الاجتماعية المقابلة لطبقة النبلاء الأوروبية في المجتمع العربي والإسلامي ما قبل الحديث هي الوجهاء والأعيان، لذلك تترجم كلمة noble ومشتقاتها إلى وجهاء أو أعيان في حالة الأندلسيين، مع إبقائها «نبلاء» في حالة الإسبان [المترجم].

(2) Bellvis البلوي أو البلي [المترجم].

كأقنان في خدمة الإقطاعيين النصارى.

عمل هؤلاء المُقْطَعين المسلمين كفلاحين مستأجرين أو محاصصين[1] في أراضي الإقطاعيين الإسبان. وإضافة إلى أنهم كانوا يقدمون لمُقْطِعيهم العمل والإيجار وحصة من محاصيلهم، فقد كانوا يخضعون دائماً لعدد من الواجبات الثقيلة، لم يكن نظراؤهم النصارى مطالبين بها عموماً. فكان المُقْطَعون المسلمون يجمعون الحطب للمُقْطِع ويخبزون له الخبز، ويصنعون له الملابس ويصلحونها، ويقلّمون له الكرم ويعتنون ببساتينه. وكانوا يقدمون له أيضاً حيوانات كهدايا في زفاف بناته، وينقلون عائلته ومتاعه حين يسافر، ويخدمون في جيشه الخاص، ويوصلون رسائله، وهذا العمل الأخير كان يستغرق أحياناً أكثر من يوم في الضِياع الريفية النائية.

ونتيجة لذلك اعتبرت طبقة النبلاء في بلنسية وأراغون العمال المسلمين أساسيين لاستمرار رخائهم. وربح التاج الأراغوني أيضاً عائدات كبيرة من المُقْطَعين المسلمين الذين شكّلوا «الكنز الملكي» من عدة نواح، منها العمال المسلمين في أراضي التاج، والضرائب المفروضة على مدى واسع من النشاطات، من الحمامات العامة والجزارين المسلمين إلى بيع رخص الدكاكين والشحاذين والحانات والمواخير. وقد كان لذلك كله نتائج مختلطة على المسلمين أنفسهم. وعلى الرغم من أن المُقْطَعين المسلمين كانوا يتعرضون كثيراً لاستغلال قاس، فقد كانوا يحظون بحماية مُقْطِعيهم، كما استفادوا من الاتجاه المتساهل بين النبلاء الأراغونيين والبلنسيين نحو ممارسة شعائرهم الدينية، وهو اتجاه كان يختلف دائماً عن اتجاه القطاعات الجهادية بالكنيسة. ففي بلنسية- على سبيل المثال- كانت السلطات الدينية تحرص دائماً على كبح التعبيرات العلنية للإسلام، مثل أذان الصلاة في حالة المسلمين الذين كانوا يعيشون بالقرب من نصارى. وفي المقابل،

---

(1) المحاصص مزارع يستغل الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول [المترجم].

سمح البارونات النصارى للمؤذن بالنداء للصلاة بالصوت أو بالقرن، فضلاً عن أنهم سمحوا لأتباعهم ببناء مساجد جديدة على ضِياعهم.

ومع أن هذا التسامح كانت تدفعه المصلحة الشخصية في المقام الأول، فقد أغضب محكمة التفتيش والطبقات الدنيا النصرانية في بلنسية، التي كانت مشاعرها المعادية للمسلمين تتداخل غالباً مع بغضهم الشديد لسادتهم الإقطاعيين. فكان كثير من العامة ينظرون إلى المُقْطَعين المسلمين أنهم منافسون لهم داخل النظام الإقطاعي، وبالمثل كانت الطوائف الحرفية الحضرية النصرانية تنظر إلى المسلمين- واليهود- على أنهم منافسون اقتصاديون. وفي أوقات الأزمات الاجتماعية كانت هذه المشاعر تنفجر بسهولة في حالات من العنف، كما حدث مثلاً في اضطرابات عام 1455 في مدينة بلنسية، حين دمر الغوغاء النصارى الحي الأندلسي.

حركت المخاوف المتواترة من حدوث انتفاضة إسلامية هذه الاضطرابات جزئياً، وهو هاجس كان يؤرق المملكة التي كان المسلمون يشكّلون أكثر من ربع سكانها. كما تعزز الاعتقاد بأن مسلمي بلنسية كانوا ينتظرون «وهم متأهبون ورماحهم مشحوذة» بالخوف من القراصنة[1]،

---

(1) مصطلحا القرصنة والقراصنة من المصطلحات المختلف في نظرها بين الجماعات والشعوب المختلفة. ففي حين اعتبرته الجماعات الممارسة له من المغاربة «جهاداً بحرياً» ضد ممالك نصرانية «اغتصبت» الأندلس واضطهدت أهلها، وكانت تسعى إلى احتلال المغرب العربي نفسه، اعتبرته الشعوب التي عانت منه قرصنة وحشية. وإذا كان حكام شمال إفريقيا «المجاهدون البحريون» من أمثال عروج وخير الدين بربروس وغيرهم من رياس البحر يشرفون على عمليات «القرصنة» ويأخذون نصيباً من عائداتها، فإن ملوك إسبانيا أيضاً، كما سيأتي لاحقاً في الكتاب، كانوا حين يطلقون أيدي جنودهم في نهب المسلمين وسلبهم وأسرهم، كانوا يأخذون نصيباً من العائدات. كما كانت سفن إسبانيا في القرن السادس عشر هدفاً للقراصنة الهولنديين المعروفين باسم الشحاذين البحريين sea beggars الذين اتخذوا من القرصنة نوعاً من الحرب غير النظامية ضد إسبانيا التي كانت تحتل بلادهم. وكانت المدن الساحلية الإسبانية تتعرض من حين لآخر للنهب والسلب والتدمير من جانب الأسطول الملكي الإنجليزي [المترجم].

الذين كانوا يغيرون على بلنسية من شمال إفريقيا طلباً للعبيد والغنائم والأسرى لإطلاقهم في مقابل فدية. والعبارة الإسبانية المقابلة لعبارة «الساحل خالي» وهي no hay moros en la costa التي تعني حرفياً: «لا يوجد مغاربة على الساحل»، نشأت بفعل القرون الطويلة التي شكّل فيها قراصنة شمال إفريقيا مصدر رعب للتجمعات النصرانية القريبة من البحر. فوقوع بلنسية على بعد عشرين ميلاً فقط من شمال إفريقيا وسواحلها الطويلة غير المحصنة جعلاها أكثر عرضة من غيرها لهذه الغارات، التي كانت شائعة جداً، لدرجة أن بعض البلدات النصرانية الساحلية كانت تحتفظ بأموال دائمة لدفع الفدية للأسرى، الذين يأخذهم القراصنة إلى شمال إفريقيا. وكانت هذه الغارات تعود بنتائج مدمرة على سكان بلنسية المسلمين، وبدت عاملاً حاسماً في تشكيل السياسة الرسمية نحوهم في القرن الذي تلا سقوط غرناطة.

***

كان مسلمو إسبانيا يعيشون جميعاً في عالم إسلامي الدين والثقافة، يقوم على القرآن والحديث؛ أي أقوال النبي محمد وسيرته. وكانت حياتهم تقوم على أربعة من أركان الإسلام الخمسة: الشهادتين والصيام والصلاة اليومية والزكاة، وقليل منهم استطاع أداء فريضة الحج إلى مكة، وهي الركن الخامس. وإلى جانب الأعياد والعطلات الموجودة في التقويم الإسلامي، كان للمسلمين الإسبان أماكن للحج الديني وصوامع وأولياء وأعياد وتقاليد خاصة بهم. ففي المناطق التابعة لغرناطة، كان المسلمون يحتفلون بقدوم شهر رمضان بمواكب تجوب الشوارع تضم راقصين وموسيقيين يرشون بعضهم بالفاكهة والماء الملون. وفي بلنسية كانت النساء المسلمات يحتفلن برأس السنة بزيارة المقابر المحلية التي كن يخضبن أنفسهن لها بالحناء، وينسجن أغطية كتانية لتغطية الموتى. وفي

مرسية الريفية، كان المزارعون والفلاحون المسلمون يحتفلون بالحصاد عبر مهرجانات الموسيقى والغناء والرقص في مزارع الكرمة والبساتين.

كان دخول المولود الجديد إلى الجماعة الإسلامية يبدأ بعد سبعة أيام من الولادة بمراسم التسمية المعروفة بالفدا[1]، التي كان الأطفال المولدون فيها يخضبون بالحناء، وتعلق في رقابهم تعاويذ بها آيات قرآنية. وفي حالة الأطفال الذكور، تلت الختانَ احتفالات بهيجة يدعى لها الأقارب والجيران. وكانت حياة المسلمين الإسبان تنتهي بالدفن على الطريقة الشرعية الإسلامية، إذ تغسل الجثة وتلّف في قماش كتاني نظيف، وتوضع في تراب طاهر على جانبها، باتجاه مكة. وكان كثير من المسلمين يدفنون مع أقاربهم زبيباً وطعاماً و«خطاب تعريف»! يقدم الموتى لملائكة الموت على أنهم مؤمنون صادقون، ويساعدهم في التعرف على طريق الجنة.

ثمة سمات أخرى للإسلام الأيبيري كانت أقل ارتباطاً بالدِين. فكما كانت حال النصارى، كان المسلمون الإسبان يؤمنون بالتنجيم والدلالات السحرية للأعداد. وكانوا يستشيرون الطالع والتقويم ويسجلون التواريخ المبشرة والمشؤومة في تقويم كان ينبئ بحالة الحصاد- سيئ أم جيد- والمطر- وفير أم شحيح- وكذلك حالة السلام والحرب. وكشأن النصارى الإسبان أيضاً، كان المسلمون يؤمنون غالباً بالخرافات لدرجة كانت تفزع زعماءهم الدينيين. وكانوا يلبسون التعاويذ والأساور المزودة بآيات قرآنية لجلب الحظ السعيد أو تجنب العين الشريرة. وكانوا يتلون رُقى ويصنعون جرعات لإيذاء أعدائهم، أو إيقاع الأفراد في الحب أو الكراهية، أو علاج الحسد، أو إثارة الرغبة الجنسية، أو منع الأرواح الشريرة من دخول البيت الجديد. وكانت هناك جرعات لإخفاء الناس

(1) الفدا fada مؤكد أنه «الفداء» وهي ممارسة ذبح كبش أو غيره من الحيوانات للمولود، فيما يسمى بالعقيقة [المترجم].

وتمكنيهم من قطع مسافات كبيرة بسرعة، ورؤية الأرواح بخلط جلد دجاجة سوداء ودهن دجاجة بيضاء، وفرك الخليط في العين.

كانت بعض هذه الجرعات والرقى تستخدم لأغراض طبية. ومع أن الطب كان أحد أهم مجالات الدراسة في الأندلس، فعند نهاية القرن الخامس عشر كانت المستشفيات والمدارس الطبية بإسبانيا الإسلامية قد اختفت في معظمها، وأصبح علاج الأمراض مهنة العشّابين والمعالجين الشعبيين، الذين كان معظمهم نساء اتبعن في الغالب ممارسات كانت تعد في السابق خرافية وغير علمية.

ورغم اشتهار المسلمين الإسبان بالاعتدال والرصانة، فقد كانت الموسيقى والأغاني والرقص جوانب أساسية في حياتهم. وكانت الآلة الأشيع بينهم هي العود، الذي انبثق عنه الجيتار في عصر النهضة. ومن الآلات الأخرى، المزامير والناي والأبواق والسناطير[1] ومجموعة متنوعة من آلات النقر، كانت تستخدم جميعاً لمصاحبة الغناء والرقص في الحفلات وولائم الختان وحفلات الزفاف وغيرها من المناسبات. ومن أشهر الرقصات الإسلامية الرقصة الليلية المعروفة بالليلة والزمرة[2] (بمعنى «فرقة من الموسيقيين»)، وهي رقصة كانت إسبانيا تنفرد بها، وأصبحت لاحقاً الأساس «للرقصة الأندلسية»، التي انتشرت في أوروبا عصر النهضة، ويزعم بعضهم أنها تطورت إلى رقصة الموريس Morris («الأندلسية») الإنجليزية. وكانت احتفالات الزفاف الإسلامية مناسبات صاخبة جداً، تقام دائماً في الشوارع، حيث تركب العروس على بغل أبيض إلى بيت الزوجية، يرافقها الموسيقيون والمغنون والراقصون

(1) السنطور آلة موسيقية قديمة تشبه القانون [المترجم].

(2) leila and zambra هي رقصة أندلسية شهيرة، ربما تكون أصل الرقصة المغاربية التي تسمى «السمرة» حالياً، يرجع بعضهم اسمها إلى كلمة «الزمرة» zambra العربية، التي تعني البطانة المرددة ما يغنيه المنشد [المترجم].

والعائلات، فضلاً عن إلقاء الحلوى على الحضور استبشاراً بالخير.

ومع أن المسلمين الإسبان ظلوا مرتبطين رمزياً بأمتهم الأكبر (الأمة الإسلامية) ومركزها في العالم العربي، فقد تآكلت هذه الارتباطات كثيراً في قرون الحكم النصراني. احتفظت غرناطة بأغلب بهارج المجتمع الإسلامي المستقل، بتراتبيتها الاجتماعية التقليدية ومؤسساتها الدينية ونخبها الثقافية وصلاتها التجارية والثقافية بشمال إفريقيا. وظل معظم المسلمين فيها يتحدثون اللغة العربية، على الرغم من أن المسلمين الذين كانوا يعيشون بالقرب من الحدود تحدثوا القشتالية (الإسبانية) أيضاً إلى جانب العربية، في حين احتفظت الطبقات المتعلمة باللغة العربية الفصحى، التي كانت اللغة التقليدية للثقافة والعلم الراقيين.

كانت اللغة العربية تستخدم أيضاً على نطاق واسع في بلنسية بسبب قربها الجغرافي من شمال إفريقيا وغرناطة. أما قشتالة، فكانت تضم جماعات المدجنين التي عاشت تحت الحكم النصراني قرابة ثلاثمائة عام، ولذلك كان كثيرون منهم يتحدثون القشتالية فقط أو لغة عربية مشوهة. ونتيجة لانقطاع روافد الدين والثقافة الإسلاميين وعدم وجود الكتب والخطاطين والمدارس وغيرها من فرص الدراسة، بات استمرار البقاء الإسلامي معتمداً بالدرجة الأولى على الجهود المتواصلة للأئمة والفقهاء المحليين، الذين تولوا مسؤولية التعليم الديني والثقافي لجماعاتهم في مساجدهم المحلية. كانت المهمة شاقة بالتأكيد، فكثيراً ما كانت تتطلب الارتجال وأنصاف الحلول، إذ كان الوعاظ مجبرين على الكتابة والوعظ باللغة الإسبانية لنقل العقيدة الدينية الإسلامية لجمهور لا يستطيع أن يتحدث لغة القرآن.

رفض بعض علماء الدين المسلمين جواز بقاء المسلمين في أراضي النصارى المعروفة بدار الحرب، ودعوهم إلى العودة إلى دار الإسلام. وفي

ذلك كتب ابن جبير؛ العالم المسلم الإسباني من القرن الثالث عشر[1] ما نصه: «لا يوجد عذر عند الله للمسلم الذي يبقى في بلاد الكفر، إلا إذا كان عابراً، فالطريق واضح إلى ديار الإسلام». وفي فتوى صدرت أواخر القرن الخامس عشر، أمر مفتي وهران الونشريسي[2] إخوانه في الدين بمغادرة إسبانيا، وأعلن صراحة أن «العيش بين الكفار حرام، ولو ليوم واحد، بسبب الدنس والفحش اللذين يجراهما على فاعله»[4].

ربما لم يعلم كثير من المسلمين الإسبان بهذه الفتوى المحددة، لكنهم مع ذلك كانوا يعلمون بالأمر الديني الذي ينص على العيش في ديار الإسلام. فلماذا لم يغادروا إذن؟ لقد كان كثير من المسلمين فقراء لا يستطيعون تحمل تكاليف هذه الرحلة، في حين كان آخرون ممنوعين من المغادرة بأوامر من حكامهم النصارى. وربما برر بعض المسلمين استمرار وجودهم في دار الحرب بالاعتقاد أن الحكم النصراني لن يدوم. لكن كثيرين منهم، وربما غالبيتهم، تبنوا الحل التوفيقي عينه بين التزاماتهم الدينية وظروفهم الفورية، الذي يضطر المسلمون الذين يعيشون في أوروبا المعاصرة للأخذ به في سياق مختلف تماماً. على أن المسلمين الإسبان لم يكونوا جميعاً من الملتزمين دينياً بالقدر نفسه، وحتى المؤمنون الأكثر تمسكاً كانت لديهم التزامات أخرى. فكما أنهم مسلمون، كانوا أيضاً رعايا لحكام نصارى،

(1) أبو الحسن محمد بن جبير الكناني المعروف بابن جبير الأندلسي (من 1 سبتمبر 1145 إلى 1217)، جغرافي ورحالة وكاتب وشاعر عربي أندلسي، يقال إن الأمير أبا سعيد أرغمه يوماً على شرب سبعة كؤوس من الخمر وأعطاه ملؤها دنانير، فقرر أن يحج إلى بيت الله تكفيراً عن خطيئته، وأنتجت هذه الرحلة كتابه المسمى «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» في عام 1186، ومن مؤلفاته الأخرى «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» و«رحلة ابن جبير» [المترجم].

(2) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبدالواحد بن علي الونشريسي (من 1430 إلى 1509تقريباً)، حافظ المذهب المالكي بتلمسان وفاس، تلمساني الأصل والمنشأ وفاسي الدار والمدفن، ولد بإحدى قرى ونشريس بناحية بجاية بشرق الجزائر، من أهم مؤلفاته «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» [المترجم].

ومُقْطَعين لمُقْطِعين نصارى، وأعضاء في جماعاتهم وأحيائهم وأفراد في عائلات كانت آفاقهم في الغالب مقيدة بالعالم اليوميّ، الذي عاشوا فيه. وحتى اليوم لايزال الإسبان يُظهِرون ارتباطاً بمناطقهم يذهل الزوار من البلدان ذات السكان الأكثر حركةً وتنقلاً. وكان هذا الارتباط بالمكان أوضح في عالم القرون الوسطى، لدى كل من المسلمين والنصارى.

وحتى وسط المجتمع النصراني، الذي كان ينظر إليهم عموماً بعين العداء ونوع من التسامح القسري، ظل المسلمون قادرين على العيش في نسخ مصغرة من العالم الإسلامي الأكبر، طالما كان مسموحاً لهم بأداء شعائر دينهم. ففي المدن الكبرى مثل إشبيلية وقرطبة وسرقسطة وطليطلة، كان المسلمون يعيشون في أحيائهم الخاصة بشوارعها المميزة المواجهة للداخل المبنية حول فناء داخلي، ومساجدهم وحماماتهم ومقابرهم المدفون بها أسلافهم. وفي البارونيات والدوقيات النصرانية بأراغون وبلنسية، ظلوا يفلحون ويزرعون الأراضي نفسها ويخدمون السادة أنفسهم الذين خدمهم آباؤهم وأجدادهم.

وكذلك لم يكن الحكم النصراني قمعياً على إطلاقه. ففي القرن الخامس عشر، كانت الضرائب المفروضة على المسلمين في غرناطة المسلمة أعلى من المفروضة على المسلمين في الممالك النصرانية، وبدا ذلك أحد أسباب عدم شعبية أبي عبيدل وعائلته بين رعاياهم. وفي بعض مناطق إسبانيا، كانت القوانين النصرانية أكثر ليناً من الشريعة الإسلامية في بعض المخالفات، ولذلك حاول المسلمون أحياناً نقل قضاياهم إلى المحاكم النصرانية للحصول على عقوبات أخف. ومع أن المسلمين عموماً كانوا يشكّلون جماعة هامشية على حواف المجتمع النصراني، فإنهم لم يكونوا معزولين كلياً. فقد كان الحرفيون والبنّاؤون المسلمون يعملون في الكنائس النصرانية، وكان المزارعون والفلاحون يأتون بمحاصيلهم إلى الأسواق

النصرانية. حتى إن المسلمين والنصارى واليهود كانوا مندمجين جداً في مدينة تيروال الأراغونية في القرن الرابع عشر، لدرجة أن المؤرخ وقيّم السجلات المحلي أنطونيو فلوريانو Antonio Floriano علق على العلاقات «الودية بل والأخوية» بين أتباع الأديان الثلاثة في هذه الفترة[5].

ورغم حنين بعض المسلمين إلى عالم الأندلس المفقود، توقفت المقاومة الجدية للحكم النصراني كلياً تقريباً بعد ثورات المدجنين في أواخر القرن الثالث عشر. وحتى في أثناء حرب غرناطة، حين سجل النصارى من جميع أنحاء أوروبا أنفسهم في جيوش فيردناند وإيزابيلا، لم يكن هناك إقبال مماثل من المتطوعين المسلمين للقتال من أجل آخر مملكة إسلامية أيبيرية مستقلة، سواء من داخل إسبانيا أو خارجها. على أن التضامن الإسلامي لم يغب تماماً، إذ جمع بعض المسلمين البلنسيين الأموال لمساعدة حكام غرناطة من بني نصر، لكن في الغالب الأعم كانت الجماعات الإسلامية بإسبانيا ممزقة ولا تقوى على تحدي الفاتحين ولم تنج إلا ببقائها في الظل في بلد ظل وطنهم بغض النظر عن حكامه.

***

ينطوي التسامح دائماً على درجة من الكراهية للشيء الذي تتسامح معه، ولم تكن إسبانيا القرن الخامس عشر استثناء لذلك. ولم يكن المسلمون الإسبان مميزين عن النصارى في أشكال عبادتهم فقط، وإنما أيضاً في قواعد ومحرمات تقاليدهم الدينية والثقافية. فالمسلمون، بخلاف النصارى، كان محرماً عليهم شرب الكحول، على الرغم من أن كثيراً من المسلمين كانوا يشربونه، لدرجة أن سكر المسلمين كان من المشكلات الاجتماعية الجدية في مناطق إسبانيا النصرانية. وكان محرماً عليهم أيضاً أكل لحم الخنزير وحيوانات أخرى محددة كان النصارى يأكلونها. وكانوا يذبحون لحومهم بموجب الشريعة الإسلامية، ويطبخون بزيت الزيتون بدلاً من دهن

الخنزير، الذي كان النصارى يستخدمونه، وكانت منازلهم تعبق بروائح مختلفة عن منازل النصارى. وفي حين كان النصارى يأكلون على مناضد، كان المسلمون يأكلون عموماً على الأرض. وكانوا يتحدثون اللغة العربية، أو ما أطلق عليه النصارى اسم الغربية algarabía (البربرة gibberish)، وهي لغة لم يكن يتحدثها أو يفهمها إلا قليل من النصارى. وكانوا يطلقون على أطفالهم أسماء إسلامية واجه النصارى دائماً صعوبة في نطقها.

ومن جانب لون البشرة وملامح الوجه، لم يكن هناك اختلاف واضح بين النصارى والمسلمين. صحيح أن هناك كثيراً من الأفارقة السود في إسبانيا القرن الخامس عشر، كان بعضهم عبيداً حاليين أو سابقين للمسلمين والنصارى، إلا أن الإشارات النصرانية المتكررة إلى «الأندلسيين البيض» و«الأندلسيين السمر» توحي بأن لون البشرة لم يكن عنصراً أساسياً في تقرير الاختلافات بينهم. في حين كان الاختلاف البصري الأوضح بين المسلمين والنصارى هو لباسهم، لكن حتى هذا لم يكن تمييزه سهلاً وسريعاً. ففي غرناطة ما قبل الاسترداد، كان الرجال عموماً يرتدون اللباس الأندلسي التقليدي، مثل العباءات الفضفاضة والعمائم والعباءات المقلنسة، لكن الأزياء النصرانية كانت منتشرة أيضاً بين الطبقات الراقية من المسلمين. وفي عام 1529، نشر المصور الألماني كرستوف فيلتز Christoph Weiditz «كتاب أزياء» حول إسبانيا تضمّن صورة لافتة لموسيقيين وراقصين أندلسيين يؤدون الزمرة، وجميعهم يرتدون الصدرة والبنطال الضيق النصرانيين. وفي عام 1482، أبدى فيردناند قلقاً كبيراً من غياب الاختلافات الواضحة بين جماعتي السكان في بلنسية، فأمر المسلمين بارتداء اللباس الأزرق فقط. لكنه بعد أربعة أعوام ظل يشكو من أن المسلمين لايزالون يلبسون «مثل النصارى، وكثير منهم يرتدي صدرات حريرية ولباساً رفيعاً».

كان تميز المسلمات الأندلسيات من مظهرهن أسهل كثيراً من تمييز الرجال، وكان لباسهن دائماً مصدر فتنة وإعجاب من جانب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا إسبانيا في القرن السادس عشر، ومنهم فيلتز والمصور الفلمنكي جورج هوفناغل Georg Hoefnagel. وتوضح نقوش فيلتز أندلسيات حافيات يرتدين بنطلونات مطوية فضفاضة وسترات طويلة وملحفة بيضاء أو حجاباً كان يغطي رؤوسهن ووجوههن في الأماكن العامة. وأذهل النصارى الإسبان دائماً الاختلاف الشديد بين لباس الرجال المسلمين المتواضع جداً وحلي نسائهم ولباسهن ذي الألوان الزاهية، الذي كان مغايراً تماماً للمظهر الأكثر تجهماً للنساء النصرانيات. وكانت الأندلسيات في معظمهن مولعات بالزينة الشخصية، مثل الحسناء الجزائرية زوريدة Zoraida، التي وصفها الراوي النصراني في «حكاية الأسير» لدون كيخوته:

> لا أبالغ إن قلت إن اللآلئ المتدلية من رقبتها الجميلة وأذنيها وشعرها كانت أكثر عدداً من شعر رأسها. وفوق قدميها الحافيتين على الطريقة الأندلسية، كان يطوق كاحليها خلخالان من الذهب النقي مثبتة فيهما ماسات كثيرة، أخبرتني لاحقاً أن أباها قدرها بعشرة آلاف دولار، وكانت الماسات التي ترتديها حول رسغيها تساوي أكثر من ذلك بكثير[6].

وإذا كان هذا اللباس الغريب يزيد الإغراء الجنسي للأندلسيات في أعين الرجال النصارى، فإن الثروة المتخيلة في هذه الحلي كانت تثير أيضاً الطمع النصراني في زمن السِلم، وبالتأكيد في زمن الحرب، إذ أخذت ملابسهن وحليهن في الغالب كغنائم حرب. وفي الوقت نفسه، كان الكهنة الإسبان يستهجنون هذا العبث من النساء، وراعهم أن كثيراً من الأندلسيات كن

يزين أجسامهن أيضاً، بشعرهن المضفر أو بأوشام الحناء المعقدة، التي كن يخضبن بها سيقانهن وأيديهن وأقدامهن. كانت هذه العادات الأندلسية تعكس موقفاً من الجسد مختلفاً تماماً عن نموذج الزهد المتضمن في مفهوم «احتقار العالم» contemptus mundi، الذي كانت الكنيسة تتبناه، وكانت تولّد أحياناً مزيجاً متوتراً من الجاذبية والاشمئزاز، وهو موقف لا يختلف عن المواقف الإسبانية من الهنود «العراة» في العالم الجديد.

كان الولع الإسلامي بالحمامات العامة أحد الممارسات الثقافية التي نظرت إليها الكنيسة بعين الرعب. ففي العصور الوسطى كان الحمام الإسلامي أو الحمام العام قد أصبح سمة لكثير من المدن الإسبانية، وسمح الحكام النصارى لليهود والنصارى بزيارة الحمامات في أيام مختلفة. وبداية من القرن الخامس عشر فصاعداً، حُظِرت الحمامات العامة في أنحاء إسبانيا وأوروبا كافة. نتج هذا التحول جزئياً عن الاعتقاد أن الاستحمام يفتح مسام الجلد ويضعف دفاعات الجسم ضد الطاعون، لكنه كان يعكس أيضاً الاقتران الشائع بين الحمامات والدعارة والفسق[7]. وفي إسبانيا القرن الخامس عشر، كانوا ينظرون غالباً إلى الحمامات كأماكن للعلاقات الجنسية المحظورة، مع أن الحمامات كانت تخصص أياماً منفصلة للرجال وللنساء.

وقد نظر بعض النصارى إلى الولع الإسلامي بالاستحمام أنه تعبير عن الشهوانية والفجور الأندلسيين، وهو فهم يفسر بلا شك النقمة الشديدة من المؤرخ الكنسي من القرن السابع عشر فرانثيسكو بيرموديث دي بدراثا Francisco Bermúdez de Pedraza على المسلمين الغرناطيين، الذين اعتادوا الاستحمام «حتى في ديسمبر». ونظر بعض النصارى إلى الاستحمام باعتباره فعلاً مخنثاً ربما يكشف عن اللواط، ومنهم مؤرخ القرن الخامس عشر فرناندو دي بولغار الذي أرجع هزيمة المسلمين في الحمة[1] في

(1) راجع حاشية سابقة حول مدينة الحمة التي كان استيلاء الملكين الكاثوليكيين عليها في =

حرب غرناطة إلى حماماتهم التي تسببت في «نعومة أجسامهم»[8]. وترجع الكراهية النصرانية للاستحمام العام أيضاً إلى ارتباطه المدرك بالطقوس الدينية الإسلامية، ذلك أن بعض المسلمين الإسبان لم يكونوا يغسلون أيديهم فقط قبل الصلاة، وإنما كان الغسل للجسم كاملاً بما يعرف باسم الوضوء[1]، الذي يتضمن تطهير ما كانت تعتبره الكنيسة «أعضاء مخزية».

وعلى مدى معظم القرن الخامس عشر، لم تكن علامات الاختلاف الثقافي والديني من هذا النوع تشكّل أولوية لحكام إسبانيا. فربما كانت هذه الاختلافات محلاً للكراهية أو الرفض، لكن السلطات الدينية والعلمانية كانت مهيأة عموماً للتسامح معها، بشرط ألا تخترق العادات الإسلامية المجتمع النصراني على نطاق واسع. ورغم نوبات القمع المتفرقة، لم تبذل محاولة منظمة لفرض القواعد والمعايير النصرانية على السكان المسلمين. ومع أن بعض المسلمين نُصّروا قسراً في أثناء الثورات التي وقعت بين عامي 1391 و1412، فإن أعدادهم لم تكن كبيرة إلى درجة تثير تهديداً وجودياً وتشكّل مصدراً ممكناً للفساد داخل المجتمع النصراني. وعلى الرغم من أن المسلمين الإسبان شكّلوا أقليات ضعيفة ومعزولة داخل إسبانيا نفسها، فإنهم على خلاف اليهود كانت تربطهم الثقافة والدين بدول إسلامية تتمتع بقوة سياسية وعسكرية حقيقية يمكن نظرياً أن تستخدم ضد النصارى. وإضافة إلى ذلك كان مسلمو أراغون وبلنسية يتمتعون بحماية قوية من النبلاء المحليين، الذين كانوا

= عام 1482 البداية الفعلية لحرب غرناطة التي ستنتهي بعد عشرة أعوام بسقوط غرناطة نفسها [المترجم].

(1) كلمة guadoc الإسبانية المستخدمة هنا تعني «الوضوء»، لكن العملية المشار إليها هي الاغتسال أو رفع الجنابة، مع العلم بأن مسلمي إسبانيا حين منعوا من الوضوء، كانوا يستحمون كاملاً للصلاة، كما حثتهم فتوى أحمد بن جمعة، ويقال في الروايات العربية إن ذلك كان أحد أسباب منع الحمامات العامة، وربما اكتسبت كلمة «الوضوء» في الإسبانية لذلك هذا المعنى الواسع: الاستحمام [المترجم].

أكثر اهتماماً باستغلالهم اقتصادياً من تحويلهم إلى النصرانية.

وهكذا فإن حكام إسبانيا كانوا في الغالب الأعم مهتمين بالحفاظ على المسافة الفاصلة بين المسلمين والنصارى عبر التفرقة أكثر منهم عبر الاضطهاد خلال القرن الخامس عشر. وقد كانت قوانين العزل المعروفة بقوانين كتالانيا لعام 1412 تستهدف المسلمين واليهود، تماماً مثل مرسوم إيزابيلا لعام 1480، الذي أمر الأقليتين بأن تعيشا في مناطق معزولة بغرض منع «الضرر والبغضاء الكبيرين» اللذين يسببهما «استمرار الاختلاط والحياة المشتركة لليهود والأندلسيين مع النصارى» في قشتالة. لكن، في الوقت الذي كان فيردناند وإيزابيلا يخوضان فيه الحرب على غرناطة، حمت السكان المسلمين في بقية إسبانيا اتفاقيات المدجنين من القرون الوسطى، التي وقعت مع أسلافهما النصارى. لكن إلى أي مدى ظلت هذه الترتيبات سارية المفعول في إسبانيا النصرانية الموحدة التي لم تعد مستعدة للسماح لسكانها اليهود بالوجود على أراضيها؟

فبعد الحرب مباشرة، لم تكن نوايا حكام إسبانيا نحو رعاياهم المسلمين واضحة تماماً، بل كانت متناقضة في غالبيتها. ففي عام 1497، أجبر فيردناند وإيزابيلا البرتغال على طرد المسلمين واليهود في أثناء المفاوضات حول زواج الملك البرتغالي من ابنتهما. لكن هؤلاء المسلمين سمح لهم بالسفر عبر قشتالة، ثم استقروا فيها. فحين أراد الملكان الكاثوليكيان استئصال السكان المسلمين من البرتغال، عملا دون قصد على زيادة عدد الكفار في ممالكهما. هل كان هذا التناقض الظاهر ناتجا عن محاولة ماكرة لاكتساب ميزة اقتصادية قصيرة المدى، مع العلم بأن هؤلاء المسلمين سيواجهون قريباً الاختيار نفسه الذي فرض على اليهود؟ أم تراه يشير إلى التزام طويل المدى بالتسامح الديني؟ لم تتضح إجابات هذين السؤالين إلا في نهاية القرن مع ضم إسبانيا النصرانية لأحدث مسلميها.

4

وعود مهدرة

غرناطة (1492-1500)

كان الملكان الكاثوليكيان ملتزمين ظاهرياً بوجود إسلامي دائم في مملكة غرناطة المفتوحة حديثاً. تأكد هذا الالتزام في اتفاقيات الاستسلام الكاشفة عن شهامة واضحة، تلك التي وقع عليها أبو عبيدل في نوفمبر 1491. كفلت هذه الاتفاقيات للسكان المسلمين الاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم ودخلهم على الدوام، كما سمحت لهم أيضاً بالهجرة إلى شمال إفريقيا والعودة للعيش في إسبانيا بعد ذلك إن أرادوا. ونصت الاتفاقيات أيضاً على أن «القضاة والعمد والحكام» المعينين لحكم غرناطة يجب أن يكونوا «أشخاصاً يحترمون الأندلسيين ويعاملونهم بالحسنى». وفي مسألة الدين، كان الملكان الكاثوليكيان لا يقلان شهامة، إذ أعلنا:

> يسمح صاحبا السمو وخلفاؤهما للملك أبي عبدالله [أي عبيدل] وقادته، والقضاة والمفتين، والقادة العسكريين، وعلية القوم، وعامتهم، كبيرهم وصغيرهم، بأن يعيشوا دائماً وفق شريعتهم دون المساس بسكناهم وجوامعهم ومناراتهم، ولن يتدخلا في أوقافهم التي أوقفوها لتلك الأغراض، ولن يعيقا عاداتهم وتقاليدهم في غير حين[1].

وقد تعززت هذه الوعود بإنشاء مجلس بلدي مشترك في مدينة غرناطة كان من حق السكان المسلمين انتخاب ممثليهم فيه. بشر ذلك كله بتعايش طويل المدى بين غرناطة المسلمة وحكامها الجدد. لكن ثمة شكوك كثيرة فيما إذا كانت هذه التدابير الجديدة قد أريد لها حقاً أن تدوم. وحتى في هذه الفترة المبكرة، وفقاً لمؤرخ القرن السادس عشر الغرناطي لويس دي مارمول كارباخال Luis de Mármol Carvajal، حرض كبار الأساقفة الإسبان فيردناند على «استئصال الطائفة المحمدية واسمها من إسبانيا كلها» بإصدار الأمر لمسلمي إسبانيا بالاختيار نفسه، الذي فرض على اليهود بين النفي والمعمودية، ابتداء من غرناطة. ووفقاً لمارمول، فإن فيردناند رفض هذه الطلبات على أساس أن هذه السياسة قد تتطلب «العودة إلى الحرب مرة ثانية» في وقت كان فيردناند فيه مشغولاً بـ«فتوحات أخرى» خارج إسبانيا. وعوضاً عن ذلك، اختار فيردناند سياسة إطلاق الحرية على أمل- بحسب مارمول- أنه «من خلال الاتصال المحلي مع النصارى ومناقشة الأمور الدينية سيفهم [المسلمون] الخطأ الذي وقعوا فيه ويقلعون عنه... ويصلون إلى معرفة الدين الحق ويعتنقونه، كما فعلت أمم أخرى بربرية كثيرة في الماضي»[2].

هذا النهج التدريجي فرضته في المقام الأول اعتبارات اقتصادية وأمنية. فبعد عشرة أعوام من الحرب كان فيردناند حريصاً على تعزيز السيطرة النصرانية على غرناطة، وتحويل السكان المسلمين إلى مصدر دخل. وعلى الرغم من أن المحاربين الذين شاركوا في حرب غرناطة كوفئوا بمنح من الأراضي والمُقْطَعين المسلمين، فقد ظلت الهجرة النصرانية ضعيفة ومتفرقة في الفترة التالية للغزو مباشرة، وكانت سياسة الاعتدال ضرورية لضمان استمرار تعاون السكان المسلمين مع الحكم الجديد. ومن أجل هذه الغاية، كانت الإدارة الجديدة لغرناطة مليئة برؤساء نصارى محنكين

يتمتعون بمعرفة مباشرة بالمملكة الجديدة، مثل السكرتير الملكي إيرناندو دي ثافرا الذي تفاوض على اتفاقيات الاستسلام وإنيغو أورتادو دي مندوسه Iñigo Hurtado de Mendoza كونت تانديليا، الذي عين قائداً عاماً، وهو منصب مكافئ تقريباً لنائب الملك والحاكم العام. ترأس تانديليا سليل عائلة مندوسه القوية، وهي واحدة من أكبر عائلات عصر النهضة الإسباني، حامية صغيرة في قصر الحمراء، وحافظ على علاقات ودية مع النخبة المسلمة المحلية.

انعكست سياسة المصالحة أيضاً في تعيين إيرناندو دي طلبيرة[1]؛ الراهب الورع بالأخوية الرهبانية للقديس جيروم، وكاهن الاعتراف الملكي السابق لإيزابيلا، في منصب أول رئيس أساقفة لغرناطة. وطلبيرة الذي يعود إلى جذور مُتَنَصِّرية[2] وكان في الستينيات من عمره في الوقت الذي تولى فيه هذا المنصب الجديد المهم بناء على طلبه، عُرف بالورع والاعتدال، وكتب في كتيب له عام 1480 بعنوان «الطعن الكاثوليكي» Católica impugnación أن «الهرطقات يجب أن تصحح بالعقوبات والجلد، وبالفكر الكاثوليكي أيضاً».

* * *

كان التشديد على الأخير- أي الفكر- هو الذي حدد معاملة طلبيرة مع السكان المسلمين في أبرشيته الجديدة، فلقد عارض طلبيرة دخول قضاة التفتيش إلى غرناطة، مفضلاً أن يستميل المسلمين إلى النصرانية عبر «الكلمة والكتاب والقدوة» لا الخوف. وشرع من بداية تعيينه في تنفيذ هذه المبادئ على أرض الواقع، فكان يقدم عدة عظات كل أسبوع، وأحياناً في اليوم الواحد لتجمعات منتقاة من المسلمين. وأنشأ «دار العقيدة» في

---

(1) Hernando de Talavera في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) نسبة لطائفة المُتَنَصِّرين من اليهود السابقين [المترجم].

ربض البيازين بالمدينة، وكان يعظ فيها أفراداً وجماعات صغيرة من الفقهاء المسلمين عن طريق مترجم. كما تركزت هذه الجهود بالدرجة الأولى على النخبة المسلمة بهدف بدء عملية تنصير من أعلى لأسفل. وأجرى طلبيرة بعض التجديدات الخلافية أيضاً في محاولة منه لجعل النصرانية أكثر إغراء لمسلمي غرناطة. فسمح للمسلمين برقصة الزمرة في أثناء مواكب جسد المسيح السنوية، وسمح باستخدام بعض الكلمات العربية في القداس. وأصر أيضاً على أن يتعلم كهنته العربية، وكلّف بوضع كتاب حول القواعد الأساسية للغة العربية باللغة القشتالية تسهيلاً للمهمة. ورغم سنه المتقدمة، حاول طلبيرة نفسه أن يتعلم العربية، وقيل إنه تمكن من قراءة الوصايا العشر ومقتطفات من كتاب العقيدة بها.

لم يكن القصد من هذه الجهود أن توسّع الفهم الثقافي لرجال الدين أو أن تضع الأساس لثنائية لغوية، وإنما على حد تعبير بيدرو القلعي[1] مؤلف كتاب القواعد القشتالية-العربية، كان الغرض من كتيبه «إخراج هؤلاء المُنَصّرين حديثاً من الظلام والأخطاء الكثيرة التي غرسها فيهم الدين الإسلامي». وعلى الرغم من أن طلبيرة احترم في المسلمين رصانتهم، وأعلن في إحدى المناسبات أننا «يجب أن نتبنى أخلاقهم، ويتوجب عليهم أن يتبنوا ديننا»، فإنه كان متحمساً لاستئصال «الطائفة المحمدية»، كأي رجل دين آخر في عصره. وبالنسبة إلى طلبيرة، كان تنصير مسلمي غرناطة مرادفاً لتمدينهم. ووفقاً لبيرموديث دي بيدرازا، فقد كان رئيس الأساقفة يدعو الوجهاء والأعيان الأندلسيين إلى العشاء كي يغرس فيهم «حب العادات النصرانية»، مثل الجلوس على الكراسي، وأكل الطعام النصراني، واللبس «على الطريقة القشتالية»[3].

ورغم هذه الطريقة الأبوية، يبدو أن طلبيرة كان محبوباً وموقراً في

(1) Pedro de Alcalá نسبة إلى بلدة قلعة النهر Alcala de Henare [المترجم].

غرناطة. يصف بيدراثا كيف ظهرت «كرة من النار» فوق رأس طلبيرة في أثناء إحدى عظاته، وهي المعجزة التي أكسبته اللقب المحترم «الفقيه النصراني المقدس» بين المسلمين المحليين. وفي عامي 1494-1495، زار طبيب نمساوي يدعى يرونيموس مينسر Hieronymus Munzer الإمارة السابقة، كجزء من رحلته خلال إسبانيا، ويحوي سرده للرحلة وصفاً حياً للمجتمع النصراني والإسلامي المختلط، الذي تشكّل في فترة ما بعد الحرب[4]. وفي بعض البلدات الغرناطية، وجد مينسر أن السكان المسلمين قد أزاحهم النصارى، وأن مساجدهم قد أعيد تكريسها كنائس، في حين ظلت في مناطق أخرى إسلامية كلياً، وهو الأمر الذي أدهش مينسر.

ومع أن مينسر كان معادياً للممارسات الدينية «للساراكينوس» الغرناطيين، فإنه افتتن أيضاً بالعالم الإسلامي الذي بدا له أجنبياً وغريباً، ولقد أثنى على الإنتاجية والمهارة الزراعية للسكان المسلمين. وأبدى مينسر إعجاباً شديداً بالعاصمة الغرناطية، التي وصفها بـ«أعظم مدينة في العالم». وفي أول ليلة له في غرناطة، لاحظ بذهول كيف «كان الضجيج من مآذن المساجد لا يصدق» في أثناء أذان الصلاة المسائية[1]. وتجاسر السائح النصراني الجريء على دخول الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى في ربض البيازين، وشاهد الفيلات الفخمة الواسعة لأعيان المسلمين بحدائقها الفخمة، وأشجار السرو فيها، والمنازل الصغيرة شديدة الازدحام، التي يعيش بها أغلبية السكان، والحي اليهودي السابق الذي هدم بأوامر من الملكين الكاثوليكيين بعد طردهم.

ورغم ازدياد الوجود النصراني، ظلت غرناطة إسلامية بالدرجة الأولى، حيث أحصى مينسر أكثر من مائتي مسجد، منها واحد «كان مزدحماً جداً إلى درجة أن المصلين كانوا يصلون في الشوارع». وزار

(1) مؤكد أنها صلاة العشاء [المترجم].

مينسر أيضاً الحامية النصرانية في قصر الحمراء، فوجد عمالاً مسلمين من ربض البيازين ينفذون الإصلاحات، وفيها استضافه القائد العام تانديليا في حدائق القصر، وأجلسه على العشب فوق فرش حريري على الطريقة الأندلسية. وقابل أيضاً طلبيرة الذي وصفه بأنه «القديس جيروم الجديد»، المسؤول عن «تنصير كثير من الساراكينوس». لكن هذه المزاعم لم يؤكدها وصف مينسر لانتشار الإسلام وهيمنته. ولم تنعكس في الانتقادات الصادرة من رجال الدين ومسؤولي محكمة التفتيش من خارج غرناطة؛ أن طرق طلبيرة لم تكن تؤتي النتائج السريعة المطلوبة. ووقعت توترات أيضاً في غرناطة نفسها، حيث حدث عدد من الاضطرابات العنيفة في العاصمة في الأعوام الأولى التالية للاستسلام، منها واحد قتل قادته ومزق أجسامهم، لبث «الرعب والطاعة اللازمين» في نفوس السكان، كما جاء في وصف أحد المؤرخين.

ربما أسهمت هذه التوترات في التدفق الثابت للمهاجرين المسلمين إلى شمال إفريقيا، غالبيتهم من الطبقات العليا. ففي خريف عام 1493 تخلى أبو عبيدل نفسه عن ضِياعه الريفية في جبال البشرات، وتوجه إلى المنفى في شمال إفريقيا، ومات هناك بعد بضعة أعوام[1]. وحذا أعيان آخرون حذوه، منهم الحسن الوزان المعروف بالجغرافي والرحالة ليون الإفريقي[2]

(1) بعد أن أقام أبو عبيدل بضع سنوات في قصره بالبوجراس بالأندلس، رحل إلى المغرب الأقصى عند سلطان المغرب محمد الشيخ المهدي، حيث نزل بمدينة غساسة بإقليم الناظور، ودخل معركة مع قريبه حاكم فاس قتل فيها في 1527. وقد سبقه إلى ذلك المصير عمه وغريمه الزغل، اللذان تحاربا معاً على حكم غرناطة وتبادلا التحالف مع ملوك النصارى، مما أسقط دولتهم. فبعد أن يئس الزغل من الحرب أبرم مع إيزابيلا اتفاقاً لضمان سلامته هو وحاشيته، وتوجه إلى تلمسان، وهناك سجنه سلطان المغرب محمد الشيخ وسمل عينيه وأخذ أمواله عقاباً على تحالفه مع النصارى [المترجم].

(2) هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي أو الفاسي أو ليون الإفريقي أو يوحنا ليون الإفريقي أو الأسد الإفريقي، ولد وعاش في غرناطة، وبعد سقوطها انتقل وأسرته إلى فاس بالمغرب وأصبح سفيراً لسلطانها، زار مدناً ومناطق كثيرة، منها مصر وإسطنبول وبلاد العرب ومناطق =

الذي هاجرت عائلته إلى فاس. وظل بعد أعوام يتذكر البلاط المزجج لمدينته الأم، والولائم والرقصات التي رافقت مراسم ختانه، والملحفة البيضاء التي كانت أمه ترتديها.

وفي رسالة إلى مليكيه في صيف عام 1495، أبدى السكرتير الملكي دي ثافرا رضاه عن هذا النزوح الجماعي، وزعم أن «كل الباقين في طريقهم للخروج، وأنهم لم يعاملوا معاملة قاسية من أي نوع، بل لم يعامل الناس بمثل هذه الطريقة الحسنة»[5]. وذكر في الثاني والعشرين من سبتمبر من تلك السنة أن «هؤلاء الأندلسيين مطمئنون جميعاً، وكلهم في خدمة سموك... لكنني أتمنى ألا يبقى منهم أحد، ليس لأن عندي أي دواع للشك، والحمد لله، لكن بإخضاعهم لبعض القمع يستطيع الشخص المتواضع الذي عينته سموك في ممالكك أن يطردهم»[6]. لكن لا توجد إشارات على أن فيردناند وإيزابيلا كانت لديهما نية من هذا النوع في تلك المرحلة، ما عدا بعض المحاولات المؤقتة لتحفيز الهجرة بين النخبة الإسلامية، لكن استمرار هجرة كثير من الأعيان الأندلسيين توحي يقيناً بتضاؤل الثقة في مستقبلهم تحت الحكم النصراني.

وفي الفترة نفسها، كان المهاجرون النصارى يتدفقون على مدينة غرناطة، مدفوعين بالإعفاءات الضريبية والحوافز الأخرى، من الحرفيين الحضريين وصغار المزارعين إلى بيروقراطيي الطبقة الوسطى الباحثين عن مناصب في الجهاز الإداري الجديد، الذي تأسس في المملكة الجديدة. ولم يكن كثير من هؤلاء المهاجرين يروق لهم نموذج التعايش الذي أرسته المعاهدات أو الاعتدال، الذي أظهره رئيس الأساقفة مع سكان كانوا

= إفريقية، أسره قراصنة إسبان على جزيرة جربة واقتادوه إلى روما هدية للبابا ليون العاشر الذي حمله على اعتناق النصرانية والبقاء لتدريس اللغة العربية في روما، وضع كتباً في اللغة والأدب والجغرافيا من أشهرها كتاب «وصف إفريقيا» [المترجم].

يعتبرونهم كفاراً مغلوبين. وكان الاتصال بين هؤلاء المهاجرين والسكان المسلمين المحليين يغضب الزعماء الدينيين من الجانبين، الذين اعتبروا قربهم مصدراً ممكناً للنزاع والعدوى الثقافية. ففي مارس 1498، حظر طلبيرة على النصارى تأجير الممتلكات للمسلمين، وارتداء اللباس الأندلسي، وزيارة الحمامات، وشراء اللحوم من الجزارين المسلمين.

تبع هذه التعليمات اتفاق متبادل على تقسيم المدينة إلى منطقتين منفصلتين، مع تركز معظم السكان المسلمين في المنطقة العليا حول ربض البيازين. وفي صيف عام 1499، عاد الملكان الكاثوليكيان إلى مكان أعظم انتصاراتهما ليريا المدينة بنفسيهما، وجاءا بعد فترة قصيرة بالرجل الذي فعل أكثر من أي فرد آخر لنقض المعاهدات.

***

قوبلت زيارة فيردناند وإيزابيلا إلى غرناطة، بعد غياب سبعة أعوام، بترحيب حشود متحمسة، منهم آلاف من النساء المسلمات اللواتي أظهرت ملحفاتهن البيضاء، وفقاً للمؤرخ ألونسو دي سانتا كروث Alonso de Santa Cruz، مشهداً «يستحق إعجاباً عظيماً». لكن من الصعب الاعتقاد بأن غزاة غرناطة أعجبتهم أيضاً تلك التعبيرات العامة للديانة الإسلامية، التي كانوا يرونها ويسمعونها كلما نظروا إلى ربض البيازين من قصر الحمراء.

وفي الخريف، لحق بفيردناند وإيزابيلا في غرناطة رئيس أساقفة طليطلة فرانثيسكو خيمنيث دي ثيسنيروس Francisco Jimenez de Cisneros. كان ثيسنيروس المولود عام 1436 من أكثر الشخصيات رمزية وتأثيراً في عصره، وشملت حياته العملية السياسة والدين والغزو العسكري. وكان مثل طلبيرة كاهن الاعتراف السابق للملكة، ورجلاً ورعاً، وكانت حماسته الدينية تمتزج بقسوة وتصلب لا يقبلان المساومة. ظهر ثيسنيروس

في الحياة العامة متأخراً نسبياً. فبعد دراسة القانون في جامعة شلمنقة[1]، دخل الكنيسة، وبدا أنه مصمم على الوصول إلى منصب ديني رفيع، حين سُجِن لأنه أخذ وظيفة كان أحد رؤسائه قد وعد بها شخصاً آخر. قضى ثيسنيروس حكماً بالسجن على تحديه لرؤسائه، وقرر بعد ذلك أن يصبح راهباً فرانسيسكانياً، وينسحب تماماً من الشؤون الدنيوية. وعاش لبضعة أعوام ناسكاً في غابات معتَزَل ديني بالقرب من طليطلة في صومعة من القش تكفي بالكاد للتمدد فيها. وكان يقتات على النباتات، ولم يكن يلبس شيئاً غير قميص من الوبر، وكرس أيامه للصلاة والتأمل الروحي وإماتة الجسد.

أعجبت إيزابيلا المتدينة بهذه الحياة الدينية الصارمة، فاختارته عام 1492 كي يكون كاهن الاعتراف الخاص بها. قَبِل الراهب في عمر السادسة والخمسين هذا التعيين باعتباره واجبه الديني، مع أن رعبه من النساء جعله يرفض أن ينام تحت سقف واحد معهن. وصل الرجل إلى البلاط القشتالي شاحباً وهزيلاً كالجيفة مرتدياً رداء الراهب وصندله، وكان يشبه «سكان الصحراء» كما وصفه بيتر مارتر. يُظهِر نقش معاصر صورة جانبية معقوفة حادة والرأس الحليق على طريقة الرهبان لهذا الرجل المتصلب الذي أثبت سريعاً أنه عنيد ويمتلك إرادة حديدية في السعي وراء أهدافه السياسية، طالما أن هذه الأهداف تعكس مصالح الرب.

وسرعان ما أظهر ثيسنيروس جلده وهمته حين كُلِّف بمهمة إصلاح الأخويات الرهبانية الفاسقة بإسبانيا، التي سقط كثير منها عن معايير التقوى بالقرون الوسطى لدرجة أنهم كانوا يعيشون علناً مع «زوجات» ومحظيات، وقد كانت مهمة صعبة بكل معنى الكلمة. زار ثيسنيروس الأديرة بنفسه في أنحاء البلاد كافة على بغل، وفرض سلطته على هؤلاء

(1) Salamanca في اللغات الأوروبية [المترجم].

الرهبان الضالين بقوة جعلت المئات منهم يغادرون إسبانيا مع رفيقاتهم بدلاً من الإذعان للتقشف الجديد الذي يطالبهم به. وكوفئ ثيسنيروس على جهوده بالترقية إلى رئيس أساقفة طليطلة بعد إصرار إيزابيلا. وكما هي عادته وافق على منصبه الجديد وهو يلبس عباءة الراهب وصندله، لكنه وافق لاحقاً على لبس الحرير وفرو «القاقم»، اللذين يتطلبهما الغُرف بعد إصرار البابا، وظل يلبس قميص الوبر تحت ملابسه المتبرجة.

هكذا كان الرجل الذي انطوى مزاجه على «هوس بالحرب أكثر مما يليق بأسقف» بتعبير كاتب سيرته ابن القرن السادس عشر ألبار غوميث دي كاسترو Alvar Gomez de Castro. وفي نوفمبر غادر فيرديناند وإيزابيلا غرناطة إلى إشبيلية تاركين ثيسنيروس في المدينة ليعمل مع طلبيرة لأسباب لاتزال غير واضحة. لم يبد الأسقف الطليطلي حماساً للطرق التبشيرية التي كان زميله يتبعها لإدخال مسلمي غرناطة في النصرانية، وذات مرة شبّه ترجماته العربية للكتاب المقدس «بإلقاء اللآلئ أمام خنازير». وبدأ ثيسنيروس جهوده باختيار مجموعات من الفقهاء «بأسلوب لين عذب» بتعبير غوميث، وأغدق عليهم هدايا من الأقمشة الحريرية الملونة والقبعات القرمزية بغرض إغرائهم.

لكن سرعان ما نفد صبره بسبب معدل التقدم البطيء، وبدأ في إرسال المسلمين العنيدين إلى السجن، وفيه عوملوا بما وصفه غوميث دي كاسترو «طرق لم تكن صحيحة» إلى أن يوافق الواحد منهم على اعتناق النصرانية. كان من أولئك المسجونين وجيه أندلسي يدعى الثغري أثاتور[1] عهد به ثيسنيروس إلى عناية كاهن شرس يعرف بالأسد من لقبه

(1) اسم هذا المُعذَّب في اللغات الأوروبية هو Zegrí Azaator، وحكايته الموجزة الواردة هنا تتطابق مع حكاية حامد الثغري مع ثيسنيروس، التي تقول في نسختها العربية إن الثغري لم يمكث في قبضة ثيسنيروس عشرين يوماً فقط، بل بدأت حكايته مع سلف ثيسنيروس قبل أكثر من عقد من الزمان، حين كان الثغري (اسمه مشتق من «الثغور» بما يحمله من معنى الرباط =

León. وبعد عشرين يوماً في صحبة هذا «الأسد» المؤلمة، أُتي بالوجيه الأندلسي في القيود ذليلاً ومتسخاً أمام ثيسنيروس، وأعلن أن الله أمره في المنام بأن يعتنق النصرانية. فأمر ثيسنيروس للثغري على الفور بأن يغتسل ويرتدي عباءة قرمزية، ودفعه برفق في حوض التعميد الذي تلقى فيه الاسم النصراني غونثالو فيرنانديث ثغري؟

شجع هذا النجاح ثيسنيروس الذي كثف جهوده، وتباهى أمام البابا ألكسندر السادس في ديسمبر بأن ثلاثة آلاف أندلسي تنصروا في يوم واحد. وكان نطاق التنصير واسعاً، لدرجة أن كثيراً من المسلمين كانوا أحياناً يرشون بالماء المقدس بدلاً من أخذهم إلى حوض التعميد. وحين اقترح مجلس كنيسة ثيسنيروس في طليطلة أن هذا التنصير قد يشكّل خرقاً

= والجهاد) آخر من دافع عن مدينة رندة ضد الجيوش القشتالية، وبعد سقوطها لجأ إلى مالقة، وقاد الدفاع عنها في معارك مستميتة في شهر أغسطس من عام 1487، وحين طالبه الوجهاء بالتفاوض مع القشتاليين قال لهم «إني تسلمت المدينة لأحميها، لا لأسلمها»، وفي هذه الحرب وقع أسيراً، وانقطعت أخباره وظن الناس أنه استشهد. وحين نادى المنادي في الناس بأنه سيفرج عن حامد الثغري من كنيسة «سان سلفادور»، تردد الناس في دخول الكنيسة التي كانت يوماً مسجداً، لكن فضولهم ورغبتهم في رد الاعتبار للمجاهد الشهير دفعت كثيرين منهم ليكونوا شهوداً على إطلاق سراحه، فتزاحموا ليكونوا مع بطلهم في لحظة تحرره ليحملوه على الأعناق، لأنهم أهل «جاهته وعزوته». وفي الكنيسة، صفق رئيس الأساقفة من كرسيه الوثير، فإذا بأربعة حراس يدخلون مطوقين رجل ناحل بأسمال بالية، متعثر الخطى، مطأطئ الرأس، مكبل اليدين والقدمين، لم يتعرف عليه الكثير من أهله بسبب ما طاله من تغيير، فقد نالت منه الأيام وخربت ملامحه، بعد أن كان قبل عقد من الزمان أسداً من أسود المقاومة. طلب منه ثيسنيروس أن يصارح الأندلسيين بأمره، فتنحنح الأسير وسعل وتلعثم ثم قال: «جاءني هاتف في سجني ليلة أمس أخبرني بأن الله يريد مني أن أتنصر»، وأضاف وهو مطأطئ الرأس: «هذه إرادة الله ومشيئته». فصدح الأرغن بلحن كنسي ابتهاجاً، وجفل الناس وسالت دموعهم أسفاً. ثم أمر رئيس الأساقفة، فأخذ الثغري وغسلوه وصففوا شعره وألبسوه ثوباً حريرياً، ثم جيء به يمشي مترنحاً كأن الأغلال لاتزال في قدميه، وركع عند قدمي ثيسنيروس، الذي تناول كأس التعميد من يد أحد معاونيه وغمس أطراف أصابعه في الكأس ثم نثر بعضاً من مائه على رأس الثغري وهو يتمتم بكلماته المقدسة، واختار حامد لنفسه اسم غونثاليث فرناندو ثغري [المترجم].

لاتفاقيات الاستسلام، لم يبد رئيس الأساقفة أسفاً، معلناً أنه «إذا تعذر جذب الكفار إلى طريق الخلاص، وجب جرهم إليه جراً». وبالنسبة إلى ثيسنيروس، كان التنصير أحد الواجبات المفروضة على العدو الكافر المهزوم. وأخبر زملاءه في كنيسته في إحدى رسائله بأن الزعماء الدينيين المسلمين في غرناطة سلموه القرون، التي كانوا يستخدمونها لأذان الصلاة «تماماً مثل مفاتيح المدينة». بيد أن مسلمي غرناطة لم يذعنوا جميعاً للتدبير الجديد، ولم يمض وقت طويل حتى أنتجت جهود ثيسنيروس استجابة مختلفة تماماً.

***

ظهرت الإشارات الأولى للمقاومة بين الحرفيين والخياطين ونساجي الحرير في ربض البيازين حول قضية المتحولين من النصرانية إلى الإسلام المعروفين باسم «العلوج» elches (بمعنى «الأجانب» في اللغة العربية). فبالنسبة إلى النصارى والمسلمين على حد سواء، كان الشخص الذي يترك دينه ويعتنق ديناً آخر يعتبر مرتداً، وقد اتضح موقف النصارى من هؤلاء المرتدين في حادثة شنيعة تلت حصار مالقة في عام 1487، حين قُتل النصارى الذين سبق أن اعتنقوا الإسلام بطريقة بشعة، حيث شُدوا إلى خوازيق واندفع نحوهم الجنود على ظهور خيولهم مسلطين رماحهم إليهم في تمرين قاسٍ على المثاقفة. نظرياً، كان العلوج الغرناطيون تحميهم من هذه المعاملة بنود محددة في معاهدات التسليم التي اشترطت ألا يكره المتحولون الذين «أصبحوا أندلسيين»[1] على العودة إلى النصرانية على غير إرادتهم.

(1) لاحظ الخلط في العصر ما قبل الحديث بين ديانة الناس وقوميتهم أو عرقهم، فالنصراني حين يدخل الإسلام يصير «أندلسياً» والعكس، وذلك ليس غريباً على عصر الحروب الدينية والدول الدينية وسيطرة الكنيسة على أمور المجتمع، وربما لذلك كان تصميم الإسبان على تنصير اليهود والمسلمين بالقوة، ليس لكي يصيروا نصارى، بل ليصيروا إسباناً [المترجم].

سمحت هذه الاتفاقيات لهؤلاء المتحولين بألا «يستجوبهم» رجال الدين النصارى إلا في وجود مرجعيات دينية إسلامية[1]. لكن ثيسنيروس أسرع في استغلال هذا الثغرة، وبدأ في استدعاء العلوج إلى مكتبه، وأرهبهم لإعادتهم إلى الكنيسة، وسجن من رفضوا. وكانت جهود ثيسنيروس تتركز دائماً على النساء النصرانيات اللاتي تزوجن من رجال مسلمين، وهو التركيز الذي أغضب السكان المسلمين الذين استاءوا من انتهاك حرمة المنازل التي يجب أن تصان. وفي الثامن عشر من ديسمبر، أرسل ثيسنيروس شرطياً يدعى بلاسكو دي باريونوبو Velasco de Barrionuevo ومساعداً له إلى رباض البيازين لجلب علجة شابة للاستجواب. وبينما كان الشرطيان يعبران الحي بالشابة المعتقلة، أخذت الشابة تصرخ معلنة أنهما يجبرانها على التنصر. وفي خلال دقائق أحاط حشد غاضب بموظفي ثيسنيروس، وقتل باريونوبو ببلاطة رصف ألقيت عليه من نافذة طابق علوي، في حين نجا مساعده بالاختباء تحت سرير امرأة مسلمة محلية آوته.

انفجر الغضب الذي كان يغلي في النفوس على مدى الشهرين الأخيرين في ثورة مفتوحة، حيث أغلق سكان ربض البيازين شوارعهم بالمتاريس، وأخرجوا الأسلحة من المخابئ. كانت هذا اللحظة بالنسبة إلى سكان المدينة النصارى وحاميتها الصغيرة لحظة خطرة فعلاً، إذ انقض حشد غاضب على بيت رئيس الأساقفة ثيسنيروس، ونصحه موظفوه

(1) نصت المادة الثلاثون من معاهدة الاستسلام على أنه «لا يجوز إرغام أي نصرانية تزوجت من أحد المسلمين، واعتنقت الدين الإسلامي، على العودة إلى النصرانية، إلا طائعة، وبعد أن تُسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى. وفيما يتعلق بأبناء النصرانيات وبناتهن، فلهم نفس الحقوق المنصوص عليها في هذه الفقرة». ونصت المادة الحادية والثلاثون على أنه «إذا سبق لنصراني، ذكراً كان أو أنثى، اعتناق الديانة الإسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية، فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده، أو ينال منه بأي صورة، ومن يفعل ذلك يعاقب» [المترجم].

بأن ينجو بحياته. لكنه رفض هذا الخيار وأعلن رغبته في أن «ينتظر تاج الاستشهاد إذا كانت تلك هي إرادة السماء». وعلى مدار الليل ظل هو وموظفوه يهيئون أنفسهم لهجوم لم يحدث، فلقد تفرق الحشد تدريجياً. وعلى مدار الأيام القليلة التالية، بدأت الثورة تأخذ شكلاً أكثر تنظيماً، إذ اختار سكان البيازين مسؤوليهم وقياداتهم. وجد تانديليا وطلبيرة نفسيهما أمام المواجهة التي فعلا الكثير لتجنبها، فسعيا إلى نزع فتيل الأزمة. فحاول طلبيرة برفقة موكب من الكهنة والرهبان يحملون صليباً أن يدخلوا ربض البيازين المحصن، فانهال عليهم وابل من الحجارة. فأظهر طلبيرة شجاعة شخصية فائقة بالتقاط الصليب والاقتراب وحده من المتاريس، فأثار ذلك إعجاب المسلمين المحليين، الذين قَبَّل بعضهم حاشية ثوبه تقديراً «لفقيه النصارى».

وتدخل تانديليا أيضاً لتهدئة الموقف، فدخل البيازين على حصانه، ورمى قبعته الحمراء إلى الحشد في إشارة على حسن النية. وفي بادرة أخرى على حسن النية، نقل القائد العام زوجته وأطفاله إلى بيت مجاور للجامع الرئيس في البيازين. وبعد عشرة أيام، بدأ المسلمون في تسليم أسلحتهم، وسلموا قتلة شرطي ثيسنيروس الذين أعدموا فوراً. في هذه الأثناء، كانت تقارير مشوشة عن هذه الأحداث قد وصلت إلى الملكين الكاثوليكيين في إشبيلية، اللذين اعتقدا للوهلة الأولى أنهما يواجهون ثورة عامة. ثار فيردناند وقال لزوجته: «رئيس الأساقفة الذي اخترته كلفنا الكثير، فحماقته جعلتنا نخسر في بضع ساعات ما حققناه في أعوام». وحين استدعي إلى إشبيلية لتقديم تفسير لأفعاله، اعترف ثيسنيروس بأن «حماسه المفرط لما فيه صالح الدين» أسهم في الاضطراب، لكنه دفع بأن المسلمين هم الذين خرقوا المعاهدات، وليس هو، بإشعال ثورة مسلحة.

وبدلاً من فرض عقوبة الموت المعتادة في حالة العصيان، اقترح

ثيسنيروس بمكر أن يصدر فيردناند وإيزابيلا عفواً جماعياً عن الثوار، بشرط أن يدخلوا في النصرانية. تكشف موافقة الملكين الكاثوليكيين الفورية على هذا الاقتراح، أنهما كانا يعتبران المعاهدات مجرد ترتيب أملته الظروف وليست ترتيباً دائماً، ورجع ثيسنيروس المُبَرأ إلى غرناطة ليترأس موجة أخرى من موجات التنصير. وفي خلال بضعة أسابيع، كانت غرناطة قد تحولت إلى مدينة نصرانية، ظاهرياً على الأقل، إذ كانوا يحتفلون بالتعميد الجماعي وتكريس المساجد كنائس بدق أجراس الكنائس، وهو ما أطلق عليه المسلمون بشكل ساخر «أجراس الثور ملك إسبانيا»[1].

وفي السادس عشر من يناير 1500، نعق ثيسنيروس كالغراب في مجلس الكنيسة بأنه «لا يوجد الآن في المدينة إنسان واحد غير نصراني، وكُرّست كل المساجد كنائس»[7]. وكانت العملية نفسها تجري على قدم وساق في البلدات والقرى الواقعة على أطراف غرناطة، وتوقع ثيسنيروس أنه في غضون وقت قصير «ستدخل المملكة برمتها في النصرانية، إذ لم يبق فيها أكثر من مائتي ألف شخص». وانحسرت الانتقادات الموجهة لطرق ثيسنيروس العدوانية بعد هذه النجاحات. وحتى طلبيرة نفسه اعترف بأن زميله «حقق انتصارات أكبر من انتصارات فيردناند وإيزابيلا، لأنهما فتحا الأرض، في حين اكتسب هو أرواح الغرناطيين»[2][8]. وفي شهر واحد أو يزيد قليلاً، نقض ثيسنيروس المعاهدات تماماً، وأطلق سلسلة من الأحداث ستبلغ ذروتها بالطرد بعد أكثر من قرن. لكن حتى حين

---

(1) جرس البقرة أو الثور: هو جرس يعلق في عنق البقرة يحدث صوتاً يعرف مكانها بواسطته [المترجم].

(2) وكأن ثيسنيروس أقنع المسلمين الغرناطيين بترك الإسلام واعتناق النصرانية باللين والحسنى، وليس بالقتل والسجن والتنكيل والتعذيب! مع أن المهمة التي يحيا على إنجازها لم تكن تتطلب غير كائن متعصب عديم الرحمة والإنسانية وأدوات قتل وتعذيب، فضلاً عن الأدوات البشرية المتمثلة في الجند وسلاحهم [المترجم].

كانت أجراس الكنائس تحتفل بتحول غرناطة إلى مدينة نصرانية، كانت الثورة تنتشر عبر الأرياف المحيطة.

5
الثورة والتنصير القسري

لا توجد حتى في بلد كإسبانيا، معروف بعظمة مناظره الطبيعية وروعتها، مشاهد طبيعية بروعة المناظر الموجودة في جبال البشرات. والبشرات المقحمة بين قمم سيرانيفادا، المغطاة بالثلوج والسلاسل الساحلية القاحلة، والممتدة لنحو أربعين ميلاً إلى جنوب غرناطة نفسها، يصل الناس إليها عادة من العاصمة باتباع الطريق الذي يمتد من مرج غرناطة إلى الممر الدائري عبر جسر طبلانة[1]. ومن هناك يمتد الطريق عبر وادي القرن، ماراً بسفوح ومنحدرات تغطيها بساتين التين والسفرجل والحمضيات، وسفوح تلال تغطيها أشجار الزيتون واللوز. ويكمن جمال البشرات في تنوع تضاريسها، وفي التباين بين قممها الألبية القاحلة وغاباتها وأنهارها سريعة الجريان ووديانها الخصيبة. فحين تسلك الطريق المنحدر الذي يلتف من بلدة أرجبة[2] نحو سيرانيفادا، تجد نفسك تدخل في عالم من الممرات والوديان المجوفة والممرات الجبلية الوعرة المنقطة بقرى أندلسية بيضاء كلاسيكية، تعطيها جدرانها وحجارتها الصخرية وأسقفها ذات الآجر المسطح مسحة عضوية وكأنها نبتت من المنظر الطبيعي المحيط.

(1) Tablate Gorge في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Orgiva في اللغات الأوروبية [المترجم].

والمنطقة - كاملة- تشبه جبال أطلس المغربية، وهو ما قد يفسر جاذبيتها للمستعمرين الأمازيغيين الذين نحتوا المصاطب وقنوات الري أو السقيات[1]، التي لايزال يمكن رؤيتها في أنحاء البشرات كافة. وبحلول نهاية القرن الخامس عشر لم يكن يقطن هذه الجبال غير الفلاحين المسلمين وصغار المزارعين ممن كانوا يربون الخراف أو الماشية أو يرعون أشجار التوت وطرح دود القز، الذي كان يوفر المادة الخام للنساجين والخياطين في ربض البيازين. قبلت جماعات الجبل بشدتها واستقلاليتها وارتباطها الوثيق بتقاليدها الدينية الحكم النصراني على مضض، وحمّلت أبا عبيدل الخزي والعار، لدرجة أن الملك الصغير أجبر على الابتعاد عن ضِياعه في البشرات طلباً للأمان، حتى قبل مغادرته النهائية. ولكون سلسلة البشرات حصناً طبيعياً، فقد بدت دائماً ملجأ للمنبوذين وقطاع الطرق والثوار الهاربين من السلطة المركزية، وإليها فر الزعماء العنيدون لثورة البيازين في يناير 1500، محذّرين من أن التنصير الذي حدث غرناطة سيعم المنطقة أكملها قريباً.

***

لم يكن لدى الثوار إستراتيجية عسكرية أو سياسية متماسكة أبعد من الرفض العام للإذعان لما اعتبروه انتهاكاً لاتفاقيات الاستسلام، لكن البلدات والقرى في أنحاء البشرات كافة انتفضت في ثورة تلقائية، وقتلت المسلمين الذين تعاونوا مع السلطات النصرانية، وكذلك المستوطنين النصارى القلائل والمبشرين الموجودين في المنطقة، ومنهم كاهنان رُجما حتى الموت وأحرقا. وامتدت الثورة إلى مقاطعة المرية[2] المجاورة، ولذلك حُشِد نحو ثمانين ألف جندي نصراني في عجالة، لإخضاع «الوحوش

---

(1) acquias مأخوذة بالتأكيد من الكلمة العربية «سقيا» [المترجم].

(2) Almeria في اللغات الأوروبية [المترجم].

البرية في البشرات» في عمليات عسكرية وصفت بـ«غياب الشهامة ورقة الشعور»، وهما الصفتان اللتان نسبهما ألونسو دي سانتا كروث إلى حرب غرناطة.

وكما هي الحال في الحرب السابقة، كان الثوار الذين يستسلمون يستطيعون عموماً أن ينجوا بحياتهم وممتلكاتهم، لكن بشرط واحد وهو أن يوافقوا على التعميد. فيما عوملت البلدات والقرى التي أخذت بالقوة معاملة قاسية. ففي بلدة غوخار Guejar الواقعة إلى الشمال من غرناطة، فتح الثوار قنوات الري لمنع الهجوم النصراني بقيادة المركيز تانديليا وغونثالو القرطبي Gonzalo de Cordoba؛ ذلك الجندي الأسطوري، الذي أكسبته مآثره في إيطاليا لاحقاً لقب «القائد العظيم». غاصت خيول الفرسان النصارى حتى بطونها في الوحل والماء، ما فرض عليهم بعض الخسائر قبل اقتحام البلدة، وساعتها أعملوا السيف في السكان الذكور، في حين ذهبت النساء والأطفال إلى أسواق العبيد.

وقعت حوادث مماثلة في أماكن أخرى. ففي بلفيك Belefique، تحمل السكان المسلمون حصاراً شديداً لثلاثة أشهر في البرد الشديد قبل أن يجبرهم السكرتير الملكي الحاضر دائماً دي ثافرا على «الاستسلام تحت رحمة الملك»، حين قطع عنهم إمدادات المياه. وبأوامر دي ثافرا، ألقي مئتان من زعماء الثوار من فوق مئذنة أحد المساجد، واستعبدت النساء والأطفال. وفي بلدة أندرش Andarax، ذبح ثلاثة آلاف مسلم بأوامر من القائد الإسباني لويس دي بيومونت Luis de Beaumont، منهم ستمائة امرأة وطفل فُجِروا داخل مسجد كانوا قد لجؤوا إليه. وفي بلدة لانخارون Lanjarón، التي تشكّل البوابة إلى وادي القرن، قاد فيرديناند قواته شخصياً في هجوم على ثلاثة آلاف ثائر كانوا منتشرين حول قلعة محصنة، متوقعين أن يأتي الهجوم النصراني من ناحية غرناطة. وبدلاً من ذلك صعد فيرديناند

وقواته الجبل المطل على البلدة ليلاً من الجهة المقابلة. وفي الصباح التالي نزل الجنود النصارى على المدافعين المذهولين، وشقوا طريقهم إلى القلعة، واستسلم الثوار أخيراً، ما عدا قائدهم، وهو «أندلسي أسود» ألقى بنفسه من فوق أسوار القلعة.

ومع أن بعض المسلمين فضلوا «الموت كأندلسيين» على أن يُنَصَّروا، انحنى آخرون أمام ما اعتبروه أمراً حتمياً، ووافقوا على التعميد اعتقاداً منهم بأنهم سيُتركون وشأنهم بعد ذلك. وحدثت أيضاً حالات تحول صادقة إلى النصرانية، منها بيدرو دي ميركادو Pedro de Mercado وهو مزارع من قرية بالقرب من رندة[1] رفض الانضمام إلى الثورة لأنه «يأمل أن يكون نصرانياً»، وعُوض لاحقاً بعد أن أحرق الثوار بيته، واختطفوا زوجته وإحدى بناته، وقتلوا ماشيته. وثمة مُنَصَّرون آخرون، وفقاً لثيسنيروس نفسه، أخلصوا لدينهم الجديد، لدرجة أنهم كان يقبلون الموت على الرجوع عنه وماتوا شهداء «يصلون للسيد المسيح وسيدتنا العذراء».

* * *

لم يندم ثيسنيروس على الفوضى التي تسببت أفعاله في إطلاقها، من ذلك أنه قال لزملائه في الكنيسة إن الثوار «إما يُنصَّرون أو يُستعبَدون، وحتى في حال استعبادهم سيكونون نصارى صادقين وستطمئن البلاد إلى الأبد». وكما هي الحال دائماً، كان فيردناند مرناً، ويضبط سياساته على ما يمليه الموقف المحلي. ففي بعض الأماكن سمح للمسلمين بالهجرة. وفي أماكن أخرى قدمت لهم امتيازات خاصة وحوافز مالية إذا قبلوا التنصر. وعلى مدار بقية السنة، امتد «غزو غرناطة الثاني» عبر أنحاء المملكة جميعها. وفي يناير 1501، شعر فيردناند بثقة كافية لإعطاء الأمر لجيشه

(1) Ronda في اللغات الأوروبية، وهي بلدة شاعر «رثاء إشبيلية» أبو البقاء الرندي [المترجم].

بالهجوع، لكن ما إن بدأ تسريح الجيش حتى وصلت البلاط أخبار عن انطلاق ثورة أخرى من رندة بالجبال الحمراء[1]، إلى الجنوب الشرقي من البشرات، التي قيل إن القرويين المسلمين فيها قتلوا الكهنة وباعوا النساء والأطفال النصارى رقيقاً في إفريقيا. فأُرْسِلت في عجالة قوة من ألفي جندي مشاة وثلاثمائة فارس إلى الجبال الحمراء بقيادة ألونسو دي أغيلار Alonso de Aguilar، أحد نبلاء إسبانيا البارزين ومن محاربي غرناطة.

لم يشك أحد من النصارى في قدرة هذه الحملة القوية على دحر الثوار في وقت قصير. لكن أغلبية جنود أغيلار كانوا أفراداً في مليشيات أندلوسية محلية، وأدى ضعف انضباطهم إلى نتيجة مختلفة تماماً عما كان متوقعاً. ففي السادس عشر من مارس لاحق رجال أغيلار مجموعة صغيرة من الثوار المسلحين إلى «الجبال الحمراء» المقفرة. وهناك وجدوا القوات الثائرة الرئيسة متمترسة في مواقع دفاعية حصينة على المنحدرات العليا لقمة مرتفعة. وعلى الهضبة المنبسطة خلفهم، جمعوا النساء والأطفال وكبار السن من القرى المحيطة وممتلكاتهم وأشياءهم الثمينة. تحركت شهية فرقة أمامية من الجنود النصارى لفرصة النهب التي لاحت، وصعدت التل، وأجبرت الثوار على التراجع.

ومع اندفاع النصارى في السهل المفتوح، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام هجوم مضاد عنيف، إذ انضم إلى الثوار مسلمون آخرون من القرى الواطئة. ودارت معركة عنيفة استمرت حتى الغسق، حين اضطر أغيلار وثلاثمائة من رجاله لبناء معسكر مؤقت على السهل المفتوح. وفي جنح الظلام، زحف الثوار على الخطوط النصرانية ودخلوا مع المدافعين في قتال التحامي في ظلام لم ينره لبرهة غير انفجار برميل من البارود. وبحلول الفجر كانت قوات أغيلار قد أفنيت عن أبيها. بعضهم قاتلوا وماتوا في

(1) Sierra Bermeja في اللغات الأوروبية [المترجم].

مكانهم، وبعضهم اقتنصهم المسلمون على الجبال المحيطة، أو وقعوا في الوديان المحيطة وهم يحاولون الفرار. وأصيب أغيلار بسهم وسقطت أسنانه كلها، ومات والسيف في يده في معركة خُلّدت بعد ذلك في قصائد وأغان نصرانية كثيرة.

وأصيب نائب أغيلار الكونت أورينا Count of Urena في المعركة، لكنه تمكن من الهرب بما بقي معه من جنود لإخبار البلاط المذهول بموت أحد أبرز جنود إسبانيا وإبادة الحملة كاملة تقريباً. فاستعد فيردناند لشن حرب إبادة في الجبال الحمراء، لكن الثوار أنفسهم لم يشجعهم النصر الذي حققوه على التقدم، وجنحوا إلى السلم. وهنا أيضاً أظهر الملك شهامة وسمح لهم بالاختيار بين النفي والتعميد، معلناً «إذا أوقعك حصانك، فإنك لا تمسك سيفك وتقتله، بل تعطيه أولاً صفعة على مؤخرته، وتضع غماء على رأسه، رأيي ورأي الملكة هو أن يُعمَّد هؤلاء الأندلسيون، وإذا لم يصبحوا نصارى صادقين، فإن أطفالهم وأحفادهم سيفعلون»[1].

في حقيقة الأمر، لم تكن المعمودية أو النفي دائماً بديلين ممكنين بالقدر نفسه. فقليلون جداً من المسلمين كانوا قادرين على دفع أجرة رحلة الإبعاد، وهي عشر دوبلات ذهبية، كان فيردناند ينتزعها من الفرد الواحد مقابل توفير النقل إلى شمال إفريقيا، ويوحي فرض هذه الشروط أن الملكين الكاثوليكيين كانا يفضلان مُنَصّرين غير موثوقين أو منافقين على مملكة منزوعة السكان. وفي يوليو 1501، رجع الملكان الكاثوليكيان إلى قصر الحمراء، فوجدا ثيسنيروس مصاباً بالحمى، وحالته سيئة للغاية، لدرجة أن الملك والملكة خشيا على حياتهما من مجرد الدخول عليه. ومن المفارقات أن وجيهة مسلمة هي التي أنقذت حياته، إذ أتت له بعشّابة أندلسية في عمر الثمانين. وعلى خلاف توصيات أطبائه النصارى، عولج ثيسنيروس «بمراهم وأعشاب» عجلت بتعافيه. وعاش الرجل ليصبح

رئيس محكمة التفتيش، ويشن حرباً على الكفار خارج حدود إسبانيا. ففي عام 1506، ساعد في تنظيم حملة عسكرية على وهران في شمال إفريقيا، وبعدها بثلاثة أعوام قاد بنفسه هجوماً آخر على المدينة، وعاد إلى جامعة قلعة النهر[1] التي أنشأها بنفسه، في هيئة قيصر روماني يرافقه موكب من الأسرى المغاربة والجِمال المحملة بغنائم الحرب. ومات في عام 1517، وهو وصي على حاكم قشتالة، وانتهت بموته حياة مهنية غير عادية أخذته من صومعة من القش قرب طليطلة إلى قمة السلطة السياسية.

***

وبنهاية عام 1501، كان سكان غرناطة المسلمون جميعهم تقريباً قد أصبحوا «مُنَصَّرين جداً» أو «نصارى جداً أندلسيين». ففي غضون عقدين شهدت غرناطة صدمة الحرب والغزو، تلتها ثورة دامية وتنصير جماعي لسكانها. وفي الأعوام الأولى من القرن الجديد، زار غرناطة مؤلف مسلم قشتالي مجهول، معروف للتاريخ باسم مانسيبو (الشاب) الأريفالي[2]، وتعرف فيها على وجيه مسلم مُنَصَّر يدعى يوسي بنيغش Yuce Venegas.

أقام الشاب مع بنيغش وابنته في ضِياعه الغناء على أطراف غرناطة. وفي اليوم الثالث لزيارته، دعاه مضيفه للتجول في بساتينه الرحبة، وبدأ بنيغش يتحدث بطريقة مؤثرة عن «أمور غرناطة». أبرزت القصة التي حكاها الخسارة الشخصية الفادحة التي تعرض إليها الرجل، إذ قُتِل ثلاثة من أبنائه «دفاعاً عن دينهم»، وتلا ذلك وفاة زوجته وثلاث بنات، ولم يعد له غير ابنة واحدة «تعزيه». كانت تلك حكاية واحدة فقط من المأساة

---

(1) Alcala de Henare في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Mancebo de Arevalo مانسيبو تعني الشاب وهو منسوب إلى مدينة أريفالو Arvelao التابعة لمنطقة آبلة القشتالية [المترجم].

الجماعية التي ذكرها بنيغش لضيفه:

> في رأيي أن أحداً لم يبكي على هذه المحنة مثل أبناء غرناطة. لا تشك فيما أقوله، فأنا نفسي واحد منهم وشاهد عيان، إذ رأيت بأم عيني سيدات وجيهات وأرامل ومتزوجات يتعرضن للاستهزاء، ورأيت أكثر من ثلاثمائة عذراء يبعن في مزاد علني، لن أحكي المزيد، فالأمر فوق احتمالي.... يا بني إنني لا أبكي على الماضي لأنه لن يعود. لكنني أبكي على ما سترونه أنتم في قادم أيامكم، وما ينتظركم في هذه الأرض، في شبه جزيرة إسبانيا. إن شاء الله وببركة قرآننا العزيز يمكن أن تثبت الأيام أن ما أقوله بلا أساس، وأن الأمور لن تذهب في الطريق الذي أراه، لكن مع ذلك سيعاني ديننا. ماذا سيقول الناس؟ أين ذهبت صلاتنا؟ ماذا حدث لدين أسلافنا؟ ... فإذا كنا قد اضطررنا بعد هذه الفترة القصيرة للكفاح من أجل البقاء، فماذا سيفعل الناس حين تأتي نهاية الفصل؟ وإذا كان الآباء قد أهملوا الدين الآن، فكيف سيمجده أحفاد أحفادهم؟ وإذا كان الملك الغازي لم يحفظ كلمته، فماذا تنتظر من خلفائه؟[2]

كانت هذه التساؤلات تثار أيضاً في العالم الإسلامي خارج إسبانيا. ففي عام 1501، اهتم الملكان الكاثوليكيين كثيراً بتقارير أفادت بأن السلطان المملوكي المصري[1] بدأ في اضطهاد النصارى الأقباط والحجاج

(1) كان سلطان مصر في عام 1501 هو الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري (حكم من 1501 إلى 1516)؛ آخر سلاطين المماليك البرجية، قتل في معركة مرج دابق بشمال حلب في عام 1516 ضد سليم الأول العثماني، خاض معارك بحرية مظفرة ضد البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي نجح بها في إبعادهم عن المنطقة [المترجم].

النصارى ومضايقتهم انتقاماً من حملات التنصير في غرناطة، فأرسلا بيتر مارتر الأنغياري مبعوثاً خاصاً إلى مصر لينكر التقارير حول الوحشية والغدر الإسبانيين. وفي وصف رحلته الذي جاء حافلاً بالاحتقار للمسلمين الذين قابلهم في مصر الذين وصفهم بأنهم «جنس بربري وهمجي... مجردون من الفضائل كلها»، أخبر العالم الإيطالي المخلص مليكيه بأن السلطان رفض أن يستقبله في البداية بسبب «الزنادقة اليهود والأندلسيين، الذين طردوا من ممالكهما ووجد كثير منهم مأوى في هذه البلاد»[3]. وزعم مارتر أن «الاتهامات الكاذبة والملفقة» التي نشرها هؤلاء المنفيين أقنعت السلطان بأن مليكيه «طاغيتان عنيفان وكاذبان». وفي النهاية سمح له بمقابلة السلطان المملوكي، إذ قال له إن عمليات التنصير في غرناطة لم تحدث بالإكراه، ودفع بأن فيردناند وإيزابيلا تصرفا بشهامة حين أبقيا على حياة الثوار الذين اقترفوا «مذابح» بحق الجنود الإسبان. وأصر مارتر على أن مسلمي غرناطة الذين تنصروا لم يكونوا ضحايا مضطهدين، بل «جبناء» تركوا دينهم، في حين طرد اليهود كـ«قطيع سقيم وضار ومعد».

ويبدو أن هذه الحجج أقنعت السلطان الذي قبل طلبات مارتر بمنحهم السماح بالوصول إلى المعابد النصرانية في الأراضي المقدسة، وإيقاف مضايقة الحجاج النصارى. وفي الفترة نفسها كذّب مسلم مجهول من غرناطة رواية مارتر للأحداث عبر استغاثة غير عادية بالسلطان العثماني بايزيد في شكل قصيدة باللغة العربية الفصحى أصرّ فيها على أن «الخوف من الموت والحرق هو الذي جعلنا نتنصر»، وأدان خرق المعاهدات بأنه «فعل مشين ومخز يجرمه الناس في كل مكان» وهو «أكثر خزياً بالنسبة إلى ملك»[4]. وطلب المسلم الغرناطي من السلطان التدخل لدى البابا ليرجعوا عن هذه «الخيانة»، لكن لا توجد أدلة على أن هذا المسار غير

المحتمل للأحداث قد وقع. ولا يُعرَف ما إذا كان بايزيد قد وافق على أن يطلب من الملكين الكاثوليكيين السماح لمسلمي غرناطة بالهجرة إلى شمال إفريقيا «بلا قوة، وإنما بدينهم فقط».

وفي إسبانيا نفسها، لم يشكك أحد من النصارى في الطرق التي أمكن من خلالها إنجاز التنصير الإعجازي أكثر من مائتي ألف كافر. ونظر الملكان الكاثوليكيان إلى التنصير باعتباره أحد أعظم إنجازاتهما، ونُقِش لاحقاً نقش للتعميد الذي حدث في غرناطة في مذبح المصلى الملكي الذي يحوي ضريحيهما، إلى جانب نقش لاستسلام أبي عبيدل. وهللت قيادات الكنسية أيضاً لعمليات التنصير في غرناطة. وأبدى طلبيرة وحده شكوكاً في أن هؤلاء المُنَصّرين قد يبقون على دينهم ما لم يقدم لهم التعليم الديني، ولذلك أنشأ مدرسة صغيرة في ربض البيازين للصبية الموريسكيين، لضمان أن يتلقى بعض المُنَصّرين الجدد تعليماً نصرانياً.

لم يستطع أول رئيس أساقفة لغرناطة أن ينشر هذه المبادرات. ففي عام 1501، أوقع به عضو محكمة التفتيش القرطبي الفاسد ديغو رودريغوث لوسيرو Diego Rodriguez Lucero المعروف باسم «جالب الظلام»، الذي اتهم طلبيرة بأنه سمح بوجود «معابد سرية». ومع أن طلبيرة بُرِّئ في النهاية من كل هذه الاتهامات، فقد مات بعد فترة قصيرة منها. واعتبر بعض المؤرخين طلبيرة البديل الخيّر لتعصب ثيسنيروس، وأن وسائله ربما كانت تنتج ثماراً إيجابية لو اتبعت جدياً[5]. لكن الفارق بين الرجلين لم يكن بالاتساع الذي يبدو أحياناً. وإذا كان ثيسنيروس أقل صبراً وأشد قسوة، فإنه كان أكثر واقعية من طلبيرة أيضاً في إدراكه أن مسلمي غرناطة ما كانوا ليدخلوا النصرانية قط بأعداد كبيرة إلا كرهاً. لكن رجلي الدين في الأخير كان يجمعهما الهدف المشترك. ففي رسالة غير مؤرخة كتبها طلبيرة للمُنَصّرين في ربض البيازين، قدم قائمة مفصلة بتعليمات السلوك

المتوقعة من النصارى، أخبرهم فيها:

> إن طريقة حياتكم قد لا تكون مصدر خزي للنصارى بالمولد، لكن الخوف هو أن يعتقدوا أنكم لاتزالون تعتنقون ديانة محمد في قلوبكم، ولذلك يجب أن تتطابقوا في كل الأشياء مع طريقة الحياة الجيدة والمحترمة للرجال والنساء النصارى الجيدين والمحترمين في لباسكم، وأحذيتكم، وعادة حلاقة الذقن، ونوعية الطعام والأكل على طاولة، وتحضير اللحم بالطريقة التي يحضر بها عادة، والأهم من ذلك في كلامكم، بأن تنسوا اللغة العربية قدر الإمكان، وتساعدوا أنفسكم على نسيانها، وألا تتحدثوا بها في بيوتكم[6].

صدرت هذه التعليمات بالتأكيد بعد تدخلات ثيسنيروس، وربما أراد بها طلبيرة أن يحمي رعيته المسلمين من انتباه محكمة التفتيش. لكن هذه النصيحة عينها كانت حَرية بأن تصدر عن ثيسنيروس. وفي أكتوبر 1501، أمر الملكان الكاثوليكيان بحرق كل الكتب والمخطوطات الإسلامية في الإمارة السابقة تحت تهديد الموت أو مصادرة الممتلكات. وهذا القرار ينسب عادة إلى ثيسنيروس، وكان الرجل سيقره بالتأكيد، لكن على خلاف طلبيرة، يبدو أن رئيس أساقفة طليطلة لم يكن موجوداً في غرناطة حين أحرقت آلاف النسخ من القرآن و«الكتب الأخرى للهرطقة الإسلامية» في محرقة عامة بالمدينة. كان كثير من هذه الكتب مخطوطات عربية مزخرفة بطريقة جميلة، توسل بعض المسلمين إلى المراقبين ألا يحرقوها. ولم يسلم من محرقة الكتب إلا بضعة كتب طبية وفلسفية شقت طريقها في النهاية إلى مكتبة جامعة ثيسنيروس في قلعة النهر. وتعد محرقة غرناطة بالتأكيد أحد أفعال الهمجية الثقافية، تماماً مثل إحراق المخطوطات المايانية في عام

1562 بأمر من أسقف يوكاتان[1] دييغو دي لاندا كالديرون Diego de Landa Calderon. ففي الحالتين، كان تعاون الشعب المغلوب في تدمير ميراثه الثقافي فعلاً رمزياً للاستسلام، قصد به أن يمهد الطريق لإدماجهم في ثقافة قاهريهم ودينهم.

جمع الحادثان بين التعصب الديني ومفهوم للحكم وإدارة الدولة كان مقبولاً على نطاق واسع في ذلك الوقت. فقد دفع ميكيافيللي في كتابه «الأمير» بأن الدول المغلوبة يسهل الاحتفاظ بها حين يتبنى سكانها المهزومون لغة الفاتحين وعاداتهم وقوانينهم. وقد أعملت إسبانيا الإمبراطورية هذا المبدأ في كل الأراضي التي فتحتها، ولم تكن غرناطة استثناء لذلك. وبعد أن قام فيردناند وإيزابيلا بتحويل زهاء ثلاثمائة ألف مسلم إلى «نصارى جدد» بين عشية وضحاها، أصبح لزاماً عليهما حينذاك أن يوسعا العملية الكثيبة عينها إلى بقية إسبانيا.

(1) يوكاتان Yucatan إحدى ولايات المكسيك، اكتشفها الغزاة الإسبان في عام 1513 بعد غزو بورتوريكو، وقد أدت سياسات التميز ضد شعب المايا إلى ثورة مسلحة ضد الحكم الإسباني، فقمعها الإسبان بقسوة وأحرقوا قادة الثوار، وعلى غرار ما حدث للأندلسيين داخل إسبانيا، جمعت كل الكتب المايانية وكل أيقونات ديانة المايا وأحرقت في محرقة عامة في الثاني عشر من يوليو عام 1562 [المترجم].

6
الدين المنتصر

بفرض الكاثوليكية على مسلمي غرناطة، واجه الملكان الكاثوليكيان المعضلة نفسها التي واجهت أسلافهما بعد تكوين جماعة «النصارى الجدد» اليهودية، في الفترة من 1391 إلى عام 1412. فـ«تنصير» جزء من السكان شيء، وإبقائهم على دينهم الجديد شيء آخر، وإلى متى سيبقى هؤلاء المسلمون في النصرانية إذا ظلوا يختلطون بإخوانهم السابقين في الدين؟ حاول فيردناند وإيزابيلا في البداية أن يتغلبا على هذه المشكلة بمنع أي اتصال بين المُنَصَّرين الجدد في غرناطة والمسلمين خارج المملكة، لكن كان من الصعب إحكام هذا الحَجر. وتمثلت نتيجة ذلك في الحالة الشاذة التي صورها الدبلوماسي الفلمنكي أنتوين لالينج Antoine Lalaing، كونت هوغستراتن Hoogstraten في وصفه زيارة فيليب الوسيم[1]

(1) هو فيليب الأول (22 يوليو 1478 إلى 25 سبتمبر 1506) يعرف أيضاً بفيليب الوسيم Philip the Hansdome or the Fair ابن ماكسيمليان الأول الإمبراطور الروماني المقدس، ورث عن أمه ماريا البيرغندية جزءاً كبيراً من دوقية بيرغندي وهولندا البرغندية باسم فيليب الخامس، وكان أول ملوك هابسبورغ لقشتالة حين تزوج الملكة خوانا القشتالية، التي كانت أيضاً وريثة عرش أراغون، وكان بذلك أول ملوك هابسبورغ في حكم إسبانيا، لكنه لم يرث أباه لأنه مات قبله، لكن ابنه الإمبراطور شارل الخامس وحد الممالك الهابسبورغية في بيرغندي وأراغون وإسبانيا [المترجم].

الهابسبورغي[1] صهر إيزابيلا وفيردناند إلى إسبانيا في عام 1501.

وصل الأرشيدوق البيرغندي[2] إلى طليطلة في مايو لمقابلة أصهاره، وفيها يحكي لالينج أن فيليب أبدى دهشته مراراً وتكراراً من «كثرة الأندلسيين البيض الذين يعيشون في إسبانيا» وتساءل عن أسباب تحمل وجودهم. وعندما علم بالجزية السنوية التي يدفعها المسلمون للتاج، حذّر فيليب من أنه «في أحد الأيام يمكن أن يكون الضرر الذي يلحقونه بالمملكة أكبر من الجزية، كما فعلوا في أوقات سابقة». ويضيف لالينج أن «الأرشيدوق ظل يكرر هذه الكلمات إلى أن وصلت إلى مسامع الملكة»، التي «أقرت بصحة ما قاله». وكي تريح زوج ابنتها المستقبلي، وعدت أن كل الأندلسيين في ممالكها سيكونون قد اعتنقوا النصرانية بنهاية العام[1].

أغضبت هذه الانتقادات إيزابيلا التي لم تنفع براغماتية زوجها في تخفيف بغضها للأندلسيين. لكن من المرجح أنها كانت قد قررت مسار العمل الذي أدى بها إلى توقيع مرسوم ملكي في يوليو من ذلك العام أمرت فيه كل المسلمين في مملكة قشتالة وليون بالاختيار بين المعمودية أو مغادرة البلاد. لكن المرسوم لم ينشر إلا في فبراير من العام التالي، وشكّل خرقاً لماضي القرون الوسطى أكثر بكثير من الأحداث الأخيرة في غرناطة.

(1) آل هابسبورغ Habsburg أو آل النمسا واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسين من عام 1538 إلى عام 1740 وحكام الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإسبانية وبلاد أخرى كثيرة، أخذت الأسرة أسمها من قلعة هابسبورغ التي بناها بين عامي 1020 و1030 في سويسرا الحالية الكونت رادبوت الكيتاغي Radbot of Kettgua وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة «الهابسبورغي» إلى لقبه، وحكمت العائلة مناطق واسعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا والنمسا، وانتهت بموت آخر ذكورها عام 1700، وهو شارل الثاني، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية [المترجم].

(2) بيرغندي منطقة تاريخية في غرب أوروبا تشكلت فيها كيانات سياسية مختلفة، مملكة أو دوقية أو كونتية، وبحدود مختلفة، وتتطابق اليوم مع المناطق الحدودية بين إيطاليا وفرنسا وسويسرا [المترجم].

ففي غرناطة استخدم الملكان الكاثوليكيان تهمة الثورة كذريعة للتنصير الجماعي، لكن هذه التهمة لا يمكن رفعها في وجه «الأندلسيين المسالمين» في قشتالة، الذين كانوا يتصرفون كرعايا موالين للتاج منذ أن أخفقت ثورات القرن الثالث عشر. ومع ذلك، أعلنت إيزابيلا مسؤوليتها عن «استمرار العمل المقدس»، الذي بدأ في غرناطة، وتصميمها على إزالة «أي سبب يمكن أن يفسد المُنَصّرين الجدد أو يخرجهم من دينهم الجديد».

ظاهرياً، قُدم لمسلمي قشتالة البديلان نفساهما اللذان عُرضا على اليهود: أن يبقوا في إسبانيا ويعتنقوا النصرانية، أو أن يظلوا على إسلامهم ويغادروا إسبانيا بنهاية شهر إبريل. لكن الشروط التي عرضها التاج كانت تميل بشدة إلى الخيار الأول. فمن أرادوا الهجرة، لم يكن مسموحاً لهم بأخذ الذهب أو الفضة معهم، وكذلك سلع أساسية كثيرة. وحرموا من السفر البري عبر أراغون، للتأكد من أنهم لن يستقروا هناك، وكانت موانئ المغادرة مقصورة على خليج بيسكاي الأطلسي، ولم يكن مسموحاً لهم التوجه إلى أي بلد إسلامي كانت قشتالة في حالة حرب معه، مما حرمهم من الهجرة لمعظم العالم الإسلامي. وأخيراً وليس آخراً، لم يكن مسموحاً لهم اصطحاب أولادهم تحت عمر الرابعة عشرة وبناتهم تحت عمر الثانية عشرة، الذين تقرر أن يُعطَوا لعائلات قشتالية كي تنشئهم تنشئة نصرانية.

كان من غير الوارد أن تسهّل هذه القيود حدوث هجرة جماعية، وربما قصد بها أن يُضمن عدم مغادرة المسلمين، وهو أمر يمكن إيزابيلا من الوفاء بالتزاماتها الدينية مع الحفاظ على قوة عاملة ومصدر دخل ثمينين. ومع أننا لا نعرف عدد المسلمين الذين قبلوا هذه الشروط، فمن المرجح أنهم شكّلوا نسبة صغيرة. وفي مختلف أنحاء قشتالة تحول التنصير الجماعي إلى احتفالات مدنية، في حين كانت المساجد تكرس كنائس أو تُهدم،

وكانت العائلات المسلمة تعمد علناً بأكملها، وتأخذ أسماء نصرانية أمام حشود نصرانية مبتهجة. وفي مدينة آبلة[1] القديمة، احتفلوا بالتعميد الجماعي لواحدة من أقدم جماعات المدجنين في إسبانيا عبر مصارعة الثيران والمهرجانات.

وفي السادس والعشرين من نوفمبر 1504، ماتت إيزابيلا وهي توصي زوجها من فراش الموت بأن «يشن حرباً لا تهدأ على المغاربة» في شمال إفريقيا. وبعد عامين، أدى موت زوج ابنتها فيليب الوسيم إلى أزمة عائلية في قشتالة، إذ انتقل العرش إلى أرملته المضطربة عقلياً خوانا المجنونة[2]، التي أثبتت أنها دون المسؤولية. وبسبب عدم وجود مدع قشتالي للعرش، أصبح فيردناند لفترة قصيرة ملكاً بالوكالة، إلى أن تقررت وراثة المملكة. وتلا موته في عام 1516 وصاية ثيسنيروس القصيرة على العرش حتى بلغ شارل الغنتي[3]؛ الابن الأكبر لخوانا وفيليب، سن الرشد. وفي عام 1517، انتهت فترة خلو العرش، حين وصل شارل المراهق إلى إسبانيا أول مرة، ليتوج باسم شارل الأول ملك قشتالة وأراغون، وهو الأول بين سلالة هابسبورغ الإسبانية. وفي ذلك الوقت كانت فئة جديدة قد أضيفت إلى مجموعة الهويات الثقافية والدينية المحيرة لإسبانيا، حين أصبح المُنَصّرون

(1) Ávila في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) خوانا الأولى أو خوانا المجنونة (6 نوفمبر 1479 إلى 12 أبريل 1555) أول وصية على عرش مملكتي قشتالة (1504–1555) وأراغون (1516–1555)، وكانت أيضاً حاكمة ممالك سردينيا وصقلية ونابولي في إيطاليا وإمبراطورية شاسعة في الأمريكتين والفلبين وهولندا البرغندية، كانت آخر ملوك أسرة تاستمارا Tastamara، وأدى زواجها من فيليب الوسيم إلى بدء حكم آل هابسبورغ لإسبانيا، لكنها طوال عهدها ظلت تحت وصاية زوجها أو أبيها أو ابنها أو وصي آخر من خارج الأسرة، وكانت في أغلب الوقت محتجزة في دير للراهبات بسبب اختلال عقلها [المترجم].

(3) هو شارل الخامس (24 فبراير 1500 إلى 21 سبتمبر 1558) الإمبراطور الروماني المقدس من عام 1519 وشارل الأول الإمبراطور الإسباني من عام 1516 حتى تنازله عن العرش لابنه فيليب الثاني في عام 1556 [المترجم].

المسلمون بقشتالة وغرناطة يعرفون باسم المورسكيين، وهو تعديل ازدرائي للصفة morsico («أندلسي») بمعنى «الأندلسي الصغير» أو «نصف الأندلسي»، الذي سيصبح سريعاً الاسم المستخدم لكل مسلمي إسبانيا السابقين.

***

مع انتقال العرش إلى آل هابسبورغ، ضمت إسبانيا الممتلكات البيرغندية/الهابسبورغية في البلاد الواطئة[1] وألمانيا، واكتسبت معها دوراً جديداً في قلب أوروبا الغربية. وفي عام 1519 انتخب الملك الجديد إمبراطورا رومانيا مقدساً باسم شارل الخامس، وأصبح الرأس العلماني للعالم النصراني. وبعد عامين أكمل كورتيس[2] إخضاعه الوحشي لمملكة الأزتك المكسيكية، وفي أثناء ذلك تحول القديس جيمس- القديس الأيقوني للاسترداد- من سانتياغو قاطع رقاب الأندلسيين إلى سانتياغو قاطع رقاب الهنود، فلقد كان الفاتحون يستحضرون اسمه في أثناء غزو العاصمة الأزتكية تينوشتيتلان Tenochtitlan. وكان فتح إسبانيا الجديدة منصة انطلاق لضم أراض أخرى في الأمريكتين حوّلت شارل إلى أحد أقوى الحكام في التاريخ، ورأس إمبراطورية نصرانية عالمية مترامية الأطراف تغطي ثلاث قارات. على أن هذه السلطات الهائلة لم تكن بلا ثمن. فحملة شارل الانتخابية المكلفة لشغل منصب الإمبراطور الروماني المقدس اضطرته إلى الاستدانة بغزارة من المصرفيين الفلمنكيين والألمان

(1) تشير البلاد الواطئة تاريخياً إلى الأراضي المحيطة بالدلتا الواطئة لأنهار الراين وشيلد وميز التي تشمل حالياً دول بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمال فرنسا وغرب ألمانيا، وينصرف حالياً إلى دولة هولندا تحديداً [المترجم].

(2) ايرناندو كورتيس Hernando Cortez فاتح إسباني قاد حملة أسقطت إمبراطورية الأزتك Aztecs في أمريكا الجنوبية وضم كثيراً من أراضي المكسيك لحكم التاج الإسباني، وعرف عنه الإسراف في قتل الأزتكيين والتنكيل بهم [المترجم].

الذين موّلوا حملته، وظلت المشكلات المالية تتوالى عليه طوال عهده. وبين عامي 1520 و1522 عادت الحرب الأهلية إلى قشتالة في شكل ثورة الأهالي Comunero rebellion، التي نتجت جزئياً عن الاحتجاج الشعبي على ما اعتبره الثوار فرض ملك هابسبورغي «أجنبي» على قشتالة. ومع أن شارل خرج في النهاية مظفراً من هذه المواجهة، فقد واجه تحديات أخرى داخل إسبانيا وخارجها. وفي عام 1517، علق مارتن لوثر(1) أطروحاته الشهيرة في كنيسة القلعة في ويتنبيرغ، التي أصبحت الأساس الإيديولوجي للإصلاح البروتستانتي، وفتحت حقبة جديدة من الصراع الديني والسياسي عبر أوروبا.

تزامن وصول اللوثرية مع تهديد متجدد لأوروبا الوسطى من السلطان العثماني سليمان القانوني، إذ تقدم الأتراك على طول نهر الدانوب وفتحوا منطقة البلقان والمجر، وبلغ تقدمهم ذروته بالحصار الفاشل لفيينا في عام 1529. وأدت الفتوحات التركية الأخرى في رودس وشمال إفريقيا ومصر إلى وضع إسبانيا الهابسبورغية في بؤرة صراع عنيف في البحر الأبيض المتوسط قُدّر له أن يهيمن على معظم القرن التالي.

ورغم هذه التحديات والنكبات، كانت الصورة العامة للممالك الإسبانية في أوائل القرن السادس عشر تنقل مظاهر القوة والإنجاز، وفي الداخل كان الغزو الإمبراطوري نيابة عن الدِين يوازيه بناء الكنائس والكاتدرائيات في أنحاء إسبانيا كافة، التي بُني الكثير منها على أنقاض

(1) مارتن لوثر Martin Luther (10 نوفمبر 1483 إلى 18 فبراير 1546) راهب وعالم لاهوت ألماني، أطلق حركة الإصلاح الديني في أوروبا ممثلة في البروتستانتية والإنجيلية واللوثرية، حين نشر في عام 1517 رسالته الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة أنكرت صكوك الغفران وحصر تفسير الكتاب المقدس في الكنيسة، وغيرها مما سمي لاهوت التحرير. أطلقت أفكاره حرباً دينية امتدت رحاها إلى أوروبا كلها، وحكم عليه البابا والإمبراطور الروماني المقدس شارل الخامس عليه بالحرمان الكنسي [المترجم].

المساجد أو المعابد. وكتب عالم الكوزموغرافيا[1] الملكي بيدرو دي مدينة Pedro de Medina في مؤلَّفه «كتاب حول عظمة إسبانيا والأشياء الخالدة فيها» الصادر في عام 1548 أن «السبب وراء نصرنا هو ديننا الذي لولاه لكان من المستحيل أن نرضي الرب»[2]. وهذه الآراء كانت واسعة الانتشار. وقد رافق الانتصار الكاثوليكي إزالة الطابع الإسلامي للمجتمع الإسباني، التي تجلت في عدة نواح، من البحث عن أساليب معمارية «رومانية» جديدة، إلى الانتقادات التي أثارها طبيب البلاط الإسباني والمفكر الإنساني فرانثيسكو لوبيث دي بيالوبوس Francisco López de Villalobos، الذي شجب استخدام الكلمات العربية في اللغة الإسبانية الطليطلية، الأمر الذي «يشوّه وضوح اللغة القشتالية ويحجب نقاءها»[2]. وفي الجامع الكبير في قرطبة، وهو أحد جواهر الخلافة الأموية، بنيت كنيسة داخل المبنى في إظهار بليد جداً للهيمنة الكاثوليكية، شجبه شارل نفسه لأسباب جمالية حين رآه بعينيه. على أن انتقادات الملك للذوق السيئ لمهندسيه المعماريين لم تكن تشير إلى أي احترام أو مودة للإسلام نفسه. فقد قبل شارل الكاثوليكي الورع عباءة «حامي حمى الدِين»، التي فرضها عليه منصبه كإمبراطور روماني مقدس، وكان ملتزماً بالقدر نفسه بالحلم الهابسبورغي بإمبراطورية نصرانية عالمية، اعتبرها كثير من الأوروبيين ذريعة للهيمنة الهابسبورغية على أوروبا.

كان شارل الأول بين ثلاثة أجيال من الحكام الهابسبورغيين، حسمت قراراتهم مصير إسبانيا الإسلامية على مدى القرن التالي. قضى شارل

---

(1) الكوزموغرافيا Cosmography علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام، يشمل علوم الفلك والجغرافية والجيولوجيا [المترجم].

(2) هذه التفسيرات الانتصارية، التي ترجع قوة الأمة وعزتها إلى دينها منتشرة في كل الأديان، ومنها في الإسلام قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله» [المترجم].

معظم عهده الطويل خارج إسبانيا في ساحات المعارك في أوروبا وشمال إفريقيا تاركا ممالكه الإسبانية يحكمها في غيابه أوصياء ومجالس وزارية. وبصفته الإمبراطور الروماني المقدس، تعهد شارل بقيادة حملة صليبية نصرانية ضد الإمبراطورية التركية العثمانية في بداية عهده. لكن ثبت في النهاية أنه غير قادر على إنجاز ذلك الحلم، لا بسبب غياب الإرادة. فشارل المتين البدين ذو الفك الهابسبورغي البارز؛ تلك العاهة الجسدية التي فعل ما بوسعه لإخفائها بإطلاق لحيته، كان معروفاً بالشره، وقد كلّفته عاداته الغذائية السيئة كل أسنانه في عمر مبكر نسبياً، ولقد اضطره ذلك إلى امتصاص الطعام بدلاً من مضغه. وكان أيضاً شجاعاً ونشيطاً، وقاد جنوده بنفسه في حملات كثيرة ضد خصومه النصارى والمسلمين.

كرس شارل أيضاً اهتماماً كبيراً لشؤون الدِين في إمبراطوريته الشاسعة. فقد أخذ على عاتقه، كما فعل فيردناند وإيزابيلا، واجب استئصال الهرطقة، وتزامن عهده مع تكثيف نشاطات محكمة التفتيش لتغطي إلى جانب المُنَصّرين، اللوثريين المشتبه فيهم والطوائف الكاثوليكية المنحرفة مثل الصوفيين غير المؤذين، المعروفين بالنورانيين Alumbrados، الذين أكدوا التحول الروحي الداخلي أكثر من التعبيرات الخارجية للتقوى الدينية. وبدأت محكمة التفتيش أيضاً تهتم بمسلمي إسبانيا السابقين، الذين أصبحوا يخضعون لسلطانها باعتبارهم كاثوليك معمَدين. واهتمت محكمة التفتيش على وجه الخصوص بالتقارير الواردة من غرناطة وقشتالة، التي قالت إن كثيراً من الموركسيين لم يقلعوا تماماً عن الممارسات الدينية والثقافية من «زمن الأندلسيين» ويجب أن يعتنقوا دينهم الجديد كاملاً. أخفقت هذه الاتهامات كثيراً في التمييز بين الجوانب الدينية والثقافية للإسلام الإسباني، لدرجة أن ملابس الموركسيين نفسها كانت تؤخذ دليلاً على الردة أو السلوك غير الكاثوليكي. ورأى كثير من

الكهنة والمسؤولين العلمانيين أن التقاليد الثقافية للموركسيين كانت تشكّل عائقاً أمام تقدمهم الديني، وذهبوا إلى أن الموركسيين لن يندمجوا كلياً في المجتمع النصراني طالما أنهم كانوا يتحدثون ويأكلون ويلبسون بطريقة مختلفة عن النصارى.

وبين عامي 1511 و1526، أصدر حكام إسبانيا سلسلة من المراسيم الملكية والأوامر قصد بها استئصال هذه الخصائص تماماً. كانت هذه التشريعات تستهدف غرناطة بالدرجة الأولى، التي كان الاختلاف الثقافي الإسلامي أوضح ما يكون فيها. ففي العشرين من يونيو 1511، صدر مرسوم ملكي بمنع الموركسيين في غرناطة من العمل كعرابين[1] في مراسيم التعميد، وأمر بإعطاء هذا العمل للنصارى القدامى. وفي اليوم نفسه، حظر مرسوم آخر الذبح الإسلامي للحيوانات وأمر بأن يقوم النصارى القدامى بذبح الحيوانات أو أن يحدث ذلك تحت إشرافهم. ومنع مرسوم ثالث الخياطين الغرناطيين من صنع اللباس «الأندلسي»، وهذا التشريع كان موجها بالأساس إلى اللباس النسائي. وفي التاسع والعشرين من يوليو 1513، شجب مرسوم رابع النساء الموركسيات اللاتي كن «يمشين بغطاء الوجه»، وأعطى لهن مهلة سنتين إلى أن تبلى ملحفاتهن، وبعد ذلك تتعرض المرأة التي تشاهد بغطاء الوجه لسلسلة تصاعدية من العقوبات، تبدأ بمصادرة قطعة اللباس المخالفة في المخالفة الأولى ثم إلى الجلد والنفي.

يشكّل الخوف من الوجه النسائي المغطى والعداء له موضوعاً متواتراً في العلاقة بين المجتمعات الغربية والإسلامية، وقد كانت له معان مختلفة

(1) العراب في المسيحية هو الشخص الذي يحضر عملية تعميد الطفل، أو يحمل الطفل في أثنائها، وهو أيضاً الإشبين الذي تكلفه الكنيسة برعاية المعمد روحياً ودينياً، وهو أيضاً شاهد الزواج في المسيحية [المترجم].

في السياقات التاريخية المختلفة. ففي مصر القرن التاسع عشر صوّر القنصل البريطاني اللورد كرومر الحجاب على أنه رمز للتخلف الثقافي وخضوع المرأة، في حين يصوّر النقاب والحجاب بطريقة مختلفة في عصرنا الراهن، باعتبارهما من رموز قهر المرأة والأصولية الإسلامية، وحتى الإرهاب.

ولا حاجة بنا للقول إن تحرير المرأة لم يكن أولوية أولى في إسبانيا القرن السادس عشر. فالكراهية النصرانية للملحفة كانت تقوم دائماً على تخيلات شهوانية، تخشى من أن النساء اللاتي يغطين وجوههن ربما كن متورطات في علاقات غرامية محظورة أو دعارة. تجلت هذه الشكوك في الإشارات التلطيفية إلى «العار وانعدام الشرف»، اللذين كانت الملحفة تخفيهما، وانعكست هذه الشكوك في الاعتقاد الواسع بأن النساء المسلمات كن أكثر شهوانية واختلاطاً جنسياً من نظيراتهن النصرانيات. على أن الشكوك في الملحفة لم تقتصر على استخدام الموركسيات لها، فبعض النصرانيات كن يلبسنها أيضاً أو يغطين وجوههن بطرحات سوداء، وهي إشارة أخرى للتأثير الثقافي الأندلسي على المجتمع الإسباني. ولذلك صدر مرسوم في سبتمبر 1523، يحظر على النصرانيات القديمات خصيصاً ارتداء الملحفة لتفادي أن «يكن مثالاً سيئاً للنصرانيات الجديدات» و«اقتراف بعض التزيد في حق ربنا». وربط قانون آخر الملحفة بمخالفة مختلفة تماماً، حين قضى «بألا يتجاسر رجل نصراني أو موركسي بالسير ليلاً أو نهاراً بلباس النساء»، وعاقب على هذه المخالفة بمصادرة هذا اللباس أو الجلد العلني.

***

كان سفور النساء الموركسيات مكوناً واحداً فقط في هجوم تشريعي أوسع على الثقافة الموركسية، فتح قسراً المناطق الأكثر خصوصية وحميمية في الفضاء المنزلي الإسلامي أمام الأعين العدائية للمجتمع النصراني.

فمنعت قوانين أخرى المورسكيين من إغلاق أبواب بيوتهم أيام الجُمع وفي أثناء طقوس الزفاف لضمان ألا يتعبدوا أو يمارسوا العادات الإسلامية سراً. ومنع المورسكيون أيضاً من استخدام الحمامات أيام الجُمع أو الزواج دون حضور شاهد من النصارى القدامى للتأكد من أن احتفالاتهم لا تحوي أي مكون إسلامي. وقد انتقد المحارب والقائد العام لغرناطة المركيز تانديليا هذا التشريع بقوة في رسالة إلى أحد مسؤولي شارل:

> ما هذا الذي يفعله صاحب السمو يا سيدي، أيأمر بالتخلي عن اللباس المورسكي؟ هل يعتقد سموه أن هذا أمر بسيط؟ أقسم بالله أن المملكة ستخسر أكثر من مليون دوكاتية في تغيير الملابس وشرائها... سيدي، ماذا كنا نلبس في إسبانيا حتى مجيء الملك إنريكو اللقيط، وكيف كنا نضفر شعرنا على غير الطريقة الأندلسية، وعلى أي موائد كنا نأكل؟ هل خرج الملوك والقديسون من النصرانية بسبب ذلك؟ لا يا سيدي والله[3].

كانت هذه الانتقادات تعكس جدلاً مستمراً داخل المؤسسات الدينية والعلمانية في إسبانيا بين المؤيدين المعتدلين للدمج التدريجي مثل تانديليا ومن يشكل القطاعات الأكثر تصلباً وتعصباً داخل الدولة والكنيسة، الذين كانوا يرون أن الدمج يتطلب الإقلاع التام عن كل «ذكريات الأندلسيين». وقد حملت بعض المراسيم المعادية للمورسكيين الأكثر قمعاً توقيع الملكة المختلة خوانا، لكنها كانت بالتأكيد من اقتراح الأساقفة وقضاة محكمة التفتيش ومستشاري البلاط، ومنهم ثيسنيروس الحاضر في كل مكان.

نغّصت هذه المراسيم حياة السكان المورسكيين، وأوجدت مجموعة

كبيرة من المشكلات العملية كانت تحتاج إلى تشريعات أخرى لحلها. ففي المناطق الريفية بغرناطة كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل في أغلب الأحيان أن يجد الجزارون الموريسكيون نصارى قدامى للإشراف على عملية الذبح لعدم وجود نصارى قدامى يعيشون بالقرب منهم. وكان هؤلاء الجزارون مضطرين إما للذبح بلا إشراف والتعرض للغرامة أو العقاب، أو أن يتركوا زبائنهم يذهبون بلا لحم إلى أن يتوافر شاهد نصراني قديم. وفي حالات أخرى كانت قطعان الموريسكيين تصاب بالعدوى بسبب عدم قدرة أصحابها على ذبح الخراف أو الماشية المريضة. وكان الإصرار على إشراف النصارى القدامى أيضاً مدخلاً للاستغلال، فلقد كان بعض النصارى يطلبون ثمناً لعملهم كعرابين أو شهود على زواج الموريسكيين، كان يُدفع عادة في شكل نقد أو دجاج أو أقمشة حريرية. وكان الكهنة في غرناطة أيضاً يفرضون أجوراً باهظة على إقامة القداس أو منح الأسرار المقدسة[1] لرعيتهم الموريسكيين.

نظرياً، كان سيل اللوائح يقصد به تعزيز الدمج، لكن وصم الثقافة الموريسكية بأنها شيء وضيع وغير مرغوب فيه وسّع الفجوة بين الموريسكيين والمهاجرين النصارى الوافدين على غرناطة. فكانت العلاقات بين هاتين الجماعتين تتميز دائماً بالعداء العميق، الذي عُرِف عن مجتمعات المستوطنين الاستعمارية، والذي لم يقدم تجريم عادات الموريسكيين شيئاً لكبحه. وكان بعض النصارى الغرناطيين يرفضون السماح بدفن الموريسكيين في باحات الكنائس. وبعضهم كان ينزع الملحفة عن النساء الموريسكيات في الشوارع أو يسب الرجال الموريسكيين بالكلاب والمرتدين، ضارباً عرض الحائط

(1) الأسرار المقدسة sacraments– في المسيحية مراسيم– أساسية تُحدِث النعمة في قلب المؤمن، وهي سبعة في الكاثوليكية والأرثوذكسية: التعميد والتثبيت (الميرون) والتناول (الأفخارستيا) والتوبة (الاعتراف) ومسحة المرضى والكهنوت والجواز، ولا يعترف البروتستانت إلا بالتعميد والتناول [المترجم].

بنصائح الكنيسة، التي تضمن معاملة المُنَصّرين الجدد معاملة حسنة بـ«العطف عليهم وإكرامهم».

وفي رسالة بتاريخ الثاني والعشرين من مايو 1524، انتقد الأديب الديني الشهير والأسقف المستقبلي لوادي آش[1] فراي أنطونيو دي جيفارا Fray Antonio de Guevara صديقاً له على إهانة أحد المعارف المورسكيين في بلنسية يدعى سيدي عبدالقاسم Sidi Abducacim، الذي عمده جيفارا بنفسه. أبدى جيفارا استنكاره بلغة لا لبس فيها:

> بصراحة ودون مواربة أقول إن سبَّك لنصراني قديم محترم بأنه كلب أندلسي وكافر والدفاع عن نفسك بالقول إن تلك هي الطريقة التي يتحدثون بها عادة في مدينتك، أقول إن ذلك في رأيي يستوجب عقاباً من محكمة التفتيش، لأنك بمثل هذا الدفاع تشوه بلدك وتضر الدين النصراني... أقسم بالله والصليب أنه لو كان سيدي عبدالقاسم سليل الأندلسيين، فإن أجدادك أيضاً في القبور لكذلك، فكلنا من تراب وإلى التراب نعود[4].

ثمة مسؤولون دينيون آخرون أدانوا المعاملة السيئة للمورسكيين الغرناطيين، وحثوا النصارى على حسن معاملتهم. لكن المعاملة السيئة كانت تيسرها، بل وتبررها أيضاً في أذهان الجناة القوانين واللوائح التي وصمت المورسكيين بأنهم جماعة مشتبه فيها، وأعطت المسؤولين ورجال الدين النصارى السلطة عليهم. وكثيراً ما كان يساء استغلال هذه السلطة، سواء من جانب رجال الشرطة، الذين كانوا يقتحمون بيوت المورسكيين لسرقة الأموال أو يفرضون عليهم غرامات لجيوبهم- لا

(1) Guadix في اللغات الأوروبية [المترجم].

للدولة- على مخالفات حقيقية أو ملفقة، أو من جانب الكهنة والحفظة[1]، الذين كانوا يطلبون دجاجاً أو أقمشة حريرية أو أموالاً نقدية من رعيتهم المورسكيين، ويلزمونهم بالعمل في بساتينهم أيام الآحاد. لم يفعل كل ذلك شيئاً لتحبيب المورسكيين في الدِين وطريقة الحياة التي لم يختاروها بأنفسهم، وبات واضحاً أكثر فأكثر أن محاولة اجتثاث الإسلام من غرناطة بالمراسيم لم تنجح.

***

وفي يونيو 1526، زار شارل غرناطة للمرة الأولى والوحيدة في عهده ليقضي شهر العسل في قصر الحمراء مع زوجته البرتغالية إيزابيلا. خرج السكان جميعهم للترحيب بالزوجين الملكيين في المدينة، وكانت بينهم فرقة من الراقصين المورسكيين رقصت رقصة «الليلة» leila، وغنت بمصاحبة موسيقيين مورسكيين كانوا يعزفون على الأعواد والدفوف. قضى شارل ستة أشهر في قصر الحمراء قال عنها لاحقاً إنها كانت أسعد أيام حياته. وفي خلال تلك الفترة، جمع مع شهر العسل شؤون الدولة واستقبل زيارات من كثير من الوجهاء والسفراء الأجانب، من المبعوث البندقي أندريا نافاجيرو إلى الكونت البلاطيني[2] فريدريك Frederick، الذي كتب طبيبه يوهانز لاندر Johannes Lander وصفاً لزيارتها. افتتن كل من نافاجيرو ولاندر بالعالم الثقافي الأندلسي المحيط بالإمبراطور العلماني للعالم النصراني. فوصف لاندر كيف كان شارل وبلاطه يحتفلون بمهرجان سان خوان بمصارعة الثيران ومواكب فخمة من «الأندلسيين والنصارى»، كانت سيدات البلاط وسادته يلبسون فيها «على الطريقة

(1) حافظ غرفة المقدسات في كنيسة [المترجم].

(2) نسبة إلى البلاطينات Palatinate وهما مقاطعتان ألمانيتان كان يحكم كل منهما في عهد الإمبراطورية الرومانية المقدسة أمير بلاطيني، ويمكن أن تكون الكلمة أيضاً نسبة إلى بلاط الإمبراطور الروماني المقدس [المترجم].

الموريسكية»، وشهدا لاحقاً رقصة أندلسية في قصر الحمراء لنساء موريسكيات «كلهن مزينات بلآلئ ثمينة، وأحجار كريمة أخرى في آذانهن وعلى جباههن وأذرعهن»[5].

كانت هذه الرقصات تُقبَل فقط كمشهد استعراضي غريب في البلاط الملكي، لكنهم كانوا ينظرون إليها بعين مختلفة تماماً حين كانت تحدث في الحياة اليومية للموريسكيين أنفسهم. وشارل نفسه اهتم بتقارير تقول إن الموريسكيين لم يكونوا يؤدون التزاماتهم الدينية، وصُدِم أيضاً حين سمع من قيادات الموريسكيين الغرناطيين عن استغلالهم والإساءة إليهم من جانب النصارى. وكلّف لجنة دينية بتقصي هذه الانتهاكات برئاسة أسقف وادي آش حينها ورئيس أساقفة غرناطة مستقبلاً غاسبار دي أبالوس Gaspar de Avalos. أكدت اللجنة هذه الانتهاكات، لكنها حذّرت مع ذلك من أن «الموريسكيين لا يزالون مسلمين، فرغم مرور سبعة وعشرين عاماً على تنصيرهم، فلا سبعة وعشرين ولا حتى سبعة منهم فقط نصارى صادقين».

عرضت هذه النتائج على جمع من رجال الدين والأساقفة والمحامين الدينيين استدعاهم شارل في غرناطة في الخريف لمناقشة حالة الموريسكيين. وفي المصلى الملكي الذي أكمل مؤخراً، والذي يضم ضريح الملكين الكاثوليكيين، شجب هؤلاء الكهنة المعاملة غير النصرانية للموريسكيين من جانب رجال الدين الذين يتعاملون معهم. لكن الفحوى المهيمنة على النقاش لخصها أنطونيو دي جيفارا، الذي تحدث عن رغبته في كشط الحناء عن أجسام النساء الموريسكيات بالسكين، وحلق شعورهن لأنهن يضفرنها ويزخرفنها «على الطريقة الإفريقية».

على أن الاشمئزاز من هذه العادات «الإفريقية» عندما يأتي من جيفارا؛ الرجل الذي شجب بقوة رفض الموريسكيين من جانب المجتمع

النصراني، كان مؤشراً على المواقف المتناقضة داخل الكنيسة نفسها من المسلمين السابقين، الذين كانت تتطلع إلى دمجهم. وبعد أشهر من النقاش أصدر مجمع المصلى الملكي سلسلة من التوصيات أقرت كل القيود التي فرضت عليهم في العقدين السابقين، ووسعتها في بعض الحالات. فلم يعد مسموحاً للموركسيين بكتابة اللغة العربية أو تحدثها، وأمروا باستخدام اللغة القشتالية حتى داخل بيوتهم. ولم يعد مسموحاً لهم باستخدام الحمامات العامة دون وجود أحد النصارى القدامى للإشراف عليهم، أو أن يطلقوا أسماء أندلسية على أطفالهم. ومنعت النساء الموركسيات من تخضيب أيديهن أو أقدامهن بالحناء «علناً أو سراً» أو تغطية وجوههن. وأمروا بأن تظل أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجُمع وفي حفلات القران. ولم يسمح لهم بدفن موتاهم دون إشراف أحد النصارى القدامى. وغدا الجراحون والأطباء الذين يجرون عمليات الختان يعاقبون بالإبعاد أو مصادرة الممتلكات.

وفي السابع من ديسمبر، صادق شارل رسمياً على هذه الأوامر. وقد كان عناد رجال الدين الإسبان وتصلبهم، فضلاً عن التأييد الرسمي الذي لقيه هذا التصلب، مؤشراً آخر على ابتعاد إسبانيا كثيراً عن ماضيها بالقرون الوسطى. ففيما كان الحكام النصارى السابقون يصدرون التشريعات للحفاظ على الاختلاف الإسلامي بغرض تفادي خطر «الخلط»، أصبح شارل يسن التشريعات لإزالة هذه الاختلافات من الوجود بغرض دمج سكان غرناطة الموركسيين في المجتمع النصراني. وعلى أرض الواقع، خيب الإمبراطور المتعسر مالياً أمل رجال الدين الأكثر تشدداً، حين وافق على تعليق هذه المقترحات لمدة أربعين عاماً في مقابل عرض من ممثلي الموركسيين المحليين بدفع مبلغ سنوي وتقديم ما بين ثمانين وتسعين ألف دوكاتية كـ«هدية زفاف وطنية». دخلت هذه

الأموال في تمويل بناء قصر عصر النهضة الرائع على أرض مجمع قصر الحمراء، لإحياء ذكرى انتصار شارل على الفرنسيين في معركة بافيا[1]. واشترت هذه الأموال للموريسكيين الغرناطيين أيضاً إعفاء من محكمة التفتيش لفترة الأربعين عاماً نفسها. ولم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي تغلب فيها الاحتياجات المالية الملكية على هدف النقاء الديني بعيد المدى. وفي السنة نفسها، عقدت اتفاقية مماثلة في أراغون التي اجتاز فيها مسلمو إسبانيا الباقون مؤخراً تحولهم المتأخر إلى النصرانية.

(1) معركة بافيا Pavia وقعت في الرابع والعشرين من فبراير 1525 بين إسبانيا وفرنسا بسبب التنافس على إيطاليا، وكانت الحاسمة للحرب الإيطالية في أعوام 1521–1526، هاجم فيها جيش إسباني بقيادة شارل دي لانوي وانطونيو دي ليفا قائد حامية بافيا جيشاً فرنسياً بقيادة فرانسيس الأول ملك فرنسا خارج أسوار مدينة بافيا، أسر فيها فرانسيس نفسه وسجن وأجبر على توقيع اتفاقية مدريد المذلة التي تنازل بمقتضاها عن أراضي كثيرة لخصمه في إيطاليا [المترجم].


Twitter: @ketab_n

7

المعقل الأخير

أراغون (1520-1526)

بعد تنصير مسلمي غرناطة وقشتالة، باتت أراغون تشكّل الجيب الأخير للمدجنين في إسبانيا الكاثوليكية. لكن فيردناند في الوقت الذي فرض فيه النصرانية على مسلمي غرناطة، لم تصدر عنه إشارة إلى أنه ينوي فرض المصير نفسه على رعاياه هو(1). وفي ذروة ثورة البشرات عام 1500، كان الملكان الكاثوليكيان يطمئنان رعايا فيردناند المسلمين في أراغون بأن ذلك لن يحدث لهم، وأنكرا علناً الشائعات التي قالت «إن نيتنا وإرادتنا هي أن نكره كل الأندلسيين بالمملكة المذكورة على العقيدة المقدسة والدين النصراني[1]. لكن من الواضح أن هذه التطمينات لم تؤت أثرها المطلوب. ففي إبريل 1502، أخبر البرلمان البلنسي فيردناند بأن كثيراً من المسلمين كانوا قلقين من أن النصرانية ستفرض عليهم قريباً، وأنهم توقفوا عن العمل في الحقول وبدؤوا يفرون إلى شمال إفريقيا. ومن أجل منع مزيد من الخسائر وإقناع هؤلاء المسلمين بالعودة، دعا النبلاء فيردناند إلى طمأنة

(1) لعلك لاحظت أن إسبانيا، حتى بعد الاسترداد، ظلت ممالك مستقلة، وحتى بعد زواج فيردناند وإيزابيلا، ظل كل منهما ملكاً على ممالكه السابقة على الزواج، فظل فيردناند ملك أراغون باسم فيردناند الثاني، وظلت إيزابيلا ملكة قشتالة وليون، وبعد موت زوجته أصبح وصياً على البلاد من عام 1504 حتى وفاته عام 1516 [المترجم].

السكان المسلمين مرة أخرى بأن استقلالهم الديني سيحترم.

وافق الملك الكاثوليكي على هذا الطلب، ووعد البرلمانات الإقليمية في بلنسية وأراغون في مناسبتين منفصلتين بأن المدجنين في ممالكه سيظلون على إسلامهم. وكانت الأحداث في غرناطة وقشتالة قد أوضحت بجلاء أن أمثال هذه الوعود غير ملزمة بالضرورة وأن من الصعب تصديق أن فيردناند كان ينوي حقاً أن يسمح بالوجود الدائم للإسلام في أحد أجزاء إسبانيا، في حين استأصل الإسلام من الأماكن الأخرى جميعها. لكن، مهما كانت نوايا فيردناند بعيدة المدى، فقد كان رجل دولة أفطن من أن يثير مواجهة مع لوردات أراغون وبلنسية الأقوياء لم يكن متأكداً من الفوز فيها. فبالنسبة إلى هؤلاء الإقطاعيين، كانت مصالح ضِياعهم دائماً أولوية أسبق على الوحدة الدينية، واعتبروا أي محاولة لفرض النصرانية على أتباعهم المسلمين تشكّل تهديداً محتملاً لمصدر دخلهم. وحافظت المملكتان بقوة على القوانين المحلية التي كانت تقيد السلطان القضائي للملك في أراضيهما. ولم تُقبَل محكمة التفتيش في أراغون أو بلنسية اللتين اعتبرتاها دخيلاً قشتالياً معرقلاً.

وتمثلت نتيجة ذلك في سياسة شاذة جداً واصلتها بعد موت فيردناند أرملته جيرمين دي فوا[1]، وبمقتضاها ظل مسلمو أراغون يعيشون وفقاً لترتيبات المدجنين السابقة، حتى في الوقت الذي كان فيه إخوانهم في الدين يكرهون على اعتناق النصرانية في الأماكن الأخرى جميعها. وبعد عقدين تقريباً من تدخل ثيسنيروس المتطرف في غرناطة، ظلت الحال على ما كانت عليه في أراغون إلى أن وصل شارل الأول عام 1519 للمطالبة بميراثه في إسبانيا. وفي تلك السنة نفسها سمع الملك الشاب من مستشاره

(1) جيرمين دي فوا Germaine de Foix (من 1488 إلى 18 أكتوبر 1538) ملكة أراغون بحكم زواجها من فيردناند الثاني ملك أراغون في عام 1505 بعد موت زوجته الأولى إيزابيلا القشتالية، وعملت وصية على عرش أراغون بعد موت فيردناند في عام 1516 [المترجم].

الإيطالي ميركورينو غاتينارا Mercurino Gattinara أن الرب اختاره لإقامة «المملكة العالمية... وتوحيد العالم النصراني كله تحت راع واحد»، وأعطاه وصفاً تفصيلياً للمسؤوليات التي يمنحها له هذا الدور. ومع ذلك فقد اضطر الإمبراطور العالمي الذي كان يشبّه نفسه بهرقل لأن يحلف يميناً في مراسم تتويجه ينص على أنه لن يحاول أن يفرض الكاثوليكية على مسلمي أراغون. وخلال بضعة أعوام، نكص على عهده، حين قدمت له ثورة شعبية في مملكة بلنسية فرصة لم تتح لأسلافه.

***

بدأت سلسلة الأحداث المعقدة، التي أنهت وجود مدجني أراغون، في مدينة بلنسية نفسها. ففي أواخر القرن الخامس عشر، كانت بلنسية من أكثر مدن إسبانيا ثروة ورخاء. وبلنسية بوقوعها بجانب الأهوار المروية أو الورتة huerta المعروفة أنها بستان إسبانيا، وبوفرة بساتين الفاكهة فيها، كانت أيضاً ميناء مزدهراً احتفظ بصلات تجارية عبر البحر الأبيض المتوسط مع الدول المدينية الكبرى إبان عصر النهضة الإيطالي، ومع الإسكندرية. وتجلى النجاح التجاري للمدينة في تبادل الحرير في سوق لونخا lonja، وفي سكانها الكونيين البالغ عددهم أربعة وخمسين ألف شخص، الأمر الذي جعل بلنسية أحد أكبر المراكز الحضرية في إسبانيا. لكن وراء الازدهار التجاري وتقدم عصر النهضة في «بلنسية الجميلة»، كانت توجد تراتبية إقطاعية قمعية، شغلت قمتها طبقة أرستقراطية جشعة، كوّنت ثرواتها بالدرجة الأولى من عمل الأقنان، وكان أعضاؤها معروفين بالغطرسة والتفاخر والعنف.

كان هؤلاء البارونات ممقوتين من الجماهير النصرانية، وتراكمت الكراهية الطبقية وانتقلت أيضاً إلى كراهية مُقْطَعيهم المسلمين. ومع أن النصارى والمسلمين كانوا يحتلون المواقع المتواضعة نفسها ضمن النظام

الإقطاعي، فإن مقطِعي المسلمين العلمانيين والدينيين كانوا يعتبرونهم أكثر إنتاجية، فضلاً عن أنهم خضعوا دائماً لترتيبات إقطاعية أصرم. ففي مزارع السكر الساحلية شديدة الرطوبة في دوقية غانديا Gandia بجنوب بلنسية، كان آلاف المُقْطَعين المسلمين يكدحون في مركز أجداد سلالة بورجيا Borgia ضمن ظروف عمل لم تكن تختلف عن العبودية كثيراً. وكانت الأديرة والكنائس مثل دير بايديغانا Valldigna تعتمد بشدة هي الأخرى على العمال المسلمين لزراعة البساتين ومزارع الكروم التابعة لها، وحصد محاصيلها، ورعاية قطعانها.

على أن السمات التي جعلت المسلمين البلنسيين جذابين لملاك الأراضي وأرباب الأعمال لم تحبب عامة النصارى فيهم. ولم تنظر الطبقات النصرانية الدنيا إلى هؤلاء المسلمين باعتبارهم منافسين فحسب، وإنما أسهم استعداد المسلمين لقبول إيجارات أعلى وشروط مُقْطعية ثقيلة أيضاً في إضعاف قدرة المساومة لدى النصارى داخل النظام الإقطاعي. وكانت نتيجة ذلك مزيج سام من السخط الاقتصادي والحماسة الدينية وخوف من الجماعة المسلمة الكبيرة التي كان يتخيل دائماً أنها على وشك الثورة، أو أنها تتواصل سراً مع شمال إفريقيا المغاربي. تفاقم هذا الإحساس بعدم الأمان بفعل الفوضى والجريمة الدائمين في المملكة. فحتى في ذروة ازدهار المجتمع البلنسي في القرن الخامس عشر، كان مشهوراً بانتشار جرائم قطع الطرق والقتل والاغتصاب والسرقة، التي لم يكن يكشف عن فاعليها. ولم يكن هذا النشاط مقصوراً على طبقة اجتماعية معينة. ففي مملكة كانت السلطة المركزية فيها ضعيفة وبعيدة، تصرفت الطبقة الأرستقراطية دائماً على أنها هي القانون، فكان أعضاؤها يمارسون القتل والسرقة بدرجة من الحصانة النسبية، الأمر الذي كثّف السخط عليهم.

وفي أوائل القرن السادس عشر، اشتدت الفوضى وغياب القانون في

بلنسية بفعل الكساد الاقتصادي وسلسلة من نوبات الطاعون المدمر. وفي الفترة نفسها حدثت زيادة في الغارات على البلدات الساحلية من جانب قراصنة شمال إفريقيا التي كان يشتبه دائماً في أن المسلمين المحليين يسهّلونها. أثارت هذه العوامل كلها توترات عرقية ودينية في أنحاء المملكة كافة، وبخاصة في العاصمة. وفي صيف عام 1519، فرّ السكان الأغنى من بلنسية إلى الريف هرباً من تفشي الطاعون، ولم يبق فيها غير السكان الجائعين والعاطلين والثائرين، الذين اعتقدوا أنهم في مواجهة هجوم شامل من القراصنة. وتزامن انهيار السلطة في بلنسية مع شائعات متواترة وغير مؤكدة عن ثورات من جانب المسلمين، وروايات عن مشاهدة سفن القراصنة. ووقع أيضاً عدد من النذر التي كانت تسبق الهبات الاجتماعية الكبرى دائماً في إسبانيا عصر النهضة، من مشاهدة مذنبات غامضة إلى ظهور أسد سحري عملاق، وقد أسهمت جميعاً في إشعال المناخ السائد القائم على الحماسة الدينية وكراهية المسلمين والراديكالية الاجتماعية[2].

وفي نهاية العام، انتقلت السلطة السياسية في بلنسية إلى أيدي الطوائف الحرفية المحلية، التي كانت تنتمي في معظمها إلى الطبقتين الوسطى والوسطى الدنيا، وأنشأوا مجلس حكم لإدارة المدينة أطلقوا عليه اسم الثالث عشر، على أساس أنه امتداد للمسيح وحوارييه الاثني عشر. في البداية، وقف المجلس بجانب الحكومة المركزية، وناشد نائب الملك دييغو أورتادو دي مندوسه Diego Hurtado de Mendoza إعادة تأكيد سلطة التاج، وتوفير الأسلحة للسكان للدفاع عن المدينة ضد هجوم القراصنة. رأى شارل في ذلك فرصة لتغيير توازن القوة في المملكة على حساب الإقطاعيين الميالين للاستقلال، فأجاب المجلس إلى طلبه. وفي يناير 1520، أنشأ مجلس الثلاثة عشر مليشيات من المواطنين عرفت

باسم الأخويات لحماية المدينة. وعلى مدار السنة تطورت المليشيات إلى حركة اجتماعية راديكالية بدأت في تدمير النظام الإقطاعي نفسه، الأمر الذي أثار رعب نائب الملك والطبقة الأرستقراطية والطبقات المتوسطة الحضرية. وفي ربيع عام 1521، تحرك جيش قوامه ألفا جندي إلى الريف البلنسي، معلناً نيته إبادة كل الإقطاعيين في المملكة.

وعندما أحرقت المليشيات ونهبت ضِياع الأرستقراطيين ورجال الدين، وحدّ مندوسه والنبلاء صفوفهم وأدمجوا قواتهم العسكرية لسحق الثورة. لكن هذه الجهود لم تنجح في البداية، حيث ألحق الثوار سلسلة من الهزائم الموجعة بالجيوش الملكية والإقطاعية المشتركة التي كانت تضم كثيراً من المُقْطَعين المسلمين بين مشاتها. فحوّل الثوار جام غضبهم نحو السكان المسلمين بالمدينة. وفي يوليو هاجمت المليشيات مستوطنات إسلامية حول مدينة بلنسية بتحريض من راهب فرانسيسكاني صاح فيهم «يحيّا دين المسيح .. الحرب على الساراكينوس!» وفي الشهر نفسه خاض الثوار معارك عنيفة مع تحالف من الجيوش الملكية والإقطاعية كانت تضم بين صفوفها أعداداً كبيرة من المُقْطَعين المسلمين. أشعلت هذه المعارك المشاعر المعادية للمسلمين. وفي الرابع عشر من يوليو، استولى محاربو الأخويات على بلدة شاطبة Játiva وهاجموا الحي الإسلامي المحلي. واقتيد مئات المسلمين إلى الكاتدرائية الرئيسة، وأمروا بالاختيار بين المعمودية أو الموت. اختار معظمهم المعمودية، فيما قتل بعضهم. وفي الأسبوع التالي، قاد قائد الأخويات وهو بنّاء يدعى بيسنت بيريس Vicent Peris الثوار إلى نصر آخر على الجيش الملكي-الإقطاعي الذي كان يضم نحو ثلاثة آلاف من المُقْطَعين المسلمين لدوق غانديا.

انفعل رجال بيريس بنصرهم، واندفعوا في الغيتو الإسلامي في بلدة غانديا صائحين: «الموت للأندلسيين!» وأجبروا السكان هنا أيضاً

على الاختيار بين المعمودية أو قطع رقابهم. وفي خلال ثلاثة أيام عُمد كثير من المسلمين، إذ كانوا يرشون بقطرات من الماء من فروع قنوات الري. وقفت وراء عمليات «التنصير» توليفة غريبة من الانتقام العرقي والحماسة الدينية والكراهية الطبقية. فمن ناحية، أراد الثوار أن يرضوا الرب، ويضمنوا نجاح ثورتهم بتعميد الكفار. ومن ناحية أخرى، رأت الأخويات أن تعميد المُقْطَعين المسلمين، الذين يعملون لدى الإقطاعيين المحتقرين، يجعلهم أقل جاذبية لمُقْطِعيهم، مما يقضي على المكانة «المتميزة» التي يفترض أنهم تمتعوا بها داخل النظام الإقطاعي.

ولاحقاً أصبحت الظروف التي جرى التعميد فيها ودرجة القوة المستخدمة فيها مثار نزاعٍ لاهوتي كبير بين السلطات الدينية. على أن المسلمين لم يقتادوا جميعاً إلى حوض التعميد تحت حد السيف. ففي بعض الحالات، كان المسلمون يصيحون «نصارى! نصارى!» لمجرد رؤية المليشيات، ويبدون رغبتهم في التعميد، سواء لإنقاذ أنفسهم من المعاملة السيئة أو لاعتقادهم أن ذلك هو المطلوب منهم. وانحنى آخرون لما اعتبروه الانتصار النهائي للنصرانية، كما فعل بعض المسلمين في غرناطة. وإذا كانت بعض عمليات التعميد قد نفذت «برش المعمَدين من قنوات الري»، فإن غالبيتها حدثت في كنائس على أيدي كهنة ورهبان وفقاً للطقوس الكاثوليكية، بغض النظر عن الضغوط التي مورست على المسلمين قبل أن يأتوا إلى حوض التعميد. وما لا يقبل الجدال هو أن عمليات التنصير جميعها، سواء نتجت عن تهديدات مباشرة أو لم تنتج، جرت في مناخ من العنف والإرهاب لم يكن ليسمح بالاختيار المتروي[3].

وعلى مدار صيف عام 1521، وبينما كان كورتيس يكمل إخضاعه للمكسيك الأزتكية باسم الدين، كانت المليشيات تخوض حربها الطبقية أو بالأحرى حملتها الصليبية في الريف البلنسي، وتقتل المسلمين وتنهبهم

وتنصّرهم وتكرس مساجدهم كنائس، وفي بعض الأحيان بمجرد تعليق صور للمسيح والعذراء على أبوابها[4].

كان مُركّب الكراهية الطبقية والحماسة الدينية، الذي دفع الثوار يكشف عن نفسه أحياناً في أناشيد مثل «الموت للإقطاعيين! والموت للأندلسيين!» وفي حالات أخرى كان الثوار يصيحون «الموت للأندلسيين ما لم يُعمّدوا!» وفي بلدة آبلة قتل المسلمون ونهبوا حتى وهم في طريقهم إلى الكنيسة للتعميد، وذكر شهود عيان انتشار عشرات الجثث على جوانب الطرق. على أن النصارى لم يشتركوا جميعهم في هذه النشاطات أو يقرّوها. فبعض المسلمين في آبلة حماهم راهب محلي ومجموعة من النصارى المحليين، وهذه لم تكن المرة الوحيدة التي تدخّل فيها نصارى لإنقاذ المسلمين من الثوار. وازداد الطابع العرقي والديني للثورة تأججاً، حين بدأت الغلبة في ساحة المعركة تتحول لصالح الجيوش الملكية-الإقطاعية. وفي بلدة بولوب Polop الساحلية ذبحت الأخويات زهاء ستمائة مسلم بعد أن عمدوا فعلاً، وأعلن القتلة رغبتهم في أن «يرفعوا أرواحاً إلى السماء، ويضعوا عملات في جيوبهم».

وبحلول خريف عام 1521، كان خمسة عشر ألف مسلم على الأقل قد عمدوا، وكان بيريس يدعو إلى تنصير كل المسلمين في بلنسية. وفي الشتاء، بدأ النبلاء يفرضون انتقاماً دامياً على من أرادوا إبادتهم، فيما استعادت السلطات الملكية السيطرة على مدينة بلنسية نفسها. وفي مارس 1522، قتل بيريس وانتقلت قيادة الثورة إلى شخص مجهول انتحل الاسم التوراتي «إل إنكوبيرتو [الخفي]، وهي شخصية كانت تظهر كثيراً في إسبانيا القرن السادس عشر إبان لحظات الأزمات الاجتماعية والسياسية(1)[5].

(1) حول الإنكوبيرتو أو إل إنكوبيرتو El Encubierto أو الخفي، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

لا يعرف الكثير حول هذا المسيح المنتظر الكاريزمي، الذي ادعى أنه قريب الملكين الكاثوليكيين، وظهر أول مرة في بلدة شاطبة في مارس، وتنبأ بقرب يوم الحساب. أحاط هذا الرجل نفسه بحاشية من الخدم، وبدأ في الوعظ بمزيج من الراديكالية المعادية للإقطاع والنبوءة التوراتية والكراهية الدينية للمسلمين واليهود.

ووقعت دورة جديدة من العنف والتنصير بحق المسلمين، قبل أن يقتل الخفي في مايو 1522 على يد مأجورين أرسلهم نائب الملك. وادعى ثلاثة آخرون على الأقل أنهم «الخفي»، قبل أن تخمد الثورة أخيراً في ديسمبر. وفي ذلك الوقت كان زهاء اثني عشر ألف شخص قد قتلوا، ودمرت معظم بلنسية الريفية. وبالنسبة إلى السكان المسلمين بات المستقبل مجهولاً. وبعد أن أظهر المسلمون ولاء نموذجياً للنظام المؤسس وللملك نفسه، توقعوا أن تبطل المعمودية، وانتظر البارونات النصارى أيضاً أن يعلن بطلان تعميد المسلمين. لكن سرعان ما خاب أمل الطرفين.

***

من المنظور اللاهوتي والقانوني، أثارت عمليات التعميد في بلنسية أسئلة حول الشرعية تذكّر بالمذابح التي اقترفت بحق اليهود في الفترة من 1391 إلى 1412. ففي الحالتين أدى انفجار العنف الشعبي إلى إيجاد فئة من «النصارى الجدد» باستخدام طرق لم تكن تتوافق مع المعارضة اللاهوتية للتعميد القسري من جانب الكنيسة. لكن كما حدث مع اليهود من قبلهم، فإن كون المسلمين البلنسيين قد عُمّدوا فعلاً عنى أنهم أصبحوا نصارى بغض النظر عما إذا كان تعميدهم قد حدث طوعاً أو كرهاً. ومع أن الظروف التي حدث فيها هذا التعميد لم تكن مثالية، فقد دفع بعض رجال الدين بأنها أنتجت نتيجة إيجابية. وذهب آخرون إلى أن هذا

التعميد إذا كان قد حدث وفقاً للطقوس الكاثوليكية، فلا يمكن إبطاله بأثر رجعي دون إنكار القوة التحويلية للسر المقدس.

ومع ذلك فبعد الثورة، أنكر اللوردات والبارونات في بلنسية أن التعميد كان صحيحاً ودعوا إلى إبطاله. واكتسبت مسألة صحة تعميد مُقْطَعيهم إلحاحاً خاصاً حين بدأ مسؤولو محكمة التفتيش في بلنسية يكتبون تقارير تؤكد أنهم رجعوا إلى الإسلام، وفي بعض الحالات بتشجيع من سادتهم النصارى. فإذا اعتبر تعميد هؤلاء المسلمين شرعياً، فإنهم بذلك كانوا مدانين بالردة ومعرضين للتحقيق والعقاب. ومع أن بعض المسلمين حوكموا، فإن المحققين كانوا ميالين للرفق بهم إلى أن تتبين حالتهم اللاهوتية الغامضة.

وفي عام 1524، أمر رئيس محكمة التفتيش الكاردينال ألونسو دي مانريك Alonso de Manrique عضو المحكمة البلنسي خوان دي شوروكا Juan de Churruca بالتقصي حول عدد المسلمين الذين تعمدوا، ومعرفة الظروف التي تعمدوا فيها. وحتى قبل أن تعرف نتائج هذا التحقيق، أعلن شارل نواياه حين كتب إلى البابا كليمنت السابع، طالباً منه إعفاءه من قسمه السابق بعدم تنصير المسلمين بالقوة. ربما تأثر الإمبراطور بالوصية السياسية التي قدمها له في شتاء 1523–1524 مستشاروه الإيطاليون والفلمنكيون، حين كان البلاط مقيماً في بامبلونا Pamplona، الذين أشاروا على الملك الشاب بالخطوات المطلوب اتخاذها لتفادي غضب الرب، وضمان الإقرار الإلهي لحكمه. وجاء بين التوصيات الأخرى أن يطرد شارل كل الأندلسيين والكفار من ممالكه إذا لم يعتنقوا النصرانية.

وفي نوفمبر 1524، بدأت لجنة شوروكا بالتنقل في بلنسية، وجمعت قوائم بأسماء المسلمين الذين عُمّدوا وشهادات شهود عيان حول

الظروف التي عُمّدوا فيها. وفي أبريل التالي قدمت هذه النتائج إلى مجلس ديني دعاه شارل في مدريد. وعلى مدار أربعة أشهر تقريباً، دار نقاش مضن في الدير الفرانسيسكاني بمدريد بين أساقفة وأعضاء بمحكمة التفتيش ورجال دين وخبراء في القانون الكنسي حول وضعية مسلمي بلنسية. وتضمن النقاش غالباً محاولات ملتوية لتعريف معنى «الإجبار» في التعميد. وذهب بعض رجال الدين ببساطة إلى أن التعميد تم طوعاً لأن المسلمين اختاروه بدلاً من القتل. وتوصل آخرون، منهم عضو محكمة التفتيش البارشلوني المستقبلي والمؤلف الديني فرناندو لوسيس Fernando Loaces إلى الاستنتاج نفسه بالدفع بأن العنف الذي استخدم في معمودية مسلمي بلنسية كان «مشروطاً» وليس «مطلقاً» لأن هؤلاء المُنَصّرين لم يُنَصّروا تحت حد السيف. ودفع لوسيس بأن أفعال الثوار مع أنها كانت إجرامية، فإن معمودية المسلمين أثبتت قدرة الله على إنبات «الخير من الشر»، ويجب النظر إليها على أنها صحيحة[6]. وقبل شارل هذه النتيجة وكتب إلى أرملة فيردناند جيرمين دي فوا بصفتها نائب الملك في بلنسية بأن العنف الذي استخدم في تعميد المسلمين «لم يكن مقصوداً أو مطلقاً بدرجة تكفي لإخراجهم من الدين، الذي تعهدوا به في معموديتهم».

وازداد موقف الإمبراطور وضوحاً في مرسوم صدر في إبريل 1525، أعلن فيه أن مسلمي بلنسية «كانوا نصارى ويجب النظر إليهم على أنهم نصارى، لأنهم حين تلقوا المعمودية كانوا في كامل قواهم العقلية وليسوا مجانين، وطلبوا طوعاً أن يتلقوا المعمودية»[7]. وفي يونيو من ذلك العام، أعفى البابا كليمنت السابع الإمبراطور شارل من قسمه بعدم تنصير رعاياه المسلمين بالقوة. وفي سبتمبر، أمر شارل كل المسلمين الذين لم يُعمّدوا في بلنسية بأن يتلقوا «ماء المعمودية المقدسة» طوعاً، وألا يضطروا

التاج «لاستخدام وسائل أخرى». وبعد شهرين أصدر شارل مرسوماً عاماً بالطرد، أمر كل المسلمين في بلنسية باعتناق النصرانية بنهاية ديسمبر أو مغادرة المملكة. وأعطي المدجنون في أراغون وقطلونية شهراً إضافياً لاختيار كان محدداً سلفاً. فالمسلمون الذين اختاروا النفي، لم يسمح لهم بالسفر من نقاط المغادرة المنطقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بل أجبروا على الحصول على جوازات مرور والسفر إلى الجانب الآخر من إسبانيا إلى مينائي كورونا Coruña وفونترابيا Fuentarabia الجليقيين، وهناك سمح لهم بالسفر إلى أماكن محدودة فقط، لم يكن شمال إفريقيا من بينها.

كان المقصود بهذه القيود جزئياً استرضاءَ الإقطاعيين البلنسيين الذي ظلوا يرفضون صحة التعميد الذي نفذته الأخويات. وحتى قبل النشر الرسمي للمرسوم، حذّر وفد من البرلمان الأراغوني شارل من أن «الصناعة وازدهار الأرض يعتمدان على الأندلسيين»، وتوقع أن رحيلهم سيؤدي إلى انهيار اقتصادي، لكن الإمبراطور لم يأبه للنصح، ظاهرياً على الأقل. وفي ديسمبر 1525، سافر وفد من المسلمين البلنسيين إلى مدريد في محاولة لإقناعه بتغيير رأيه، وفي الشهر التالي عقد شارل اتفاقاً سرياً مع هؤلاء الممثلين قبلوا بمقتضاه أن يدفعوا سنوياً ما بين أربعين وخمسين ألف دوكاتية كـ«ضريبة» استثنائية في مقابل إعفاء الأربعين عاماً نفسها، وأن يعفى الموريسكيون البلنسيون خلال تلك الفترة من الحساب أمام محكمة التفتيش. وبعد ذلك، عقد اتفاق مماثل شمل الموريسكيين الغرناطيين. اشترى الوفد الإسلامي لهم وقف تنفيذ حكم الإعدام، لكن حين وصلت هذه الأخبار إلى بلنسية، كان كثير من إخوانهم في الدين قد فقدوا الأمل في المفاوضات، وبدؤوا بتدبير أمورهم.

***

وحتى قبل إعلان مرسوم شارل، كان كثير من المسلمين قد بدؤوا بمغادرة بلنسية إلى شمال إفريقيا. وبدأ آخرون بالاستعداد للمقاومة المسلحة. وعلى غرار ما حدث في غرناطة، انسحب المسلمون البلنسيون الأكثر إصراراً إلى المعاقل الجبلية الوعرة. وأغلق آخرون على أنفسهم بالمتاريس في بلداتهم وقراهم إعلاناً للمواجهة التي كانت دائماً قصيرة الأمد. ففي قرية مارية Maria أقنع الثوار أنفسهم بأن المحارب الأندلسي الأسطوري المسمى الطفيمي Altafimi سيأتي على حصان أخضر لإنقاذهم، واستسلموا على الفور حين خيّب الفارس رجاءهم. وكانت المقاومة أشرس في أماكن أخرى، ففي بلدة بني وزير[1] الواقعة على بعد عشرة أميال من بلنسية، طرد المسلمون المحليون النصارى من البلدة في يناير، وأحكموا غلقها على أنفسهم بأسوارها المحصنة، وأعلنوا نيتهم «إنقاذ شرعيتهم»[8].

أرسل جيش نصراني إلى البلدة من العاصمة، ومعه أوامر من شارل بإقناع السكان بالاستسلام أولاً. وحين أصرّ قادة «برلمان» بني وزير على الحصول على مرور آمن إلى شمال إفريقيا، رفض طلبهم، وبدأ الحصار الذي انتهى بعد شهرين بقصف مدفعي على أسوار البلدة. وبعد استسلامهم، زعم بعض سكان البلدة أن زعماءهم الدينيين أجبروهم على الثورة. وبصرف النظر عما إذا كانت هذه الادعاءات محاولة للإفلات من العقاب، فقد عومل الثوار برفق، لكن هذه الشهامة لم تتوافر دائماً في أماكن أخرى. كان المعقل الرئيس للثورة هو جبال سيرا دي إسبادان Sierra de Espadán شمالي بلنسية، التي لجأ إليها آلاف المسلمين بعائلاتهم رفضاً للتنصير. وفي هذا المكان القاسي والوعر، حفر الثوار خنادق وبنوا أكواخاً وملاجئ مؤقتة، وحَجَزوا على الحجارة بأعمدة خشبية لإهالتها

(1) Benaguacil في اللغات الأوروبية [المترجم].

على المهاجين المحتملين. وكانوا يحصلون على الطعام من القرى المجاورة المتعاطفة، وانتخبوا ملكاً لهم أسموه المنصور، على اسم أحد أشهر حكام قرطبة الإسلامية.

كان كثير من الثوار من مُقْطَعي دوق سقوربة[1]، وهو أحد أقوى اللوردات النصارى في بلنسية، وقد أمرته جيرمين دي فوا بأن يقود حملة عليهم في ربيع عام 1526. كما رجعت قوات سقوربة بخسائر جسيمة، مما أثار اشمئزاز السلطات وعامة الناس في بلنسية، وأطلق شائعات مؤداها أن الدوق كان أكثر اهتماماً بالحفاظ على أصوله الاقتصادية من تأكيد سلطة الملك. وفي يوليو 1526، قام ثوار مسلمون من إسبادان بالهجوم على قرية تشلشيس Chilches النصرانية، ونهبوا الكنيسة المحلية، ويقال إنهم هربوا برقاقات العشاء الرباني. كانت أسباب هذا الاستفزاز بتدنيس المقدسات غير واضحة، فربما كان المهاجون ينتقمون للاعتداءات على مساجدهم في أثناء ثورة الأخويات. وعلى أي حال، فقد انتشرت موجة من السخط عبر بلنسية النصرانية، حيث أغلقت أبواب الكنائس وغطيت المذابح بقماش أسود حداداً على هذا الاعتداء الكافر.

ولذلك اكتسى إخضاع الثورة طابع الحملة الصليبية، وأخذ ممثلو البابا في بلنسية يمنحون صكوك الغفران لكل من يقاتلون الكفار. وحُشِد على عجل جيش إقطاعي جديد من ثلاثة آلاف جندي، مدعومين بأربعة آلاف مرتزق ألماني كانوا في حينها يمرون خلال برشلونة. تقدم هؤلاء الجنود إلى إسبادان في خيلاء «كما لو كانت أفران نارية تشتعل في قلوبهم» بتعبير المؤرخ البلنسي غاسبار اسكولانو Gaspar Escolano، وهم يحملون الراية الرسمية لمدينة بلنسية ويرافقهم حراسها البريتوريون المعروفين باسم السنتنار Centenar بقمصانهم الحريرية البيضاء، المزدانة بصليب

(1) Segorbe في اللغات الأوروبية [المترجم].

القديس جورج[9]. وفي التاسع عشر من سبتمبر، هاجمت هذه القوات معسكر الثوار. وتمكّن المسلمون المسلحون بالأحجار ومقاليع الحجارة والأقواس الصليبية من قتل اثنين وسبعين نصرانياً، لكنهم دفعوا ثمناً باهظاً لمواجهتهم، وهو خمسة آلاف أسير، إما ذبحوا أو استعبدهم المرتزقة الألمان.

أنهت هذه المذبحة المقاومة في بلنسية. ومع أن بعض المسلمين هربوا إلى شمال إفريقيا، فقد انضمت غالبيتهم إلى صفوف المُنَصّرين الجدد من الأندلسيين. وكما حدث في غرناطة، صاحب التعميدَ الجماعي تكريس المساجد كنائس، وإحراق علني للقرآن والمخطوطات العربية الأخرى. وتكرر النمط نفسه في مملكة أراغون وفي قطلونية. ومع نهاية عام 1526، كان شارل الطامح لأن يكون إمبراطوراً عالمياً قد استطاع أن ينجز المهمة المستحيلة المتمثلة في استئصال المعقل الأخير للإسلام من إسبانيا، مع الاحتفاظ بالقوة العاملة التي كان ازدهار الممالك الأراغونية يعتمد عليها.

لم يكن هذا الانتصار رائعاً من عدة نواح، فهو انتصار جرى فيه التنصير وسط ثورة عنيفة، وأقر رسمياً عبر نظرية لاهوتية مشكوك فيها، ومن خلال انتهازية صريحة. لذلك لم ينظر إلى هذه النتيجة باستحسان عام في المجتمع النصراني. فلاحقاً، وصف براي دي ريمنخو Bray de Reminjo الفقيه المسلم من قرية كادريتي Cadrete الأراغونية القريبة من سرقسطة، رد فعل صديق نصراني وهو راهب كرملي يدعى فراي إستيبان مارتيل Fray Esteban Martel على تلك الأخبار «بأننا حُكِم علينا أن نتنصر بالقوة». استدعى هذا الصديق ريمنخو من المسجد إلى بيته وقدم له غداء من الرمان ومربى الفاكهة البلنسية واللحم المشوي. و«بعد أن أكلنا»، كما تذكَّر الفقيه لاحقاً، «دخلنا مكتب أبيه، ولاحت الدموع في عينيه وقال

لي: (سيد براي ما رأيك في كل هذه الثورة والطريقة غير النصرانية التي انتهجناها؟ من جهتي أقول إنه ليحزن قلبي وروحي أن نفعل ذلك وأنهم اقترفوا خطأً كبيراً بحقكم)». ووفقاً لريمنخو، فإن:

> هذا الصديق كان متعاطفاً جداً معنا لدرجة أنه لم يتوقف عن التحدث أمام الأساقفة والمجالس ضد كل من أعطوا موافقتهم لما حدث، والتنديد بهم. وأصدر مع كثيرين آخرين دعوة للاحتجاج والتنديد ضد صاحب الجلالة ووزرائه. وكانت مواقفه ستؤثر لولا أنه مات في خلال شهرين. وقد أوصاني بالدعاء له إذا مات، لذلك زرته في مرضه وبكيت عليه حين مات، لأنه كان صديقاً وفياً[10].

وهذا التقدير المؤثر من جانب هذا الفقيه السابق لراهب نصراني وصفه بأنه «صديق عظيم للأندلسيين في هذه المملكة» رسالة أخرى تذكّرنا بالعلاقات الإيجابية بين النصارى والمسلمين، التي كانت ممكنة الحدوث في النظام القديم. وهناك نصارى آخرون كانوا أقل تعاطفاً مع المُنَصّرين الجدد، ونظروا إلى استمرار وجودهم في بلنسية على أساس اعتناق ريائي للنصرانية أنه خطر على المجتمع النصراني وضار له. وانتقد بعض النصارى التعليق الذي منح لوفد المسلمين البلنسيين في مدريد، على الرغم من أن تفاصيل هذه الاتفاقات لم تعلن قط، وألقوا باللائمة -عن قبولها- على مستشاري شارل الفلمنكيين والإيطاليين. ووفقاً لإحدى الأساطير النصرانية، فإن تمثال مريم العذراء في مدينة توبيت Taubet الأراغونية بكى احتجاجاً على «المعمودية الكاذبة» في بلنسية وكانت دموعه تكفي لملء زجاجة. لكن، حتى إن لم يرض بعض الإسبان عن هذه الترتيبات، فإن حكام إسبانيا حققوا بعض الرضا من استئصال

الإسلام من على سطح المجتمع الإسباني. وللمرة الأولى منذ سقوط القوط، سكت الأذان عبر إسبانيا، ولم يسمع ثانية لبعض الوقت[1].

(1) هو وقت طويل على كل الأحوال، إذ لم يعد الأذان إلى إسبانيا إلا في أواخر القرن العشرين أو أوائل القرن الحادي والعشرين مع علمنة الدولة الإسبانية والاعتراف الرسمي بالإسلام، وإن كان ذلك قد حدث أيضاً رغم معارضة من الكنيسة والجماعات المحلية، كما سيأتي في خاتمة الكتاب [المترجم].



الباب الثاني

قطيع واحد .. راع واحد

إننا مجبرون على أن نصلي معهم في شعائرهم النصرانية دون غُسل،
وأن نوقر أوثانهم المرسومة، ومهزلة الخفي العظيم.
لا أحد يتجاسر على الاعتراض، ولا أحد يجرؤ أن يقول كلمة واحدة:
من ذا الذي يستطيع أن يعبّر عن الكرب الذي كتب علينا نحن المؤمنين بالله؟

محمد بن داوود، أغنية شعبية مورسكية، 1568



8

«بيت مليء بالأفاعي والعقارب»

يمكن أن يتضمن مفهوم الاستيعاب أو الدمج طيفاً من الوسائل والمعاني. فيمكن أن يشير إلى علاقة ثنائية الاتجاه، يجري فيها التفاوض على دمج أقليات عرقية أو ثقافية- وليس فرضه- وفق أساس المساواة والاحترام المتبادل للاختلاف. لكنه يمكن أن يشير أيضاً إلى عملية فوقية تطلب فيها الأغلبية المهيمنة الاستئصال الكامل للخصائص الثقافية أو الدينية أو اللغوية للأقليات التي تعتبرها دونية، وتعتبر وجودها المنفصل متنافراً مع خصائصها. وفي إسبانيا القرن السادس عشر، كان الدمج ينضوي بالتأكيد تحت الفئة الثانية. فبالنسبة إلى المجتمع النصراني، لم يكن اعتناق النصرانية يتطلب من أقلياته اليهودية والمسلمة التخلي الكامل عن معتقداتهم الدينية وطقوس عباداتهم فحسب، وإنما إخفاء كل شيء يميزهم عن النصارى أيضاً.

كان حكام إسبانيا مجمعين تقريباً على هذه الأهداف النهائية، في حين كان هناك طيف واسع من الآراء المعتدلة والمتطرفة حول أفضل الطرق لتنفيذها، تراوحت من الإقناع والتبشير والإغراءات الإيجابية إلى الإكراه والاضطهاد. ولم يكن لدى شارل أو مستشاريه أي شكوك حول التزام الموركسيين بدينهم الجديد، لكنهم مع ذلك رأوا أن استئصال المظاهر

الخارجية للإسلام خطوة أولى أساسية للتحول الدائم لمسلمي إسبانيا السابقين إلى «نصارى جيدين وصادقين». وفي أعقاب الأحداث العنيفة في بلنسية مباشرة، أخذت السلطات الدينية والعلمانية تنحو أكثر نحو نموذج تدريجي للدمج. تأكد هذا الموقف في اتفاقات عام 1526 بين شارل والوفود الإسلامية في مدريد وغرناطة، التي أعفت الموركسيين من «تصلب» محكمة التفتيش، بشرط أن يمتثلوا طوعاً لالتزاماتهم الدينية الجديدة.

على أن الشروط المحددة لهذا الإعفاء لم تكن واضحة تماماً للأطراف المعنية، وكانت عرضة لتفسيرات متعارضة من الجانبين. ففي رسالة إلى محكمة التفتيش البلنسية عام 1528، أنكر رئيس محكمة التفتيش ألفونسو دي مانريك أن التعليق كان يشمل نشاطات محكمة التفتيش وشجب «الأشخاص محدودي الإطلاع» على نشر شائعات تقول: إن الموركسيين أخذوا «رخصة بأن يعيشوا كأندلسيين لأربعين عاماً»[1]. وعلى أرض الواقع قبل مانريك وخلفاؤه عموماً سياسة متساهلة، لكن رئيس محكمة التفتيش كان محقاً في أن العفو لم يقصد به العودة إلى وضعية المدجنين.

نظر الموركسيون إلى هذه الاتفاقات بطريقة مختلفة تماماً، إذ فسر كثيرون منهم غياب القمع باعتباره الترتيب الدائم، وليس تنازلاً مؤقت، وثمة آخرون ربما لم يسمعوا أصلاً بالعفو أو المفاوضات التي أنتجته، لكنهم واصلوا «العيش كأندلسيين» بعد تنصرهم، لأنهم لم يعتنقوا النصرانية بإرادتهم منذ البداية. ولقي كثير من الموركسيين البلنسيين تشجيعاً على أن «يصبحوا أندلسيين» مرة أخرى من مُقْطِعيهم النصارى، وافترضوا أنهم تحت حمايتهم. وعلى مدار العقود الأربعة التالية، اتضح بجلاء تضارب هذه التوقعات. فمقارنة بالأحداث الدامية التي أدخلت الموركسيين في النصرانية، كانت هذه العقود فترة هدوء نسبي، لكن غياب المواجهة

العلنية أثبت أنه خادع.

***

كان العفو بمعنى من المعاني اعترافاً بالنقائص التي شابت عملية التنصير الأولى. ففي رسالة إلى البابا في ديسمبر 1526، اعترف شارل بأن اعتناق مسلمي بلنسية للنصرانية «لم يكن طوعياً بالكامل، ومنذ ذلك الحين لم يلقّنوا ويوجّهوا ويعلّموا ديننا الكاثوليكي المقدس». وكان اقتراح الإمبراطور، أن التبشير اللاحق قد يعوض النقائص في عمليات التنصير البلنسية، نوعاً من التفكير بالتمني، لكن هذه التطلعات أخِذت بجدية على المستويات العليا للكنيسة والدولة. نظرياً، كان مسلمو إسبانيا السابقون يخضعون جميعاً لرقابة محكمة التفتيش، ومع ذلك اعترفت محكمة التفتيش العليا (المجلس الأعلى) أن من غير المعقول، ولا حتى المفيد، معاقبة الموركسيين على التقصير في تلبية التزاماتهم الدينية في الوقت الذي لا يمتلك فيه كثيرون منهم أي فكرة عما يفرضه عليهم دينهم الجديد.

فقد كان كثير من الموركسيين يفتقرون إلى المعرفة الأولية بالكاثوليكية، وكانوا لا يستطيعون أن يقرأوا صلواتها الأساسية، أو يفهموا الأسرار المقدسة والطقوس، وغير معتادين على تقويمها الديني. ولم يتوفروا على مَنْ يعلمهم. وفي الوقت الذي اعتلى فيه شارل العرش، كانت البيروقراطية الدينية الجديدة في غرناطة قد أسست بنية تحتية للأبرشية حتى في المناطق النائية من المملكة، لكن فاعليتها كانت مقيدة بنقص الدافعية لدى رجال الدين في الصفوف الدنيا، الذين كانوا أكثر اهتماماً بجز صوف رعيتهم الموركسيين من ضمان خلاصهم الروحي.

لم تكن الحال أفضل كثيراً في بلنسية وأراغون. ففي مناطق الموركسيين النائية، مرت على الموركسيين شهور دون أن يروا كاهناً أو ممثلاً للكنيسة بعد معموديتهم الأولى. وفي عام 1532، أمر البابا كليمنت السابع

الكاردينال مانريك بتأسيس بنية تحتية أبرشية للموركسيين البلنسيين. لكن، مرت سنتان أخريان قبل أن يرسل مانريك لجنة دينية إلى بلنسية لبدء هذه العملية. وأدت توصياتها إلى تأسيس 120 أبرشية جديدة في أنحاء المملكة كافة، لكن هذه الأبرشيات الجديدة أعوزتها الأموال، وكانت في الغالب توجد اسمياً فقط. فقد كان متوقعاً أن تموّل نفسها من الريوع المحلية وأعشار الكنيسة، لكن فقر معظم أبرشيات الموركسيين أعجزها عن توليد دخل كاف لتوفير كاهن مقيم، أو تغطية تكاليف تحويل المساجد إلى كنائس، وتجديدها.

وعلى نحو ما شهدته غرناطة، حاول كثير من هؤلاء الكهنة التخفيف من فقرهم على حساب رعيتهم. وفضل آخرون تجنب بلنسية الموركسية تماماً، تاركين أبرشياتهم وشأنها. ففي عام 1547، وجدت لجنة دينية أن كثيراً من الكهنة في بلنسية الموركسية قد تركوا مناصبهم، وأن بعضهم اختلس الأموال التي كان من المفترض أن يموّلوا بها أبرشياتهم. وقد كان نقص الموظفين المؤهلين أو ذوي الدافعية واضحاً لدرجة أن الكنيسة البلنسية اضطرت في عام 1542 إلى إعادة تنصيب كاهن يدعى بارتولومي دي لوس أنخليس Bartolomé de los Angeles سبق أن عاقبته محكمة التفتيش بتهمة ابتزاز المال من رعيته الموركسيين. وأعطي لوس أنخليس مسؤولية شخصية عن 128 مدينة وقرية موركسية، وهو عدد كبير جداً حتى على رجل دين أكثر التزاماً منه، وخلال سنتين اعتقل مرة ثانية بتهمة الابتزاز. كان لوس أنخليس من الكهنة القلائل في بلنسية الذين تحدثوا اللغة العربية. فغالبية رجال الدين البلنسيين لم يتحدثوا العربية على الإطلاق، وكانوا يلقون عظاتهم على مصلين موركسيين غير مبالين وأحياناً عدائيين، وبلغة كان قليل منهم فقط يفهمونها، وهي خبرة كانت بلا شك غير مشجعة للكهنة، كما كانت بالنسبة إلى رعيتهم[2].

وكانت محاولات توفير التعليم الديني غير كافية هي الأخرى. فقد أوصت لجنة مانريك بإقامة شبكة واسعة من المدارس لتعليم الأطفال الموركسيين. وبعد أكثر من عقد، كانت المؤسسة الوحيدة التي تقدم التعليم الديني للأطفال الموركسيين في بلنسية مدرسة خاصة أنشأها الكاهن اليسوعي الورع القديس فرانثيسكو دي بورجيا Francisco de Borgia في ضِياع دوق غانديا، ضمت أماكن لاثني عشر تلميذاً موركسياً من إجمالي ثمانية عشر مقعداً[3]. ولم يكن الوضع في غرناطة أفضل حالاً. ففي عام 1559، أنشأ اليسوعيون مدرسة للتعليم الديني في ربض البيازين، كان التلاميذ فيها يتعلمون القراءة والكتابة باللغة القشتالية، ويتلقون تعليماً دينياً من هيئة تدريسية مكرسة مكونة من اثني عشر أباً يسوعياً، كان من بينهم مسلم غرناطي سابق يدعى خوان دي ألبوتودو Juan de Albotodo، وفيها عايش نحو خمسمائة صبي الروتين الزهدي الصارم، إذ كانوا يستيقظون قبل الفجر للقداس، تليه الصلوات والتعليم الديني، ثم الغداء عبارة عن لفة خبز، لكن في غضون بضعة أعوام انقطع معظم الموركسيين عن المدرسة، وأصبح غالبية مرتاديها من العائلات النصرانية القديمة[4].

***

بيد أن هذا الافتقار إلى الحماس لم يكن عاماً. فإذا كان بعض الموركسيين لم يهتموا بإرسال أطفالهم إلى المدارس النصرانية أو تلقي التعليم الديني، فهناك آخرون طلبوا من السلطات أن توفر لهم هذه المدارس وأن ترسل إليهم كهنة. صحيح أن كثيراً من الموركسيين لم يريدوا أصلاً أن يكونوا نصارى من البداية، وكرهوا الدين الذي فُرض عليهم، لكن التقدم البطيء للتبشير لم ينتج كلياً عن عناد الموركسيين. فعلى مدار القرن السادس عشر أكدت قيادات الكنيسة مراراً وتكراراً الحاجة إلى توفير

التعليم الديني للموركسيين، دون أن توفر الموارد البشرية والمالية، التي تؤهل هذه الجهود للنجاح. ونادراً ما كانت الأبرشيات الموركسية تجذب رجال دين يتمتعون بمستوى الالتزام السائد بين الإرساليات التبشيرية الإسبانية في الخارج.

غير أن الكهنة في أبرشيات الموركسيين لم يكونوا جميعاً فاسدين أو «بلهاء» غير مبالين، كما وصف رجل دين إسباني زملاءه في بلنسية، فقد كان كثير منهم أدنى من المعايير المطلوبة أو لم يتلقوا الدعم المؤسسي اللازم لتحفيزهم. لكن هذا التناقض لم يمر دون أن يلحظه أحد. وفي ذلك كتب مؤلف نصراني مجهول في العقد الثامن من القرن السادس عشر: «أنا لا أعرف لماذا أصبنا بالعمى إلى هذا الحد... لكي نذهب لهداية الكفار إلى النصرانية في اليابان والصين ومناطق أخرى بعيدة. كما لو كان بيت إنسان مليئاً بالأفاعي والعقارب ولا يهتم بتطهيره، فيما يذهب لاصطياد الأسود أو النعامات في إفريقيا»[5].

وأشار الكاتب نفسه إلى أنه «يستحيل علينا أن نهدي الموركسيين إلى النصرانية دون أن نسترضيهم أولاً ونزيل الخوف والكراهية والعداوة التي يكنونها نحو النصرانية». وأبدى رجال دين آخرون ملاحظات مماثلة، لكن لم تبذل محاولة منظمة ومتماسكة لبلوغ تلك الأهداف. لماذا لم يُنتبه إلى هذه الدعوات؟ يكمن جزء من التفسير في الضعف المؤسسي للكنيسة نفسها التي كانت عاجزة عن تلبية الاحتياجات الرعوية للسكان النصارى القدامى، وبخاصة في إسبانيا الريفية. وعن ذلك تساءل المصلح الكنسي خوان الآبلي Juan de Ávila من أسقفية غرناطة عام 1547: «من المفيد أن يكون لدينا وعاظ مكرسون ومتحمسون يجوبون الأبرشيات ويستميلون الأرواح، لكن من أين لنا بهم؟»[6] وكان هذا النقص ملحوظاً بالقدر نفسه في بلنسية. وحتى حين حاولت قيادة الكنيسة منع

المعاملة الاستغلالية للموريسكيين من جانب الكهنة ورجال الدين في المستويات الدنيا، لم تتابع هذه المبادرات كما ينبغي، وتبددت في الغالب عبر بيروقراطية دينية مثقلة.

كان الدمج أيضاً هدفاً لوسائل أخرى. فقد حاولت بعض الإدارات المحلية تشجيع الزيجات المختلطة بين النصارى القدامى والموريسكيين عبر إعفاءات ضريبية أو حوافز مالية أخرى، لكن هذه الزيجات لم تحدث بأعداد كبيرة بما يكفي لتدمير خط التقسيم العرقي بين الجماعتين[7]. وحدثت محاولات أيضاً لإجبار الموريسكيين على العيش في أحياء النصارى القدامى والعكس. على أن إعادة دمج الغيتوهات الإسلامية المعزولة في المدن النصرانية كانت عملية معقدة، تضمنت إعادة التفاوض على اتفاقات طويلة المدى تتعلق بالإيجارات والمِلكية، وعولجت هذه العملية أحياناً باستخفاف متغطرس بأحاسيس المسلمين. ففي بعض الحالات كان الموريسكيون أنفسهم مطالبين بتمويل هدم بناياتهم الدينية وأسوار غيتوهاتهم[8]. وحتى إزالة الحاجز المادي متمثلاً في أسوار الغيتوهات لم يؤد بالضرورة إلى زيادة الاندماج. وظل كثير من الموريسكيين يمانعون في مغادرة الأحياء التي قضوا حياتهم فيها، أو كانوا أفقر من أن يتحملوا الإيجارات الأعلى في الأماكن الأخرى، في حين لم يتحمس النصارى للعيش في مناطق كانت تعتبر عموماً «الأحقر في المدينة».

نظرياً، كان الموريسكيون، بصفتهم نصارى معمَّدين، خاضعين لوضعية النصارى القدامى القانونية والضريبية نفسها، لكن هذه المساواة نقضتها مراراً وتكراراً قوانين تمييزية وعدد من الأعشار والضرائب فرضت على مسلمي إسبانيا السابقين دون غيرهم. فكان الموريسكيون دائماً ملزمين بتقديم إسهامات خاصة لصيانة الطرق والجسور. وكانوا يدفعون في غرناطة الضريبة المعروفة بالفرضة farda، لصيانة الدفاعات

الساحلية للمملكة. وحتى بعد تعميدهم ظلوا محرومين من مهن معينة، مثل التوليد والطب والصيدلة، التي كانت مقصورة على النصارى فقط. وفي بلنسية لم يكن مسموحاً لهم بتغيير محل السكن تحت تهديد الغرامات أو الجلد. وفي غرناطة لم يكن مسموحاً للموريسكيين بحمل الأسلحة، باستثناء الخناجر ذات الحواف المدورة، كي لا يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

كان التمييز الرسمي يصحبه دائماً تعصب وعداء شعبيان. ففي عام 1537، أوقفت نصرانية غرناطية ثرية تدعى كاتالينا ايرنانديث Catalina Hernández هبة كبيرة في وصيتها لإنشاء ملجأ للبنات اليتيمات في المدينة، بشرط استبعاد اليتيمات الموريسكيات منه. وشكَت زوجة نصرانية لرجل موريسكي ذات مرة لمحكمة التفتيش من أن «النصارى القدامى لا يريدونني ولا ابنتي لأنني أنجبتها من نصراني جديد». وفي كتابه الجدلي المعادي للمسلمين «نقض القرآن» (1532) Anti–Koran، خاطب الكاتب الديني بيرناردو بيريث دي تشيتشون Bernardo Perez de Chichon الموريسكيين باللغة التالية:

> إن غاليتكم أناس لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يعرفون أي شيء عن الرب أو السماء والأرض، لكنكم تجوبون الريف كالبهائم، كما يفعل العرب في شمال إفريقيا؛ ذلك الشعب الهمجي الذي لا قانون له ولا مَلك، ولا سلام، ولا إقامة دائمة، يعيش اليوم هنا وغداً في مكان آخر، وأنتم أناس غادرون ولصوص وميالون للواط مثل كل المغاربة بشمال إفريقيا[9].

وإذا كانت هذه المواقف تثير شكوكاً حول استعداد المجتمع النصراني

لتقبل المورسكيين، فهناك أيضاً أدلة كثيرة توحي بأن كثيراً من مسلمي إسبانيا السابقين لم يكونوا متقبلين للهويات التي فرضت عليهم. فقد ذكر أعضاء بمحكمة التفتيش ورجال دين من مناطق مختلفة بإسبانيا أن المورسكيين لم يعتادوا حضور القداس أو الذهاب إلى الاعتراف، أو تعميد أطفالهم، أو مراعاة الصوم والأعياد النصرانية. وعند ذهاب المورسكيين إلى الكنيسة، كانوا يستخفون دائماً بالطقوس ولا يحترمونها، فيدخلون دون أن يومئوا بإشارة الصليب أو يتخذوا «وضع الجسم اللائق» في أثناء الصلاة. وكان مسؤولو الكنيسة يصدمون بشكل خاص من سلوك بعض الرعية المورسكيين في أثناء العشاء الرباني. على أن مفهوم استحالة الجوهر[1] وتحول الخمر والخبز في الشعيرة إلى دم المسيح وجسده كان أحد جوانب الكاثوليكية التي استحثت دوما حنق علماء الدين المسلمين، وكان كثير من المورسكيين يديرون وجوههم بعيداً عند رفع القربان المقدس، أو يقرصون أطفالهم لكي يبكوا فيتبدد جلال الطقس الديني، أو يرمون بكسرات من الخبز، وفي إحدى الحالات خرقة متسخة على المذبح.

غير أن السلوك السيئ في الكنيسة لم يكن مقصوراً على المورسكيين. ففي بعض مناطق إسبانيا الريفية، كان الفلاحون النصارى يصطحبون حيواناتهم معهم إلى الكنيسة، ويمضون وقت القداس في الكلام ولعب النرد، والرقص على صوت أرغن الكنيسة كذلك. لكن الاستخفاف من جانب المورسكيين كان دائماً عرضة لتفسيرات شريرة أبعد من الجهل أو التخلف الريفي. ففي عام 1530، أرسل رئيس أساقفة غرناطة غاسبار دي أبالوس مبعوثاً خاصاً ليطلع الإمبراطورة إيزابيلا، التي كانت تعمل كوصية في أثناء أحد غيابات شارل في شمال إفريقيا، على حالة المورسكيين الغرناطيين. زود أبالوس مبعوثه بقائمة مطولة بالمخالفات ليثبت للملكة

(1) استحالة خبز القربان وخمره في الشعيرة إلى جسد المسيح ودمه في أثناء الصلب [المترجم].

أن «هؤلاء النصارى الجدد أسوأ في دينهم مما كانوا عليه وهم أندلسيون»، فهم لم يواصلوا الالتزام بصوم رمضان وإطلاق أسماء إسلامية على أطفالهم فحسب، وإنما كانوا يرفضون الذهاب إلى الاعتراف أو حضور القداس دون إكراه، وكانوا عموماً غير محترمين حين يذهبون «إلا في وجود أحد ممن يخشونهم من النصارى القدامى»[10].

وحث رئيس الأساقفة إيزابيلا على اتخاذ إجراءات أشد ضد «الأمة» المورسكية، التي أصر على أنها يجب أن «تُحكَم بالخوف لا بالحب». واستجابت الإمبراطورة بوصلة أخرى من المنع، فمنعت اللباس والأغاني والرقص الأندلسي، لكن هذا المنع يبدو أنه لم يُفرَض أو يُطع. وأثارت محاولات أبالوس لمنع الملحفة والرقص الأندلسي في بلدة غوخار اضطرابات، واضطر للتراجع في النهاية، حين تدخل القائد العام لويس أورتادو دي مندوسه ابن الكونت تانديليا، الذي كان أول من شغل المنصب، دفاعاً عن المورسكيين. وأجبر القائد العام رئيس الأساقفة أيضاً على التوقف عن محاولة إكراه المورسكيين على الذهاب إلى القداس، بوضع شرطة على الطرق تحرق أخراج(1) المورسكيين الذين يسافرون في أيام الآحاد.

كان التسامح الذي أظهره القائد العام نحو المورسكيين الغرناطيين أكثر انتشاراً حتى بين النبلاء النصارى في بلنسية، الذين استمروا في تشجيع مُقْطَعيهم المورسكيين على أن «يعيشوا كأندلسيين» في ضِياعهم في عدم وجود الكهنة وقضاة محكمة التفتيش. وفي أثناء محاكمته عام 1544، وصف الكاهن «المشلوح» بارتولومي دي لوس أنخليس المورسكيين البلنسيين بأنهم «أناس عصاة ومتمردون»، وادعى أنه «من كل أربعين بيتاً... يذهب خمسة أو ستة فقط إلى القداس»[11]. وألقى لوس أنخليس

(1) جمع خُرْج الدابة [المترجم].

باللائمة في ذلك العناد على مُقْطِعيهم النصارى، الذين اتهمهم بحماية الموركسيين على أراضيهم وإعاقة محاولات تنصيرهم. ورفعت محكمة التفتيش البلنسية اتهامات مماثلة وانتقدت الإقطاعيين مراراً وتكراراً بإعاقة جهود المسؤولين. وكان أحد أسوأ «البارونات الأشرار» سمعة هو سانشو دي كاردونا Sancho de Cardona؛ أدميرال بلنسية الذي اتهمته محكمة التفتيش في عام 1570 بالدفاع عن الموركسيين على مدى عقود.

ذكر أحد الشهود في أثناء محاكمة كاردونا أن الأخير قال للموركسيين في ضِياعه عام 1542 أن «يتصنعوا المظهر الخارجي للنصرانية، ويظلوا أندلسيين من الداخل» حين يأمرهم الكاهن المحلي بحضور القداس. وادعى شاهد آخر أن الموركسيين في ضِياع الأدميرال كان مسموحاً لهم بأن يعيشوا «كما لو كانوا في فاس»، وسمح لهم حتى ببناء مسجد جديد. ويبدو أن حماية كاردونا لمُقْطَعيه الموركسيين كانت ترجع لأشياء أخرى غير المصلحة الشخصية الاقتصادية. فقد زعم شهود مختلفون أنه لا يذهب إلى الكنيسة ولا يحضر الاعتراف إلا نادراً، وادعى شاهد آخر أن الأدميرال اقترح ذات مرة أن يخبر البابا بأن الأندلسيين البلنسيين نُصّروا قسراً، ويطلب منه السماح لهم بالعودة إلى دينهم[12].

وكانت هناك أيضاً تقارير حول استمرار التمسك «بدِين محمد» في قشتالة. ففي عام 1538، اتهمت محكمة التفتيش بطليطلة موركسياً يدعى خوان البرغشي(1) «بعزف الزمرة والرقص عليها ليلاً وأكل الكُسكُسي(2)»

(1) Juan of Burgos نسبة إلى برغش [المترجم].

(2) الكسكسو أو الكسكسي couscous أكلة مغاربية وتنتشر في أقطار عربية أخرى، منها مصر، تصنع من طحين القمح أو الذرة في شكل حبيبات صغيرة ويطبخ بالبخار ويضاف إليه اللحم أو الحليب أو الزبدة أو السكر الناعم، يقال إنها ترجع في المغرب العربي إلى ما قبل الميلاد، ويقال أيضاً إنها دخلت المغرب مع الجيش العربي الفاتح الذي كان «يكسس» الخبز، أي يكسره ويهشمه، أو حين اضطر الجيش لأكل فتات الخبز بعد أن عمدت الكاهنة وجيشها إلى إحراق الأرض وإتلاف الأشجار والثمار [المترجم].

ودعوة أصدقائه وأقاربه إلى بيته حيث «يغنون الأغاني الأندلسية، ويتحدثون اللغة العربية، وينادون بعضهم بالأسماء التي كانت لهم حين كانوا أندلسيين، ويثمّنون هذه الأسماء أكثر من تلك التي أعطيت لهم حين أصبحوا نصارى»[13]. وفي العقد الخامس من القرن السادس عشر، أجرت محكمة التفتيش بطليطلة تحقيقات مطولة في بلدة ديميل Daimiel، اعترفت فيها امرأة مورسكية تدعى ماري غوميث Mari Gomez تحت التعذيب بأنها «أندلسية ثابتة». وحاول المحققون دون جدوى اكتشاف هوية «نبي» مورسكي مجهول في البلدة ادعى - كما قيل - أنه يستطيع أن يتكلم مع الملائكة والموتى، كان يهدي الناس إلى الإسلام في اجتماعات سرية. وفي الفترة عينها حقق قضاة محكمة التفتيش في تقارير حول وجود العبادات الإسلامية في بلدة أريفالو Arevalo القريبة من شقوبية[1] تضمنت «القول بوجود نبي صبي»، لكنهم لم يتوصلوا إليه. وفي أثناء هذه التحقيقات تعرض عدد من المورسكيين، الذين اشتبه في أنهم أدلوا بمعلومات أمام محكمة التفتيش، للقتل بطريقة غامضة.

***

كان تأكيد الإقناع بدلاً من الإكراه مشروطاً دائماً بقيام المورسكيين طائعين بالتزامات دينهم الجديد، والحوادث من هذا النوع استشهد بها المتشددون كدليل على ضرورة تبني طرق أكثر صرامة. ولذلك لم يغب القمع يوماً في عهد شارل. فكان الكهنة أو المسؤولون العلمانيون يغرّمون المورسكيين دائماً على عدم حضور القداس أو مراعاة أيام الأعياد أو النداء على بعضهم بأسمائهم الإسلامية. وكانوا أيضاً يخضعون لمراقبة محكمة التفتيش، وبخاصة بعد تعيين رئيسها الطموح والمتشدد فيرناندو دي بالديس Ferdnando de Valdes في عام 1546. فبالديس المراوغ والمذعور

(1) Segovia في اللغات الأوروبية [المترجم].

والمصمم على استئصال كل تعبيرات اللوثرية في مهدها، قاد حملة متجددة ضد الهرطقة، لم يسلم منها مسلمو إسبانيا السابقون.

على أنه لم يُسَلّم موريسكيون كثيرون إلى «ذراع الدولة العلماني»[1] في هذه الفترة، فقد واصل المحققون تفضيل التساهل والرفق في العقوبات المفروضة عليهم، وآثروا الغرامات ومصادرة السلع والممتلكات والجَلد و«العقوبات الروحية» من نوع الصلوات والحضور الإلزامي في الاعتراف أو القداسات الخاصة. وفي بعض الحالات، كانت محكمة التفتيش تتخلى تماماً عن العقوبات وتعفو عن انتهاكات الموريسكيين. لكن المحققين الإقليميين كانوا في الغالب قانوناً في ذاتهم، ولم يكونوا يميلون جميعاً إلى الرحمة. ففي عام 1535، أحرِق خمسة موريسكيين على الخازوق في ميورقة Majorca، وأدين أربعة آخرون وأحرقت دمى لهم[2]، لتعذر القبض عليهم. وفي العقد الخامس من القرن السادس عشر، عُرِض 232 موريسكياً في العرض التكفيري في سرقسطة، منهم أربعة فقهاء وراهب سابق اعتنق الإسلام، وقد أحرقوا جميعاً على الخازوق.

كان الموريسكيون يتذرعون ويدفعون مخالفاتهم الدينية غالباً بالجهل، زاعمين أنهم لم يعرفوا المطلوب منهم، وكانت هذه الدفوع تنجح أحياناً. لكن حتى حين كان الأندلسيون يمنحون عفواً من محكمة التفتيش، فإن العفو لم يكن يحترم دائماً. ففي عام 1546، أمر البابا محكمة التفتيش الأراغونية بعدم مصادرة السلع أو الممتلكات من الموريسكيين لمدة عشرة أعوام، لكن هذه المصادرات تواصلت رغم ذلك. فمحكمة التفتيش كانت تعتمد على الغرامات والمصادرات في جزء كبير من دخلها، لدرجة

(1) بمعنى أنه لم يعدم موريسكيون كثيرون، لأن محكمة التفتيش حين كانت تحكم على أحدهم بالإعدام، لم تكن تعدمه بنفسها، بل كانت تسلمه إلى السلطات العلمانية لتحرقه على الخازوق، بعد أن تعرضه المحكمة في العرض التكفيري auto da fe [المترجم].

(2) بمعنى أنهم أحرقوا رمزياً عبر دمى لهم، طالما تعذر القبض عليهم [المترجم].

أن الموركسيين كانوا يظنون كثيراً أنهم يُغرّمون لدفع رواتب معذبيهم. وفي بلنسية وأراغون استاء النبلاء المحليون من العقوبات التي أوصلت مُقْطَعيهم الموركسيين ونسلهم إلى حد الفاقة، وأضرت بأصولهم الاقتصادية.

وفي عام 1556، حلت هذه المشكلة مؤقتاً، حين منح رئيس محكمة التفتيش بالديس عفواً عاماً عن الموركسيين الأراغونيين عن مخالفات محددة. ففي مقابل دفع مبالغ سنوية كبيرة، وافقت محكمة التفتيش على عدم مصادرة ممتلكات الموركسيين، وتم التوصل إلى اتفاقات مماثلة في بلنسية وغرناطة. ومرة أخرى نجد الموركسيين يفلتون من الاضطهاد بدفع نوع من الإتاوة أو الحصانة الرشوية[1]، لكن هذه التنازلات كانت خادعة. فبحلول منتصف القرن السادس عشر لم يعد موقف الموظفين الإسبان نحو الموركسيين كما كان عليه في أعقاب التعميد. ففي حين كان المحققون في السابق يقبلون التذرع بالجهل على تجاوزات الموركسيين، أصبحوا يميلون إلى النظر إلى عنادهم المستمر على أنه رفض عنيد للاستفادة من الشهامة النصرانية.

ارتبط تغير المواقف من المسألة الموركسية أيضاً بالشراسة المتزايدة للصراع بين الإسلام والنصرانية في البحر الأبيض المتوسط. فعلى مدار النصف الأول من القرن، كان الأتراك العثمانيون يحققون مكاسب ثابتة في شمال إفريقيا، وأسسوا سيطرة مباشرة أو غير مباشرة على عدد من المدن والأقاليم، ما شكّل تهديداً لنظام الحاميات الضعيف الذي أقامته إسبانيا على امتداد ساحل شمال إفريقيا. وفي عام 1516، سيطر الأخوان القرصانان[2] اليونانيان عروج وخير الدين

(1) الحصانة الرشوية حصانة من الملاحقة القانونية يشتريها المجرمون عن طريق الرشوة [المترجم].

(2) كما أن المصطلح الواحد، مثل مصطلح Reconquista [الاسترداد عند الإسبان =

بربروس[1] على الجزائر، وبذلك بدأت المدينة تتحول إلى جيب مستقل للقراصنة تحت الحماية التركية التي استمرت ثلاثة قرون أخرى[2]. وبعد موت عروج عام 1518 على أيدي الجنود الإسبان في أثناء حصار تلمسان، عين السلطان العثماني أخاه خير الدين قبودان باشا (قائد بحر). ولقد مكّن هذا الدور بربروس من بناء أسطول قوي كان كثير من الحكام النصارى يحسدونه عليه، جمع بين المصالح الإستراتيجية والدينية للقسطنطينية في صراعها مع أوروبا النصرانية إلى جانب تحقيق مكاسب شخصية.

= والأوروبيين/سقوط الأندلس عن العرب والمسلمين]، تكون له معانٍ مختلفة بالنسبة للشعوب والثقافات المختلفة، فإن الشخصية التاريخية الواحدة تسمى بأسماء وتنعت بصفات متناقضة من جانب الشعوب والثقافات المختلفة، من هذه الشخصيات عروج وخير الدين بربروس اللذان يعتبرهما الإسبان والغرب قراصنة وقتلة ومجرمين، ويعتبرهما العرب والمسلمون مجاهدين ومحررين وفاتحين ومنقذين. والملاحظة عينها تنطبق على ما يشير إليهم الكتاب باسم «القراصنة»، إذا يعتبرون في شمال إفريقيا والعالم العربي «مجاهدين بحريين». إنها الرؤى والمنظورات التاريخية المختلفة للتاريخ الواحد، أو بالأخرى «التواريخ» المختلفة للحدث الواحد والشخصية التاريخية الواحدة [المترجم].

(1) عروج Aruj (من حوالي 1474 إلى 1518) وخير الدين Hayreddin (من حوالي 1478 إلى 4 يوليو 1546) قائدان بحريان في البحرية العثمانية ولدا على جزيرة لسبوس العثمانية، قتل الأول في معركة مع الإسبان في تلمسان الجزائرية وتوفي الثاني في الأستانة، أسهمت انتصاراتهما البحرية في تأمين السيطرة العثمانية على البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن السادس عشر ومن معركة بروزة في عام 1538 إلى معركة ليبانتو في عام 1571 وضم الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية، وتعاقبا على حكمها كبايات تابعين للسلطان العثماني. والأخوان بربروس، وأخوان آخران لهما عملا أيضاً بالبحر والتجارة والحرب، ولدوا لأب انكشاري وأم مسلمة أندلسية. أما اسم بربروس أو بارباروسا («ذو اللحية الحمراء» في اللغات الأوروبية) فقد أطلق أولاً على عروج، ويقال إنه تحريف للاسم الذي أطلقه عليه الأندلسيون «بابا عروج» تقديراً لجهوده في إنقاذ الآلاف منهم، إذ يقال إن عروج استطاع بين عامي 1504 و1510 إنقاذ سبعين ألف أندلسي بنقلهم إلى مدينة الجزائر [المترجم].

(2) هي القرون الثلاثة التي كانت الجزائر فيها أيالة عثمانية، أي ولاية عثمانية تتمتع باستقلال أكبر من الولايات الأخرى، وكانت الجزائر فيها من أقوى الدول في حوض البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

شعرت مدن وقرى ساحلية كثيرة في إسبانيا وإيطاليا بتأثير قائد البحر أو ملك الشر كما أطلقوا عليه في إسبانيا. ففي صيف عام 1534، دمر أسطول بربروس الذي أعيد تجهيزه ساحل الأدرياتيكي الإيطالي ونهب المدن والقرى وأخذ آلاف النصارى عبيداً. وفي عام 1543، استقبل بربروس وأسطول يتكون من نحو ثلاثين ألف بحار بترحاب في ميناء طولون الفرنسي، الذي وقع فيه ملك فرنسا الفالوي[1] تحالفاً مؤقتاً مع السلطان التركي. وقام أسطول فرنسي-إسلامي مشترك بنهب دولة نيس Nice التابعة لآل هابسبورغ، وهو ما أثار اشمئزاز معظم أوروبا النصرانية.

دفع الصعود التركي في البحر الأبيض المتوسط دعوات من البروتستانت والكاثوليك إلى «السلام بين النصارى، والحرب على الكفار». وبعد الحصار التركي لفيينا في عام 1529، دعا مارتن لوثر إلى الحرب على الأتراك، ذلك العدو الذي اعتبره تجسيداً للشيطان، ودعا الباباوات المتعاقبون الإمبراطور الروماني المقدس لتوحيد العالم النصراني في حملة صليبية ضد تركيا. وحاول شارل- دون جدوى- في مناسبات مختلفة أن يجتذب أمراء نصارى آخرين لهذا المشروع، وأخذ ينظر على نحو متزايد إلى شمال إفريقيا باعتبارها فرصة لتوجيه ضربة قاسمة ضد السلطان، تحسّن مكانته وتزيل تهديد القراصنة لإسبانيا.

في البداية، حاول شارل أن يجند بربروس في هذا المشروع، وعرض عليه السيطرة السياسية على شمال إفريقيا كلها إذا اعتنق النصرانية، لكن هذا العرض لقي رفضاً قاطعاً، حين قطع رأس المبعوث الذي حمله. وحين طرد بربروس الحاكم الإسباني الدمية لتونس مولاي حسن في عام 1534،

---

(1) ملك فرنسا في ذلك الوقت كان فرانسيس الأول (من 12 سبتمبر 1494 إلى 31 مارس 1547) من آل فالوا Valois الذي حكم فرنسا من عام 1515 حتى وفاته في عام 1547 [المترجم].

قاد شارل أسطولاً مكوناً من خمسة وعشرين ألف جندي لاسترداد المدينة في السنة التالية. وتلا الهجوم النصراني الناجح أعمال عربدة، هدمت فيها المكتبات العامة والمساجد إلى الأرض، وذبح عشرات الآلاف من المسلمين، الذين استسلموا في الشوارع أو أخذوا عبيداً. ولدى عودته إلى إيطاليا، استقبل شارل في المدن المختلفة بمواكب النصر كقيصر روماني، ومنها الترحيب الأكثر اتقاناً في ميسينا Messina، الذي صممه الرسام كاراباجو Caravaggio والذي تضمن عربة تحمل مذبحاً مغطى بغنائم يحيطها ستة أسرى مسلمين مكبلين.

ربما عزز الانتصار في تونس سمعة شارل كأمير صليبي، لكنه لم يفعل شيئاً لكبح نشاطات القراصنة من شمال إفريقيا، الذين واصلوا نهب الساحل الإسباني وتهديد صلات إسبانيا التجارية الحيوية مع صقلية. وفي أكتوبر 1541، حمّل شارل نفسه أكثر من طاقتها حين شرع في محاكاة نجاحه في تونس بهجوم على ممتلكات بربروس في الجزائر. نفذت هذه الحملة الضخمة بنصيحة من أدميراله الجنوي الشهير جيان أندريا دوريا Gian Andrea Doria، وانتهت بكارثة، حين غرقت أكثر من مئة وخمسين سفينة في العواصف، وهي تنتظر بعيداً عن الشاطئ. وغرق زهاء اثني عشر ألف جندي أو قتلهم السكان المحليون، ووصف المؤرخ التركي كيف كانت شواطئ شمال إفريقيا «تتناثر عليها جثث الرجال والخيول». وتلا موت بربروس في عام 1546 صعود قرصان يوناني آخر يدعى الريس درغوث[1] أو دارغوت كما كانوا يسمونه في أوروبا النصرانية، الذي عُيّن قوبدانا باشا

(1) درغوث الريس أو الريس درغوث Turgut أو Dragut (من 1485 إلى 23 يونيه 1565) (لا يزال لقب «ريس» يستخدم إلى اليوم مع البحارة) قائد بحري عثماني وباي الجزائر وقائد البحر العثماني في البحر الأبيض المتوسط، وسع النفوذ العثماني في شمال إفريقيا، وشيّد مدينة طرابلس وزينها. وكما في حالة الأخوين بربروس و«قراصنة شمال إفريقيا»، يعتبر في الغرب قرصاناً [المترجم].

في مكانه، وسرعان ما أثبت أنه عدو لا يقل هولاً لإسبانيا الهابسبورغية.

أثر هذا الصراع المتصاعد في البحر الأبيض المتوسط حتماً على الموركسيين، حيث تابع حكام إسبانيا عملية دمج عصبية وغير متماسكة أحياناً، تناوبت فيها فترات طويلة من الإهمال والعفو والرشاوى ومراسيم العفو ونوبات قمع غير متوقعة. فقد كان يشتبه في أن الموركسيين يقدمون معلومات استخبارية للقراصنة المغيرين على الساحل الإسباني، وكانت هناك أيضاً تقارير تقول إن النجاحات التركية جرأت بعض الموركسيين على الاعتقاد بأن تحريرهم كان وشيكاً. وبحلول منتصف القرن بدأ الموظفون الإسبان في استنتاج أن غالبية مسلمي إسبانيا السابقين كانوا يعيشون داخل المجتمع النصراني، لكنهم لم يصبحوا بعد جزءاً منه.

9

حياتان متوازيتان

حتى في حال غياب الاضطهاد المنظم، كان الموريسكيون يشكّلون دائماً قلقاً، ويثيرون هواجس وسط مجتمع نصراني كان مصمماً على استئصال كل «ذكريات الأندلسيين» من إسبانيا على المدى البعيد. وبالنسبة إلى غير الراغبين في الإذعان للترتيب الجديد، لم تعد المقاومة المسلحة عموماً أحد الخيارات، وكان البديل الآخر هو أن يغادروا البلاد، لكن الهجرة كانت محظورة بشدة، وكان الموريسكيون الذين يضبطون وهم يحاولون الهجرة يتعرضون لعقوبات قاسية، من مصادرة ممتلكاتهم إلى الشنق. ورغم هذه الأخطار، استطاع سيل متواصل من الموريسكيين الهرب إلى شمال إفريقيا بمساعدة من القراصنة أو من أقاربهم وأصدقائهم الذين هاجروا[1]. في حين بقيت غالبية مسلمي إسبانيا السابقين في بيوتهم، وحاولوا أن يكيفوا أنفسهم مع هويتهم الجديدة كنصارى. وأعمل موريسكيون كثيرون الأمر القرآني المعروف بالتقية، الذي يجيز للمسلمين الذين يواجهون اضطهادا بأن ينافقوا حين تكون المصالح الأوسع للدين في خطر.

وفي عام 1504، طبق هذا المبدأ على مسلمي إسبانيا بوضوح مفتي وهران

---

(1) ربما كان كثير من هؤلاء، ممن ساعدهم عروج بربروس في الهرب من إسبانيا إلى شمال إفريقيا، وربما لذلك أطلقوا عليه لقب «بابا عروج» [المترجم].

أحمد بن بوجمعة في فتوى أصدرها رداً على طلبات من المسلمين الإسبان. بالتوجيه الديني، حثت الموركسيين على «التمسك بدينهم كالماسك على الجمر»[1]. كان بوجمعة يدرك تماماً القمع الذي كان الموركسيون يتعرضون

---

(1) أحمد بن بوجمعة المغراوي عالم أندلسي من بلدة المغرو بمقاطعة بلدة رباح، والفتوى بتاريخ الثامن عشر من نوفمبر 1504، وجاء فيها: «إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق ... من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني: كان الله للجميع بلطفه وستره ... ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وان الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمّم به، فاقصدوا بالإيماء ... وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن التوجه إلى القبلة يسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيّرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلاّ رؤوس أموالكم وتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين انه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه ... وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وإنا نسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى» [المترجم].

له، ونصحهم بالثبات على دينهم بوضع حاجز صارم بين مظهرهم الخارجي وسلوكهم وأفكارهم ومشاعرهم الحقيقية. فإذا أجبروا على تلاوة الصلوات النصرانية أو تلقي الأسرار المقدسة، فلا بد أن يرفضوها داخلياً، وينادوا باسم محمد في سرهم. وإذا اضطروا إلى أكل أطعمة محرمة مثل لحم الخنزير، فقد أفتاهم بوجمعة بأن «يأكلوها، لكن انكروا ذلك في قلوبكم». وإذا لم يستطيعوا الوضوء، فيمكنهم أن يطهّروا أنفسهم قبل الصلاة «بمسح أيديهم في جدار» أو «العوم في البحر». وإذا لم يتمكنوا من أداء صلواتهم اليومية، فيمكنهم - كما في فتوى بوجمعة - أن يصلوا بالليل[1].

بالنسبة إلى علماء الدين المسلمين داخل إسبانيا وخارجها، كان الرياء هو الرد اليائس على حالة يائسة. وفي العصور الوسطى كان قرب المسلمين من النصارى يُذكَر كثيراً كمصدر ممكن للتلوث اللاهوتي، وكانت هذه الأخطار يضخمها الانغمار اليومي للموركسيين في الطقوس والصلوات والاعتقادات النصرانية. ومَنْ الذي يستطيع أن يحكم إنْ كان الموركسيون الذين يتلفظون بالصلوات النصرانية أو يحنون رؤوسهم في القداس ينكرونها حقاً «في قلوبهم»؟ وكيف يمكن تمييز المسلم الجيد من المسلم السيئ، في وقت كان فيه الموركسيون جميعاً مجبرين على تبني مظهر النصارى الجيدين على السطح؟

شغل هذان السؤالان أيضاً السلطات الدينية النصرانية في إسبانيا، لكن لأسباب مختلفة تماماً. لم يكن الموركسيون الجماعة الدينية الوحيدة في أوروبا القرن السادس عشر التي أجبرها الاضطهاد الرسمي على النزول تحت الأرض. فالهوغونوت(1) البروتستانت في فرنسا الكاثوليكية أجبروا

(1) الهوغونوت أو البروتستانت الكالفينيون هم أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين تأثروا بآراء المصلح جون كالفن، تعرضوا للاضطهاد في فرنسا، وفر كثيرون منهم إلى الدول البروتستانتية [المترجم].

أيضاً على ممارسة دينهم في السر، وكذلك الكاثوليك والبروتستانت الإنجليز في أوقات مختلفة[1]. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، أحرقت عشرات الآلاف من النساء في أوروبا البروتستانتية والكاثوليكية على أنهن ساحرات، بسبب تجاوزاتهن الدينية المتخيلة. لكن قمع الإسلام الإسباني لم يكن موجهاً نحو المعتقد الديني فقط، وإنما كان يقصد به استئصال أقلية عرقية لم تكن عاداتها وتقاليدها دينية في أصلها بالضرورة. فلم يكن المورسكيون في حاجة لأن يكونوا مسلمين صادقين كي يذوقوا الاضطهاد. فحتى المورسكيون الأقل تديناً كانوا مشتبهين في نظر المجتمع النصراني بسبب ملابسهم أو لغتهم أو طريقة أكلهم. وكلما اشتدت السلطات الدينية والعلمانية الإسبانية لاستئصال هذه الاختلافات الثقافية بالإكراه والعقاب، زاد تمسك المورسكيين بها، باعتبار ذلك شكلاً من العناد والتحدي. وتمثلت نتيجة ذلك في صراع خفي يختلف عن كل ما شهدته أوروبا القرن السادس عشر، صراع كان يبدأ غالباً من لحظة دخول المورسكيين إلى العالم، ويستمر إلى ما بعد تركه.

***

نُسِخت فتوى وهران على نطاق واسع في مخطوطات سرية طوال القرن السادس عشر، لكن المورسكيين لم يكونوا بحاجة لمن يوعيهم بتوصياتها المحددة، كي يمارسوا اختلافاتهم ويحافظوا عليها. فبعد فترة طويلة من تعميدهم الأولي، ظل كثير من المورسكيين يعيشون في عالم إسلامي مواز تحت واجهة نصرانية. فكانوا يتمسكون قدر الإمكان بالتقويم الديني الإسلامي. وكانوا يصومون رمضان ويحتفلون بالأعياد الإسلامية. وفي حالة غياب المساجد، كانوا يصلون ويتعبدون في بيوتهم، فرادى وأحياناً

(1) بمعنى ممارسة الكاثوليك لعباداتهم سراً في أزمان وجود البروتستانت في السلطة في إنجلترا، والعكس [المترجم].

في جماعات. من ذلك، أن فقيهاً موريسكياً يدعى داميان دوبلت Damián Doblet من بلدة بونول Buñol البلنسية اعتقلته محكمة التفتيش للمرة الثانية في عام 1587 لممارسة الشعائر الإسلامية. وفي محاكمته وصف شهود مختلفون كيف كان دوبلت يخطب في مجموعات تصل إلى خمسين رجلاً وامرأة كانوا يجلسون على مقاعد حجرية في فناء بيته الذي كان يعظ فيه ويرافق ذلك بالعزف على العود. قال أحد الشهود إنه:

> كثيراً ما كنا نرى الموريسكيين والموريسكيات يترددون في ليالي الجمعة إلى بيت دوبلت في أحلى ثيابهم وهم متنكرون. فارتبنا في أنه يبشر بدِين محمد، وقررنا ذات ليلة أن نأخذهم على حين غرة، ولما وجدنا الباب الرئيس مغلقاً، دخلنا من باب زائف، فوجدنا دوبلت يجلس على كرسي ويحمل عوداً في يديه، وأحد قدميه غير منتعل، ويحمل موريسكي آخر كتاباً مفتوحاً أمامه يقرأ ويغني منه(1)[2].

حدثت تجمعات كثيرة مماثلة في إسبانيا القرن السادس عشر. وفي بعض الحالات، كان الموريسكيون يحضرون اجتماعات سرية مع أصدقائهم وجيرانهم يقرأون فيها القرآن، أو يسمعون خطباً من الفقهاء والوعاظ المسلمين المتجولين. وفي حالات أخرى كانت العبادات الإسلامية تمارس في البيت تحت إشراف رب العائلة الذكر. وكانت النساء من أقوى حراس التقاليد الإسلامية، وكان رجال الدين والقساوسة يذكرونهن كثيراً بمقاومتهن «العنيدة» للكاثوليكية. وتحوي سجلات محكمة التفتيش أمثلة عديدة لهذا العناد، منها إيزابيل دي مدريد Isabel de Madrid، التي

(1) لا بد أن هذه الطقوس من النوع الذي يميز الطرق الدينية، أو أن المسيحيين خلطوها بطقوسهم [المترجم].

اعتقلت لأنها ردت على سب النصارى لها بـ«كلبة أندلسية» بالقول: «أنا أندلسية وأبي وأمي كانا أندلسيين وماتا أندلسيين، وأنا أيضاً أندلسية وسأموت أندلسية»[3][1]. وقالت المورسكية ماريا لا مونخا María la Monja لمحكمة التفتيش بقونكة[2] إن «العالم كله لن يوقفها عن القول إنها أندلسية، فذلك مصدر عظيم للفخر بالنسبة إليها»[3].

على أن التحدي من جانب المورسكيين لم يكن علنياً في غالبه. ففي الغالب الأعم كان المورسكيون يرددون كلام الكاثوليكية ظاهراً، فيما يؤكدون هوياتهم الإسلامية سراً. وكانوا يتوسلون إلى ذلك بعدة طرق، منها إبطال الطقوس الدينية النصرانية. فبعد تعميد أطفالهم في الكنائس، كانت بعض العائلات المورسكية تعود بأطفالها إلى البيت، وتغسلهم من ميرون[4] التعميد بماء ساخن أو فتات الخبز. وبعد ذلك يؤدون طقس

---

(1) لاحظ أن الناس في ذلك الزمان كانوا يخلطون أو يماهون بين القومية، أو العرق إن شئت، والانتماء الديني، كما ورد في حواشي سابقة للمترجم [المترجم].

(2) Cuenca في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) من أمثلة البطولات النسائية الأندلسية المعروفة سليمة بنت جعفر حفيدة أبي جعفر الوراق الغرناطي التي أخذت عن جدها حب القراءة وورثت عنه مكتبة عظيمة وشهدت في طفولتها محرقة الكتب في ساحة باب الرملة، وكانت من نساء غرناطة العالمات في شتى العلوم، خاصة الطب، وجعلت من غرفتها معملاً لإنتاج الدواء لتطبيب المرضى، وهو ما جر عليها تهمة السحر أمام محكمة التفتيش، كما اتهمتها المحكمة بأنها حملت من الشيطان، لأن زوجها سعد المالقي (كارلوس مانويل بعد تنصيره) كان غائباً في أثناء حملها في ابنتها عائشة (اسبيرنزا)، وبالفعل كان زوجها هارباً من السلطات لأنه كان من المجاهدين، لكنه كان يتردد إلى بيته خفية، ولم تشأ أن تفضح سره، وقالت فحسب أنهما مختلفان، وأنه عاد لبيته قبل ثلاث سنوات ثم غادر ثانية. وزادتها المحكمة تهمة الطيران ليلاً في الهواء التي كانت ترمى بها الساحرات، وذلك لأنها أقرت بأن محمداً رسول الله أسري به ليلاً وعرج به إلى السماء. وبعد هذه المحاكمة «الهزلية» وما رافقها من تعذيب وتنكيل، حكم على عالمة غرناطة بالحرق على الخازوق، وأحرقت في المكان الذي أحرقت فيه كتب جدها وهي بعد طفلة، لكنها في الطريق إلى الخازوق، تقدمت بكبرياء وثبات حتى لا يتشفى فيها أعداؤها [المترجم].

(4) الميرون زيت مقدس يمسح به الطفل أو الشخص عموماً عند تعميده، وهو أحد الأسرار المقدسة السبعة بالكنيسة الكاثوليكية [المترجم].

التسمية التقليدي المعروف بالفدا، ويطلقون على الطفل اسماً إسلامياً يستخدمونه فيما بينهم. ولم يقطع مورسكيون آخرون طقس ختان أطفالهم ودعوة أصدقائهم وأقاربهم لحضور الاحتفالات التقليدية التي تليه.

وكانت الوسائل نفسها تطبق عادة على الزواج. ففي بعض الحالات، كان المورسكيون يزدرون القران النصراني، ويتزوجون وفقاً لطقوسهم الخاصة. وكانت السلطات الدينية تجتهد عادة لقمع هذه الممارسات وإجبار المورسكيين على الزواج على الطريقة النصرانية، لكن كثيراً من العائلات كانت تتبع حفلات القران الكنسية الإجبارية بأعراسهم الإسلامية، وعادة في اليوم نفسه. وكانت أشد المعارك تدور دائماً حول الموتى، فلقد أصرت الكنيسة على ضرورة أن يتلقى المورسكيون المحتضرون مسحاً كاملاً بالزيت، وأن يقدموا اعترافاتهم الأخيرة، وكانت العائلات المورسكية، التي يفوتها إعلام كاهنهم المحلي بأن أطفالهم أو أقاربهم يحتضرون أو مرضى جداً، تغرّم وتعاقب. وأصر المورسكيون أيضاً على ضمان أن أحباءهم «ماتوا أندلسيين»، كي تدخل أرواحهم الجنة، وكانوا يدّعون دوماً أن أقاربهم ماتوا فجأة دون إعطائهم وقت لدعوة الكاهن.

استمر هذا الكفاح حتى بعد الموت، فممارسات الدفن الإسلامي مثل غسل الجثة بماء معطر أو لفها بملابس نظيفة، كانت محظورة بصرامة. وتأخر دفن المورسكيين أحياناً إلى أن يفتش الكهنة الجثة، للتأكد من أن أظافر يديها وقدميها لم تقص، وأنها ممدة على ظهرها ويداها مربعتان على صدرها وفق الطريقة النصرانية. وإذا لم يتمكن المورسكيون من دفن موتاهم في مقابر إسلامية، فإنهم يضعون الجثة أحياناً على فراش من الأحجار، كي لا تمس الجثة الأرض، ويباركها الفقيه إذا أمكن. وإذا كان حفار القبور المحلي من المورسكيين، فإن أقارب الميت كانوا يحاولون التأكد من دفنه في تربة طاهرة، بأن يطلبوا من الحفار حفر القبر أعمق من المعتاد.

وثمة حالات نبش فيها المورسكيون عن جثث دفنت في المقابر النصرانية لإعادة دفنها بالطريقة الإسلامية في تربة طاهرة. والعملية نفسها كانت تحدث بالترتيب العكسي، فهناك حالات حوكم فيها مورسكيون أمام محكمة التفتيش بعد أن أمر مسؤولون مرتابون بالنبش عن جثث أقاربهم، أحياناً بعد أعوام، ووجدوها ممدة على جانبها.

***

لم يكن من السهل الحفاظ على الرياء في مجتمع كان من الوارد فيه أن يجد المورسكيون أنفسهم مُبلغاً عنهم لمحكمة التفتيش على التثاؤب، أو عدم اتخاذ وضع الجسم الصحيح في الكنيسة، أو ارتداء ملابس نظيفة في أيام الجُمع. وكانت الحمامات العامة ممنوعة عموماً، لكن حتى المورسكيون الذين يغتسلون في بيوتهم كان يمكن أن يجدوا أنفسهم متهمين بأداء طقس الوضوء الإسلامي. وفي مدينة قونكة، اعتقلت المورسكية ماريا دي مندوسه María de Mendoza لأن شاهداً رآها تأخذ إبريق ماء من بستان وتبعها إلى بيتها، وفيه رآها، كما أخبر محكمة التفتيش، وهي «عارية تماماً كيوم ولدتها أمها، وكانت حافية على الرغم من أننا في الصيف- في يونيو أو يوليو- وكانت تنحني وتغسل شعرها»[4].

وبالنسبة إلى محكمة التفتيش، بدا هذا السلوك دليلاً على الغسل الديني الإسلامي للجسم كله؛ المعروف بالوضوء[1]. وفي مرسية في العقد السادس من القرن السادس عشر أحضر رجل مورسكي يدعى خوان دي سبوتشي Juan de Spuche أمام المحقق الفاسد كريستوبال دي سالاسار Cristóbal de Salazar بعد أن رآه شخص يغسل يديه ووجهه في ينبوع بعد تقطيع الخشب. اعترف المورسكي التعس بعد «التعذيب»

(1) حول معنى كلمة guadoc في الإسبانية ومعناها الأوسع من طقس الوضوء المتعارف عليه، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

بأنه يتبع المحمدية، واتهم عدداً من جيرانه، ثم سحب اعترافه بعد ذلك مباشرة. أمر سالاسار بتعذيبه مرة ثانية حتى تأذت يداه بشدة لدرجة أنه لم يعد يستطع أن يلبس ثيابه بنفسه، ومات في السجن بعدها بقليل.

هل كان دي سبوتشي يغسل نفسه بعد العمل فقط، أم كان يغسل يديه ووجهه استعداداً للصلاة؟ إن سجلات محكمة التفتيش مليئة بحوادث مماثلة اتُخِذ فيها سلوك عادي دليلاً على «اتباع محمد». وأبلغ عن المورسكيين -عادةً- إن رفضوا دعوة إلى الغداء في رمضان، أو لم تكن في بيوتهم صور دينية أو صلبان. وقد قُدم المورسكي الطليطلي خوان دي فلوريس Juan de Flores إلى محكمة التفتيش لأنه «لا يجلس عادة على كرسي أو يأكل على طاولة». وفي بعض مناطق إسبانيا كان المسؤولون النصارى يزورون بيوت المورسكيين دورياً في أوقات الوجبات للتأكد من أنهم لم يكونوا يأكلون وهم جلوس على الأرض.

غير أن تلك اليقظة لم تكن بهذه الشدة في كل الأماكن. ففي الضِياع النائية ببلنسية وأراغون الريفيتين، كان المورسكيون معفيين غالباً من هذا التلصص، وبدوا آمنين في حماية مُقْطِعيهم النصارى. لكن حيثما كانوا يعيشون بالقرب من النصارى، كان يمكن للملاحظة العابرة، أو الكلمة التي في غير محلها أن تجلب لصاحبها كارثة. ومن بين ضحايا العرض التكفيري في غرناطة عام 1571، راميرو البلنسي Ramiro de Placencia؛ المورسكي البرغشي الذي شوهد يتثاءب ويتذمر قائلاً «ليغلق محمد عيني»[1]، وموركسية تدعى مايور غرسية Mayor Garcia سألت: «كيف يمكن لامرأة متزوجة أن تبقى عذراء بعد أن تلد؟» في أثناء مناقشة حول

(1) إما أن التهمة لفقت للرجل، لأن المسلمين لا يدعون محمداً وكأنه الله، أو أن المسيحيين سحبوا معتقداتهم على المسلمين، أو أن ذلك مجرد نوع من «العدوى اللاهوتية»، التي كان رجال الدين المسيحيون يخشون منها، لكن في الاتجاه العكسي [المترجم].

مريم العذراء. وجُلِدت لويسا ايرنانديث Luisa Hernandez المورسكية من بلدة تيناخاس Tinajas بقونكة أمام محكمة التفتيش، لأنها فقدت أعصابها وصاحت: «الأندلسي الواحد يساوي عشرة من النصارى» حين سمعت طفلاً مورسكياً يهان في الشارع. وأبلغ عن فرانثيسكو القرطبي Francisco de Córdoba جيرانُه النصارى لأنه رفض أكثر من مرة دعوة للغداء في رمضان. واعتقل البائع المورسكي خورخي دي بيرالتا Jorge de Peralta، لأنه همس باسم «محمد» في نوبة غضب بعد أن رفض شخص أن يشتري بضاعته.

وقبلت المورسكية إيزابيلا غاردا Isabella Garda دعوة للغداء من جارتها النصرانية، وبعد الغداء أخبرتها جارتها بأن الطعام احتوى على لحم خنزير. وعلى الفور وضعت إيزابيلا أصابعها داخل فمها حتى الحنجرة وتقيأت، فأبلغت الجارة محكمة التفتيش عنها. إننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان اشمئزازها رد فعل طبيعي غريزي لمحرم ديني/ ثقافي، أم دفعه القلق على خلاص روحها إذا أكلت طعاماً محرماً. وهناك بالتأكيد مورسكيون كثر وجدوا أنفسهم في مأزق مماثل لمأزق الحداد المسّن، الذي اتهمته محكمة التفتيش في عام 1528 بالامتناع عن شرب النبيذ وأكل لحم الخنزير و«الوضوء في أوقات محددة»، وقد احتج بأنه كان في الخامسة والأربعين وقت تعميده، لذلك لم يتمكن من استساغة لحم الخنزير.

* * *

وإذا كان بعض المورسكيين لم يستطيعوا أن يقطعوا عادات اتبعوها دهراً طويلاً، أو لم يرغبوا في ذلك، فإن هناك آخرين اختاروا عن قصد أن «يعيشوا كأندلسيين». فعل بعض المورسكيين ذلك لخوفهم من اللعنة الأبدية، مثل خوان كاراثون Juan Carazón المورسكي من قونكة، الذي اعترف بأدائه طقس الاغتسال، كي ينقذ نفسه من «نار جهنم». وخضع

آخرون لتأثير فقهائهم أو أقاربهم أو ضغط جماعة الأقران، الذين أقنعوهم بالثبات على دينهم. وتمسك بعضهم بماضيه الإسلامي كرد فعل معاند للاضطهاد. وأياً كانت الدوافع، فقد ظل موريسكيون كثيرون يعيشون هذا الوجود المؤلم والخطر طوال حياتهم، ونجحوا في نقل هذه الهويات الثنائية نفسها إلى أطفالهم وأحفادهم.

تتأكد الروعة في هذه الاستمرارية بالنظر إلى عزلة الكثير من الجماعات الموريسكية عن العالم الإسلامي الأكبر. فَهُم دون مساجد أو مؤسسات دينية، وبعد حرق كتبهم وحظرها، ودفع زعمائهم الدينيين إلى العمل تحت الأرض، وجد موريسكيون كثيرون أنفسهم أمام المعضلة، التي وصفتها الموريسكية أنا دي باديا Ana de Padilla حين قالت لمحكمة التفتيش «إنها لم تكن تؤدي الطقوس الأندلسية لأنها لا تعرفها، لكن لديها الرغبة في أدائها لو عرفتها». وحاول بعض الموريسكيين أن يلتقطوا هذه الطقوس والاعتقادات الممنوعة بالاستماع بعناية إلى القوائم المفصلة بالممارسات الإسلامية المحرمة، المتضمنة في مراسيم محكمة التفتيش. وقام آخرون بتعليم بعضهم ما عرفوه أو درسوه على الفقهاء والوعاظ المتجولين. وحافظ كثيرون منهم على الاتصال بماضيهم الإسلامي عبر الأدب السري المعروف بـ«الألخامية»، المشتقة من كلمة «الجماعة» العربية[1]. كانت هذه الكتابات تحوي نصوصاً مكتوبة يدوياً باللغة القشتالية أو القطلونية أو البرتغالية العامية، لكن باستخدام الحروف العربية لأسباب لم تتضح بعد.

---

(1) الألخامية Aljamiado هي اللغة القشتالية مكتوبة بحروف عربية، وتشير إجمالاً إلى أي من اللغات الرومانسية مثل المستعربية أو البرتغالية أو الإسبانية أو اللاتينية مكتوبة بحروف عربية، والاسم مشتق- وفقا للمؤلف- من كلمة «الجماعة» العربية، ويعربها بعضهم إلى «العجمية» على أساس أن الكلمة الأجنبية تحريف لكلمة ajamiyah [أعجمية] العربية، وليس كلمة «الجماعة، كما عند مؤلفنا. ونظراً للاختلاف حول الأصل العربي للكلمة، فقد آثر المترجم نقحرتها، بمعنى كتابة الكلمة الأجنبية بحروف عربية، إلى الألخامية [المترجم].

ويدفع بعض الدارسين بأنهم استخدموا الحروف العربية لإخفاء محتواها، ويجادل آخرون بأن استخدام الحروف العربية جاء من باب تأكيد المقاومة الثقافية، في حين تعتبر مدرسة فكرية ثالثة هذه الكتابات مثالاً آخر على التهجين الثقافي الذي كان خاصية أصيلة للأندلس.

والقول إن استخدام الحروف العربية كان شكلاً من الإخفاء لا يبدو معقولاً، لأن محكمة التفتيش كانت تعد كل المخطوطات الألخامية دليلاً على ممارسة «الديانة المحمدية» بغض النظر عن محتوى المخطوطات، ومَنْ تضبط في حوزته كان يتعرض للاعتقال والعقاب. ولا بد أن هذه المحاذير جعلتها في أعين بعض ممن كتبوها وقرأوها شكلاً من أشكال المقاومة. وفي القرن السادس عشر، صودر الآلاف من النصوص الألخامية وأحرقت، وبخاصة في أراغون، التي لم تكن اللغة العربية معروفة فيها. وكانت هذه المخطوطات تكتشف في تجاويف الجدران وتحت الأرضيات والسجاجيد، وفي حالة واحدة بين أسلحة مخبأة في كهف أراغوني. ومع ذلك، فلم يكن من الصعب دائماً العثور عليها، إذا صدقنا ثيرفانتس في رواية دون كيخوتة. ففي الجزء الأول من الرواية يقطع المؤلف ثيرفانتس معركة بطل روايته مع عملاق، ليخبر القارئ بأن بقية الرواية تأليف مشترك «لترجمة» عن مخطوطة عربية كتبها «المؤلف العربي واللامنشي»[1] سيدي حامد الجيلي[2]. يذكر ثيرفانتس أنه اكتشف هذه المخطوطة

(1) نسبة إلى منطقة لامنشا La Mancha في قشتالة [المترجم].

(2) Cide Hamate Benengeli ثمة اختلافات حول لقب «سيدي حامد»، فثمة من يقول إنه «الأيلي» (ابن الأيل)، ومن يقول إنه «الباذنجاني» نسبة إلى الباذنجان، الذي كان أكلة مفضلة في طليطلة وقت كتابة الرواية. وثمة اختلاف آخر أهم، إذ يذهب بعضهم– ومنهم الكاتب عبدالرحمن بدوي– إلى أن الجزء الثاني من الرواية لم يكتبه ثيرفانتس وإنما سيدي أحمد الجيلي، وهو ما يتأكد من عبارة «تأليف مشترك 'لترجمة' عن مخطوطة عربية كتبها ....»، فالعمل الأدبي إما أن يكون ترجمة أو تأليفاً! [المترجم].

مصادفة في سوق طليطلة، حين كان يثرثر مع صبي يبيع «كتباً جلدية»، منها كتاب «تعرفت على حروفه العربية». يفرح ثيرفانتس بهذا الاكتشاف ويبحث عن «أندلسي ناطق بالإسبانية» ليترجم ما سيدرك معظم قرائه أنها مخطوطة ألخامية محرمة، كي يكمل سرد مغامرات دون كيخوتة[5].

كان قمع محكمة التفتيش للمخطوطات الألخامية فعالاً جداً، لدرجة أن وجودها طواه النسيان حتى جاء القرن التاسع عشر، حين اكتشف عدد من هذه المخطوطات بالصدفة في أثناء أعمال البناء. ففي حادثة وقعت في أراغون تفوح منها رائحة السخرية، أنقذ كاهن أحد هذه الكتب للأجيال التالية، حين أوقف مجموعة من الصبية المحليين عن تمزيق صفحاتها وإلقائها في محرقة. وحين ترجمت المخطوطات الألخامية أول مرة على يد المستعرب الإسباني باسكوال غايانغوس Pascual Gayangos ودارسين آخرين في القرن التاسع عشر، أبدى بعض المفكرين الإسبان أملاً في أن تشكّل هذه المخطوطات إنديزاً أدبياً مفقوداً[1] مليئاً بالروائع الأدبية غير المكتشفة. لكن هذه التوقعات لم تتحقق حتى الآن[6]. ومع أن بعض الشعراء المورسكيين كتبوا بالألخامية، فإن الشاغل الأساسي في هذه الكتابات كان البقاء الثقافي والديني، وليس التعبير الجمالي. وأغلب النصوص التي كشفت إلى الآن تتكون من مختارات أدبية مجهولة وتجميعات من مصادر أخرى كان الهدف الأساسي منها هو الحفاظ على العالم الديني والثقافي، الذي كان معرضاً لخطر الانقراض. وتتراوح محتوياتها من مقتطفات من القرآن، وتفسيرات

(1) الإنديز Indies أو الإنديز الغربية الإسبانية، بمعنى جزر الهند الغربية إذ اعتقد الإسبان لدى اكتشافها أنهم وصلوا إلى الهند، هو الاسم الذي أطلقه الإسبان على مستعمراتهم في منطقة الكاريبي التي تكونت من كوبا وهايتي وجمهورية الدومينيكان وبروتوريكو وجامايكا، التي كانت أول ما اكتشفه كريستوفر كولومبوس في الأمريكتين، وأولى المستعمرات الأوروبية هناك. والإشارة هنا تتضمن أن تكون المخطوطات الألخامية اكتشافاً في مجال الأدب في حجم اكتشاف الإنديز في مجال السياسة والجغرافيا السياسية [المترجم].

قرآنية، وكتابات في التشريع الإسلامي، وروايات فلكلورية لحياة النبي محمد، إلى تجميعات من العلاجات الطبية والرقى والتعاويذ السحرية مثل كتاب «الأقوال العجيبة» أو تقويهات متنوعة مثل «كتاب الكهانة»[7].

وتضم بعض النصوص أيضاً وصفاً لرحلات وسفرات وكتب جدل معادية للنصرانية وأساطير وملاحم من التاريخ الإسلامي المبكر. ويعرض كثير منها أبطالاً مسلمين أسطوريين وُهِبوا قوى فائقة ينتصرون على أعداء بشريين وشيطانيين، مثل علي ابن عم النبي وزوج ابنته والقائد المسلم بالقرن السابع؛ خالد ابن الوليد. ومن أكثر النصوص الألخامية شعبية حكاية «كركايونة العذراء مقطوعة اليدين»، التي هدتها إلى الإسلام حمامة ذهبية، وقطع أبوها الوثني يديها لإسلامها. طُرِدت كركايونة Carcayona من بيتها بسبب معتقداتها، وعاشت في كهف في رعاية الحيوانات البرية إلى أن وقع ملك أنطاكية في حبها وتزوجها. وحين دفعتها زمرة غيورة في بلاط الملك إلى البرية مرة أخرى، أنقذتها صديقاتها الحيوانات وأعيدت يداها في معجزة، مكافأة لها على إيمانها وورعها قبل أن ينقذها زوجها أخيراً ويعيدها إلى العرش[8].

كانت هذه الحكايات الدينية، بما تحويه من ثبات ونهايات سعيدة، حين تُقرأ جهرياً في التجمعات العائلية والاجتماعات السرية تجلب بلا شك العزاء والأمل لجمهورها، لكنها كانت أيضاً وسيلة للتمسك بماض إسلامي تلاشى كلياً من سطح الحياة الإسبانية. وهذا الإحساس بالعيش في عالم متلاش اتخذ تعبيراً محزناً عند المؤلف المجهول المعروف بالشاب الأريفالي، الذي قابلناه في غرناطة، والذي لا يُعرَف عنه غير أنه من بلدة أريفالو القشتالية، وأمه كانت على ما يبدو ممن تحولن إلى النصرانية بصدق. عاش الشاب وكتب في النصف الأول من القرن السادس عشر، وجاب إسبانيا في بحث روحي وحج إلى التراث الإسلامي المفقود للأندلس.

تحوي رواية الشاب لهذه الرحلات بعض اللمحات الكاشفة عن الحياة السرية للموروسكيين، بتجمعاتها الدينية السرية ومناقشاتها الدينية المكروبة، حول ما إذا كانت عباداتهم المرتجلة تكفي لجلب الخلاص. إنه عالم الحكيمات البطوليات مثل مورة الأبذية[1]، التي لا تقهر، والتي التقى بها الشاب في رحلته إلى غرناطة في الأعوام الأولى من القرن. ومورة الفقيرة التي قارب عمرها المئة عام، الفاقدة البصر تقريباً، وغير القادرة على السجود للصلاة، تمثل السلطة الدينية في جماعتها، وتثير قوتها إعجاب ضيفها الشاب وتهبه إلهاماً:

> كانت مورة تحكم غرناطة وكل البلاد المحيطة بها. علماً بأنها لم تتزوج، وقيل إنها لم تعرف أي رجل قط. وكان عامة الناس بالمنطقة يقولون إن مورة تمتلك رصيداً في أمور ديننا وسنتنا النبوية أكثر من أي شخص آخر... وكانت معروفة لكل الأمم، لأنها أرتني رسائل من المدارس الفقهية الأربع جميعها، وأخرى من مفتين وعلماء كبار. لم تسمح لنفسها قط بالركون إلى الراحة، لأنها قالت إن أسمى أشكال الجهاد هو أن نحفظ ديننا في أراض لا يحكمها مسلمون[9].

وفي سرقسطة يصف الشاب اجتماعاً سرياً «للمسلمين المكرمين»، الذين أعطوه زكاة لمساعدته في الحج إلى مكة. وبعد صلاة المغرب، علق بعض هؤلاء العلماء قائلين: «كم أصبح ديننا مهملاً»، وطلبوا منه كتابة تفسير للقرآن. وقبل الشاب التكليف، واختتم وصفه للاجتماع بالدعاء التالي:

> لا يفقدن أحدكم إيمانه، لأن الله خلقنا من عدم، ونحن

(1) Mora of Ubeda نسبة إلى مدينة أبذة الواقعة في مقاطعة جيان بأندلوسيا [المترجم].

عباده. دعونا نرجو رحمته الإلهية التي تعلو كل شيء، لأننا لو كنا نعاني الآن بسبب ذنوبنا، فسوف يأتي زمن يغمرنا فيه حبه المقدس ويمنحنا فضلاً منه بدفن دولة الكفار وإعادة عرش الإسلام من أجل المسلمين في هذه الأرض. لذلك دعونا لا نتوقف عن الدعاء له، لأنه وعدنا بأكثر مما أعطانا حتى الآن، إنه القوي القدير[10].

هذا النداء الباطني «لخدمة الله وخدمة المسلمين جميعاً» كان دعوة خطرة، لأن المسلمين الورعين الملتزمين كانت تنتظرهم دوماً معاملة من محكمة التفتيش أشد من معاملتها لمن يعتقلون على المخالفات العادية. ومع أن التاريخ لا يسجل مصير الشاب، فإن شوقه الحار إلى نهضة الإسلام كان يشاركه فيه بلا شك كثير من الموريسكيين. واعتبر بعضهم الظلم الذي يتعرضون إليه في إسبانيا اختباراً لإيمانهم، وفسر آخرون- تماماً كما فعل النصارى من قبلهم- انتصار أعدائهم عليهم أنه عقاب من الله على فسقهم وقلة إيمانهم. واستمد بعضهم العزاء من النصوص الأخامية النبوئية المعروفة بالجفور[1]، التي تنبأت بأن مسلمي إسبانيا يجب أن يتحملوا المعاناة قبل أن يتحرروا في النهاية. وتوقعت بعض هذه النبوءات أن تغزو الجيوش التركية أو جيوش شمال إفريقيا إسبانيا في أعوام السعد في التقويم التنجيمي، ورأى بعض الموريسكيين تأكيداً لهذه النبوءات في النجاحات البحرية للجيش التركي في النصف الأول من القرن. وردد آخرون النبوءات الألفية[2] الموجودة في النصوص النبوئية النصرانية في تلك الفترة، وتنبؤوا بأن فتحاً إسلامياً جديداً لإسبانيا سيليه

(1) jofores من كلمة «الجفر» العربية، التي تعني «التكهن» أو «الكهانة»، ومنها علم الجفر [المترجم].

(2) راجع حاشية سابقة للمترجم حول عقيدة العصر الألفي السعيد لدى المسيحيين[المترجم].

الانتصار العالمي للإسلام.

***

لا سبيل أمام المؤرخ لمعرفة عدد المورسكيين الذين عاشوا هاتين «الحياتين المتوازيتين» بعد تنصيرهم، لكن مسلمي إسبانيا السابقين لم يكونوا جميعاً يمارسون التقية أو يحلمون بتحررهم الوشيك. فمنهم من اعتنق النصرانية صادقاً مثل خوان أندريس Juan Andrés الفقيه البلنسي السابق، الذي اعتنق النصرانية في عام 1487 وأصبح قسيساً، واليسوعي الغرناطي خوان ألبوتودو. وكان هناك أعضاء سابقين في الأرستقراطية النصرية في غرناطة، مثل عائلتي بنيغش والثغري، بلغوا مكانة عالية في الإدارة النصرانية بعد الغزو. وعمل بعض هؤلاء النبلاء وسطاء بين غرناطة النصرانية والمورسكية، مثل فرانثيسكو نونيث مولاي Francisco Núñez Muley الغلام السابق لرئيس الأساقفة طلبيرة، الذي أخلص في خدمة الإدارة النصرانية حتى نال اللقب التشريفي «مولاي» (وهو لقب محترم يعطى عموماً لأعضاء طبقة الوجهاء مشتق من كلمة «مولى» العربية) في إشارة إلى استمرار منزلته العالية في الجماعة المورسكية.

وهناك أيضاً مورسكيون غرناطيون ارتقوا من بدايات متواضعة نسبياً إلى مواقع رفيعة في المجتمع النصراني، مثل ميغيل دي لونا Miguel de Luna وألونسو ديل كاستيو Alonso del Castillo اللذين تخرجا من جامعة الطب، التي أنشئت حديثاً في غرناطة. وأصبح ابن المورسكي المُنَصّر ديل كاستيو مترجماً للغة العربية عمل في البداية مع مجلس مدينة غرناطة وبعد ذلك مع محكمة التفتيش. وأصبح المترجم الرسمي لفيليب الثاني، وكُلّف مع ميغيل دي لونا بمهمة فهرسة مجموعة المخطوطات العربية في قصر الإسكوريال. وفي أماكن أخرى من إسبانيا، كان هناك مورسكيون مثل عائلة زوزالا Zauzala من بينا دي إبرو Pina de Ebro بأراغون، خدم

أفرادها في الإدارة النصرانية المحلية على مدى أجيال متعاقبة، وكوّنت ممتلكات كبيرة من الأراضي والماشية. وكانت عائلة زوزالا من الثراء ما مكّنها حين حُكِم على فرد منها بالإعدام على القتل والسرقة في عام 1532 من أن تعرض إطعام المدينة كاملة «بكل ما يمكن أن تأكله لمدة عام» في مقابل تخليصه من الإقطاعي المحلي، وهو العرض الذي قوبل بالرفض[11].

وفي مدينة آبلة بقشتالة كان هناك موركسيون أثرياء تمتعوا بحقوق التصويت في المجلس البلدي، وخدموا في المليشيا المحلية. وفي أسفل السلم الاجتماعي في وادي جلوقة Jiloca Valley بأراغون الدنيا، كان الفلاحون الموركسيون يأتون بأطفالهم بانتظام كي يعمّدوا في الكنيسة، ويطلبون من الكهنة أن يبالغوا في دهن أقاربهم المحتضرين بالزيت المقدس. وفي غرناطة في عام 1550، خرج النصارى والموركسيون معاً يبكون فقد قديس محلي يدعى جون الإلهي John of God؛ مؤسس مستشفى عامة للفقراء كان مرضاها وموظفوها المتطوعون من النصارى القدامى والموركسيين، ووصف مراقب محلي كيف «خرج الجميع، حتى الموركسيون، يبكون ويتحدثون عن إحسانه العظيم»[12]. وفي مالقة، رقص الموركسيون الزمرة بموافقة من الإدارات المحلية احتفالاً بنهب شارل لتونس.

وفي مايو 1539، ماتت زوجة شارل المحبوبة إيزابيلا بالحمى في أثناء الولادة، وأخذت جثتها المتعفنة إلى غرناطة كي تدفن في المصلى الملكي، وهي الملكة نفسها التي أصدرت قبل عقد تقريباً سلسلة من المراسيم القمعية بحق الموركسيين. لكن حين وصل موكبها إلى المدينة، انضم آلاف الموركسيين إلى الحشود الحزينة، منهم ثلاثة آلاف امرأة موركسية أخذن يلوحن بملحفاتهن البيضاء فوق رؤوسهن بجانب الأعلام المثلثة

الملونة للطوائف الحرفية النصرانية، وطفقن «يصرخن ويمزقن شعورهن وعباءاتهن»، كما ذكر مراقب نصراني متعجباً. على أننا لا نستطيع أن نعرف كم من هؤلاء المورسكيات كن يمارسن الإسلام سراً، لكن من الواضح أن هويتهن الثقافية الإسلامية لم تتعارض مع ولائهن السياسي لملكة نصرانية.

ثمة مؤشرات أخرى من مناطق إسبانية أخرى على أن المورسكيين تمكنوا من تحقيق صعود مماثل. ولعل من المغري أن نتساءل ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن السلطات سمحت للمورسكيين الأكثر سخطاً بمغادرة البلاد في البداية، كما فعلت مع اليهود، واتبعت برنامجا ليناً للتبشير. هل كان الباقون سيشكّلون أقلية عرقية وثقافية دائمة في دولة نصرانية؟ أم كان ولاؤهم الديني وثقافتهم وتقاليدهم ستتلاشى في النهاية، وهو ما كان قد بدأ فعلا في بعض مناطق البلاد؟

إنها أسئلة تأملية في الأساس، لكنها تستحق أن تطرح، كي نذكّر أنفسنا وحسب أن هناك طرق عمل أخرى متاحة لحكام إسبانيا غير تلك التي اتبعوها فعلاً. كان هناك بالطبع بديل آخر قد يبدو واضحاً للعالم الحديث، الذي اعتاد على مفهوم الدولة العلمانية والمحايدة دينياً، القائمة على حرية الضمير، باعتبارها حقاً لكل مواطنيها. مع العلم بأن التسامح الديني لم يكن مفهوماً غائباً في القرن السادس عشر. ففي الإمبراطورية العثمانية، نُظِمت الجماعات الدينية غير المسلمة في وحدات إدارية عُرِفت بالملل، سمح لأعضائها بالاستقلال الديني ودرجة معينة من السلطة السياسية والمدنية والتربوية على جماعاتهم في ترتيب يوازي نموذج أهل الذمة القرآني. فقد أدمج اليهود والجماعات الأرثوذكسية اليونانية والأرمينية-الجورجية في نظام الملل ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية الشاسعة المتعددة الديانات والثقافات. ففي مدينة سالونيك اليونانية، كان للجماعات اليهودية والأرثوذكسية اليونانية والإسلامية

ممثلون منفصلون للتوسط مع الحكومة المركزية في القسطنطينية. وفي أنحاء الإمبراطورية كافة، كان أعضاء كل الطوائف يحاربون جنباً إلى جنب في جيوش السلطان. وفي عام 1608، وجدَ مبعوث خاص من النمسا الهابسبورغية مر ببلغراد الواقعة تحت السيطرة العثمانية مزيجاً من السكان المسلمين واليهود والغجر والنصارى الأرثوذكس وحتى الرهبان الفرانسيسكان يقيمون القداس في كنيسة محلية.

وفي الهند منح الإمبراطور المغولي أكبر حكماً ذاتياً مماثلاً للهندوس والنصارى البرتغاليين. وبلغ التزام أكبر بالتعددية الدينية أنه سمح للمبشرين اليسوعيين بالعمل في الهند، وسمح لهم حتى بتعليم أحد أبنائه. كان ذلك كله مختلفاً تماماً عن أوروبا التي رفض حكامها السماح بحرية الضمير، حتى للنصارى ذوي الرؤى الدينية المخالفة. ومع ذلك، فحتى في وسط الصراع العنيف بين أوروبا البروتستانتية والكاثوليكية مرت فترات من التعايش المؤقت. ففي عام 1562، أصدرت كاثرين دي ميديشي مرسوم التسامح، الذي أوقف لفترة اضطهاد الهوغونوت في فرنسا، قبل أن تطلق مذبحة عيد القديس برثولماوس[1] العنان لأولى الحروب الدينية الفرنسية. وفي عام 1598، انتهت هذه الحروب بإعلان هنري الرابع مرسوم نانت[2]، الذي منح حقوقاً مدنية محدودة للهوغونوت.

وصدرت تشريعات مماثلة في أوقات مختلفة من القرن السادس

(1) مجموعة من الاغتيالات الموجهة تلتها موجة من أعمال العنف من الكاثوليك الرومان ضد الهوغونوت ثم الحروب الدينية الفرنسية، بدأت في الثالث والعشرين من شهر أغسطس 1572 في عشية عيد القديس برثولماوس، يعتقد أنها حدثت بتحريض من كاثرين دي ميديشي نفسها [المترجم].

(2) مرسوم نانت Edict of Nantes مرسوم أصدره ملك فرنسا هنري الرابع في الثالث عشر من أبريل 1598، نسب إلى مدينة نانت الواقعة في بريتاني بغرب فرنسا التي أعلن فيها، أعطى فيه الملك الفرنسي للبروتستانت الكالفينيين المعروفين بالهوغونوت حقوقهم الأساسية في فرنسا، التي كانت لاتزال كاثوليكية وقتذاك [المترجم].

عشر من جانب الحكام الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا وبولندا وترانسلفانيا. وفي عام 1571، منح ملوك هابسبورغ النمساويون أنفسهم ترتيباً خاصاً للنبلاء في النمسا الدنيا كي يتعبدوا كبروتستانت.

وكان هناك أيضاً الواعظ وعالم الدين الفرنسي الفذ سباستيان كاستليو Sebastian Castellio (1515 -1563)، الذي احتج على إعدام عالم الدين والفيلسوف والطبيب الإسباني ميغيل سيربيتوس Miguel Servetus في جنيف الكالفينية بتهم الهرطقة والكفر، لإنكاره مفهوم الثالوث المقدس. وجرى إعدام سيربيتوس في الأساس بجهود من جون كالفين نفسه، الذي شجبه كاستليو بطريقة انفعالية في كتيبه «هل يجب إعدام الزنادقة» (1554)، الذي أدان كل أحكام الإعدام من هذا النوع، ودفع بأن «حرق إنسان لا يصون مذهباً، لكنه يقتل إنساناً»[13].

وسيستغرق الأمر قروناً طويلة من الصراع الديني الدامي والتطور السياسي والاجتماعي قبل أن تقبل هذه الفكرة كمبدأ دائم في أوروبا. وبالنسبة إلى معظم الدول الأوروبية في القرن السادس عشر، كان التماثل الديني «أداة للحكم» instrumentum regni تضفي شرعية على سلطة الحكام على رعاياهم، وتُظهِر قوتهم خارج حدودهم. وقد ترسخ هذا المبدأ بقوة لدى سلالة هابسبورغ بتطلعاتها إلى المملكة الكاثوليكية العالمية، وكان أيضاً مكوناً أصيلاً في العقيدة الإمبراطورية الإسبانية التي كانت تقدم فتوحاتها الخارجية دائماً باعتبارها ضرورة دينية نيابة عن الدين الكاثوليكي. وهذا التقارب بين الدين والدولة أساسي لفهم رفض إسبانيا لتقاليدها الأكثر تسامحاً وتحولها إلى مجتمع وصفه رودريغو مانريك Rodrigo Manrique ابن رئيس محكمة التفتيش في رسالة إلى صديق منفي في عام 1533 وصف بلاده فيها بأنها «أرض الحسد والغرور و... البربرية ... لا يمكن لأحد فيها أن يمتلك معرفة سطحية بالأدب إلا ويجد نفسه

متهماً بالهرطقة والإثم والتَهَوّد».

إن الحكام الإسبان- على نحو ما كانت عليه حال نظرائهم في أوروبا كلها- يعتبرون الانشقاق الديني تهديداً ممكناً لسلطتهم السياسية. وبالنسبة إلى المجتمع الذي رأى في انتصارات إسبانيا الأخيرة على الساحة الدولية إشارة إلى التأييد الإلهي، كان النقاء الديني أساسياً لضمان استمرار قوة إسبانيا وهيبتها في العالم الخارجي. ومن أجل إنجاز هذا الهدف، كان حكام إسبانيا مستعدين لنقض نموذج التعايش الذي ساد قروناً، وكان لايزال باقياً في الذاكرة الحية لرعاياهم. فعلى مدار القرن السادس عشر، قاضت محكمة التفتيش المورسكيين والبروتستانت مراراً وتكراراً على إبداء الاعتقاد المخزي بأن «كل شخص يمكن أن يجد خلاصه وفقاً لشريعته». فبالنسبة إلى الكنيسة والتاج، كانت أمثال هذه الآراء هرطقية وخطرة. ومع استبعاد خيار الحرية، وجدت السلطات نفسها في مواجهة المهمة الرهيبة المتمثلة ليس فقط في فرض التماثل الديني الخارجي على السكان المورسكيين الذين دخل غالبيتهم كرهاً في النصرانية، وإنما ضمان أن يصبح المورسكيون نصارى ملتزمين بالكامل «من داخل قلوبهم» أيضاً.

وبحلول منتصف القرن الخامس عشر، بدأ كثير من المسؤولين الإسبان يرتابون في إمكانية بلوغ هذا الهدف. وإلى حد ما كانت الهدنة الفعلية بين المورسكيين والسلطات الإسبانية التي تلت عمليات التنصير في بلنسية ممكنة بسبب غياب شارل المتكرر عن إسبانيا. مع أن انشغال الإمبراطور بأمور أكثر إلحاحاً من الحالة المورسكية لم يكن يعني أنهم قد طواهم النسيان تماماً. وفي عام 1555، اتخذ شارل الخطوة غير العادية بالتنازل عن عرشه وتسليم التاج لابنه فيليب. وفي وصيته السياسية للملك الجديد، أمر شارل فيليب بأن يشن حرباً شديدة على الهرطقة، ويدعم محكمة

التفتيش، وأن «يرمي الأندلسيين خارج ممالكه». واعتزل شارل الذي أوهنت جسده أمراض السكر والنقرس والأرق وأعوام الحرب، الشؤون الدنيوية ليقضي آخر أيامه في معتزله الرهباني في يوست Yuste. ومات عام 1558، وبموته فقط تحرر من إخفاقه في توحيد العالم النصراني. وعلى مدى معظم عهده، كانت المواجهة بين الموركسيين والسلطات الإسبانية متقطعة ومحدودة نسبياً. لكن كل ذلك تغير سريعاً، حين عاد فيليب الثاني إلى إسبانيا من منطقة الفلاندر[1] ليقيم بشكل دائم في ممالكه الإسبانية الهابسبورغية.

(1) منطقة تاريخية تأسست على أجزاء من بلجيكا وفرنسا وهولندا الحالية، تأسست في عام 862 ككونتية في غرب فرنسا، وتتابع عليها الغالبون الأجانب، حتى انتقلت تبعيتها في عام 1384 إلى دوقية بيرغندي، ثم في عام 1477 إلى آل هابسبورغ، وفي عام 1556 إلى ملوك إسبانيا، قام أهلها بثورات كثيرة ضد الحكم الإسباني، قمعها الإسبان بوحشية، وكان من أشهر قاهريهم الدوق ألبة «مطرقة ثوار الفلاندر»، وهو اسم يذكّرنا بالقديس جيمس «قاطع رقاب الأندلسيين» [المترجم].



10

سنوات خطرة

(1568–1556)

دخلت إسبانيا بتتويج فيليب الثاني (1527–1598) فترة عاصفة من تاريخها كانت لها نتائج درامية على المورسكيين. فعلى خلاف أبيه، ولد فيليب ونشأ في إسبانيا، وسبق أن حكم البلاد كوصي في مناسبتين، وكانت عودته النهائية في سبتمبر 1559 تأكيداً جديداً من جانب سلالة هابسبورغ على ممتلكاتهم الإسبانية. تزامن ذلك مع فترة أزمة سياسية ودينية شديدة في أوروبا، بدا فيها أن الانشقاق الديني بين البروتستانتية والكاثوليكية دائم، وكانت الانقسامات الدينية تتسع بين الدول وداخلها. وجدت الحكومة الإسبانية نفسها في مواجهة صراع ديني مرتقب، وكانت تخشى في الوقت عينه من التأثير التحريضي للوثرية داخل إسبانيا نفسها، ولذلك اتخذت عدداً من الإجراءات القمعية لغلق البلاد في وجه التأثيرات الدينية الأجنبية، كان من بينها الرقابة على الكتب الأجنبية والقيود على الطلاب الإسبان الذين يدرسون بالخارج.

شهدت الفترة نفسها اشتداد إرهاب محكمة التفتيش. فلم يكد فيليب يرجع إلى إسبانيا، حتى شاهد إحراق تسعة وعشرين لوثرياً في عرض تكفيري ضخم في بلد الوليد بعد اكتشاف خلايا بروتستانتية مزعومة في

تلك المدينة، وأيضاً في إشبيلية. وكان معروفاً عن «أقوى ملك في العالم النصراني» الحماسة الشديدة في أمثال هذه العروض. ففيليب الأب الدافئ والحنون، المحب للموسيقى، وذواقة الرسم الفلمنكي، كان أيضاً خصماً عديم الرحمة للهرطقة، حتى إنه قال للبابا بيوس الرابع في عام 1564 «إنني أفضل أن أفقد كل ممالكي وأن أفقد حياتي مئة مرة لو استطعت على أن يلحق أي أذى بدين الله الحقيقي، فأنا لن أكون يوماً حاكماً لزنادقة».

أدى تصميم فيليب على تبني الأصولية الدينية الكاثوليكية إلى جر إسبانيا إلى سلسلة من الحروب المنهكة ضد مجموعة من الأعداء، من إنجلترا البروتستانتية والثوار الكالفينيين الهولنديين إلى الهوغونوت الفرنسيين. لكن في مقابل أبيه، الذي أنهك نفسه في ساحات المعارك الأوروبية، كان فيليب محارباً بيروقراطياً، خاض حروبه من وراء طاولة، لكنه لم يكن أقل من أبيه شراسة في دفاعه عن الكاثوليكية. على أن الدين لم يكن السبب الوحيد للحرب المتواصلة التي ميزت عهد «الملك الحصيف»، وكذلك لم تكن إسبانيا مسؤولة وحدها عن هذه النزاعات، لكن دور إسبانيا التي نصبّت نفسها فيه باعتبارها سيف معاداة الإصلاح، وفر تبريراً لحملاتها العسكرية في أوروبا وخارجها.

ألهبت هذه الحروب أيضاً مزاج النزعة القومية الدينية النصرانية ورُهاب الأجانب داخل حدود إسبانيا، إذ حاول حكامها تقديم إسبانيا باعتبارها المعقل الوحيد للعقيدة الصافية. وبهذا المعنى كتب فراي أنطونيو بلتاسار ألباريث Fray Antonio Baltasar Alvarez عام 1590 أنه «في عالم اليوم برمته لا يوجد جزء لا يُغضَب فيه إلهنا ويساء إليه غير هذه الزاوية الصغيرة المعروفة بإسبانيا، التي خلقها في معزل عن العالم لتكون منزلاً لرحمته العظيمة»[1]. وتزامنت السنوات الأولى من عهد فيليب مع الجلسة الأخيرة لمجمع ترنت الكنسي المسكوني (1545–1563)، التي فصّل فيها

كبار علماء الدين الكاثوليك ورجاله من مختلف أنحاء أوروبا رداً مشتركاً على التحدي البروتستانتي. وفي أثناء هذه المشاورات المعقدة، أصدر المجمع 156 مرسوماً حددت المكونات الأساسية للمذهب والطقوس الكاثوليكية، من الأسرار المقدسة والصلوات إلى قديسيه وتراتيله وأعياده. واشتملت مراسيم المجمع أيضاً على سلسلة من المقترحات لضمان التقيد بهذه المعايير، منها عمليات التفتيش المنتظمة من جانب الأساقفة لأبرشياتهم والمراقبة الشديدة من جانب الكهنة للالتزام الديني لرعيتهم، مثل حضور القداس، والاعتراف، ومراسيم المعمودية.

لعبت الوفود الدينية الإسبانية دوراً مهماً في مختلف جوانب النقاش في مجمع ترنت، وبخاصة في الجلسة النهائية الحاسمة في عامي 1562-1563، التي صدرت فيها معظم المراسيم. ورجع هؤلاء الكهنة إلى إسبانيا وهم عازمون على تطبيق أجندة ترنت، التي أيدها فيليب كاملة. وقد تجلت الحماسة الدينية الحادة في إسبانيا المعادية للإصلاح بعدة طرق مختلفة: عبر التقوى والحماسة الإصلاحية للقديسة تيريزا[1] وشعر القديس جون الصليبي[2] والرؤى الباطنية لإل غريكو[3]، وعبر تكاثر الأخويات

(1) القديسة تريزا الأبلية Saint Theresa (28 مارس 1515 إلى 4 أكتوبر 1582) صوفية إسبانية بارزة وقديسة كاثوليكية رومانية وراهبة كرملية وكاتبة وعالمة دين من المعادين للإصلاح البروتستانتي ومن مصلحي الرهبنة الكرملية [المترجم].

(2) جون الصليبي Saint John of the Cross (1542 إلى 14 ديسمبر 1591) أحد رموز معاداة حركة الإصلاح البروتستانتي الإسبانية وقديس كاثوليكي وراهب كرملي، يعتبر إلى جانب القديسة تريزا مؤسس التقاليد الكرملية الزهدية، وأحد علماء الكنيسة الخمسة والثلاثين، معروف بكتاباته وأشعاره حول نمو الروح التي تعتبر ذروة الأدب الإسباني الصوفي، طوّبه البابا بنيديكت الثالث والعشرين قديساً في عام 1726 [المترجم].

(3) إل غريكو El Greco أو إل الاغريقي (1541 إلى 7 أبريل 1614): هو الرسام والنحات والمهندس المعماري دومينيكوس ثيوتوكوبولوس من فناني عصر النهضة الإسباني، كان أسلوبه الفني ملغزاً بالنسبة لمعاصريه، لكنه حظي بالتقدير في القرن العشرين، حيث اعتبر من رواد التعبيرية والتكعيبية [المترجم].

الدينية الجديدة ومواكب اللطم[1]، وعبر النساء المقدسات المعروفات باسم بيتا[2]، وعبر الكاتدرائيات والكنائس الشاهقة التي هيمنت على المشهد البصري في البلدات والمدن الإسبانية بمذابحها الذهبية الفاخرة ورسومها المتوهجة للسيد المسيح والقديسين، التي كانت تركز انتباه المشاهد على مناظر الدم والجروح والاستشهاد. وتزامن عهد فيليب أيضاً مع ذروة الهوس الإسباني بنقاء الدم ونقاء الدين. عارض فيليب في عام 1546 حين كان وصياً على العرش قانون نقاء الدم المثير للجدل، الذي سنه رئيس أساقفة طليطلة الكاردينال سيليسيو Siliceo في كاتدرائيته، وهو القانون الذي حظر انضمام أسلاف اليهود والأندلسيين إلى الكنسية مستقبلاً. لكنه أقره بعد عشرة أعوام حين صار ملكاً. وفي دفاعه عن قراره، امتدح فيليب اعتماد إسبانيا على مثل هذه القوانين مقارنة ببلاد مثل فرنسا أخفقت في ضمان «معرفة ذرية الأندلسيين واليهود، وتمييزها عن بقية النصارى الكاثوليك القدامى»[3]، ما أدى إلى «عدوى المملكة كاملة بهرطقاتهم»[2].

فتحت هذه الموافقة الرسمية الطريق لسيل من قوانين نقاء الدم أصدرتها الجامعات والكاتدرائيات والصفوف العسكرية. فقد كانت

(1) اللطمية أو مواكب جلد الذات مسيرات دينية انتشرت في أوروبا النصرانية في القرون من الثالث عشر حتى السادس عشر، كان المشاركون فيها يجلدون أنفسهم بسياط وأدوات مختلفة من باب إماتة الجسد، حرمتها الكنسية الكاثوليكية واعتبرتها أحد أفعال الهرطقة [المترجم].

(2) انتشرت في إسبانيا القرن السادس عشر نساء مقدسات عرفن باسم beata، بعضهن انتسب إلى أخويات دينية وبعضهن علمانيات كرسن حياتهن للصلوات، تحدثن عن رؤى وخبرات صوفية، تحوّلت كثيرات منهن إلى محاور لجماعاتهن المحلية، وتحوّلت بيوتهن إلى أضرحة يزورها الناس طلباً للنصح والعون [المترجم].

(3) مع أن فرنسا لم تعرف الأندلسيين، وربما اليهود أيضاً في تلك الأزمان، وكانت مشكلاتها وحروبها الدينية بين المسيحيين أنفسهم: الكاثوليك الرومان والبروتستانت الكالفينيين. لكن يبدو أن الأندلسيين واليهود كانوا بعابع لحكام إسبانيا [المترجم].

فترة حقّ للنصارى العاديين فيها أن يفتخروا، كما فعل سانشو بانثا، بأن دمهم كان «خالياً من أي خليط من اليهود أو الأندلسيين»[1]، في حين بات النبلاء يفزعون من ظهور أسمائهم في «الكتب الخضراء»، التي كشفت أعضاء طبقة النبلاء القشتاليين، الذين يحملون «تلوثاً» بالدم اليهودي أو الأندلسي في أسلافهم. وبلغ التزام فيليب بالنقاء الديني حداً رفض عنده السماح للعمال الفرنسيين أو المورسكيين بالمشاركة في مشروعه المحبب قصر ودير الإسكوريال، رغم شهرة المورسكيين بالمهارة والخبرة في الحرف والبناء. وقد قصد بهذا الشيء الكئيب الذي أراد له أن يكون «الأعجوبة الثامنة» بين عجائب العالم أن يكون نصباً تذكارياً للمملكة الهابسبورغية، لكنه جاء أيضاً رمزاً لصورة إسبانيا، التي أراد فيليب إبرازها للعالم: الحصن الصارم والمنيع للدين الصافي. وهي صورة لم تكن تعكس حقيقة المجتمع الإسباني دائماً، ويصدق ذلك في أوضح صوره على حالة مسلمي إسبانيا السابقين.

* * *

في العقد التالي لتتويج فيليب، هيمنت على السياسة الخارجية الإسبانية المواجهة الوحشية بين الهابسبورغيين والأتراك العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، وقد اتضح بداية من منتصف القرن السادس عشر فصاعداً أن المواجهة كانت تميل بقوة لصالح القسطنطينية. ففي عام 1551، قامت حملة عسكرية تركية بطرد فرسان مالطة من طرابلس. وبعد أربعة أعوام استولى الريس صالح[2] بيلرباي[3] الجزائر على الجيب الإسباني المهم في

(1) سانشو بانثا هو تابع النبيل دون كيخوتة في رواية ثربانتس التي ورد ذكرها قبل ذلك [المترجم].

(2) الريس صالح أو صالح الريس Saleh Reis خلف خير الدين بربروس باياً للجزائر، قاد حملات ضد الإسبان وساعد في توطيد السيطرة العثمانية على شمال إفريقيا وغرب البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

(3) بيلرباي بالتركية تعني رئيس البايات، حيث كان الوالي العثماني للجزائر في المرحلة الأولى =

بجاية بالمغرب. وفي عام 1558، نهب الأسطول التركي جزر البليار، وأسر أربعة آلاف نصراني. وفي السنة نفسها شنت إسبانيا هجوماً على الحامية التركية في مستغانم[1] من قاعدتها في وهران انتهى بهزيمة كارثية وأسر نحو اثني عشر ألف جندي. في حين كانت الكارثة الأسوأ بانتظار عام 1559، حين احتل أسطول إسباني-إيطالي مكون من مأتي سفينة حصن جربة[2] بهذه الجزيرة الإستراتيجية بغرض القضاء على نشاطات أمير البحر القرصان درغوث، وإيجاد منصة لإعادة غزو طرابلس. لكن في الربيع التالي، حاصر أسطول تركي بقيادة أمير البحر التركي العظيم بيال باشا Piyale Pasha الأسطول النصراني الراسي، وأغرق أو أسر ستين سفينة. وانتهت حملة جربة باستعادة الأتراك للجزيرة وعاد بيال باشا إلى القسطنطينية مظفراً ومعه آلاف الأسرى.

أوقعت هذه السلسلة من الهزائم إسبانيا فعلياً تحت رحمة سليمان القانوني. وعلى مدى الأعوام الخمسة التالية، عاش فيليب وبلاطه خائفين من غزو تركي شامل، فيما كانت إسبانيا تسعى بشكل مسعور إلى إعادة بناء أسطولها المدمر بإعانات مالية من البابوية. لكن على الأرض، لم يقع هذا الهجوم. وفي عام 1565، أظهر العثمانيون قوتهم في غرب البحر الأبيض المتوسط في ضربة أخرى كبرى، حين شن سليمان

= (1516—1588) من السيطرة العثمانية يحكم أيضاً تونس وطرابلس الغرب، وتلاها حكم الباشوات (1588—1659)، ثم الأوجاق أو المجلس الأعلى للجند (1659—1672)، ثم عهد الدايات (1672—1830) [المترجم].

(1) ميناء وعاصمة مقاطعة بالاسم نفسه في شمال غرب الجزائر، تأسست في القرن الحادي عشر، ضمها خير الدين بربروس للإمبراطورية العثمانية في عام 1516، كانت مركزاً للقراصنة وللتجارة [المترجم].

(2) جربة هي أكبر جزيرة بشمال إفريقيا تقع في خليج قابس قبالة ساحل تونس، احتلتها إسبانيا لفترات قصيرة من عام 1521 إلى 1524، وكانت لبعض الوقت قاعدة بحرية عثمانية في زمن خير الدين بربروس [المترجم].

حملة على فرسان القديس يوحنا في مالطة[1]. كانت إسبانيا، في ذلك الوقت، قد بدأت في تعويض سفنها المدمرة، وتمكن فيليب أخيراً من نجدة حلفائه المحاصرين، بعد حصار دموي تكبد العثمانيون فيه خسائر ضخمة.

كان الانسحاب العثماني من مالطة مذلاً لعدو الهابسبورغيين اللدود سليمان، الذي مات في العام التالي، لكن الصراع على سيادة البحر الأبيض المتوسط استمر بقيادة وريثه الأقل اقتداراً سليم الثاني. فـ«على الأرض يسود السلام، وفي البحر حرب دائمة»، هكذا كتب المؤرخ البلنسي مارتن دي بيسيانا Martin de Viciana في عام 1564. على أن القوة التركية لم تكن التهديد الوحيد للمصالح الإسبانية في البحر الأبيض المتوسط. ففي الفترة نفسها تزايدت غارات القراصنة من شمال إفريقيا على السفن والبلدات الساحلية الإسبانية. كانت هذه الهجمات جزئياً شكلاً من الحرب غير النظامية، لكنها كانت مدفوعة أيضاً بالحاجة إلى القوة البشرية. فقد كان القراصنة النصارى والمسلمون على حد سواء في حاجة إلى مجدفين لأساطيلهم، وكان البحارة النصارى، ومنهم الإسبان، يغيرون على ساحل شمال إفريقيا كثيراً بحثاً عن العبيد أو المجدفين، فيما كان القراصنة المسلمون ينفذون غارات مماثلة على الأراضي النصرانية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط والأدرياتيكي. وكان درغوث، الذي خلف بربروس كقبدان باشا، والمعروف باسم «سيف الإسلام المسلول»،

(1) فرسان القديس يوحنا أو فرسان الاسبتارية فرقة عسكرية صليبية أو جماعة نصرانية جهادية انبثقت عن فرقة فرسان المعبد، أقامت على جزيرة رودس ومالطة، كانت معنية بحماية الحجاج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، ولعبت دوراً كبيراً في الحملات الصليبية على الدول الإسلامية في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت تنضم من موقعها على الطرق النصرانية البحرية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط وجنوبه إلى كل الحملات الصليبية المتوجهة إليه، واحتلت طرابلس لبعض الوقت [المترجم].

وكذلك بيلرباي الجزائر القلج[1] والأخوان بربروس، من بين آخرين كثيرين من القراصنة المسلمين[2]، الذين ابتليت بهم السواحل والملاحة الإسبانيتين في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

كان بعض القراصنة يعملون وكلاء أو نواباً للسلطان التركي أو للحكام المسلمين المحليين، الذين كانوا يخصصون لهم نسبة من أرباحهم. وعمل آخرون لمصلحتهم الخاصة منطلقين من موانئ شمال إفريقيا شبه المستقلة مثل تونس وطرابلس والجزائر. وأصبحت بعض هذه الموانئ مراكز تجارية مزدهرة، كانت اقتصاداتها تقوم على تجارة العبيد وافتداء الأسرى النصارى، فضلاً عن التجارة والزراعة. وكان أكثر هذه الموانئ نجاحاً وأسوأها سمعة من منظور أوروبا النصرانية هو ولاية الجزائر القرصنية، التي أسسها الأخوان بربروس. وبحلول منتصف القرن السادس عشر

---

(1) القلج أو علج أو علوج علي باشا (1519 إلى 21 يونيه 1587) إيطالي المولد أُسِر واسْتُرِقَّ في الجزائر واعتنق الإسلام وأصبح «قرصاناً» ثم أدميرالاً (ريساً) عثمانياً وحاكماً للجزائر وأمير البحر التركي في القرن السادس عشر، عزز تحصينات الجزائر، ورغم محاولات البابا وإسبانيا لاستمالته، كان من المتحمسين لمساعدة المورسكيين وناشد الباب العالي مساعدتهم وأيد طلبات العون من المورسكيين، لكن السلطان كان على وشك مهاجمة قبرص التي كانت تهاجم السفن الإسلامية، ولذلك أمر فقط بتزويدهم بالسلاح والجنود إن أمكن، على أمل أن يتمكن من مساعدتهم لاحقاً، لكن هزيمة العثمانيين ودمار أسطولهم في ليبانتو حالت دون ذلك. وقد أرسل القلج أسلحة كثيرة وبعض القادة العسكريين إلى إسبانيا، لكن يقال إن الإسبان اكتشفوا مخابئ الأسلحة قبيل اندلاع الثورة، وكذلك كان مخططاً أن يذهب الأسطول الجزائري إلى ساحل المرية لمساعدة الثوار وإنهاك الإسبان، وخطط القلج أيضاً إلى دخول إسبانيا بنفسه لإدارة الثورة، لكن هذه الخطط حالت دونها أمور منها الأخبار حول استعداد دون خوان لمهاجمة بون [المترجم].

(2) تذكر التمييز الوارد في حواشي سابقة حول «التواريخ» المختلفة للحدث الواحد والرؤى المختلفة للشخصية التاريخية الواحدة وفقاً للثقافة أو الحضارة أو الأمة التي ينتمي إليها كاتب التاريخ، فدرغوث والأخوان بربروس الذين نعتبرهم نحن على الحافة الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط أبطالاً تاريخيين وبناة دول يعتبرهم سكان الحافة الشمالية للبحر نفسه قراصنة ومجرمين [المترجم].

كان «السوط المسلط على العالم النصراني»[1] قد أصبح مجتمعاً كونياً مختلطاً يضم اليهود والموروسكيين والنصارى المتحولين إلى الإسلام والمغامرين الأجانب من أنحاء أوروبا كافة، وحتى من الأمريكيتين.

وفي أوروبا النصرانية كانت الجزائر تصور دائماً كـ «دولة مارقة»، بإسقاط المصلحات المعاصرة على القرن السادس عشر، وكان قاطنوها مجرمين وبرابرة «بلا دين ولا قانون»، لكن القرصنة وضعت الأساس لمدينة كونية مزدهرة أثارت إعجاب الزوار الأوروبيين أنفسهم. ففي عام 1551، وصف الرحالة والجغرافي الملكي الفرنسي نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay مدينة مزدهرة تضم «الكثير من الحدائق الجميلة والمبهجة» وفيها «يمارس الأتراك والمغاربة واليهود تجارة البضائع المربحة»[3]. وضمت الجزائر أيضاً حظائر العبيد سيئة السمعة المعروفة باسم البانو baño، التي كان الأسرى النصارى يجمعون فيها في ظروف مروّعة. وكان ثيرفانتس واحداً من كثير من الأسرى الإسبان، الذين مروا عبر هذه الحمامات السابقة[2]، التي ربما بلغ نزلاؤها من الأسرى

(1) هكذا وصف دوغرامي أحد النبلاء الفرنسيين الجزائر في عام 1619 وكمالة قولة: «إنها رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر». فقد كان من أسماهم الغرب «القراصنة» الجزائريين، ومن نسميهم نحن «المجاهدين البحريين»، يشكلون رعباً لكل مدن الساحل الجنوبي لأوروبا فضلاً عن أساطيلهم وسفنهم. ومما له علاقة بذلك أن المترجم كان قد شرع منذ عامين تقريباً في ترجمة كتاب بعنوان «الحرب المقدسة والعبودية البشرية - حكايات الاسترقاق المسيحي-الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط في أوائل العصر الحديث»، وقد أعجبني الكتاب كثيراً لما فيه من غريب التاريخ وما يبرزه من بعد إنساني للأحداث والمقولات التاريخية والحضارية الكبرى، لكن أوقفني عن إكماله ما اعتبرته تحيزاً ضد جنوب البحر المتوسط وتصوير أهله على أنهم جماعات من القراصنة. لكن يبدو أن الجزائر التي أسسها الأخوان بربروس ورياس البحر كانت تشكل بالفعل كابوساً للشعوب والدول الأوروبية [المترجم].

(2) يبدو أن حظائر العبيد التي يتحدث عنها المؤلف كانت عبارة عن حمامات عامة سابقة [المترجم].

في النصف الثاني من القرن السادس عشر مئتان وخمسين ألف شخص. كان كثير من هؤلاء الأسرى، مثل مؤلف دون كيخوتة، يهزلون لأعوام قبل أن تدفع فديتهم. وكان غيرهم يباعون عبيداً في شمال إفريقيا والعالم الإسلامي أو يعتنقون الإسلام لنيل حريتهم[4].

***

كانت لنشاطات قراصنة شمال إفريقيا بالتأكيد نتائج مهمة على مسلمي إسبانيا السابقين. فبعد استنزاف أسطول البحر الأبيض المتوسط الإسباني في أوائل العقد السابع من القرن السادس عشر، أصبح القراصنة أجرأ، وأخذوا ينفذون هجماتهم في وضح النهار. وفيليب نفسه شعر بغصة شديدة من عجز إسبانيا عن منع هذه الهجمات في أثناء زيارة ملكية إلى بلنسية عام 1563، التي كتب منها السفير الفرنسي: «الحديث كله عن البطولات والمثاقفة والحفلات الراقصة وغيرها من تسالي النبلاء، في حين كان المغاربة لا يضيعون وقتاً ويتجاسرون على أسر السفن من على بعد فرسخ من المدينة، ويسرقون قدر ما يستطيعون حمله»[5]. وتجلى الضعف الإسباني في مناسبات أخرى كثيرة، حيث كان قادة القراصنة يبحرون في أساطيل تضم نحو خمس وثلاثين سفينة، وهو عدد كان يكفي غالباً لأن تحشد إسبانيا قوتها ضده. ففي عام 1556 هاجم درغوث مدينة دانية[1] البلنسية. وفي عام 1565، نزل القراصنة على ساحل غرناطة وزحفوا دون معارضة إلى بلدة أرجبة في البشرات، وعادوا إلى سفنهم بمئات الأسرى. وفي السنة التالية نهب القراصنة مدينة تابرنا Tabernas الغرناطية الساحلية، وأخذوا مئات الأسرى النصارى.

نفذت إسبانيا بعض المحاولات لتحسين دفاعاتها الساحلية، من وضع حاميات دائمة من سلاح الفرسان إلى بناء أسوار دفاعية وقلاع

(1) Denia في اللغات الأوروبية [المترجم].

تعرف باسم أبراج المراقبة على أيدي مهندسين عسكريين إيطاليين. ففي عام 1561، كلّف فيليب المهندس العسكري الشهير جيوفاني باتيستا أنتونيلي Giovanni Batista Antonelli بابتكار نظام تحصينات على طول الشريط الساحلي البلنسي، لكن لم يكن بوسع أي عدد من أبراج المراقبة أن يضمن حماية وأمناً كاملين. وحتى بعد أن أعادت إسبانيا بناء أسطولها، ظل قراصنة شمال إفريقيا يشكّلون تهديداً دائماً للمستوطنات النصرانية القريبة من الساحل الغرناطي والبلنسي، وكان مجرد الظهور المفاجئ لسفن مجهولة على الساحل يدفع السكان المذعورين إلى الفرار إلى داخل البلاد أو إلى القلعة المحلية. حتى أصبحت «شمال إفريقيا» في الخيال النصراني مرادفاً للاختفاء المرعب وأهوال حظائر العبيد الجزائرية.

على أن هذا الرعب لم يكن مقصوراً على إسبانيا. فالمسلمون القريبون من ساحل شمال إفريقيا كانوا يعيشون أيضاً في خوف من الهجمات وغارات اصطياد العبيد من جانب القراصنة النصارى. وفي بلنسية وغرناطة، كان الفزع من القراصنة يوجه دائماً نحو الموركسيين، الذين كان يشتبه في مساعدتهم للقراصنة. وهذه الشكوك لم تكن بلا أساس. ففي أثناء هجوم القراصنة على تابرنا، شارك مئات الموركسيين المحليين في نهب البلدة وفروا بعدها إلى شمال إفريقيا. وبعض القراصنة كانوا يضمون في أطقمهم موركسيين ليستفيدوا من معرفتهم المحلية في الحصول على معلومات استخبارية وتسهيل الغارات. وفي بعض الحالات كان الصيادون الموركسيون يقابلون القراصنة في البحر ويعطونهم معلومات حول حالة الدفاعات النصرانية. لكن الشائعات والادعاءات بالغت كثيراً في مدى هذا التواطؤ، إذ كان الناس يميلون إلى تخيل ما لم يستطيعوا إثباته.

وفي ظاهرة لا تختلف كثيراً عن حالات الطوارئ الأمنية في عصرنا،

عدت السلطات دائماً حوادث التواطؤ الفعلية من جانب الموريسكيين أوضح دليل عن ميل أوسع لدى الموريسكيين. فإضافة إلى الصلات الممكنة بين الموريسكيين والقراصنة، كان لدى المسؤولين الإسبان هاجس دائم من تقارب المصالح المحتمل بين الموريسكيين الأراغونيين والبروتستانت الفرنسيين. ومع ظهور إمارة بيرن Béarn الفرنسية كجيب للهوغونوت بداية من العقد السادس من القرن السادس عشر فصاعداً، أخذت محكمة التفتيش الأراغونية ترتاب كثيراً في أن الموريسكيين كانوا يخططون للثورة بمساعدة بيرنية. فكان الموريسكيون والهوغونوت تجمعهم خبرة مشتركة من الاضطهاد الكاثوليكي، وكان الموريسكيون يتخذون دائماً من بيرن مأوى لهم، وكذلك رحب حكام بيرن بإمكانية التحالف مع الموريسكيين الأراغونيين، بما يساعدهم في استعادة نبارة من قشتالة.

وفي صيف عام 1559، وقعت حادثة مثيرة في قرية بلاسينثيا ديل مونتي Plasencia del Monte الموريسكية القريبة من مدينة وشقة[1] بأراغون، حين عُثِر على ثلاثة أشخاص من موظفي محكمة التفتيش ممزقين إرباً في أسفل بئر وعُثِر على كاهن محلي عمل مسؤولاً بمحكمة التفتيش مذبوحاً في مكان قريب. كان هؤلاء المسؤولين في طريقهم لاعتقال فقيه موريسكي يدعى خوان ثمباريل Juan Zambarel، الذي اعتقل في النهاية وعذب حتى الموت. لكن ثلاثة عشر موريسكياً آخرين ممن زُعِم أنهم نفذوا جريمة القتل فروا عبر جبال البرانس إلى بيرن. وحين اعتقلت الموريسكيين مجموعة مارة من المسافرين الإسبان، أمنّت السلطات البيرنية إطلاق سراحهم ورفضت طلبات بتسليمهم وأفلت القتلة بجريمتهم.

* * *

وضعت حوادث من هذا النوع الولاء الديني المتناقض للموريسكيين

(1) Huesca في اللغات الأوروبية [المترجم].

في بؤرة الانتباه، وأخذ المسؤولون الإسبان يتخذون أي تعبير عن الاختلاف الثقافي والديني دليلاً على الخيانة أو نية الثورة. وأعطت هذه التصورات إلحاحاً متجدداً لهدف الدمج. وكلما ترسخت نظرة المسؤولين الإسبان للموريسكيين باعتبارهم عدواً داخلياً ذا صلات بأعداء إسبانيا الخارجيين، تعمقت نظرتهم إلى انفصالهم المستمر عن المجتمع النصراني كتهديد محتمل لأمن الدولة. ولم تكن الأدلة على هذا الانحراف منعدمة. ففي مايو 1568، قام أسقف طرطوشة بزيارة ممتدة إلى أبرشيات الموريسكيين في أراغون وبلنسية، ولم يرق له ما رآه. ففي ضِياع دوق سقوربة في وادي أويتشو، اشتكى الموريسكيون المحليون للأسقف صراحة من أنهم نُصِّروا قسراً، وأطلعوه على رغبتهم في إرسال ممثلين إلى فيليب والبابا. واشتكى منهم الأسقف: «لقد سئمت من هؤلاء الناس لدرجة السخط. فموقفهم لعين وجعلني يائساً من صلاحهم... فأنا أجوب هذه الجبال منذ ثمانية أيام، وأجدهم أندلسيين أكثر من أي وقت سابق، ومصممين على طرقهم السيئة»[6].

وكان مسؤولو محكمة التفتيش يبدون دائماً إحباطاً مماثلاً، ويقولون إن الموريسكيين لم يخفقوا في الاندماج فحسب، وإنما أصبحوا أكثر تحدياً وعناداً بطريقة علنية. ففي عام 1560، أصدرت محكمة التفتيش البلنسية تقرير لعن زعم أن الموريسكيين في أنحاء المملكة كافة كانوا لا يزالون يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، ويصرحون علناً بالاعتقاد الهرطقي «بأنهم يمكن أن يجدوا الخلاص في نحلتهم الملعونة، وأن كل شخص يستطيع أن يحققه عبر شريعته الخاصة». صوّر محققو المحكمة الموريسكيين البلنسيين بأكثر المصطلحات تخويفاً، وأثاروا صور الجيوب الموريسكية الفوضوية الخارجة كلياً عن سلطة الدولة والكنيسة في «أراضٍ وعرة وجبلية وخطرة» كان الكهنة والشرطة يخافون أن يدخلوها. وزعمت

المحكمة أن هؤلاء المورسكيين لا يقاومون مسؤولي الملك فحسب، وإنما ثمة شائعات أيضاً أنهم يخططون لثورة بدعم تركي[7].

وعززت التقارير من هذا النوع إجماعاً بين رجال الدين والدولة الإسبان، على أن المورسكيين عوملوا بتساهل أكثر مما ينبغي، وأنه لا بد من إجراءات أعنف لتحويلهم إلى نصارى. وفي عام 1561، طلب مفوض محكمة التفتيش إلى بلنسية ريغوريو دي ميراندا Gregorio de Miranda من فيليب إرسال قوات لنزع سلاح السكان المورسكيين. ورغم الاحتجاجات من النبلاء البلنسيين على أن نزع سلاحهم يحرمهم من استخدام المورسكيين في مليشياتهم الخاصة، فإن الملك وافق على هذا الطلب. وفي فبراير 1563، طلب من المورسكيين تسليم أسلحتهم بلدة بعد أخرى، وصادر مسؤولو الملك أو استلموا نحو عشرين ألف رمح وقوس صليبي وسيف وهركوبة[1] وبندقية. وفي السنة التالية أرادت محكمة التفتيش البلنسية أن تعيد تأكيد سلطتها بإعلان صارم أمرت فيه كل البالغين والأطفال المورسكيين فوق عمر السابعة بحضور القداس بانتظام وألزمت كهنة الأبرشيات باختبار رعيتهم المورسكيين من حيث معرفتهم بالصلاة الربانية[2] والسلام المريمي[3] والعقيدة[4] وغيرها من القطع المحفوظة عن ظهر قلب.

وفي ديسمبر 1564، دعا فيليب لاجتماع ديني في مدريد لتقييم التقدم الذي أحرز في تنصير المورسكيين في بلنسية. قدمت للاجتماع صورة كئيبة

(1) الهركوبة سلاح ناري قديم [المترجم].

(2) الصلاة الربانية Our Father (أبانا الذي في السماوات) [المترجم].

(3) السلام المريمي Hail Mary هو تحية جبريل للعذراء (ليكن سلام لك يا مريم) [المترجم].

(4) العقيدة Credo هي نص العقيدة الدينية مثل قانون الإيمان Apostle's belief (1- أؤمن بالله الآب القدير خالق السماوات والأرض، 2- أؤمن بالمسيح ابنه الوحيد وسيدنا، ...) [المترجم].

عن الفساد والإهمال والتدهور في الأبرشيات الكائنة في مناطق الموريسكيين في العقد الرابع من القرن السادس عشر. وتحسر رجل دين بلنسي على أن الموريسكيين «لم يجدوا من يعلمهم أي تعاليم نصرانية علناً أو سراً». وأخبر قضاة محكمة التفتيش الاجتماع بأن كثيراً من هذه الأبرشيات في حاجة ماسة إلى المال وأن بعض المساجد لم يعد تكريسها كنائس، ولاتزال تحوي أبواقهم وقرآنهم وأدوات عبادتهم، في حين تفتقر الكنائس المنشأة حديثاً إلى كؤوس العشاء الرباني وصور وتماثيل المسيح مصلوباً.

كانت هذه التقارير اتهاماً يدين إنجازات الكنيسة في بلنسية، وقد أثر الاعتراف بهذا الإخفاق سلباً، في مرة ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، على الموريسكيين أنفسهم. ففي فبراير 1565، اقترح اجتماع مدريد هجمة جديدة على اللباس والعادات الأندلسية، إلى جانب محاولة منظمة لاستئصال «الفقهاء والمختّنين وغيرهم ممن يأتون من الجزائر وغيرها». وعلى الجانب الآخر، كان لا بد من معاملة الموريسكيين «بكل اللطف والمحبة النصرانيين»، وأن يقدم لهم التعليم الديني على أيدي كهنة وقسس مؤهلين معينين خصيصاً لهذه المهمة، على أن يعاقب المسؤولون والكهنة الفاسدون وأن تستخدم الريوع والأعشار الدينية لصيانة الكنائس ودفع أجور الكهنة المحليين، مع إعفاء الموريسكيين من كمّ الضرائب «الاستبدادية» المطبقة عليهم، لأنه من غير المعقول ومن غير العادل- كما ذهب الاجتماع- أن نتوقع منهم أن «يعيشوا كنصارى ويدفعوا الضرائب كأندلسيين».

لم تكن هذه المرة الأولى التي ترفع فيها مقترحات بهذه الوجاهة، لكن كما حدث في مناسبات أخرى كثيرة، كرست البيروقراطية الدينية والعلمانية- مرة أخرى- طاقة وموارد للقمع أكثر مما كرست للإصلاح، إذ وجد الموريسكيون أنفسهم يتعرضون إلى عقوبات أشد من محكمة

التفتيش، بدءاً من الجلد والسجن إلى الغرامات أو قضاء فترة محددة في الخدمة كمجدفين على القوادس(1). على أن أحكام الإعدام ظلت نادرة نسبياً بالمقارنة مع العقد الأول من عهد فيليب، على الرغم من أن «الكفارة بغير أجر على مجاديف الملك» كانت أقرب إلى حكم الإعدام، لأن ظروفهم كانت شديدة الصعوبة، فلقد مات كثير من المجدفين إعياءً، أو انتحروا برمي أنفسهم من السفن، أو شنقوا أنفسهم بأغلالهم.

أفاد التأكيد الجديد على القمع أجندات مختلفة، فوفر عبيد السفن الموريسكيون قوة بشرية أساسية لأسطول البحر الأبيض المتوسط الإسباني، في حين ساعدت الغرامات والمصادرات في دفع الرواتب والمصروفات الجارية للمحكمة نفسها، في وقت واجهت المحكمة فيه صعوبات مالية. وكان فرض الانضباط على الموريسكيين أيضاً جزءاً من محاولة أوسع من جانب آل هابسبورغ لإعادة تأكيد سلطتهم السياسية، وبخاصة في مملكة أراغون المتململة. فمن مقرها في الجعفرية(2)؛ تلك القلعة الأندلسية السابقة في سرقسطة، قاضت محكمة التفتيش الأراغونية نسبة من الموريسكيين أكبر من أي منطقة أخرى بالبلاد، وأرسلت كثيراً من الموريسكيين إلى عبودية السفن، التي أوصى فيليب في عام 1560 بأن يوسع العقاب عينه إلى الموريسكيين في مناطق إسبانيا الأخرى «كما هو معتاد في سرقسطة»[8].

قام القمع في أراغون جزئياً على الاعتقاد بأن الموريسكيين الأراغونيين أكثر عناداً وتمرداً من غيرهم، لكنه قصد به أيضاً أن يضعف «مُقْطِعيهم النصارى»، الذين قالت محكمة تفتيش سرقسطة في عام 1565 إنهم «أحرار

(1) القادوس سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف [المترجم].

(2) قصر الجعفرية Aljaferia: قصر إسلامي محصن من القرون الوسطى، بني في النصف الثاني من القرن الحادي عشر في دولة الطوائف الأندلسية في سرقسطة، كان مقرا لإقامة أسرة بني هود في عهد أبي جعفر المقتدر [المترجم].

أكثر مما ينبغي، ولأنهم يتغولون فعلاً على القضاة الملكيين والدينيين، فإنهم سيفعلون الشيء نفسه مع قضاة محكمة التفتيش إن استطاعوا». وكثيراً ما كان قضاة محكمة التفتيش بسرقسطة يزعمون أن المُقْطِعين النصارى كانوا يحبطون محاولاتهم لممارسة سلطتهم على التغارينو Tagarino كما كان يطلق على الموريسكيين الأراغونيين، وحرضوا فيليب على إصدار تشريع لنزع السلاح مماثل لما طبق في بلنسية، لكن الملك لم يكن مستعداً للمخاطرة بزعزعة استقرار المملكة في وقت كان رعاياه الأراغونيون فيه أكثر سخطاً من المعتاد على الحكم القشتالي. وفي رسالة إلى المجلس الأعلى في يونيو 1557، أوضح مسؤولو محكمة التفتيش في سرقسطة أن أيديهم مغلولة، وأشاروا إلى رسالة سابقة من رؤسائهم ذكرت أنه «نظراً لخطورة هذه الأوقات، سنعلق التحقيقات في القضايا ضد التغارينو حالياً»[9].

ووجدت محكمة التفتيش معارضة مماثلة في بلنسية، التي اشتكى فيها مسؤولو المحكمة عام 1566 من المُقْطِعين النصارى الذين «يضايقون مفوضي محكمة التفتيش وموظفيها على أراضيهم، ويطردونهم ويقولون لهم إنهم لا يريدون محكمة التفتيش على ممتلكاتهم». كبلّت هذه المعارضة قدرة التاج على فرض إرادته على الموريسكيين الأراغونيين، وزادت إحباط حكام إسبانيا من المسألة الموريسكية. وأصبح من المسلّم به في المستويات العليا للحكومة الإسبانية أن الموريسكيين أخفقوا في الاندماج الطوعي في المجتمع النصراني، ولا بد من اتخاذ اللازم لتسريع عملية الدمج. ومع محدودية مجال المناورة في أراغون، حوّل التاج انتباهه إلى مملكة غرناطة المثقلة بالمشكلات.

* * *

في الوقت الذي عاد فيه فيليب إلى ميراثه الإسباني، كانت غرناطة جزءاً من إسبانيا منذ سبعين عاماً تقريباً. وحينها كانت المملكة الأندلسية

السابقة قد اجتازت تغييرات كبيرة. فتحول كثير من بلداتها ومدنها بثبات إلى الطابع النصراني، واستعيض عن المساجد والمآذن بكنائس وبنايات عامة تعكس الأذواق المعمارية القشتالية، ووسعت الشوارع الأندلسية الضيقة، وفي بعض الحالات هدمت البنايات التي تضيّقها. ومع إنشاء القاعة والمحكمة الملكية في عام 1505، وهي ثاني أعلى محكمة استئناف في قشتالة بعد محكمة بلد الوليد، أدمجت غرناطة بقوة في النظام الإداري القشتالي. ومع أن الموريسكيين كانوا لايزالون يشكّلون الأغلبية في المملكة ككل، فإن عدد المهاجرين النصارى فاق عددهم في مدينة غرناطة نفسها. جاء هؤلاء المهاجرون من قطاعات المجتمع الإسباني الكثيرة، بدءاً بالمحامين والبيروقراطيين من الطبقة الوسطى أو موظفي المحكمة الملكية حتى المستوطنين الأقل شأناً من أندلوسيا وقشتالة القديمة وبلاد الباسك.

وكانت اتجاهات هؤلاء القادمين الجدد نحو الموريسكيين مختلفة تماماً عن اتجاهات المحاربين، الذين شاركوا في حرب غرناطة والمستوطنين، ممن سيطروا على المملكة بعد الفتح. فالقادمون الجدد، سواء أكانوا مهنيين يبتغون الترقي في البيروقراطية الهابسبورغية أم طلاب ثراء أم مزارعين ريفيين، اعتبروا وجود الموريسكيين عقبة أمام تقدمهم الاقتصادي، وسخطوا على التسامح الأبوي الذي كان يبديه المحاربون النصارى من زمن حرب غرناطة نحو الموريسكيين. وكان التسامح الأرستقراطي يتجلى في عائلة مندوسه، التي كان أفرادها يشغلون منصب القائد العام وراثياً، ويستخدمون نفوذهم كثيراً لحماية الموريسكيين من محكمة التفتيش، ويتوسطون نيابة عنهم في تعاملاتهم مع الكنيسة والحكومة[1].

---

(1) من طبائع الأمور أن يكون المحاربون القدامى الذين شهدوا قوة غرناطة وعظمتها وعز أهلها وبسالتهم، وحاربوهم فرساناً لفرسان أكثر احتراماً للأندلسيين وشهامة معهم، ومن الطبيعي أيضاً أن الدخلاء الجدد على مدن الأندلسيين، الذين لم يروا الأندلسيين غير تابعين ومخضعين ويعملون بالأعمال الوضيعة أن يحتقروهم وينفروا منهم، فالأولون شهدوا عز القوم =

أثارت العلاقة الودية بين عائلة مندوسه والموركسيين سخط المحامين والقضاة، الذين أخذوا يملأون الجهاز البيروقراطي الغرناطي. وكان المسار المهني للموظفين يشمل عادة المؤسسات العلمانية والدينية معاً، ولذلك كان هؤلاء المسؤولون يجمعون دائماً بين الطموح الشخصي والحماس الديني من جانب، والولاء المطلق للملك، الذي أثبت أنه قاتل للموركسيين الغرناطيين من جانب آخر. وعلى مدار النصف الأول من القرن السادس عشر، دار صراع سياسي خفي بين عائلة مندوسه، وتحالف من أعضاء مجلس المدينة وموظفين وقضاة محكمة التفتيش ورجال دين متشددين، مما أثر كثيراً على الموركسيين. ففي وقت تتويج فيليب، كان منصب القائد العام يشغله إنييغو لوبيث دي مندوسه الكونت الثالث لتانديليا. وواصل مندوسه؛ الجندي المقتدر ذو الشخصية المتحفظة والغضوبة، التقليد العائلي في الدفاع عن الموركسيين مدعوما بأبيه لويس أورتادو دي مندوسه؛ المركيز الثاني لموندخار Mondejar، باعتباره رئيس مجلس قشتالة.

وحتى قبل عودة فيليب، كان تأثير عائلة مندوسه يتضاءل في البلاط الهابسبورغي، الذي أثيرت فيه شكوك حول تأييد القائد العام للموركسيين. ومع غارات القراصنة على ساحل غرناطة وتغلغلهم داخل البلاد دون ردع، أخذ الإسبان ينظرون إلى وجود كتلة موركسية كبيرة غير مستوعبة وذات ولاءات متناقضة، باعتباره نقطة ضعف قاتلة في دفاعات إسبانيا. وضخمت هذه المخاوف بتقارير من الخصوم السياسيين لعائلة مندوسه في غرناطة أفادت بأن الموركسيين كانوا يقدمون معلومات

فأعزوهم، والأخيرون لم يروا غير خنوعهم وذلهم فأذلوهم، وهو ما ينطبق أيضاً على الملكين الكاثوليكيين ومن سبقوهما ومن تلاهما من ملوك، ففيرديناند ومن سبقوه عاملوا الأندلسيين بشيء من الشهامة لم يعرفها خلفاؤهما شارل وفيليب. ويرجع السبب في ذلك ربما إلى قرب العهد بنموذج «التسامح الأندلسي» أو بعده عنه [المترجم].

استخبارية للقراصنة، ويختطفون النصارى لبيعهم عبيداً أو يختزنون القمح والأسلحة استعداداً للثورة.

كان بعض هذه القصص من نتاجات الهلع النصراني. وكان بعضها افتراءات وفقاً لأحد مسؤولي فيليب في عام 1561، الذي اتهم النصارى في غرناطة باختلاق القصص حول هذا التواطؤ لإخفاء استغلالهم القاسي للموريسكيين الغرناطيين[10]. فقد استولى عدد من النصارى، منهم أعضاء بمجلس المدينة ورجال دين، على أراض كبيرة في مرج غرناطة وجبال البشرات، كانت في غالبها على حساب الموريسكيين. وبين عامي 1559 و1567، أجرت لجنة تحقيق ملكية برئاسة قاض من بلد الوليد يدعى دكتور سانتياغو Doctor Santiago تحقيقاً مطولاً في غرناطة الريفية لمعرفة إن كانت الأراضي المخصصة للتاج قد نقلت بشكل غير قانوني إلى أيد خاصة.

لقد وقعت احتيالات من هذا النوع بلا شك، وكان النصارى هم الجناة في أغلب الأحيان. ومع ذلك كان الضحايا الرئيسون للجنة سانتياغو هم المزارعون والفلاحون الموريسكيين، الذين صودرت أراضيهم لأن ملاكها لم يستطيعوا أن يأتوا بصكوك ملكية رسمية، إذ كان موريسكيون كثر يحملون سندات ملكية باللغة العربية، وكانوا غير ملمين بالإجراءات القانونية القشتالية، ولذلك لم يتمكنوا من الاعتراض على قرارات المفوضين في محكمة الاستئناف الغرناطية، التي كانت تخضع لسيطرة خصومهم. وتمثلت نتيجة ذلك في سيل متواصل من عمليات نزع الملكية ولّد مزيداً من السخط بين السكان الموريسكيين الذين كانوا يخضعون فعلاً لنظام ضريبي قمعي ومراقبة عدائية من المسؤولين العلمانيين والدينيين؛ أي الكهنة الذين كانوا يغرّمونهم على عدم حضور القداس، ورجال الشرطة الذين كانوا يقتحمون بيوتهم، ويدسون عليهم أسلحة أو كتباً

ممنوعة لتبرير الاعتقال والرشاوى، وقضاة محكمة التفتيش الذين ظلوا يضطهدونهم ويحكمون عليهم بالسجن. وفي بعض أجزاء البشرات، كان المسؤولون النصارى يحتفلون بالعطلات العامة بالتجول مع زوجاتهم في القرى المورسكية، وينفقون على نزهاتهم دجاجاً وعسلاً وفاكهة وأموالاً سرقوها أو ابتزوها من أهالي القرى.

ففي رسالة إلى فيليب في عام 1569، وصف السفير الإسباني إلى فرنسا دون فرانسيس دي ألابا Don Francés de Álava زيارات مختلفة قام بها إلى غرناطة على مدى اثني عشر عاماً، لاحظ فيها كيف كان المسؤولون العلمانيون والدينيون «يستخدمون مبررات عديدة لدفع المورسكيين إلى اليأس»، من الابتزاز إلى اغتصاب زوجاتهم وبناتهم والتحرش الجنسي بهن. وذكر ألابا لفيليب أنه في إحدى قرى البشرات ناشد السكان المورسكيون الكنيسة إبعاد الكاهن المحلي، لأن «عيون أطفالنا جميعهم تشبه عينيه»[(1)]. ووصف ألابا أيضاً الطقوس الدينية في أبرشيات المورسكيين، التي كان الكهنة فيها يستديرون فجأة في منتصف الشعيرة لتوجيه «كلمات متغطرسة وقدحية» لرعيتهم، تشكّل جميعها «بذاءة وإساءة للرب كانت تجعلني أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي». وبعد مغادرة القداس، يتجول هؤلاء الكهنة «بالبلدة يوزعون تنمرهم وغطرستهم على المورسكيين»[11].

لم يفعل الملك شيئاً لتخفيف هذه المظالم، بل كانت أفعاله تزيد دائماً الأعباء المفروضة على المورسكيين. ففي عام 1561، زادت الضريبة الملكية على إنتاج الحرير الغرناطي وبيعه بنسبة 60٪، تلتها زيادة أخرى بعد ثلاثة أعوام بنسبة 30٪. ووقعت هذه الزيادات بالدرجة الأولى على مربي دودة

(1) بمعنى أنهم كانوا يشكون في أنه كان يزني بنسائهم، ولذلك كانت عيون أطفالهم تشبه عينيه [المترجم].

القز الريفيين ونساجي البيازين وخياطيها؛ تلك الصناعة التي كانت تعاني ركوداً. وفي الفترة نفسها شنت محكمة غرناطة حملة عدوانية ضد اللصوص وقطاع الطرق الموريسكيين في غرناطة. وبداية من أوائل العقد السابع من القرن السادس عشر فصاعداً، شرعت المحكمة في اعتقال قطاع الطرق السابقين الذين منحهم المُقْطِعون النصارى حق اللجوء إلى ضِياعهم، وخرقت بذلك تقليداً قديماً في غرناطة الريفية، كان قطاع الطرق بمقتضاه يستقرون في الضِياع الريفية بعائلاتهم ويعملون في هذه الأراضي مقابل العفو من جانب أرباب أعمالهم الجدد. وفي تحد مباشر لسلطة القائد العام، بدأ المسؤولون تجنيد مليشيات خاصة بهم عرفت باسم الكوادريا cuadrilla لمطاردة قطاع الطرق. وكان هؤلاء الجنود-صيادو الثروات يتم عادة إيواؤهم بالقوة في قرى الموريسكيين، التي كانوا يسرقون أهلها ويبتزونهم دون رادع حتى في أثناء مطاردتهم قطاع الطرق. ومع لجوء قطاع الطرق الموريسكيين مرة أخرى إلى الجبال لتجنب الاعتقال أو للانتقام من مضطهديهم، عمّت الفوضى والقلاقل المملكة.

وصلت كل هذه التطورات ذروتها في وقت كان عفو الأربعين عاماً بين شارل الخامس والموريسكيين الغرناطيين الصادر عام 1526 يوشك على الانتهاء. وفي خضم الكساد الاقتصادي والفوضى الإدارية، وسيطرة القراصنة على الساحل، وقطاع الطرق على الداخل، اشتدت الفوضى في غرناطة لدرجة خطيرة. وفي هذا المناخ اتخذ «الملك الحصيف» قراراً مشؤوماً حوّل الموقف من أزمة إلى كارثة.

11

مرسوم غرناطة

في مايو 1564، عاد المصلح الكنسي الجهادي ورئيس أساقفة غرناطة بيدرو غيريرو Pedro Guerrero إلى أبرشيته من مجمع ترنت، الذي لعب دوراً رئيساً في مداولاته الختامية. وقبل أن يغادر إيطاليا، مرّ غيريرو بروما حيث تلقى أوامر من البابا- على ما يقال- ببذل جهود متواصلة لدمج الموركسيين الغرناطيين في المجتمع النصراني. رجع غيريرو إلى غرناطة وهو عازم على استغلال انتهاء عفو الأربعين عاماً، وتنفيذ محاولة أشرس لتحويل الموركسيين عنوة إلى نصارى. كان غيريرو يؤمن بقوة أن استمرار تمسك الموركسيين بعاداتهم وتقاليدهم يشكّل عقبة أمام اندماجهم الكامل في المجتمع النصراني. وفي سبتمبر 1565، ترأس غيريرو اجتماعاً لمجلس كنائس غرناطة، أوصى فيه بتنفيذ كل أوامر مجمع المصلى الملكي لعام 1526 بخصوص اللباس والعادات الأندلسية. وأضاف المجلس محظورات جديدة من عنده، منها منع استخدام الحناء، وعزف الآلات الموسيقية، ورقصتي الزمرة والليلة، بغض النظر عما إذا كانت هذه الرقصات تتضمن مُحتوى دينياً إسلامياً من عدمه.

وفي العام التالي، قدمت هذه التوصيات إلى لجنة دينية في مدريد

ترأسها الرئيس الجديد القوي لمجلس قشتالة ورئيس محكمة التفتيش لاحقاً الكاردينال دييغو دي إسبينوزا Diego de Espinosa، الذي عُيّن رئيساً بعد وفاة لويس أورتادو دي مندوسه في عام 1565. كان إسبينوزا «قبعة» متعجرفة، على نحو ما كان الإسبان يطلقون على من يرتدي قبعة الكاردينال، وقد وصفه مؤرخ فيليب وأحد أفراد حاشيته لويس كابريرا القرطبي Luis Cabrera de Cordoba بأنه «هازئ وحازم في غير مهنته». وكان نفوذه كبيراً لدرجة أن السفير الفرنسي فوركوفو Fourquevaux وصفه بأنه «ملك ثان» في بلاط فيليب. وكان الكاردينال مؤيداً متحمساً لسياسة غيريرو المتشددة نحو الموركسيين، وكانت موافقته حاسمة على المرسوم الملكي القاسي، الذي أصدره فيليب في السابع من نوفمبر 1566.

تضمن المرسوم كل مقترحات المجلس الإقليمي الذي عقده غيريرو. وإضافة إلى منع الرقصات والأغاني والآلات الموسيقية الأندلسية، أمر الملك سكان غرناطة الموركسيين جميعهم بترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجُمع وغيرها من الأعياد الإسلامية، وبالتوقف عن تحدث اللغة العربية وكتابتها خلال ثلاثة أعوام، وبتعلم اللغة القشتالية. وأمر بالتفتيش عن كل الكتب والوثائق المكتوبة باللغة العربية وحرقها إذا اعتبرت مسيئة دينياً. وأمر بحرق كل النصوص العربية في المملكة بعد ثلاثة أعوام بغض النظر عن محتواها. وأمر أيضاً بحظر الحمامات العامة، وهدم القائم منها في غرناطة. وحظر بشدة ارتداء اللباس الأندلسي الرجالي والنسائي، بما في ذلك الملحفة. وأعطيت الموركسيات مهلة سنتين إلى أن تبلى ملابسهن، وبعدها تعاقب أي امرأة تشاهد بغطاء الوجه بسلسلة تصاعدية من العقوبات. وهكذا، فبعد سبعين عاماً تقريباً من إدخال الموركسيين قسراً في النصرانية، أصدر حكام إسبانيا ما كان في حقيقته صكاً للاستئصال الكامل للثقافة الموركسية من غرناطة، في وقت كانت فيه التوترات

المتراكمة في المملكة على وشك الانفجار[1].

***

لكن، ما تفسير هذا القرار البغيض؟ برر فيليب المرسوم دينياً بالتزامه بإنقاذ أرواح الموركسيين، لكن تصميمه المتصلب على فرض المراسيم القمعية التي جربها أسلافه ونبذوها كانت تدفعه -دون شك- مخاوف أخرى غير الرفاه الروحي للموركسيين. فقد نتج المرسوم جزئياً عن السخط الرسمي من السرعة البطيئة للاندماج في غرناطة، إلى جانب الاعتقاد أن الاختلاف الثقافي للموركسيين كان عاملاً رئيساً في إعاقة تحولهم إلى نصارى. وبالنسبة إلى المتشددين من أمثال غيريرو وإسبينوزا، فإن الموركسيين ما كانوا ليقلعوا عن هذه العادات والتقاليد دون إرغامهم على ذلك. لكن المرسوم تأثر أيضاً باعتبارات جيوسياسية أوسع. فلجنة مدريد اجتمعت بعد عام فقط من النجدة الإسبانية لمالطة المحاصَرة. ورغم الابتهاج العام في العالم النصراني بهذا النصر، استمرت الشائعات حول هجوم تركي جديد في غرب البحر الأبيض المتوسط، تتواتر في أوروبا، وكان البلاط الإسباني يسلم بأن صداماً كبيراً آخر كان وشيكاً.

أدى هذا التوقع بلا شك إلى تركيز انتباه حكام إسبانيا على المملكة، التي جعلها قربها من شمال إفريقيا دائماً منصة انطلاق للهجوم على إسبانيا نفسها. ولم يكن الموركسيون الغرناطيون حلفاء محتملين للأتراك في حالة أي هجوم مستقبلي فحسب، وإنما أثبتوا أيضاً خيانتهم بتواطئهم مع القراصنة. هل كان المرسوم محاولة يائسة لإبعاد التهديد الأمني الذي شكّله الموركسيون بتسريع عملية دمجهم؟ أم قصد به إعادة تأكيد سلطة التاج على جماعة موركسية «منحرفة» اعتبرها التاج أضعف من أن تقاوم سلطته؟

ربما تكون الفرضيتان صحيحتين جزئياً. فقبل أن يعطي فيليب

موافقته على المرسوم، طلب نصيحة أستاذ للاهوت بجامعة قلعة النهر يقال إنه أدمج المقولتين المألوفتين: «كلما زاد عدد الأندلسيين زاد الربح» و«كلما قلّ عدد الأعداء كان ذلك أفضل» في مقولة جديدة: «كلما زاد عدد الأندلسيين الموتى زاد الربح، لأن عدد الأعداء سيكون أقل». ويقال إن فيليب سرّته هذه الصياغة، بما يوحي أنه كان مدركاً للتأثير المحتمل لقراره. لكنه لو توقع الثورة، لما دفع هو أو أي من وزرائه في اتجاه هذه الإمكانية.

وفي مايو 1566، عيّن فيليب عضو المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش بيدرو دي ديثا Pedro de Deza رئيساً لمحكمة غرناطة. وكان تعيين هذا المسؤول الطموح إشارة أخرى على تغير المناخ السياسي في البلاط. فلم تكن عائلة ديثا على عداء قديم مع عائلة مندوسه وحسب، بل كان ديثا أيضاً من أتباع إسبينوزا، وجاء إلى غرناطة بأوامر صريحة بفرض المرسوم حرفياً ورفض أي محاولة لتخفيف شروطه. وكان من العلامات المنذرة أن إنييغو لوبيث دي مندوسه، الذي كان حينها مركيز موندخار بعد وفاة أبيه، لم يعلم بالمرسوم إلا بعد وصول ديثا.

وبمجرد أن علم القائد العام بمحتويات المرسوم، سافر إلى مدريد في محاولة لإقناع الملك بتغيير رأيه، لكنه لم يمنح مقابلة الملك، بل قابل إسبينوزا نفسه، الذي أخبره أن «القرار جاء من الأعلى باجتثاث الأمة المورسكية» من غرناطة. وحين حذّر المركيز من عدم وجود قوات كفاية في غرناطة لقمع ثورة المورسكيين، وعده إسبينوزا بثلاثمائة جندي آخرين، واستبعد إمكانية الثورة، لأن المورسكيين «شعب حقير أعزل يفتقر إلى الصناعة أو الحصون أو أي مصدر للدعم».

بيد أن هذه الثقة بالذات لم يكن لها أساس في غرناطة نفسها، فلقد كانت العواقب الوخيمة للمرسوم واضحة للمورسكيين والنصارى على حد

سواء. وبعد فترة قصيرة من وصوله، طلب ديثا من ألونسو دي أوروثكو Alonso de Orozco الكاهن بكنيسة سان سلفادور في ربض البيازين أن يتحدث إلى مجموعة من المورسكيين القياديين، ويطلب مساعدتهم في نشر محتويات المرسوم الملكي بين السكان المحليين. ويمكن استخلاص بعض الدوافع الكامنة وراء قرار الملك من تعليمات ديثا لأوروثكو، الذي طلب منه أن يشرح للمورسكيين أن الكتب العربية «لا فائدة منها ومفسدة جداً لعقولهم» وأن أسلوبهم في الملبس «ينبئ حقاً بأنهم يكرهون أن يكونوا نصارى وأن ليس من الأمانة ولا اللياقة في المظهر أن يروح النصارى ويجيئون بلباس المسلمين».

فعل أوروثكو ما طلب منه، مطمئناً المورسكيين على أنهم «إن فعلوا ذلك طوعاً وأظهروا أنهم يعيشون كما يعيش النصارى في الممالك الأخرى، سيكونون أهلاً للتكريم والعطف والاحترام». لكن المجموعة التي تحدث إليها هالتها مطالب المرسوم ورفضوا أن ينقلوا هذه الأوامر إلى السكان لأن الناس قد ترجمهم. ومع انتشار أخبار المرسوم، أبدى المورسكيون الغضب واليأس والذعر، وأرسلوا مبعوثين إلى ديثا والبلاط في محاولة لإقناعهم بإبطال القرار. لكن الملك ووزراءه لم يلتفتوا لكل النداءات.

جاء أبلغ دفاع عن موقف المورسكيين من فرانثيسكو نونيث مولاي، الغلام السابق لإيرناندو دي طلبيرة، الذي مثّل المورسكيين الغرناطيين في مناسبات سابقة مختلفة في التفاوض مع السلطات الإسبانية. قدم نونيث مولاي الذي كان حينها في آخر عمره، استغاثة متقدة إلى ديثا طالباً منه إبطال المرسوم أو التوصل إلى حلول وسط لبعض اشتراطاته. وقد نشرت حجج نونيث مولاي لاحقاً في واحدة من أهم الوثائق في تاريخ إسبانيا المورسكية. تكمن أهمية مذكرة نونيث مولاي المؤثرة في الفهم الرائق للعالم الثقافي لغرناطة المورسكية من جانب أحد أبنائها، وأيضاً فيما تكشفه

من عدم الفهم والإجحاف، اللذين كانت إسبانيا النصرانية تنظر بهما إلى ذلك العالم.

تتكون المذكرة في معظمها من تفنيد نقطة بنقطة للمنطق والفرضيات الكامنة وراء مطالب المرسوم، حاول فيها نونيث مولاي أن يوضح عدم وجود ارتباط آلي بين التقاليد الثقافية الموركسية والممارسات الدينية الإسلامية. فدفع بأن الرقص الأندلسي عادة فولكلورية لا يمارسها المسلمون الملتزمون، بل يرفضونها، وأن اللباس الموركسي في غرناطة أيضاً مسألة ثقافة وليس ديناً، لأن:

> كل ممالك قشتالة، وكل الممالك والمقاطعات الأخرى لها أساليبها الخاصة في اللباس التي تختلف عن الممالك والمقاطعات الأخرى، مع أنهم جميعاً نصارى. وبالمثل يختلف أسلوب اللباس والملابس في هذه المملكة تماماً عن لباس المسلمين المغاربة في شمال إفريقيا، بل وتوجد اختلافات كبيرة أيضاً من مملكة لأخرى، فما يلبسونه في فاس لا يلبس مطلقاً في تلمسان، وما يلبسونه في تركيا يختلف كلياً عما يلبسه المغاربة، ومع ذلك فإنهم جميعاً مسلمون. يترتب على ذلك أن أحدا لا يستطيع القول إن لباس المُنَصّرين الجدد هو لباس المسلمين[2].

رفض نونيث مولاي أيضاً الربط بين الملحفة والإسلام. فكما أن النصرانيات القديمات كن يغطين وجوههن «حتى لا يتعرف إليهن الناس حين يردن ألا يُعرَفن»، دفع بأن النساء الموركسيات كن يفعلن ذلك من باب التواضع «حتى لا يقع الرجال في الإثم العظيم المتمثل في رؤية وجه المرأة الجميل، فيفتنون بها ويلاحقونها بوسائل مشروعة أو محظورة للزواج منها». ورفض الربط بين الحمامات العامة الموركسية والوضوء

والاغتسال الدينيين، مؤكداً أن القصد منها هو الصحة والنظافة «بغرض توفير مكان به ماء ساخن وبيئة حارة، لأن الإنسان حين يعرق يطرد الجسم كل أنواع القذارة والأخلاط السيئة». وأنكر الاتهامات بأن الحمامات كانت تستخدم للعلاقات الجنسية المحظورة، مذكّراً ديثا بأن الرجال والنساء يذهبون إلى الحمامات في أيام مختلفة. ودفع بأنه لو كانت لدى النساء حقاً «فكرة مقابلة عشاقهن بغرض الجنس؛ تلك الفكرة المقيتة، فمن الأسهل عليهن كثيراً أن يفعلن ذلك في أثناء الزيارات المنزلية أو زيارات الكنائس أو حضور الاحتفالات والألعاب، التي يتفاعل فيها الرجال والنساء عادة».

لكن إصرار نونيث مولاي المطلق على «أن اللغة العربية ليس لها علاقة مباشرة إطلاقاً بالدين الإسلامي» كان يستند إلى أسس أقل صلابة، وكان نقده لاقتراح حظرها أقل قوة. فقد ذكّر ديثا بأن رئيس الأساقفة طلبيرة دمج اللغة العربية سابقاً في طقوس كنيسته، وأشار إلى وجود نصارى في أورشليم يتحدثون اللغة العربية ويلبسون لباس شمال إفريقيا وظلوا مع ذلك نصارى جيدين. وشدد أيضاً على الأهمية العملية للغة العربية في الحياة اليومية للموريسكيين الغرناطيين، من صكوك ملكيّة أراضيهم والسجلات الضريبية والحسابات إلى قوائم الألوان التي يستخدمها الصباغون في ورشهم. وحظر اللغة العربية لا «يعمي» المملكة فحسب، كما دفع، بل إن معظم الموريسكيين لن يستطيعوا تعلم القشتالية ولو أعطيتهم عشرين عاماً، فما بالك بالأعوام الثلاثة التي اشترطها المرسوم المذكور أعلاه».

على أن تفكير نونيث مولاي الحليم يمتزج غالباً بالغضب. فقد هاجم فكرة أن المرسوم قصد به تعزيز الاندماج، وأشار إلى أنه حتى حين أذعن الموريسكيون للمطالب النصرانية في الماضي، ظلوا عرضة للتمييز

والإساءة:

> فعلى مدى الأعوام الأربعين الماضية، كان الناس هنا يتزيون على الطريقة القشتالية ويلبسون النعال، على أمل أن يُظهِر صاحب الجلالة الرحمة ويمنحهم بعض الحريات أو يعفيهم من أعبائهم الضريبية أو يجيز لهم حمل الأسلحة. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فمع كل يوم يمر، يزداد شكلنا ومعاملتنا سوءاً في كل النواحي وبشتى الطرق، سواء من جانب ذراع الدولة العلماني أو ذراعها الديني، وتلك حقيقة معروفة لا تحتاج إلى مزيد من الإسهاب[3].

على أن المساواة التي طالب بها نونيث مولاي للموريسكيين لم تكن عمومية. فقد حظر أحد بنود المرسوم على الموريسكيين الاحتفاظ بعبيد زنوج، واشترط أن يغادر العبيد المعتقون غرناطة. على أن هذا المطلب لم يكن له علاقة بتحرير العبيد. فلقد امتلك النصارى عبيداً، لكن عبيد الموريسكيين كان ينظر إليهم باعتبارهم مسلمين وثواراً محتملين. وانتقد نونيث مولاي هذا الحظر متسائلاً «ألا يستحق هؤلاء السود حالتهم التعسة؟ هل يجب النظر إلى كل الناس على أنهم متساوون؟ دعهم يجلبون أباريق الماء على ظهورهم، أو يحملون الأثقال أو يعملون بالمحراث».

كان هذا الرأي الأخير من الآراء القليلة التي يمكن أن يتفق فيها ديثا مع الموريسكي المسّن، الذي انتقد منطق المرسوم واستخرج نقائصه وسخافاته: كيف يمكن للموريسكيين أن يتركوا أبوابهم مفتوحة ويمنعوا سرقة بيوتهم؟ وكيف يمكن للنساء أن يتحملن شراء ملابس قشتالية إذا لم يتمكّن من بيع ما يلبسنه حالياً؟ وكيف يمكن للموريسكيين أن يعرفوا «أنسابهم» إذا أجبروا على استخدام أسماء نصرانية؟ وماذا سيحدث

لأولئك الذين سيعجزون عن تعلم القشتالية؟

يتجلى يأس غرناطة الموركسية في إصرار نونيث مولاي على أن المرسوم سيؤدي إلى «خراب المملكة وأهلها». وأخيراً دعا الرئيس ديثا إلى أن يتخيل كيف يمكن أن يكون رد فعل النصارى إذا أمروا بأن يلبسوا مثل المورسكيين، أو أن يتحدثوا العربية بدلاً من القشتالية، أو ألا يعزفوا موسيقى أخرى غير الزمرة، أو أن يغطوا وجوه نسائهم، أو أن يجروا أعمالهم اليومية باللغة العربية بدلاً من القشتالية. «هل يمكن أن يمتثل النصارى بالنظر إلى الأساليب المتنوعة لكل النصارى في هذه المملكة؟» وأجاب نونيث مولاي على السؤال بنفسه، مخبراً ديثا: «لن يمتثلوا، وإنما سيموتون ويعانون تحت الأعباء والعقوبات».

كانت هذه الحجج مقنعة وحاذقة، لكن لم يكن من الوارد أن تؤثر على رجل مثل ديثا، وهو ما كان نونيث مولاي يدركه يقيناً. فردا على عرضه برفع الضريبة أو الفرضة التي كان المورسكيون يدفعونها لصيانة الدفاعات الساحلية لغرناطة، أجاب ديثا بأن الملك «أراد إيماناً وليس فرضة، وأنه شدد على أن إنقاذ روح واحدة أهم من كل الدخل الذي يمكن أن يأتيه من المورسكيين المُنَصّرين حديثاً». أوجزت هذه العبارة الفرق الأساسي بين إسبانيا شارل الأول وإسبانيا ولده. ومع أن ديثا كان مهيأ لتقديم بعض البوادر اللبقة لتيسير تقدم المرسوم، منها مثلاً الوعد المشكوك فيه بأن التاج سيتحمل نفقات تعليم الأطفال المورسكيين، إلا أنه ظل متصلباً.

واختار ديثا تاريخ الأول من يناير 1567، ذلك التاريخ الرمزي الذي كان يوافق ذكرى استسلام غرناطة الرسمي لإيزابيلا وفيردناند، لنشر أوامر الملك. ونشر المرسوم الملكي في المملكة عبر منادين جابوا البلدات مصحوبين بالطبول والقرون والأبواق. ومع أن اشتراطات

المرسوم لم يكن مقرراً أن تطبق إلا بعد عام، فقد هدم الحمام المزخرف القريب من قصر الحمراء بعد ذلك بقليل في تأكيد لنيته وتصميمه، وبدأ الكهنة يجمعون قوائم بالأطفال المورسكيين في أبرشياتهم كي يرسلوا إلى المدارس النصرانية. أثارت هذه القوائم شائعات بين المورسكيين تقول إن أطفالهم سيؤخذون من غرناطة إلى قشتالة، ما عزز غضب الأهالي ويأسهم. ومع انسداد طريق المفاوضات تماماً، أخذ بعض المورسكيين ينظرون باستسلام إلى الموعد النهائي الوشيك. في حين كان آخرون يستعدون للمقاومة المسلحة.

***

وحتى قبل إعلان المرسوم، حذّر الزعماء المورسكيون والمسؤولون النصارى الأكثر دراية فيليب ومستشاريه من إمكانية أن يؤدي المرسوم إلى رد فعل عنيف. وفي السنة التالية بدأ بعض القادة المورسكيين الاستعداد للثورة. كان هؤلاء الزعماء مجموعة متباينة ضمت أعضاء سابقين من نخبة الدولة النصرية ومورسكيين ساخطين كانوا يعملون في الإدارة النصرانية وقطاع طرق. ومع ذلك فلم يكن تأييد الثورة عاماً بين المورسكيين، إذ دفع بعض المورسكيين بأن ملك إسبانيا كان أقوى من أن يخرجوا عليه، ونصح آخرون بأن النتائج السلبية للمقاومة المسلحة ستكون أسوأ من المرسوم نفسه. لكن أنصار الثورة احتجوا على هذه الحجج بالإشارة إلى أن نشر أعداد كبيرة من الجنود الإسبان في منطقة الفلاندر وإيطاليا أضعف دفاعات إسبانيا الداخلية، وألحوا على أن أي مقاومة كانت أفضل من المستقبل الذي كان على وشك أن يفرض عليهم بالقوة.

كان المورسكيون الحضريون عموماً أكثر تردداً في توريط أنفسهم في الثورة، وبخاصة في البلدات والمدن التي كانوا يعيشون فيها بجانب النصارى، في حين وجد الثوار جمهوراً أكثر تعاطفاً في غرناطة الريفية،

ولاسيما في قرى جبال البشرات. واستمد بعض المورسكيين الإلهام من النبوءات الدينية أو الجفور التي انتشرت في غرناطة حينذاك التي تنبأت بالانهيار الوشيك لإسبانيا النصرانية وعودة الحكم الإسلامي في ظل ملك تركي. وتنبأ نص اكتشفته محكمة التفتيش بأن المَلَكين جبريل وميكائيل سيأتيان قريباً في غيمة من الطيور لإعلان مجيء ملك أندلسي جديد. وتنبأت نصوص أخرى بأن جسراً نحاسياً سيمتد بطريقة إعجازية عبر مضايق جبل طارق ليمكّن جيشاً إسلامياً من العبور إلى إسبانيا[4].

وبدأ الثوار أيضاً يطلبون المساعدة من الخارج. ففي إبريل 1568، اكتشفت السلطات الغرناطية رسالة من ثائر مورسكي يدعى محمد بن داوود، وأرسلتها إلى البلاط الإسباني. كانت الرسالة موجهة إلى بيلرباي الجزائر القلج تطلب منه المساعدة للثورة، وتعدد بالتفصيل الإساءات المختلفة التي عانى منها المورسكيون في غرناطة، من اضطهاد محكمة التفتيش ومحظورات المرسوم الملكي إلى إدخالهم قسراً في النصرانية وإخضاعهم لليهود، في إشارة إلى الانتشار المدرك للمُنَصّرين اليهود بين قيادات الكنيسة. وتألفت الرسالة في معظمها من شجب مرير للدين النصراني، الذي فرض على المورسكيين:

حين يدق الجرس، يجب أن نتجمع كي نعبد صورة كريهة،
وفي الكنيسة يزعق الواعظ بصوت مزعج كصوت البومة،
يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير، ويقام القداس بالنبيذ،
ثم يدعي زيفاً أن تلك هي الشريعة الإلهية[5].

وأرسل الثوار أيضاً ممثلين كثيرين إلى القسطنطينية وشمال إفريقيا طلباً لدعم الثورة، لكن رد الباب العالي كان حذراً وفاتراً. فسليم الثاني

وريث سليمان رأى أن إمكانات نجاح الثورة ضعيفة، واقتصر التضامن الإسلامي في البداية على مدهم بالأسلحة والتجهيزات، ووعود بمدهم بالجنود عن طريق أتباع السلطان في شمال إفريقيا. وعلى مدار عام 1567، أخذ زعماء الثوار يجوبون غرناطة متنكرين في هيئة شحاذين وحجاج نصارى، ليجمعوا سراً أسماء الرجال المستعدين للقتال، وليجمعوا معلومات استخبارية حول دفاعات المملكة. وفي حين كان صناع الأسلحة المورسكيون يصنعون أسلحة ويخزنونها سراً، اشترى زعماء الثوار البنادق والذخيرة من القراصنة. وبحلول نهاية العام رأى الثوار أنهم جندوا للقتال نحو ثمانية آلاف متطوع عبر المملكة.

وفي يناير 1568، دخل المرسوم الملكي حيز التنفيذ رسمياً. ومع أن محكمة التفتيش ذكرت في تقاريرها أن أغلب المورسكيين بدا أنهم يمتثلون لاشتراطاته، ظلت غرناطة تغلي بشائعات الثورة. وتواصلت التقارير حول جرائم القتل والسرقة على أيدي قطاع الطرق والغارات من القراصنة. بلغ هذا المناخ الملبد بالترقب والفزع ذروته بتقارير الطوالع والنذر، من ولادات حيوانية تتميز بطفرات إلى ظهور مذنبات ونجوم غير معروفة وغمامات من الطيور الغريبة. كان الثوار يخططون لبدء ثورتهم في خميس العهد[1]، لكن التاريخ أُرجئ بعد شائعات بأن السلطات علمت بنواياهم. وفي ليلة السادس عشر من إبريل الممطرة، كان الهلع يسيطر على العاصمة الغرناطية لدرجة أن بعض النصارى فهموا خطأً أن المصابيح المتوهجة التي كان الحراس الليليون النصارى يحملونها فوق

(1) خميس العهد أو خميس الغسل أو خميس الأسرار هو ليلة العشاء الأخير الذي تناوله المسيح مع تلاميذه، وهو يوم الخميس السابق لعيد الفصح، وفيه يحيي النصارى ذكرى العشاء الأخير، الذي تناوله المسيح قبل موته وغسل فيه أرجل تلاميذه، وعلمهم كيف يخدم بعضهم بعضا، ولذلك يقوم الكاهن في كثير من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية بغسل أرجل مساعديه [المترجم].

ربض البيازين هي إشارة الثورة. وفي وسط الأمطار المنهمرة سيقت النساء والأطفال النصارى إلى الكنائس لحمايتهم، فيما تقدم مئات الرجال المسلحين، ومنهم الرهبان، نحو ربض البيازين لذبح المورسكيين قبل أن يقنعهم موندخار وديثا بأن الإشارة كانت إنذاراً كاذباً.

ومع أن الثوار واصلوا استعداداتهم، فقد ظلوا يواجهون صعوبة في إقناع السكان بأن الثورة يمكن أن تنجح. وفي سبتمبر، وفقاً للمؤرخ الغرناطي دييغو أورتادو دي مندوسة، التقى أحد زعماء الثوار، وهو مورسكي يدعى فرناندو دي بالور كان يعرف باسم الصغير el Zaguer، من اسمه العربي ابن جهور «الصغير»، بمجموعة من إخوانه في الدين في أحد بيوت البيازين، حيث ذكّرهم بالإساءات التي تنهال عليهم على مر السنين، وعدّد العواقب الوخيمة للمرسوم الملكي. وفي الكلمة التي نسبها إليه مندوسه، ذكّر الصغير المورسكيين المتجمعين بالخيارات الكئيبة التي تنتظرهم:

> إننا نعامل بين النصارى كأندلسيين ونحتقر كأندلسيين، في حين يعاملنا إخوتنا المغاربة لا كأندلسيين وإنما كمرتدين أو نصارى، ولا يمد لنا هؤلاء أو أولئك يد العون أو يثقون بنا. إننا محرومون من كل ما يجعل الحياة جيدة، ولا يُسمح لنا حتى بالدفاع عن أنفسنا. لقد منعونا من تحدث لغتنا، مع أننا لا نفهم قشتاليتهم. بأي لغة إذن نتبادل الأفكار ونطلب الأشياء ونعطي الأشياء؟ إن الناس بلا لغة لا يستطيعون أن يتعاملوا مع بعضهم. بل إن الحيوانات نفسها غير محرومة من فهم الأصوات البشرية. ومن ذا الذي يقول إن الإنسان الذي يتحدث القشتالية لا يستطيع أن يعتنق شريعة النبي محمد أو أن

الإنسان الذي يتحدث العربية لا يستطيع أن يتمسك
بشريعة السيد المسيح؟[6]

ونتيجة للتحريض من جانب الصغير، شرع الثوار في البحث عن ملك لقيادة الثورة. وفي نهاية العام استقروا على ابن أخيه، وهو ابن وجيه موركسي ساخط، وعضو سابق بالمجلس البلدي لغرناطة يدعى فرناندو دي بالور Fernando de Valor من مدينة الصغير، سبق أن حوكم أبوه أمام محكمة التفتيش. كان بالور يرتبط مولداً بالمؤسسين الأمويين لخلافة قرطبة الأصلية، وكان في ذلك الحين قيد الإقامة الجبرية في منزله، لأنه رفع خنجره في اجتماع أحد المجالس. ومع ذلك فقد قبل بالور الدعوة إلى أن يصبح ملك غرناطة، ورجع إلى اسمه الإسلامي ابن أمية في استدعاء مقصود لأيام عز الأندلس. وفي ديسمبر 1568، أي بعد سنة تقريباً من سريان المرسوم، توج ابن أمية سراً ملكاً في بلدة صغيرة[1] بالقرب من غرناطة، وزين بالأرجوان وأحيط بأربعة رايات وفق العادات القديمة للأمويين. وفي ذلك الشهر، أطلق المورسكيون ثورتهم أخيراً.

(1) هي بلدة قدبار أو بنثار في المصادر العربية [المترجم].

12

«حرب صغيرة قذرة»

من بين كل الحروب الأهلية التي شهدتها إسبانيا، كانت ثورة المورسكيين، المعروفة تاريخياً بحرب البشرات، أكثرها وحشية ودموية. وكما كانت الحال في عامي 1500–1501، تمثل مركز الثورة في الحصن الطبيعي العظيم، الذي كانت توفره جبال البشرات، لكن الحرب الثانية كانت أكثر تدميراً وشمولاً بكثير من سابقتها. كانت الثورة التي تميزت بغياب الأفكار الأولية عن الإنسانية أو القيم الأخلاقية وسيادة الجشع والثأر والعواطف العرقية والدينية القاتلة، السابقة التي جرت على منوالها الحروب الدينية الأوروبية بالقرن السابع عشر. صوّر الجندي والمؤرخ الغرناطي لويس دي مارمول كارباخال شلالات المذابح وعمليات الحصار والكمائن والأعمال الوحشية المتبادلة بتفصيل مروّع في كتابه: «تاريخ ثورة المورسكيين في مملكة غرناطة وعقابهم» (1600)، الذي يحوي أكثر الروايات شمولاً، وربما موضوعية أيضاً لهذه الحرب. ومارمول الذي كان يتحدث اللغة العربية وشارك في حروب إسبانيا في شمال إفريقيا، حارب في الجانب النصراني أثناء الثورة، وشهد الكثير من الأحداث التي وصفها. كما يوجد وصف ينحو إلى النقد للسلوك النصراني في الحرب في كتاب دييغو أورتادو دي مندوسه: «الحرب في غرناطة»، الذي وزع

لسنوات في شكل مخطوطة قبل نشره أول مرة في عام 1627. كان مندوسه مركيز موندخار والدبلوماسي والجندي السابق والشاعر وعم القائد العام لغرناطة في ذلك الوقت، منفياً في بيت طفولته في قصر الحمراء إبان المراحل الأولى للثورة بعد مشاحنة عنيفة في بلاط فيليب.

ومع أن عمر الرجل الكبير حال دون أن يحارب بنفسه، فقد راقب النزاع الذي أسماه «حرباً صغيرة قذرة» عن كثب، وصوّر حماقاتها وكوارثها بلغة نثرية ساخرة ولاذعة تذكّرنا بالتواريخ التي كتبها نموذجه العظيم تاكيتوس[1]. كما أرّخ للثورة أيضاً صانع الأحذية والجندي والشاعر المرسي[2] الفذ خينيس بيريث دي هيتا Gines Perez de Hita في كتابه: «حرب المورسكيين» (1619)، الذي جاء مزيجاً من القص الروائي والشعر القصصي والتاريخ السردي. وكما هي الحال مع مارمول، حارب بيريث دي هيتا هو الآخر في صفوف الجيوش النصرانية، لكنه كشأن مندوسه انتقد بشدة سلوك الحرب النصراني. وفي حين أنه على خلاف معاصره الغرناطي، يمتزج عنده الاشمئزاز من سلوك الجانب الذي قاتل فيه في الحرب مع تعاطف قوي مع المورسكيين وحنين «أندلسي» رومانسي إلى الماضي الأندلسي لغرناطة. وبعد أكثر من أربعة قرون من الحدث، لاتزال هذه التواريخ الثلاثة المختلفة تماماً تشكّل المرجع الرئيس للحرب الضارية التي عرّضت إسبانيا الهابسبورغية لإحدى أخطر الأزمات الأمنية التي واجهتها في القرن، وكتبت كلمة النهاية لغرناطة المورسكية.

* * *

(1) بوبليوس كورنيليوس تاكيتوس P. Cornelius Tacitus (56 إلى 117 بعد الميلاد) مؤرخ وخطيب ورجل دولة روماني، ولد في شمال إيطاليا لأسرة نبيلة، تولى مناصب عديدة، من أهم كتاباته «التواريخ» و«الحوليات» و«حياة أغريكولا» و«جرمانية»، تميز بروعة أسلوبه ودقة عباراته، ويمثل ذروة التدوين التاريخي الروماني [المترجم].

(2) نسبة إلى مرسية [المترجم].

بعد شهور طويلة من الشائعات والترقب، وجه الثوار ضربتهم الأولى أخيراً في عشية عيد الميلاد عام 1568 في أثناء تساقط الثلوج، حين قُتلت كتيبة من الجنود النصارى في مقرها في قرية قديار Cádiar الموركسية بهدوء وهم في مخادعهم. ولم تصل هذه الأخبار إلى العاصمة الغرناطية حتى الليلة التالية، وحينها تأهب آلاف الموركسيين للنزول إلى المدينة من جبال البشرات ومفاجأة السكان النصارى وسط احتفالات عيد الميلاد. لو حدث الهجوم كما كان مخططاً له، لربما سقطت العاصمة الغرناطية سيئة الدفاعات، وتغيرت نتيجة الثورة، لكن الخطة أُلغيت في الدقيقة الأخيرة بعد أن جعلت الثلوج الكثيفة الطرق غير قابلة للحركة تقريباً. وبدلاً من ذلك تسلل مئة قاطع طريق أو نحو هذا العدد بقيادة صباغ وسجين سابق لمحكمة التفتيش يدعى فرج بن فرج[1] إلى غرناطة في الساعات الأولى في وسط العاصفة الثلجية، وشقوا طريقهم مباشرة إلى ربض البيازين. أخذ الرجال يعزفون على المزمار والآلات الموسيقية الأخرى وينادون باسم محمد وهم يجوبون الشوارع ويحثون أهلها الموركسيين على الخروج من بيوتهم والانضمام إليهم. وكان رجال فرج قد جلبوا معهم سلالم من الحبال بهدف اعتلاء أسوار قلعة قصر الحمراء، لكن سكان البيازين لم يجدوا تشجيعاً في عدد الثوار الصغير، فرفضوا الخروج والانضمام إليهم. استاء قطاع الطرق من عدم استجابة الأهالي، فحاولوا اقتحام المدرسة الموركسية التي أنشأها اليسوعيون، لكنهم لم يتمكنوا من تحطيم أبوابها وانسحبوا إلى البشرات مع وصول أخبار وجودهم إلى السلطات النصرانية في المدينة.

وخلال الأيام القليلة التالية انتشرت الثورة سريعاً في أنحاء بلدات وقرى البشرات كافة، وبدأ الموركسيون في فرض انتقام مرعب على السكان النصارى. فأخذوا يسوقون الكهنة والحفظة والرهبان

(1) Farax Aben Farax يعرّب بعضهم اسم هذا الرجل إلى فراس بن فراس [المترجم].

والمسؤولين العلمانيين عراة عبر الشوارع وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم، ويستخدمونهم كأهداف حية للتدريب على البنادق والأقواس، في حين احتفظوا بأقسى العقوبات لرجال الدين. فحفروا لبعض الكهنة صلباناً على وجوههم قبل أن يطعنوهم ويمزقوهم حتى الموت. ووضعوا لبعضهم باروداً في آذانهم أو أفواههم ثم أشعلوه، أو غلوهم أحياء في أحواض الزيت، أو سلموهم لنساء موريسكيات كن يطعنّهم بالسكاكين والإبر أو يرجمنهم حتى الموت.

وفي بعض القرى أخذ الموريسكيون يقلدون الطقوس الدينية التي فرضت عليهم بطريقة ساخرة، فارتدوا رداء الكهنة وهم يعذبون ضحاياهم. وفي لوشر دي أندرش Luchar de Andarax رُبِط الكاهن المحلي على كرسي أمام مذبح الكنيسة، في حين أُمِر حفظته بقراءة سجل الموريسكيين، الذي استخدم سابقاً للتحقق من حضورهم في القداس، وتقدمت رعيته السابقة واحداً تلو الآخر بعد سماع اسمه ليصفع كل منهم معذبه السابق أو يلكمه أو يبصق في وجهه، وبعدها انتزعت عينا الكاهن ولسانه وأجبر على أكلها. وفي قرية خرايراتة Jarayrata، دخل الأهالي على حافظ اشتهر بالسُكر وتغريم الموريسكيين على عدم حضور القداس، فجزوا رأسه ووضعوه في حوض من النبيذ. وفي الدير الأوغسطيني في جسيقة Guecija، وفقاً لأورتادو دي مندوسه، صبّ الموريسكيون زيت زيتون مغلياً في بالوعات البناية التي لجأ إليها الرهبان، و«ساعدتهم في ذلك وفرة زيت الزيتون الذي جعله الرب وفيراً في تلك الأجزاء لقلي رهبانه وإغراقهم».

وفيما لا يزيد على ستة أيام، قتل الثوار زهاء ثلاثة آلاف نصراني من كل الأعمار ومن الجنسين، إذ تكررت هذه المشاهد البشعة في القرى عبر البشرات. ووفقاً لأسطورة نصرانية، عرض الثوار الصفح عن ضحاياهم

إذا ارتدوا عن دينهم، لكن النصارى لم يقبلوا هذا العرض. وقد حاولت كنيسة غرناطة لاحقاً أن تطوّب «شهداء البشرات» جماعياً، لكن هذه الدعوات نجحت فقط في حالة ماركوس كريادو Marcos Criado؛ الراهب من قرية لابيثة Lapeza، الذي قيل إنهم انتزعوا قلبه فوجدوا اسم السيد المسيح منقوشاً عليه، وهو ما اعتبر معجزة.

صدمت وحشية عمليات القتل إسبانيا النصرانية، التي اعتبرتها عموماً تأكيداً لهمجية المسلمين وكراهيتهم للكاثوليك. وكتب فيليب نفسه لاحقاً «إن مجرد رؤية ما فعله المورسكيون في وقت ثورتهم، حين قتلوا كثيراً من الكهنة والنصارى، يكفي لتبرير الصرامة مع هؤلاء الناس»، وهي ملاحظة تجاهلت إسهامه الكارثي في صنع الثورة[1]. وقد كان دييغو أورتادو دي مندوسه من المراقبين القلائل، الذين اعترفوا بمسؤولية المجتمع النصراني نفسه عن الثورة، حين كتب «بعض من ارتكبوا هذه الجرائم كانوا ممن اضطهدناهم بوحشية، وبعضهم من قطاع الطرق الذين هيأتهم طريقة حياتهم لهذه الوحشية، فأصبحت جزءاً من طبيعتهم»[2]. لم ينفجر غضب المورسكيين في الناس فقط، وإنما أحرقوا بنايات الكنائس ودمروا ما بداخلها، وحطموا صور المسيح المصلوب وتماثيله بالمطارق، وخربوا المذابح، وفي حالة واحدة جروا حوض التعميد إلى الشارع واستخدموه حوضاً لشرب الحيوانات. وبالنسبة إلى كثير من النصارى الإسبان كان هذا الهجوم يُرَجّع صدى «غضبة تحطيم الصور والتماثيل الدينية»، التي انتشرت عبر هولندا في صيف عام 1566، حين هاج الغوغاء الكالفينيون على الكنائس الكاثوليكية، وأخذوا يحطمون نوافذها ذات الزجاج المرسوم وتماثيل المسيح والعذراء. ربما كان المورسكيون في جبال البشرات يعرفون أو لا يعرفون تأكيد مجمع ترنت على الصور التعبدية، لكن هذه التماثيل والصور كانت بالنسبة إليهم رموزاً للظلم الذي تعرضوا له في

حياتهم اليومية، وكان تدميرها رفضاً لما ترمز إليه من ناحية، وشكلاً من التنفيس العنيف من ناحية أخرى.

كان نبذ الكاثوليكية يصحبه إعادة تأكيد الإسلام، إذ بدأ المورسكيون من كل الطبقات الاجتماعية يمارسون العبادات الإسلامية علانية لأول مرة منذ سبعين عاماً. من ذلك أن محكمة التفتيش حاكمت السيدة كونستانسا لوبيث Lady Constanca López الوجيهة المورسكية من بالور قرية ابن أمية لاحقاً، لأنها صلت وأثنت على النبي محمد علناً في بداية الثورة. ووفقاً لمحكمة التفتيش، فإن السيدة كونستانسا استخدمت أجزاء من رافدة المذبح المحطمة بكنيستها المحلية كحطب، وقالت لجيرانها النصارى «ماذا كنتم تظنون؟ أن العالم سيظل عالمكم؟ ولأنكم ألبستمونا بطريقة معينة سنصير نصارى؟ على كل، فإننا كنا وسنظل نفعل ما نريد، لأننا كنا أندلسيين وسنظل أندلسيين»[3][1]. ولا شك في أن كثيراً من المورسكيين كانت تحركهم مشاعر مماثلة، لكن سلوكهم لم يكن يتفق دائماً مع التقاليد الدينية الإسلامية كما يذهب مارمول:

> كان من المذهل أن نرى أنهم- كباراً وصغاراً- ملمون إلى هذا الحد بطائفتهم الملعونة، فقد كانوا يصلون لمحمد[2] ويقيمون المواكب والصلوات. وكانت النساء المتزوجات يكشفن صدورهن والعذارى رؤوسهن وشعرهن متدل حول أكتافهن وهن يرقصن علناً في الشوارع ويعانقن الرجال، حيث كانت وعوطهن[3] الصغيرة ترقص

---

(1) راجع حواشي سابقة حول الخلط بين القومية العرقية والثقافية من جانب والدين أو القومية الدينية من جانب آخر [المترجم].

(2) يقصد الصلاة الإسلامية العادية، لكنه ربما اعتقد أن المسلمين يصلون لنبيهم كما يفعل المسيحيون، وربما هي محاولة مقصودة لتشويه الإسلام باعتباره ديناً يعبد أتباعه نبيهم [المترجم].

(3) كأنه يوبخ الرجال الذين قبلوا أن تفعل نساؤهم هذه الأفعال [المترجم].

أمامهن، ملوحات بمناديلهن في الهواء وصائحات بأعلى
أصواتهن بأن زمن السذاجة قد حل[4].

على أن المورسكيين لم يشاركوا جميعاً في «زمن السذاجة»[1]. فقد رفض كثير من المورسكيين الانضمام إلى الثورة، وقتل بعض المورسكيين الذين اعتنقوا النصرانية عن قناعة، لأنهم رفضوا الارتداد عنها. وكذلك لم يكن النصارى يُقتَلون دائماً. فمعظم النصارى سجنوا أو أخذوا رهائن، وفي بعض الحالات ساعد مورسكيون أصدقاءهم وجيرانهم النصارى على الهرب. وفي أرجبة، استطاع السكان النصارى اتخاذ الكنيسة المحلية ملجأ، وصدوا عدة هجمات مورسكية. وكما لاحظ أورتادو دي مندوسه، فإن بعض أسوأ الأعمال الوحشية نفذها قطاع الطرق، وبخاصة زعيمهم فرج بن فرج الذي أصبح اسمه سريعاً رمزاً للوحشية في غرناطة النصرانية. وفي بداية يناير، دعا ابن أمية إلى إيقاف هذه المذابح في محاولة لفرض النظام على الثورة، حتى بعد أن بدأ الهجوم المضاد النصراني الحتمي.

***

كان الفشل في الاستيلاء على العاصمة الغرناطية ضربة كبرى للثورة، وهو ما اتضح سريعاً حين جاب المركيز موندخار المدينة بحثاً عن الثوار في الثالث من يناير بقوة جمعت على عجل مكونة من ألفي جندي مشاة وفارس. وفي خلال أسبوع، استعاد جنود موندخار السيطرة على القرى الثائرة في مرج غرناطة، ووصلوا إلى الجسر الوحيد عبر حنجرة طبلانة، الذي يوفر الطريق الوحيد إلى البشرات. وحين وجدوا أن الثوار أزالوا أغلب الأخشاب من الجسر لدرجة جعلته غير قابل للعبور فعلياً، أمسك راهب فرانسيسكاني سيفاً في يد وتمثال المسيح المصلوب في اليد الأخرى، وقاد مجموعة من الجنود النصارى فوق الإطار غير الثابت للجسر، في حين

(1) السذاجة بمعنى الجهل والبربرية والتحرر من ضوابط الحضارة [المترجم].

كان المورسكيون يمطرونهم بهركوباتهم وأقواسهم من المنحدر المقابل. واستطاع هؤلاء الجنود في النهاية أن يدفعوا الثوار إلى الوراء ويعيدوا بناء الجسر كي يتقدم رجال موندخار دون مقاومة عبر وادي القرن للتخفيف عن النصارى المحاصرين في أرجبة، الذين قاوموا الهجوم المورسكي لسبعة عشر يوماً، وكانوا على حافة المجاعة.

تحرك موندخار بعدها بسرعة وحسم كبيرين في قلب مركز الثورة في المناطق الإدارية الأندلسية السابقة المعروفة باسم الطاعات[1] بين أرجبة وسيرانيفادا. وتحت موجات متناوبة من العواصف الثلجية والأمطار الغزيرة ودرجة حرارة دون الصفر، تسلق الجنود النصارى هذه الجبال ودخلوا مع الثوار في سلسلة من المعارك القصيرة والوحشية. ففي الوديان الوعرة وعلى القمم النائية تعالت صيحات المعارك القديمة، منادية بالقديس جيمس والنبي محمد، مختلطة بصرخات الجرحى والمحتضرين واصطدام الحراب والسيوف وفرقعات البنادق حين اشتبك النصارى مع الرجال والنساء وحتى الأطفال المورسكيين. ورغم تمكن المورسكيين من التضاريس، فإنهم كانوا يفتقرون إلى التدريب العسكري والأسلحة والخبرة، بل كان أغلبهم يقاتلون بالحجارة.

ونتيجة لذلك، تحققت الغلبة سريعاً لجنود موندخار، وتقدموا لإعادة فرض سلطتهم على القرى الثائرة بكفاءة تفتقر إلى الرحمة. فبعد هجوم نصراني على موقع مورسكي محصن في قلعة واجرش Los Guajares، أمر القائد العام بذبح الباقين على قيد الحياة من المورسكيين. وفي قرية جبيل[2]، قتل العشرات من الأسرى المورسكيين بدم بارد حين حاولوا أن يمنعوا جندياً نصرانياً من اغتصاب امرأة مورسكية. ومع سقوط القرى

---

(1) الطاعات Tahas تقسيم إداري أندلسي يقابل «المحافظات» الحديثة [المترجم].

(2) Jubiles في اللغات الأوروبية [المترجم].

الموركسية أمام التقدم النصراني القاسي، تراجع الثوار إلى المرتفعات المغطاة بالثلوج، واصطحبوا معهم عائلاتهم وأسراهم النصارى، وجنود موندخار يلاحقونهم بحماس. وبحلول نهاية يناير، كانت الثورة قد أوشكت على الهزيمة بفضل الاستجابة السريعة من القائد العام. تناقص جنود ابن أمية إلى بضع مئات معزولين على الجبال العالية، وأخذ بعض كبار قادته يفكرون في الاستسلام. وعبر البشرات، كان الموركسيون يتوسلون السلام ويناشدون موندخار الرحمة.

استجاب القائد العام إيجابياً لهذه العروض ووعدهم بالعفو وضمان العبور الآمن للموركسيين الذين لم يشتركوا في قتل النصارى بطريقة مباشرة. وعند هذه النقطة يمكن القول إن الثورة قد انتهت، لكن أعداء موندخار السياسيين في غرناطة بدأوا يرسلون تقارير إلى فيليب وإسبينوزا يتهمونه فيها بالفشل في مواصلة الحرب بكفاءة، وأنه تصالحي أكثر من اللازم مع الثوار. وكان موندخار مشغولاً بالعمليات العسكرية في البشرات، ما لم يمكّنه من دفع هذه الاتهامات التي وجدت أذناً صاغية في البلاط الإسباني. وقد وصلت أخبار ثورة الموركسيين في وقت عسير كانت منطقة الفلاندر فيه لاتزال تغلي بالفتنة، رغم القمع الوحشي من جانب دوق ألبة و«مجلس القلاقل»[1] التابع له في الصيف السابق. خاف فيليب، وكان محقاً في ذلك، من أن تجرّئ ثورة الموركسيين أعداء إسبانيا عليها، وأمر نائبه في نابولي في العشرين من يناير أن «يتكتم

(1) مجلس القلاقل Council of Troubles (بالهولندية Raad van Beroerten وبالإسبانية Tribunal de los Tumults) محكمة خاصة أنشأها فيرناندو دي ألفاريث دوق ألبة الثالث الحاكم العام للأراضي الواطئة الهابسبورغية بأوامر من ملك إسبانيا فيليب الثاني، لعقاب زعماء الفتنة في «القلاقل» السياسية والدينية في الأراضي الواطئة، عُرِف أيضاً بـ«مجلس الدم» بسبب أحكام الإعدام الكثيرة التي أصدرها بحق الهولنديين، وألغي المجلس رسمياً في عهد خليفة ألبة في عام 1574 في مقابل معونة مالية من البرلمان الهولندي، لكنه ظل منعقداً حتى اندلاع الثورة في بروكسل في صيف عام 1576 [المترجم].

على مسألة غرناطة»[5].

أقنع فيليب مستشاروه بأن الحملة ضد الثوار متوقفة، فقبل اقتراحاً من ديثا وحلفائه بالسماح للنبيل المرسي دون لويس فاخاردو Don Luis Fajardo مركيز بلش[1] بحشد جيش خاص على نفقته والقيام بحملة جديدة ضد الثوار من الشمال الشرقي. وجاء تعيين هذا الأرستقراطي المعادي للموركسيين ليقسم الحملة النصرانية إلى جبهتين منفصلتين بلا تنسيق بينهما. عبَر دي بلش إلى البشرات من خلال المرية، وسرعان ما أكد شهرته بين الموركسيين بـ«الشيطان ذي الرأس الحديدي» بهجوم دموي على قرية فليش Felix الجبلية الموركسية. وسرعان ما انهار أمامه الموركسيون الذين كانت الأحجار في الغالب هي سلاحهم الوحيد. وفضّلت نساء موركسيات كثيرات أن يلقين بأنفسهن من فوق الجبال على الأسر والعبودية. وخرّ آخرون على ركبهم ممسكين بصلبان من خشب يستجْدون الإبقاء على حياتهم.

لم يبد جنود دي بلش أي رحمة أمام التوسلات، فأعدموا مئات الرجال والنساء والأطفال فوراً أو رموهم في الوديان المحيطة، وقتلوا حتى الكلاب والقطط. «يا لها من وحشية نصرانية فظيعة لم تُعرَف من قبل في الأمة الإسبانية! ما هذا الغضب الجهنمي الذي جعلكم تظهرون كل هذه الوحشية وانعدام الرحمة؟» هكذا تعجب خينيس بيريث دي هيتا، الذي قاتل في جيش دي بلش. ومع أن وصف بيريث دي هيتا للحرب تزيّنه غالباً مسحة درامية، فلا مجال للشك في الرعب الغوياوي[2] الذي شاهده

(1) Los Velez في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) الغوياوي Goyaesque نسبة إلى الرسام الرومانسي الإسباني فرانثيسكو خوسيه غويا Francisco Jose de Goya، الذي عكست أعماله الاضطرابات السياسية والاجتماعية في عصره، فجاءت ناضحة بأهوال الحروب ومآسيها، ومنها مجموعته «كوارث الحروب» و«الرسوم السوداء»، والنسب إليه يشير إلى هذه المضامين [المترجم].

في فليش، من نوع الأم المورسكية التي ترقد ميتة بين أطفالها الخمسة الذين قتلهم الجنود النصارى جميعاً، في حين كان طفل رضيع لايزال حياً ويحاول الوصول إلى ثدي أمه الميتة ليرضع، منظر حرك مشاعر الجندي- الشاعر المرسي، فأعطى الطفل لبعض النساء المورسكيات لرعايته[6].

غابت الشفقة عموماً عن النزاع الضاري، الذي اعتبره بيريث دي هيتا حرباً أهلية «بين الإسبان». وحتى حين تحرك جيش دي بلش عبر شرق البشرات، بدأ جنود موندخار في سلب ونهب البلدات والقرى المورسكية التي وضعها موندخار تحت حمايته. وفي ذلك كتب دييغو أورتادو دي مندوسه في واحدة من الإدانات الكثيرة للجنود النصارى، الذين اعتبرهم رعاعاً غير منضبطين: «من الصعب التفكير في اعتداء أو إساءة لم يتعرض لها المورسكيون، ومن الأصعب التفكير في مرتكب لهذه الاعتداءات عوقب على ما فعله». وبالنسبة إلى بيريث دي هيتا كان جنود موندخار «أسوأ لصوص في العالم ومخربين ونهابين، ولم يفكروا في شيء... إلا السرقة والنهب وتخريب البلدات المورسكية».

وفي حادثة في بالور بلدة ابن أمية، قتل جنود نصارى بقيادة اثنين من رجال موندخار وفداً من الشيوخ المورسكيين خرج لاستقبالهم، ثم نهبوا البلدة وغادروها بطابور طويل من النساء المكبلات وبغال محملة بالأقمشة الحريرية والحلي. وبسبب جشعهم أمد الجنود النصارى الطابور بالمزيد من النساء لدرجة أدت إلى تعريضهم للخطر، إذ تعرضوا لهجوم مضاد شرس، قتل فيه المورسكيون من بالور والقرى المحيطة ثمانمائة جندي نصراني وحرروا نساءهم.

ووقعت واحدة من أسوأ حوادث الحرب في السابع عشر من مارس 1569، حين سمح ديثا لأفراد حرس المدينة بدخول سجن المحكمة، الذي كان يحتجز فيه مئة وخمسون سجيناً مورسكياً كرهائن، منهم والد

ابن أمية. بُرِّرت هذه الهجمة على ما قيل بتقارير قالت إن السجناء كانوا يفتحون النوافذ ويغلقونها لإرسال إشارات إلى الثوار في سيرانيفادا كي يستعدوا لاقتحام السجن، لكن هذه المزاعم كانت بالتأكيد مجرد ذريعة لنهب الرهائن، الذين اختير أغلبهم بسبب ثرائهم في المقام الأول. وعلى مدى سبع ساعات، قاتل السجناء الموريسكيون المسلحون بدوارق الماء والكراسي والطابوق المنتزع من الجدران جنوداً مسلحين وسجناء نصارى آخرين داخل السجن. وفي آخر الليل كان كل الموريسكيين تقريباً قد قتلوا ونهبت ممتلكاتهم وأموالهم على يد آمر السجن الذي قاد الهجوم.

***

وعلى مدار ربيع عام 1569 وصيفه، دفعت هذه السلسلة من أعمال النهب والمذابح آلاف المجندين الجدد إلى صفوف ابن أمية. ولا شك في أن كثيراً من النصارى في غرناطة كانوا يريدون هذه النتيجة عينها، ورأوا أن حرباً طويلة تمثل فرصة لتصفية الحسابات مع غرناطة الموريسكية وتكوين ثروات في أثناء ذلك. وكانت هناك إشارات منذرة أيضاً على أن الثورة بدأت في الانتشار خارج غرناطة نفسها. ففي بلدة هورناتشوس Hornachos الموريسكية في إشتريمادورا Extremadora، ذكرت تقارير أن الأطفال الصغار أنفسهم كانوا يتلقون تدريباً على الأسلحة. وفي بلنسية، تسلحت عدة بلدات واستعدت بعد شائعات عن أن الموريسكيين كانوا يخزنون الحبوب استعداداً للثورة.

وفي مارس، انزعج فيليب جداً من الموقف المتدهور لدرجة أنه عين أخاه غير الشقيق دون خوان النمساوي؛ الابن غير الشرعي لشارل من عشيقته البلجيكية باربرة بلومبيرغ، قائداً عاماً للقوات النصرانية في غرناطة. كان دون خوان شاباً طموحاً وساحراً ومتأنقاً في الرابعة والعشرين من العمر، ظهر مؤخراً فقط في البلاط الإسباني، ولذلك كان متلهفاً إلى أن

يصنع اسماً لنفسه بعد أعوام من النسيان. وصل دون خوان إلى غرناطة في منتصف إبريل على رأس جيش من عشرة آلاف جندي، وفيها لقي استقبالاً رسمياً على أطراف المدينة من جانب موندخار ومعه فرقة من الفرسان تتزيّن بالملابس والأقمشة الحريرية الأندلسية. وكان في استقباله أيضاً موكب من أربعمائة أرملة ويتيم نصراني نجوا من مذابح المورسكيين في البشرات. وصف مارمول هؤلاء النسوة بأنهن «كن لابسات ملابس بسيطة، ويملؤهن الحزن، ولقد أخذن يروين الأرض بدموعهن وينثرن خصلات من شعرهن الأشقر على دون خوان»، وناشدنه الانتقام لموت أقاربهن وأطفالهن على أيدي الزنادقة، في مراسم مرتبة مسرحياً، مؤكد أن ديثا هو الذي نظمها في محاولة منه لتقويض سياسة موندخار التصالحية مع المورسكيين.

دخل دون خوان المدينة وسط ترحيب حماسي من السكان النصارى، وتوجه إلى مكاتب المحكمة أو «بيوت المحنة» كما كان المورسكيون يطلقون عليها، وفيها استقبله الرئيس بنفسه. بالنسبة إلى زمرة ديثا كان وصول جيش دون خوان يعني خطوة هائلة نحو تدمير غرناطة المورسكية، وفي إبريل وافق دون خوان على اقتراح ديثا بإجلاء سكان البيازين جميعاً عن العاصمة كإجراء أمني. عارض موندخار هذا الاقتراح، ومعه للعجب رئيس الأساقفة غيريرو، لأسباب اقتصادية ولوجستية وأخلاقية، لكن الاقتراح حظي بموافقة فيليب نفسه.

وفي الثالث والعشرين من يونيو تدفق الجنود النصارى على ربض البيازين، يطرقون الأبواب ويأمرون كل الرجال المورسكيين بين عمريْ العاشرة والستين بالتجمع في مستشفى غرناطة الملكي في اليوم التالي. وفي الصباح التالي، جاب موندخار والوجيه المورسكي ألونسو الغرناطي بنيغش Alonso de Granada Venegas شوارع البيازين لتهدئة

السكان المذعورين، في حين كان الرجال يتجمعون. وفي هذا اليوم، أُجلي زهاء ثلاثة آلاف ونصف ألف رجل موركسكي عن المدينة، واقتيدوا إلى أندلوسيا وقشتالة. حتى مارمول، الذي كان من المستحيل أن يتعاطف مع الموركسيين، تأثر بمنظر «الرجال الكثيرين من كل الأعمار؛ رؤوسهم محنية، وأيديهم مكبلة، ووجوههم تغسلها الدموع، يعتصرهم الألم والحزن على فراق بيوتهم وعائلاتهم ووطنهم»، دون أن يعلموا إلى أين يساقون.

وسمح للنساء الموركسيات بأن يبقين مؤقتاً، لإعطائهن بعض الوقت كي يبعن ممتلكاتهن ومقتنياتهن، وسرعان ما تبعن الرجال على دفعات منفصلة. وفي ذلك كتب أورتادو دي مندوسه، الذي راقب مغادرة النساء أنه «لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الشفقة على نساء عرفهن سيدات كريمات في بيوتهن». وكثير من هؤلاء النساء لم يجتمعن ثانية بعائلاتهن، إذ اختطفهن مرافقوهن في الطريق وباعوهن جواري. وتركوا خلفهن حياً مدمراً لا يقطنه غير حفنة من التجار الموركسيين الأغنياء وخدم النصارى، وهو آخر بقايا أحد أقدم الأحياء الإسلامية وأشهرها في إسبانيا.

***

ورغم هذه الأحداث، كان مد الثورة خارج العاصمة يتحول في صالح الثوار. ففي مايو 1569، قاد ابن أمية بنفسه قوة من عشرة آلاف موركسكي في هجوم ضخم على معسكر المركيز دي بلش في بلدة برجة[1]. ومع أن النصارى صدوا الهجوم، فإنه كان مؤشراً على القوة والثقة الجديدتين لقوات ابن أمية. وتدريجياً بدأ الموركسيون يتصرفون كجيش عصابات منضبط له قادته وسراياه ومناطقه العسكرية. وفي بعض أجزاء البشرات كان الثوار آمنين لدرجة أنهم تمكّنوا من زراعة محاصيلهم بلا خوف من استيلاء الخصم عليها، وكانوا يستخدمون الدخان كإشارة للإعلان عن

(1) Berja في اللغات الأوروبية [المترجم].

اقتراب الجيوش النصرانية.

وكانت الأرتال النصرانية المنعزلة أو ضعيفة الحماية، التي تنتقل خلال البشرات عرضة لكمائن منسقة، كانت تبدأ بدق الطبول ونفخ القرون والأبواق يليها ظهور الموركسيين بعماماتهم البيضاء مسلحين بما تيسر لهم، من السيوف والهركوبات إلى الأقواس ذات السهام السامة والسكاكين والحجارة. وعادت بعض البلدات الثائرة مثل أجيجر[1] مرة أخرى إلى سوق شمال إفريقي، تباع فيها الأسلحة والبضاعة القادمة من المغرب علانية. ورغم الحصار البحري الإسباني، ظل القراصنة ينزلون بانتظام إلى الساحل لتبادل الأسلحة والذخيرة والمؤن في مقابل الأسرى النصارى، وهي التجارة التي أوجزها الموريسكيون بالعبارة المشهورة «نصراني واحد في مقابل بندقية واحدة».

ضمت صفوف الثوار أيضاً متطوعين من شمال إفريقيا، وهي المرة الأولى التي يقاتل فيها جنود مسلمون أجانب بأعداد كبيرة على التراب الإسباني منذ قرون. ففي أغسطس، عاد القائد الموريسكي إيرناندو الحبقي Hernando el Habbaqui من الجزائر بمئات المتطوعين، بعد أن منح القلج عفواً عن المجرمين أو الهاربين من القانون، الراغبين في القتال كغزاة أو مجاهدين على التخوم الإسلامية. وضم هؤلاء المجندون أيضاً جنوداً أتراكاً ذوي خبرة ومجاهدين أمازيغيين كانوا يلبسون أكاليل من الزهور وملابس بيضاء حين يدخلون القتال، في إعلان عن رغبتهم في الاستشهاد في الحرب ضد الكفار. وإجمالاً، فقد شارك نحو أربعة آلاف مقاتل تركي وأمازيغي في أوقات مختلفة بجانب القوات الموريسكية، التي كانت أعدادها إجمالاً تُقدّر بين خمسة وعشرين ألف مقاتل وخمسة وأربعين ألفاً في ذروة الثورة. على أن العدد الدقيق للمقاتلين المسلحين والمساندين

(1) Ugíjar في اللغات الأوروبية [المترجم].

المدنيين غير معروف، ذلك أن كثيراً من النساء كن يقاتلن ويستشهدن بجانب الرجال باستخدام ما توافر لهن من أسلحة. وقد لاحظ شاهد عيان نصراني نساء مورسكيات في معركة في يناير 1569 بالقرب من المرية يقاتلن «بالأحجار وأعواد الأفران». وفي فليش ألقت النساء المورسكيات التراب في وجوه الفرسان النصارى، ومزقن بطون خيولهم بالسكاكين[7].

لكن رغم الأسلحة التي كانوا يحصلون عليها من شمال إفريقيا، ظل المورسكيون دائماً أقل تسليحاً بكثير من أعدائهم. وكان النصارى أيضاً يفوقونهم عدداً، وتضم صفوفهم جنوداً محترفين وجيوشاً إقطاعية خاصة ومليشيات حشدتها المجالس البلدية عبر غرناطة وأندلوسيا. وكان بعض النصارى تحركهم الرغبة في الانتقام، مثل النبيل ايرناندو دي كوسادا Hernando de Quesada، الذي أسس جيشاً خاصاً باسم «ماجدي الصليب» Gentlemen of the Cross، بعد أن قتل المورسكيون أباه في بدايات الثورة. لكن كثيراً من الجنود النصارى جذبتهم إلى الحرب فرص السلب والنهب، ومع غياب هذه الفرص تراجعت روحهم المعنوية سريعاً. ففي صيف عام 1569، عزل المركيز دي بلش وجيشه بلا طعام على الساحل الغرناطي، لأن المسؤولين وضباط الإعاشة النصارى الفاسدين استنزفوا المؤن، التي كان يفترض أن تصلهم. ولم يجد جنود المركيز غير صيد السمك لإطعام أنفسهم، وسرعان ما انفضوا من حوله ولم يتبق معه غير أقل من ألف مقاتل.

ألقى دييغو أورتادو دي مندوسه باللائمة عن هذا الفساد وسوء الإدارة على «رجال الدولة، الذين كان يسرهم أن تزداد الاضطرابات كي تزداد الأزمة سوءاً». لكن هؤلاء كانوا الرجال الذين يسمع لهم فيليب. وفي الشهر التالي استدعى الملك موندخار إلى مدريد، وبذلك أخرج أكفأ القادة النصارى من الحرب. وعلى مدار النصف الثاني من عام 1569، بقي

جيش دون خوان ساكناً في العاصمة الغرناطية، وهو أمر يتعذر تفسيره، فيما كانت الثورة تتحول إلى مأزق دامي. وإجمالاً، كانت المناطق الجبلية الأوعر بالبشرات تخضع لسيطرة الثوار، في حين كانت السهول والوديان النهرية يجوبها الفرسان النصارى بالرماح ودروع الصدر والخوذ المُرَيّشة، وصفوف من جنود الهركوبات والرماحين ترافقهم قوافل تموينية محملة بالسلع المنهوبة من بيوت المورسكيين، وطوابير من العبيد المكبلين وقطعان الخراف والماشية المسروقة.

وفي يونيو من ذلك العام، وصلت فرقة جنود من فيلق نابولي إلى غرناطة بقيادة السفير الإسباني في روما لويس دي ريكيسنس Luis de Requesens [1]. كان الجنود الإسبان المخضرمون بسرايا الفيلق، الذي كانت خدمته في أغلبها خارج إسبانيا، من أصلب وأكفأ المقاتلين في العالم في ذلك الحين، وسرعان ما أظهروا مهاراتهم العالية بهجوم على حصن فرجليانة[2] المورسكي في جبال بني طوميز[3] الجرداء. وفي المعركة اليائسة التالية، أزاح الرجال والنساء المورسكيون الصخور والأحجار على الجنود، قبل أن ينجح الجنود في اقتحام الحصن وفرض العقاب الدامي المعتاد على الباقين الأحياء.

وفي هذا الصيف، ووسط هذه المجازر والخراب، حاول ابن أمية أن

(1) مع أن هذا الفيلق إسباني، تذكر بعض الروايات العربية أن الثورة المورسكية كانت منظمة وقوية لدرجة أن الملك الإسباني المذعور على عرشه وغير الواثق في قدرة جيوشه على قمع الثورة وجه نداءات إلى البابوية والممالك النصرانية الأوروبية طالباً الدعم والمتطوعين لحرب الأندلسيين، الذين كانت حربهم تهدد بعودة إسبانيا إلى المسلمين وضياعها من النصارى مرة أخرى. ولذلك فإذا كانت البشرات آخر الحروب، التي قاتل فيها مسلمون من خارج إسبانيا على التراب الإسباني، فيمكن اعتبارها أيضاً آخر الحروب الصليبية التي توافد فيها نصارى غير إسبان لحرب المسلمين على التراب الإسباني [المترجم].

(2) Frigiliana في اللغات الأوروبية [المترجم].

(3) Sierra Bentomiz في اللغات الأوروبية [المترجم].

يرفع الروح المعنوية لجنوده بتنظيم سلسلة من الألعاب والاحتفالات في برشانة[1] بالمرية؛ مقر أبي عبيدل قبل سقوط غرناطة، وإحدى البلدات القليلة التي ظلت تحت سيطرة الثوار. وصف بيريث دي هيتا هذه الاحتفالات بإسهاب برقة وحماسة شاعريتين تقفان على طرف النقيض من العنف الدموي الذي يصوّره في مواضع أخرى. ففي سرده البارع، تحوّلت برشانة إلى عالم مصغر للأندلس، حيث تزدان البلدة كلها بالأقمشة الحريرية والأعلام المثلثة، ويجتمع ابن أمية ورعاياه في الميدان الرئيس، ليشاهدوا الجنود الأتراك والمورسكيين وهم يشاركون في أحداث رياضية فروسية. فهناك مسابقات رفع أثقال ومباريات مصارعة وجوائز للرجال الذين يرقصون أفضل رقصة زمرة ومسابقات غنائية للنساء. وفي إحدى هذه المسابقات تصعد «الحسناء مورة»، لتغني أمام السلطان المورسكي بلباس أسود حداداً على أبيها وإخوتها الأربع، الذين قتلوا في الحرب.

كانت مورة تدق على صحن كدف، وهي تغني بالعربية «بصوت ناعم ورقيق وحزين»؛ أغنية أدخلت جمهورها في حالة من الصمت المروّع. تنبأت مورة في أغنيتها بأن الثورة ستفشل، وأن زعماءها سيقتلون جميعاً، بما في ذلك ابن أمية نفسه، قبل أن تختتم أغنيتها بهذه الكلمات:

إن الأطواق النصرانية غليظة.

سيعودون مكللين بالمجد،

محملين بالغنائم.

وأنا أبكي على مصيبتي،

والقبر الذي ينتظرني الآن[8].

وبمجرد أن أكملت «الحسناء مورة الحزينة» أغنيتها، أصدرت تنهيدة طويلة بائسة، وسقطت ميتة أمام جمهورها المذهول. وحتى مع الأخذ بعين

(1) Purchena في اللغات الأوروبية [المترجم].

الاعتبار الحرية الشعرية الكبيرة التي أعطاها بيريث دي هيتا لنفسه، فإن القصة تمسك بشيء من التأثير المأساوي لهذا النزاع الوحشي على المجتمع المورسكي، الذي كانت إسبانيا النصرانية دائماً تعتبر أفراده زنادقة وبرابرة ووحوشاً غير آدمية. والمسار الذي تصوّره شخصية «مورة» الخيالية عند دي هيتا عكس المسار الفعلي للأحداث، إذ بدأت الدولة الهابسبورغية أخيراً في حشد مواردها الهائلة ضد الثوار.



13

الهزيمة والعقاب

تزامنت ثورة غرناطة مع سلسلة من التحديات والأزمات عصفت بالإمبراطورية الهابسبورغية في مختلف أرجائها، من الثورات في منطقة الفلاندر والأمريكتين إلى النزاع المرتقب مع فرنسا التي نسبها كابريرا القرطبي جميعاً إلى «البرابرة، الناقمين، الأوغاد الأفاكين، المرتدين المدنسين، الذين فعلوا كما يفعل اللقطاء والخونة، رغم الدم الذي بذلته إسبانيا من أجلهم، فأداروا أسلحتهم نحو أمهم التي أهرقوا دمها غزيراً وهي توقف عنفهم وتردع عصيانهم»[1]. وبحلول خريف عام 1569، كان دم كثير قد أهرق في غرناطة. على أن ثورة المورسكيين، حتى في أوجها، كانت في الأساس رداً عنيفاً على الظلم النصراني، بلا هدف طويل المدى. فبعض الثوار أرادوا وحسب أن يضغطوا على فيليب لإبطال المرسوم الملكي، وبعضهم أراد تأسيس جيب إسلامي مستقل في غرناطة، وإطلاق عملية استرداد إسلامية. ومع غياب تدخل تركي كبير أو مشاركة إخوانهم في الدين من المناطق الأخرى بإسبانيا أو حتى داخل غرناطة الحضرية، كان هذا الحكم الذاتي هشاً دائماً. وطالما بقي المورسكيون معزولين في منطقة جغرافية صغيرة، فقد ظلوا عرضة لهجمات مضادة نصرانية منظمة، ونال الضعف من الثورة بفعل التنافس الداخلي نفسه، الذي سبق أن قوّض

المقاومة النصرية للغزو النصراني لغرناطة.

لم تكن أهداف ابن أمية واضحة كلياً، حتى لأتباعه. ففي بعض الأحيان بدا مستعداً للتفاوض على معاهدة سلام مع النصارى، وفي مناسبات أخرى أعدم أتباعه لمجرد أنهم حاولوا أن يفعلوا ما فعله. ومع إنهاك الثوار، بدأ السلوك التعسفي والاستبدادي للسلطان الموريسكي وتصرفاته العصبية في الحرب تبعد عنه أتباعه. وفي خريف عام 1569، وصلت هذه التوترات أوجها، حين أهان ابن أمية رفيقاً له يدعى دييغو الوزير[1] بأخذ خطيبته خليلة له. فانتقم الوزير لنفسه بالتخطيط مع بعض الموريسكيين الساخطين على ابن أمية وقادة أتراك لقتله[2]. وفي ليلة العشرين من أكتوبر قتله المتآمرون خنقاً في «قصره» بقرية لوشر دي أندرش Laujar de Andrax [2]. وانتقل لقب «سلطان أندلوسيا وغرناطة»[3] إلى أحد

(1) Diego Alguacil في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) هذه الرواية للانقلاب على ابن أمية ومقتله تختلف عن رواية عربية تذهب إلى أن ابن أمية أرسل إلى المجلس الحربي بغرناطة يعرض تسليمهم ثمانين أسيراً نصرانياً في مقابل اطلاق سراح أبيه وأخيه اللذين كانا محتجزين بين الرهائن في سجن غرناطة الذين ورد قبل ذلك أن ديثا أطلق جنوده عليهم وقتلوهم جميعاً، فرفض الإسبان وأجبروا والد محمد بن أمية على الكتابة له ناهياً إياه عن متابعة الثورة ونافياً تعرضه للإهانة، فاغتنم بعض رجال ابن أمية المتعاونون مع الإسبان هذه الرسالة، وعلى رأسهم دييغو الوزير، للوقيعة بينه وبين المتطوعين الأتراك والعرب القادمين من الجزائر، وأشاع الوزير أن ابن أمية ينوي مهادنة الإسبان وساعده الإسبان في تأكيد هذه الشائعة، وزوّر الوزير بالتعاون مع أركش كاتب ابن أمية رسالة منه إلى قائده محمد بن عبو بحيث تظهر أنها أمر لحامل الرسالة بقتل ابن عبو، علماً أن ابن أمية كان لا يحدد للقوات وجهتها ولا مهمتها إلا برسائل وهي على الخطوط الأمامية نفسها كي لا تتسرب أنباء التحركات إلى العدو الإسباني فيستعد ويأخذ حذره، فعادت القوات ومعها الأتراك وواجهوا ابن أمية بالأمر، ولم يصدقوا نفيه للرسالة المزوّرة، فأمروا بحبسه وكلفوا الوزير وأركش بحراسته، لكنهما قتلاه خنقاً في ليلة العشرين من أكتوبر 1569 [المترجم].

(3) المقصود مملكة أندلوسيا Andalusia وغرناطة اللتين شاركتا في الثورة وليس الأندلس التاريخية [المترجم].

المتآمرين، وهو ابن عم ابن أمية يدعى عبدالله ابن عبو[1]، مورسكي آخر من ذرية الأمويين، يقال إنه فقد خصيتيه حين شنقه جنود نصارى على شجرة في بدايات الحرب.

احتفل ابن عبو بتتويجه بحصار بلدة أرجبة الإستراتيجية بالبشرات، التي اشتهرت حاميتها النصرانية بنهبها للقرى المورسكية المحيطة. نجح الثوار في تطويق البلدة وأخذوا يحفرون خنادق بهدف تجويع سكانها حتى الاستسلام، حين علموا أن رتلاً من الجنود النصارى أرسل من غرناطة لفك الحصار بقيادة دوق سيسه Duke of Sesa.

سلخ ابن عبو معظم قواته دون أن يشعر السكان المحاصرين ونصب كميناً لرتل الإغاثة في مناورة جريئة وصفها الجندي المخضرم دييغو أورتادو دي مندوسه أنها «تكتيكات ماهرة جداً لا تُرى إلا نادراً». وفي معركة ليلية شرسة، أجبر الدوق ورجاله على التقهقر إلى العاصمة، وفي النهاية اضطروا لإجلاء الحامية. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي استطاع فيها المورسكيون أن يستردوا بلدة من أيدي النصارى، لكنهم أجبروا سريعاً على التخلي عنها مرة أخرى مع دخول القتال مرحلة جديدة من الشدة. ففي التاسع عشر من أكتوبر، أعلن فيليب أن الحرب يجب أن تخاض بالنار والدم؛ أي «حرب بلا رحمة ولا هوادة». وبغرض تحفيز الجيوش النصرانية، أعطى فيليب جنوده حرية النهب وأخذ العبيد لأنفسهم، حتى إنه أعفاهم من خمس الغنائم، الذي كان يؤدى عادة للتاج[2].

ومع أن فيليب أعلن رفضه أخذ الأطفال المورسكيين تحت عمر

---

(1) Abdullah Aben Aboo وتعرّب بعض المصادر العربية اسمه إلى عبدالله بن أبيه [المترجم].

(2) ها هو فيليب يأخذ نصيباً من الغنائم مثل «قراصنة» شمال إفريقيا، وفي حالة حرب البشرات تبرع به لجنوده وأطلق أيديهم في القتل والنهب والأسر تشجيعاً لهم بسبب خوفه من قوة الثوار [المترجم].

العاشرة عبيداً، وأمر بدلاً من ذلك بتسليمهم إلى عائلات نصرانية لضمان أن يتلقوا التنشئة الكاثوليكية الصحيحة، فإن هذا القيد لم يراع إلا نادراً، إذ استغل العسكر النصارى فرص التربح التي أتاحتها الحرب، سواء أكانت في شكل عبيد أم سرقة الخراف والماشية واللوز والزبيب وغيرها من الثمار، أم الملابس والحلي المسلوبة من النساء المورسكيات اللاتي قتلوهن. وبيع الآلاف من النساء والأطفال لتجار العبيد، الذين كانوا يرافقون الحملات العسكرية، أو أخذوا إلى أسواق العبيد الصاخبة بالموانئ والمدن الإسبانية. وفي السادس والعشرين من ديسمبر، قرر فيليب أن ينقل مجلس قشتالة إلى قرطبة لـ«يعطي الدفء ويقدم العون عن قرب في قلاقل غرناطة»[3]. وفيما تبقى من الحرب، كانت نجاحات الثوار قليلة ومتباعدة.

***

كان التحرك السريع من جانب فيليب مدفوعاً جزئياً بالقلق من الموقف الدولي المنذر في شتاء 1569-1570. ففي هولندا كانت هناك شائعات حول غزو وشيك من جانب الثوار بقيادة المنفي وليام الأورانجي. وكانت سفن القرصنة الهولندية المعروفة بالشحاذين البحريين[1] تهاجم السفن الإسبانية من إنجلترا. وفي القسطنطينية، ذكرت تقارير الجواسيس الإسبان أن العثمانيين كانوا يعيدون تجهيز أسطولهم. وفي يناير 1570، قاد القلج؛ الحاكم التابع للعثمانيين في الجزائر، جيشاً استولى على تونس بلا مقاومة، وأنهى خمسة وثلاثين عاماً من السيطرة الإسبانية على المدينة.

(1) في العقدين السادس والسابع من القرن السادس عشر، كانت الثورة الهولندية من أجل الاستقلال عن إسبانيا في أوجها، وفي أثنائها قام مغامرون وقراصنة ووطنيون هولنديون عرفوا باسم الشحاذين البحريين sea beggars بالقرصنة على السفن الإسبانية، منطلقين من ميناء إمدين Emden على ساحل مقاطعة فريزلاند الهولندية ولاروشيل La Rochelle على ساحل فرنسا ودوفر Dover على ساحل إنجلترا، وكان الشحاذون البحريون يهاجمون سفن كل الدول وقرى ومدن الصيد على ساحل المقاطعات الهولندية، ومن أكبر عملياتهم هزيمتهم لأسطول إسباني في العاشر من يوليو 1568 [المترجم].

وعلى مدار الشتاء، عاشت الحكومة الإسبانية تترقب هجوماً تركياً-إسلامياً على إسبانيا لمساعدة الموركسيين. لكن سليم الثاني كان يستعد لفتح قبرص، التي كانت مستعمرة بندقية وقتذاك، وصدّ وفداً موركسياً إلى القسطنطينية في ذلك الشتاء حاول إقناعه بغزو إسبانيا.

كان احتمال التدخل التركي يؤخذ بجدية كبيرة لدرجة أن فيليب نفسه حذّر السفير البابوي في أكتوبر 1569 من أن تحالفاً تركياً-موركسياً قد يؤدي إلى هزيمة إسبانيا. وفي مارس من العام التالي، أمر فيليب رجال الدين في أنحاء إسبانيا كافة بالصوم والصلاة والدعاء «بألا يهاجم الأسطول التركي العدو المشترك للنصرانية» الممتلكات الإسبانية في شمال إفريقيا أو «يساعد الثوار الموركسيين في مملكة غرناطة أو يشجعهم».

في ذلك الوقت، كانت تقارير الثورة قد بدأت تنتشر خارج إسبانيا، رغم محاولات فيليب التكتم عليها. ففي يونيو 1570، أخبر السفير الإسباني في إنجلترا غيراو دي سبس Guerau de Spes الملك فيليب أن جاسوساً إنجليزياً مجهولاً في بلاطه أدخل البهجة مؤخراً على مجلس شورى الملكة إليزابيث بأخبار تؤكد أن الثورة الغرناطية كانت «تزداد سوءاً بالنسبة إلى النصارى»[4]. وزعم دي سبس أيضاً أن الملكة الإنجليزية كانت تخطط لنقل الأسلحة والتجهيزات إلى الموركسيين عبر ملك فاس. وفي الثاني من أكتوبر 1569، كتب فرانسيس دي ألابا Frances de Alava لفيليب من فرنسا عن انتشار شائعات تقول: إن إسبانيا تتكبد خسائر جسيمة في الثورة، وأن الناس يصدقون أن «الأندلسيين وصلوا أبواب غرناطة، ويأخذون الحيوانات والحبوب والطحين والناس من مرج غرناطة»[5].

وعلى نحو ما توقع فيليب، أدت الصعوبات التي واجهتها إسبانيا في قمع الثورة على أراضيها إلى إلهام الثوار خارج حدودها. وفي ذلك كتب الأمير الهولندي وليام الأورانجي لأحد رفاقه حين علم بانتقال فيليب إلى

قرطبة: «إن ذلك مثال لنا، فلقد تمكن الأندلسيون من المقاومة لمدة طويلة، على الرغم من أنهم قوم لا يملكون غير قطيع من الخراف. ماذا إذن يمكن لشعب البلاد الواطئة أن يفعل؟... سنرى ماذا سيحدث إذا تمكّن الموركسيون من الصمود إلى أن يرسل إليهم الأتراك بعض الدعم»[6].

أدرك فيليب ووزراؤه بألم عجز الإمبراطورية الإسبانية عن إخماد ثورة على ترابها. وفي الثالث والعشرين من ديسمبر 1569، تم إمداد قوات دون خوان بشحنة ذخيرة من مصانع الأسلحة الإيطالية، وخرجت أخيراً من غرناطة لتبدأ في تهدئة جبال البشرات. بدأ الهجوم النصراني الذي طال انتظاره على نحو مخز بغزو بلدة واجرش سيرا Guejar Sierra، التي تخلى عنها الثوار دون قتال، وأخذوا معهم نساءهم وأطفالهم إلى سيرانيفادا. وبينما لاحقت المليشيات النصرانية السكان إلى المرتفعات التي لجأوا إليها، تقدمت قوات دون خوان إلى معقل الثوار المحصن في غليرة Galera في سهل غرناطة. كانت غليرة تقع على صخرة ضخمة تشبه السفينة البحرية، ومن هنا جاء اسمها(1)، ولذلك كان حصارها سهلاً، وهو ما فعله الجيش الذي أعاد المركيز دي بلش تكوينه. وفي فبراير 1570، انضم جيش دون خوان إلى الحصار، وأصبحت غليرة مشهداً لواحدة من أكثر المعارك دموية في الحرب، حاول فيها السكان الموركسيون مدعومين بمتطوعين أتراك وأمازيغ صد زهاء ثمانية عشر ألف جندي نصراني مسلحين تسليحاً جيداً ومجهزين بمدافع ميدان.

ورغم الهجمات المتتالية ونيران المدفعية، لم تتمكن الجيوش المحاصِرة من اختراق الأسوار الطينية السميكة للبلدة أو تسلقها، بل كانوا يتراجعون مراراً وتكراراً أمام الدفاع الموركسي العنيد، الذي شاركت فيه النساء والأطفال، الذين كانوا يقذفون الأحجار على المهاجمين. كان من

---

(1) كلمة غليرة Galera في اللغة الإسبانية تعني سفينة القادس [المترجم].

بين النساء المدافعات عن البلدة امرأة تدعى ثركمودونيا Zarcamodonia، وصفها بيريث دي هيتا بأنها «متينة الجسم، لها ساقان وذراعان قويان، وتمتلك قوة كبيرة» كانت تقاتل بسيف ودرع، وقيل إنها قتلت ثمانية عشر جندياً بيديها. وانتهى الحصار أخيراً، حين استخدم خبراء الألغام النصارى الألغام لفتح ثغرات في الأسوار الدفاعية الحصينة للبلدة. ومع ذلك فقد اضطر جنود دون خوان إلى أن يشقوا طريقهم بالقتال خلال الشوارع المحصنة بالمتاريس، ويستولوا على البلدة بيتاً بعد آخر، لأن الموركسيين كانوا يدافعون عن بيوتهم بشراسة واستماتة. وكانت النساء يقاتلن بجانب رجالهن، ومنهم ثركمودونيا القوية التي نجح النصارى أخيراً في اقتناصها بالرصاص، للتغلب على تأثيرها الملهم على المدافعين الآخرين. وقاتلت موركسية أخرى في الشوارع بسيف في يد وتحت ذراعها الآخر أخواها الصغيران، قبل أن يقتل ثلاثتهم.

وفي بعض الحالات، اضطر الجنود النصارى إلى إحراق عائلات كاملة في بيوتها، لأن الموركسيين كانوا يصدون تقدمهم بأي أسلحة تقع تحت أيديهم، كالسيوف والسكاكين والمساعر الحديدية والأحجار. وبعد معركة دامت تسع ساعات، دانت البلدة أخيراً للنصارى، وأمر دون خوان جنوده بذبح السكان جميعاً عقاباً على تحديهم. فقتل نحو 400 رجل وامرأة وطفل قبل أن يوقف الأمير الهابسبورغي المذبحة، بعد أن احتج جنوده على حرمانهم من غنائمهم. فسيق الموركسيون الباقون على قيد الحياة، وهم نحو أربعة آلاف وخمسمائة شخص، إلى العبودية، في حين كان الجنود النصارى يمشطون البلدة بحثاً عن المال والملابس والمجوهرات. وحين اكتمل نهب البلدة، أمر دون خوان بهدمها تماماً، ونثروا الملح على الخرائب والأنقاض على الطريقة الرومانية، لتكون رسالة تذكير دائمة لثمن العصيان.

***

كان سقوط غليرة بداية النهاية للثورة، حيث اجتمعت ثلاثة جيوش نصرانية على البشرات من الاتجاهات المختلفة، وأخذوا يفتحون البلدات والحصون التي بقيت تحت سيطرة الثوار سريعاً. وفي مارس، أخبر دييغو أورتادو دي مندوسه الكاردينال إسبينوزا من مقره في قلعة قصر الحمراء بأن أكثر من عشرة آلاف ثائر «مبعثرين وجائعين» لا يزالون في الميدان، لكنهم لم يعودوا قادرين على شن عمليات هجومية. وفي مايو، لاحظ السفير الفرنسي فوركوفو أن الثورة الموركسية «تستنفد إسبانيا وتحرقها بلهب بطيء»[7]. لكن في ذلك الوقت، كان الثوار في تقهقر مستمر، فقد كانت الجيوش النصرانية تحرق البساتين والمحاصيل لقطع المؤن الغذائية عنهم وتدمر الطواحين وأحجار الرحى لمنعهم من طحن الحبوب. وعلى مدار الصيف والخريف أخذ الجنود النصارى يلاحقون الثوار في مخابئهم الجبلية. وفي هذه العمليات قتل مئات الموركسيين أو شنقوا أو ماتوا اختناقاً حين أشعل الجنود النيران في مداخل الكهوف التي لجأ إليها الثوار. وسيق الآلاف إلى أسواق العبيد في إشبيلية ولشبونة ومدن أخرى أثرت كثيراً على حساب الثورة والثوار.

ومع تناقص صفوف الثوار بشدة، بسبب الموت والهرب وشروع المتطوعين الأتراك والأمازيغ في العودة إلى شمال إفريقيا، بدأ بعض قادة ابن عبو في إجراء مفاوضات سلام فردية. وقد استغل المترجم الموركسي ألونسو ديل كاستيو هذه الانقسامات بدهاء، إذ زوّر خطابات ورسائل من الثوار والفقهاء تدعو الموركسيين إلى الاستسلام وتشدد على قوة الملك الإسباني وشهامته. أضعف هذا النوع من «الدعاية السوداء» الخاص بالقرن السادس عشر مقاومة الموركسيين كثيراً. وفي الثاني والعشرين من مايو، زار أحد قادة ابن عبو المؤتمنين، ويدعى إيرناندو

الحبقي، معسكر دون خوان لفتح مفاوضات الاستسلام، وقدم سيفه كبادرة على الاستسلام. قبل الأمير الهابسبورغي عرض الاستسلام وطلب منه بلطف أن يحتفظ بسيفه «لخدمة صاحب الجلالة»[1].

في ذلك الوقت، كان دون خوان نفسه قد بدأ في استنتاج أن ديثا وزمرته كانوا يعرقلون جهوده لإنجاز استسلام بالتفاوض. وفي أغسطس، طلب من فيليب إبعاد ديثا عن غرناطة، بجعله أسقفاً أو منحه «عطية أخرى» لأن «الرأي العام مجمع على أن الرئيس كان السبب الأول لثورة هؤلاء الناس، وقد أخبرني الحبقي في مناسبات مختلفة بأن المانع الأول أمام تراجعهم عن الثورة كان الخوف من المحاكمة أمام الرئيس، وأنا من جانبي لا أشك في ذلك»[8]. وقد كان من علامات منزلة ديثا لدى الملك أن هذا الطلب قوبل بالرفض.

لم يكن موقف ابن عبو من مفاوضات السلام واضحاً. تقول بعض الروايات إنه كان يفكر أيضاً في الاستسلام، في حين شجعه على مواصلة الثورة وصول فرقة جديدة من المتطوعين من شمال إفريقيا، وأياً كانت

---

(1) تقول رواية عربية إن شروط الاستسلام التي توصل إليها إيرناندو الحبقي لم تلغ أي من اشتراطات المرسوم الملكي، مثل حظر اللغة العربية واللباس الأندلسي، ولم تلغ التنصير الاجباري وأقرت تهجيرهم من البشرات، ولذلك رفضها ابن عبو واتهم الحبقي بتجاوز التفويض الممنوح له واتهمه بالغدر والخيانة، فعاد الحبقي إلى خوان وأخبره بما جرى، واقترح عليه الحبقي أن يأتي بابن عبو مكبلاً، ووافق خوان وأرسل معه ممثلاً لإقناع ابن عبو، لكن ابن عبو رفض وساند المتطوعون موقفه، فعمل الحبقي على إرجاعهم إلى بلدانهم وأخذ يروج للاستسلام، وتوجه على رأس قوة للقبض على ابن عبو، لكن المجاهدين هزموه وقبضوا عليه وسلموه مكبلاً لابن عبو الذي أعدمه على خيانته، ثم تابع ابن عبو التفاوض مع خوان على شروط أفضل من خلال إيرناندوا براداة والعمل في الوقت نفسه على استنهاض الأندلسيين في المناطق المختلفة للثورة. وتقول رواية أخرى إن الحَبَقي حل ضيفاً على دون خوان بعد مغادرة وفد التفاوض، وأن ابن عبو لما علم بذلك ثارت شكوكه في الحبقي وأكدتها شروط الاستسلام التي أقرت إبعاد المورسكيين عن البشرات، وأن الحبقي لما سمع بما جرى خرج من معسكر دون خوان إلى بيته في بلدة برشل Berchules، فأرسل إليه ابن عبو من قتلوه ورموه في بئر [المترجم].

الحقيقة، فقد أعدم الحبقي بأوامر منه لدى عودته من معسكر دون خوان. وعلى مدار ما تبقى من العام، ظل ابن عبو وبضعة آلاف ثائر يتنقلون بين مرتفعات البشرات، حيث أخذ جنود الفيلق بقيادة لويس دي ريكيسنس يلاحقونهم بلا هوادة. وفي ذلك كتب ريكيسنس إلى أحد سكرتيري فيليب في نوفمبر: «إنني لا تأخذني شفقة ولا رحمة بهؤلاء الناس... وقد أعدمت عدداً لا يحصى منهم بالسيف». وفي ذلك الوقت كان أغلب المقاتلين الأتراك والأمازيغيين قد سمح لهم بالعودة إلى شمال إفريقيا، وتوقفت المقاومة المورسكية المنظمة.

وعلى غرار ما حدث في ثورة عامي 1500-1501، صاحب إخضاع البشرات اندلاع جديد للثورة بالقرب من رندة في الخريف، حين عاث الجنود النصارى، في إحدى نوبات السكر، فساداً في بلدة أوبريك Ubrique المورسكية. ومرة أخرى ينتفض المورسكيون الغاضبون ثائرين ويلجأون إلى جبال الحمراء نفسها، التي دمرت فيها حملة ألونسو دي أغيلار المشؤومة قبل سبعين عاماً. وفي نوفمبر، قاد دوق أركوش حملة نصرانية جديدة على جبال الحمراء مرت عبر الهضبة نفسها، التي أبيد عليها أسلافهم التي كانت عظام الجنود والخيول والسروج والأسلحة الصدئة والدروع لاتزال متناثرة فوقها. لكن حملة أركوش لم تلاق المصير نفسه، بل ركّعت الثوار سريعاً. وباتباع تكتيك مكافحة الثورة، الذي يرجع إلى روما القديمة، شيّدت الجيوش النصرانية سلسلة من الحصون عبر جبال البشرات لمراقبة السكان المورسكيين. وحتى قبل أن يكمل ريكيسنس وأركوش عمليات التمشيط، قرر فيليب أنه لا بد من إجراءات أخرى طويلة المدى، لضمان ألا يشكّل المورسكيون الغرناطيون أي تهديد على الدولة مرة أخرى.

***

قبل فترة طويلة من اندلاع الثورة، كانت العناصر المعادية للموركسيين الأكثر تشدداً في غرناطة النصرانية تطالب بطرد السكان الموركسيين من المملكة، متذرعين بالاعتبارات الأمنية، فضلاً عن مصالح الدين. وفي يونيو 1569، تحقق هذا الهدف جزئياً بإبعاد السكان الموركسيين من ربض البيازين. وفي فبراير 1570، أمر فيليب ديثا بالشروع سراً في الاستعدادات لترحيل سكان غرناطة الموركسيين جميعهم إلى قشتالة. وتحت إشراف يقظ من ديثا، قسمت غرناطة إلى سبع مناطق إدارية، أمر مسؤولوها بجمع قوائم بأسماء الموركسيين في مناطقهم، وتوفير الطعام والمأوى في أثناء نقلهم. واستخدم جنود ومليشيات نصرانية إضافية من أندلوسيا لمرافقة الموركسيين إلى نقاط ترحيلهم في غرناطة ثم إلى قشتالة.

وفي أكتوبر فقط، أعلن فيليب نواياه وأمر كل الموركسيين في المملكة بالتجمع «مع أطفالهم ونسائهم، والرحيل إلى أجزاء وأماكن أخرى من ممالكنا»، كي نضمن «الأمن والسلام والهدوء الكامل» لغرناطة. لم تقابل هذه الأوامر بموافقة عامة في غرناطة النصرانية. فقد احتج دون خوان على قرار الملك، دافعاً بأن الترحيل سيلهي جنوده عن عملياتهم ضد الثوار الباقين. والتمست الكنائس والأديرة من فيليب أن يسمح ببقاء العمال الموركسيين في ضِياعها. وكتب الموركسيون أيضاً إلى الملك موضحين أنهم ظلوا موالين للتاج على امتداد الثورة. وقد لقي بعض هذه النداءات استجابة إيجابية. وفي عيد جميع القديسين[1]، في الأول من نوفمبر، بدأ الجنود والمليشيات النصرانية في اقتياد الموركسيين في غرناطة وجمعهم في الكنائس. وأعلن المنادون والبواقون في الهندن Alhendín بمرج غرناطة

(1) عيد جميع القديسين All Saints Day أو All Hallows أو Hallows عيد يحتفل به في الأول من نوفمبر في المسيحية الغربية، وفي يوم الأحد التالي لعيد الخميس في المسيحية الشرقية [المترجم].

وصول الفرسان وجنود المشاة من قرطبة، لإتمام عملية جمع المورسكيين. وفي بلدة بسطة[1]، أخبر المفوض الملكي ألونسو دي كارباخال Alonso de Carvajal المورسكيين بأن فيليب ينوي- من أجل حمايتهم- أخذهم إلى قشتالة ذات الحصاد الوفير، وأنهم «سيجدون فيها سعة من العيش» إلى أن يكون من الآمن إعادتهم إلى بيوتهم.

حققت هذه الكذبة الهدف منها، فتجمع المورسكيون بلا اعتراض، لكن عملية الجمع لم تجر سلمية دائماً. ففي توروش Torox بالقرب من مالقة، انفصل المورسكيون عن حراسهم النصارى، ونصبوا كميناً للجنود الذين أرسلوا لملاحقتهم قبل أن يعودوا لإحراق قريتهم بأيديهم. وفي بولودوي Bolodui، في وادي نهر المنصورة، قتل الجنود النصارى مائتي مورسكي قاوموا إبعادهم. وفر كثير من المورسكيين إلى الجبال، لكن معظمهم كانوا متفرقين ومحبطين عن القتال أو المقاومة، إذ نُفذ الإبعاد بكفاءة منهجية افتقرت إليها الحرب نفسها غالباً. ففي وسط الأمطار الغزيرة وثلوج الشتاء الأولى، اقتيد المورسكيون إلى نقاط تجميعهم في غرناطة، فيما وصفه دون خوان للسكرتير الملكي روي غوميث Ruy Gomez بأنه «أبشع منظر في العالم، ذلك لأنه في لحظة المغادرة هطلت أمطار وثلوج غزيرة وعصفت الرياح، فالتصق هؤلاء القوم المساكين ببعضهم وهم ينوحون. لا أحد يستطيع أن ينكر أن إخلاء مملكة من سكانها هو أقسى منظر يمكن تخيله»[9].

ولاحقاً وصف خينيس بيريث دي هيتا النساء المورسكيات وهن «يبكين وينظرن إلى بيوتهن ويعانقن جدرانها ويقبلنها مرات ومرات، وهن يتذكرن ماضيهن المجيد وإبعادهن الحالي والمستقبل المشؤوم الذي ينتظرهن» في إبعاد جماعي شبّهه بسقوط طروادة[10]. لكن الدوافع

---

(1) Baza في اللغات الأوروبية [المترجم].

الكامنة وراء هذا الإبعاد لها نظائر في العصر الحديث. فقد كان ترحيل المورسكيين في جزء منه أحد إجراءات مكافحة العصيان، قصد به تجفيف «البحر» المدني الذي ساند الثورة، وفي الوقت نفسه استئصال التهديد الإستراتيجي من ساحل إسبانيا الجنوبي. لكن هذا الإبعاد كان أيضاً شكلاً من الهندسة الاجتماعية، أريد به دفع هدف الدمج قدماً. فمن خلال توزيع أعداد صغيرة من المورسكيين على الأبرشيات النصرانية في أنحاء قشتالة كافة، أراد حكام إسبانيا تحطيم روابط التضامن الجماعي، التي افترضوا أنها هي التي منعت المورسكيين من الاندماج في المجتمع النصراني، فضلاً عن «تذويبهم» في الأغلبية النصرانية.

وبنهاية شهر نوفمبر، كانت المرحلة الأولى من الإبعاد قد اكتملت، وأخليت بلدات غرناطة وقراها وأحياؤها بالكامل تقريباً من سكانها المورسكيين. وفي الثلاثين من نوفمبر، غادر دون خوان غرناطة ليتولى منصباً جديداً، ويضيف لسجله مجداً جديداً كقائد لأسطول الاتحاد المقدس الذي تكون للقضاء على الاحتلال العثماني لقبرص[1]، قبل

(1) كانت قبرص تشكل رأس حربة للعدوان المسيحي على العالم الإسلامي، ولذلك قرر السلطان العثماني سليم الثاني ضمها، فتشكل الحلف المقدس من إسبانيا والبندقية والفاتيكان بقيادة دون خوان النمساوي، وباغت الأسطول العثماني الراسي في ميناء ليبانتو العثماني في اليونان، وكان قائدا البحر العثمانيان برتو باشا ومؤذن علي باشا اللذان كانا في الأصل قائدين بريين يفتقران إلى الخبرة البحرية، ولذلك رفضا اقتراح القادة البحريين ذوي الخبرة بعدم دخول معركة غير متكافئة والبدء بالقصف بمدافع القلاع العثمانية القوية، ثم خروج الأسطول العثماني إلى البحار المفتوحة بما يسمح له بالمناورة واستخدام مدفعيته القوية بفعالية ضد سفن التحالف المقدس، لكن برتو باشا رفض الاقتراح وأمر في السابع من أكتوبر 1571 بالقتال بالقرب من الساحل، في حالة من الشجاعة والاستبسال غير المحسوبين. فهُزم الأسطول العثماني ودُمر تماماً، وقُتل قائد البحر مؤذن علي باشا وابنه في بداية المعركة وأسر ابنه الثاني، وغرقت سفينة القيادة العثمانية ببرتو باشا وسحبت إلى الشاطئ بتضحيات كبيرة. ومع أن قائد البحر القلج أو علوج علي باشا أبلى جيداً ودمر الأسطول المالطي كاملاً، فإن العثمانيين خسروا مئة واثنتين وأربعين سفينة بين غارقة وجانحة، وأسر الصليبيون ستين سفينة عثمانية =

حتى أن يكتمل ترحيل المورسكيين إلى الأماكن المخصصة لهم. وظل المفوضون الملكيون والقضاة الأول والمسؤولون البلديون من أنحاء البلاد كافة يوافون فيليب ووزراءه بأخبار تقدم عمليات الترحيل عبر مئات الرسائل التي لاتزال موجودة في الأرشيفات الرسمية الإسبانية في شانت مانكش[1]. تقدم هذه الوثائق الباهتة لمحات كئيبة لجهاز بيروقراطي من القرن السادس عشر لم يكن على مستوى الإنسانية المسحوقة والمحطمة، التي كان مطالباً بإعاشتها ونقلها.

كان كثير من المبعدين المورسكيين مرضى وجوعى وجرحى ومصابين بعد عامين من الصراع الوحشي. وكانت أرامل الحرب وأيتامها والعجائز والمرضى غير القادرين على السير وحتى الأطفال الصغار جداً يشكّلون جميعهم جزءاً من هذا الترحيل الكئيب، الذي يشبه الترحيل الإجباري في القرن التاسع عشر لهنود الشيروكي المعروف بقافلة الدموع[2]. فقد أخذ نحو واحد وعشرين ألف مورسكي إلى موقع

= واستولوا على مئة وسبعة عشر مدفعاً كبيراً ومائتين وستة وخمسين مدفعاً صغيراً وحرروا ثلاثين ألف مجدف نصراني كانوا أسرى على السفن العثمانية، وخسر العثمانيون زهاء عشرين ألف مقاتل، منهم ثلاثة آلاف وأربعمائة وستين أسيراً، وخسر الصليبيون ثمانية آلاف قتيل ومئات الأسرى. كانت هذه المعركة من أشرس المعارك البحرية، وكان تأثيرها المعنوي على طرفي الصراع أكبر من تأثيرها المادي، فعلى الرغم من أن العثمانيين أعادوا بناء أسطولهم واحتفظوا بقبرص، التي فتحوها في الأول من أغسطس 1571، فإن هيبة الدولة العثمانية في أعين الأوروبيين قد سقطت، ولم تعد الدولة التي لا تقهر، وبدأت بعدها تراجعها الطويل [المترجم].

(1) Simancas في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) قافلة الدموع Trail of tears هو الاسم الذي أطلق على إبعاد الشعوب الأمريكية الأصلية، منهم شعوب شيروكي ومسكوكي وسيمينول وتشيكاساو وتشوكتاو وغيرها، من موطنهم بالإقليم الهندي بجنوب شرق الولايات المتحدة (شرق أوكلاهوما الحالية) بعد قانون إبعاد الهنود لعام 1830، وينصرف الاسم تحديداً إلى إبعاد شعب شيروكي في عام 1831، الذي عاني فيه الهنود من الجوع والمرض، ومات فيه أربعة آلاف من أصل خمسة عشر ألف مبعد [المترجم].

الترحيل في بلدة البسيط(1)، وصل ستة آلاف منهم في اليوم نفسه، واقتيد اثنا عشر ألفاً آخرون إلى قرطبة. وفي ديسمبر، كتب رئيس بلدية مولينا دي مسكرة Molina de Mosquera إلى فيليب ليخبره بأن عشرة آلاف وخمسمائة موركسي كانوا في انتظار نقلهم إلى إشبيلية، منهم «رجال ونساء وأطفال... عرايا ودون أي حماية، وجميعهم في حاجة ماسة إلى المعاطف والطعام». وذكر رئيس البلدية أن بعض هؤلاء الموركسيين هاجمهم مرافقوهم النصارى وجردوهم من ملابسهم، وطلب بإلزام هؤلاء الجنود بإعادة ما سرقوه[11].

وفي إشبيلية، أشرف على إبعاد الموركسيين الكونت بريغو Count of Priego، الذي أطلع فيليب في نوفمبر على أن أربعة آلاف وثلاثمائة مبعد وصلوا من المرية على أربع وعشرين سفينة، كان كثيرون منهم «محطمين تماماً، ومساكين، ومنهوبين، ومرضى لدرجة تثير الشفقة»[12]. وفي رسالة أخرى في الشهر نفسه، وصف بريغو الصعوبات التي واجهها في توفير وسائل الإعاشة للموركسيين في مدينة كانت قبل وصولهم «في حاجة ماسة إلى الخبز».

ومن مواقع وصول السفن، اقتيد الموركسيون سيراً على الأقدام إلى البلدات والقرى في أنحاء قشتالة كافة عبر قوافل في كل منها ألف وخمسمائة مبعد برفقة جنود نصارى. وبعض القوافل كانت ترافقها عربات تحمل ممتلكات المبعدين، وكذلك الأطفال الصغار والمرضى والمسنين، الذين لم يكونوا يقوون على المشي. لكن لم تكن هناك عربات كافية لهذا الغرض، لذلك اضطر الموركسيون الأقل قدرة جسدياً على السير بمتوسط اثني عشر ميلاً في اليوم في طقس بارد وعاصف جداً. ومات كثيرون منهم بسبب الجوع والمرض، أو التخلي عنهم في جبال قشتالة وسهولها في أثناء

(1) Albacete في اللغات الأوروبية [المترجم].

عبورها، وقد دفنوا في قبور سطحية على جانبي الطريق، في حين ظل آخرون عرضة للانتباه اللصوصي من جانب مرافقيهم. ومع أن فيليب أمر مسؤوليه بضمان عدم تمزيق العائلات، فقد تفرق الأقارب والأشقاء والأطفال غالباً في أثناء الرحلة، وفي حالات كثيرة بسبب تعرضهم للاختطاف.

ارتفع معدل الوفيات بين الموريسكيين كثيراً بسبب وباء الحمى النمشية التي جعلتهم محلاً للخوف والعداء من جانب السكان النصارى الذين مروا بهم. ففي ميريدا Mérida بإشتريمادورا، أخبر أحد المسؤولين فيليب بأن أكثر من نصف الثلاثمائة موريسكي الذين وصلوا إلى المدينة قد ماتوا، واشتكى من أن السكان النصارى المحليين «لا يوطدون أنفسهم على تقديم الإحسان، بل يهربون منهم لأن أرض اشتريمادورا مليئة بالمرض، وهم يفهمون أن الشر جاء معهم»[13]. وقد ألقى الكاتب الطبي الإسباني لويس دي تورو Luis de Toro باللائمة على المبعدين عن انتشار العدوى، التي كانت «فتاكة بشكل خاص بين الساراكينوس بسبب البرودة الشديدة والفاقة الحادة التي كان عليهم أن يتحملوها بسبب الحرب»[14].

وأرسلت تقارير مماثلة من آبلة وبلد الوليد، ذكر فيها القاضي الأول المحلي أن ألف موريسكي وصلوا على ثلاث دفعات «مات كثيرون منهم ويموتون كل يوم». على أن النصارى لم يجتمعوا كلهم على الخوف من هؤلاء المبعدين أو احتقارهم، فقد تأثر أنطونيو دي سالاسار عضو مجلس مدينة بلد الوليد بمنظر موريسكي يدعى خوان رودريغوث وزوجته ماريا وصلا «مريضين لدرجة ملأتنا شفقة عليهما»، حتى إنه أعطاهما طعاما وملابس وأسكنهما في بيته حتى تعافيا[15].

لقد أبعد خمسون ألف موريسكي على الأقل في شتاء 1570–1571، وربما بلغ العدد الإجمالي ثمانين ألفاً، منهم من غادر بعد عمليات الإبعاد

السابقة من ربض البيازين، وعمليات الطرد الخاصة الأخرى التي نفذها القادة النصارى قبل إبعاد نوفمبر وبعده. وقد مات زهاء عشرين بالمئة من الموركسيين الذين أبعدوا عن غرناطة في ذلك الشتاء أو هربوا أو بيعوا عبيداً. وبعضهم شقوا طريقهم ثانية إلى غرناطة، وتحول غيرهم إلى قطاع طرق، أو استطاعوا «أن يعبروا إلى الجانب الآخر»، أي إلى شمال إفريقيا.

واجه الباقون على قيد الحياة مستقبلاً مريراً في مجتمع قشتالي كان ينظر إلى الغرناطيين المطرودين بعين الخوف والريبة. ولقد طبقوا عليهم كل اشتراطات مرسوم غرناطة، فحظرت اللغة العربية بصرامة، سواء في الأماكن العامة أو في البيوت، وفرضت عليهم متطلبات خاصة تتعلق بحضور القداس والاحتفال بالأعياد النصرانية، ومنعوا من التجمع في مجموعات أو السفر إلى غرناطة أو بلنسية، وألزموا بحمل بطاقة هوية خاصة. وإذا اضطر أحدهم إلى الغياب عن بيته الجديد لأكثر من ليلة واحدة، كان عليه أن يخبر القضاة المحليين. ولم تكن هذه القيود جميعاً كافية في نظر قاض من بلد الوليد، اقترح وسم الموركسيين على جباههم بأسماء محال الإقامة التي وزعوا عليها، وهي عادة كانت تتبع أحياناً مع العبيد، بحيث يمكن التعرف إليهم فوراً إذا ضلوا أو هربوا.

لم يطبق هذا المقترح، كما ثبت أن كثيراً من القيود الأخرى على الموركسيين استحال فرضها. ومع ذلك فقد أخضع الغرناطيون المبعدون دائماً لمراقبة خانقة من السلطات العلمانية والدينية، وبخاصة في الفترة الأولى لوصولهم. وفي غرناطة نفسها، وجه الإبعاد ضربة نهائية للثورة. ففي فبراير 1571، كتب السفير الفرنسي فوركوفو أن الباقين على قيد الحياة كانوا «ينزلون من الجبال ليبيعوا أنفسهم للنصارى عبيداً في مقابل قوتهم». وفي مارس من ذلك العام، عقد صياد ثروات كان في السابق قاطع طريق يدعى غونثالو الشنيش Gonzalo el Xenix اتفاقاً سرياً مع

ديثا على تسليم ابن عبو حياً أو ميتاً. وحين اكتشف ابن عبو هذه النوايا، نشب قتال عنيف في أحد كهوف البشرات قبل أن يكسر الشنيش جمجمة السلطان الموريسكي بصخرة[1]. أعيد جثمان ابن عبو إلى غرناطة على بغل، حيث ضربت عنقه في وجود ديثا، ثم خوزقت رأس «سلطان الأندلسيين» على سارية خارج باب المدينة في مواجهة جبال البشرات، وبقيت كذلك أكثر من سنة، كتحذير للثوار.

هكذا انتهت آخر الحروب الكبرى بين المسلمين والنصارى على التراب الإسباني. اغتبط ديثا بنصره وافتخر بأنه «أدب غرناطة بالدم». وقد كوفئ على خدمته بمنصب القائد العام لغرناطة، وهو انتصاره الأخير على غريمه موندخار. ثم عين ديثا قاضياً في محكمة بلد الوليد، قبل أن يعينه البابا جريجوري الثالث عشر كاردينالاً بطلب من فيليب. وهكذا انتقل «سوط غرناطة الموريسكية» إلى روما ومات فيها رجلاً ثرياً. وأصبح دون خوان بطل إسبانيا العظيم ومنقذ العالم النصراني، الذي قاد الاتحاد المقدس في انتصار ساحق على الأسطول العثماني في ليبانتو عام

(1) وفقاً للروايات العربية، ظل السلطان عبدالله محمد ابن عبو يقاتل إلى آخر لحظة، إلى أن ضاقت الرقعة التي يسيطر عليها ولم يبق معه سوى 400 مجاهد منهم برناردينو ابن عامر وكونسالفو (غونثالو) الشنيش، فأوعز الإسبان إلى الشنيش بقتل ابن عبو في مقابل عفوهم عنه، وكان الشنيش يحقد على ابن عبو لأن الأخير منعه من عبور البحر إلى المغرب، وقبض عليه الإسبان وأطلقوا سراحه ومنحوه الأمان ووعدوا بتسليمه زوجته وابنتيه الأسيرات لديهم في مقابل الإتيان بابن عبو حياً أو ميتاً. وفي الثالث عشر من مارس 1571، هجم الشنيش وبضعة رجال على ابن عبو في كهف كان يختبئ به وقتلوه، ثم أخذوا جثمانه للإسبان، الذين أدخلوه غرناطة في احتفالات عظيمة ووضعوه في قفص حديدي بعد أن ألبسوها لباساً كاملاً كأنه لايزال حياً، ثم حملوه على فرس وجابوا به المدينة تتبعه أفواج من الأسرى الأندلسيين، ثم حُمل الجثمان إلى النطع فقطعت رأسه وسحل الجسم في الشوارع ومزق ثم أحرق في أكبر ساحات غرناطة، ثم وضع الرأس في قفص حديدي فوق باب المدينة المواجه للبشرات وبقي مكانه لمدة ثلاثين سنة، وكتب عليه «هذا رأس الخائن عبدالله بن عبو. من ينزله من مكانه يعدم» [المترجم].

1571، أنهى التقدم التركي في البحر الأبيض المتوسط[1]. أما فرج بن فرج الصباغ، الذي تحوّل إلى قاطع طريق فلم يعثر عليه مطلقاً. وتقول قصة مشكوك فيها إن أحد رفاقه حاول أن يحطم رأسه بصخرة ليحصل على مكافأة، لكنه نجا وظل مشوهاً إلى درجة مخيفة وعاش بقية حياته شحاذاً مجهولاً ومحتقراً أينما ذهب[2].

حيّا الجندي والمؤرخ مارمول كارباخال النهاية المظفرة «للحرب التي شنت من أجل الدِين والعقيدة» والتي أكملت الجهود التي بدأها الملكان الكاثوليكيان لنيل غرناطة من «سيطرة الشيطان». لكن الثورة لم تترك المجتمع الغرناطي كما كان قبلها، فالحرب والعبودية والإبعاد أنقصت سكانها مئة وستين ألف نسمة. وتعرضت مئات الكنائس للإحراق أو التدمير، وأخلي الكثير من القرى والأحياء، وأعيقت الحياة الاقتصادية للمملكة أو شلت تماماً. فلم تتعاف صناعة الحرير مطلقاً من فقدان مربي

(1) في قراءة التاريخ لا يفيد كثيراً البكاء على اللبن المسكوب، لكن ثمة سيناريو بديل للأحداث في غرب البحر الأبيض المتوسط، فلو أن السلطان العثماني استغل فرصة تورط غريمه الأكبر في البحر المتوسط- إسبانيا- ضمن حرب داخلية شرسة، هي حرب البشرات، علاوة على حروبها الكثيرة في هولندا ومنطقة الفلاندر، ووجه ضربة لها في عقر دارها بمساعدة حلفائه الأقوياء في شمال إفريقيا، لكان تجنب الهزيمة الساحقة في ليبانتو، وبخاصة أن عقلية الحكام الإسبان في ذلك الوقت- كما كانت عقلية الحكام الأتراك أيضاً بالتأكيد- كانت تستحوذ عليها أوهام قيادة العالم النصراني، وما يرتبط بها من دحر الشيطان الإسلامي، بمعنى أن المعركة الحاسمة بين الطرفين كانت قادمة لا محالة. فإلى جانب نصرة الإخوة في الدين، كان التجاوب مع مطالب المورسكيين بالانقضاض على إسبانيا نفسها فرصة لتجنب الهزيمة في ليبانتو، أو بالأحرى لحظة تاريخية من النوع الذي إن فوتته الدولة لم تستطع أن تعوضه مهما فعلت. وقد عرض المؤلف مدى خوف ملك إسبانيا من هجوم تركي على الأراضي الإسبانية في أثناء حرب البشرات. لكن السلطان العثماني سليم الثاني لم يكن في اقتدار سلفه سليمان ولا في حنتكه وبصيرته [المترجم].

(2) تذكر الروايات العربية أن فرج بن فرج كان يقوم بعمليات على شواطئ المرية وجبل طارق دون تنسيق مع قيادة ابن أمية، ولذلك أزاحه الأخير وعين مكانه عمه ابن جهور، فانسحب فرج من الثورة وتابع الجهاد منفرداً، ولا يُعرَف كيف كانت نهايته [المترجم].

دودة القز والغزالين الموريسكيين. ورغم بذل محاولات منظمة لجذب مستوطنين نصارى إلى القرى والمزارع الموريسكية المهجورة، ظل معظم البشرات قليل السكان حتى القرن التالي. وبعد أعوام، ظلت السلطات في غرناطة والمرية تكتب إلى الحكومة متذمرة من فقرها بسبب قلة العمالة في أراضيها وتطلب معونات مالية.

وقد استطاع آلاف الموريسكيين الإفلات من الإبعاد، وشقوا طريقهم بعدها عائدين إلى بلداتهم وقراهم السابقة. قبض على بعضهم وطردوا ثانية، واستطاع آخرون البقاء عن طريق التخفي قدر الإمكان. لقد دفعت غرناطة الموريسكية ثمناً فظيعاً لتحدي أوامر جلالة الملك «الكاثوليكي حتى النخاع». وبعد فترة طويلة من انتهاء الحرب، قيل إن المزارعين والفلاحين في المناطق النائية من غرناطة الريفية كانوا يشاهدون جيوشاً من الأشباح تتقاتل في السماء، وكانوا يسمعون أصوات معارك بين أشباح. وبالنسبة إلى الغرناطيين الذين اضطروا لبناء حياة جديدة من الصفر في قلب المنطقة النصرانية في قشتالة، أصبح ذلك العالم جزءاً من ماضيهم. وبالنسبة إلى كل سكان إسبانيا الموريسكيين، ألقت الثورة وعواقبها الوخيمة بظلال قاتمة ظلت تحوم فوقهم إلى أن أجبروا هم أيضاً على مغادرة بيوتهم.

الباب الثالث

الكارثة

توجد بالفعل علاجات محددة لكل الأمراض التي ذكرتَها، لكنني على يقين من أن ما لم تذكره من أمراض أخطر وأكثر عدداً مما ذكرتَ، وليس لها علاجات محددة إلى الآن. لكن دولتنا يحكمها رجال حكماء، يدركون أن إسبانيا تغذي كل هذه الأفاعي الموريسكية وتربيها في صدرها، وبعون الله سيجدون علاجاً أكيداً وعاجلاً وناجعاً لهذا الموقف الخطر.

ميغيل دي ثيرفانتس، حوار الكلاب

Miguel de Cervantes The Dialogue of the Dogs


Twitter: @ketab_n

14

الخوف الكبير

ربما يكون من المبالغة أن نتحدث عما سبق حرب البشرات وما بعدها، لكن لا ريب أن الثورة كانت لحظة فاصلة في المواجهة بين الدولة الهابسبورغية ورعاياها الموريسكيين. فبالنسبة إلى الموريسكيين، وضع مرسوم غرناطة وعواقبه الوخيمة نهاية لكل آمال العودة الفعلية إلى ماضي المدجنين. وبالنسبة إلى إسبانيا النصرانية، أكدت الثورة صورة الموريسكيين كـ«أعداء داخليين» خطرين داخل حدودها. وعلى مدى أعوام تالية، كانت غرناطة تُذكَر في الوثائق الرسمية كدليل على نية الموريسكيين الأشرار ونذير لأشياء أسوأ قادمة. وفي الوقت نفسه، كانت صعوبة قمع الثورة ووجود مقاتلين أجانب على التراب الإسباني رسالة تذكّر دوماً بضعف إسبانيا الإستراتيجي. وظل شتاء 1569–1570 المنغّص الذي عاش فيه فيليب ووزراؤه مرعوبين من غزو تركي لمساندة الموريسكيين، يطارد عقول حكام إسبانيا، حتى بعد فترة طويلة من انحسار إمكانية مثل هذا التدخل. وجاء تدمير دون خوان النمساوي المذهل للأسطول التركي في ليبانتو عام 1571، ليوقظ مجدداً الأوهام القديمة حول حملة صليبية نصرانية موحدة ضد الإسلام، لكن الوحدة النصرانية ثبت مجدداً أيضاً أنها عابرة.

وفي عام 1573، أضاف دون خوان غزو تونس إلى قائمة إنجازاته، لكن في السنة التالية أعاد أسطول تركي فتح المدينة، ومعها حصن حلق الوادي(1) الإسباني المهم. وفي عام 1578، قاد سباستيان ملك البرتغال تحالفاً نصرانياً ضد عبدالملك سلطان المغرب(2)، سانده فيه فيليب على خلاف ما هداه إليه تفكيره. تمثلت نتيجة هذه المغامرة الطائشة في كارثة في معركة القصر الكبير(3) التي قتل فيها سباستيان، ودحرت حملته أمام جيش مغربي لعبت فيه «المليشيات الأندلسية»، التي تشكّلت من فرسان موركسيين من غرناطة، دوراً رئيساً[1].

كانت هذه الكارثة فاتحة لعصر جديد هيمن عليه مأزق إستراتيجي في غرب البحر الأبيض المتوسط. وفي عام 1581، أنهت هدنة إسبانية-

(1) La Goleta في اللغات الأوروبية، وهي مدينة وميناء تونسي قريب من العاصمة التونسية، بنى بجواره شارل الأول الإسباني حصن القصبة في عام 1535، فتحها العثمانيون في عام 1575 [المترجم].

(2) عبدالملك المعتصم بالله السعدي الملقب بأبي مروان والغازي سلطان المغرب من عام 1576 حتى وفاته في أثناء معركة وادي المخازن في عام 1578، اغتيل أبوه محمد الشيخ السعدي في عام 1557 وتلا ذلك صراع على السلطة اضطره للفرار من المغرب مع أخيه عبدالله الغالب بالله في ذلك العام، ثم عادا في عام 1576 على رأس جيش عثماني هزم ابن أخيهما وغريمهما أبوعبدالله محمد المتوكل الذي طلب العون من إسبانيا، ولما رفضت ذهب إلى طنجة البرتغالية ملتمساً معونة سباستيان في مقابل تنازله له عن جميع شواطئ المغرب في حالة إعادته للعرش، واستجابت البرتغال للعرض، وكانت نتيجة ذلك هي معركة القصر الكبير أو وادي المخازن، التي قتل فيها سباستيان وتوفي أبو مروان في نهاية المعركة من المرض والإجهاد، وخلفه في حكم المغرب أخوه أحمد المنصور الذهبي [المترجم].

(3) معركة القصر الكبير أو وادي المخازن Alcazarquivir حشد لها سباستيان ملك البرتغال دعماً من خاله ملك إسبانيا ومن إيطاليا والبابوية وألمانيا بالتعاون مع الملك المتوكل، الذي خلعه عبدالملك من عرش المغرب بمساعدة العثمانيين، أفنى الجيش المغربي فيها الجيش البرتغالي كاملاً، وقُتِل سباستيان وكل قادة جيشه ونبلاؤه، وغرق المتوكل في نهر وادي المخازن في أثناء فراره ووجدت جثته وسلخت وملئت تبناً وطيف بها في أرجاء المغرب، وتوفي عبدالملك في نهاية المعركة، ولذلك سميت أيضاً باسم معركة الملوك الثلاثة. بعد هذه المعركة انهارت البرتغال وضمتها إسبانيا [المترجم].

تركية صراع البحر الأبيض المتوسط بين الإمبراطوريتين الهابسبورغية والعثمانية، الذي هيمن على معظم القرن، فلقد كان الجانبان يركزان على أولويات أكثر إلحاحاً في أماكن أخرى. ومع ذلك فقد ظل رجال الدولة الإسبان لأعوام بعدها يعتقدون أن السلطان التركي كان يتحين الفرصة لضرب إسبانيا مرة أخرى أو يبحث عن تحالف مصالح مع أعداء الهابسبورغيين من البروتستانت، في وقت كانت إسبانيا فيه متورطة دائماً في مسرح حرب امتد من منطقة الفلاندر وشمال فرنسا إلى الكاريبي وشواطئ إسبانيا نفسها.

عكست حروب إسبانيا مع البروتستانتية مجموعة متناقضة من جوانب القوة والضعف، كانت لها آثار مهمة على الموركسيين. فمن ناحية، كانت إسبانيا القوة العظمى الأوروبية المهيمنة وتتمتع بقدرة لا تضاهى على خوض حروب متعددة على البر والبحر. لكن في الوقت نفسه، ظلت سواحلها وسفنها عرضة للقراصنة المسلمين، وكذلك سفن القرصنة الهولندية والإنجليزية، التي اتخذت من القرصنة شكلاً من الحرب غير النظامية[1]. وفي إبريل 1587، أغرق فرانسيز دريك Francis Drake الأسطول الإسباني في ميناء قادس Cádiz ضمن هجوم جريء كان السبب وراء قرار فيليب بش غزوه المشؤوم لإنجلترا بعد سنتين. وبعد تسعة أعوام، أبحر أسطول من السفن الإنجليزية والهولندية إلى قادس مرة أخرى، ونهب المدينة وأحرقها لمدة أسبوعين، دون أن يواجه أي مقاومة أو هجوم مضاد. أذلّت هذه الهجمات الملك، وعززت جو الحصار على إسبانيا المعادية للإصلاح في العقود الأخيرة من القرن. وانتهت الحال

(1) وبالمثل كانت القرصنة الإسلامية المنطلقة من شمال إفريقيا شكلاً من الحرب غير النظامية ضد عدو طرد المسلمين من الأندلس، ونكّل بالباقين فيها واحتل مواقع في شواطئ شمال إفريقيا وكان يتزعم العالم النصراني في حروبه ضد ديار الإسلام [المترجم].

بالتجار والبحارة الإنجليز والاسكتلنديين والعمال المهاجرين الفرنسيين وزوار إسبانيا الألمان إلى سجون محكمة التفتيش، وأحياناً على المحارق في هذه الفترة. لكن بعد الثورة الكبرى في غرناطة، وُجّه الذعر والريبة الرسميين نحو مسلمي إسبانيا السابقين.

***

ومع هزيمة ثوار غرناطة، تركزت هذه المخاوف بالدرجة الأولى على الممالك الثلاث التابعة لتاج أراغون، التي كانت تضم فيما بينها أكبر عدد من السكان الموريسكيين في إسبانيا، نتيجة لإبعاد الغرناطيين. ففي عام 1570، كتب السفير البندقي أن ثمة «خوفاً كبيراً بين النصارى القدامى» في بلنسية من أن يثور السكان المسلمون «ويفعلوا كما فعل إخوانهم في غرناطة». وقد تفاقمت هذه المخاوف بفعل سيل من التقارير عن مؤامرات موريسكية أولية ومحاولات لاستجداء المساعدة من القسطنطينية وشمال إفريقيا، وقد رشَحَت هذه الشائعات أيضاً إلى قطلونية وأراغون.

صدرت غالبية هذه التقارير من محكمة التفتيش، التي أخذت على نحو متزايد تعمل كجهاز أمن داخلي، إضافة إلى دورها التقليدي كفارض للقوامة الدينية. وفي أراغون، كان قضاة محكمة التفتيش يتحدثون كثيراً عن اتصالات سرية بين الموريسكيين والبروتستانت الفرنسيين بمملكة بيرن Béarn البرانسية. أما الأدلة المؤيدة لهذه الإدعاءات فكانت في غالبيتها مهلهلة، وتستند إلى ما تسميه الأجهزة الأمنية المعاصرة «ثرثرة». ففي عام 1575، على سبيل المثال، أطلعت محكمة التفتيش الأراغونية المجلس الأعلى على حادثة في بلدة بينا دي إربو الأراغونية وقعت في العام السابق، سُمع فيها خياطان موريسكيان يناقشان غزوا تركياً-بروتستانتياً وشيكاً لإسبانيا. ووفقاً لقضاة محكمة التفتيش، كان الخياطان «يضحكان ويبديان رضاً عظيماً» نحو احتمال ذبح السكان النصارى[2].

وكانت بعض المؤامرات المزعومة تستند إلى شائعات غير مؤكدة تجاوزت حدود الخيال. ففي يناير 1577، ذكرت محكمة التفتيش الأراغونية أن أربعمائة تركي اخترقوا أراغون وبلنسية استعداداً لثورة موريسكية. وفي السنة نفسها، ادعت محكمة التفتيش الأراغونية أن مبعداً موريسكياً يدعى خوسو دوارتي Josu Duarte تسلل إلى إسبانيا حاملاً رسالة من السلطان التركي كتبت «بحروف من ذهب»، يعد فيها بمساندة بحرية في حال أي انتفاضة موريسكية. ولم يُكتشَف دوارتي ولا الحروف الذهبية، بل ولم تحدث أي محاولة للثورة، لكن هذه التقارير لم تُفنّد رسمياً قط، وعززت صورة رسمية للموريسكيين كانت تؤخذ بلا تمحيص.

وثمة مؤامرات مزعومة أخرى كانت لا تقل غموضاً وضبابية. ففي عام 1582، زعمت محكمة التفتيش الأراغونية أن مبعداً موريسكياً بلنسياً يدعى أليخاندو كاستيانو Alejando Castellano رجع إلى موطنه بعد عقدين قضاهما في تركيا ليؤكد نبوءات دينية توقعت غزواً تركياً جديداً لإسبانيا. ووفقاً لمحكمة التفتيش، فإن هذه النبوءات ادعت أن الموريسكيين البلنسيين سيشاركون في هذا الاسترداد الإسلامي بقيادة شاب محلي عملاق له «ست أصابع في كل يد». ومرة أخرى لم يُعثَر قط على كاستيانو أو الشاب ذي الست أصابع، ولم يقع غزو تركي. وفي حالات أخرى أدمج قضاة محكمة التفتيش الخيانة مع نية الثورة. ففي عام 1578، ذكرت محكمة التفتيش الأراغونية شائعات تقول إن الموريسكيين الأراغونيين نظموا مصارعة ثيران للاحتفال بهزيمة جيش سباستيان في القصر الكبير كدليل على عدم الولاء وإمكانية الخيانة.

وكانت محكمة التفتيش الأراغونية تستخدم التقارير من هذا النوع دائماً لإقناع فيليب المتردد كي يفرض سلطته- التي كانت في حقيقتها سلطتهم- على الموريسكيين ومُقْطِعيهم النصارى المتمردين. وكان

المقصود من الشائعات حول المؤامرات التحريضية والثورة الوشيكة هو بث القلق، وغالباً ما كانوا ينجحون في ذلك، بغض النظر عن نوعية الأدلة المؤيدة لمزاعمهم. وفي يناير 1575، اتُّهِم هوغونوتي فرنسي يدعى فرانسوا نلياس François Nelias بالهرطقة وعذب في زنازين محكمة التفتيش في سرقسطة، حتى زعم أنه شهد موريسكيين أراغونيين يخططون للثورة مع ابن حاكم بيرن.

على أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة ما إذا كان ما قاله نلياس هو الحقيقة أم أنه أخبر مستجوبيه بما أرادوا أن يسمعوه كي يرحم نفسه من العذاب. وثمة مؤامرات أخرى استندت إلى شهادات من جواسيس ووشاة كانت لهم مصلحة شخصية في الحفاظ على عملهم. ففي عام 1582، اعْتُقِلت مجموعة من الموريسكيين وعُذِبت أمام محكمة التفتيش البلنسية بتهم التمرد بعد اتهامات من واش موريسكي يدعى غيل بيريث Gil Pérez، أدين لاحقاً بالحنث والابتزاز. وبالمثل كانت تنتشر دوماً شائعات لا تقل شططاً عن مؤامرات وثورات موريسكية في جنوب إسبانيا. ففي إشبيلية، نفذت السلطات عام 1580 سلسلة من الاعتقالات بعد تقارير عن أن الموريسكيين كانوا على وشك الثورة في أنحاء أندلوسيا كافة، بدعم من العثمانيين وشمال إفريقيا. ووقعت حوادث مماثلة بعد ذلك في جيان[1] ومالقة، ومجدداً في إشبيلية عام 1596، حين فرضت السلطات حظر تجوال على المناطق الموريسكية بالمدينة، بعد الهجوم الإنجليزي على قادس، خوفاً من أن يثور الموريسكيون بدعم إنجليزي. وفي حادثة أخرى في الفترة نفسها، أخبر الكونت ساستاغو Sastago الحكومة أن الموريسكيين في أراغون لغّموا بلدة قلعة أيوب[2] ببراميل من البارود بهدف تفجيرها،

(1) Jaen في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) Calatayud في اللغات الأوروبية [المترجم].

وهنا أيضاً لم تكشفت هذه الاستعدادات قط.

على أن المؤامرات لم تنتج جميعها عن حالة الهلع الرسمية، فهناك أدلة موثوقة على وجود اتصالات بين المورسكيين الأراغونيين وحكام بيرن، حتى وإن لم تنته إلى نتائج ملموسة. وأجرى المورسكيون البلنسيون محاولات عرضية لطلب الأسلحة والمساعدة العسكرية من السلطان العثماني من أجل الثورة، وهنا أيضاً لا توجد أي أدلة على أن هذا الدعم قد قدم. ففي العقود الأخيرة من القرن، كان العثمانيون متورطين أيضاً في نزاعات في الشرق، في الأناضول وبلاد فارس والقرم، مما حوّل انتباههم بعيداً عن إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط[3]. لكن المسؤولين الإسبان ظلوا مع ذلك ميالين دائماً إلى السيناريوهات المذعورة وغير المؤكدة بخصوص النوايا التركية. وبعد الفتح الإسلامي لحصن حلق الوادي التونسي، تلقى مجلس الدولة رسالة مذعورة من مسؤول في بلنسية حذّر فيها من أن العثمانيين يستعدون لشن غزو من شمال إفريقيا و«تدمير إسبانيا من المكان نفسه، الذي جاء منه الأفارقة ودمروها» قبل ثمانية قرون، بمساعدة المورسكيين «الأعداء الموجودين بيننا»[4].

ولم تقدم أدلة مؤيدة لهذه الادعاءات، ولم يقع الغزو. على أن الحكومات الحديثة التي تتمتع بموارد أكبر كثيراً، تضع سياساتها غالباً على أساس تهديدات غير محتملة وحكايات ناقصة ومعلومات زائفة من النوع نفسه الذي اعتمدت عليه إسبانيا، ولذلك يجب ألا يفاجئنا الموقف غير المتشكك من هذه التقارير. لكن المسؤولين الإسبان لم يكونوا جميعهم يقبلون هذه الحكايات. ففي ديسمبر 1576، استبعد نائب القاضي الأول الأراغوني بيرناردو دي بوليا Bernardo de Bolea إمكانية وقوع ثورة مورسكية في المملكة، ذاهباً إلى أن المورسكيين كانوا أقل عدداً من النصارى بكثير، ويفتقرون إلى القلاع المحصنة، ومؤكداً أنهم «سيكتشفون

ويدمرون ويذبحون» إذا حاولوا أن يثوروا[5]. وفي اجتماع مجلس الدولة في مارس 1577، استبعد المستشارون المتجمعون تقرير محكمة التفتيش حول ثورة موريسكية وشيكة في بلنسية بدعم تركي، وكان بين المجتمعين دوق ألبة «مطرقة ثوار الفلاندر»، على أساس أنهم يفتقرون إلى الأسلحة والموارد والموانئ الآمنة للأسطول التركي. ولم يكن نائب مملكة بلنسية بثبسيانو غونثاغ Vespasiano Gonzag أقل ارتياباً في هذه التقارير، التي وصفها في رسالة في وقت لاحق من تلك السنة بأنها «فضول نزاع جداً إلى الشك»، مضيفاً: «إما أنني أخدع نفسي، أو أن ذلك محض افتراء»[6].

***

لكن هذا التقييم الرصين النزيه لم يبدد الشكوك الرسمية في الموريسكيين. فرغم وقف إطلاق النار الإسباني- العثماني في البحر الأبيض المتوسط، واصل القراصنة المسلمون مهاجمة السفن والبلدات الساحلية الإسبانية، وكانت أطقم القراصنة تضم أحياناً مبعدين موريسكيين مثل سعيد بن فرج الدوغالي(1) اللاجئ الغرناطي الذي فرّ إلى المغرب قبل فترة قصيرة من حرب البشرات. عمل الدوغالي أولاً في خدمة السلطان

(1) سعيد بن فرج الدوغالي Said Ben Faraj al-Dughai ولد في مملكة غرناطة، ثم هاجر إلى المغرب قبل حرب البشرات، وأقام في تطوان ومنها مارس القرصنة، وفي زهاء عام 1563، كلّفه سلطان المغرب عبدالملك السعدي بتشكيل قوة مدفعية بالجيش من الموريسكيين، ومنحهم أراضي في سهل مراكش الخصيب للتعيش منها، وشارك الدوغالي في مختلف الحملات التي جردها السلطان، واستمر الدوغالي في ممارسة «القرصنة»، وفي عام 1571 كانت له في سلا سبع سفن قرصنة مجهزة احتل بها مدينة الرصيف Arrecife في لانثاروتي Lazarote بجزر الكناري طوال شهري سبتمبر وأكتوبر 1571، وفي عام 1573 استولى على بلدة كهوف المنصورة Cuevas de Almanzora في إقليم غرناطة ونقل جميع سكانها أسرى إلى المغرب. منحه السلطان المغربي لقب «باشا» واستخدمه في معركة الحصن الكبير، حيث أوفده على رأس عدد من الفصائل لمعرفة المكان الذي رسا فيه سباستيان، وأرسله إلى سوس للدفاع عن رأس أغير، انتهت حياته بالإعدام في عام 1579 بعد محاولة الانقلاب على السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، الذي خلف أخاه السلطان عبدالملك بعد معركة القصر الكبير [المترجم].

المغربي الذي كلّفه بتجنيد المليشيا الأندلسية الخاصة التي قاتلت في معركة القصر الكبير، قبل أن يتجه إلى القرصنة. ومن قاعدته في تطوان، شارك الدوغالي في هجمات عديدة على السفن الإسبانية وعلى موطنه السابق، منها هجوم القراصنة الكبير على جزر الكناري في عام 1571 الذي احتلت فيه لانثاروتي لشهرين.

ظل الموركسيون أيضاً يزودون القراصنة بالمساعدة من داخل إسبانيا. ففي أكتوبر 1583، أعدم خمسة عشر موركسياً بلنسياً، ومزقت أجسامهم بتهمة مساعدة القراصنة الجزائريين في الهجوم على بلدة تشلشيس الساحلية. وفي هجوم آخر على بلدة كايوسا Callosa البلنسية، حاصر ألفا قرصان النصارى المحليين في قلعة دفاعية، ونهبوا البلدة قبل أن يغادروا ومعهم كل السكان الموركسيين. وعلى الرغم من أن الاتصال بين الموركسيين وإخوانهم في الدين في شمال إفريقيا كان محظوراً بشدة ويعاقب عليه بالموت، واصل الموركسيون من شمال إفريقيا الإبحار عبر البحر الأبيض المتوسط في الليل لزيارة أقاربهم واختطاف النصارى أحياناً لبيعهم عبيداً عند عودتهم. كثفت هذه الزيارات الغامضة إحساس عدم الأمان المهيمن في بلنسية، وقد كانت الشائعات حول الجواسيس الأتراك والظهور غير المفسر للأجانب الأشرار تُزيّن فيها أحياناً بقصص شعبية بشعة عن بعابع موركسية كانت تغوي الأطفال النصارى بالحلوى- على ما يقال- كي تختطفهم إلى شمال إفريقيا.

تأثر الذعر المعادي للموركسيين أيضاً بنشاطات قطع الطرق، التي غدت مشكلة مزمنة في كثير من مناطق إسبانيا في عهد فيليب. على أن قطع الطرق لم يكن بأي حال نشاطاً مقصوراً على الموركسيين. فكل من الموركسيين والنصارى القدامى «لجؤوا إلى الجبال» وتحولوا إلى لصوص وقطاع طرق في العقود الأخيرة من القرن. وابتليت بلنسية بعصابات

تشبه المافيا، وجماعات مسلحة ضمت بين صفوفها «قطاع طرق» نصارى ورهباناً ساخطين. وكان كل من الكهنة وعامة الناس في بلنسية معتادين على حمل الأسلحة، وفي مناطق أخرى من إسبانيا كان أعضاء الكنيسة يتورطون أيضاً في الجرائم المختلفة، مثل إدارة أوكار القمار والاختطاف والقتل. وكان انعدام الأمن الاجتماعي السائد ناتجاً جزئياً عن الظروف الاقتصادية المريعة التي عاشها معظم السكان الإسبان في الأعوام الأخيرة من عهد فيليب. كما أخذت جرائم قطع الطرق أيضاً دفعة تقنية مع اختراع البنادق والمسدسات المُصَوّنة. ففي حين كانت بنادق الفتيل تفرض على المهاجم أن يقف أمام ضحيته ويشعل الفتيل بصعوبة لإطلاق النار، مكّنت التقنية الصوانة من إعداد كمائن يصعب التعرف إليها.

واستخدم قطاع الطرق النصارى القدامى والموريسكيون هذا التجديد لدرجة أن السلطات الإسبانية حاولت منع الجماعتين من استخدام هذه الأسلحة. لكن الرعب والفزع الزائدين اللذين أحاطا بقطاع الطرق الموريسكيين عززتهما شائعات وحكايات عن جرائم قاسية ومرعبة نفذها موريسكيون بحق نصارى، مثل شرب دم الضحايا أو ترك جثث المسافرين النصارى عارية ومقطوعة الرؤوس على جوانب الطرق. وفي بلنسية، وفقاً للمؤرخ البلنسي غاسبار إسكولانو، كان قاطع الطريق الموريسكي سولية Solaya يقود عصابة من «القتلة والشباب الضائع» كانت نشاطاتهم كثيرة لدرجة أنه «لم يكن من الممكن السير خلال المملكة دون خطر التعرض إلى السرقة أو القتل». وبين عامي 1566 و1573، ابتليت أجزاء من أندلوسيا وغرناطة بعصابة من العبيد الهاربين والثوار الموريسكيين السابقين كان يقودها قاطع الطريق؛ الشريق El Joraique، الذي كان النصارى يعرفونه باسم «الكلب»، قبل أن يفر زعيمها إلى شمال إفريقيا.

وشهدت قشتالة هي الأخرى زيادة في نشاطات قطاع الطرق، كان

ينسب معظمها إلى الموركسيين المبعدين عن غرناطة. ففي عام 1581، قدمت محكمة بلد الوليد تقريراً إلى مجلس الدولة أرجع نحو مائتي عملية قتل وسط قشتالة في الأعوام الأربعة السابقة لقطاع الطرق الموركسيين. وذكر مسؤول التحقيق ومؤلف التقرير الدكتور فرانثيسكو ايرنانديث دي ليبانا Francisco Hernández de Liébana أن حالات القتل كانت من فعل ست عصابات موركسية أو سبع ينتمي أعضاؤها بالدرجة الأولى إلى «أولئك الذين ثاروا في غرناطة». كانت هذه العصابات تقتل «البغّالين والمسافرين الفرادى غير المسلحين» في وضح النهار وهم مطمئنون إلى أنهم سيجدون ملجأ عند «أي من أبناء أمتهم». وضع تقرير ليبان هذه النشاطات ضمن سياق التهديد الأوسع للمجتمع النصراني من جانب الغرناطيين المبعدين الذين «لا يمكن الثقة في نصرانيتهم... ولم يُظهِروا علامة واحدة من علاماتها رغم الطرق الكثيرة المختلفة، التي جربت معهم»[7].

ولا ريب في أن بعض الموركسيين اعتبروا قطع الطرق فرصة للانتقام من المجتمع النصراني، بيد أن نشاطاتهم لم توجه ضد النصارى فقط. فقد اتجه الموركسيون إلى قطع الطرق لأسباب كثيرة مختلفة، ولم يكونوا يعبؤون حتماً بالخلفية العرقية أو الدينية لضحاياهم، ولم يكونوا أكثر وحشية من نظرائهم النصارى. وإذا كانت بعض الجماعات الموركسية قد قدمت الحماية لقطاع الطرق بفعل التعاطف أو الخوف، فإن قطاع طرق الموركسيين في بلنسية كان لهم أيضاً حماة نصارى أقوياء، لدرجة أن نائب الملك البلنسي المركيز أيتونا Aytona اضطر في يونيو 1586 إلى إصدار مرسوم هدد فيه كلاً من النصارى القدامى والجدد، الذين يحمون قطاع الطرق الموركسيين بعقوبات قاسية لكليهما.

حاول أيتونا استئصال قطع الطرق تماماً من المملكة، بسياسة متشددة قائمة على الجلد والسجن والشنق، وقد حققت نجاحاً مؤقتاً، من أمثلته

تفكيك عصابة سولية في عام 1586. وفي كل الأماكن الأخرى بإسبانيا، كانت السلطات تشنق قطاع الطرق الموركسيين أو تحكم عليهم بالخدمة على القوادس أو تلزمهم بالعمل في المناجم، وفي بعض الحالات كانت تتفاوض معهم على الاستسلام في مقابل نفيهم إلى شمال إفريقيا. لكن قطع الطرق ظل في حالة من المد والجزر وفقاً للحالة الاقتصادية، مع أنه كان يتداخل أحياناً مع أجندات سياسية محددة. فبين عامي 1585 و1588، أصبحت أراغون الريفية مشهداً لعداء عرقي مرير بين المُقْطَعين الموركسيين للكونت رياغورثا Ribagorza ورعاة الخراف والماشية النصارى المعروفين باسم «الجبليين» Montañeses، الذين جاؤوا بماشيتهم إلى هذه الأراضي للرعي. وفي عام 1585، انفجرت التوترات الكثيرة بين هاتين المجموعتين في نوبة من العنف، حين قتل راعٍ نصراني على يد موركسي من قرية كودو Codo، وانتقاماً لمقتل الراعي، قام أخوه وجيرانه بقتل مجموعة من الفلاحين الموركسيين من كودو، وهم في طريقهم إلى الحقول.

وسرعان ما تصاعد هذا الثأر، حين قامت عصابة من الجبليين وقطاع الطرق النصارى المحليين بقيادة شخص غامض يدعى لوبرسيو لاتراس Lupercio Latrás بإطلاق حقبة من الإرهاب ضد «الكلاب الأندلسيين» في ضِياع الكونت رياغورثا[1]. كان لاتراس ضابطاً بحرياً إسبانياً سابقاً

(1) بعد طرد الأندلسيين، بعد هذه الأحداث بأكثر من عقدين، تُرِكت مساحات شاسعة من جنوب إسبانيا بلا زراعة، جذبت انتباه رعاة الأغنام الذين وجدوا فيها فرصة كبيرة للمرعى الشتوي في مناخ الجنوب الأكثر اعتدالاً، ومنحهم التاج امتيازات الرعي في الممتلكات الأندلسية السابقة، وكذلك على طول طرق الترحال والأراضي التي لم تستصلح بعد. وكي يحمي أصحاب الاحتكار حقوقهم الرعوية، منعوا المزارعين المحليين من تسييج أراضيهم المشاع، ما حرم إسبانيا من الاستفادة من حركة تسييج الأراضي التي شهدتها أوروبا في ذلك العصر، فضلا عن الدمار الذي ألحقته الأغنام المتنقلة بالحياة النباتية وتخريب الزراعة وإنقاص قيمة الأرض. وكان ذلك أحد الأضرار الكبرى التي نتجت عن طرد الموركسيين في العقدين الأولين من القرن السابع عشر [المترجم].

وجاسوساً سابقاً في البلاط الإنجليزي، ولذلك كان شخصية غامضة ومبهمة تزامنت حربها ضد الكفار الموركسيين مع نزاع قضائي متواصل بين تاج قشتالة والمحاكم الأراغونية حول حقوق المِلكية للمُقْطَعين الموركسيين في ضِياع ريباغورثا. وسواء كان لاتراس يعمل سراً وكيلاً للتاج أم يعمل لحساب نفسه، فلم تتمكن السلطات المَلكية أو الإقطاعيون النصارى من حماية الموركسيين من العنف الذي ابتلع المنطقة حينها. ففي عيد الفصح في عام 1588، أحرق لاتراس وأتباعه من الجبليين قرية كودو الموركسية تماماً بعد أن فرّ أهلها. وتلا ذلك هجوم أكثر دموية على قرية بينا Pina النصرانية-الموركسية المختلطة، قتل فيه رجال لاتراس مئات الموركسيين في الميدان الرئيس أو ألقوا بهم من فوق برج الدير المحلي.

كان ذلك أشد اندلاع للعنف العرقي منذ غرناطة، وكانت إمكانية تفاقم الموقف مفتوحة، حين دفع لاتراس أتباعه لـ«تدمير كل الموركسيين في المنطقة». ووجدت السلطات الأراغونية نفسها أمام احتمال انتشار حملة صليبية داخلية في أرجاء المنطقة كافة، فأرسلت أخيراً قوات لاستعادة النظام، اعتقلت وأعدمت رؤساء العصابات الموركسيين والنصارى، الذين شاركوا في العنف. وفرّ لاتراس بلا عقاب، وذهب لأداء مهمة تجسس أخرى في البلاط الإنجليزي قبل أن يقتل في هدوء لدى عودته إلى إسبانيا في عام 1590. سبق الاضطراب في ريباغورثا مواجهة كبرى بين مملكة قشتالة والأراغونيين المشاغبين، التي بدأت في عام 1590، حين فرّ سكرتير فيليب المطرود أنطونيو بيريث Antonio Perez من اتهامات بالقتل عبر اللجوء إلى أراغون. وأثارت محاولات اعتقاله من جانب محكمة التفتيش اضطرابات معادية لقشتالة في سرقسطة، وفي سبتمبر 1591، اضطر فيليب إلى إرسال ألف وثمانمائة جندي إلى المملكة لإعادة سلطة التاج. لم يلعب الموركسيون دوراً في اضطرابات أراغون رغم

المخاوف الرسمية من أن يستخدمهم حكامهم النصارى لمقاومة الهجوم القشتالي، لكنهم تأثروا بنتائجها، حين خوّل التاج محكمة التفتيش أخيراً مهمة نزع سلاح السكان الموريسكيين، التي كانت محكمة التفتيش تلح عليها منذ أكثر من عقد.

* * *

كانت عمليات نزع الأسلحة الدورية واحدة من محاولات مختلفة من جانب حكام إسبانيا للقضاء على التهديد الأمني الموريسكي المدرك. ففي أكتوبر 1575، حظر مرسوم ملكي على الموريسكيين البلنسيين الاقتراب من الشريط الساحلي دون إذن رسمي. وفي عام 1581، ورداً على «جرائم القتل والسرقة والنهب الكثيرة» المنسوبة لقطاع طرق موريسكيين، أمر الغرناطيون المبعدون في قشتالة بحمل أوراق تعريفية في جميع الأوقات لإثبات محال إقامتهم. ومنع الموريسكيون القشتاليون أيضاً من حمل الأسلحة، باستثناء السكاكين ذات الحواف المدوّرة. وفي غرناطة أصبح أي موريسكي يضبط متلبساً بحمل أسلحة عرضة للشنق. وفي بلنسية في أغسطس 1586، منع الموريسكيون من تغيير محال إقامتهم. وفي عام 1588، أمر فيليب السلطات في أراغون بزيادة اليقظة على طول الحدود الفرنسية لمنع الاتصالات بين الموريسكيين الأراغونيين والهوغونوت الفرنسيين.

وجرت أيضاً محاولات متقطعة لمنع الموريسكيين من العمل في بعض المهن التي كان يفترض أنها تشكّل خطراً أمنياً مثل صناعة البارود. وبات البغّالون الموريسكيون الذين كانوا يسيطرون على صناعة النقل الإسبانية محل شك، إذ كانوا يتهمون غالباً بتهريب الأسلحة والبارود والمخطوطات المحظورة في الأمتعة المنقولة، وكانت عمليات التفتيش الرسمية تكشف من حين إلى آخر عن هذه المواد الممنوعة. لكن كان من غير الممكن إبعاد الموريسكيين عن مهنة ترفع النصارى عن العمل فيها، وبدا من غير الممكن

أيضاً منع الموريسكيين من الخروج من مناطقهم المختلفة.

كانت محاولات السلطات المستميتة لمراقبة الموريسكيين وضبطهم تكشف أن إسبانيا القرن السادس عشر افتقرت إلى الموارد اللازمة لتهدئة مخاوفها. إذ كيف يمكن للسلطات أن تتأكد من أن الحدادين وعمال المعادن الموريسكيين لم يكونوا يصنعون أسلحة أو قذائف لتعويض ما يصادر منهم؟ وكيف كان لها أن تميز مهربي الخيول الذين كانوا يعبرون جبال البرانس بانتظام عن الجواسيس الأجانب أو الموريسكيين، الذين كانوا يطلبون الدعم لثورة مزعومة؟ وكيف كان للنصارى البلنسيين أن يتأكدوا من أن قوارب الصيد الموريسكية لم تكن تنسق مع سفن القراصنة بعيداً عن أنظار البر؟ وفي عام 1582، وضع مجلس الدولة قائمة مقترحات مفصلة لتقليل إمكانية قيام ثورة موريسكية في بلنسية، ووجّه نائب الملك إلى التأكد من تزويد المجالس البلدية جميعها بالبارود والبنادق والذخيرة، وتأسيس مليشيا نصرانية تقوم بانتظام بالتدريب على إطلاق النار، وتشارك في مسابقات إطلاق النار بين البلدات المختلفة كشكل من استعراض القوة أمام السكان الموريسكيين. لكن هذه المقترحات لم تثمر إلا في عام 1597، حين أسست المليشيا البلنسية المعروفة باسم «الفعالة» Efectiva.

نفذت محاولات منتظمة أيضاً لتأمين الشريط الساحلي الإسباني على البحر الأبيض المتوسط. ففي عام 1575، أعادت السلطات البلنسية تفعيل خطة جيوفاني أنتونيلي بإنشاء نظام من الحصون الدفاعية على طول الساحل التي أهملت سابقاً بسبب نقص التمويل. ونفذت جهود مماثلة في أندلوسيا، لكن الغارات الإنجليزية على قادس في عام 1587 وعام 1596 كشفت نقائصها. وكلما زاد شعور إسبانيا بالضعف والانكشاف، تضخم تهديد الموريسكيين أكثر في نظر فيليب ووزرائه. وفي حقبة ما بعد غرناطة، أدت هذه الهواجس إلى تأكيد جديد على القمع الذي كانت تمارسه محكمة

التفتيش. فمن بين سبعة وعشرين ألف وتسعمائة وعشر محاكمات نظرتها محكمة التفتيش بين عامي 1560 و1614، شكّل الموريسكيون الفئة الأكبر، إذ كان نصيبهم أقل قليلاً من تسعة آلاف محاكمة، بنسبة أقل قليلاً من اثنين وثلاثين بالمئة من الإجمالي. وكانت هذه النسبة أعلى من ذلك في مناطق معينة وفي فترات معينة[8]. فبين عامي 1585 و1595، عاقبت محكمة التفتيش البلنسية ألفاً وثلاثة وستين موريسكياً، مقارنة بما لا يزيد على مئتين فقط في العقد السابق. وفي أراغون، شكّل الموريسكيون تسعين بالمئة تقريباً من كل ضحايا أحكام الإعدام، التي أصدرتها محكمة التفتيش في الفترة نفسها.

وفي بلنسية مكّن اندلاع الثورة الغرناطية محكمة التفتيش من اتخاذ إجراءات أشد عدوانية ضد بعض المُقْطِعين النصارى الذين كانوا يوفرون الحماية للموريسكيين، ومنهم أدميرال بلنسية المدافع عن الموريسكيين سانشو دي كاردونا، الذي حوكم في عام 1569. وفي الفترة عينها، اتهمت محكمة التفتيش عائلة كوزم بن أمير Cosme Benamir، وهي واحدة من أغنى العائلات الموريسكية في بلنسية، بالانتماء إلى الإسلام، وبدأت بذلك إجراءات قانونية طويلة جلبت غرامات كبيرة إلى خزائن محكمة التفتيش. على أن ميل المحكمة لإصدار «التوبة الروحية» والعفو والمُهَل لم ينعدم كلياً، لكن هيمنت عقوبات أقسى فيها بعد ثورة غرناطة، فأحرق مئات الموريسكيين على الخازوق، أو ماتوا تحت التعذيب، أو في سجون محكمة التفتيش. وغُرّم الآلاف منهم أو جلدوا أو حكم عليهم بالخدمة على القوادس، أو أفقروا لدرجة العوز نتيجة لمصادرة ممتلكاتهم.

ولم يكن أحد من الموريسكيين في مأمن من هذا الاضطهاد. ففي عام 1577، اعتقلت محكمة التفتيش الأراغونية التاجر الموريسكي السرقسطي خوان كومبانيرو Juan Compañero بتهمة مساعدة مبعوث تركي مزعوم

يدعى خوسو دوارتي. ومع أن كومبانيرو أنكر التهمة حتى تحت التعذيب، فإنه اعترف في النهاية بالقيام سراً بالعبادات الإسلامية، واقتيد في العرض التكفيري في سرقسطة في عام 1581، الذي أحرق فيه أعز صديق له على الخازوق. وحكم على كومبانيرو وزوجته بعشرة أعوام من العزل في أحد الأديرة، وفي العام التالي حكم على ابنه الأصغر خوان بالموت غيابياً بعد أن فرّ إلى الجزائر.

اشتاق كومبانيرو الابن إلى الوطن، وحصل أخيراً على إذن بالعودة إلى أراغون بعد إعلان رغبته في أن يكون نصرانياً. وبعد فترة قصيرة من عودته، اتهم بالردة وحكم عليه «بالتحويل إلى الذراع العلماني». وفي طريقه إلى الخازوق سُمع الشاب وهو يصلي بالعربية، فأخذ العامة يرجمونه ويضربونه، قبل أن ينتزعه منهم المسؤولون مهلهلاً ويحرقوه. ورغم هذه الإجراءات الهمجية، ذكرت المحكمة بارتياح أن الإعدام ترك «العامة... في حالة من الرضا، وترك المورسكيين في حالة من الذعر»[9].

على أن قصة محكمة التفتيش مع عائلة كومبانيرو لم تنته بعد، إذ أحرقت ثلاثاً من زوجات أبنائه بتهمة الهرطقة، ومات زوج ابنته في سجن محكمة التفتيش، وأرسل خادم لهم إلى الأسطول، ثم أعدم لاحقاً. وفي عام 1609، أحرقت أرملة كومبانيرو على الخازوق بعد أن أدينت بترتيب جنازة إسلامية لقريب لها وتخصيص غرفة للصلاة في بيتها.

كانت هذه العقوبات الجيلية الممتدة والمتابعة جزءاً من أسلوب حياة محكمة التفتيش. فمحكمة التفتيش تمتعت بذاكرة قوية، كما أن استهداف العائلات المورسكية القوية كان جزءاً من هجوم منظم على زعماء الجماعة المورسكية، وهم الفقهاء. وكان اضطهاد محكمة التفتيش يطبق جماعياً على جماعات كاملة، مثل مستوطنة أغيلار ديل ريو الحمة Aguilar del río Alhama المورسكية النائية، وهي قرية كانت تأوي نحو مئة عائلة في جبال

لا ريخوا La Rioja المجاورة لقشتالة وأراغون. ففي ديسمبر 1583، اتهمت امرأة مورسكية من القرية أمام محكمة التفتيش في لوغرونو Logroño أنها وصفت عظات راهب محلي «بالهراء». وفتح استجوابها سيلاً من الاعتقالات والاعترافات والاتهامات، طالت كل جيرانها تقريباً. وعلى مدار العامين التاليين أحرق نحو ثلاثين مورسكياً من القرية على الخازوق أو ماتوا في السجون. وعذب عشرات آخرون أو جلدوا أو صودرت ممتلكاتهم أو حكم عليهم بـ«الكفارة غير مدفوعة الأجر على مجاديف الملك» في واحدة من أشنع تحقيقات محكمة التفتيش، التي ابتليت بها أي جماعة مورسكية.

***

كانت صورة محكمة التفتيش الإسبانية في العالم الخارجي مخيفة ومرعبة، منذ أن بدأت الدعاية البروتستانتية المعادية لإسبانيا تصورها على أنها يد الطغيان الكاثوليكي المشوهة والمتعطشة للدماء. لكن بالمعايير السائدة في ذلك الوقت، كانت محكمة التفتيش مقيدة نسبياً في عنفها. فعدد الأرواح التي أزهقت بسبب عقيدتها في بلدان أوروبية أخرى فاق عددها في إسبانيا الكاثوليكية التي لم يصل عدد القتلى فيها حتى عدد النساء اللاتي أحرقن بتهمة السحر. ورغم السمعة الوحشية البشعة لمحكمة التفتيش، فإن طرق التعذيب التي كانت تستخدمها بدت أقل وحشية من تلك التي طالت الزنادقة والخونة في برج لندن[1]. فمحكمة

(1) برج لندن Tower of London أو القصر والقلعة الملكيين لصاحبة الجلالة، قلعة تاريخية على الضفة الشمالية لنهر التيمز بوسط لندن، بني في عام 1066 كجزء من الغزو النورمندي لإنجلترا، وفي عام 1078 أمر وليام الفاتح ببناء البرج الأبيض الذي أصبح رمزاً للقمع الذي أنزلته النخبة الحاكمة بلندن، وبداية من عام 1100 استخدمت القلعة كسجن من حين إلى آخر، وجاءت ذروة استخدامها كسجن في القرن السادس عشر، حين أصبحت عبارة «أرسل إلى البرج» كناية عن أن المبتلى في طريقه إلى التعذيب والإعدام [المترجم].

التفتيش الإسبانية كانت تفضل استخدام الحبال المشدودة بإحكام على الأذرع والأرجل والشد على المِخْلَعة[1] و«القماشة والماء»، وهو شكل مما نسميه اليوم الإغراق الكاذب[2]، بدلاً من الحديد الحارق أو اللولب[3]. وبخلاف القضاة الفرنسيين، لم تكن محكمة التفتيش الإسبانية تأمر بقطع ألسنة الزنادقة قبل إعدامهم لحرمانهم من الصلاة، لكنها كانت تكعمهم[4] عوضاً عن ذلك.

كانت أبشع التخيلات لمحكمة التفتيش التي نسجها إدغار ألان بو Edgar Allan Poe وغيره من كتاب القرن التاسع عشر تميل إلى حجب المُركّب الغريب من التقوى والحرص الشديد على اتباع الشكليات القانونية والحقد البيروقراطي والقسوة الشديدة التي ميزت محكمة التفتيش. وهذه السمات عينها كانت لها دوماً نتائج مدمرة على مسلمي إسبانيا السابقين. ومن أمثلة ذلك الأحداث الكارثية التي حلت في الربع الأخير من القرن بسكان أركوش في مدينة سالم[5]؛ تلك البلدة ذات

---

(1) المِخْلَعة rack آلة تعذيب قديمة تتكون من مستطيل أو إطار خشبي مرتفع قليلاً عن الأرض مزود ببكرة في طرف واحد أو الطرفين، كانت ساقا الضحية تربطان في إحدى البكرتين ومعصماه في البكرة الأخرى، ثم تلف البكرة العلوية تدريجيا لزيادة شد الضحية في القيود، ما يتسبب في آلام شديدة. وباستخدام البكرات والرافعات، كان يمكن خلع مفاصل الضحية أو فصلها نهائياً. علاوة على أن العضلات حين تشد بدرجة مفرطة تفقد قدرتها على الانقباض، مما يقضي على وظيفتها فعلياً [المترجم].

(2) الإغراق الكاذب waterboarding شكل من التعذيب يصب فيه الماء على وجه المعذب المقيد في أثناء تغطية أو لف رأسه بكيس قماشي، ومع التصاق القماش المبلل بالأنف يدخل المعذب في حالة من الاختناق الفعلي التي قد تؤدي إلى الموت أو تدمير الرئتين أو المخ [المترجم].

(3) اللولب أو القلاووظ الإبهامي أداة تعذيب قديمة كان يضغط بها على إبهام أو أصابع المعذب أو سحق أصابع أقدامه أو خرق الأظافر، وثمة نموذج أكبر منها كان يستخدم لسحق الركب والمرافق [المترجم].

(4) الكعم هو إقحام شيء (يسمى كِعام) في فم الشخص لإبقائه مفتوحا أو لمنعه عن الكلام والصراخ [المترجم].

(5) Arcos de Medinaceli في اللغات الأوروبية [المترجم].

الأغلبية الموريسكية بمقاطعة قونكة. ففي عام 1575، وصل محققو محكمة التفتيش إلى البلدة وقرؤوا مرسوم الإيمان الذي حث الموريسكيين على الإبلاغ أو الاعتراف طوعاً عن أي من المخالفات المدرجة فيه. وحين لم يتقدم أحد، حث مفوض المحكمة الدكتور أرندا Aranda أنطونيو موراغا Antonio Moraga أحد زعماء الجماعة الموريسكية المحترمين في البلدة على استخدام نفوذه كي يقدم الأهالي اعترافاتهم، وإلا سيكون موراغا نفسه عرضة للاعتقال. وفي العام التالي، تقدم عدد من الموريسكيين، منهم بيتريز دي باديا Beatriz de Padilla، زوجة في عمر الخامسة والعشرين لصانع سلال محلي، واعترفت بأنها تصوم وتؤدي الصلوات الإسلامية، وأنها «تلتزم بقصد ووعي بدين الأندلسيين». ونظراً لأن باديا اعترفت طوعاً، فقد «تصالحت» معها المحكمة وحكمت عليها «بعقوبات روحية معينة»، لكن هذه الاعترافات أكدت أن «عش الزنادقة» في أركوش يحتاج إلى مزيد من التحقيقات.

وفي يونيو 1581، زارت محكمة التفتيش البلدة مرة ثانية، واعتقل أنطونيو موراغا، واتهم بأنه احتفل بهزيمة الملك البرتغالي سباستيان في المغرب بمصارعة الثيران، وتحريض الموريسكيين المحليين على عدم دفع الأعشار للكنيسة، والنداء على أطفاله بـ«الأندلسيين الصغار». ويبدو أن مصدر هذه الاتهامات كان الكاهن المحلي ماركو فيرنانديث دي ألمانثا Marco Fernández de Almanza الذي شغل منصبه في عام 1578. كان ألمانثا السكير المقامر زير النساء يتحرش دائماً بالنساء الموريسكيات المتزوجات والعازبات لممارسة الجنس معهن، ولم يكن يتورع عن التسلق على أسقف البيوت ومحاولة دخولها عنوة.

وكانت بيتريز دي باديا ممن يشتهيهن الكاهن الداعر، وكانت في ذلك الوقت قد عشقت أنطونيو موراغا وتعيش معه في بيته مع ابنتها

الصغيرة ليونور Leonor بعد موت زوجة أنطونيو. على إننا لا نعرف موقف زوج باديا من هذا الوضع، لكن من الواضح أن باديا كانت مخلصة لحبيبها المسن. وحين سمعت باديا بخبر اعتقال أنطونيو، تحدت أوامر منع الزيارة وانسلت إلى البيت الذي كان محتجزاً فيه انتظاراً لترحيله إلى قونكة لتعطيه قميصاً نظيفاً، فاكتشف أمرها وقبض عليها وسجنت. وحين استجوبها أرندا، أنكرت أن القميص النظيف له أي مغزى ديني[1]، لكنها اعترفت بأنها كانت تعيش معه عيشة الأزواج بلا زاوج. وساءت الأمور كثيراً بالنسبة إلى باديا، حين اعتقلت صديقة وجارة لها، أخضعتها محكمة التفتيش لحفلة كاملة من الربط المشدد بالحبال والشد على المِخْلَعة والتعذيب بالماء.

اتهمت سمرونة Zamorana صديقتها وعدداً من جيرانها بأداء شعائر الإسلام سراً. وضعت هذه الاتهامات باديا في فئة «المرتدين غير التائبين»، وهي فئة كانت عرضة للحرمان الكنسي والموت. ونتيجة لاتهامات سمرونة، أحرق أحد جيرانها على الخازوق، واعتقل آخر ومات في السجن. وكانت باديا محظوظة لأنها أفلتت من مصير مماثل، حين تبيّن أن الشهود الآخرين ضدها كانوا غير موثوقين. وبدلاً من ذلك، عوقبت بمئة جلدة واقتيدت خلال البلدة عارية حتى خصرها على بغل، في حين كان مناد يعلن مخالفاتها على الأهالي.

وأطلق سراح حبيبها موراغا من السجن بعد سنتين لعدم كفاية الأدلة، واستأنف علاقته بباديا دون زواج، وحاولا أن يعيدا بناء حياتهما. وفي عام 1585، مَثُل «الكاهن الفاسد» ألمانثا أمام السلطات الدينية المحلية باتهامات من جانب وفد من المورسكيين من البلدة، ودعم من كاهن محلي آخر. حكت إحدى المورسكيات للمحكمة أنه هددها بمحكمة

(1) كأن يكون قميصاً نظيفاً أو طاهراً للصلاة مثلاً [المترجم].

التفتيش في أثناء الاعتراف إن لم «تمارس معه الفعل القبيح». وذكر شهود آخرون أن الكاهن «الفاسد الشهواني» كان يدخل في نوبات سكر يشتم فيها الأهالي بأنهم «عاهرات وأندلسيون يجب حرقهم». ونتيجة لهذه الشكاوى، جرد ألمانثا من منصبه وسجن بأوامر من الأسقف المحلي. لكن هذه التهم أسقطت بعد ذلك، حين نجح في إقناع أسقف قونكة بأن التهم كانت مؤامرة موركسية، رداً على دفاعه المتحمس عن الكاثوليكية، وعاد ليعذب رعيته الموركسيين حتى وفاته عام 1594.

في ذلك الوقت، كانت ليونور ابنة بيتريز دي باديا قد تزوجت ابن حبيب أمها أنطونيو موراغا، وبات بمقدور العائلتين أن تشعرا بتفاؤل نسبي بعد الأحداث المؤلمة التي عاشتها في الأعوام العشرين الأخيرة. لكن محكمة التفتيش لم تنته بعد من أهالي أركوش. ففي عام 1595، عاد المتصلب أرندا إلى البلدة واعتقل مجموعة أخرى من الموركسيين، منهم فرانثيسكو زكريس Francisco Zacarias، الذي أحرق أبوه في عام 1583. وتحت التعذيب، اعترف زكريس بأنه دخل بيت بيتريز دي باديا ووجدها «تغسل أعضاءها المخزية».

وفي سبتمبر 1596، اعتقلت باديا ثانية مع ابنتها الحبلى ليونور وزوج ابنتها وصديقة لها تدعى أنا لوبيث Ana López وجيران آخرين. واتهم الموركسيون بعدد من الجرائم الخطرة، منها أداء الاغتسال، وتلاوة الصلوات الإسلامية، وترك قريب مريض يموت في البيت دون استدعاء الكاهن لمنح الميت «ميتة جيدة كما يفعل الكاثوليك». وفي أكتوبر 1596، حوكمت باديا في مقر محكمة التفتيش بقونكة، وادعى عليها الادعاء أن شهوداً رأوها مع «آخرين من طائفتها» يأكلون على الأرض في بيتها «على طريقة الأندلسيين». وذكرت ليونور ابنة باديا المذعورة للمحكمة أن أمها تلتزم بصيام رمضان وتؤدي الصلوات الإسلامية بانتظام قبل أن تركع

على ركبتيها لتستجدي الرحمة من أعضاء المحكمة.

عذبت باديا إلى أن اعترفت واتهمت ابنتها وأصدقاءها وأقاربها الذين اعترفوا عليها جميعاً. ودفع الادعاء بأن هذه المخالفات تعد دليلاً دامغاً على أن اعترافات باديا السابقة كانت «زائفة ومضللة» وأنها أخفقت في الاستفادة من «الرحمة التي عوملت بها» في هذه المناسبات. وعلى اعتبار أن باديا «مؤلفة هرطقات ومتكتمة على هرطقات»، فقد حكم عليها بالموت ومصادرة ممتلكاتها وحرمان أطفالها وأحفادها من المناصب العلمانية أو الدينية أو أي مناصب «شرفية» مماثلة، ومن لبس الحلي أو الحرير أو ركوب الخيول. وفي صبيحة الثالث عشر من ديسمبر 1598، اقتيدت باديا وصديقتها أنا لوبيث إلى العرض التكفيري بالساحة الرئيسة بقونكة، وشمل العرض أيضاً زوج ابنتها وابنتها التي وضعت رضيعها في زنزانة محكمة التفتيش، ومات بعد ولادته بقليل.

احتشد جمع غفير من العامة ليشاهدوا الإجراءات مع أصحاب الشرف ومسؤولي محكمة التفتيش المتجمعين، الذين كانوا يراقبون من مقاعد مرتفعة مرتدين عباءاتهم الأرجوانية، في حين تُلي القداس وقرأت قائمة الاتهامات بتفصيل شامل وممل طوال الصباح. وبعد الظهر سلمت باديا وصديقتها آنا لوبيث للسلطات العلمانية لإعدامهما، إلى جانب خمسة سجينات أخريات كن محكوماً عليهن بالموت. ثم أخذت النساء المفزوعات على بغال إلى مكان الإحراق، وهناك رجمهم الغوغاء قبل أن تصل قضية « المورسكية بيتريز دي باديا» أخيراً إلى نهايتها الشنيعة[10].

***

كان الاضطهاد القاسي للمورسكيين من أهالي أركوش، أياً كانت ملابساته المحلية المحددة، مؤشراً آخر على التصميم الجديد لدى حكام إسبانيا على فرض سلطتهم على إسبانيا المورسكية ككل. على أن

قمع محكمة التفتيش في إسبانيا المعادية للإصلاح لم يكن موجهاً ضد الموريسكيين وحسب. فقد كان النصارى القدامى أيضاً يحاكمون بأعداد كبيرة على «أفكار مخزية» مثل إبداء الشك في وجود الله، أو مخالفات ضد المبادئ الأخلاقية الكاثوليكية، لكن عقاب الموريسكيين، على خلاف عقاب النصارى القدامى، كان موجهاً لجماعة دينية وعرقية ينظر إلى أعضائها جماعياً على أنهم معادون للكاثوليكية.

فلم يكن الموريسكيون يحاكمون على المؤامرات أو الاتصال بقوى أجنبية أو حتى الممارسات الإسلامية في ذاتها. فالأطباء والعطارون والعشّابون الموريسكيون كانوا يتهمون باتباع الإسلام إذا استخدموا تمائم مكتوبة بالعربية أو مكتوب فيها آيات من القرآن في العلاج الذي يقدمونه، وكان من الوارد أيضاً أن يجدوا أنفسهم متهمين بالسحر على فرض أنهم استحضروا أرواحاً أو جناً لمساعدتهم في عملية العلاج. وقد اتهمت معالِجة موريسكية بحيازة كتاب سحري بالعلاجات، كان يطير إليها حين تستدعيه. وفي عام 1580، اعترف طبيب موريسكي بلنسي يدعى إيرونيمو باديت Hieronymo Padet تحت التعذيب بأنه يستشير جنيين شيطانيين وبأنه «استشار الشيطان حول طرق علاج الأمراض وخصائص الأعشاب والبول».

حرك اضطهادَ محكمة التفتيش للموريسكيين عدد من الدوافع المعقدة والمتناقضة أحياناً، لكن التأكيد الجديد على الإرهاب والقمع كان مقصوداً به جزئياً تسريع عملية دمج الموريسكيين؛ ذلك الهدف الذي اكتسب إلحاحاً جديداً في حقبة ما بعد غرناطة. ولا توجد أدلة على نجاح هذه الطرق. وعلى العكس من ذلك، كان الموريسكيون يخافون من محكمة التفتيش ويمقتونها وكانوا يطلقون عليها اسم «محكمة الشيطان» ويعتبرونها تجسيداً للظلم والرياء الكاثوليكيين. تصف إحدى المخطوطات الموريسكية قضاة

محكمة التفتيش بأنهم «ذئاب ولصوص عديمي الرحمة، حِرْفتهم العجرفة والطمع واللواط والشهوة والكفر... والطغيان والسرقة والظلم»[11].
وفي مقدمة كتابه «دليل الخلاص»، أدان الكاتب الموركسي الأراغوني المنفي خوان ديل رينكون Juan del Rincon «طغيان النصارى» في موطنه، الذي «تمارس فيه محكمة التفتيش بحقنا أقصى درجات الحقد والظلم، حتى لم يعد مكان في المملكة خالياً من النار وحزم الحطب، والأندلسيون المعمَدون حديثاً في كل مكان يقبض عليهم ويعاقبون بالخدمة على القوادس والمِخْلَعة والنار وغيرها من أنواع العقوبات التي يعلمها الله أفضل منا، إنه بكل شيء عليم».

لم يتوقف التعبير عن كراهية محكمة التفتيش عند حد الكلام. فبعض الموركسيين هاجموا مسؤولي محكمة التفتيش، كما قتلوا بعضهم أحياناً، وبخاصة في أراغون التي كان بمقدورهم فيها أن يعتمدوا على دعم المُقْطِعين النصارى، الذين لم يكونوا أقل من الموركسيين مقتاً لمحكمة التفتيش. لكن في غالب الأحيان كانت المقاومة تتخذ شكل المراوغة والالتواء. فقد تعلم الموركسيون كيف يخدعون المحكمة ويتجنبون العقاب الأشد بالاعتراف بمخالفات بسيطة، وباتهام أصدقاء أو جيران ماتوا أو بالتظاهر بالجهل. وفي بعض الجماعات الموركسية، كان الاعتقال من جانب محكمة التفتيش يعتبر وسام شرف لصاحبه. ودفع هذا القمع أيضاً كثيراً من الموركسيين إلى الحذر من صحبة النصارى، إذ كان معروفاً عن النصارى أنهم يقدمون النبيذ ولحم الخنزير للرفاق أو الضيوف الموركسيين كي يمكنهم إبلاغ محكمة التفتيش عنهم إذا رفضوا أياً منهما.

لم يؤد ذلك كله إلى تجسير الهُوّة بين إسبانيا الموركسية والنصرانية في عصر ما بعد غرناطة. وإذا كان قمع محكمة التفتيش قد زاد من سخط الموركسيين على الكاثوليكية، فقد كان يؤكد دائماً أسوأ شكوك النصارى

العاديين الذين اتخذوا الحضور الزائد للموريسكيين في العروض التكفيرية لمحكمة التفتيش برهاناً آخر على انحرافهم الضلالي وعداوتهم للنصرانية، بل إن هذا الاضطهاد أنتج استقطاباً وليس اندماجاً، الأمر الذي اتضح بشكل مؤلم في حادثة داخل سجن محكمة التفتيش في قونكة، الذي سخر فيه السجناء الموريسكيون من نظرائهم النصارى القدامى بعمل صلبان من القش ودهسها بأرجلهم، في حين هزئ النصارى القدامى من الموريسكيين بالتفاخر بأكل لحم الخنزير. فحتى حين كان الموريسكيون والنصارى كلاهما ضحايا للشمولية الكاثوليكية، بدا أنهم عاجزون عن تجاوز الكراهية المتبادلة التي باعدت بينهم.

15

«أراذل الناس»[1]

انتقل فيليب الثاني وحاشيته إلى سرقسطة في عام 1585 لحضور زواج ابنته كتالينا من دوق سافوي. جمع الملك الزفاف مع زيارة ملكية لأربعة عشر شهراً لرعاياه الأراغونيين المشاغبين، في رحلة ملحمية وشاقة مات خلالها نحو مئة من حاشيته بأمراض مختلفة. أرّخ لهذه الزيارة النبّال الفلمنكي وقائد الحرس الملكي إنريكو كوك Enrique Cock، الذي يحوي تأريخه لمحات مباشرة عديدة لعالم المورسكيين الريفيين مصورة في وثائق رسمية وتقارير محكمة التفتيش. ففي بني وليد Benivallet على نهر إبرو، شهد كوك عرضاً مسرحياً خاصاً من «الأندلسيين والنصارى» قدم على شرف الملك وحاشيته، أدى فيه صيادون مورسكيون دور أندلسيين يدافعون عن حصن بُني خصيصاً لهذا العرض، في حين يقتحمه النصارى ويدمرونه قبل أن يأسروا المدافعين ويسوقوهم في موكب مظفر إلى قصر الدوق المحلي. ووصف النبّال الفلمنكي الصيادين المورسكيين وهم يصطادون في سلام بشباك وصنارات على ضفتي نهر أوربة Huerva.

زار كوك أيضاً مستوطنة مول Muel المورسكية القريبة من سرقسطة،

(1) كما جاء في حاشية سابقة للمترجم، فإن الكلمات والعبارات الواردة بين مزدوجين ليست من لغة المؤلف ولا تعبر عن أفكاره، وإنما أخذها نصا عن أطراف النزاع [المترجم].

وهي بلدة اشتهرت بصناعة الخزف في الفترة الإسلامية، وظلت منتجاتها رائجة في العاصمة الأراغونية. يتخلل الوصف «السياحي» الذي يقدمه كوك لعمليات الصهر التي كان الخزافون الموريسكيون يستخدمونها ملاحظات «للأندلسيين» المحليين، الذين كانوا يرفضون أكل لحم الخنزير أو شرب النبيذ ويكترون الصحون والكؤوس الفخارية التي قدمت فيها هذه الأشياء لضيوفهم النصارى. ولاحظ أن الكنيسة المحلية مغلقة دائماً، إلا في «أيام الآحاد والأعياد التي يجبرون فيها بالقوة على سماع القداس». ويذكر كوك أن البلدة لم يكن بها غير ثلاثة نصارى قدامى، أحدهم كان الكاهن. أما بقية سكان مول، فقد علق بسخرية أنهم «يفضلون الحج إلى مكة أكثر من شنت ياقوب»[1].

تأثر تصوير كوك للموريسكيين في مول بالإجماع الرسمي حول الموريسكيين باعتبارهم ثقافة ثانوية أجنبية وغير مندمجة، ظلت منفصلة لدرجة خطرة عن المجتمع النصراني. في حين أنه في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر لم تكن أدلة الانفصال دائماً بهذا الوضوح. فالتعبيرات المزعومة للعبادة الإسلامية اختفت منذ فترة طويلة، وتشوش الكثير من العلامات التقليدية للهوية الثقافية الإسلامية أو تآكل. ففي بلنسية وغرناطة الريفيتين، كانت اللغة العربية لاتزال تستخدم. وحتى في قلب قشتالة نفسها، في آبلة وبلد الوليد وشقوبية كان الموريسكيون الغرناطيون المبعدون يستخدمون غالباً إحدى تحريفات اللغة العربية، وكانت اللكنة العربية لاتزال تصر الآذان النصرانية، لكن معظم الموريسكيين أصبحوا يتحدثون الإسبانية أو القطلونية فيما بينهم، أو يعرفون ما يكفي منها للتحدث في صحبة النصارى.

ترتبط بالموريسكيين دائماً تنويعات لغوية معينة في النطق الإسباني و«الموريسكي» لبعض الأصوات، مثل دمج المقطعين الموجودين في

الصوت ie ما يجعل كلمات مثل viejo [قديم] تنطق vejo. والصورة النمطية للموركسي الذي يتلعثم بشكل هزلي في «لغة الإمبراطورية» كانت مصدراً متواتراً للتسلية في إسبانيا القرن السادس عشر، لكنها صورة لم تكن تتطابق دائماً مع الواقع وفقاً للفقيه اللغوي بيرناردو دي ألدريتي Bernardo de Aldrete، الذي لاحظ أن أبناء الموركسيين الغرناطيين وأحفادهم في قشتالة كانوا «يتكلمون القشتالية بطلاقة... مع أن بعض المتصلبين منهم لم يتخلوا عن لغتهم العربية. وينطبق الأمر نفسه على أراغون لدرجة أن من لا يعرف المتحدثين لا يستطيع أن يميز الموركسيين عن الأراغونيين»[2].

ولم تعد قضية اللباس العويصة على ما كانت عليه في السابق. ففي مناطق إسبانيا الريفية ظل بعض الفلاحين الموركسيين يلبسون العمائم والنعال ذات الحبل الواحد، وظلت الموركسيات يلبسن ملحفاتهن البيضاء. لكن معظم الموركسيين الحضريين أصبحوا يلبسون مثل النصارى، وحتى في بلنسية، أخذ الرجال الموركسيون والنساء أيضاً يلبسون اللباس النصراني لدرجة أن نظرة عرضية على شارع إسباني في أواخر القرن السادس عشر لم تكن تكشف بالضرورة عن أي اختلاف واضح بينهما. وفي عام 1594، ذهل السفير البابوي كاميلو بروغيزي Camilo Borghese من الاختلافات بين النساء الإيطاليات والنساء الإسبانيات في مدريد، اللاتي كن «يلبسن حجاباً على وجوههن مثل الراهبات ورؤوسهن مغطاة كاملة بطرح كن يلففنها على وجوههن بطريقة تجعل الرؤية صعبة عليهن»[3].

وظل الموركسيون يرتبطون في العقل العام بحرف ومهن معينة، إذ كان كثير منهم يعملون أصحاب دكاكين وباعة متجولين وبستانيين، فضلاً عن باعة الفطائر، الذين كانوا منتشرين في كثير من البلدات والمدن الإسبانية. لكن الموركسيين كانوا يعملون أيضاً كُتاباً عدولاً أو موثقين

عامين ومسؤولي ضرائب وفي غيرها من «وظائف الجمهورية»، التي كان يتعذر تمييزهم فيها عن النصارى القدامى. في حين كان يسهل تمييزهم بأماكن إقامتهم. فحتى حين عملوا بين النصارى في البلدات والمدن، كانوا في نهاية اليوم يعودون إلى بيوتهم في أحياء المورسكيين مثل تريانا Triana في إشبيلية وسان بيرناردو San Bernardo في تيروال أو الأزُق El Azoque في سرقسطة. وفي كل الأماكن الأخرى، مثل سهول أراغون الدنيا المقفرة أو المناطق الجبلية البرية بين بلنسية وقطلونية المعروفة باسم مستراثغو Maestrazgo، كانت أسقف البيوت المغطاة بالقش والبيوت الطينية في القرى والمستوطنات المورسكية تميز بيوتهم عن بيوت النصارى القدامى المبنية بالطابوق والآجر على السهول الساحلية.

لم يخترق نصارى كثيرون هذه الجماعات للدرجة التي تمكّنهم من مشاهدة العبادات الإسلامية، مع أن المراقب الخبير كان يستطيع أن يكتشف استمرار التمسك «بدين محمد» في منظر الرجال والنساء المورسكيين، وهم يلبسون أفضل ثيابهم أيام الجُمع، وفي غياب الدخان المنبعث من مداخن المورسكيين في رمضان، وفي وجوه الرعايا المورسكيين الضجرة أو المتجهمة في أثناء القداس. لكن في عصر ما بعد غرناطة، لم يكن المسؤولون الإسبان في حاجة إلى رؤية العلامات الخارجية لاختلاف المورسكيين كي يتخيلوا النوايا العدوانية التي تكمن تحت السطح. فلم تكن شكوكهم تستند إلى ما يفعله المورسكيون أو ما لا يفعلونه، وإنما على موشور من الفرضيات والأحكام المتعصبة كان النصارى ينظرون إليهم من خلاله. وهذه الصورة للمورسكيين هي ما سيتناوله هذا الفصل من أجل فهم الحالة السيئة التي وجد مسلمو إسبانيا السابقون أنفسهم فيها في العقود الأخيرة من القرن.

***

تشكّلت هذه الصورة عبر تداخل معقد للشوفينية الثقافية والدينية وما يشبه التمييز العنصري وقومية إسبانية أولية تتحدى التصنيف. دفع بعض المؤرخين بأن المفاهيم الحديثة للتمييز العنصري لا تنطبق على إسبانيا القرن السادس عشر، وأن الدين وليس العرق كان العامل الحاسم في العداء النصراني نحو المسلمين واليهود. لكن هذه الرؤى تتجاهل أن أفكار التمييز العنصري الحديثة مجرد استمرار لتقاليد يمكن تتبع محدداتها الأساسية إلى الأزمان الكلاسيكية. فكان من أساسيات هذه التقاليد فكرة أن كل أعضاء المجتمع أو الجماعة الاجتماعية المحددة يشتركون في الخصائص البغيضة أو الدنيئة أو الحقيرة نفسها. وسواء كانت سرديات الوضاعة من هذا النوع تنسب لثقافة أو دين أو بيولوجيا معينة، فإنها تستخدم دائماً لتبرير الهيمنة والإقصاء، وحتى الإبادة، من جانب الجماعة التي تفترض في نفسها التفوق[1].

---

(1) تصدق هذه الفكرة على التطور التاريخي للعلاقات بين الشعوب والجماعات، وعلى المورسكيين تحديداً، ففي بعض المراحل كان التميز بين الشعوب يكتسي ثوباً دينياً، كما في مرحلة الحروب الدينية، وبعد أن خفت صوت الدين، اكتسى التميز أشكالاً ومبررات أخرى، بعضها عرقي أو ثقافي أو غيرها من محددات الاختلاف بين الجماعات. مع العلم بأن الجماعة التي يمارس التميز ضدها في الحالة التاريخية المحددة، ظلت عرضة للتميز لكن بمبررات وأسباب مختلفة في المراحل التاريخية المختلفة، لأن الأسباب الأساسية وراء ممارسة التميز تكمن في الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي، وليس في المبررات السطحية التي ترفع، من قبيل الدين أو العرق أو اللغة. معنى ذلك أن المورسكيين حتى لو تخلوا عن دين آبائهم، كما فعل بعضهم، كانوا سيظلون عرضة للتميز بسبب ثقافتهم المختلفة، حتى لو تخلوا عن ثقافتهم وتبنوا ثقافة الإسبان كاملة، كانوا سيتعرضون للتميز بسبب عرقهم أو خصائصهم الجسمية أو مناطقهم، وهو ما أثبته تاريخ الأندلسيين، كما يبرهن الكتاب الحالي. فالجماعة المهيمنة كي تستغل أقلية تعيش وسطها اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً تبرر ذلك باختلافات هذه الجماعة التي تحتقرها وتصمها بالدونية. فدفع الجماعات إلى أسفل السلم الاجتماعي وحصرها في مهن وحرف متواضعة أو «محتقرة» وفي مستويات معيشية منخفضة كان ولايزال يستلزم وصم هذه الجماعات بالدونية، أياً كان مبررها دينياً أو عرقياً أو ثقافياً [المترجم].

وفي إسبانيا القرن السادس عشر، كان الدين والثقافة والعرق جميعاً جزءاً من العداء المرير الذي كان يوجه دائماً للمورسكيين. ترجع جذور هذا العداء إلى الاشمئزاز اللاهوتي من الإسلام نفسه، الذي عبّر عن نفسه في تصوير المورسكيين بأنهم «الساراكينوس»[1] أو «الهاجريون» أو «البقايا الهاجرية» أو«البهائم الهاجرية»، في إشارة إلى تحدر إسماعيل من الجارية هاجر[2]. وأخذت كتب المجادلات الإسبانية المعادية للمسلمين في القرن السادس عشر تكرر أسلافها بالقرون الوسطى في رفضها الإسلام كنحلة شريرة وشيطانية كان أتباعها بدائيين سذجاً ونزاعين للقتال.

وكما كانت الحال في كل الأماكن الأخرى بأوروبا، تشكّلت كراهية الإسلام أيضاً بفعل الخوف من الإمبراطورية العثمانية التي جعلت مهارتها العسكرية والتقنية من «الأتراك» خصماً جيوسياسياً هائلاً وخطراً بدرجة أكبر من «الساراكينوس». وفي مختلف أنحاء الإمبراطورية الهابسبورغية بالقرن السادس عشر، انتشرت دعاية معادية للأتراك وأوراق شعبية عرفت في النمسا بالكتابات التركية Turkenschriften دأبت على تصوير «الأتراك الرهيبين» على أنهم عدو وحشي وهمجي وغير إنساني[3][4]. وهذه الصورة للعثمانيين باعتبارهم «العدو الوراثي» للنصرانية وجدت

(1) حول معنى الساراكينوس، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(2) حول نعت المسلمين والعرب بالهاجريين، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(3) كجزء من حملة الدعاية الحربية ضد الأتراك المحاصرين لفيينا وشيطنتهم في أعين سكان فيينا المحاصَرين، روّج رجال الدين والسياسة صورة للأتراك على أنهم برابرة وهمج ومتوحشون يأكلون لحوم البشر من الأمم المغلوبة، كان الهدف منها قطع طريق التراجع والاستسلام أمام رعيتهم. فإذا كان الموت هو المصير المؤكد لسكان فيينا، سواء في حال هزيمتهم وأكل الأتراك لهم أو بالاستماتة في الدفاع عن مدينتهم، فإن الموت دفاعاً عن النفس والأهل والمدينة أفضل وأجدى من الموت على موائد أكلة لحوم البشر. وقد نجحت هذه «الدعاية الحربية»، حيث صمدت فيينا أمام حصارين من جانب الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها، واحد في عام 1529 بقيادة السلطان سليمان القانوني نفسه وآخر في عام 1683 بقيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا [المترجم].

بقوة في إسبانيا ما بعد الاسترداد[1]. ففي عام 1551، شارك الناقد الكبير للعنف الاستعماري الإسباني في العالم الجديد بارتولومي دي لا كاساس Bartolomé de las Casas في مناظرة تاريخية في بلد الوليد مع رجل الدين خوان خينيس دي سبولبيدا Juan Ginés de Sepúlveda حول حقوق الهنود الذين أخضعهم الفاتحون، دفع فيها بأن الغزو كان مفهوماً «استبدادياً» و«محمدياً»[2] لا يجب تطبيقه على الإنديز، «كما لو كان الهنود أندلسيين أفارقة أو أتراكاً»[5]. وفي اتهامه الشهير لسلوك المستعمرين الإسبان في الإنديز، أدان الانتهاكات التي اقترفها مواطنوه بأنها «أسوأ مما يفعله الأتراك لتدمير النصرانية»[6].

ففي رأي دي لا كاساس، كان الإسلام هو النقيض العنيف للنصرانية الذي كان قتاله بلا هوادة مبرراً تماماً، بل واجباً على الدولة النصرانية، وفي المقابل كان يجب استمالة الهنود «الأبرياء» بالوسائل السلمية. وعلى مدار القرن السادس عشر، استُحضرت سرديات أخرى كتبرير للفتوحات الإمبراطورية الإسبانية في الأراضي الإسلامية. فرجال دين من أمثال سبولبيدا صوّروا الشعوب الأمريكية الأصلية أنهم همج ومتوحشون، يستحقون أن نغزوهم ونمدّنهم وفقاً «للقانون الطبيعي»، وقد طبق الإطار المفاهيمي عينه أحياناً على شمال إفريقيا المغاربي، الذي صوّر قاطنوه أنهم «جماعة من الناس» همجية وبدائية غير جديرة بالأراضي التي تسيطر عليها. وهذه الصورة للهمجية المغاربية عززتها الأوصاف

(1) لاحظ أن آل هابسبورغ كان اسماً آخر لآل النمسا، إذ جاءت هذه السلالة الحاكمة أصلاً من النمسا وظلت فروع منها تحكم النمسا وغيرها من البلدان الأوروبية إلى جانب إسبانيا. ولذلك اجتمعت على الأندلسيين كراهية أشد عدوين اكتويا من المسلمين: إسبانيا التي فتحها المسلمون وحكموها ثمانية قرون أو يزيد، والنمسا التي تعرضت لحصارين مهلكين من الإمبراطورية العثمانية، وظلت عقوداً تعيش في رعب من الاحتلال العثماني [المترجم].

(2) وكان الغزو صار قريناً بالمسلمين ونبيهم [المترجم].

الإسبانية لشمال إفريقيا، من النوع الوارد في كتاب رئيس الأساقفة دييغو دي آيدو Diego de Haedo «طوبوغرافيا الجزائر وتاريخها العام» (1612) الذي ربما ألف جزءاً منه الأسرى النصارى في الجزائر. صوّر آيدو مسلمي الجزائر أنهم سكان متوحشون وبدائيون، يتأكد عدم تمدنهم في نظامهم الغذائي، وممارساتهم الجنسية، وطريقة تربيتهم لأطفالهم، ومعاملتهم النصارى، وتعاملاتهم بعضهم مع بعض.

وردد إسبان آخرون بالقرن السادس عشر تصوير آيدو لمغاربة شمال إفريقيا أنهم جشعون ومؤمنون بالخرافات وفاسقون وساديون، وكانت تلك الخصائص السلبية تُربَط دائماً بـ«الأندلسيين» داخل حدود إسبانيا. ففي المخيلة الإسبانية، كان المورسكيون يشتركون في الخصائص الهمجية نفسها التي كانت تنسب لمعاصريهم في شمال إفريقيا، ما وضعهم في مستوى أدنى من المجتمع القشتالي الذي كان يرى في نفسه ذروة الحضارة[1]، وكانوا أيضاً رسالة تذكير دائمة بماضٍ إسلامي كان ينظر إليه بخزي

(1) من غرائب علم اجتماع التمييز والاضطهاد البشريين، أياً كان تبريره، أن الجماعات التي تمارس التمييز ضد غيرها وتحتقرها، تكون هي نفسها موضوعا للتمييز والاحتقار من جانب جماعات أخرى، مثال ذلك أن الرأي العام الشعبي والرسمي في أوروبا على امتداد العصور كان يرى أن إفريقيا «البربرية والهمجية» تبدأ من جنوب البرانس، بمعنى أنها تضم إسبانيا نفسها التي كانت ترى نفسها على قمة هرم الحضارة. وبذلك نكون إزاء ممارسة التمييز والاضطهاد أمام هرم، يمارس فيه كل مستوى أعلى التمييز ضد كل مستوى أو مستويات أدنى منه. وعلى هرم التميز والاضطهاد، تمارس الجماعات الوسيطة أشد درجات العنف والقمع بالجماعات الأدنى منها، ولو فقط كي تثبت للجماعات الأعلى منها أنها جزء منها وكي تطهر نفسها من الدونية التي تنظر بها إليها الجماعات الأعلى على الهرم بدماء وأشلاء الجماعات الأدنى. وهنا تندفع الجماعات الوسيطة بعقدة النقص لديها إلى اضطهاد الجماعات «الأدنى» أو محل اضطهادها، ولو فقط كي تفصل نفسها عنها وتتبرأ منها. وهذه الفكرة عينها تجلت بوضوح طوال الكتاب في اتخاذ النصارى الإسبان الأندلسيين والمغاربة والمسلمين عموماً والشعوب الأمريكية الأصلية موضوعاً للتميز والاضطهاد، واتخاذ أوروبا شمال البرانس للنصارى الإسبان أنفسهم موضوعاً للتميز [المترجم].

واحتقار واشمئزاز. وفي الوقت الذي بدأ فيه بعض المفكرين الإسبان في تخيل هوية قومية مشتركة تستند إلى مفهوم الأسبنة Hispanidad بجذوره الممتدة إلى الماضي اللاتيني والقوطي، بدت الآثار «الشرقية» و«الإفريقية» في الثقافة المورسكية شاذة وممقوتة تماماً.

نتجت هذه الكراهية جزئياً عن القوة والمكانة الجديدتين لإسبانيا في أوروبا النصرانية والموقف المتناقض منها خارج إسبانيا. فمن ناحية كانت الثقافة الإسبانية مثار إعجاب واسع، وبخاصة في إيطاليا. وفي الوقت عينه كانت القوة الإسبانية- والهابسبورغية[1]- مرهوبة في أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء. ومع أن فيليب الثاني كان يقدم نفسه بوصفه «مطرقة الزنادقة» والمدافع الشرس عن القوامة الدينية الكاثوليكية، فقد ظلت قيادات نصرانية أوروبية كثيرة تنظر إلى إسبانيا على أنها بلد مشكوك فيه أفسدته قرون السيطرة الإسلامية الطويلة إلى درجة لا تمحى. ففي بداية القرن السادس عشر، رفض عالم الدين والمصلح الكنسي الهولندي إرازموس دعوة لزيارة إسبانيا التي كانت كتاباته شديدة الرواج فيها، وقال لتوماس مور: «أنا لا أحب إسبانيا»، على أساس أن المجتمع الإسباني كان مليئاً باليهود والزنادقة، وهي تصورات رددتها قيادات نصرانية أخرى. ففي كتابه «أحاديث المائدة» (1566)، وصف مارتن لوثر إسبانيا على أنها بلد «اليهود الكافرين والأندلسيين المعمَدين»، فيما أشار البابا المعادي لإسبانيا بول الرابع إلى الإسبان في عام 1555 أنهم «البذرة الضلالية لليهود والأندلسيين».

وفي أثناء حروب فيليب مع أوروبا البروتستانتية، كان تصوير إسبانيا أنها بلد ملوث ومدنس يُدمَج دائماً في الدعاية البروتستانتية المعادية

(1) على اعتبار أن الهابسبورغيين كانت لهم ممالك أخرى في أوروبا منفصلة عن ممالكهم الإسبانية، منها النمسا والمجر والبرتغال وممالك أوروبية أخرى [المترجم].

لإسبانيا، التي أرجعت نزوعها الشاذ للعنف والغزو إلى تراثها الأندلسي. ووصف كتيب فرنسي من العقد الأخير بالقرن السادس عشر فيليب الثاني نفسه بأنه «نصف أندلسي ونصف يهودي ونصف ساراكينوس». وأرجع «دفاع»[1] (1580) وليام الأورانجي المعادي للإسبان الذي وُزّع على نطاق واسع، القمع الدموي الذي مارسه دوق ألبة بحق سكان الفلاندر إلى حقيقة أن «الجزء الأكبر من الإسبان، ولاسيما أولئك الذين يحسبون أنفسهم نبلاء، من دم أندلسي ويهودي». وفي كتابه «مقالة موجزة عن الدولة الإسبانية» (1590)، أرجع الكاتب الهولندي إدوارد دونس Edward Daunce «الطغيان» الإسباني في الإنديز أيضاً إلى حقيقة أن الإسبان «اختلطوا بالأندلسيين الوحشيين الغادرين»، وشجب الشاعر الكاثوليكي أليساندرو تاسوني Alessandro Tassoni الهيمنة الإسبانية على بلده إيطاليا في كتيب بعنوان «الفيليبيون»[2] (1612) Le Filipiche وصف إسبانيا فيه بأنها «الهمجية الأندلسية القوية في البر والبحر على حد سواء». أما وليام شكسبير فقد أعطى كذلك «عطيلاً» الأندلسي «سيفاً من إسبانيا» ليقتل به ديدمونة. كانت هذه الصور جارحة ومهينة جداً لبلد كان يتطلع إلى أن يكون «عالمياً وكاثوليكياً ومثالياً»، وعززت بلا شك تصميم حكام إسبانيا على استئصال هذه التأثيرات الأجنبية من المجتمع الإسباني و«تطهير» إسبانيا في نظر العالم الخارجي.

---

(1) كان وليام الأورانجي أحد أبرز قادة الثورة الهولندية أو حرب الثمانين عاماً (1566–1648) ضد الاحتلال الإسباني، وفي الخامس والعشرين من مارس 1581، أعلن فيليب «لعن» أو «حرمان» وليام، وصفه فيه بأنه خائن وعدو البشرية، ومكافأة لمن يريح العالم من هذه «الآفة»، فدفع وليام هذه التهم عن نفسه في كتيب أسماه «الدفاع»، اتهم فيه الإسبان بارتكاب جرائم بشعة بحق الهولنديين [المترجم].

(2) نسبة إلى اسم فيليب الذي حمله كثير من ملوك إسبانيا، وكذلك اسم دولة «الفلبين» مشتق أيضاً من الاسم نفسه [المترجم].

***

ألهبت الشوفينية الدينية والتعصب الثقافي العداء النصراني نحو الموركسيين، الذي كشف عن نفسه في عدة نواح: في التشريع التمييزي وقوانين نقاء الدم، وفي رفض بعض الكهنة تقديم العشاء الرباني لرعيتهم الموركسيين، وفي إجبار مجدفي القوادس الموركسيين على تغطية رؤوسهم ساعة إقامة القداس على السفن، وفي شتائم «الكلاب الأندلسيين» و«العاهرات الأندلسيات» التي كانت توجه إلى الموركسيين من عامة النصارى القدامى، وفي الهجوم بالضرب على الموركسيين المدانين، الذين حاولوا أن «يموتوا كأندلسيين» في العروض التكفيرية لمحكمة التفتيش[1]، وفي الوثائق الرسمية، التي كانت تشير إلى الموركسيين بأنهم «وباء» أو «طاعون» أو «حمى» أو «حشد ضار» أو «بهائم» أو «أفاع» داخل «صدر إسبانيا».

انتشرت هذه اللغة كثيراً في كتب الدفاع عن العقيدة النصرانية والنصوص المعادية للموركسيين في القرن السابع عشر، وقد كتبت لتأييد الطرد، ومنها كتاب الراهب الدومينيكي البرتغالي داميان فونسيكا Damián Fonseca «الطرد المبرر للموركسيين الإسبان» (1611). ذكر فونسيكا الواعظ السابق في بلنسية كيف أن «الخيانة والعادات السيئة» للموركسيين تورّث عبر «دمهم الفاسد» ولبن أمهاتهم، ولذلك فإن كل أعضاء «الأمة» الموركسية تشربوا «العادات الفاسدة من أسلافهم... في أرحام أمهاتهم». وعبر دمج خطاب نقاء الدم والدين، استشهد فونسيكا بسفر حزقيال وشبه وجود الموركسيين داخل إسبانيا بـ«الكرمة»

(1) بمعنى أنهم تقبلوا حكم الإعدام وساروا إلى المحرقة في ثبات وكبرياء أو رددوا أدعية إسلامية من قبيل الشهادة أو تلاوة القرآن. تذكر أيضاً الخلط ما قبل الحديث بين «القومية الدينية» والقومية «العرقية» أو الثقافية في حاشية سابقة [المترجم].

الطفيلية[1]، التي كانت «في داخل أمها» و«يغذيها دم سام»[7].

وكذلك صوّر الكاهن الأراغوني بيدرو أثنار كاردونا Pedro Aznar Cardona الموركسيين بأنهم مصدر التلوث في شجبه للنصارى القدامى، الذين كانوا يتزوجون موركسيين وموركسيات وبذلك «لوثوا النسب النظيف الضئيل الذي كانوا يمتلكوه». وكما في حالة فونسيكا، عاش أثنار كاردونا، ومارس الوعظ بين الموركسيين، وقضى عدة أعوام غير مثمرة في الوعظ في أبرشية موركسية ريفية في وادي خالون Jalón Valley في أراغون، قبل أن يكتب كتيبه المعادي بشراسة للموركسيين (الطرد المبرر للموركسيين). فقد أسهمت هذه الخبرة في اتهام أثنار كاردونا اللاحق للموركسيين بأنهم:

> أراذل الناس، وأنهم أقذار وأعداء للفضيلة والآداب النبيلة والعلوم. ونتيجة لذلك كان حظهم منعدماً من كل الأساليب والعادات اللطيفة والدمثة والمهذبة. ويربون أطفالهم دون ضبط مثل البهائم الوحشية، ولا يقدمون لهم تعليماً عقلانياً أو تعاليم من أجل الخلاص، إلا ما يفرض عليهم، وما يجبرهم سادتهم على مراعاته، لأنهم نُصّروا. وعباراتهم خرقاء وكلامهم بهيمي ولغتهم همجية وطريقة لبسهم سخيفة... وهم أجلاف

(1) جاء في سفر حزقيال: «أمك ككرمة مثلك غرست على المياه كانت مثمرة مفرخة من كثرة المياه، وكان لها فروع قوية .... لكنها اقتلعت بغيظ وطرحت على الأرض وقد يبست ريح شرقية ثمرها قصفت فروعها ويبست فروعها القوية أكلتها النار» (سفر حزقيال)، 19: (10–12). لكن الإشارة إلى الكرمة في السفر لا تتضمن معنى الطفيلية، وإنما شبه شعب الله أو الكنيسة بالكرمة الإلهية التي غرسها الله بيمينه ولم يدعها في عوز إلى شيء، وقد اختار الله الكرمة لأنها –من بين الأشجار الأخرى– تعتبر صغيرة لينة العود ولا يصلح خشبها لأي غرض، فميزتها الوحيدة هي ثمرها الوفير، وهو ما يريده الله– وفقاً للسفر– من كنيسته: أن تكون ثمر الروح النفيس [المترجم].

في تناولهم للطعام، فيأكلون دائماً على الأرض بلا طاولة أو أي قطعة أثاث أخرى، مما يقرف الآخرين... أما ما يأكلوه فهو أشياء حقيرة... كالخضراوات والحبوب والفاكهة والعسل والحليب، ولا يشربون النبيذ ولا يأكلون اللحم إلا إذا ذبحوه بأنفسهم... ويحبون الشعوذة والقصص والرقص والتنزه وغيرها من الانحرافات البهيمية[1]... ويعملون بمهن لا تتطلب عملاً كثيراً مثل النسج والخياطة وصنع الأحذية والنجارة وما شابه، وهم باعة متجولون للزيت والسمك والعسل والسكر والبيض والمنتجات الأخرى، وهم حمقى في حمل الأسلحة[2] ولذلك تجدهم جبناء ومخنثين، ويسافرون في جماعات فقط، وهم شهوانيون وغادرون، ويتزوجون وهم صغار، ويتكاثرون كالأعشاب الضارة، فيزحمون الأماكن ويلوثونها[8].

يتضخم اشمئزاز أثنار كاردونا الهستيري من الجماعة التي اعتبر أفرادها «بلهاء متوحشين» إلى حد الهلوسة في بعض الأحيان، كما في تصويره المورسكيين أنهم «ثعالب مفترسة وثعابين وعقارب وضفادع وعناكب وسحالي سامة، سَقِم الكثيرون وماتوا من سمها القاتل. وهم أيضاً قطاع طرق شرسون وطيور جارحة تعيش على نشر الموت.

(1) إنها التعبيرات عينها عن الحضارة أو الثقافة الوسطية «المحبة للحياة»، التي انتهت إليها أوروبا الحديثة، في حين يحاول بعضنا إرجاعنا إلى المجتمع المسيحي في عصور الظلام، الذي كانت الكنيسة تضبط كل تحركاته وأنفاسه وتقيسها على «شريط القياس» الديني [المترجم].

(2) وكأن أثنار كاردونا لا يعرف أن الأندلسيين كان محرماً عليهم حمل الأسلحة، وأنهم كانوا يتعرضون من حين إلى آخر لحملات مصادرة الأسلحة. وهذا الوصف أيضاً يتناقض من الذعر النصراني من الأندلسيين والمسلمين إجمالاً [المترجم].

وهم ذئاب بين الخراف، وذكور النحل العاطلة في الخلية، وغربان بين الحمام، وكلاب في الكنيسة، وغجر بين الإسرائيليين(1)، وأخيراً زنادقة بين الكاثوليك»[9]. وثمة رجال دين آخرون كانوا متشددين كذلك في رفضهم رعيتهم السابقين، ومنهم الراهب ماركوس دي وادالاخارا Marcos de Guadalajara الذي قال فيهم: «كانوا كالشيطان معادين للصليب المقدس»[10]، ومنهم أيضاً الراهب الدومينيكي بلاس بيردو Blas Verdu، الذي تَذَكَّر «حججهم الفظيعة والمكتومة والصامتة التي تصرخ في الدم. فبعد أن وعظنا هؤلاء التعساء قالوا: آباؤنا أندلسيون ونحن أندلسيون»[11].

وكما الحال مع الغجر(2)، الذين كانوا يشغلون مكانة مماثلة مزعزعة ومهمشة في إسبانيا القرن السادس عشر، كان ينظر إلى الموريسكيين دائماً على أنهم ثقافة ثانوية حاقدة، أفرادها ميالون إلى الممارسات الدينية الكافرة والجريمة والقتل. وقد كان هذا التعصب الأعمى قادراً على تحويل حتى الخصائص الإيجابية المفروضة عليهم إلى مصدر للبغض والاشمئزاز. فبالنسبة إلى فونسيكا تأكدت وضاعة الموريسكيين البلنسيين في حقيقة أن كثيراً منهم كانوا يعيشون في «أماكن وعرة وجبلية، حيث اختار هؤلاء الهمج أن يعيشوا بعيداً عن صحبة الكاثوليك»[12].

---

(1) أي برابرة متوحشين بين شعب الله المختار، وكأن إسبانيا الكاثوليكية نفسها لم تعتبر «وثنية موسى» هرطقة وتجبر أتباعها على الاختيار بين اعتناق النصرانية قسراً أو الطرد من البلاد أو حتى القتل [المترجم].

(2) الغجر (أو النوَر أو الصلب أو الكاولي أو غيرها من الأسماء) من الشعوب التي اضطهدت على مر التاريخ وفي مختلف مناطق العالم، ودفعهم الاضطهاد- وفقاً لفكرة هرم التمييز والدوافع الاقتصادية والاجتماعية وراء التمييز- إلى احتراف المهن «المحتقرة» وحتى التسول والسرقة والدعارة وغيرها مما ينسب إليهم في مختلف الجماعات التي استضافتهم وتستضيفهم، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنهم لم تقم لهم دولة قط، تماما كما كانت حال اليهود على مر تاريخهم [المترجم].

وإذا كان الموريسكيون قد احتقروا بسبب الأماكن التي كانوا يعيشون فيها أو الطعام الذي كانوا يأكلونه، فإن أعداءهم احتقروهم أيضاً لسمات الرصانة والكد نفسها التي جعلتهم جذابين لأرباب الأعمال النصارى. ففي قشتالة، كان المراقبون النصارى يبدون دائماً الغيرة والدهشة من التقدم الاقتصادي السريع الذي حققه بعض الموريسكيين الغرناطيين وعزوه إلى حقيقة أن الموريسكيين أكثر جدية في العمل من النصارى وأقل منهم استهلاكاً، وهكذا يتمتعون بميزة غير عادلة. وذهبت بعض السرديات المعادية للموريسكيين أبعد من ذلك إلى اتهام الموريسكيين بتعمد العمل لساعات طويلة والعيش المقتصد في مؤامرة جماعية لتقويض الاقتصاد النصراني والسيطرة على إسبانيا خلسة[1].

كان النصارى يتخيلون دائماً أن الموريسكيين بخلاء وأغنى مما يبدو عليهم، وكانت هذه المعتقدات ترتبط أحياناً باتهامات أنهم يجمعون سراً احتياطيات إسبانيا من الذهب والفضة. ووفرت فكرة أن الموريسكيين كانوا «إسفنجة تمتص كل ثروة إسبانيا» تفسيراً جزئياً زائفاً للأزمات الاقتصادية وحالات الإفلاس في الأعوام الأخيرة من عهد فيليب. فكما كان الحال مع المُنَصَّرين اليهود من قبلهم، كان الشعور المعادي للموريسكيين يغذيه أحياناً الحسد والسخط، وإن كان بدرجة أقل. ففي اجتماع مجلس قشتالة في سبتمبر 1607، دعا عضو يدعى بيدرو دي بيسغا Pedro de Vesga إلى منع الموريسكيين من حضور المحاضرات الطبية كطلاب غير مسجلين، على أساس أن الممارسين الطبيين الموريسكيين كانوا يستخدمون المعرفة التي يحرزونها في قتل النصارى. ودفع بيسغا بأن الطب ومهن «الشرف» الأخرى يجب أن تكون مقصورة على النصارى. ومن أجل دعم هذه

(1) هذه هي الاتهامات عينها، التي كانت ترفع عادة في وجه اليهود من مختلف الجماعات التي استضافتهم على مر التاريخ، من إنجلترا البروتستانتية حتى إسبانيا الكاثوليكية [المترجم].

الحجج، حكا للمجلس عن طبيب موركسي في مدريد يدعى «المنتقم» قيل إنه قتل ثلاثة آلاف مريض نصراني باستخدام «مرهم سام»، وطبيب آخر كان يجدع مرضاه النصارى القدامى حتى لا يتمكنوا من استخدام الأسلحة. وحذّر بيسغا من أن حضور كثير من الطلاب الموركسيين غير المسجلين في الجامعات الإسبانية سيمكّن الأطباء الموركسيين قريباً من قتل «أناس في هذه المملكة أكثر مما يقتل فينا الأتراك والإنجليز وغيرهم من الأعداء»[13].

ربما حركت هذه الأوهام جزئياً الرغبةُ في التخلص من المنافسة الاقتصادية، بيد أن التعصب المعادي للموركسيين لا يمكن اختزاله بحال من الأحوال في التفسيرات الاجتماعية-الاقتصادية. فالتعصب والكراهية ولّدا فرضيات خاصة بهما، كانت في أغلب الأحيان متناقضة وغير منطقية. فمع اتهام الموركسيين بالكد لتقويض المجتمع النصراني، كان يجري اتهامهم أيضاً بالتطفل والكسل وجمع ثرواتهم المتخيلة عبر وظائف سهلة مثل البستنة والحوانيت.

كانت هذه الادعاءات جميعها تقوم على فرضية أن الموركسيين توحّدهم رغبتهم النهائية في تدمير النصرانية والسيطرة على إسبانيا. وبمجرد قبول هذا المنطق، يتحول صاحب الدكان الموركسي المتواضع أو الفلاح الموركسي المستنزَف والمستغَل حتى النخاع إلى أناس يشكّلون خطراً على المجتمع النصراني. وقد ضخمت هذا التهديد الهواجس من أن السكان الموركسيين كانوا يتكاثرون سريعاً على حساب النصارى. وكان من المتعارف عليه أن الموركسيين يتزوجون في سن مبكرة، ويكوّنون عائلات أكبر، في مقابل تناقص السكان النصارى جزئياً، لأن النصارى كانوا يحاربون ويموتون في حروب الملك، وأيضاً لأن النصارى كانوا يدخلون الكنيسة ويثمّنون العزوبة وضبط النفس في علاقاتهم الجنسية.

في بيعته لدون خوان النمساوي، صوّر الشاعر خوان روفو غوتيريث Juan Rufo Gutiérez إسبانيا في صورة بطولية وهي «تحارب موجات منهِكة» من الأعداء، في حين يبقى الموركسيون في مأمن في بيوتهم، ينجبون أربعة أطفال في ثلاثة أعوام»[14]. وفي عام 1571، انتقد مراسل عائلة فوغر Fugger المصرفية الألمانية في إشبيلية إبعاد الموركسيين الغرناطيين إلى أجزاء أخرى من إسبانيا، دافعاً بأنه «بهذه الطريقة سيزداد تلوث الإسبان واختلاطهم بالأندلسيين عما قبل. وبذلك سيصيرون هم واليهود العرقين الأنبل والأقوى، لأنهم يتكاثرون كالأرانب الملكية».

على أن شبح الأقليات العرقية التي تتكاثر بسرعة بما يؤهلها للهيمنة الثقافية ظاهرة تاريخية متواترة، تعتمد على الانطباعات الشخصية وسيناريوهات أسوأ الحالات، أكثر من اعتمادها على الحقائق المثبتة، وتندرج المواقف النصرانية من الموركسيين ضمن هذه الظاهرة. فلم تجد البحوث العلمية الحديثة أن الموركسيين كانوا يتزوجون في عمر أصغر كثيراً من النصارى، ولا تدعم الأدلة المتاحة الاعتقاد بأن عائلاتهم كانت تنمو بمعدل أسرع من عائلات النصارى في الأعوام الأخيرة من القرن[15]. ففي قشتالة، لم يصل العدد الإجمالي للموركسيين في عهد فيليب أكثر من سبعين ألفاً من إجمالي عدد سكانها البالغ ستة ملايين وستمائة ألف نسمة، ومع ذلك كانت تقارير محكمة التفتيش من مدن مثل طليطلة وإشبيلية وآبلة تحذّر دورياً من أن عدد السكان الموركسيين سيفوق عدد النصارى قريباً. وحتى في بلنسية التي كان السكان الموركسيون فيها أكبر كثيراً، ظلوا يشكّلون ثلث إجمالي السكان تقريباً طوال القرن السادس عشر.

ومع ذلك فقد كان الاعتقاد بأن الموركسيين «يتكاثرون كالأرانب» يؤخذ غالباً مأخذ المسلمات، وأصبح سبباً آخر لكراهيتهم والخوف منهم. ربما نتجت هذه المخاوف السكانية جزئياً عن المدركات النصرانية

للغيتوهات المورسكية شديدة الازدحام، التي أعطت للمراقبين انطباعاً بأن أعدادهم كانت «تطفح بها» أحياؤهم. لكن الخوف من الخصوبة المورسكية كان ينصهر كثيراً كذلك مع الأفكار النمطية الأقدم حول «الأندلسي الشهواني»، التي صوّرت المورسكيين على أنهم لا يقتصرون على امرأة واحدة كما يفعل النصارى بسبب ممارسة تعدد الزوجات وزيجات الأقارب، في حين كان النصارى أميل إلى العزوبة، كما زعمت هذه الأفكار. أما تعدد الزوجات فلم يكن شائعاً للدرجة التي تخيلها كثير من النصارى، جزئياً، لأن قليلاً من المورسكيين كانوا يتحملون نفقاته. لكن الشهوانية كانت هوساً متواتراً لدى أصحاب كتب المجادلات المعادين للمورسكيين مثل الراهب الدومينيكي خايمي بليدا Jaime Bleda، الذي وصف المورسكيين بأنهم «أشرار وشهوانيون ويشبهون الماعز، ويسلمون أنفسهم لكل أنواع الآثام»[16].

كررت هذه الصور أيضاً شجب «شهوانية» النبي محمد التي كانت شائعة في كتب المجادلات المعادية للمسلمين بالقرون الوسطى. فوصف أحد كُتاب القرن السادس عشر الإسبان مظاهر العربدة لدى أتباع محمد في الحفلات والأفراح، التي يجلدون أنفسهم فيها إلى حد التسمم الهذياني و«يسلمون أنفسهم فيها لرذيلة اللحم البهيمية، دون فهم أنها شر، ويخدعون البنات في مقتبل العمر، وكأن سعادتهم كلها تكمن في الأكل والشراب والشهوة»[17]. وقد وجهت هذه الاتهامات بالفسق والانحلال الجنسيين أيضاً لجماعات إسلامية وعرقية محددة مثل الأتراك والمغاربة. فالرحالة الأوروبيون إلى شمال إفريقيا كانوا يصفون سكانه كثيراً بتعدد العلاقات الجنسية والميل إلى اللواط وحتى العلاقات الجنسية مع الحيوانات. وبالنسبة إلى الرحالة الإسكتلندي وليام ليثغو William Lithgow كانت النساء في فاس «شهوانيات لعينات ومهيئات لكل

الأفعال الجنسية التي تشبع شهوة الأنذال المترفين»[18]. كما شدد دييغو دي آيدو في وصف سكان الجزائر بأن «جماع الحيوانات شائع جداً بينهم، وهم في ذلك يقلدون العرب الذين يشتهرون بهذه الرذيلة»[19]. ونقلت هذه الصورة بسهولة إلى الموركسيين وولّدت أحياناً تخيلات وهمية تبلغ حد الشطط عن الخلاعة من النوع الذي وصف في إحدى محاكمات محكمة التفتيش في عام 1594 عن الممارسات السحرية لجارية موركسية لدى رجل دين نصراني في أنطقيرة(1). تضمنت هذه الممارسات- وفقاً للمحاكمة- «نطق بعض الكلمات حتى ظهر لها الشيطان على هيئة رجل زنجي»، طار بالموركسية إلى الريف «لتشبع شهوتها» قبل أن تعود إلى البيت عند الفجر[20].

لا يشترط أن تكون محللاً نفسياً كي تكتشف الرغبة المكبوتة الكامنة وراء هذه التخيلات التي ظهرت دائماً في محاكمات الساحرات في أوروبا. فقد كان هذا الاشمئزاز من الشهوانية الموركسية والافتتان بها ناتجين أيضاً عن اختلاف مواقف الكاثوليكية والإسلام من الجنس. ففي حين أعلت الكنيسة الكاثوليكية من شأن العفة والعزوبة، كان الإسلام ديناً تزوج نبيه عدة مرات، وكتابه المقدس مليء بالأوصاف المثيرة للملذات الحسية في الجنة. وبينما اعتبرت الكاثوليكية الجنس شراً لا بد منه للحفاظ على النوع، اعتبره الإسلام نشاطاً مقدساً، شريطة أن يتم في إطار الزواج. وتحوي وثيقة من المخطوطات الألخامية من القرن السابع عشر تنسب إلى مؤلف مجهول يدعى إشلين التونسي Exilen of Tunis كتيباً جنسياً للأزواج والزوجات ينصح الأزواج بقول «باسم الله» عند الإدخال وتأخير هزة الجماع «حتى يتأكد من أن الطرفين يصلان إليها في اللحظة نفسها، فالحب الكبير يتأتى حين يؤدى [الاتصال الجنسي] بهذه الطريقة»[21].

(1) Antequera في اللغات الأوروبية [المترجم].

على أن هذا الاحتفاء بالعلاقات الجنسية الزوجية لم يكن يعني أن الإسلام كان يقر النشاط الجنسي المنفلت. وكذلك لم يكن التبجيل الكاثوليكي للعفة والعزوبة يعني أن النصارى جميعاً كانوا يقرونه أو يلتزمون به. وانتشار المواخير في إسبانيا الهابسبورغية والأعداد الكبيرة من النصارى الذين حاكمتهم محكمة التفتيش على تعدد الزوجات أو «الزنا» أو «الإثم الشنيع»، وهو اللواط، دليل على الشقة الواسعة بين النظرية والتطبيق، في حين كان فسق الكهنة الإسبان مصدراً دائماً للفضائح أمام السلطات الدينية والعلمانية، وأيضاً أمام الموركسيين. لكن التعصب أو الإجحاف ينحو إلى بناء نسخته الخاصة للواقع التي تتجاهل الحقائق غير المواتية التي تناقض فرضياته، ومواقف إسبان القرن السادس عشر نحو الموركسيين تحتوي أمثلة عديدة لهذا الميل.

***

على أن هذا الإجحاف لم يقتصر على مسؤولي محكمة التفتيش والكهنة الريفيين الشاعرين بالمرارة. إذ كان الموركسيون يصوّرون غالباً في أدب «العصر الذهبي الإسباني» عموماً كمصدر للاستهزاء والسخرية والاحتقار. وبعض أكبر كُتاب إسبانيا، من الشاعر القرطبي لويس دي غونغورا Luis de Góngora إلى الكاتب المسرحي لوبي دي بيغا Lope de Vega، كانوا يسخرون من نطقهم للغة الإسبانية وبغضهم للحم الخنزير وغيرها من الأطعمة، ويستخدمون كثيراً شخصية بائع الفطائر الموركسي الأحمق. واستهزأ فرانثيسكو دي كوبيدو Francisco de Quevedo بالألقاب النصرانية التي «انتحلتها العاهرات والموركسيين» متجاهلاً أن هذه الأسماء فرضت عليهم فرضاً[22]. وفي رواية «النصاب» (1626) لكوبيدو، وهي من أدب المتشردين، يقيم البطل المتشرد في خان «يملكه واحد من أولئك الذين يؤمنون بالله بلا سلوك جيد وبلا صدق، إنهم

الموركسيون كما يسميهم الناس. وهناك الكثير من أولئك الناس الذين يمتلكون أنوفاً طويلة يستخدمونها فقط لشم لحم الخنزير»[23].

وتوجد بعض أكثر صور الموركسيين إجحافاً في الأدب الإسباني في نص «حوار الكلاب» لميغيل دي ثيرفانتس الذي ينسج فيه الكلب بيرغانسا Berganza وصفه لسيده الموركسي في غرناطة في شكل اتهام عام لإسبانيا الموركسية:

> من المعجزات أن تجد رجلاً واحداً بينهم جميعاً يؤمن بالقوانين النصرانية المقدسة، فهدفهم الوحيد هو جمع المال واكتنازه، وكي يحققوا ذلك تجدهم يعملون ولا يأكلون ... فهم يكنزون أكبر قدر من المال في إسبانيا. وهم عبارة عن خزائن أموال وعث وطيور عقعق وأبناء عرس، فيكسبون ويخفون ما يكسبونه ويبتلعونه كله. انظر كثرتهم في الشوارع وكيف يكسبون يومياً ويخفون قدراً من المال، ولا تنس أن الحمى البطيئة يمكن أن تكون قاتلة تماماً كالحمى المفاجئة، ومع زيادة أعدادهم يزداد أيضاً عدد من يخفون المال وسيظل يزداد بالتأكيد إلى ما لا نهاية كما تثبت التجربة. وهم لا يمارسون العفة، ولا يحترم أي رجل أو امرأة منهم الأوامر الكهنوتية، ويتزوجون جميعاً ويتكاثرون جميعاً، لأن المعيشة المقتصدة تعزز توالد عرقهم. والحرب لا ترهقهم، وهم لا يجهدون أنفسهم في العمل، وإنما يسرقون منا بأسهل ما يكون ومن ثمار ممتلكاتنا التي يبيعونها ثانية لنا ويغتنون[24].

إن ثيرفانتس الذي حارب في معركة ليبانتو وفقد فيها إحدى يديه،

وقضى خمسة أعوام قاسية أسيراً في حظائر العبيد بالجزائر، أثر بلا شك على الأفكار النمطية النصرانية عن المسلمين. ومع ذلك فإن مواقفه نحو إسبانيا الإسلامية كانت أكثر تعقيداً، مما تكشف إدانة بيرغانسا «للرعاع المورسكيين»، فقد قدم لاحقاً تصويراً مغايراً للمورسكيين في الجزء الثاني من دون كيخوتة الذي كتب بعد الطرد[1]. وعلى أي حال، ففي أواخر القرن السادس عشر يندر التصوير الأدبي المتعاطف مع المورسكيين. وبعيداً عن تاريخ غرناطة لبيريث دي هيتا، جاءت واحدة من الصور الثقافية الإيجابية النادرة لإسبانيا المورسكية في الرواية مجهولة المؤلف «ابن السراج والحسناء شريفة» (1561).

كانت هذه الحكاية الرقيقة عن الحب والمجد والفروسية وصفاً قصصياً لحادثة حقيقية وقعت في أثناء الصراع الغرناطي-النصراني في القرن الخامس عشر، أسر فيها قائد أنطقيرة النصراني رودريغو دي نارڤايث Rodrigo de Narvaez الوجيه الغرناطي الأندلسي ابن السراج، وهو أحد أفراد قبيلة ابن السراج الحاكمة[2] الذي وقع في كمين نصبته مجموعة من الجنود النصارى.

> كان طويلاً ووسيماً وهيئته رائعة على حصانه... وتعلقت بذراعه الأيمن سيدة جميلة وحمل في يده رمحاً سميكاً وطويلاً ذا شعبتين. وكان يلبس خنجراً وسيفاً وعمامة تونسية ملفوفة عدة مرات حول رأسه بغرض الحماية والزينة. وبهذه الملابس بدأ الوجيه الأندلسي يغني أغنية

(1) كما ورد في حاشية سابقة، ينسب بعض النقاد الأدبيين الجزء الثاني من الرواية إلى سيدي حامد الجيلي أو الآيلي، وليس ثيرفانتس [المترجم].

(2) قبيلة بني السراج إحدى قبائل المغرب التي كان لها شأن كبير في مملكة غرناطة في القرن الخامس عشر، يقال إنها تنسب إلى يوسف بن سراج رأس القبيلة في عهد محمد السابع سلطان غرناطة [المترجم].

ألفّها بنفسه حول ذكرياته الحلوة مع أحبائه[25].

هاجم الخدم النصارى ابن السراج، فقتل أربعة منهم، وأثبت نفسه بذلك نداً جديراً للماجد النصراني رودريغو دي نارباييث، الذي هزم ابن السراج وجرحه في المعركة. وحين همّوا باقتياده إلى الأسر، أخبر ابن السراج نارباييث بعشقه للأميرة الأندلسية الجميلة شريفة، التي اتُّهِم أبوها بالتواطؤ في مؤامرة ضد ملك غرناطة الأندلسي. فتأثر نارباييث بهذه القصة وسمح لابن السراج بزيارة شريفة والزواج بها، بشرط أن يعود إلى الأسر في غضون ثلاثة أيام.

يعطي ابن السراج كلمته، ويلتئم شمل الحبيبين. وحين يخبر شريفة باتفاقه مع نارباييث، تتوسل إليه أن يبقى، وتعرض دفع فديته، لكنه يرفض أن يخون عهده. فتعلن شريفة أن «الله لا يرضيه أن أبقى حرة وتصير أنت أسيراً» وترافقه إلى الأسر. ولدى وصولهما إلى قلعة نارباييث، تعجب النبيل النصراني من هذا التجسيد للشرف والحب، فأطلق سراح أسيره وشريفة. وكتب أيضاً إلى ملك غرناطة الأندلسي ليؤكد براءة والد شريفة. وتنتهي القصة نهاية سعيدة، فيتصالح أبوها مع الملك ويقبل زواج ابنته السري، ويبني نارباييث وابن السراج وزوجة الأخير «صداقة متينة دامت طيلة حياتهم».

ترجع شخصية ابن السراج إلى شخصية «الأندلسي النبيل» الرومانسية، التي تجلت في القصائد الغنائية النصرانية زمنَ القرون الوسطى. فمن ناحية، تصبح الصداقة بين غريميها الأندلسي والنصراني ممكنة بفضل مفهومهما المشترك للفروسية، وهو تماثل لا يتحقق إلا بين نبيلين يشتركان في النسب النبيل ومبادئ الشرف التي تصاحبه. وفي الوقت نفسه نجد ابن السراج أندلسياً مهزوماً غلبه محارب نصراني متفوق، يتأكد نبله وعظمته في شهامته عند الانتصار. وعلى نحو ما يحدث مع «الهندي الطيب» في

أفلام الغرب الأمريكي فيما بعد الحرب العالمية الثانية، يصبح هذا العدو موضوعاً للإعجاب والحنين لأنه لم يعد خطراً. وعلى كل، فإن النهاية السعيدة لابن السراج صوّرت تصالحاً متخيلاً على الأقل بين إسبانيا الإسلامية والنصرانية، ومع أن هذه النهاية لم تكن واردة تماماً فيما بعد غرناطة، فإن شعبية هذه الرواية تقترح أن هذه الإمكانية لم تكن موضع رفض من قراء القرن السادس عشر.

أعادت هذه الصور الأدبية افتتان القرون الوسطى بالثقافة الأندلسية، التي كان الزوار الأجانب يلاحظونها بين الأرستقراطية القشتالية، وهو الافتتان الذي بقيت لمحات منه في أواخر القرن السادس عشر. فالفرسان النصارى الذين استقبلوا دون خوان النمساوي في غرناطة كانوا يلبسون أقمشة حريرية أندلسية وقمصاناً متدلية. وفي عام 1593، أرسل فيليب الرسام الطليطلي بلاس دي برادو Blas de Prado إلى المغرب بناء على طلب من السلطان بأن يرسل له فناناً ليرسم له صورة عائلية. ولدى عودة برادو من مهمته بعد اكتمالها، كان قد اعتاد تناول الطعام على وثار على الأرض وفق الطريقة المغربية. وتفهم البلاط تأثر فنان مميز «أصبح فطرياً»، لكن هذا السلوك عينه كان يمكن أن يثير استجابة مختلفة تماماً لو لوحظ بين الموريسكيين أنفسهم.

على أن النصارى لم يشتركوا جميعاً في اعتبار الموريسكيين «أراذل الناس». ففي أكتوبر 1594، وصف السكرتير الملكي فرانثيسكو دي ايدياكيث Francisco Idiaquez الموريسكيين بأنهم ثروة ممكنة لإسبانيا. فنظراً لإدراكه أن «النصارى غير معتادين على الزراعة»، امتدح السكرتير كد الموريسكيين واقتصادهم ومهاراتهم الزراعية، وكتب أنه «لا يوجد ركن واحد من الأرض لا يمكن أن يعطى لهم، لأنهم وحدهم يجلبون الخصب والوفرة للأرض»[26]. وفي تاريخه لمدينة بلاسينثيا Plasencia في

إشتريهادورا، وصف فراي ألونسو فيرنانديث Fray Alonso Fernandez الموريسكيين المحليين على النحو التالي:

> كانوا يكدحون في العناية بالحدائق، ويعيشون بعيداً عن مجتمع النصارى القدامى، حتى لا تكون طريقة حياتهم محلاً للمراقبة... وكانوا يبيعون الطعام في أفضل الدكاكين في المدن والقرى، ومعظمهم يعيش من عمل يديه... وكانوا جميعاً يدفعون الضرائب المفروضة عليهم طائعين، وكانوا معتدلين في مأكلهم وملبسهم... ولا يتتشر التسول بينهم، وكل واحد منهم له حرفة أو تجارة أو يعمل في وظيفة ما[27].

وفي فبراير 1585، وجد صبي نصراني يدعى أندريسكو مقتولاً أسفل بئر بقرية يبنيس Yebenes الطليطلية، واعتقلت السلطات العلمانية ثلاثة موريسكيين غرناطيين للاشتباه بهم. ومع وجود علامات القتل الطقوسي في الجريمة والمخاوف السائدة من الغرناطيين في قشتالة، كان هؤلاء الموريسكيون كبش الفداء المؤكد، وربما كانت إدانتهم مقررة سلفاً. ومع ذلك فقد رفضت أم الضحية اتهام المشتبه بهم، وأخبرت القاضي المحلي أنها غير متأكدة ممن قتل ابنها. وفي المحاكمة اللاحقة قدم نصارى محليون مختلفون شهادة حسن سير وسلوك بحق المتهمين، منهم شاهد وصف المتهمين الثلاثة بأنهم «رجال جيدون يعيشون حياة محترمة ويتمتعون بسمعة طيبة»، وأصر على أن «الموريسكيين المذكورين لا يمكن أن يرتكبوا الجريمة المتهمين بها»[28].

ونتيجة لذلك، بُرّئ الموريسكيون الثلاثة. وفي مناطق أخرى بإسبانيا، كانت هناك أدلة على أن الجماعات والأفراد النصارى استطاعوا أن يقيموا علاقات مع الموريسكيين تحدّت التعصب والتشويه السائدين. ففي مدن

قشتالية مثل بلد الوليد وآبلة وطليطلة كان «المورسكيون القدامى» مقبولين من النصارى، لدرجة أن الأخيرين أعطوهم الحق في التصويت في المجالس المحلية. وفي غرناطة في عام 1585، عارض النصارى أوامر ملكية جديدة تدعو إلى طرد المورسكيين، الذين بقوا في المدينة أو عادوا إليها بعد الثورة. لكن فيليب أصر على طردهم، فأبعد نحو ثلاثة آلاف مورسكي في أغسطس من ذلك العام.

كانت معارضة هذا الإبعاد تستند جزئياً إلى المصلحة الشخصية، لأن كثيراً من هؤلاء المورسكيين كانوا عبيداً للنصارى أو يسهمون في الاقتصاد المحلي، لكن المصلحة الشخصية والاحتياج المحلي كانا قادرين أحياناً على جعل التعايش ممكناً، حتى في المناخ الشوفيني لإسبانيا المعادية للإصلاح. لكن حتى أكثر تعبيرات التسامح النصراني كرماً لم تترجم إلى تأكيد إيجابي للمورسكيين باعتبارهم وجوداً دائماً ومتميزاً داخل المجتمع الإسباني. فمع أن بعض الجماعات النصرانية كانت مستعدة لتبني موقف أكثر تحرراً نحو عاداتهم ولغتهم من جماعات أخرى، فقد ظل استمرار بقاء المورسكيين كجماعة مشروطاً في النهاية بقدرتهم على تجاوز أصولهم الإسلامية والاندماج قدر الإمكان في المجتمع النصراني إلى درجة يتعذر معها تمييزهم عن النصارى القدامى. لكن حدوث هذه العملية كان يتطلب من المجتمع النصراني أيضاً أن يتغلب على تعصبه العميق تجاههم.

أثار ذلك كله تساؤلات لا تنطبق على القرن السادس عشر فقط: كيف يمكن لأغلبية مهيمنة أن تستوعب بداخلها أقلية تعتبرها وضيعة وحقيرة وخطرة؟ هل يمكن احتقار المعتقدات الدينية والممارسات الثقافية لجماعة معينة دون كراهية الناس الذين يمارسونها أيضاً؟ وإذا سعت جماعة إلى استئصال معتقدات جماعة أخرى وممارساتها بالقوة، فكيف يمكن للجماعة الأولى أن تتأكد من أن هذا التحول المفروض أصبح حقيقياً

ودائماً؟

أمر فيليب الكاتب الديني ألفونسو شاكون Alfonso Chacon ببدء برنامج للتبشير في عام 1588، لكن ألفونسو حذّر الملك «من ألا تربي إسبانيا هذه الوحوش، التي سيأتي يوم تأكل فيه لحمها» وادعى أن المورسكيين الذين يظهرون في ثوب النصراني الجيد يضعون واجهة نصرانية مزيفة «تخفي حقيقتهم وتخفي ما يضمرونه»[29]. ومع أن شاكون أوصى ببذل كل جهد لدمج المورسكيين في المجتمع النصراني، فإنه اقترح أيضاً في مناسبة أخرى إجبارهم على وضع علامات خاصة على لباسهم، كي تظل أصولهم قابلة للتمييز دائماً. فبالنسبة إلى شاكون، كان دمج «الوحوش» المورسكيين يتوقف على جعلهم في متناول اليد، وهو اقتراح بلغ ذروته في شكل تفرقة وإقصاء مستمرين من نوع مختلف.

***

أظهر هذا الاقتراح المتناقض مجدداً التوتر الكامن في قلب مفهوم إسبانيا عن الدمج والاستيعاب، بين التصميم على استئصال المورسكيين بامتصاصهم داخلها من جانب، والشك والبغض المتبقيين اللذين عبّرا عن نفسيهما عبر الرغبة في إقصائهم وتهميشهم. وضع ذلك المورسكيين في حالة صعبة وغير مستقرة. فالممثلون الأحياء لماض إسلامي محتقر لم يعد متاحاً لهم مستقبل جماعي داخل إسبانيا، إلا إذا زال وجودهم كجماعة منفصلة. وكانوا يعاقبون ويقمعون إذا لم يمتثلوا لمقتضيات الدِين المفروض عليهم. وفي الوقت نفسه، كانت الدولة والكنيسة تنظر إليهم بعين الخوف والاحتقار، إذ ظلت القيادات الدينية والعلمانية تنظر -حتى للمورسكيين الأكثر «نصرانية»- باعتبارهم كاثوليكاً مرائين، لكنهم مع ذلك رفضوا السماح للمورسكيين العنيدين بمغادرة البلاد.

شهد العقد الأخير من القرن السادس عشر محاولة جريئة لإيجاد فضاء

جديد للمورسكيين داخل إسبانيا، بدأت في عام 1588، حين عثر عمال البناء على صندوق غامض وهم يهدمون برج مسجد سابق في مكان كاتدرائية غرناطة. ضم الصندوق إلى جانب مخطوطة مكتوبة باللغة العربية والقشتالية واللاتينية، جزءاً من منديل قيل إن مريم العذراء جففت به دموعها في أثناء الصلب، وكذلك عَظْمَة من الشهيد النصراني القديس ستيفن.

كان اكتشاف نص ديني نصراني مكتوب باللغة العربية يرجع إلى زمن وصول النصرانية إلى أيبيريا اكتشافاً رائعاً، أكد أن الكنيسة الغرناطية كانت أقدم كثيراً من تأسيسها الرسمي في عام 1492. ابتهج رجال الدين في غرناطة كثيراً، وتأكدت غبطتهم وحماسهم في المملكة باكتشاف عدد من النصوص منقوشة باللغة اللاتينية والقشتالية والعربية على ألواح من الرصاص في تل ساكرومنتي (الجبل المقدس) في غرناطة بين عامي 1595 و1599. بدا أن بعض «هذه الكتب الرصاصية» ربما كتبها قديس غرناطة الشفيع المستشهد القديس سيسليو Cecilio وأخوه تسيفون Tesifon، وضمت نقوش أخرى حوارات منقولة بين مريم العذراء والحواريين، منهم القديس بيتر، وعناوين مثل «كتاب حكم القديسة مريم» و«جوهر الإنجيل».

أحدث اكتشاف هذه النصوص ضجة في إسبانيا، ترددت أصداؤها في أنحاء أوروبا البروتستانتية والكاثوليكية كافة. فالكتب الرصاصية أكدت أن قديس غرناطة الشفيع وأخاه كانا عربيين، ويبدو أنهما أدخلا النصرانية إلى إسبانيا قبل أن تصل فرنسا وإنجلترا، وأظهرت أيضاً أن الإسلام والنصرانية ليسا متناقضين، بل دينان يكمل أحدهما الآخر، ويشتركان في معتقدات ومذاهب متداخلة بينهما. وعلى الرغم من أن هذه الكتب اتخذت شكل النصوص النصرانية، فإنها حوت إشارات عديدة مؤيدة للثقافة

الإسلامية والعربية مثل الحوار التالي بين القديس بيتر ومريم العذراء:

> قال: «حدثينا عن فضيلة العرب الذين سيرفعون لواء الدين في آخر الزمان، وحدثينا عن جزائهم وسمو لغتهم على كل اللغات الأخرى يا سيدتنا».
>
> قالت: «العرب هم من سيرفعون لواء الدين في آخر الزمان. وسمو لغتهم على سائر اللغات الأخرى كسمو الشمس على نجوم السماء. وقد اختارهم الله لهذا الغرض وعزّزهم بنصره. إن مكانة المؤمنين كبيرة عند الله وجزاءهم غزير»[30].

فبعد أكثر من قرن حاول فيه الحكام الإسبان المتعاقبون استئصال الإسلام من شبه الجزيرة الأيبيريه، وجد النصارى الإسبان بأنفسهم تأكيداً محيراً «للتفوق» الثقافي والديني للعرب من جانب مريم العذراء نفسها. لا غرابة إذن أن تصبح صحة هذه الاكتشافات فوراً موضع شك. ففي حين كلّف رئيس أساقفة غرناطة بيدرو باكا دي كاسترو كينيونيس Pedro Vaca de Castro Quiñones مترجمين مختلفين بفحصها وإعادة فحصها، وخلص إلى أنها موثوقة، أعلن عدد من علماء الدين واللغويين أنها مزيفة.

لقد ابتهجت الكنيسة الغرناطية بأهميتها الجديدة لدرجة أن المورسكيين الغرناطيين المتعلمين أدهشهم أن يجدوا أنفسهم موضع عطف وتقدير، وليس اضطهاد بسبب معرفتهم باللغة العربية، حين شرع رئيس الأساقفة دي كاسترو في حسم الشكوك حول أصل الاكتشافات. كان من بين من استشارهم رئيس الأساقفة أحمد بن قاسم الحجري المورسكي الغرناطي، الذي أصبح لاحقاً مترجماً ودبلوماسياً للسلطان المغربي. ففي عام 1595، استدعى الحجري كاهنٌ محلي في حضور رئيس الأساقفة للمساعدة في

ترجمة هذه النصوص. تذكر الحجري لاحقاً: «قلت لنفسي كيف يمكن أن أنقذ نفسي، فالنصارى يقتلون ويحرقون كل شخص يجدون عنده كتاباً عربياً أو يعرفون أنه يقرأ اللغة العربية»[31].

وفي أثناء حمرة الابتهاج الأولى التي تلت اكتشافات الجبل المقدس، كانت الكنيسة الغرناطية أكثر اهتماماً بتأكيد نسبها الجديد وحل أسرار الكتب المقدسة منها باستئصال الإسلام، ولذلك رحبت بمساعدة الحجري. أما خارج غرناطة، فكان علماء الدين واللغويون أكثر ارتياباً في صحة هذه المخطوطات، وادعوا أنها مزيفة. وذهب علماء آخرون إلى أن اللغة العربية لا يمكن أن تكون قد استخدمت في الأراضي المقدسة في الفترة الواردة في النقوش، وأشار آخرون إلى وجود تضاربات في الأسلوب ومفارقات تاريخية في النصوص اللاتينية والقشتالية. وحسم الخلاف أخيراً في عام 1682، وأعلن رسمياً أن الكتب الرصاصية مزيفة، دون أن يذكر شيء عن مؤلفيها والغرض من تأليفها. ويعتقد معظم الدارسين أن مؤلفيها كانوا من المورسكيين، وتركزت الشكوك عموماً حول ميغيل دي لونا وألونسو ديل كاستيو، طالبي الطب الغرناطيين اللذين أصبحا مترجمين رسميين للغة العربية لدى فيليب. كان الأول «مترجماً» وربما مؤلف التاريخ المزيف لسقوط إسبانيا القوطية «التاريخ الحقيقي لدون لذريق»، الذي كتب في الفترة نفسها، ويصوّر الفتح الإسلامي باعتباره تحريراً من الحكم القوطي الفاسد والاستبدادي. وكان كاستيو شخصية مبهمة وغامضة لعبت دوراً أساسياً في الخداع و«العمليات السوداء»[1]،

(1) العمليات السوداء black ops أو العمليات الليلية هي النشاطات السرية التي لا يمكن ربطها بالأشخاص والمنظمات التي تنفذها، كالاغتيالات والخطف وتخريب الممتلكات وما شابهها. وبالنسبة إلى ألونسو ديل كاستيو، فربما كان من الأندلسيين الذين استخدمهم دون خوان في أثناء حرب البشرات في تزوير خطابات باسم الفقهاء المسلمين تحض الثوار على الاستسلام والرجوع عن الثورة [المترجم].

التي ساعدت في إنهاء ثورة غرناطة[32].

كان الرجلان من بين من استدعاهم رئيس الأساقفة دي كاسترو لترجمة بعض المخطوطات في غرناطة، ومنها النص المطلسم المعروف بالكتاب الصامت. وكان رئيس الأساقفة يثق في المترجمين ويدافع عنهما ضد مزاعم التلفيق، لكن تورطهما في الخدعة لم يتأكد أو يفند على نحو حاسم. هل كان المقصود بالكتب الرصاصية إنقاذ إسبانيا الموركسية من الانقراض وإعادة تشكيل المستقبل بتغيير الماضي؟ أم قصد بها تمهيد الطريق لمصالحة بين الإسلام والكاثوليكية في أيبيريا بإظهار أن الدينين أكثر تقبلاً لأحدهما الآخر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذه التطلعات كانت ساذجة ومحزنة أيضاً. ففي ذلك الوقت، كان العداء الديني للإسلام نفسه مكوناً واحداً فقط في دينامية متناقضة كانت تتكرر غالباً في سياقات تاريخية أخرى. فمن ناحية، كانت الأغلبية النصرانية المهيمنة تسعى إلى استيعاب الموركسيين في المجتمع النصراني كي تتخلص من الأقلية التي اعتبرتها أجنبية ووضيعة وخطرة. ومن ناحية أخرى، حال تعصب إسبانيا النصرانية وشكوكها، في الوقت نفسه الذي طُلِب فيه من الموركسيين أن يختفوا أو يختفي تمايزهم، دون هذا التحول، ورفضت القطاعات الأكثر تزمتاً بالمجتمع أن تقبل بأن الاندماج ممكن أو مرغوب فيه أصلاً.



16

في الطريق إلى الطرد

دفع الكهنة وقضاة محكمة التفتيش الإسبان الأكثر تشدداً بأن إسبانيا لن تكون أبداً آمنة أو نقية تماماً طالما بقي المسلمون على التراب الإسباني، حتى قبل أن يبدأ الموريسكيون تحولهم الممسوخ إلى نصارى. وعلى مدار معظم القرن السادس عشر حاول حكام إسبانيا التوفيق بين مسعى الوحدة الدينية والضرورة الاقتصادية لإبقاء الموريسكيين في إسبانيا بشرط أن يصبحوا «نصارى جيدين ومخلصين». لكن بعد غرناطة، أصبح المسؤولون الإسبان أكثر تشاؤماً حول إمكانية تحقيق هذا الهدف. وفي عام 1571، منحت محكمة التفتيش البلنسية الموريسكيين مرسوم عفو على أساس أنهم كانوا «منحرفين بسبب الجهل ونقص التعليم وليس الحقد المتعمد». وبعد عشرة أعوام، أعلن مسؤولو محكمة التفتيش البلنسية: «من تجربتنا مع الأندلسيين، خلصنا إلى أنهم حتى بعد تعليمهم الدين النصراني يظلون أندلسيين». وتأكد هذا اليأس بفعل التقارير المستمرة حول تحدي الموريسكيين وريائهم. ففي أراغون في عام 1573، نقل الكاهن الجديد لقرية جيا دي الباراسين Gea de Albarracín الموريسكية دائمة المشكلات إلى السلطات أن السكان المحليين حفروا نفقاً سرياً للاختفاء من محكمة التفتيش، وإقامة مدرسة لتعليم القرآن بها أربعون تلميذة.

وفي يونيو 1581، تقدمت لويسا كامينيرا دي أركوش Luisa Caminera de Arcos المورسكية من بلدة تيروال الأراغونية إلى مقر محكمة التفتيش المحلية، واتهمت أفراداً مختلفين من عائلتها وجيرانها بممارسة الإسلام سراً. أزعجت هذه المفاجآت مسؤولي محكمة التفتيش المحليين كثيراً. فبعض العائلات «النصرانية الجديدة» ببلدة تيروال دخلوا في النصرانية منذ أوائل القرن الخامس عشر. وكان إيمانهم الديني أمراً مسلماً به لدرجة أن كثيرين منهم سمح لهم بالمشاركة في الجمعيات الدينية، بل ودخلوا الكهانة أيضاً. لكن ها هي بيّنة تؤكد الشكوك السوداوية بوجود عالم مورسكي مواز داخل المجتمع النصراني، لكنه ليس جزءاً منه.

وقدمت تقارير مماثلة من أجزاء أخرى من إسبانيا إلى فيليب ووزرائه. ففي بلدة هورناتشوس بإشتريمادورا، وصف مسؤولون دينيون وعلمانيون «جمهورية مورسكية» جهادية كان سكانها يقتلون المسافرين النصارى ويسرقونهم ويحتفظون باتصالات منتظمة مع الأتراك والمسلمين في شمال إفريقيا، وقاوموا كل محاولات تنصيرهم(1). واشتكى راهب محلي محبط من أن هؤلاء المورسكيين يعتبرون «خطبة الوعظ إذلالاً والاعتراف مخلِعة والعشاء الرباني مشنقة» وأن «أخذهم إلى الكنسية يشبه أخذهم إلى القوادس»[1].

ومن وجهة نظر السلطات، كانت التقارير الأكثر تشاؤماً هي تلك

(1) كان الهونارتشيون أو أهل هورناتشوس المورسكيون جماعة قوية وعنيدة واستعصى ترويضها على الإسبان، وحافظت على استقلالية كبيرة داخل إسبانيا، فيما شُبّه بجمهورية جهادية مستقلة، وشنت الدولة الإسبانية حرباً شرسة على «أهل هورناتشوس الذين صُلبوا، ووضعت على رؤوسهم تيجان الشوك» (هذا عنوان كتاب للمؤرخ الإسباني فيرمين مايورغا أورتاس Fermin Mayorga Huertas). وبعد طردهم من إسبانيا، شكلوا جمهورية مستقلة على مصب نهر أبي رقراق بقصبة الرباط المغربية، مارست «الجهاد البحري» ضد السفن والسواحل الإسبانية [المترجم].

المتعلقة بالمورسكيين الغرناطيين في قشتالة. فقد قصد بإبعادهم جزئياً تسهيل اندماجهم وفرض مزيد من السيطرة عليهم بعزلهم بأعداد أصغر بين النصارى. لكن في الثامن والعشرين من أكتوبر 1589؛ أي بعد عقدين تقريباً من إبعاد الغرناطيين، أخبر أسقف بطليوس[1] الملك بأن الغرناطيين في أسقفيته لم يكونوا يحققون هذه التطلعات. فعلى الرغم من أن هؤلاء المورسكيين كانوا يذهبون إلى القداس والاعتراف، فقد ذكر الأسقف أنهم لم يكونوا يؤدون «الأعمال الخارجية» للدين طائعين، مثل طلب إقامة قداسات للموتى، أو شراء البيانات البابوية، أو مراعاة الأعياد النصرانية.

وزعم الأسقف أيضاً أن الغرناطيين أخفقوا في الامتزاج بالنصارى ومازالوا «يتحدثون لغتهم العربية ويعيشون داخل أمتهم ويتزاوجون منها فقط، إلا نادراً، وفي حفلات قرانهم يحتفلون ويغنون باللغة العربية». وذكر الأسقف أنه في حين كان رجال الدين في غرناطة يفهمون اللغة العربية ويستطيعون أن يراقبوا المورسكيين، فإن السكان النصارى في إشتريمادورا لم يكونوا يتحدثون اللغة العربية أو يفهمونها، ولذلك «يعتقد أن المورسكيين يؤدون شعائرهم بحرية أكبر من أقرانهم في مملكة غرناطة»، وبخاصة أن كثيرين منهم خالفوا أوامر السيطرة عليهم و«انتقلوا من أماكن إلى أخرى دون إجازة مرور أو أي معرفة بأماكنهم»[2].

واتهم مسؤولون قشتاليون آخرون المبعدين الغرناطيين بإفساد «النصارى الجدد» الذين كانوا يعيشون في قشتالة قبل وصولهم، وأنهم كانوا يشجعونهم على العودة إلى الإسلام. ففي آبلة، وصف محقق محكمة التفتيش خوان كاريو Juan Carillo «المورسكيين المدجنين»، الذين كانوا يعيشون في المدينة منذ قرون بأنهم «كانوا أي شيء آخر غير النصارى، بل أعداء للنصرانية». وفي طليطلة، كان مسؤولو محكمة التفتيش يعتبرون

(1) Badajoz في اللغات الأوروبية [المترجم].

دوماً عن قلقهم من وجود سكان مورسكيين غير مندمجين في «قلب إسبانيا» بأعداد كانت تنمو باستمرار، لدرجة أن المورسكيين سيفوقون النصارى في العدد قريباً. وفي سبتمبر 1588، أحاط مسؤول إشبيلي يدعى ألونسو غوتيريث Alonso Gutiérrez الملك ووزراءه علماً بما هو آت:

> لا بد أن نعامل كل المورسكيين على أنهم أعداء معلنون، سواء المدجنين أو سكان مملكة غرناطة الذين شُتّتوا في مقاطعات ومدن وبلدات أخرى تابعة لتاج قشتالة، وأن نعتبرهم جميعاً مغاربة مثلهم كمثل سكان إفريقيا، وإن كانوا يؤدون بعض شعائر النصرانية، فلأنهم مكرهون. إننا نراهم رغم ثرائهم يحجمون عن الزواج من النصارى القدامى، وفي مأكلهم ومشربهم يتصرفون مثل أولئك الذين يعيشون بالشريعة نفسها في إفريقيا. وقد رأينا نية الثورة لديهم في مملكة غرناطة، ونراها بطريقة أكثر التفافاً في إشبيلية، وما يُظهِره التابعون لتاج أراغون عموماً. وسنرى مدى ضعف ديننا بينهم حين يُترَكون لحالهم، مع الأخذ بنظر الاعتبار أيضاً أن هؤلاء الناس لا يتناقصون، فأعدادهم تتضاعف كثيراً بخلاف النصارى القدامى الذين يذهبون عادة إلى إيطاليا ومنطقة الفلاندر والإنديز[3].

كان ذلك محل إجماع على المستويات العليا للدولة الإسبانية في العقود الأخيرة من القرن. لكن إذا كان المورسكيون قد تعذر دمجهم في المجتمع النصراني، فكيف يمكن للدولة الإسبانية أن تتصرف معهم؟ أرّق هذا السؤال المسؤولين الإسبان لثلاثة عقود.

* * *

وفي ديسمبر 1581، اجتمع فيليب بلجنة خاصة لمناقشة تنصير الموريسكيين البلنسيين في لشبونة الذين نقلهم البلاط القشتالي إليها مؤقتاً بعد ضم إسبانيا للبرتغال. وبعد دراسة الأوراق الرسمية السابقة حول المشكلة الموريسكية، خلصت اللجنة ثلاثية الأعضاء إلى أن تنصير الموريسكيين «غير ممكن أخلاقياً» وأرجعت الإخفاق في تحقيق ذلك الهدف سابقاً إلى عدم توفير التعليم الديني الكافي. لكن اللجنة اتفقت أيضاً على أن «كفار» بلنسية «وأوغادها» كانوا «أشد عناداً من المغاربة في شمال إفريقيا»، واقترحت مع ذلك أن الموريسكيين لاتزال استمالتهم ممكنة إلى النصرانية عن طريق جهد تبشيري منظم مثل ذلك «المتبع في الإنديز وأماكن أخرى»[4].

وعلى مدى الشهور التالية تعرض هذا التشخيص المتفائل للتحدي من جانب عدد من المسؤولين ورجال الدولة. ففي إبريل 1582، قدم رئيس محكمة التفتيش خيمينيث دي رينوسو Jiménez de Reinoso للمجلس الأعلى لمحكمة التفتيش تقييماً مخيفاً للتهديد الأمني الذي كان الموريسكيون يشكّلونه، إذ زعم أن جيشاً من الموريسكيين مكون من مائتي ألف جندي كان متأهباً لمساعدة السلطان التركي في «فتح جديد لإسبانيا»، وتساءل عما إذا كان «رمي كل الموريسكيين وطردهم من إسبانيا، وبخاصة من مملكة بلنسية» هو الحل الوحيد الممكن. ومع أن رينوسو اعترف بأن الطرد ستترتب عليه آثار سلبية على عائدات المملكة العامة والخاصة، فقد دفع بأن هذه الخسائر ستكون مؤقتة فقط، ولا تَجُب «الأمن والهدوء الشاملين بهذه الممالك»، اللذين سينتجان عن «تطهير الهرطقات وكذلك الشعب الذي أوجدها ويؤيّدها»[5].

ورغم تصويره المخيف للتهديد الموريسكي، فقد استبعد رينوسو احتمال أن يثور الموريسكيون البلنسيون، دافعاً بأنهم مرتعدون وعزّل.

ومن اللافت للانتباه أن اقتراح رئيس محكمة التفتيش بإبعاد الموركسيين من إسبانيا لم يلق قبول محكمة التفتيش البلنسية نفسها، التي وافقت على «طردهم جميعاً من بلنسية ووضعهم في قشتالة القديمة، وليس إرسالهم إلى المشرق أو شمال إفريقيا، لأنهم في كل الأحوال إسبان مثلنا». وفي يونيو، اجتمع فيليب بنسخة مكبرة من لجنة لشبونة، وعرض مداولاتها بالتفصيل على مجلس الدولة بين التاسع عشر والحادي والعشرين من سبتمبر. واقترح المجلس في توصياته على الملك «بأن يتحين الفرصة لإبعاد الموركسيين عن ممالك إسبانيا» ونقلهم إلى شمال إفريقيا، على أن يبقى الأطفال الموركسيون المعمَدون في إسبانيا ليتلقوا تنشئة نصرانية. واقترح المستشارون أن تأتي السفن إلى ميورقة للقيام بهذه المهمة، وأن تبدأ بالموركسيين في بلنسية، يليهم الموركسيون في قشتالة وأراغون.

لم تكن هذه الاقتراحات مجرد إعلانات مبادئ. إذ يكشف التوثيق الباقي أن وزراء فيليب فكروا جدياً في إمكانية تطبيق هذه المقترحات في العام التالي. ومن غير الواضح ما إذا كان فيليب قد أعطى موافقته على الاقتراح، لكن على أي حال لم يكن الموقف الدولي يسمح بإجراء عمل لوجستي بهذا الحجم. فلم يكد الإسبان والأتراك يتوصلون إلى الهدنة، حتى استدعي الأسطول الإسباني لصد اعتداءين عسكريين على جزر الأزور من جانب المطالِب بالعرش البرتغالي دوم أنطونيو Dom Antonio الذي كان يتلقى دعماً من فرنسا وإنجلترا. وفي منطقة الفلاندر، كان القائد العسكري الإسباني البارع ألكسندر فارنيسي Alexander Farnesse يحشد القوات لهجوم كبير وقع أخيراً في عام 1583.

وفي ظل هذه الظروف، لم يكن مفاجئاً أن يتردد فيليب في تنفيذ مقترحات وزرائه ويماطل بتشكيل لجنة أخرى لمناقشة توفير التبشير للموركسيين بدلاً من إبعادهم. ومع ذلك، فقد كانت مقترحات لشبونة

عتبة جديدة، فللمرة الأولى يوصى بالطرد على أعلى مستوى في الدولة «متى كان ذلك ممكناً» دون التطرق إلى التفاصيل العملية. وسوف يستغرق الأمر ثلاثين عاماً تقريباً قبل أن تنفذ هذه المقترحات أخيراً، إذ تحرك حكام إسبانيا ببطء نحو حل كان لا يقل تعقيداً وصعوبة عن المشكلة التي يراد به حلها.

كان رئيس أساقفة بلنسية خوان دي ريبيرا Juan de Ribera أحد الأشخاص الأكثر تأثيراً في الدفع نحو تلك النتيجة النهائية. كان ريبيرا أحد رجال الدين المؤثرين في عصره، ولد في إشبيلية في زهاء عام 1532 لعائلة أندلوسية غنية من ملاك الأراضي، وبدأ عمله الكنسي في عمر الثانية عشرة، حين بدأ بدراسة القانون الكنسي وعلم اللاهوت في جامعة شلمنقة. وبعد تخرجه في عام 1557، دخل ريبيرا الكهانة وعين أسقف بطليوس عام 1562. وقد أدى مهامه بامتياز لدرجة أن فيليب عيّنه رئيساً لأساقفة بلنسية في عام 1568، مع اللقب الشرفي «بطرك أنطاكية»[1] وهو بعد في الحادية والثلاثين من عمره. نتج صعود ريبيرا السريع عن ورعه الشخصي وتبنيه القوي للأجندة الإصلاحية لمجمع ترنت. على أن الالتزام العنيد بالإصلاح من جانب هذا الراهب المتنسك الزاهد المكرس بتصلب للمصالح الأوسع للدين الكاثوليكي لم يكن في البداية محل ترحيب من المؤسسة الدينية في أبرشيته الجديدة، لكن ريبيرا تغلب في النهاية على هذه المعارضة وقضى بقية حياته في بلنسية.

لم تنته العلاقة بين البطرك ورعيته الموركسيين نهاية سعيدة. فتنفيذاً لقرارات مجمع ترنت بغلق الفجوة بين رجال الدين وعامة الناس، كان ريبيرا يقضي ثلاثة أشهر تقريباً من كل عام في التنقل خلال بلنسية ومعه

(1) لقب شرفي اسمي يعبّر عن الحنين إلى الإمبراطورية البيزنطية وأهم مدنها أنطاكية، التي سقطت في عام 1268 أمام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وألغي اللقب في عام 1964 [المترجم].

حاشيته من الخدم والمستشارين يقدم الوعظ ويمنح الأسرار المقدسة بنفسه في «الأماكن المورسكية» بأبرشيته. كان ريبيرا متفائلاً في البداية بإمكانية استمالة المورسكيين إلى النصرانية ونفذ بعض المحاولات الإبداعية لبلوغ هذا الهدف، وخصص أموالاً خاصة لبناء الكنائس المورسكية وتجديدها، ورفَع رواتب الكهنة في الأبرشيات المورسكية كي يوقفهم عن ابتزاز رعيتهم، وتعاون مع اليسوعيين في برنامج جديد للعمل التبشيري بين المورسكيين.

كانت هذه المبادرات أضعف كثيراً من أن تعوض عقود الإهمال التي سبقت وصول ريبيرا. وفي عام 1577، أوقف اليسوعيون حملتهم وأعلنوا أن جهودهم لتبشير المورسكيين فشلت في إحداث نتائج إيجابية. وكان ريبيرا قد بدأ في استنتاج أن هذه المحاولات محكوم عليها بالفشل، وأصبح أكثر انتقاداً للمورسكيين أنفسهم، الذين رأى أنهم كانوا يخدعونه في التظاهر بالسعي وراء التعليم الديني، في حين كانوا في الحقيقة غير مبالين به. وقد تجلى تغير موقفه في خطبة حول حكاية البذّار، قدمها لجمهور غالبيته من المورسكيين في شاطبة إبان ذلك العام، قال لرعيته فيها إن «البذرة إذا لم تثمر... فليس العيب في البذرة أو البذّار، وإنما في التربة»[6].

ونظراً لكون رئيس أساقفة بلنسية ريبيرا هو الرئيس الروحي للمملكة التي كانت تضم أكبر عدد من السكان المسلمين في إسبانيا، فقد كان شخصية محورية في نقاشات لشبونة عام 1582. وفي رسالة إلى فيليب إبان ذلك العام، عبّر ريبيرا عن مرارته وخيبة أمله واقترح إبعاداً تدريجياً لكل المورسكيين عن إسبانيا كأحد الخيارات الممكنة. لكنه أكد: «إنني بفضل الله لست مجرداً من الرحمة حتى لا تؤثر هذه الخطوة على روحي، فأنا أعتبر كثيراً من هؤلاء الناس؛ رعيتي»، لكنه مع ذلك رأى أن من الأفضل «أن

يذهبوا إلى الأعراف[1]، على أن يسمح لكثير من الزنادقة بسب اسم الله»[7].

وبعد أن مرر ريبيرا هذه الإمكانية، بدا أنه تراجع عنها وأوصى بأن «الخطة الحالية» لتزويد الموركسيين بالتعليم الديني كانت الإجراء الأنسب. على أن التزامه بهذا الهدف مسألة غير محسومة. فثمة صورة لريبيرا ترجع إلى عام 1607 تُظهِر شخصية ورعة ذات لحية بيضاء وعيون سوداء ثاقبة، لكن هذه الهيئة اللطيفة تخفي تعصباً دينياً واحتقاراً أرستقراطياً نحو جماعة موركسية لم يعتبرها الأسقف من الزنادقة والمجدفين والمرائين فحسب، وإنما أطفال بدائيون وأشرار لهم «أرواح قاسية» أيضاً. وكتب ذات مرة أن منح الأسرار المقدسة للموركسيين «يشبه بذر بذور ثمينة بين الصخور، أو إعطاء أشياء مقدسة للكلاب، أو نثر اللآلئ أمام خنازير»[8].

قد يبدو مفاجئاً أن هذا الأسقف الذي رأى أن الموركسيين غير مؤهلين أخلاقياً للنصرانية، بذل جهداً لتزويدهم بالتعليم الديني أكثر من كل أسلافه. وحتى حين كان ريبيرا يدفع في اتجاه الطرد، واصل طريق التبشير. وكي يجذب كهنة أفضل تأهيلاً إلى بلنسية الموركسية، استخدم نظام الوظائف الدوّارة في الأبرشيات الموركسية، وكافأ الأبرشيات على النتائج الإيجابية. وفي عام 1599، كلّف بنشر كتابه «خلاصة لتعليم الأندلسيين المُنَصّرين حديثاً»، وهي خطوة كان أنصار الدمج يطالبون بها منذ أعوام.

لكن لماذا استثمر ريبيرا كل هذا الوقت والجهد في عمل كان يرى أن مآله الإخفاق؟ يوجد تفسير لدوافع رئيس الأساقفة في رسالة رعوية كتبها في ذلك العام حثّ فيها الكهنة العاملين في المناطق الموركسية على مواصلة «العمل مع أولئك الناس الذين يمقتوننا»، لكنه طمأنهم مع ذلك على أن

---

(1) اليموس أو الأعراف في النصرانية هو موطن الأرواح التي تحرم دخول الجنة لغير ذنب اقترفته كأرواح الأطفال غير المعمدين [المترجم].

الإخفاق في بلوغ نتائج ملموسة سيكون إيجابياً لإسبانيا «لأن صاحب الجلالة... سيطهرها من الكفار»[9]. وهذه بالطبع ليست الرسالة الأكثر إلهاماً وتشجيعاً لبدء حملة تبشيرية. تكشف هذه البيانات أن ريبيرا كان أقل اهتماماً بهداية الموريسكيين من أن يثبت للملك عدم جدوى هذه الجهود. وكان عليه في الوقت نفسه أن ينفذ التزامات الكنيسة بتزويد النصارى المعمَدين بالتعليم الديني. وإذا أخفقت هذه المحاولات، وهو ما كان ريبيرا يعقتده بالتأكيد، فإن المسؤولية عن هذا الإخفاق ستقع حينها على الموريسكيين أنفسهم، ما يمكّن بذلك من اتخاذ إجراءات جذرية ضدهم.

كان ريبيرا في ذلك الوقت يعمل جنباً إلى جنب مع الراهب الدومينيكي خايمي بليدا، الذي كان مستشاره لبلنسية الموريسكية. كان بليدا مسؤولاً سابقاً بمحكمة التفتيش، وكان لقاؤه الأول ببلنسية الموريسكية في عام 1585، حين عيّنه ريبيرا كاهناً للأبرشية الموريسكية في كوربيرا Corbera. وقبل أن يتولى هذا المنصب رسمياً، قام بليدا بزيارة مفاجئة إلى كنيسة الأبرشية، حيث كان الكاهن القديم يقيم القداس. تنكر بليدا في زي فرد عادي من الرعية، ودخل في منتصف العشاء الرباني، ولاحظ أن الموريسكيين يسخرون علناً من العشاء الرباني. تذكر بليدا لاحقاً فقال: «إنني صعقت لما رأيت مخلّصي[1] يهان بكثير من الأفعال الضلالية» لدرجة أنه غادر الكنيسة بأداء إيماءة الصليب «دون أن أتحدث مع أحد، وركبت حصاني وعدت إلى بلنسية، ورميت نفسي عند أقدام رئيس الأساقفة المقدس أتوسل إليه بدموع العين أن يعفيني من هذا المنصب»[10].

رفض البطرك هذا الطلب، وأنتجت مدة خدمة بليدا غير المثمرة في كوربيرا بغضاً شديداً لجماعة موريسكية اعتبرها «ذئاباً مفترسة وكلاباً ضارية» وكان أفرادها «مولودين والكذب في أفواههم». وزاد بليدا على

(1) المخلّص– في النصرانية– هو يسوع المسيح [المترجم].

ريبيرا أن كراهيته للموريسكيين لم تكن تحدها اعتبارات الرحمة أو الإنسانية. ورغم تأييد بليدا المتحمس للطرد، فإنه عبّر كثيراً عن أمنيات أكثر تطرفاً، منها أنه تمنى ذات مرة أن يصاب الموريسكيون بالطاعون وهم في طريقهم إلى شمال إفريقيا وأن يقتل أهل شمال إفريقيا مزيداً من «الساراكينوس» لدى وصولهم[1]. لم يكن هناك شخص أقوى في دفاعه عن الطرد من هذا الراهب المتعصب الذي تضعه كتاباته وجهوده في أقصى الجناح المتطرف في نقاش المسألة الموريسكية.

***

كان على بليدا وريبيرا أن ينتظرا وقتاً طويلاً قبل أن يريا اقتراحاتهما تتحقق على أرض الواقع، ذلك لأن البلاط والحكومة كانا يتشبثان بحل بدا دائماً أنه يثير مشكلات لا تقل عن تلك التي أريد به حلها. فقد توقع بعض المسؤولين أن الطرد سيزيد صفوف أعداء إسبانيا وأن الموريسكيين سيكونون أخطر على إسبانيا خارج البلاد منهم بداخلها. وحذّر آخرون من النتائج الاقتصادية الكارثية للطرد. وكان هناك أيضاً السؤال عما إذا كان الطرد يمكن أن ينفذ «بضمير مرتاح» بالمعنى الديني وليس الأخلاقي للكلمة. فهل يمكن لدولة نصرانية أن تطرد نصارى معمَدين إلى أراض إسلامية «ليصبحوا مغاربة»[2] مرة أخرى؟ وهل يحق معاقبة الأطفال بذنوب آبائهم وطردهم إلى شمال إفريقيا ليصبحوا كفاراً؟ لقد نوقشت

(1) إن وجود هذه الأمنية بأن يقتل مسلمو شمال إفريقيا الأندلسيين لدى وصولهم إلى بلادهم من قبل ثلاثة عقود من الطرد يعد دليلاً على أن الكتابات الإسبانية حول تعرض الأندلسيين للقتل والنهب والاغتصاب في شمال إفريقيا والخطابات التي نسبت إلى أندلسيين مبعدين إلى شمال إفريقيا تذم هذه «المجتمعات وتخلفها» وتعبّر عن الشوق إلى «إسبانيا المتحضرة» كانت من نوع التفكير بالتمني wishful thinking أو محاولة للتشفي في أعدائهم حتى بعد طردهم، وبخاصة أن هؤلاء الأعداء خرجوا غالباً في أثناء إبعادهم «خروج المنتصرين» كما سيأتي في الفصول التالية [المترجم].

(2) الإشارة إلى العرق أو القومية في أمثال هذه المواضع إشارة ضمنية إلى الانتماء الديني [المترجم].

هذه القضايا طويلاً في أثناء المسألة الموركسية.

دفع بعض أنصار الطرد، ومنهم ريبيرا نفسه، بأن الموركسيين كانوا نصارى من الخارج لكنهم أندلسيون من الداخل، وعلى ذلك فإن إسبانيا لا تخون التزاماتها الدينية بإبعادهم إلى شمال إفريقيا. لكن هذه الحجج لم تبدد الشكوك حول ما إذا كانت إسبانيا قد فعلت كل ما في وسعها لتوفير التعليم الديني للموركسيين. وكان فيليب الثاني من المعجبين بالكاتب الإنساني الإيطالي جيوفاني بوتيرو Giovanni Botero، الذي ذهب إلى أن الأمراء النصارى ملزمون بإدخال الكالفينيين والمسلمين في الكاثوليكية. وحين تخفق هذه المحاولات فقط، هكذا نصح بوتيرو، يمكن حينها أن تفرق هذه الجماعات «أو تنقل إلى بلدان أخرى» أو حتى تذبح[11].

حاول بعض رجال الدين أن يطبقوا هذه المعايير على الموركسيين. ففي مايو 1595، نصح عالم اللاهوت خوزيف إستيبان Joseph Estevan أسقف أوريويلة(1) الملك ببذل محاولة جديدة لهداية الموركسيين عبر الجمع بين التعليم الديني والعزل الصارم وهجمة تشريعية جديدة على «عاداتهم الهمجية». وإذا أخفقت هذه السياسات، يكون من حق الملك أن يلجأ إلى «إجراءات أكثر صرامة»، لأنه «كما طردت سارة الجارية هاجر من بيتها وأراضيها وميراثها... يجب أن يفعل الملوك الشيء نفسه مع الأطفال الهاجريين أبناء الجارية، الذين يفسدون ديننا ويسخرون منه»[12](2).

لم تنجح هذه الحجج في انتزاع قرار حاسم من الملك. ولم يتمكن الكهنة والمسؤولون الذين استشارهم فيليب من حسم المسألة الشائكة المتعلقة بأطفال الموركسيين. فمع أنه كان من المتفق عليه عموماً من

(1) Orihuela في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) الإشارة إلى قصة النبي إبراهيم وزوجتيه سارة وهاجر في التوراة، التي وردت في حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

حيث المبدأ أن الأطفال الذين لم يبلغوا «سن الرشد» دون عمر العاشرة والثانية عشرة يجب أن يبقوا وينشّأوا ككاثوليك، تساءل آخرون عما إذا كان هؤلاء الأطفال قد امتصوا عادات آبائهم ومعتقداتهم لدرجة يصعب معها تحويلهم إلى نصارى.

تفيد قضايا الشرعية من هذا النوع في تفسير الفجوة الطويلة بين توصية مجلس الدولة بالطرد في عام 1582، وتنفيذها النهائي بعد ثلاثة عقود تقريباً. وكانت الاعتراضات اللاهوتية على الطرد لها أيضاً تشعبات سياسية خارج حدود إسبانيا، لفت المحلل الاجتماعي والمحامي الشهير مارتن غونثاليث دي سيوريغو أوكندو Martín González de Cellorigo Oquendo انتباه الملك إليها في مذكرة «حول جرائم القتل والمخالفات والإساءات التي يرتكبها المورسكيون ضد الدين النصراني». ومع ذلك، نبّه سيوريغو إلى أن «بعضهم يطلبون من جلالتك أن تأمر بحرقهم جميعاً» على هذه الإساءات، لكنه رفض هذا الخيار لأنه «لا يليق برحمة جلالتك»، ودعا إلى محاولة جديدة لهداية المورسكيين جمعت بين الإكراه الذي تمارسه محكمة التفتيش والتبشير. ثم دفع سيوريغو بأن إسبانيا الكاثوليكية إذا لم تستطع أن تبشر سكاناً مولودين فيها، فإن الحكام البروتستانت قد يستخدمون هذا الإخفاق لتحدي ادعاءات إسبانيا بأنها تمثل «حقيقة نقية وكاملة، مما يقوّض هيبة الملك في أوروبا»[13].

وضعت هذه الحجج كلها أمام حاكم عُرِف بالحذر والتردد. وعلى الرغم من أن فيليب لم يستبعد الطرد بوضوح، فإنه لم يفعل شيئاً لتقريب حدوثه، بل واصل الاجتماع بلجان الخبراء والوفود الدينية لمناقشة هداية المورسكيين. وحتى عام 1596، وهو وقت قريب جداً من الطرد، أقر فيليب برنامجاً شاملاً للتعليم الديني في بلنسية باستخدام مبشرين ناطقين باللغة العربية ورهبان لهم خبرة في الإنديز نبّه عليهم أن يقدموا الوعظ

للموركسيين بلا «عنف أو طرق قاسية».

وكما حدث في المحاولات السابقة، لم يحصل هذا البرنامج على التمويل أو الموظفين الكفيلين بتعزيز فرصة نجاحه. ففي فبراير 1598، ذكر بيدرو دي فرانكوسا إستيبيPedro de Franquesa Esteve سكرتير اللجنة الموركسية في بلنسية، التي ترجع إلى أيام شارل الأول وأعيد تفعيلها، أن كثيراً من الأديرة التي وعدت سابقاً بإرسال وعاظ إلى الأبرشيات الموركسية رفضت الوفاء بذلك، متعللة أن هذه الأبرشيات كانت فقيرة جداً لدرجة ستضطر رهبانها إلى قضاء معظم الوقت في إعالة أنفسهم بدلاً من الوعظ[14]. وسواء كان فيليب يعتقد حقاً أنه لاتزال هناك إمكانية لهداية الموركسيين أم كان يريد فحسب أن يُظهِر أنه يفي بالتزاماته كملك نصراني، فإن القصة كانت مألوفة، إذ تبدأ بالنوايا الطيبة، يليها القصور المؤسسي، ولا تقدم شيئاً لتهدئة المتشددين في الكنيسة والحكومة، الذين كانوا يطالبون بحلول عاجلة وجذرية.

***

وأياً كانت القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الأوسع الدافعة للأحداث، فإن الأحداث التاريخية الأكثر وحشية تُقرَر غالباً عبر مناقشات متروية بين رجال الحكم في غرف اجتماعات مقطوعة الصلة بالنتائج الإنسانية لأفعالهم. وتحوي المراسلات الرسمية ومحاضر الاجتماعات والسجلات الداخلية المتعلقة بالمسألة الموركسية أمثلة عديدة ناقشت فيها أعلى السلطات العلمانية والدينية الإسبانية بهدوء وأريحية أبشع الحلول وحتى الإبادة الجماعية «للمشكلة» التي كانت تستحوذ عليهم.

ففي عام 1584، اقترح أحد مسؤولي الملك إبعاد كل الموركسيين الغرناطيين في قشتالة إلى محمية[1] في الأراضي المسطحة المعزولة في

(1) استخدمت فكرة المحميات كثيراً من الشعوب المقهورة من جانب المستعمرين في العالم =

ساياغو Sayago بالقرب من نهر دويرة[1] حيث يمكنهم فيها أن «ينسوا الشراسة والفخر اللذين يستمدانها من انتصاراتهم ضدنا». وفي الثاني والعشرين من مايو 1590، ناقش مجلس الدولة إبعاد الموريسكيين من كل المدن القشتالية الرئيسة، ووضعهم في «قرى وأماكن قليلة الأهمية» يقدمون فيها الجزية السنوية من المجدفين للقواديس الملكية. وفي فبراير 1599، اشتملت مذكرة لمجلس الدولة على عدد من الخيارات الممكنة للتعامل مع الموريسكيين، جاء بينها الخدمة على القوادس للذكور بين عمر الخامسة عشرة والستين لتفريقهم إلى أعداد صغيرة في أنحاء إسبانيا كافة، والسماح لمحكمة التفتيش بالتعامل معهم «بالصرامة الكاملة للقانون... بالموت الطبيعي أو المدني»، أو «النفي الدائم» باستثناء الأطفال دون عمر السادسة والسابعة الذين يقدمون لمعاهد نصرانية تموّل عن طريق بيع ممتلكات الموريسكيين «الميتين أو المبعدين»[15]. وكان من المقترحات الأخرى إرسال الموريسكيين إلى إفريقيا غير الإسلامية بدلاً من شمال إفريقيا حتى لا تتهم إسبانيا بأنها سمحت بتحويلهم إلى كفار، أو الحكم على كل الرجال الموريسكيين بين عمر الخامسة عشر والستين بالعمل في المناجم والسفن، ولا يُترك إلا النساء والأطفال والمسنون، أو تنفيذ مذبحة جماعية بحق السكان الموريسكيين جميعاً على غرار العقاب الذي أنزل بثورة صقلية في القرن الثالث عشر المعروفة بالنواقيس الصقلية[2].

= الجديد وأماكن أخرى، على أن الاسم مضلل لأن المقصود بها لم يكن حمايتهم، فهم ليسوا أنواعاً نباتية أو حيوانية معرضة للانقراض، وإنما قصد بها عزلهم وإقصاؤهم إلى أن ينقرضوا بعيداً عن المجتمع «المتحضر» [المترجم].

(1) Duero في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) النواقيس أو صلاة الغروب الصقلية اسم أعطي للثورة التي اندلعت على جزيرة صقلية ضد حكم الملك الفرنسي الكابيتي شارل الأول الذي حكم مملكة صقلية بداية من عام 1266 بعد حرب شنتها البابوية لخلع خلفه مانفريد، فقدت فيها الحكومة السيطرة على الجزيرة، وذبح الثوار في ستة أسابيع ثلاثة آلاف فرنسي وفرنسية، وكانت البداية لحرب النواقيس أو =

وكان من المقترحات الأولى خلال مداولات مجلس الدولة في لشبونة في عامي 1581-1582، التي عاودت الظهور على السطح لاحقاً في مناقشات رسمية أخرى، شحن السكان الموركسيين جميعهم على سفن بلا أشرعة تؤخذ إلى البحر ثم تخرق لإغراق ركابها. ففي مذكرة طويلة إلى فيليب في الثلاثين من يوليو 1597، اقترح أسقف سقوربة مارتن دي سالبتيرة(1) نقل الموركسيين إلى كيب كود Cape Cod ونيوفندلند Newfoundland بأمريكا، وهناك تراقبهم الحامية النصرانية وهم ينقرضون في المناخ القاسي، وهي النتيجة التي اقترح الأسقف التعجيل بها «عبر خصي الرجال وتعقيم النساء»[16].

لم تكن هذه المرة الوحيدة التي طرحت فيها فكرة الإخصاء الجماعي. ويبدو أن هذه الإمكانية كانت معروفة جيداً حيث ظهرت في إدانة محكمة التفتيش من جانب المنفي التونسي، الذي ذكر أن «بعضهم قال إننا سنقتل جميعاً، وقال آخرون إننا سنخصى، وقال غيرهم إنه ستوضع لنا كُريات من النار في ذلك الجزء من جسمنا، كي لا نستطيع أن ننجب بعدها»[17]. ومن غير المعروف مم كانت تتكون هذه «الكُريات من النار»، لكن لا توجد أدلة على أن مسؤولي فيليب شعروا بأي نوع من وخز الضمير نحو مثل هذه الطرق.

= صلاة الغروب الصقلية التي سميت بتوقيت انطلاق الثورة في عشية عيد الفصح في الثلاثين من مارس 1282 مع دق نواقيس صلاة الغروب، بسبب الضرائب العالية وبتحريض من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، الذي كان شارل ينوي غزو أراضيه. نجح الثوار في السيطرة على الجزيرة والتمسوا من البابا أن يمنحهم وضعية الكوميونة الحرة، لكنه رفض، فطلبوا من بيدرو الثالث ملك أراغون وزوج ابنة مانفريد أن يحكمهم فجاءهم بأسطوله، لكن دون موافقة البابا الذي غير تحالفاته بمنح المملكة لشارل ابن أخي الملك شارل المخلوع، وبارك حربه على بدرو لانتزاع المملكة، لكن حملة شارل فشلت، وعقدت معاهدة أقرت فريدريك ابن بيدرو ملكا لصقلية أقرها البابا بعد أن دفع فريدريك جزية للبابا [المترجم].

(1) Martín de Salvatierra في اللغات الأوروبية [المترجم].

وكما هي الحال دائماً، كانت هذه التخيلات الجامحة للإبادة ممكنة ويسيرة، بفضل اللغة الاستعلائية المستخدمة من جانب هؤلاء المسؤولين الذين جردوا الموركسيين من خصائصهم الإنسانية، وكانوا يشيرون إليهم أنهم همج وخنازير وزنادقة وكفار يجب أن «يمسحوا» أو «يبادوا». وكان المسؤولون الإسبان يرددون كثيراً الصورة التي استخدمتها الكنيسة لنعت الهرطقة في وصفهم للموركسيين بأنهم عضو أو طرف مريض يجب بتره لمنع العدوى من الانتشار عبر جسد المجتمع الإسباني.

فقد مكّنت هذه اللغة رجال الدولة ورجال الدين، الذين ناقشوا المسألة الموركسية من طرح أكثر الإمكانات وحشية بهدوء ورصانة. صحيح أن مقترحات الإبادة من هذا النوع لم تنفذ، لكنها مع ذلك خفضّت عتبة ما كان مقبولاً، وجعلت إبعاد الموركسيين يبدو بديلاً أرحم كثيراً من القتل الجماعي، ولذلك فإنه بحلول عام 1597، قال أسقف سقوربة الجديد لفيليب إن خيارات التعامل مع الموركسيين «يمكن اختصارها في اثنين: التعليم أو الطرد»[18].

* * *

كانت الإمكانية الأخيرة- الطرد- تفترض دائماً أن الموركسيين سيظلون جميعاً معادين للنصرانية بحزم، وهي فرضية لم يُشكّك فيها كثيراً في نقاش المسألة الموركسية. وكانت الوثائق الرسمية بهذه الفترة تردد الاتهام الشديد «كلهم واحد» لوصف الموركسيين، ويبدو أن الحكومة الإسبانية قد أخذت هذا التصوير مأخذ المسلمات. وتكررت صورة إسبانيا الموركسية نفسها عند المؤرخين الذين أقروا الطرد مثل الكاهن البلنسي باسكوال بورونات باراشينا Pascual Boronat Barrachina. ففي كتابه المليء بالوثائق التي تبرر الطرد: «الموركسيون الإسبان وطردهم» (1901)، يشير بورونات مراراً وتكراراً إلى فشل الدمج، ويشدد على

أن المورسكيين كانوا غير مؤهلين للنصرانية وغير جديرين بها في تقييم مجحف لإسبانيا المورسكية كرر وجهات نظر أستاذه خوان دي ريبيرا. وحتى مؤرخ محنك وإنساني مثل فيردناند برودل لم يقر الطرد، كتب أن المورسكيين «ظلوا غير قابلين للاندماج»، و«رفضوا قبول الحضارة الغربية» في وقت إبعادهم[19].

يقدم بورونات وبرودل الطرد إما كرد مبرر أو رد مأساوي عنيف على عناد المورسكيين، حتى إنهما يعيدان إنتاج الصورة أحادية الجانب لإسبانيا المورسكية، التي اتخذها مسؤولو القرن السادس عشر والمراقبون الأجانب مأخذ المسلمات. ففي عام 1595، لاحظ السفير البندقي فرانثيسكو بيندرامينو Francisco Vendramino أنه «في كل ممالك إسبانيا توجد أنواع مختلفة من الناس الساخطين على الحكومة»، ووضع على رأس القائمة «الأندلسيين الذين أكرهوا على الدين النصراني وأجبروا بالعنف على العيش في ذلك الدين وشعروا بحنق شديد نحوه»[20]. ولا شك في أن كثيراً من المورسكيين كانوا يشعرون فعلاً بهذا «الحنق الشديد»، وزاد نفورهم بسبب إكراههم على النصرانية. لكن بعد قرن تقريباً من تنصيرهم الأولي، كانت مواقف المورسكيين نحو النصرانية أكثر تنوعاً وتعقيداً مما كان يبدو.

ففي ذلك الوقت كان المسلمون الأكثر التزاماً يعيشون في بيئة إسلامية اجتازت تغييرات جذرية عما كانت عليه عند تنصيرهم الأولي. وكان معظم المورسكيين في نهاية القرن السادس عشر يظلون لأعوام مقطوعي الصلة بالعالم الإسلامي البعيد عن جماعاتهم المباشرة. وقليلون منهم كانوا يحضرون إلى مسجد أو مدرسة دينية، وحتى أكثرهم التزاماً كانوا مضطرين في غالب الأحيان إلى ممارسة نسخة مجتزأة ومرتجلة من الإسلام بفعل الظروف الصعبة التي وجدوا أنفسهم فيها. وفي عام 1583، لاحظت

محكمة التفتيش البلنسية نفسها أن بعض طقوس الدفن الإسلامية، التي كانت تحاول منعها لم تكن تتفق مع التقاليد الإسلامية، وإنما كانت تتألف من «طقوس أدخلوها فيما بينهم». وإذا كان بعض الموركسيين قد وجد إلهاماً أخلاقيا وروحياً في هذه التقاليد المحطمة وواصل رفض النصرانية، فهناك آخرون عجزوا عن الاختيار بين الإسلام والكاثوليكية وتأرجحوا أحياناً بين الاثنين. وهناك أيضاً موركسيون أدمجوا عناصر من الدينين في حياتهم اليومية، مثل فرانثيسكا سباستيان Francisca Sebasian الموركسية من تيروال وابنة أب موركسي وأم نصرانية قديمة، التي كانت تصلي بانتظام وتتلقى العشاء الرباني، لكن محكمة التفتيش اعتقلتها لأنها كانت تقدم تبرعات منتظمة للفقراء المحليين، إعمالاً للتقليد الإسلامي المعروف بالزكاة.

وفي المقابل طور موركسيون آخرون ارتباطاً صادقاً بالكاثوليكية. ففي غرناطة، كان الموركسيون يقتلون بسبب رفضهم التخلي عن دينهم الجديد. وفي أماكن أخرى بإسبانيا، كان الموركسيون يذهبون إلى القداس، ويسمعون الاعتراف، ويفعلون كل شيء يلزمهم به دينهم الجديد. ففي أبرشية إلدفونسو Ildefonso بالقرب من بلد الوليد، أوصى موركسي غني يدعى لوكاس دي مولينا Lucas de Molina بأن يدفن في كنيسته المحلية، وأن توضع صورتان دينيتان و«ورقة كبيرة بآلام المسيح» في تابوته. وطلبت موركسية من الأبرشية نفسها أن تدفن تحت صف المقاعد الأول بالكنيسة نفسها كي تكون قريبة من المذبح، وهو الطلب الذي لُبي لها[21]. وحتى في بلنسية، ورغم بيانات ريبيرا، كان هناك موركسيون أظهروا التزاماً حقيقيا بالنصرانية. ففي عام 1582، أرسل وفد من الموركسيين البلنسيين ممثلاً نصرانياً، هو الكونت مالدونادو Maldonado، إلى البلاط ليؤكد ولاءهم للملك ويناشده أن يوفر لهم تعليماً نصرانياً.

وفي عام 1594، ذكر نائب الملك في بلنسية لفيليب أن خريجاً موريسكياً من المدرسة الموريسكية الملكية يدعى خوان نادال Juan Nadal كان «يُظهِر علامات النصراني الجيد والمستقيم» و«يأخذ مقررات في علم اللاهوت».

على أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة عدد الموريسكيين الذين اجتازوا هذا التحول الحقيقي، لأن كثيرين منهم لم يكن لديهم ما يبرر إعلان أصولهم الإسلامية للعالم. وعلى كل فإن هذه الاستجابات المختلفة تكشف أن الموريسكيين لم يكونوا قابلين للاندماج ضمن القيود الشديدة المفروضة عليهم فحسب، بل تكشف أيضاً أن تنصيرهم القسري لم يكن عديم الجدوى كلياً. ويمكننا أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث لو أن هذه العملية أعطيت وقتاً أطول. وقد ظل فيليب حتى نهاية حياته يفضل الدمج، وإن كان بتراخ، لكن من غير الواضح ما إذا كان الرجل قد اعتقد فعلاً أن هذه الجهود يمكن أن تنجح أم أنه كان متردداً فحسب في إقرار الحلول الصارمة، التي كانت تعرض عليه.

وفي العقد الأخير من القرن، واصلت أصوات قوية داخل الكنيسة والدولة الدفع بأن الموريسكيين قد أعطوا وقتاً أكثر مما يستحقون وأن أي جهود أخرى للتبشير بينهم كانت بلا جدوى. وربما كان فيليب يشاركهم هذا الرأي، لكنه حتى لو كان كذلك، فإنه لم يكن راغباً في التصرف بناء على هذا الرأي. وفي عام 1598، اشتد عليه المرض، واعتزل في مختلاه الرهباني في قصر الإسكوريال يصارع الحمى والتهاب المفاصل وداء الاستسقاء. وعلى مدار ثلاثة وخمسين يوماً، تحمل الملك، الذي حيّاه الكاتب الإيطالي توماسو كامبانيلا Tommaso Campanella بأنه آخر إمبراطور عالمي، يتحمل بصبر تحللاً بدنياً مؤلماً قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في الثالث عشر من سبتمبر عن واحد وسبعين عاماً. وفي حين لف البلاد الحداد، انتقلت الآمال بالحل الحاسم للمسألة الموريسكية إلى وريثه.

17

«خطر وشيك»

(1609–1598)

حتى أبشع المآسي التاريخية وأخطرها يدفعها أحياناً أفراد عاديون وتافهون، ومن الأمثلة الساطعة على ذلك، فيليب الثالث (1578–1621)؛ ذلك الحاكم الذي أشرف على نهاية إسبانيا الإسلامية. تقول أسطورة انتشرت بعد الطرد أنه في يوم مولده حذّر كاهن يدعى الأب بركاش Vargas رعيته المورسكية قائلاً: «إذا رفضتم أن تستأصلوا هذا الدِين الملعون من قلوبكم، فاعلموا أن أميراً قد ولد في قشتالة سيطردكم من إسبانيا». لكن هذا القدر الرائع لفيليب الابن لم يكن واضحاً لأبيه الذي اشتكى ذات مرة إلى أحد أفراد حاشيته من «أن الله أعطاني كثيراً من الممالك، لكن حرمني من ابن قادر على حكمها». وقد اتفقت الأجيال التالية على هذا التقييم السلبي. فشخصية فيليب الضعيف جسدياً وغير المميز عقلياً كانت جوفاء تماماً مقارنة بأسلافه الكاريزميين والأقوياء. وكانت أبرز سمة فيه هي ورعه الشديد الذي أكسبه لقب القديس الصغير El Santito بين رعاياه. واجتمع فيه هذا الحماس الديني مع ولع بالجوانب العابثة لحياة البلاط. ومع أنه كان يكرس ثلاث ساعات يومياً تقريباً للصلاة والعبادات الدينية، فقد كان يحب التمثيليات والعروض

المسرحية والموسيقى وألعاب الورق ومباريات المبارزة، وقبل كل شيء الصيد البري الذي كان ينغمس فيه كلما سمحت ظروفه.

وفي عهده تميزت حياة البلاط الإسباني بتألق جديد وتبذير تفاخري، كان يقف على طرف النقيض من اعتدال أبيه. وتمتلئ الأوصاف المعاصرة لبلاط فيليب بحملات الصيد والاستقبالات المدنية وعروض الألعاب النارية وأنوار الزينة الليلية والمآدب، مثل الوليمة الفاخرة التي قدمت للبلاط في قصر الدوق أوسيدا Uceda في عام 1611، التي قدم فيها ستمائة طبق وانهالت على الحاشية الملكية الهدايا الذهبية والفضية والمجوهرات والماء المعطر.

يرتبط عهد فيليب بشدة بمعلمه السابق فرانثيسكو غوميث دي ساندوبال روخاس Francisco Gómez de Sandoval Rojas مركيز دانية (من 1552-1625 تقريباً) المعروف عموماً باللقب الذي منحه فيليب إياه: الدوق ليرما. وليرما الذي كان يكبر فيليب بخمس وعشرين عاماً كان المستشار المقرب لفيليب ورئيس وزرائه الفعلي، وكان تجسيداً للميل الجديد لدى الملوك الأوروبيين لتفويض سلطتهم لأفراد مؤتمنين أو «محاسيب»، وهو منصب كان يعرف في إسبانيا باسم البريبادو privado أو الباليدو valido.

لم يبلغ أحد من معاصري ليرما القوة والمكانة التي بلغها في عهد فيليب الثالث. ومع أن ليرما لم يحضر سوى اثنتين وعشرين جلسة من اجتماعات مجلس الدولة التي فاقت السبعمائة جلسة في عهد فيليب، فإن القرارات المهمة لم تكن تتخذ دون معرفة «الدوق» أو موافقته. ويتجلى صعوده في لوحة للرسام بيتر بول روبينث Peter Paul Rubens في عام 1603 تصوّر ليرما راكباً على فرس أبيض، وهو وضع عسكري بطولي كان يخصص عادة للحكام وليس لمستشاريهم. وكان المصدر الرئيس لقوة ليرما هو

إدارته الحاذقة للعائلة الملكية عبر منصب صاحب الخيل[1]. أعطى هذا المنصب لليرما قرباً لا نظير له من الملك، ومكّنه من نسج شبكة معقدة من المحاسيب وتعيين أصدقائه وحلفائه وأفراد عائلته بالمناصب الرئيسة في البلاط والحكومة. وكان ليرما مراوغاً شديد الذكاء وساحراً في شخصيته، مع ميل إلى نوبات منهكة من الكآبة، وكان فوق ذلك كله فاسداً وجشعاً جداً. فليرما الذي ولد في عائلة أرستقراطية معدومة نسبياً، استخدم نفوذه في البلاط لتكوين ثروة ضخمة حار معاصروه في أصلها.

استخدم ليرما ثروته في تأسيس أديرة ومؤسسات دينية، وفي رعاية الفنانين والكُتاب من أمثال ثيرفانتس ولوبي دي بيغا، وأيضاً في تجديد وبناء القصور وبيوت الصيد الريفية لاستضافة الملك. وكانت ضِياعه الفسيحة على ضفتي نهر بسويرغا Pisuerga في بلد الوليد كبيرة لدرجة أنها كانت تضم قصراً ومعتزلاً دينياً وبحيرة صناعية بها أسماك زينة وسهلاً مفتوحاً كان ليرما ينظم فيه معارك وهمية ومصارعة ثيران ومباريات مثاقفة للعائلة المالكة والبلاط. كان هذا الكرم مكوناً أساسياً في العلاقة الشخصية والسياسية بين الملك ومستشاره المقرب. فرغم شهرة فيليب بأنه حاكم كسول وغير منخرط في عمل الحكومة، فإن شؤون الدولة كانت تناقش عادة في هذه الاجتماعات الخاصة في بيوت الصيد الريفية والبيوت الصيفية في أرانخويث Aranjuez والباردو El Pardo ولابينتوسيا La Ventosilla. وقد صعّب هذا التداخل بين الخاص والعام على المؤرخين التثبت من عملية صنع قرار الطرد أو الدور الذي لعبه أبطاله الأساسيون.

(1) صاحب الخيل master of the horse منصب في الملكيات الأوروبية يعادل الوزير كان معنياً بإدارة شؤون الأسرة الحاكمة، كان في إنجلترا يعتني بالخيول والكلاب الملكية، وكان في إسبانيا يدبر الرحلات والإسطبلات ورحلات الصيد الملكية [المترجم].

تأثرت معاملة فيليب للموريسكيين كثيراً بزوجته المتدينة المتزمتة مارغريت النمساوية[1] (1584-1611). لكن على خلاف ليرما، لم تكن مارغريت تحضر اجتماعات مجلس الدولة أو تصدر أوامر من نفسها، ولا يظهر اسمها على أي وثائق تتعلق بالطرد. ومع ذلك فقد أثنى الكاهن القونكي ومؤرخ البلاط الأب لويس بالتاسار بورينو **Luis Baltasar** Porreño لاحقاً على «الإصرار الكبير» من جانب الملكة الذي جعل الطرد ممكناً. وفي جنازتها في عام 1611، حيّا الراهب الغرناطي خوان غالفانو Juan Galvano مارغريت أيضاً على «حقدها المقدس» على الموريسكيين، وادعى أن الطرد يرجع «بالدرجة الأولى... إلى مليكتنا الأكثر صفاء»[1].

لم يكن «الحقد المقدس» على الإسلام غريباً على أميرة ناطقة بالألمانية من النمسا الهابسبورغية، التي شكّل العثمانيون تهديداً متواصلاً لها منذ أوائل القرن الخامس عشر. وبالنسبة إلى كل من مارغريت وفيليب، فقد جرى لقاؤهما الأول بإسبانيا الموريسكية في بلنسية في يناير 1599، حين وصلت الأميرة ابنة الرابعة عشر في سفينة من أجل زواجها المتفق عليه مع فيليب الذي لم تره من قبل. كان رئيس الأساقفة ريبيرا في استقبال الأميرة، وهو الذي أجرى مراسم القران وأشرف على الاحتفالات المدنية المتقنة التي نظمت على شرفها. وبعد ذلك استضيف الزوج الملكي في ضِياع ليرما في دانية بمصارعة الثيران ومعارك بحرية وبرية صورية

(1) لاحظ أن دول الجوار الإسلامي (التي تجاور دولاً إسلامية ودخلت معها في صراع لكنها لا تضم جماعات مسلمة) ودول التخوم (التي تجاور دولاً إسلامية ودخلت معها في صراع وتضم جماعات مسلمة) كانت الأشد عداء للإسلام والمسلمين بسبب حروبها الكثيرة مع المسلمين والتهديد المستمر لدولهم من جانب المسلمين ممثلاً في الحروب والغزو والحصار، واجتماع مارغريت النمساوية (دولة جوار إسلامي) مع فيليب الإسباني (دولة جوار وتخوم) لا بد أنه عزّز كراهية المسلمين لدى الطرفين وقرّب حلاً متطرفاً مثل طرد الأندلسيين [المترجم].

وعروض مسرحية، ومنها مسرحية كتبها لوبي دي بيغا لهذا الغرض خصيصاً. قضى فيليب عشرة أشهر في بلنسية وأراغون مع مليكته، تبادل خلالها عدداً من الرسائل حول المسألة الموريسكية مع ريبيرا. وقابل أيضاً مستشار رئيس الأساقفة خايمي بليدا. وبحضور ياغو[1] الموجود دائماً في المأساة الموريسكية، اكتمل فريق الممثلين الذين سيلعبون الدور الحاسم في الإنهاء الوحشي لهذه المسألة بعد عقد من الزمان.

***

تزامنت الأعوام الأولى من عهد فيليب بتغيير في السياسة الخارجية الإسبانية أسهم في تقريب تلك الخاتمة النهائية. ففي عام 1598، وقع فيليب الثاني قبل موته بوقت قصير اتفاقية السلام المعروفة باسم فيرفينز Vervins مع فرنسا، التي مكّنت ابنه من توقيع سلسلة من المعاهدات مع أعداء إسبانيا في شمال أوروبا. وقد قُصِد بالتأكيد الجديد على الدبلوماسية إعطاء سكان إسبانيا المنهكين هدنة لالتقاط الأنفاس بعد أكثر من عقدين من الحروب المتواصلة تأكدت فيها نقائص القوة الهابسبورغية أكثر من أي وقت مضى. ففي عام 1601، انتهت الحملة الإسبانية لمساعدة الثوار الكاثوليك الأيرلنديين ضد إنجلترا نهاية مذلة، حين غرقت سفن إسبانيا في عاصفة وتعرض الناجون منها للقتل والأسر. ووقعت كارثة أكبر في ذلك العام نفسه حين هاجم أسطول إسباني الجزائر، وغرقت عشرات السفن حتى قبل أن تصل ساحل شمال إفريقيا.

وفي وقت كان الجيش الإسباني في منطقة الفلاندر يترنح فيه على حافة التفكك وعجزت الخزانة عن تمويل الالتزامات العسكرية في أماكن

(1) ياغو Iago هو زوج إميليا وخادم ديدمونة زوجة عطيل في مسرحية شكسبير والخصم الرئيسي للبطل عطيل (يسمى عطيل أيضاً «المغربي») الذي يكرهه ويدبر لتدميره بخداعه بأن زوجته تخونه مع تابعه كاسيو. وتشبيه خايمي بليدا بياغو يحمل مضامين كراهية الأندلسيين والمغاربة والتدبير لتدميرهم [المترجم].

أخرى، وقعت إسبانيا في عام 1604 معاهدة مع ملك إنجلترا جيمس الأول. وبعد ثلاثة أعوام، بدأت مفاوضات الهدنة مع زعماء الثوار الهولنديين بتحريض من ليرما، رغم المعارضة القوية من المتشددين، الذين رفضوا أي مساومة مع «الثوار والزنادقة». وتزامن مع هذا التراجع العسكري تدهور في الحالة الاجتماعية والاقتصادية داخل إسبانيا نفسها. فرغم الاستهلاك البذخي من جانب البلاط والطبقة الأرستقراطية، شهدت فترة أوائل القرن السابع عشر ضيقاً اجتماعياً شديداً لمعظم سكان إسبانيا. فكانت أعوام من الجوع والمجاعات والحصاد السيئ وارتفاع الأسعار وزيادة الضرائب، عاش فيها كثير من الإسبان الفقر، وغاصت فيها المجالس البلدية بالمتشردين والمحاربين القدامى المعاقين أو العاطلين الذين لم يكن لدى كثيرين منهم وسائل للتعيّش. وبين عامي 1599 و1600، تفشى الطاعون الدبلي في نوبة مدمرة بإسبانيا، وقتل ما يقدر بستمائة ألف شخص.

كثيراً ما يصاحب فترات الأزمات الاجتماعية من هذا النوع البحث عن كبش فداء، وإسبانيا القرن السابع عشر لم تكن استثناء لتلك القاعدة. ففي قشتالة التي كان الطاعون على أشده فيها، جعل معدل الوفيات العالي المخاوف من نمو السكان المورسكيين أكثر قابلية للتصديق. وفي بلنسية، تزامنت المخاوف من ثورة مورسكية مع انهيار عام للقانون والنظام، وكان الكهنة وحتى الأطفال المراهقون يدانون بالاعتداءات، وأحياناً بالقتل في نزاعات تافهة، وكان اكتشاف الجثث في الشوارع أمراً روتينياً. فـ«بمجرد أن يدخل الليل، لا تستطيع أن تخرج من بيتك في بلنسية دون ترس ودرع واقٍ، لأن جرائم القتل منتشرة في كل بلدات إسبانيا ومدنها»، هكذا كتب الرحالة الفرنسي بارتليمي جولي Barthélemy Joly في عام 1603 [2].

أرجع جولي انتشار جرائم القتل إلى مناخ بلنسية، لكن السكان

النصارى كانوا يرون الفوضى وقطع الطرق غالباً من الأفعال الخاصة بالموركسيين. وبين عامي 1602 و1604، عمل خوان دي ريبيرا نائباً للملك ببلنسية، وحاول استعادة سلطة التاج باتباع نظام قاسٍ يقوم على الإعدام والجلد وحظر ألعاب المخاطرة وحيازة الأسلحة، لكن لم تحقق هذه الجهود نجاحاً كبيراً. وكان من علامات العلاقة المتوترة بين رجال الدين البلنسيين والموركسيين أن ريبيرا طلب استثناء الكهنة المعينين في الأبرشيات الموركسية من حظر حيازة المسدسات ذات قفل الأمان Flintlock ، على أساس أنهم كانوا يحتاجون هذه الأسلحة لحماية أنفسهم، حتى وهم يقيمون القداس.

تميزت هذه الأعوام أيضاً باستمرار الغارات على البلدات الساحلية والسفن الإسبانية من جانب القراصنة المسلمين وسفن القراصنة النصرانيين، التي سُرّحت من الحرب بموجب الهدنة البروتستانتية-الكاثوليكية، لكنها واصلت نشاطاتها لحسابها الخاص، وكانت تنطلق كثيراً من موانئ شمال إفريقيا نفسها. وأدى عجز إسبانيا عن منع هذه الهجمات إلى تكثيف القلق الرسمي من الشائعات حول الاتصالات التحريضية بين الموركسيين الأراغونيين والبروتستانت الفرنسيين، والتقارير حول الوفود الموركسية إلى القسطنطينية وفاس، ورغبة الجزائر في دعم ثورة قادمة. وكما هي الحال دائماً، فلطالما كانت هذه التقارير غير موثوقة أو معقولة. ففي عام 1602، ذكر تقرير لمحكمة التفتيش أن مجموعة من الموركسيين البلنسيين زاروا ملك فرنسا هنري الرابع المعادي لإسبانيا ووعدوه بمساندة نحو مئة ألف مسلح موركسي ويهودي وكاثوليكي ساخط إن هو غزا إسبانيا.

بالغ الموركسيون في هذه الأرقام بالتأكيد، إن لم تكن المبالغة قد جاءت من محكمة التفتيش نفسها، ولم يكن لدى هنري أي نية للاستجابة إلى

دعوتهم. وثمة مؤامرات وهمية لا تقل شططاً كانت تُذكَر دائماً كدليل على «الخطر الوشيك»، الذي كان الموريسكيون يشكّلونه على الدولة. وفي سبتمبر 1602، حذّر راهب قطلوني يدعى سباستيان دي إنثيناس Sebastian de Encinas ليرما من أن الموريسكيين في بلنسية قد نظموا أنفسهم فعلاً في سرايا سرّية، وأخذوا يشاركون في تدريبات عسكرية ترقباً «للأسطول المغربي»، الذي كان على وشك غزو إسبانيا. وكالعادة، لم تُقدَم أدلة تؤيد هذه الادعاءات، ولم تقع الثورة أو الاحتلال المغربي. لكن ثمة اتصالات أخرى كانت صحيحة بالتأكيد. ففي عام 1604، سلمت الحكومة الإنجليزية كبادرة على حسن النية، وثائق داخلية إلى إسبانيا كشفت عن حدوث محادثات بين الموريسكيين في أراغون والدوق دي لا فورس Duke de la Force حاكم بيرن، حول إمكانية الثورة بمساندة بيرنية.

لم تكشف هذه الوثائق ما إذا كانت قد أجريت محاولات لتحقيق هذه التطلعات على أرض الواقع، لكنها فاقمت الشكوك الرسمية في الموريسكيين، في وقت كان التاج الهابسبورغي الإسباني فيه قد شرع في محاولة مؤقتة لبعث الجهاد ضد الإسلام في البحر الأبيض المتوسط. فقد كانت حملة الجزائر الفاشلة، وتورط إسبانيا المتزايد في الحروب الداخلية على السلطة في المغرب من نتائج توجه إستراتيجي جديد دُمج دوماً مع التطلعات الصليبية القديمة. ففي الرابع والعشرين من ديسمبر 1603، تعرف «منجّم نصراني» بلنسي يدعى فرانثيسكو نافارو Francisco Navarro على هيئة تنجيمية نادرة تُعرَف بالاقتران العظيم great conjunction فسرها على أنها إشارة إلى الدمار التالي للإسلام، الذي سيقود فيه فيليب الثالث جيشاً من الإسبان «الذين ولدوا تحت كوكبة القوس والرامي»[1]، لاستعادة أورشليم، ويكون ذلك فاتحة لآخر الزمان.

---

(1) كناية عن الاصطفاء الإلهي لهم والقدر المناط بهم [المترجم].

وفي أوائل القرن السابع عشر، وردت تنبؤات مماثلة في عدد من النبوءات الدينية عُرِفت باسم «التكهنات» pronosticos. وأرجعت بعض النصوص الهزائم العسكرية الأخيرة لإسبانيا إلى غضب الله من استمرار وجود الكفار على أراضيها، وتنبأت بتحول مذهل في حظوظ إسبانيا إذا استأصلت الموركسيين من أراضيها. وكما كانت الحال دائماً، رُبِطت هذه التنبؤات عادة بالطوالع والنذر. ففي عام 1600، سُمِع جرس الكنيسة الأسطورية في بلدة بليا Velilla في أراغون يدق دون تدخل بشري، وهي معجزة متكررة كان يعتقد أنها تبشر بأحداث عظيمة، ورأى فيها بعض الإسبان علامة أخرى على قرب طرد الموركسيين. وكانت بلنسية كالعادة أكثر عرضة لهذه الظواهر، فامتلأت الأعوام الأولى من القرن بتقارير عن زلازل مدمرة، وعواصف ثلجية تقصف بقطع من الثلج في حجم بيضة الدجاجة، ومشاهدة «سحابة ملطخة بالدم» رأى داميان فونسيكا أنها تعبير عن «إرادة الله بأن يُرمى الموركسيون خارج إسبانيا، ولو لزم الأمر بالدم والنار». وفي حادثة أخرى، وصف فونسيكا كيف اجتثت «زوبعة» ضخمة سبعمائة شجرة قبل أن تنتزع موركسيين كافرين إلى أعلى في الهواء وتقذفهم فتقتلهم. وفي هذا المناخ المطبوع بالأزمة والكساد وترقب الألفية السعيدة، أخذت المسألة الموركسية تتصاعد على الأجندة الرسمية، واقترب حكام إسبانيا كثيراً من العلاج المتطرف، الذي قاومه أسلافهم.

***

كان فيليب ووزراؤه يتلقون منذ الأعوام الأولى لعهده سيلاً من التقارير والمذكرات وأوراق الرأي حول المشكلة الموركسية. وفي مارس 1600، أوصى رئيس محكمة التفتيش فرناندو نينو دي جيفارا Fernando Niño de Guevara ببذل محاولة جديدة لتقديم التعليم الديني للموركسيين. وإن لم

يستجب الموريسكيون- هكذا قال جيفارا للملك- سيكون شرعياً عندئذ أن نعلن أنهم «أعداء لله ولجلالتك» ونستخدمهم كمجدفين أو عمال عبيد في المناجم، ليس في إسبانيا فقط، وإنما في الإنديز أيضاً، التي «انقرض الهنود فيها تقريباً»[3].

ومن بلنسية، قام خوان دي ريبيرا أيضاً بجهد منظم لإبراز إلحاح المشكلة الموريسكية أمام الملك. ففي مايو 1599، أخبر فيليب ريبيرا بقراره بإصدار مرسوم عفو لمدة عام واحد في بلنسية كمقدمة لحملة تبشير، وطلب من البطرك المساعدة في هذا «العمل الورع والمقدس»، بنشر كتاب تعليم العقيدة باللغتين الإسبانية والعربية الذي كلّف البطرك بنشره سابقاً. ونفذ ريبيرا هذه التعليمات ومد العفو إلى عام آخر. وسرعان ما تكشف يأسه واضحاً في مذكرة أرسلها إلى فيليب في ديسمبر 1601، ادعى فيها أن العفو لم يأت بحالة اعتراف واحدة، واتهم كل الموريسكيين في بلنسية بأنهم «زنادقة عنيدون وخونة للتاج الملكي». وألقى ريبيرا باللائمة على الموريسكيين عن التراجع العسكري الإسباني، وأرجع الفشل في «مشروع إنجلترا» وحملة الجزائر الأخيرة إلى الغضب الإلهي من استمرار وجود «الحمى» الموريسكية. وحذّر رئيس الأساقفة من الكوارث الأكبر، التي ستأتي ما لم تحل هذه المشكلة، وتنبأ قائلاً: «إن جلالتك إذا لم تأمر بقرار... فأخشى أنني سأرى في عمري ضياع إسبانيا»[4].

أراد ريبيرا لهذه الوثيقة العاطفية أن تكون مؤثرة، وقد كانت. فقد كتب كاهن الاعتراف الملكي غاسبار القرطبي Gaspar de Córdoba لريبيرا حول «الدهشة والصدمة» اللتين تركتهما رسالته في ليرما والملك، كما علم رئيس الأساقفة من رجل ليرما الفاسد في بلنسية بيدرو دي فرانكيسا Pedro de Franquesa كيف جحظت عينا فيليب بفعل «وضوحها وحماسها». وفي يناير 1602، طلب فيليب من ريبيرا أن يستفيض في شرح

وجهة نظره حول المسألة الموركسية، فرد الأخير بخطبة قاسية معادية للموركسيين. قال للملك في هذه الرسالة: إن الموركسيين لا يستنزفون الثروة من إسبانيا فحسب، وإنما كانوا المسؤولين أيضاً عن معظم النشاط الإجرامي في بلنسية، لدرجة أن «النصارى القدامى، الذين كانوا يعيشون في المناطق الموركسية لا يتجاسرون على مغادرة بلداتهم ليلاً». واستبعد ريبيرا أي إمكانية لتحويل الموركسيين إلى نصارى. وفيما كان أنصار الاندماج يصفون الموركسيين بأنهم «براعم وليدة» تحتاج رعايتها بلطف، وصفهم ريبيرا بأنهم «أشجار ذابلة مليئة بعقد الهرطقة»، ويجب اجتثاثها من جذورها «حتى لا تتسبب في أضرار ولا تطلع منها براعم جديدة تنمو سريعاً إلى أشجار». وحث ريبيرا الملك على القيام بهذه المهمة التي وصفها بأنها «استرداد جديد» يشبه هزيمة داوود للفلسطينيين[5](1).

كان ميل ريبيرا الواضح للطرد يلقى دعم مستشاره المتعصب المعادي للموركسيين خايمي بليدا، الذي زار روما في ثلاث مناسبات ليناشد البابا الموافقة على الطرد دون جدوى. وقام الدومينيكي الذي لا يكل أيضاً بعدة رحلات إلى مدريد للترويج لما أسماه «قضيته» الموركسية في البلاط والحكومة. وفي عام 1603، أرسل بليدا لفيليب ملخصاً لكتيبه المعادي للموركسيين «الدفاع عن الدِين»، الذي استشهد فيه بعدد هائل من المرجعيات الدينية والسوابق التاريخية لدعم الشرعية اللاهوتية للطرد، من الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس إلى سينيكا والقديس أوغسطين. ورفض بليدا أيضاً الاعتراضات الاقتصادية على الطرد، وادعى أن العمالة الموركسية سيعوضها المستوطنون النصارى سريعاً، وسيقدمون دخولاً

(1) جاء في سفر صموئيل أن الفلسطينيين بعد أن هزموا إسرائيل «واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا في الصف من الحقل نحو أربعة آلاف رجل» (2:4)، قام داوود وقتل الفلسطيني «وأخذ داوود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم ووضع أدواته في خيمته» (17:57) [المترجم]..

أكبر لملاك الأراضي البلنسيين[6].

وكما أراد ريبيرا من قبله، قصد بليدا بحججه أن تناشد غرور الملك الشاب سريع التأثر بتقديم الطرد باعتباره عملاً مجيداً ودينياً يجلب الشرف لمن ينفذه. ودفع مشاركون آخرون في نقاش المسألة الموركسية بقوة أيضاً في اتجاه الطرد. ففي عام 1602، اقترح فرد من الحاشية يدعى غوميث دابيلا توليدو Gómez Davila Toledo أن يؤخذ كل الأطفال الموركسيين بين عمر الثانية والرابعة عشرة من ذويهم، ويعطوا لعائلات نصرانية لتنشئتهم، وأن يفرق الموركسيون البالغون من الذكور والإناث في جماعات صغيرة في أنحاء العالم كافة، حتى «تنتهي الأصول الملعونة للهاجريين تماماً». وعلى خطى ريبيرا الذي وصف الموركسيين بأنهم «حُمّى»، وصفهم غوميث دابيلا بأنهم «وباء داخل الجسم» هدد بتلويث المجتمع الإسباني وتدميره ما لم يُستأصل، فكما «أن الجسم البشري حين يمرض في قدمه أو ساقه أو ذراعه يجب تطهير الجسم كاملاً، كذلك يجب تطهير إسبانيا كلها من هذه البذرة الفاسدة»[7]. ونظر مجلس الدولة أيضاً عدداً من «المقترحات» حول المسألة الموركسية من الأب بيدرو أرياس Pedro Arias أسقف الأخوية الرهبانية الأوغسطية في أراغون، التي دفع فيها بأن «الهاجريين» يستحقون عقوبة الموت على تجاوزاتهم الدينية وأنه «لا ظلم في قطع رقابهم». وعلى أقل تقدير كان فيليب «ملزماً لأسباب تتعلق بالضمير والحكم الجيد بإبعادهم عن ممالكه»، واجتثاث «الجذع الذي تنبت منه هذه البراعم الشيطانية»[8].

كانت حجة أن الموركسيين «يستحقون» الموت على تجاوزاتهم الدينية تستخدم دائماً لتقديم الطرد كبديل أكثر شهامة ونبلاً. على أن تفضيل هذه الإجراءات لم يكن محل إجماع بين الكهنة. ففي مذكرة إلى الملك في عام 1604، ناقض فليثيانو دي فيغيروا Feliciano de Figueroa أسقف سقورية

وسكرتير ريبيرا الشخصي السابق تقييم رئيس الأساقفة المتشائم لعفو فيليب في بلنسية، وأصر على حدوث «تقدم ملحوظ» بين المورسكيين في أبرشيته نتيجة لمرسوم العفو الأخير، حتى إن كثيرين منهم لم يعودوا مختلفين عن النصارى القدامى. وفي نقد غير مباشر لريبيرا نفسه، ذهب فيغيروا إلى أن «الأساقفة ما كان ينبغي أن يفقدوا الصبر والثقة بهذه السرعة» في قدرتهم على هداية المورسكيين، وحث فيليب على أن يستعيض عن «التعليم غير المتقن»، الذي كان يقدم في السابق ببرنامج جديد للتبشير لا يستتبع «إطلاق الجيوش أو سفك الدماء»[9].

ودافع كهنة إسبان وأجانب بارزون آخرون عن سياسة معتدلة مماثلة، منهم اليسوعي الإنجليزي جوزيف كريسويل Joseph Creswell ممثل مصالح الكاثوليك الإنجليز لدى البلاط الإسباني الذي حث فيليب على بذل جهود جديدة لاستمالة المورسكيين، ورفض آراء رجال الدين الإسبان الذين «يعتقدون أن هذا الضرر غير قابل للعلاج»، ودفع بأن هؤلاء الكهنة «لم يروا ما يمكن فعله مع زنادقة ليسوا أسهل في هدايتهم من المورسكيين»[10]. كما أعلن البابا بول الخامس نفسه أنه يؤيد التبشير، رغم جهود بليدا لإقناعه بعدم جدواه، وأصدر رسالة بابوية في عام 1606 وجه فيها ريبيرا وأساقفته إلى مناقشة طرق أخرى لهداية المورسكيين البلنسيين.

وجاءت واحدة من أكثر الحجج المؤيدة للدمج تروياً في كتيب عالم الدين والمفكر الشهير بيدرو دي بالينثيا Pedro de Palencia بعنوان «مقالة حول المورسكيين الإسبان» (1606). جاء تصوير بيدرو لإسبانيا المورسكية مليئاً بتحيزات وفرضيات عصره، مثل وصفه المورسكيين أنهم «أعداء معلنون وظاهرون للكنيسة النصرانية برمتها»، وأن عددهم «ليس عشرة ولا مئة ولا ألف ولا مئة ألف، وإنما أكثر من ذلك بكثير، وهم

جواسيس وجنود يعملون في إسبانيا لصالح إمبراطورية الإسماعيليين[1]، وطائفتهم»، وجميعهم «تلهبهم الكراهية العدوانية» نحو النصرانية»[11]. لكنه في الوقت نفسه، رفض تصوير المورسكيين بأنهم سكان أجانب وغرباء، دافعاً بأن «كل أولئك المورسكيين... إسبان مثل غيرهم ممن يعيشون في إسبانيا، ولدوا ونُشّئوا فيها على مدى ما يقرب من تسعمائة عام»، وأرجع إخفاق الدمج إلى حقيقة أنهم لم يعطوا «شرفاً وتقديراً مساوياً» للنصارى القدامى.

ورفض بيدرو دي بالينثيا الطرد على أساس أن «الجمهورية يجب أن تصون كل أجزائها»، وأوضح أن «الملوك والجمهوريات يجب ألا يصل سخطهم إلى درجة الوحشية المتطرفة التي تبيح قتل شعوب كاملة». وأوصى بدلاً من ذلك ببرنامج قومي منظم للتبشير يبدأ بفترة صوم وصلاة «في كل كنائس إسبانيا»، وتصحبه عقوبات «معتدلة وليست صارمة» على تجاوزات المورسكيين. وذهب بيدرو دي بالينثيا حتى إلى أن المورسكيين يمكن تجنيدهم في الجيش الإسباني، ذلك أن تدبيرهم وقدرتهم على العمل الشاق تجعلانهم جنوداً طبيعيين. فكما أدمجت روما مواطنين غير رومان في فيالقها ونشرتهم على «حدود الإمبراطورية»، يمكن إرسال المورسكيين لتعزيز حاميات إسبانيا الضعيفة في شمال إفريقيا.

لم يحظ هذا الاقتراح الإبداعي بأي اهتمام، وهو المصير نفسه الذي آلت إليه اقتراحات بيدرو دي بالينثيا الأخرى، لكن مقالته كانت إشارة أخرى على تنوع الآراء حتى في هذه المرحلة المتأخرة من مناقشة المسألة المورسكية؛ ذلك النقاش الذي سلّم بأن المورسكيين «مشكلة». لكن كان هناك مع ذلك تباعد حقيقي بين متطرفين مثل بليدا وريبيرا ظَهَرا مهيئين

---

(1) النسب هنا إلى النبي إسماعيل أبي العرب، والمسلمين بالتبعية. راجع حواشي سابقة حول نعت العرب بالهاجريين نسبة إلى أم إسماعيل [المترجم].

للتفكير في الإبعاد أو حتى الإبادة الجسدية للموريسكيين، وأولئك الذين رأوا أنهم يمكن، بل يجب أن يسمح لهم بالبقاء في إسبانيا. وفي النهاية تقرر الاختيار بين الخيارات من جانب مجموعة صغيرة نسبياً من المسؤولين الأقوياء، وهؤلاء الأفراد هم مَنْ سنحوّل انتباهنا إليهم فيما تبقى من هذا الفصل.

***

كانت السياسة الرسمية نحو الموريسكيين يقررها الملك نفسه، لكن آراء فيليب كانت تتأثر بمستشاره القوي ليرما. ونظراً إلى أن الأخير شغل سابقاً منصب نائب الملك في بلنسية، ولأن ضِياع أجداده كانت تقع في ميناء دانية، فقد كان محيطاً بالشؤون البلنسية وحساساً للتأثير الاقتصادي السلبي، الذي قد يلحق بالمملكة جراء الطرد. وكانت تربطه أيضاً علاقات وثيقة بطبقة النبلاء البلنسيين من خلال صلات عائلية. وهذه الارتباطات ربما تفسر رفض ليرما في عام 1582 لاقتراحات الطرد التي قدمت في اجتماع لشبونة، وتوصيته بتحسين دفاعات بلنسية بدلاً من الطرد. وجاء تأسيس المليشيا البلنسية في عام 1599 بالدرجة الأولى نتيجة لجهوده. ورغم ذلك ففي ذلك العام نفسه، في اجتماع مجلس الدولة في الثاني من فبراير، تبنى ليرما موقفاً أكثر تشدداً، فأعلن أن «الموريسكيين ظلوا أندلسيين كما كانوا من قبل، وأنهم يستحقون الموت»، واقترح سلب ممتلكات كل الذكور الموريسكيين القادرين على العمل، وتسليمهم إلى القوادس، وطرد النساء وكبار السن إلى شمال إفريقيا، وإيداع أطفالهم في معاهد نصرانية[12].

إن أسباب هذا التغير في الرأي غير واضحة، ومع ذلك ظل ليرما والملك يبحثان عن سياسات أكثر اعتدالاً في المدى القريب. ففي فبراير 1600، دعا مستشارو فيليب إلى إعطاء الموريسكيين في بلنسية تعليماً دينياً

على يد وعاظ «متحمسين ومستقيمين ومتعلمين» يعاملونهم «برقة ولطف ودون إكراه فيما يتعلق بلغتهم ولباسهم». وكان فيليب ووزراؤه ملتزمين بذلك الهدف لدرجة أن رئيس الأساقفة ريبيرا تعرض للتوبيخ حين أمر كهنته بتحذير الموركسيين أنهم سيواجهون الطرد إن لم يستجيبوا إلى هذه الجهود. غير أن هذه البوادر التصالحية كانت دائماً مؤقتة ومشروطة. ففي الثالث من يناير 1602، اجتمع فيليب بلجنة أخرى لبحث المشكلة الموركسية، كان من بين أعضائها ليرما ورجل الدولة المخضرم خوان دي إيدياكيث Juan de Idiaquez؛ السكرتير السابق لفيليب الثاني، والعضو الباقي الوحيد من لجنة لشبونة الأصلية.

اجتمعت اللجنة في وقت كان مرسوم العفو فيه على وشك الانتهاء في بلنسية، وكانت مذكرة ريبيرا اللاذعة في العام السابق لاتزال حية في عقول أعضاء اللجنة. وناقش الوزراء تقارير جديدة عن الاتصالات بين الموركسيين الأراغونيين والبروتستانت الفرنسيين، وأيضاً بين الموركسيين البلنسيين والمغرب، إذ قيل إن وفداً من خمسين موركسياً حاول أن يقنع السلطان مولاي زيدان[1] بأن الوقت قد حان «لاستعادة إسبانيا» ووعدوه بمساندة مائتي ألف مقاتل إذا همّ بالمحاولة. كان هذا الرقم خيالياً، على فرض أنه ذُكِر، ومع ذلك يبدو أن مستشاري فيليب صدقوه واستشهدوا بتقارير من الجواسيس الإسبان قالت إن السلطان المغربي وافق على هذا الطلب ووعد الموركسيين بأن الأمراء الهولنديين سيقدمون «جسراً من السفن» لتسهيل الغزو.

---

(1) السلطان مولاي زيدان (حكم من حوالي 1603 إلى 1627) ابن أحمد المنصور، شهدت المغرب في عهده حرباً أهلية واسعة، عقد معاهدة صداقة مع البلاد الواطئة، وأوفد إليها محمد الوزير والحجري ويوسف بيسكانو، وثلاثتهم من الموركسيين. بقيت منه مكتبته الكبيرة بمحض الصدفة، فلقد خشي السلطان على كتبه فأمر بوضعها كلها على سفينة، لكن آمر السفينة فر بها إلى إسبانيا، حيث وضعت في الإسكوريال [المترجم].

لكن من الصعب تصديق أنَّ هؤلاء الوزراء صدقوا فعلاً أن مولاي زيدان كان ينوي غزو إسبانيا، دع عنك قدرته على ذلك. لكن كما كانت الحال في الماضي، فإن هذه المخاوف الأمنية أدمجت سيناريوهات افتراضية مع إمكانات واقعية ضخمت التهديد المورسكي في نظر مسؤولي الملك. وقد لخص فحوى هذه المناقشات مسؤول متوتر استشهد بالسخط على الحكم الإسباني في إيطاليا، واحتمال الصعود العثماني في البحر الأبيض المتوسط للتحذير من أن إسبانيا كانت تواجه «أعداء كثيرين وأقوياء، وأنهم قد يتحركون ضد صاحب الجلالة بطريقة لا يمكن مقاومتها، وحينها سيكون كل شيء في خطر».

أثرت هذه المخاوف على المقترحات المتطرفة التي ناقشتها اللجنة لاستئصال التهديد المورسكي، التي تراوحت من الطرد إلى النزوة القديمة التي كانت تتمنى وضعهم جميعاً في سفن ثم خرقها في عرض البحر. وبدا أن اللجنة كانت أميل إلى الطرد دون استبعاد الخيارات الأخرى. لكن فيليب رد على توصيات المجلس بحسم مفاجئ، وأعلن: «إذا أمكن طردهم بضمير مرتاح، أعتقد أنه المسار الأكثر ملاءمة وسهولة وسرعة».

وأوضحت وثيقة غير مؤرخة، ربما كتبها أحد سكرتيري فيليب، استعجال الملك للأمر. كرر الملك فيها تقارير حول تواطؤ المورسكيين مع السلطان المغربي، وأبدى خوفه من «كثرة المورسكيين الذين كان بينهم رجال متلهفون جداً للتخلص من خضوعهم لنا، وشديدو العناد في تمسكهم بدينهم». ونتيجة لذلك «يرى صاحب الجلالة أنه لم يعد هناك وقت نضيعه للبحث عن علاج لهذه الشرور الهائلة. وهو مصمم على التخلص من هؤلاء الناس الأشرار بأفضل السبل وأسرعها، ولن يتوانى عن ذبحهم»[13].

***

كان فيليب في حينها يؤثر الطرد على الذبح، وأمر وزراءه بالبدء في الاستعدادات «بأسرع ما يمكن»، ونشر السفن والجنود في ميورقة للتعجيل بالطرد في ذلك الصيف. لكن على أرض الواقع لم تنفذ هذه الاستعدادات، واستغرق الأمر سبعة أعوام أخرى لوضع هذه الأوامر موضع التنفيذ. كان هذا النمط من التعاطي القائم على مقترحات جذرية لا يليها أي فعل، من خواص مناقشة المسألة المورسكية. وفي هذه الحالة يمكن تفسير التأخر بالصعوبات اللوجستية في وقت كانت إسبانيا فيه لاتزال متورطة في نزاع في شمال أوروبا. وكذلك كان يجب أخذ التأثير الاقتصادي للطرد في الاعتبار، في وقت كانت المالية الملكية فيه مجهدة جداً. كما أن مسألة ما إذا كان يمكن طرد المورسكيين «بضمير مرتاح» لم تكن قد حسمت نهائياً.

***

ومرة أخرى، نجد حكام إسبانيا يذهبون إلى الحافة ثم يرجعون ثانية. ففي يناير 1607، رفضت لجنة أخرى طرد المورسكيين البلنسيين، وأوصت ببذل محاولة جديدة لهدايتهم، مع أن أعضاءها أدركوا أن «رئيس الأساقفة ريبيرا له رأي مختلف، ولا يثق مطلقاً في هداية أي من هؤلاء الناس». وفي أكتوبر، وافقت نسخة مكبرة من اللجنة نفسها على أن «محاولة رفع هذه الأرواح إلى السماء بدلاً من تدميرها أو طردها إلى شمال إفريقيا تجلب مزيداً من المحبة والثناء لربنا»[14].

ورغم ذلك، ففي الثلاثين من يناير 1608، أي بعد ما لا يزيد على ثلاثة أشهر، رفضت جلسة لمجلس الدولة هذه التوصيات واقترحت طرد المورسكيين من بلنسية. حضر ليرما هذه الجلسة، وأعلن فيها تأييده للطرد على أساس أن المورسكيين البلنسيين قد «أعطوا الفرصة ليكونوا نصارى وأهدروها». ووافقه مستشارون آخرون على ذلك. وحتى الدوق

انفنتادو Infantado الذي كان يميل عموماً إلى اتخاذ موقف معتدل من المسألة الموريسكية، وصف الطرد بأنه «فكرة عظيمة وجديرة»، في حين كرر الكونت ألبة دي ليستي Count of Alba de Liste القول القديم المضلِل بأن الموريسكيين كانوا يستحقون الموت، وأن الطرد رحمة لهم.

لا توضح محاضر هذه المناقشات السبب وراء هذا التغيير المفاجئ في المسار، باستثناء الادعاءات المعتادة عن عناد الموريسكيين والتقارير المكررة عن اتصال الموريسكيين بأعداء إسبانيا المسلمين ومزاعم أن الموريسكيين كانوا في طريقهم ليفوقوا النصارى عدداً[15]. ما الذي تغير؟ لا شك في أن الطرد كان ممكناً من الناحية اللوجستية أكثر من أي وقت مضى. فإسبانيا كانت قد حققت السلام مع أغلب أعدائها الشماليين، وكانت مفاوضات الهدنة جارية في منطقة الفلاندر، وكان العثمانيون مشغولين بالثورات في بلاد فارس والأناضول. هل أدرك وزراء فيليب فرصة قصيرة الأمد لإبعاد الموريسكيين نهائياً؟ أم أرادوا بالطرد التخفيف من أثقال إسبانيا لفرض إرادتها على بقية أوروبا؟ لقد ألمح ليرما لاحقاً إلى الإمكانية الأخيرة في اجتماع مجلس الدولة في عام 1617، حين اقترح أن تتبع إسبانيا توقيع اتفاقية السلام مع سافوي بمهاجمة البندقية، مستشهداً بطرد الموريسكيين كسابقة قدمت لإسبانيا «خروجاً كريماً» من منطقة الفلاندر.

ومن غير المعروف ما إذا كان فيليب قد نظر إلى الطرد من هذا المنظور. ومع ذلك، فقد قبل الملك الطرد من حيث المبدأ، ومرة أخرى أراد الاطمئنان من ريبيرا، وكتب إلى رئيس الأساقفة يطلب رأيه حول فرص هداية الموريسكيين دون أن يخبره بالقرار الذي توصلوا إليه. لم يترك البطرك مجالاً للغموض في رده، إذ أخبر الملك أن الأمر يحتاج «السنوات وربما قرون» لهداية الموريسكيين، وأن دفاعات المملكة ضعيفة وأن «الحكمة تقتضي منا درء الخطر»[16].

ربما كان الموريسكيون يشعرون بها ينتظرهم، فشرع بعضهم فعلاً في مغادرة إسبانيا بإرادتهم، عبر عبور جبال البرانس وشق طريقهم إلى شمال إفريقيا عن طريق مارسيليا. ومع ذلك ظل فيليب يتأرجح في موقفه. فدعا في نوفمبر 1608 مجلساً من علماء الدين البلنسيين للانعقاد بتوجيه من ريبيرا لمناقشة المشروعية اللاهوتية للطرد، استمرت مداولاته حتى مارس من العام التالي. وفي أثناء هذه المناقشات تعرض ريبيرا لمعارضة من الراهب الفرانسيسكاني أنطونيو سوبرينو Antonio Sobrino، وهو كاهن بلنسي قضى أعواماً في وعظ الموريسكيين. دفع سوبرينو بأن الموريسكيين كانوا مؤهلين للنصرانية، وأن كثيراً منهم أصبحوا نصارى مخلصين رغم تعرضهم لاستغلال قاس من سادتهم النصارى، الذين كانوا «يعاملونهم معاملة العبيد أو أسوأ». وأصر على أن «طرد نصارى معمَدين يخالف الضمير»، وأوصى سوبرينو بأن تواصل الكنيسة محاولاتها لاستمالة الموريسكيين بطرق أرحم[17].

ورغم اعتراضات ريبيرا القوية على هذه التوصيات، فقد قبلها زملاؤه من علماء الدين. لكن لم تكد هذه المناقشات تختتم، حتى شرع حكام إسبانيا في مسار مختلف جذرياً. ففي الرابع من إبريل 1609، وقبل خمسة أيام فقط من توقيع هدنة مدتها اثنا عشر عاماً في منطقة الفلاندر، أعلن مجلس الدولة بالإجماع أنه يؤيد الطرد، بدءاً بالموريسكيين البلنسيين في الخريف. وهنا أيضاً نجد صعوبة في فهم الأسباب وراء هذا القرار. وعلى الرغم من أن المستشارين نبهوا إلى الهزيمة الأخيرة للمنافس على العرش المغربي المدعوم من إسبانيا وأبدوا قلقهم من أن مولاي زيدان المنتصر قد يهاجم إسبانيا بالتعاون مع العثمانيين و«الأمراء النصارى السيئين»، فلم يكن هناك ما يوحي بقرب هذا الاحتمال. بل على العكس من ذلك، تكشف مداولات المجلس اعترافاً عاماً بأن الطرد كان ممكناً في المقام

الأول لعدم وجود تهديد فوري لإسبانيا[18]. وأياً كانت حسابات ليرما، فإنه ما كان ليقر الطرد لو لم يكن واثقاً من أن كبار النبلاء البلنسيين كانوا مستعدين لدعمه. ومن أجل ضمان رضوخهم، اقترح الدوق أن تؤول إليهم ممتلكات مُقْطَعيهم المورسكيين تعويضاً عن أي خسائر اقتصادية قد يتكبدوها.

أقر الملك هذه المقترحات من حيث المبدأ، لكن بدا مرة أخرى أن فيليب متردد في تنفيذ قراراته. ربما نتج هذا التردد جزئياً عن نقص الإجماع خارج غرف المجالس. ففي يونيو من ذلك العام، سأل السكرتير الملكي أندريس دي برادا Andrés de Prada قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط الإسباني بيدرو الطليطلي Pedro de Toledo عما إذا كان يوافق على الطرد من حيث المبدأ. أبدى بيدرو عدم حماسه في رد طويل، ونبّه على أن «إبعاد أناس كثيرين عن بيوتهم التي ولدوا ونشأوا فيها» عمل ينم عن العقوق «ويحتاج الرجل الميت نفسه لأن يسكر بشدة كي يقدم عليه». ودفع الطليطلي بأن الطرد من شأنه أن «يشوّه سمعة إسبانيا» ويتسبب في نتائج سلبية على النصارى في الأراضي التركية، وأن المسألة المورسكية كانت تحتاج «علاجاً عاماً لكل إسبانيا وليس للأسطول فقط»، وأنَّ من الأفضل معاملة المورسكيين بـ«قوانين جيدة وأوامر تنفذ بطريقة جيدة» بدلاً من طردهم[19](1).

وفي أواخر شهر أغسطس، تلقى فيليب احتجاجاً مباشراً من نبيل

(1) لعل القارئ لاحظ- على طول الكتاب- أن القيادات والشخصيات غير الدينية (العلمانيين كما يسمون في المجتمع المسيحي) كانوا أكثر تسامحاً بكثير من رجال الدين وأبعد منهم عن الحلول الدموية، لا يرجع ذلك بالطبع إلى الدين وتعاليمه، فالديانة المسيحية مسالمة حقاً، وإنما لحالة الهوس الديني، التي جعلت رجال الدين ينسون الدين نفسه، وكذلك رغبة رجال الدين في الصعود السياسي والاجتماعي والقرب من دوائر صنع القرار، وفي الأخير بلوغ القوة بكافة أشكالها [المترجم].

نصراني يدعى دون مانويل بونسي دي ليون Don Manuel Ponce de León حثّ الملك فيه على تجنب الإجراءات ضد الموريسكيين، «التي لا تحترم التقوى النصرانية أو الممارسات الأخلاقية والسياسية الجيدة» مثل: «قطع الأعضاء التناسلية»، الذي أدانه لأنه «يتناقض مع الحماسة الكاثوليكية، و[هو فعل] غير إنساني، وهمجي». وأدان بونسي دي ليون الطرد على أسس دينية وأخلاقية وسياسية، واقترح أن يحذو فيليب حذو العثمانيين مع رعاياهم النصارى بفرض جزية خاصة على الموريسكيين، ليستخدمها في تحديث الدفاعات الساحلية لإسبانيا[20].

* * *

إن رد فيليب على هذه المقترحات غير مسجل، لكن يبدو أن الملك كانت تساوره شكوك في الطريق الذي بدأه. وفي الثالث والعشرين من يونيو فقط، أعطى أوامره أخيراً ببدء الطرد في بلنسية. وعلى مدار الصيف، جُمِعت المكونات الإدارية والعسكرية المطلوبة لتنفيذ الطرد على عجل وفي سرية تامة. ورغم تحفظات بيدرو الطليطلي، فقد عيّن قائداً للنقل البحري للموريسكيين إلى شمال إفريقيا. ووضعت العمليات العسكرية البرية تحت قيادة الجنرال المخضرم أوغسطين ميخيا Agustín Mejía؛ الغلام السابق لدون خوان النمساوي، الذي خدم في كل حروب إسبانيا الرئيسة تقريباً في العقود القليلة الماضية. كان ميخيا يمتلك تحت تصرفه قوات هائلة، منها فيالق محنكة من نابولي وصقلية، والفرسان القشتاليين، والمليشيا البلنسية، ومجموعة شبه عسكرية كانت تعرف بإخوان الصليب أنشئت بتحريض من خايمي بليدا، ارتدى أفرادها سترات بيضاء مزينة بالصليب الذي كان يستخدم شعارا للحملات الصليبية.

وفي أغسطس نقلت السفن أربعة آلاف فارس وجندي مشاة من قواعدهم في إيطاليا إلى ميورقة للقيام بمهمة لم تكشف حتى لضباطهم،

ووزّعت كتائب الفرسان القشتالية على طول الحدود الداخلية مع بلنسية، لمنع المورسكيين من الهرب إلى الداخل الإسباني. وفي هذه الأثناء كان مندوبو الأسطول الإسباني يجوبون موانئ أوروبا بحثاً عن سفن خاصة لتعمل جنباً إلى جنب مع أسطولهم الرسمي. ومع بداية شهر سبتمبر، كانت اثنتين وسبعين سفينة قادس كبيرة وأربع عشرة سفينة نقل قد جمعت في جزر البليار من جنسيات مختلفة، إضافة إلى سفن الأسطول الإسباني.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاستعدادات على قدم وساق، كان الملك ووزراؤه مشغولين بتعيين المسؤولين وكتابة الرسائل والمراسيم وجمع الجهاز الإداري، الذي سيدير عملية الطرد. وفي الرابع من أغسطس، استدعي ميخيا والطليطلي إلى شقوبية، وهناك حضر فيليب قداساً خاصاً طلباً للعون الإلهي في «المهمة المقدسة» التي بدأها. ثم اجتمع بليرما وسكرتيره أندريس دي برادا وقائديه البحري والبري في قلعة القصر التاريخية التي تزوج فيها أبواه، وأخذ يصدر خطابات موقعة تأمر بالطرد. وحفاظاً على السرية، أرسل ميخيا إلى بلنسية تحت ذريعة التفتيش على تحصينات المملكة. وفي العشرين من أغسطس، سلم لريبيرا ونائب الملك في بلنسية لويس كاريو الطليطلي Luis Carrillo de Toledo ومركيز كاراثينا Caracena نسخاً من الخطابات الملكية التي تعلن نوايا فيليب بطرد المورسكيين.

وبعد أعوام طويلة قضاها ريبيرا في الضغط من أجل هذه النتيجة، كانت استجابته الأولية فاترة على غير المتوقع، واحتج فوراً على طرد المورسكيين البلنسيين.قبل مسلمي قشتالة. وربما نتجت هذه الاستجابة جزئياً عن تقديره المتأخر للضرر الذي سيلحقه الطرد بكنيسته، وهي الإمكانية التي كشفتها نبوءته الكئيبة لبليدا بأننا «ربما نضطر في المستقبل

لأن نأكل الخبز والأعشاب ونصلح أحذيتنا بأنفسنا»[1]. لكن قلقه من الموركسيين القشتاليين كان مؤشراً أيضاً على مدى انتقاله من إيمانه السابق بالدمج إلى موقف متعصب وعنيد اعتبر «الأندلسيين» القشتاليين تهديداً أكبر للنقاء الديني لإسبانيا من رعية أبرشياته، لأنهم كانوا أكثر اندماجاً في المجتمع النصراني وأكثر قدرة على تلويثه. وذهب أبعد من ذلك في رسالة إلى سكرتير الملك في الثالث والعشرين من أغسطس زاعماً أن «الموركسيين في هذه المملكة مخفتون بدرجة أقل» من مسلمي قشتالة وأراغون، مقللاً كثيراً من الأخطار، التي ظل يؤكدها هو نفسه مراراً وتكراراً على مر السنين[21].

لم يكن ريبيرا يعرف أن الملك قد قرر فعلاً توسيع نطاق الطرد. وفي ذلك اليوم نفسه، نبّه مجلس الدولة على أن الملك «مصمم على طردهم جميعاً» وأوصى بطرد الموركسيين في أندلوسيا وغرناطة ومرسية بعد ذلك، يليهم مسلمو أراغون. وبناء على توصية من ليرما، وافق المجلس على التكتم على هذه النوايا وإعلان أن الطرد سيطبق على بلنسية فقط للحيلولة دون إمكانية اندلاع مقاومة في أماكن أخرى. ومع أن ريبيرا لم يُحَط علماً بهذه النوايا، فقد حافظ على تكتمه. وكتب في الأسبوع التالي، في الثلاثين من أغسطس، إلى ليرما معبراً عن تأييده قرار الملك بطرد الموركسيين من بلنسية. ومع أنه ظل يلح على أن «ما يجري في بلنسية سيكون عديم الأهمية، إذا لم ينفذ الشيء نفسه في إسبانيا كلها»، ادعى أن الإقطاعيين البلنسيين كانوا مستعدين لتنفيذ أوامر الملك «بامتثال وطاعة كبيرين»، وطمأن ليرما على أن «هذه المملكة ستكون نموذجاً لبقية إسبانيا»[22].

(1) هذه إحدى الآليات الدفينة غير الشعورية وراء التمييز، فالجماعة المهيمنة حين تمارس التمييز ضد جماعة أصغر تدفعها لقبول القيام بأعمال وخدمات ما كانت لتقوم بها لولا تعزيز الشعور بالدونية لديها. وها هو رجل الدين يخشى من الطرد، لا لأنه سيحرم أرواحاً من «الخلاص»، وإنما لأنه سيحرمه ممن يخبزون طعامه ويصنعون أحذيته [المترجم].

وهذا بالضبط ما أراد فيليب وليرما أن يسمعاه، وأُعطِي ريبيرا فوراً مهمة حسم مصير الأطفال الموريسكيين الذين كان موقفهم اللاهوتي لايزال مصدر جدل شديد بين رجال الدين وعلمائه. وفي أوائل سبتمبر، اقترح ريبيرا أن يبقى كل أطفال الموريسكيين المعمَدين تحت عمر العاشرة أو الحادية عشرة «حتى وإن طلبهم آباؤهم»، وأن يربوا كخدم للنصارى[1]. واعترض ميخيا ونائب الملك كاراثينا على هذه المقترحات، متعللين بأن الموريسكيين قد يثوروا إذا أخذ أطفالهم منهم بالقوة، ومشيرين إلى الصعوبات العملية المتضمنة في رعاية كثير من الأطفال، وبخاصة الأطفال الرضع.

أنتجت هذه الاعتبارات المتناقضة الجدل الجاد والملتوي المعتاد. فاقترح أحد رجال الدين أن تبقى الأمهات الموريسكيات إلى أن يفطم أطفالهن، وبعدها يطردن ويؤخذ منهن الأطفال. واقترح آخر أن تخصص مرضعة نصرانية لكل طفلين موريسكيين، وأن يوزع عليهن حليب حيواني حتى فطام الأطفال. وجادل كاهن الاعتراف الملكي لويس دي ألياغا Luis de Aliaga بأن المرضعات لسن أولوية، لأن الأطفال الموريسكيين المعمَدين الذين سيموتون في إسبانيا سيستحقون بذلك دفناً نصرانياً.

وفي حين كان علماء الدين يناقشون أفضل الطرق لإنقاذ أرواح الأطفال الموريسكيين، كان المسؤولون المكلّفون بإبعاد آبائهم وأمهاتهم يكملون استعداداتهم. ورغم التكتم الرسمي، بدأت تحركات السفن والجنود تلفت الانتباه في بلنسية. وفي الخامس من سبتمبر، طلب وفد من النصارى تفسيراً لهذا النشاط من نائب الملك الذي قال لهم إن «كل

(1) الذي يريد الاحتفاظ بالأطفال الموريسكيين ليكونوا خدماً للنصارى هو رئيس الأساقفة ريبيرا الذي طالما تشدق بحرصه على «هداية» الموريسكيين إلى الكاثوليكية، و«اضطر» إلى قبول الطرد لأنهم غير مؤهلين لهذا التحول، وأيضاً رجال الدولة غير الدينين هم الذين اعترضوا على اقتراحه [المترجم].

ما يفعله صاحب الجلالة يكون في مصلحة رعاياه المخلصين». لكن هذه التطمينات لم تهدئ عامة النصارى، الذين بدأوا في جمع النساء والأطفال في العاصمة لتأمينهم.

حاولت طبقة النبلاء البلنسية أيضاً أن تستطلع نوايا كاراثينا، لكنه كان دائماً يعطيهم الرد المراوغ نفسه. وفي السادس عشر من سبتمبر، عقد الاستامنتس ميليتار Estaments Militar وهو المنتدى الذي كان يمثل مصالح طبقة النبلاء في البرلمان البلنسي اجتماعاً صاخباً في العاصمة لمناقشة شائعات الطرد، وفيه كاد يندلع قتال بالسيوف، ومات نبيل نصراني بنوبة قلبية. ولخص الكونت كاستيار Count of Castellar موقف كثير من النبلاء البلنسيين، حين حذّر من أن هذه السياسة ستؤدي إلى «خراب هذه المملكة». لكن في ذلك الوقت لم تعد الحجج الاقتصادية ضد الطرد بوضوحها السابق. ففي حين كانت الأرستقراطية مالكة الأراضي في بلنسية لاتزال تعتمد بدرجة كبيرة على مُقْطَعيهم المورسكيين، كان كثير من البارونات قد أخذوا قروضاً تعرف باسم السينسوس censos من دائنين نصارى مستخدمين الإيجارات، التي كانوا ينتزعونها من مُقْطَعيهم كضمان.

وبحلول أوائل القرن السابع عشر كانت هذه الإيجارات قد تجمدت إلى درجة أن بعض المُقْطِعين كانوا ينفقون في دفع الدين والفائدة أكثر مما كانوا يأخذون من مُقْطَعيهم. ولذلك كان الطرد بالنسبة إلى الملاك كثيري الديون يشكّل مهرباً ممكناً من دائنيهم، إذ كان سيسمح لهم بإعلان إفلاسهم والقطيعة مع الماضي. وكان بعض البارونات في هذا الاجتماع على علم بالتأكيد بوعد التاج بتعويضهم. ولهذه الأسباب لم يتمكنوا من تقديم جبهة متحدة، واتفقوا فقط على إرسال مبعوثين إلى مدريد لإقناع الملك بالعدول عن الطرد. لكنهم لم يكونوا يعلمون أن الوقت قد فات.

ففي اليوم السابق فقط، اجتمع مجلس الدولة بحضور فيليب نفسه على غير العادة ووافق على أن يبدأ الطرد في الأسبوع التالي. وفي الاجتماع نفسه، اتفق أيضاً على طرد الموركسيين القشتاليين، وترك التوقيت والمواعيد للأحداث التي ستتكشف في بلنسية. وفي الثاني والعشرين من سبتمبر، استدعى كاراثينا كبار النبلاء والقضاة والمسؤولين في بلنسية لإطلاعهم على أوامر الملك. ففي الوقت الذي وصل فيه النبيلان البلنسيان إلى مدريد كمبعوثين إلى الملك، كانت إسبانيا قد بدأت فعلاً في تنفيذ الحل الذي ناقشه حكامها لأعوام طويلة.



18

«المحرقة المستساغة»

في صبيحة الرابع والعشرين من سبتمبر 1609، أخذ منادو البلدة في مدينة بلنسية يعلنون مرسوم الطرد بمصاحبة الطبول والقرون والأبواق. اتهم فيليب في المرسوم كل السكان المورسكيين في بلنسية بالهرطقة والردة و«الخيانة العظمى الإلهية والبشرية»، وأعلن نيته طردهم إلى شمال إفريقيا ليضمن «حماية ممالكه وأمنها»[1]. وأُعطي المورسكيون جميعاً ثلاثة أيام للرجوع إلى بيوتهم وانتظار المفوضين الملكيين لاقتيادهم إلى الموانئ المخصصة لترحيلهم. وقد استثني من ذلك المورسكيون الذين عاشوا بين النصارى القدامى لعامين، أو تلقوا العشاء الرباني بموافقة كهنتهم، رغم إصرار ريبيرا على عدم وجود مورسكيين ضمن هاتين الفئتين، وأن يبقى ستة من كل مئة عائلة مورسكية مؤقتاً للحفاظ على الإنتاج الزراعي، وتقديم الخبرة والتعليم للمستوطنين من النصارى القدامى، وأعطي الحق للزوجات المورسكيات لنصارى قدامى في أن يبقين، ولم يعط الحق نفسه للرجال المورسكيين المتزوجين من نصرانيات[2]، في حين سمح للأطفال المورسكيين دون سن الرابعة، الذين «يريدون البقاء» في إسبانيا بأن ينالوا ذلك بموافقة آبائهم، وهي عبارة فاتت سخافتها بالتأكيد على واضعيها.

وزّعت نسخ مطبوعة من المرسوم في أنحاء المملكة كافة، وأعلن في كل ناحية، حتى إنه في خلال بضعة أيام كان كل الناس في بلنسية تقريباً على علم بمحتوياته. وفي حين كان ريبيرا يأمر كهنته بالصلاة من أجل «نهاية جيدة وسريعة لهذا العمل»، كان الجنود الرسميون والمليشيات قد بدأوا في القيام بدوريات في البلدات والمدن الرئيسة لاستعراض القوة، وشرع العمال في نصب المشانق على جوانب الطرق كتحذير للموريسكيين الذي يفكرون في المقاومة. وفي مدينة بلنسية كان الحدادون وصناع السيوف وصناع البارود يصنعون أسلحة وذخيرة نهاراً وليلاً على دوي طبول المليشيا وطلقات الجنود الذين كانوا يتدربون على الرماية.

استقبلت أوامر الملك بتهليل واسع من السكان النصارى. وامتدح النبلاء والكهنة، على حد سواء، فيليب على حصافته وحكمته وورعه، ومنهم أنطونيو سوبرينو الذي عارض الطرد بقوة في ذلك العام[3]. على أن هذا الثناء لم يكن عاماً، وربما كان بعضه رياء. وإلى جانب الابتهاج، ساد الخوف أيضاً من احتمال ثورة الموريسكيين واليأس بين المُقْطِعين النصارى، الذين كانوا أمام خراب اقتصادي محقق. ففي هذه الأيام الأولى لم يكن الملك أو وزراؤه يشعرون بالثقة من أن الطرد سيحدث بسلاسة وأن طبقة النبلاء ستتعاون.

وفي السابع والعشرين من سبتمبر، وفي خضم هذا التوتر وتلك الحيرة، ألقى خوان دي ريبيرا ما يمكن اعتباره أهم عظة في حياته أمام حشد كبير في الكاتدرائية الرئيسة ببلنسية. ففي العام السابع والسبعين من عمره، الذي لم يبق فيه غير أقل من سنتين، أدمج ريبيرا في عظته اقتباسات من الكتاب المقدس بالسياسة وكامل ذخيرة التعصب المعادي للمسلمين، في محاولة متحمسة لحشد رعيته وراء قرار الملك. أثنى ريبيرا على فيليب وليرما و«الأمة البلنسية» الذين هموا بالعمل أخيراً ضد «الأعداء المحليين

الذين يتمنون أن يشربوا دمنا ويستولوا على إسبانيا»، وحذّر رعيته من «الخزي والعار» الذي يلحق بمن يواصل الاتصال بالكفار، وأغدق الثناء على الإقطاعيين البلنسيين الذين كانوا يقاومون دائماً جهوده لهداية المورسكيين في الماضي لدعمهم «البطولي» للطرد على حساب مصالحهم المادية.

كان كثير من هؤلاء البارونات في الحشد القابع أمام ريبيرا في ذلك اليوم، وربما لم يجدوا عزاء في تطميناته بأن «دأب الحواري هو أن يرى نفسه غنياً اليوم وفقيراً غداً». وذهب ريبيرا أبعد من أي من تصريحاته السابقة حول المسألة المورسكية، إذ برهنت عظته الحالمة على أن الطرد كان وسيلة لتوحيد المجتمع النصراني وتجديده، وفي دعائه لبلنسية المريضة والمدنسة بأن تستعيد صحتها الروحية قريباً، وتدخل عصر الوفرة المادية والأمن والانسجام الاجتماعي. وبينما تكشف التصريحات الخاصة لرئيس الأساقفة أنه هو نفسه لم يكن يصدق هذه النتيجة، لكنه مع ذلك وعد رعيته بأن بلنسية «سترى هذه الكنائس بعد أن كانت تمتلئ بالتنانين والوحوش البرية تمتلئ بالملائكة والساروفيم[1]» بعد طرد الأندلسيين[4].

لم يكن مفاجئاً أن يلقى هذا التمثيل للطرد موافقة متحمسة من البلاط الإسباني. فهنأ ليرما ريبيرا على خطبته التي «جاءت لتنويرنا وتنوير عامة الناس»، وطلب مئات النسخ المطبوعة منها للتوزيع العام، حيث كانت بلنسية تهيئ نفسها لواحدة من أهم الحوادث المفصلية في تاريخها.

* * *

غطت استجابات المورسكيين أنفسهم طيفاً واسعاً. ففي مستوطنات المورسكيين الأكثر انعزالاً في الداخل البلنسي، التي كانت الشائعات حول

(1) الساروف أو الساروفيم في المعتقد اليهودي القديم هو أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين لعرش الله [المترجم].

نوايا الملك قد اخترقتها، نزل الطرد على الموركسيين كالصاعقة وأصابهم بالصدمة واليأس. وأعلن بعضهم نيته «العيش كأندلسي» في شمال إفريقيا ويدأوا في ممارسة العبادات الإسلامية علانية للمرة الأولى منذ عقود. ورأى آخرون أن النشاط العسكري في بلنسية كان مقدمة لمذبحة شاملة، ورفضوا مغادرة بيوتهم. وثمة موركسيون آخرون أصروا على أنهم نصارى جيدون وتوسلوا استثناءهم. ووفقاً لمؤرخ البلاط لويس كابريرا القرطبي، فإن بعض الموركسيين رفضوا المغادرة حتى تحت تهديد الموت وفضلوا «الموت كنصارى»[5]. وعرض بعض الموركسيين الأغنياء تقديم ضريبة خاصة لتحصين السواحل إذا سمح لهم بالبقاء، وتعهد آخرون بدفع فديات الأسرى النصارى في شمال إفريقيا. لكن هذه النداءات رفضت في غالبيتها بناء على أوامر الملك.

وأياً كانت مواقف الموركسيين من الطرد، فقد قبلوه وشرعوا سريعاً في الاستعداد لرحلتهم. فعبر البلدات والقرى في بلنسية كلها، بدأ الموركسيون في بيع بيوتهم ومحاصيلهم وسلعهم وجمع ممتلكاتهم للرحلة. فبيعت الماشية والخراف وحيوانات الحمل والطحين والزبيب والعسل والحرير والمجوهرات جميعها في الغالب في أسواق المشترين[1]. ومع أن بعض النصارى ربحوا من هذه الصفقات، فقد اشتكى آخرون من أن الموركسيين كانوا يبيعون «حتى مسامير بيوتهم»، ومن أنهم حرموا من الممتلكات التي كانوا قد وعدوا بها كتعويض. واشتكى بعض النصارى من أن الموركسيين كانوا يغادرون كأنهم منتصرون وليسوا كفاراً مهزومين، ومنهم ريبيرا الذي كتب إلى ليرما «لا يمكن أن أرضى بأن يغادر أعداء الله وصاحب الجلالة البلاد أغنياء، في حين يستحقون أن

(1) سوق المشترين buyer's market سوق يضم عدداً من البائعين أكثر من المشترين، مما يؤدي إلى زيادة العرض على الطلب، وبذا تنخفض الأسعار [المترجم].

تصادر سلعهم، وأن يترك أتباع صاحب الجلالة المخلصون فقراء»[6]. أنتجت هذه الشكاوى محاولات لتقييد بيع وشراء ممتلكات المورسكيين، لكن السلطات كانت حذرة دائماً من إثارة الثورة، ولذلك لم تُفرَض هذه القيود عموماً.

وفي غضون أيام قليلة من نشر أمر الطرد، بدأ المورسكيون الأوائل في الوصول إلى الموانئ المخصصة لهم على السواحل الأقرب إلى مستوطناتهم. كما رُتِّب أن يعود عشرة من المبعدين الأوائل إلى شمال إفريقيا لإعلان الوصول الآمن لذويهم، وقدم بعض المُقْطِعين النصارى ضمانات أكثر بمرافقة مُقْطَعيهم بأنفسهم. ففي الثامن عشر من سبتمبر، أخبر أحد أغنى ملاك الأراضي البلنسيين، وهو دوق غانديا، فيليب بأن فرداً من عائلته سيرافق خمسة آلاف من مُقْطَعيه من دانية إلى شمال إفريقيا. وعلى الرغم من أن غانديا كان يخشى من أن خسارة عماله المورسكيين في حصاد السكر التالي قد ينذر بـ«دمار هذا البيت»، فإنه طمأن فيليب على «أنني راض جداً من دونهم وأدرك المقاصد الجيدة والمقدسة لجلالتك»[7].

كوفئ غانديا بسخاء لاحقاً على ولائه، وهو ما كان يعرفه بلا شك، وأقنع امتثاله التام الآخرين على أن يحذوا حذوه. ففي العاشر من أكتوبر، تلقى فيليب رسالة حزينة من إقطاعي بلنسي يدعى خوان دي بيلاغروت Joan de Vilagrut أعلن فيها استعداده لفقد مُقْطَعيه، لكنه ناشد الملك التعويض حتى يتمكن أطفاله من أن «يعيشوا ويظلوا مكرمين بموجب مكانتهم»[8]. وفي الثاني من أكتوبر، أبحر ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثة مورسكيين من دانية إلى وهران. وبعد ثلاثة أيام، نقل ثمانية آلاف آخرون من أليقنت(1) في أسطول مختلط من السفن الإسبانية والبرتغالية والصقلية والسفن المؤجرة. وأخذ المورسكيون من مختلف سهول بلنسية وجبالها

(1) Alicante في اللغات الأوروبية [المترجم].

يغادرون بيوتهم والارتحال على الطرق الترابية إلى الساحل بمرافقة مفوضين وجنود ملكيين. وتركوا خلفهم مشهداً من الفوضى والخراب، إذ تدافع اللصوص النصارى على قراهم المهجورة ونهبوها وجمعوا الماشية التي لم تبع والحيوانات المنزلية التي دخلت أحياناً بيوت أصحابها السابقين. ركب بعض المورسكيين خيولاً أو بغالاً أو أبقاراً، وبعضهم ركب عربات مليئة بالملابس والطعام والأثاث وأدوات الطبخ. لكن غالبيتهم سافروا مشياً على الأقدام، حاملين حزم ممتلكاتهم على أكتافهم، وأموالهم ومجوهراتهم مخاطة في ملابسهم، لإخفائها عن اللصوص.

ضمت هذه القوافل رجالاً ونساء من كل الأعمار، بعضهم نقلوا على أكتاف أقاربهم أو على كراسٍ ومحفات مصطنعة، مثل المرأة البالغة من العمر مئة وثلاثة أعوام، التي وصلت إلى ميناء بلنسية على باب خشبي، يحملها أربعة من أحفادها. ولدى وصولهم إلى الموانئ المحددة لهم، اقتيد المورسكيون مباشرة إلى السفن المنتظرة في دفعات من مائتي شخص، أو أخذوا في مراكب أصغر إلى سفن كانت راسية بعيداً عن الشاطئ. وفي حال عدم توافر السفن في الحال، كان القادمون الجدد يلزمون بالانتظار في أحواض السفن وعلى الشواطئ. وسرعان ما أصبحت بلنسية ودانية وأليقنت وبيناروث Vinaroz وميناء مانكوفا Mancofa الصغير تغص بالمبعدين والجنود والميشليات، وكان البحارة والمسؤولون والمفوضون الملكيون يشرفون على تحميل السفن، فضلاً عن المتفرجين الذين جاءوا لمشاهدة هذا الترحيل غير المسبوق، وفي بعض الحالات للتربح من ورائهم. ففي أليقنت وصف ساكن نصراني كيف كانت «الشوارع والميادين تعج بالمارة» في أيام الترحيل. وأصبح ميناء بلنسية سوقاً للسلع الرخيصة أو المستعملة، واحتشدت فيه سيدات نصرانيات متأنقات في عربات أنيقة في صحبة رجال يرتدون قبعات مُرَيّشة لمشاهدة الترحيل

وانتهاز الفرص لشراء المجوهرات والأقمشة الحريرية والملابس المطرزة بأرخص الأثمان من الموركسيين.

تكشفت المناظر المحزنة والمأساوية دائماً عند تحميل الموركسيين على السفن المنتظرة. وصل رجل مسن إلى بلنسية معلناً أمنيته في أن يدفن في تراب إسلامي، لكنه وقع ميتاً وهو يصعد إلى السفينة. ومات موركسيون آخرون من الجوع والإعياء قبل أن يغادروا الشاطئ. وانفصل بعض الآباء عن أطفالهم بسبب الفوضى، وترك آخرون أطفالهم مع نصارى محليين. ففي لوحة «رحيل الموركسيين من ميناء بلنسية» للفنان البلنسي بيري أوراميغ Pere Oromig، نجد رجلاً موركسياً جاثياً وهو يودع ابنته الصغيرة التي تقف مع عائلة نصرانية. وحدثت حالات كثيرة من هذا الوداع مع استمرار الترحيل. وحتى بعد صعود الموركسيين للسفن، كان الكهنة والرهبان والنصارى المتحمسون يواصلون مناشدتهم للموركسيين لأن يتركوا أطفالهم حتى ينشأوا كاثوليكيين. وشاركت زوجة كاراثينا دونا إيزابيل دي بلاسكو Doña Isabel de Velasco بنفسها في إقناع كثير من الآباء بترك أطفالهم، أو اختطافهم حتى، من أجل الخلاص الروحي للأطفال. واستسلم بعض الموركسيين لهذا الإلحاح، لأنهم شعروا بأنهم غير قادرين على رعاية أطفالهم، في حين رفض غيرهم بشدة، مثل الموركسية التي ولدت طفلها في الميناء ثم «صعدت بالرضيع على ذراعيها في يوم قاسٍ وعاصف وبارد جداً»، كما جاء في تقرير لمحكمة التفتيش البلنسية، وتجاهلت النصارى الذين توسلوا إليها أن تترك رضيعها معهم[9].

وفي وسط الحزن كان هناك ابتهاج أيضاً. ففي دانية، أمضى الموركسيون الوقت بين رحلات السفن في تنظيم مسابقات مصارعة رومانية، ورقصت الموركسيات على الشاطئ على صوت الأعواد والدفوف، في حين كانت

السيدات النصرانيات يقلدن خطواتهن. وفي أليقنت، وصلت مجموعات موركسية وهي تصفق وتغني أغاني كانت ممنوعة عليهم فيما مضى، ويعزفون الآلات الموسيقية «كما لو كانوا في طريقهم إلى أسعد الأعياد وحفلات الزفاف»، كما ذكر بليدا. وارتدت مورسكيات كثيرات أفضل ملابسهن وحليهن للمناسبة. وبعضهن لبسن القبعات ذات الحواف العريضة والفساتين السوداء التي كانت ترتديها النصرانيات، ولبست أخريات ملحفاتهن البيضاء بفخر، فيما ارتدى رجالهن القبعات أو أحياناً العمائم الحمراء لإعلان نيتهم «العيش كأندلسيين»[1].

وصور النزوح البهيج للمورسكيين موضوع متواتر في كتابات أنصار الطرد، الذين شاهد كثير منهم الصعود إلى المراكب بأنفسهم. فلاحظ بليدا مورسكيين نزلوا إلى البحر، وحمدوا الله ومحمداً على تمكينهم من الانتقال إلى أراضي أسلافهم أو تبجحوا على المتفرجين النصارى «بأنهم ذاهبون إلى حيث أرسلهم الملك، لكنهم سيعودون قريباً ويطردوننا». ورأى بلاس بيردو «يد الله» في أن المورسكيين ذهبوا طائعين إلى أماكن ترحيلهم، ولم يكونوا يحتاجون إلا إلى «صوت البوق» ليذكّرهم بيوم الحساب، في حين وصف داميان فونسيكا الطرد بأنه «عمل إلهي أكثر منه بشري». وبالنسبة إلى أنصار الطرد، كان هذا النزوح الطوعي برهاناً

(1) كانت هذه البهجة وخروج «المتنصرين» من جانب المبعدين مؤلمة جداً للمسؤولين ورجال الدين النصارى الذين تخيلوا أنهم يطردون المورسكيين من «الجنة»، فإذا بالمطرودين يغنون ويرقصون. ومن باب التعويض النفسي، زعم هؤلاء المتعصبون والحاقدون أن المبعدين تعرضوا للقتل والاغتصاب والسبي والبيع كعبيد حين وصلوا إلى شمال إفريقيا من جانب القبائل العربية، وهو أمر لا يُنكَر كلياً، لكن مهندسي الطرد النصارى ضخموه ليرضوا أنفسهم من ناحية، ومن ناحية أخرى لشيطنة سكان شمال إفريقيا «البرابرة الهمجيين المتوحشين الخارجين على القانون» الذين لم يستثنوا حتى أبناء جلدتهم من ممارساتهم البربرية. ومن الوارد أيضاً أن كثيراً من المورسكيين الذين أبدوا فرحتهم بالطرد، قد فعلوا ذلك خصيصاً لتفويت فرصة التشفي على «أعدائهم» النصارى [المترجم].

على نفاق المورسكيين الذي استوجب عقابهم في المقام الأول، لكن هذا الوصف يحتاج إلى ضبط. فلا شك أن كثيراً من المورسكيين احتفلوا بنجاتهم من الظلم النصراني، واعتبروا بقاءهم الديني والثقافي نوعاً من الانتصار. وقد جاء في أغنية موركسية انتشرت في أراغون قبل الطرد وصف شمال إفريقيا بأنه أرض الوفرة «التي يوجد فيها الذهب والفضة الصافية في كل جبل وآخر»، وأعلنت:

لنذهب جميعاً إلى هناك

حيث يكثر المغاربة

حيث يوجد الخير كله

وشبّه أحد شعراء الألخامية في تونس نزوح المورسكيين بنزوح اليهود من مصر، الذي ورد في التوراة، وحمد الله على تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى «مرج من الزهور الخضراء» مكّن إخوته في الدين من الهرب من «فرعون إسبانيا»[10]. لكن في حين احتفل بعض المورسكيين بطردهم، قبله آخرون تضامناً مع جيرانهم أو اشمئزازاً من المجتمع الذي طردهم، مثل مُقْطَعي دوق غانديا، الذين رفضوا بازدراء دعوته لاستغلال نسبة الستة في المئة، الذين كان مسموحاً لهم بالبقاء للعمل في حصاد السكر، وأعلنوا أنهم «يفضلون أن يكونوا مُقْطَعين للأتراك على أن يكونوا عبيداً لإسبانيا». وحتى بين أولئك الذين أظهروا البهجة بطردهم، كان بعضهم بالتأكيد يحاول التظاهر بالشجاعة في أمر اعتبره حتمياً، لكنهم لم ينجحوا جميعاً في ذلك. فقد وصف الشاعر النصراني غاسبار دي أغيلار Gaspar de Aguilar كيف كانت المورسكيات المسّنات يغادرن بيوتهن في غانديا «بالدموع والعويل... ثم يكشرن ويغيرن انفعالات وجوههن»[11]. وهذا الضيق مفهوم، فأياً كانت مشاعر المورسكيين على مغادرة إسبانيا، فإن قليلين منهم فقط كانوا يشعرون بالثقة في قدرتهم على النجاة من رحلة

تحفها الأخطار منذ لحظة مغادرة بيوتهم.

***

تعهدت أوامر الملك بوضوح بألا يُلحق النصارى أي أذى بالموركسيين، لكن هذه الأوامر خُرِقت كثيراً، إذ كانت عصابات اللصوص النصرانية تكمن لقوافل الموركسيين على الطرق، وتجردهم من أموالهم وممتلكاتهم الثمينة. وتعرض بعض الموركسيين للسرقة حتى قبل أن يغادروا بيوتهم. ففي قرية بالومار Palomar بوادي البياضة Albaida Valley ذبح ثلاثة نصارى مزارعاً موركسياً كان يجمع الزبيب من بستانه للرحلة. وحين ألقت زوجته الذاهلة بنفسها فوق جثة زوجها، قتلوها بالهركوبة. وشُنِق اثنان من أفراد العصابة بعد ذلك على جريمتهم، ومع ذلك ظلت حوادث قتل مماثلة تتكشف عبر المملكة. ففي أراضي دوق غانديا، اتهم كاراثينا عصابة من لصوص الماشية النصارى بقيادة أحد رجال الدوق الخاصين «بإلحاق أذى كبير» بالموركسيين في المنطقة. وفي الثالث من أكتوبر، نقل نائب الملك إلى فيليب خبر مقتل أكثر من خمسة عشر موركسياً في الأيام الثلاثة السابقة، وأن «الاضطرابات والسرقات والشرور»، التي ارتكبها النصارى القدامى بحق الموركسيين وصلت إلى درجة أنه «لم يعد طريق واحد آمناً لهم»[12].

حاولت الحكومة أن تمنع هذه الهجمات، وكانت تعاقب مرتكبيها دائماً بشدة، لكن بدا من المستحيل حماية الموركسيين من الغوغاء النصارى الحقودين والمبتهجين بالنصر، الذين اعتبروا الطرد أحياناً تفويضاً مطلقاً للسرقة والنهب. وفي بعض الحالات كان الموركسيون يتعرضون إلى الهجوم من الجنود المرافقين أنفسهم. ففي حادثة، قبض على جندي نصراني لاغتصاب نساء موركسيات في عهدته، فتعلل بأن «الله هو الذي خلقه ذكراً». واعتقلت محكمة التفتيش ضابطاً آخر لاغتصاب أربع نساء

موركسيات وطفلة في عمر الثانية عشرة.

ولما اكتشف المورسكيون عجز السلطات عن منع هذه الهجمات، أخذ بعضهم يتولون الأمر بأيديهم. ففي السادس من أكتوبر، صاح نصراني مذعور في كاتدرائية بلنسية في أثناء القداس: «الأندلسيين! الأندلسيين!» وأعلن أن أربعة آلاف موركسي كانوا يذبحون النصارى خارج المدينة. فأرسلت كتيبة من سلاح الفرسان إلى المنطقة، فوجدت مائتي موركسي فقط يطاردون عصابة نصرانية سرقت أحد جيرانهم وقتلته.

ورغم الفوضى والعنف في الريف، استمرت عملية النقل بالسفن بكفاءة ملحوظة. ففي الرابع والعشرين من أكتوبر، كتب كابريرا القرطبي أن «الشاغل الرئيس الآن هو إرسال واستقبال أخبار آخر المستجدات حول المورسكيين البلنسيين»، وأن عشرين ألف موركسي كانوا قد نقلوا إلى الجيب الإسباني في وهران، وأن عشرة آلاف آخرين كانوا في انتظار السفن[13]. وكانت رحلات الوصول والمغادرة تسجل بعناية في سجلات رسمية، وترسل إلى نائب الملك والحكومة في مدريد، ومن أمثلتها السجل التالي من ميناء بلنسية:

> في الخامس من أكتوبر 1609 أبحرت سفينتان تدعيان سانتا أنا وسان بيسنتي بقيادة رينالدو غرانيير الميورقي الشاطئ من غراو Grau ببلنسية، بهما ستمائة وخمسون موركسياً من منطقة القصر ومئة طفل صغير وثلاثون رضيعاً. وفي اليوم المذكور أبحر القبطان الميورقي أنطونيو خوردي بسفينته سانتا ماريا بونفنتورا بثلاثمائة وأربعين موركسياً وستين طفلاً وثمانية عشر رضيعاً على صدور أمهاتهم[14].

كان من المفترض أن يقدم للمورسكيين لدى وصولهم إلى الساحل

قوت لرحلتهم، لكن السلطات واجهت صعوبات في الحفاظ على تدفق المؤن. وفي الأسبوع الأول من نوفمبر أجبر الطقس السيئ عدداً من السفن على العودة إلى موانئها أو البحث عن ملجأ في أماكن أخرى. وفي الثاني من نوفمبر، اضطر عدد من السفن أبحرت من بيناروث على متنها أربعة آلاف وخمسمائة موركسي إلى اللجوء إلى ميناء لوس الفاكوس Los Alfaques بأراغون، بسبب الطقس الهائج. ومع ذلك ظل الموركسيون يتدفقون على موانئ ترحيلهم، وتمتلئ المراسلات بين مسؤولي الموانئ المحليين والحكومة المركزية في مدريد بالطلبات المستعجلة للبسكويت والحمص والتحذيرات من أن الموركسيين في عهدتهم كانوا عرضة إلى خطر المجاعة. وفي السابع من نوفمبر، ذكر مسؤولون في بلنسية في تقرير لهم أن أسطولاً من السفن الشراعية البرتغالية تأخر في الوصول، وأبدوا قلقهم من العجز عن إطعام الموركسيين الذين كانوا في انتظار الشحن، إذا استمر التأخير. وفي التاسع من ديسمبر، أخبر كاراثينا الملك ووزراءه بأن السلطات لم تعد قادرة على إطعام الموركسيين، الذين كانوا يتوافدون على أليقنت. فمع أن بعض هؤلاء الموركسيين جلبوا طعامهم معهم، كما ذكر نائب الملك، فقد كان آخرون منهم يعتمدون كلياً في قوتهم على إحسان مُقْطِعيهم النصارى، «فعلى الرغم من أن كثيراً منهم أغنياء، فإن الفقراء بينهم كانوا لا يحصون»[15].

كان التاج في ذلك الوقت قد خلف وعده بتحمل تكاليف الطرد، وبدأ في إجبار الموركسيين الأغنياء على دفع ثمن مؤنهم، وتمويل نقلهم، ونقل الفقراء الذين كانوا لا يتحملون نفقات أنفسهم. ورغم هذه الصعوبات، واصلت سفن النقل الإبحار ذهاباً وإياباً بين بلنسية وشمال إفريقيا. على أن كثيراً من الموركسيين الذين ركبوا السفن لم يبلغوا مقصدهم. فقد غرقت بعض السفن في العواصف، وهاجم القراصنة بعضها. وتعرض

الموركسيون أحياناً للسرقة والقتل في عرض البحر من جانب بحارة السفن التي كانت تقلهم. وانتشرت هذه الحوادث بشكل خاص على السفن الخاصة، التي عملت إلى جانب الأسطول الإسباني. فقد كان الطرد في معظمه عملاً متعدد الجنسيات، إذ تضمن سفناً من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال. جاءت بعض السفن بتكليف من السلطات الإسبانية، وجاء غيرها طوعاً مدفوعين بفرصة الأرباح السهلة. وكان الموركسيون الأغنياء يفضلون دائماً السفر على هذه السفن بدلاً من السفن المقدمة من التاج، رغم أجرتها الأعلى، اعتقاداً منهم بأنها أكثر أماناً. لكن هذه التوقعات كانت تخيب دائماً بقسوة، حيث كانت أطقمها تسرق الركاب وترميهم في البحر أو على جزر معزولة وشواطئ إفريقية نائية قبل اختطاف نسائهم وأطفالهم لبيعهم عبيداً. وفي بعض الحالات كان البحارة النصارى يغتصبون النساء وحتى الأطفال ثم يرمونهم في البحر.

في واحدة من الحوادث القليلة التي تتوافر حولها تفاصيل محددة، تآمر ربان قطلوني يدعى خوان ريبيرا **Juan Ribera** مع ربان نابولي لانتظار أحدهما الآخر في منتصف الرحلة، وذبح ركاب السفينتين. وبمجرد أن ابتعدت السفينتان عن البر، قتل ريبيرا وطاقمه الركاب الموركسيين على منصة الربان ورموا جثثهم في البحر. ووعد البحارة الركاب بالطابق السفلي بأنهم لن يقتلوا إذا سلمهم الرجال أموالهم وممتلكاتهم. ثم صعد الركاب الذكور إلى السطح واحداً بعد الآخر، حيث كانوا يسرقون ويقتلون ويرمون في البحر. وحين صعدت نساؤهم إلى السطح واكتشفن ما حدث، أصيبت كثيرات منهن بالهلع، فألقين بأنفسهن في البحر ومعهن أطفالهن. في حين اغتصبت أخريات قبل أن يلقين في البحر.

وحتى الراهب الشرس في معاداة الموركسيين فونسيكا غضب من المعاملة التي تعرض لها الركاب، الذين وصفهم بـ«الهمج السذج» على

أيدي «نصارى سيئين»[16]. كانت الناجية الوحيدة من هذه المجزرة البحرية امرأة موركسية جميلة قرر ريبيرا إعادتها إلى برشلونة كتذكار شخصي له. وعند عودته إلى المدينة، خشي أن تتحدث أسيرته، ولذلك أغرقها في فم نهر لوبريغات Llobregat بضربها بمجداف حتى الموت. وسرعان ما اكتشفت المذبحة، حين حاول الطاقم بيع غنائمه، فشُنِق ريبيرا وقطع جسمه أرباعاً، وقد شاهد فونسيكا بنفسه عملية الإعدام بارتياح.

على أنه من غير الممكن بحال معرفة عدد الحوادث المماثلة التي وقعت، إذ كان البحارة النصارى يجبرون ركابهم الموركسيين دائماً على توقيع أوراق تؤكد وصلوهم آمنين، قبل سرقتهم وقتلهم والعودة إلى إسبانيا لتكرار العملية. لكن هذه الهجمات كانت معروفة للسلطات الإسبانية. ففي يناير 1610، كتب الأب بيرناردو دي مونروي Bernardo de Monroy؛ الكاهن النصراني بالجزائر، إلى كارائينا طالباً من حاكم الجزائر السماح بعودة مجموعة من الموركسيين إلى إسبانيا مؤقتاً لطلب تعويض من البحارة الإنجليز والفرنسيين، الذين سرقوا رفاقهم وقتلوهم. ومن غير المعروف ما إذا كان هذا الطلب قد لُبّي، مع أن الملك ووزراءه كانوا يعاقبون مرتكبي هذه الجرائم حال اكتشفاها.

يجتهد مؤرخو الطرد مثل بليدا وفونسيكا دائماً في نسبة هذه الهجمات إلى السفن الخاصة لا سفن التاج، ويبدو أن ذلك صحيح بوجه عام، رغم عدم صحة زعم بليدا بأن «الملك ووزراءه لم يكونوا مسؤولين مطلقاً» عن اختيارات الموركسيين. فلم يكن سلوك مسؤولي الملك مثالياً دائماً. ففي ميناء قرطاجنة Cartagena تسجل وثيقة رسمية أن أربعة جنود نصارى قبض عليهم «لمهاجمة الموركسيين في الليل وإصابتهم وسرقتهم»، وليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأن هذه الحادثة كانت فريدة من نوعها.

على أن مصير الموركسيين الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا لم يكن دائماً

أقل سواداً. فقد كان معظم المورسكيين البلنسيين يشحنون إلى قلعة الحامية الإسبانية في وهران بالقرب من الجزائر، حيث كانوا ينامون في خيام أو في العراء قبل أن يشقوا طريقهم إلى الأراضي الإسلامية. وفي الأسابيع الأولى من الطرد تمكن القائد الإسباني في وهران الكونت أغيلار من نقل هؤلاء المبعدين وإطعامهم، وتفاوض حتى مع الحكام المسلمين المحليين لضمان حمايتهم. لكن سرعان ما غصت الحامية الإسبانية بأعداد القادمين وبدأت في اقتياد المورسكيين عبر الحدود البرية دون التأكد من توافر المؤن أو الحماية لهم.

وفي طريقهم إلى البلاد التي كانوا يقصدونها، كان المورسكيون مضطرين دائماً إلى العبور بمناطق قبلية خارجة على القانون، قطنها بدو أمازيغيون وعرب أخفق الحكام المسلمون على الساحل في إخضاعهم. واكتملت المأساة حين وجد المورسكيون الذين طردوا من إسبانيا لأنهم «نصارى سيئون» أنفسهم مرفوضين من هذه القبائل المسلمة، لأنهم «مسلمون سيئون» يشبهون النصارى في زيهم وكلامهم. فكان هؤلاء المنفيون العزّل، حين يُلقَون على غير هدى في الطرق الخارجة على القانون بين تلمسان وفاس في المغرب دون مرافقين أو حماية، يتعرضون دائماً للسرقة والقتل والاغتصاب. ووفقاً للمقري التلمساني، الذي عاصر الطرد، فإن كثيراً من المورسكيين «هوجموا على الطرق من جانب العرب، وممن لا يخافون الله»، لدرجة أن «قليلين جداً منهم وصلوا إلى البلاد التي كانوا يقصدونها»[17]. على أنه من غير الممكن تقييم هذه الادعاءات، لكن بعض المؤرخين الإسبان المعاصرين قدروا أن ثلاثة أرباع المورسكيين البلنسيين الذين وصلوا شمال إفريقيا ماتوا من الجوع أو المرض أو العنف.

ومع أن السلطات الإسبانية تلقت تحذيرات من مسؤوليها في وهران من وقوع هذه الهجمات، فإن أولويتها الأولى تمثلت دائماً في إبعاد السكان

الموريسكيين عن بلنسية بأسرع ما يمكن، إذ لم تكن تكترث بمصيرهم اللاحق، إلا إذا كان ناتجاً عن عملية الطرد. ولذلك لم يفعلوا شيئاً لإبطاء عملية الطرد أو ضمان الحماية لمن عبروا الحدود. ووجد بعض المؤرخين النصارى سخرية مُرْضِية في معاناة الموريسكيين، الذين نبذوا «الجنة الدنيوية» في إسبانيا رغبة في «الصحارى القاحلة» في شمال إفريقيا على أيدي العرب المسلمين، وهو الاسم الذي كان يطلق على رجال القبائل. وابتهج بليدا كثيراً من أن «المسلمين الإسبان» قتلهم «جلادون قساة من ملتهم» معلناً أنهم «لو ماتوا جميعاً لكان ذلك أفضل لإسبانيا». ولم يقل عنه بهجة زميله الدومينيكاني بلاس بيردو الذي هزأ من «هذا الكرم والحب الذي يعامل به بعض أتباع هذا الدين بعضهم، فتلك هي محبتهم. لماذا لم يحفظهم محمد في الصحارى الإفريقية؟ ولماذا لم يخرج لهم الماء من الصخر؟ أين المَنّ؟[1] لعلكم تعرفون الآن جيداً الفرق بين القلوب النصرانية الإسبانية والإسلامية المغاربية»[18][2].

(1) يُعرّض الاستشهاد بالآية القرآنية: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المَنّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (البقرة، 57)، والمَنّ هو مادة غير معروفة، قال بعض المفسرين أنها الترنجبين أو الطرنجبين، وقال بعضهم إنها صمغة حلوة، وقال بعضهم عسل أو شراب حلو أو خبز الرقاق، وقال آخرون بأنها كل ما مَنّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع [المترجم].

(2) لا شك في أن جرائم من النوع المذكور ارتكبت بحق الموريسكيين من جانب القبائل العربية والأمازيغية في شمال إفريقيا، لكنها بالتأكيد لم تكن بهذا الحجم قط. فحكام شمال إفريقيا الذين جدوا في إعادة الموريسكيين قبل عقود من الطرد، ومنهم عروج بربروس الذي قيل إنه أعاد سبعين ألف موريسكي، وسلاطين المغرب الذين اتخذوا الموريسكيين وزراء وسفراء وقادة عسكريين وجنودهم ومنحوهم الأراضي من قبل الطرد بعقود، من غير المرجح أن يتركوهم نهباً للقبائل الخارجة على القانون. ربما وقعت هذه الأحداث في بداية الطرد، نتيجة للمظهر النصراني للموريسكيين في أعين القبائل، ونتيجة لعدم استعداد حكام شمال إفريقيا. لكن في مقابل هذه المعاملة من المسلمين لبعضهم، وهي شيء غير متحضر وغير إنساني بالتأكيد، كان الإسبان أنفسهم من أبشع المستعمرين في التاريخ، سواء في البلاد الواطئة ومنطقة الفلاندر، التي عاملوا فيها البروتستانت «المسيحيين» بـ«الدم والنار» بتعبيرهم، فقمعوا ثوراتهم =

على أن المورسكيين لم يتلقوا جميعاً هذا الاستقبال القاسي. فقد حدث الطرد دون إعلان مسبق، وذلك لأسباب واضحة، وكان التدفق المفاجئ لعشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال مباغتاً حتى لأفضل الحكام المسلمين حسنَ نيّة. ومع انكشاف ما حدث، بدأ المورسكيون البلنسيون يتلقون معاملة أفضل. فحصل بعضهم على ضمان العبور الآمن من الحكام المحليين، وتوافر لهم مرافقون عبر المناطق القبلية. وحصل آخرون على الطعام والملجأ من الأهالي، الذين اعترفوا بأنهم إخوة مسلمون، وتعاطفوا مع مأزقهم. وبحلول منتصف أكتوبر كانت الشائعات حول المعاملة التي لقيها المورسكيون في أثناء نقلهم وبعده قد بدأت في اختراق بلنسية. ففي الثامن والعشرين من أكتوبر، كتب مجموعة من المورسكيين إلى حاكم شاطبة يلتمسون العفو منه لأننا «نعرف يقيناً أن كثيراً من الناس ماتوا في البحر، ولدينا رسائل مؤكدة حول ذلك... ونحن إذا كنا خائفين، فإن ذلك لأننا معمَدون، وإذا أصبحنا بين هؤلاء الهمج، وعرفوا أننا نصارى سيقتلوننا بمجرد وصولنا»[19]. ورفض كثير من المورسكيين الآخرين مغادرة بيوتهم. واستعد غيرهم لخوض آخر المعارك المستميتة في تاريخ إسبانيا الإسلامية.

* * *

ورغم المخاوف المتواترة من اندلاع ثورة مورسكية، فإن العلامات الأولى للمقاومة المسلحة لم تبدأ في الظهور إلا في النصف الثاني من أكتوبر، حين بدأت فرق من المورسكيين حول بلدة خالون القريبة من دانية في قتل

= بدموية ووحشية غير مسبوقة، أو في الأمريكتين باستعباد الشعوب الأصلية وإبادتها على نحو ما فعل كورتيس ورفاقه من المستعمرين، الذين تفتقت عبقريتهم عن استخدام غير مسبوق للمحتلين حين اتخذوهم مطايا ركبوها عبر جبال الإنديز، حيث كان المستعمر يركب على ظهر الهندي ويسوقه عبر الجبال كما يركب الحيوان، أو حتى ما يسجله هذا الكتاب من جرائم وحشية وإبادة وتنصير قسري وترحيل داخلي، ثم إبعاد كامل للمورسكيين [المترجم].

النصارى والموريسكيين، الذين رفضوا الانضمام إليهم. وبحلول أوائل شهر نوفمبر كانت هذه الهجمات قد بدأت تلتئم في عصيان قوي، حين لجأ نحو عشرين ألف موريسكي بعائلاتهم وحيواناتهم وممتلكاتهم إلى الجبال القاحلة الوعرة في وادي لاغوار Laguar Valley إلى الجنوب من بلنسية. وفي الشمال اندلع العنف في وادي أيورا Ayora Valley القريب من مدينة بلنسية، حيث قتل الموريسكيون في ضِياع المركيز دوس أغواس Marquis of Dos Aguas مفوضاً ملكياً وخمسة جنود كانوا قد أرسلوا لمرافقتهم إلى الساحل. وفي المنطقة المحيطة، بدأ الموريسكيون في مهاجمة القلاع والكنائس ومنازل الإقطاعيين وحرقها وقتلوا المدافعين عنها، واستولوا على أسلحة، وجمعوا مجندين جدداً. وفي العشرين من أكتوبر، أخبر نصراني محلي نائب الملك بأن آلاف الموريسكيين كانوا يتدفقون نحو مولا دي كورتيس Muela de Cortes أعلى نهر خوكار Júcar River «بكثير من البنادق والهاركوبات»، تصحبهم عائلاتهم وماشيتهم.

كانت الهضبة المنبسطة التي يسميها البلنسيون مولا كورتيس أو كتلة كورتيس بمنحدراتها الشاهقة المطلة على بلدة كورتيس دي بالاس توفر مأوى طبيعياً هائلاً، وسرعان ما نما معسكر الثوار، حيث توافد الموريسكيون من أنحاء بلنسية كافة على هذه المنطقة. وكما في المرات السابقة، هرب الموريسكيون من مضطهديهم النصارى إلى معاقل جبال إسبانيا، لكنهم في هذه المرة لم يكونوا يحاربون من أجل الاستقلال الديني أو الثقافي، بل من أجل الحق في البقاء في البلاد. ورغم التحذيرات على مدى الأعوام من مخابئ الأسلحة والجيوش السرية الموريسكية، لم تكشف الأدلة عن تخطيط أو استعدادات خلف هاتين الانتفاضتين. وعلى الرغم من أن بعض الموريسكيين كانوا يمتلكون أسلحة نارية، فإن أسلحتهم تكوّنت

في الأساس من الثّقافات وحراب منزلية الصنع ومطارد[1] مصنوعة من شفرات المحاريث ومناجل حصاد وأحجار وصخور وضعوها على قمم الجبال لإزاحتها على المهاجين. وفي وادي لاغوار انتخب الثوار «ملكاً» لقيادتهم، وفي مولا دي كورتيس اختار المورسكيون قائداً يدعى بيستني توريثي Vicente Turixi، الذي قبل المنصب ببعض التردد، وطمأن «رعاياه» أنهم محميون من النصارى بعمل سحري.

لكن لا السحر أو الترسانة المورسكية البدائية كانت فرصتها قوية أمام فيالق ميخيا، التي عركتها الحروب، مع أن سلوكها غير المنظم كان مصدر قلق لعامة النصارى. فقد أطلق الجنود النصارى العنان لغرائزهم اللصوصية في المورسكيين المستسلمين، حين أمرهم ميخيا ببدء العمل أول نوفمبر. وبغرض إتمام الطرد، عرض الجنرال المخضرم على الثوار العبور الآمن في البداية إذا وافقوا على مغادرة إسبانيا. وحين رفضوا هذا العرض بأنفة، بدأت الفيالق والمليشيات في ملاحقة الثوار في الجبال.

وفي العشرين من نوفمبر، قاد ميخيا وقائد فيلق نابولي سانشو دي لونا Sancho de Luna رتلين منفصلين من اتجاهين مختلفين في زحف ليلي نحو مواقع المورسكيين فوق وادي لاغوار. صعد الجنود ورجال المليشيات مثقلين بأسلحتهم ودروعهم في صمت خلال التضاريس الوعرة بصنادلهم ذات الحبل الواحد، فوجدوا تمثال مريم العذراء وقد حطمه الثوار وشوهوه. توعد ميخيا بفرض عقاب قاسٍ على هذا التدنيس للمقدسات، وقد أوفى بوعده. فعند فجر اليوم التالي تدفقت قواته على موقع الثوار سيئ الدفاعات في قلعة بوب Pop الخربة، وحصروا أعداداً كبيرة من المورسكيين في سهل معزول. ونفذ الجنود ورجال المليشيات مذبحة شنيعة. ووصف أنطونيو دي كورال روخاس Antonio de Corral

(1) المِطْرد سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب [المترجم].

Rojas الجندي الذي شارك في الحملة كيف غطت «دماء الأبرياء والنساء والأطفال» أسلحة الجنود[20]. قاتل بعض المورسكيين لأقصى إمكاناتهم، في حين قتل كثير منهم، وهم جاثون على ركبهم يطلبون الرحمة، لكنهم- وفقاً لفونسيكا- «لا يستحقونها؛ أولئك الذين أساؤوا استخدامها كثيراً».

وفي نهاية اليوم، كان زهاء ثلاثة آلاف مورسكي قد قتلوا في مقابل إصابة عرضية واحدة فقط لجندي نصراني، واندفع الجنود في تجريد الجثث من الملابس والمجوهرات. وتراجع آلاف المورسكيين إلى أعالي الجبال، وهناك آثر ميخيا أن يقتلهم بالجوع والعطش بدلاً من تنفيذ هجوم مباشر. وفي الثامن والعشرين من نوفمبر، استسلم الباقون على قيد الحياة بسبب الجوع والعطش. وهنا تذكر كارول روخاس «منظراً جميلاً وسائغاً من بعيد، لكنه يثير العجب والارتباك لدى تفحصه عن قرب، حيث رأى جثثاً كثيرة قتلها الجوع والعطش بين تلك الصخور، معظمهم أطفال، والأحياء منهم ذابلون وفاقدو القوة وقاطعو النفس تقريباً ومتسخون ويملؤهم القمل»[21]. اقتيد ثلاثة عشر ألف مورسكي إلى أسفل هذه الجبال، وكان بعضهم مصابين بالجفاف لدرجة أنهم ألقوا بأنفسهم في أول جدول قابلهم وعبّوا من الماء حتى مرضوا أو ماتوا.

وهوجم آخرون من جانب نصارى حاقدين، أو قتلهم مرافقوهم لأنهم لا يستطيعون المشي، أو اختطفوا وبيعوا عبيداً. وجرد بعض المورسكيين من كل ممتلكاتهم لدرجة أنهم وصلوا عراة إلى موانئ ترحيلهم، وفيها ماتوا جوعاً وهم ينتظرون السفن لنقلهم، أو باعوا أطفالهم للجنود النصارى والبحارة الأجانب في مقابل كسرة خبز، وهو ما اعتبره كورال روخاس «عقاباً عادلاً من السماء بحرمانهم من أغلى ما يحبون، لكنه رحيم بالنظر إلى تدنيس المقدسات والأعمال الوحشية التي اقترفوها»[22].

في هذه الأثناء كانت العمليات العسكرية تجري في مولا دي كورتيس

بقيادة خوان القرطبي Juan de Córdoba؛ قائد فيلق لومباردي. لكن الموركسيين هنا قبلوا دعوة الاستسلام، بيد أن المفاوضات هوت سريعاً [وتحولت] إلى فوضى عنيفة، حين رفض الجنود النصارى حرمانهم من الغنائم. وفي لوحة بيسنت ميستر Vicent Mestre السردية بعنوان «ثورة الموريسكيين في مولا كورتيس» تظهر فرق الفيلق والفرسان القشتاليون برماحهم وحرابهم وراياتهم في تشكيل المعركة الكامل خارج كورتيس دي بالاس، وهم يزحفون على مولا في نظام. لكن في الواقع، كان الانضباط العسكري غائباً، إذ اندفع الجنود النصارى في فورة من الاغتصاب والنهب واصطياد العبيد.

أسر الجنود مئات النساء والأطفال، في حين قفزت أخريات من الجبال العالية بأطفالهن لتفادي هذا المصير قبل أن يسيطر القادة النصارى على الموقف، ويقتادوا الباقين إلى الساحل. وفي الخامس من ديسمبر، كتب كاراثينا إلى الملك يخبره بأن الثلاثة آلاف مورسكي الذين وصلوا من مولا إلى ميناء بلنسية كانوا في حالة مجاعة، في حين أخبر خوان القرطبي ميخيا في وقت لاحق من ذلك الشهر بأن مئة وستين رجلاً وامرأة موركسية قد أخذوا إلى شاطبة «معظمهم في حالة شديدة من الضعف والجوع، لدرجة أنني لا أعرف كيف سيصلون إلى هناك»[23].

على أن الثوار لم يؤسروا جميعاً. إذ فر مئات منهم إلى الجبال القاحلة بين مولا دي كورتيس وقشتالة، وواصلوا تنفيذ هجمات متقطعة على النصارى. لكن رغم هذه الحوادث الدموية تلاشى تماماً تهديد الثورة الموركسية الشاملة. وفي العاصمة البلنسية، احتفلوا بالاستسلام في مولا دي كورتيس بمهرجانات ومواكب وأنوار ليلية ساطعة أضاءت سماء المدينة. وقاد ريبيرا بنفسه موكباً مهيباً لتقديم الشكر إلى «عذراء

النصر»[1]، وأمر بتوزيع النبيذ الأحمر والأبيض مجاناً من الحوض القائم أمام معهد كوربس كريستي Corpus Christi [جسد المسيح]. وفي يناير، أسر الجنود النصارى بيسنتي توريشي في كهف، وهبطوا به إلى بلنسية ووضعوه على حمار وقدموه إلى ريبيرا. وحكم على آخر ملوك إسبانيا المورسكية بالشنق وتمزيق جثته، وهي المحنة التي تحملها «بصبر عظيم»، وفقاً لكابريرا القرطبي، بعد أن اعترف بذنوبه وأعلن رغبته في الموت على النصرانية.

شكّلت هذه الأحداث جميعها جزءاً مما أسماه فونسيكا «المحرقة المستساغة» لبلنسية المورسكية. وفي وسط هذه المأساة الإنسانية الهائلة، كان الملك الذي حيّاه لوبي دي بيغا بلقب «جوبيتر فيليب»[2] يواصل التمتع بنشاطاته المعتادة. ففي الحادي والعشرين من نوفمبر، وفي الوقت الذي كان المورسكيون فيه يُذبحون في جبال لاغوار، سجل كابريرا القرطبي مهرجاناً رائعاً للبلاط في مدريد، استمتع فيه الملك والملكة بالرقص ومصارعة الثيران وحفلة تنكرية على ظهور الخيل. وفي العشرين من ديسمبر، ذهب الملك والملكة للصيد وجرح خنزير بري حصان الملك في حملة ناجحة أخرى قَتل جلالته فيها عدداً من الأرانب والثعالب والأيائل.

ورغم الشكوك الأولية لدى خوان دي ريبيرا بخصوص الطرد، ظل رئيس الأساقفة يعبّر عن دعمه القوي له طوال حياته. فقد ذكر لفيليب في رسالة في فبراير 1610 أنه «في كل يوم يعطينا الله معجزات جديدة في

(1) عيد عذراء النصر la virgen de la Victoria موكب ديني يحتفلون به في إسبانيا في الثامن من سبتمبر كل عام، يحيي ذكرى انتصار فيرديناند وإيزابيلا على الأندلسيين، وثمة عيد آخر يحتفل به في دول مسيحية كثيرة أدخله البابا بيوس الخامس في عام 1572 إحياء لذكرى انتصار الأسطول المسيحي على العثمانيين في ليبانتو في السابع من أكتوبر 1571 [المترجم].

(2) جوبيتر هو كبير الآلهة عند الرومان [المترجم].

هذا العمل»، وشبّه الطرد عاداً إياه «عملاً إعجازياً» بالأعمال «الأخرى التي نقرأها في الكتاب المقدس»[24]. وفي السادس من يناير 1611، مات القديس المستقبلي[1] بسلام في معهد جسد المسيح، الذي اعتبره ميراثه الأبقى. وثمة أقوال على أن ريبيرا كان في فراش الموت أكثر تناقضاً حول الطرد منه في رسائله الاحتفالية إلى الملك. فقد ذكر بعض كتاب سيرته، أنه شعر بالذنب من التأثير الاقتصادي للطرد على السكان النصارى، وظل ضميره يؤنبه لأن كثيراً من النصارى اعتبروه المسؤول شخصياً عنه. لكن لا توجد أدلة على أنه شعر بالندم على المئة وأربعة وعشرين ألف رجل وامرأة وطفل، الذين اجتثوا من بيوتهم، وطردوا إلى الجانب الآخر من البحر، أو عشرات الآلاف من المورسكيين الذين كانوا يبعدون حينها من بقية إسبانيا.

(1) طوّب ريبيرا قديساً بعد موته في عام 1796 وطوبه البابا جون الثالث والعشرين في عام 1960 [المترجم].



19

التكتم والخداع

وقبل أن تنطفئ نيران الثورة في بلنسية، كان فيليب ومستشاروه قد بدأوا الاستعدادات لتوسيع نطاق الطرد إلى بقية إسبانيا. كان الملك ينوي دائماً طرداً «شاملاً» بناء على ما تتكشف عنه الأحداث في بلنسية. وكان الطرد المرحلي من وجهة نظر مصمميه يمكّن من تركيز موارد الدولة في مناطق محددة، واستبعاد إمكانية المقاومة المنظمة التي توحّد المورسكيين في المناطق المختلفة. وكان إجراء الطرد على مراحل ضرورياً أيضاً لتفادي إمكانية الفوضى الإدارية، التي كان يمكن أن تقوّض المشروع كله. وكان المسؤولون يعتبرون السكان المورسكيين في بلنسية المصدر الأكثر ترجيحاً للثورة بسبب عددهم، لكن وقوع أغلب تجمعاتهم على بعد مسيرة بضعة أيام من الساحل سهّل نسبياً اقتيادهم إلى الموانئ المخصصة لهم بمجرد بدء عملية الطرد. لكن في مناطق إسبانيا الأخرى، كان المورسكيون مبعثرين دائماً بأعداد أصغر على بعد مئات الأميال داخل البلاد، ولذلك كان تنظيم نقلهم وتنسيق مرافقيهم ومؤنهم الغذائية وإعاشتهم في أثناء الترحيل أعقد.

كما أن هؤلاء المورسكيين كانت تربطهم دائماً علاقة بالمجتمع النصراني مختلفة كثيراً عن علاقة نظرائهم البلنسيين به. ففي بلنسية، كان

معظم المورسكيين يعيشون منعزلين عن السكان النصارى القدامى، ويمكن التعرف إليهم وجمعهم بسهولة. أما في قشتالة ولامانشا ومرسية وأندلوسيا فكان كثير من «المورسكيين القدامى» يعيشون جنباً إلى جنب مع النصارى القدامى، ويتعذر التعرف إليهم عبر لغتهم أو عاداتهم أو ممارساتهم الدينية. ولم يكن هؤلاء «المُوَلّدون القدامى» يعتبرون أنفسهم نصارى فحسب، وإنما كانت السلطات الدينية والعلمانية النصرانية المحلية عموماً تعتبرهم كذلك. وفي السادس عشر من أكتوبر 1609، كتب مجلس مدينة مرسية إلى فيليب معبراً عن قلقه من الشائعات حول مدّ الطرد إلى منطقتهم. عند هذه النقطة، لم يكن إعلانٌ من هذا النوع قد صدر، وناشد أعضاء المجلس الملك ألا يطرد المورسكيين المقيمين في المدينة وحولها، لأنهم «صدقوا في الدين النصراني، لدرجة أنه لا توجد فيهم أي علامة أو أثر لأي شيء يمكن أن يثير الشك أو الارتياب. فغالبيتهم ولدوا ونشأوا في هذه المدينة، ولا يجوز اعتبارهم أحفاد النصارى الجدد... ونحن نعتبرهم أتباعاً مخلصين، وموالين للتاج الملكي، وسيكون من المذهل بالنسبة إلينا أن يقال فيهم عكس ذلك»[1].

وأكد أعضاء المجلس أن مناشدتهم لم تكن تستند إلى أي منافع اقتصادية كان المورسكيون يسهمون بها في مجتمعهم، وإنما إلى «العلاقة المتبادلة المنسجمة، التي أرسيناها عبر تواصلنا المستمر». كانت هذه المطالبات رائعة من مجلس بلدي نصراني[2]، وقد تلقت الحكومة التماسات مماثلة كثيرة من أجزاء أخرى من إسبانيا في شتاء 1609–1610. وقد جعلت هذه العوامل كلها توسيع عملية الطرد أعقد منها في بلنسية من عدة نواح، وأجبرت الحكومة على إخفاء نواياها وراء واجهة من التكتم والخداع، لتضليل النصارى القدامى والمورسكيين على حد سواء.

***

عيّن فيليب، في نوفمبر، خوان دي مندوسه Juan de Mendoza؛ مركيز سان جيرمان، لتولي القيادة العامة للمرحلة التالية من عملية الطرد في غرناطة ومرسية وأندلوسيا. وساعد سان جيرمان في مرسية قائد الأسطول الأطلسي الإسباني لويس فاخاردو Luis Fajardo، الذي كان مسؤولاً عن طرد المورسكيين البلنسيين من قرطاجنة، والقائد العام لأندلوسيا دوق مدينة شذونة[1]؛ الأدميرال السابق «للأسطول الذي لا يقهر» ضد إنجلترا[2]. كان دوق مدينة شذونة مسؤولاً مخضرماً ملماً بمشكلات الدفاع عن ساحل أندلوسيا، ولم يكن متحمساً للطرد الذي رأى أنه يزيد صفوف أعداء إسبانيا في شمال إفريقيا، لكنه مع ذلك امتثل لأوامر الملك.

وبتوجيه من ليرما، اتُفِق على تقديم هذه المرحلة من الطرد باعتبارها إجراء أمنياً يطبق فقط على المورسكيين الذين عاشوا داخل عشرين فرسخاً من البحر، حتى يصدق المورسكيون في مناطق إسبانيا الأخرى أن ذلك لم يكن يسري عليهم. غير أن هذه المناورة لم تنجح كلياً. ففي نوفمبر، أرسل البرلمان الأراغوني ممثلين بارزين إلى مدريد للتحقق مما إذا كان فيليب ينوي طرد المورسكيين من أراغون. وقيل لهذين الممثلين إنه لم يُتخذ قرار بهذا الشأن بعد. وفي الشهر التالي، كتب نائب الملك في أراغون إلى فيليب، ليطلعه على أن كثيراً من المورسكيين قلقون من «أن يفعل بهم

---

(1) Medina Sidonia في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) الأرمادا أو الأسطول الذي لا يقهر: هو الأسطول الإسباني الذي أرسل في عام 1588 بقيادة دوق مدينة شذونة للإطاحة بإليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ووضع حد لتدخل إنجلترا في الأراضي الواطئة الخاضعة لإسبانيا وأعمال القرصنة في المحيطين الأطلنطي والهادي، وحين رسا الأسطول بالقرب من الشاطئ، فتحت عليه السفن الحربية الإنجليزية النار، فشتتت سفنه في البحر وطاردتها، واكتملت مأساة الأسطول الإسباني بالعواصف التي أغرقت كثيراً من سفنه التي لم يعد منها إلى إسبانيا غير ثمانين سفينة من أصل المئة والثلاثين، التي أبحرت إلى إنجلترا [المترجم].

ما فعل في مملكة بلنسية» وطلبوا عهداً عاماً بعكس ذلك، وهو عهد يبدو أنه قد أعطي لهم. وطبقت إستراتيجية الخداع نفسها في قشتالة. ففي الثامن عشر من أكتوبر، درس مجلس الدولة فعلاً قراراً بطرد الموركسيين القشتاليين. وحين طلب وفد من موركسيي آبلة من فيليب أن يعيد تأكيد الترتيب الخاص الذي منحه أبوه لهم، الذي سمح لهم بالانضمام إلى المليشيا المحلية، في محاولة واضحة لمعرفة نوايا الملك، ماطل فيليب، ولم يمنحهم ما طلبوا، ولم ينكره.

وفي العاشر من يناير من العام التالي فقط، أعلن سان جيرمان رسمياً المرسوم الملكي الذي يأمر الموركسيين في مرسية وأندلوسيا وغرناطة بمغادرة البلاد، وكذلك الجيب الموركسي الجهادي في هورناتشوس بإشتريمادورا. وإضافة إلى الاتهامات المعتادة بالردة والعصيان، ذكر فيليب في المرسوم الأعمال الوحشية التي ارتكبها الموركسيون في أثناء ثورة البشرات 1568–1570 كمبرر لطردهم. اتهم فيليب الموركسيين الغرناطيين وأحفادهم بأنهم رفضوا فرصة «العيش كنصارى صادقين»، وتآمروا مع أعداء إسبانيا، واستشهد فيليب على ذلك بأنه «على مدى سنوات كثيرة لم يتقدم واحد منهم لكشف أي شيء عن مكائدهم ومؤامراتهم»، وذلك «دليل واضح على أنهم كانوا على قلب رجل واحد في العداء لله وللملك». وكي نضمن «ألا تنتقل عدواهم إلى الآخرين»، أعطي الموركسيون ثلاثين يوماً لتسوية شؤونهم ومغادرة البلاد.

ورغم هذه التهم الخادعة، توقع فيليب بوضوح معارضة نصرانية، ولذلك أمر «بألا يتجاسر أحد في كل ممالكي مهما علت مكانته على استقبال موركسيين أو موركسيات أو حمايتهم سراً أو علناً»[3]. لكن سرعان ما أهمل هذا الأمر، فلقد تدفق على مجلس الدولة سيل من مناشدات الاستثناء من الموركسيين والنصارى على حد سواء. فطلب

دوق مدينة شذونة استثناء ستة موروسكيين من البستانيين ومربي النحل في ضِياعه على أساس ولائهم وتدينهم النصراني النموذجيين. وفي الثالث عشر من فبراير، بحث مجلس الدولة طلباً مماثلاً من أرستقراطي آخر من أندلوسيا، هو دوق أركوش، نيابة عن بعض خدمه الموروسكيين، الذين «كانوا دائماً نصارى جيدين ومخلصين». وفي رسالة أخرى، ذكّر أركوش الملك بأن بعض هؤلاء الموروسكيين خدموا في جيشه في أثناء حرب غرناطة، ودفع بأن أوامر الطرد يجب ألا تطبق على الموروسكيين «كبار السن والعاجزين عن المشي... أو أن يعاني الأطفال الأبرياء بذنوب لم يقترفها آباؤهم أنفسهم»[4].

نبّه وزراء فيليب في توصياتهم له على «أن ما يمنح لدوق مدينة شذونة لا يمكن إنكاره على أركوش»، لكنهم مع ذلك أوضحوا أن هذه الاستثناءات ستجعل من الصعب «تطهير المملكة من هؤلاء الناس، لأن هناك الكثيرين ممن يريدون البقاء». وخلص المستشارون إلى أن السياسة المثلى هي «غلق الباب في وجه الجميع»، لكن كان من الصعب تجاهل نداءات شكّكت في شرعية الطرد. ففي فبراير 1610، التمس المجلس البلدي لكاثيريس Cáceres بإشتريمادورا من الملك ألا يطرد الموروسكيين المحليين، الذين وصفهم بأنهم «أناس مسالمون ومتواضعون»؛ كانت أعمالهم ضرورية «لخير هذه الجمهورية». وقدم قاضي بطليوس طلباً مماثلاً نيابة عن الموروسكيين في مدينته، الذين «كانوا يحيون دائماً حياة جيدة وفقاً للدين النصراني. فهم أناس فقراء ومتواضعون ومنضبطون جداً». فالموروسكيون لم يولدوا وينشؤوا في المنطقة و«لا يتحدثون أي لغة غير لغتنا» فحسب، وإنما أكد القاضي أيضاً أن أعمالهم كانت ضرورية للمجتمع، ذلك لأن العمال الزراعيين الموروسكيين «هم أكثر من يزرعون الأرض ويفلحونها».

وفي يناير من ذلك العام، تلقى الملك مناشدة ملتهبة من الدوقة كاردونا طلبت فيها الرأفة بالمورسكيين في ضِياعها في قمارش[1]، القريبة من مالقة تأسيساً على أنه:

> خرج من أصلابهم أبناء وبنات تربوا جيداً على أيدي نصارى قدامى، وكانوا لذلك يعيشون كنصارى جيدين. كما تزوج بعض المورسكيين نصرانيات قديماً، وتزوجت بعض المورسكيات نصارى قدامى، ونتج عن هذه الزيجات أبناء وبنات في مقتبل العمر. وبعضهم مسنون وفقراء جداً لا يستطيعون المشي أو يمشون بصعوبة، وبعضهم أيتام لا يوجد من يرعاهم أو يقرر نيابة عنهم. وهم يخدمون نصارى قدامى لقنوهم وعلموهم أمور الدِين جيداً، وكثيرون منهم لديهم امتيازات وأدلة على التحدر من نصارى قدامى، ومن المثير للشفقة أن تسمعهم يصرخون ويحتجون بأنهم جميعاً نصارى ويأملون أن يعيشوا ويموتوا كنصارى وينفذوا كل ما تأمرهم به جلالتك كأتباع مخلصين[5].

وجاء عدد من المناشدات من مسؤولي الكنيسة. ففي غرناطة كتب وفد من رجال الدين إلى فيليب يحثونه على تذكر أن «كنيسة أمنا المقدسة[2] تحمي أولئك الذين أخطأوا»، ويناشدونه «علاجاً أخف ومزيداً من التريث والوقت». وفي الرابع والعشرين من يناير، كتب رئيس أساقفة غرناطة بيدرو باكا دي كاسترو إلى الملك للاحتجاج على مرسوم وصفه

---

(1) Comares في اللغات الأوروبية [المترجم].

(2) يشير مصطلح «كنيسة أمنا المقدسة» أو «كنيسة الأم المقدسة» أو «الكنيسة الأم» إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي تعتبر أم في رعايتها للمؤمنين وتعهدهم وحمايتهم [المترجم].

بأنه كان «عاماً جداً لدرجة أنه تضمن أناساً لم يذنبوا». وأكد دي كاسترو على التدين النصراني النموذجي للموركسيين في غرناطة، وذكر أنه أدخل بعضهم في الدرجات الكهنوتية. ورفض أي دعاوى تجعل من الموركسيين في غرناطة تهديداً أمنياً، لأن غالبيتهم كانت من النساء والرجال كبار السن، وصفهم بسخرية بلغت حد الإهانة بأنهم «يعجزون عن القيام بأي اضطرابات أو حمل للسلاح». وكان رئيس الأساقفة صريحاً بالقدر نفسه في نقد أوامر الملك بفصل الأطفال الموركسيين عن ذويهم وفصل الأزواج الموركسيين عن زوجاتهم النصرانيات. وأوضح أن هؤلاء الأزواج «تزوجوا بنية حسنة وإذن من جلالتك، وبموجب شريعتهم وشريعة كنيسة الأم المقدسة»، وتساءل رئيس الأساقفة بسخط «لماذا تؤخذ منهم زوجاتهم؟ لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك»[6].

كانت الحال في بلنسية مختلفة تماماً، إذ استطاع فيليب أن يبرر الطرد بناء على الشهادة السلبية ضد الموركسيين من أعلى رجل دين في المملكة. ومع ذلك فقد كانت هناك أدلة تنكر جذرياً الاتهامات التي وجهها إليهم. وإذا كان الموركسيون ليسوا خونة ولا يشكّلون تهديداً للدولة، وإذا كانوا قد أصبحوا فعلاً نصارى «في قلوبهم»، فما وجه الضرورة في طردهم إذن؟ ولما وجد الملك نفسه أمام هذه المناشدات من جانب رجال الدين أنفسهم، أمر الأساقفة في أندلوسيا وغرناطة ومرسية بإجراء تحقيق مفصل للتأكد مما إذا كان الموركسيون يعيشون كنصارى حقاً في لغتهم ولباسهم وعاداتهم وشعائرهم واتصالاتهم بالنصارى القدامى. وجاءت نتائج هذه التحقيقات إيجابية في غالبها. فذكر أسقف قرطبة أن الموركسيين بالمدينة كانوا «نصارى جيدين وصادقين، وكانوا يعيشون على هذا النحو، ويلتزمون بالدين الكاثوليكي لا الإسلامي». وأشار تقرير حول الموركسيين من قرطاجنة أن «العدد الكبير من ذوي النصرانية

الصادقة بينهم يبعث على الرضا»، في حين وصف رجال الدين في إشبيلية الموركسيين المحليين بأنهم «لا يختلفون عن النصارى القدامى في اللغة واللباس وشعائر الدين».

جاءت هذه الشهادات أيضاً مناقضة للإجماع المهيمن في المستويات العليا لإدارة الدولة. فرغم منح بعض الاستثناءات، لم تؤثر هذه التحقيقات على الاتجاه العام للطرد. وفي الشهور الأولى من عام 1610، طرد زهاء عشرين ألف موريسكي من أندلوسيا وغرناطة وأجزاء من مرسية. وطرد نحو سبعة آلاف وخمسمائة من إشبيلية وحدها، التي تذكر فيها مراقب نصراني «أنهم كانوا جميعاً يبكون، وأن كل الناس رقت قلوبهم لرؤية بيوت كثيرة تجتث، وتعساء كثر ينفون»[7]. ووصف شاعر نصراني «النساء الموريسكيات اللاتي يعصرن أيديهن البيضاء، ويرفعن أعينهن إلى السماء، وينحن يا إشبيلية يا وطني!» وهن ينادين بأسماء الكنائس والأماكن بالمدينة التي قضين حياتهن فيها[8].

وفي إشترياادورا كانت «الجمهورية الصغيرة» الموريسكية الجهادية في هورناتشوس قد عوقبت بما يكفي في عام 1608 باليد الحديدية للقاضي المتجول ريغوريو لوبيث ماديرا Gregorio López Madera، الذي عُيّن خصيصاً لذلك الغرض[1]. ففي أثناء تحقيقه حول المخالفات الكثيرة التي نسبت إلى سكان البلدة، وجد لوبيث ماديرا ثلاثاً وثمانين جثة مدفونة في أحد الحقول. لذلك أمر بشنق عشرة من أعضاء المجلس البلدي، وحكم على مئات من الموريسكيين الآخرين بالجلد أو الخدمة على القوادس. لكنه في تنازل فريد، سمح للمطرودين من هورناتشوس بالاحتفاظ بأسلحتهم

(1) وصف كتاب صدر مؤخراً للمؤرخ الإسباني فيرمين مايورغا أورتاس Fermin Mayorga Huertas بعنوان «أهل هورناتشوس الذين صلبوا ووضعت على رؤوسهم تيجان الشوك» هذا العقاب الذي يتجلى في عنوان الكتاب نفسه [المترجم].

في مقابل رسوم دفعوها للتاج. وفي ثلاثة أسابيع، كان سكان البلدة البالغ عددهم ثلاثة آلاف ونصف مورسكي قد اقتيدوا جميعاً مثل جيش غير مهزوم إلى إشبيلية التي نقلوا منها إلى المغرب.

ولم يتمكن جميع المورسكيين من المغادرة محفوظي الكرامة. فكما حدث في بلنسية، فقد كثيرون منهم ممتلكاتهم وعائلاتهم، وأحياناً حياتهم في أثناء رحلتهم. ففي يناير، ذكر دون لويس القصري[1] قاضي أستجة[2] القريبة من قرطبة أن المورسكيين رفضوا مغادرة بيوتهم بسبب «الأخطار التي تتهدد نساءهم على الطرق». وفي مالقة، أجبر المسؤولون النصارى المورسكيين على بيع أراضيهم وممتلكاتهم لهم بأسعار تافهة قبل طردهم. وعند وصول المورسكيين إلى الموانئ المخصصة لهم، كان البحارة الأجانب يفرضون عليهم دائماً أجوراً باهظة في مقابل نقلهم، ولم يصلوا جميعهم إلى الشاطئ المقابل. ففي الثاني والعشرين من يناير، ذكر مسؤول ملكي في قرطاجنة أن البحارة الفرنسيين كانوا يختطفون الأطفال الأصغر من عمر الرابعة ليبيعهم في أسواق العبيد. وكانت هناك أيضاً إشارات على أن نظام النقل وشبكة الإمداد بالطعام كانا قد أنهكا تماماً. ففي فبراير، كتب لويس فاخاردو من قرطاجنة طالباً المزيد من المساعدة لتقديمها إلى المورسكيين القادمين إلى المدينة، الذين كانوا «يعانون المرض والجوع مثل سابقيهم في بلنسية». وبعد شهرين، ظل فاخاردو يحذّر الملك من عدم وجود سفن كافية في قرطاجنة، لنقل المورسكيين، الذين «لا يمكن إجبارهم على فعل المستحيل... إذ سيموتون إذا لم يقدم لهم شيء يأكلونه أو سفن تنقلهم».

***

(1) Don Luis de Alcazar نسبة إلى مدينة القصر Alcazar بإشبيلية التي بنيت مكان قصر إشبيلية الذي بناه الموحدون ولايزال أقدم قصر في أوروبا يستخدم حتى الآن [المترجم].

(2) Ecija في اللغات الأوروبية [المترجم].

في ذلك الوقت، كانت المرحلة التالية من الطرد يجري التحضير لها وتنفيذها. ففي نوفمبر 1609، عيّن الملك برناردينو دي بلاسكو Bernardino de Velasco كونت سالاسار وألونسو دي سوتومايور Alonso de Sotomayor كقيادة مشتركة لعملية طرد المورسكيين من قشتالة القديمة والجديدة. كان سالاسار عضواً بمجلس الحرب وكان بيروقراطياً مجدّاً وطموحاً جعله إخلاصه لما أسماه «ماكنة» الطرد واحداً من أقوى الرجال في إسبانيا. ومع أن سالاسار وسوتومايور كانا يجوبان قشتالة في تكتم لتعيين مفوضين وجمع قوائم بالجنود ورجال المليشيات المطلوبين لتنفيذ الطرد، ظل فيليب ومسؤولوه يتكتمون على نواياهم.

وحين سمع فيليب بأن النصارى بدأوا يسخرون من المورسكيين لاحتمال طردهم الوشيك، أمر بإيقاف هذه الإهانات. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر 1609، أذن الملك بالسفر للمورسكيين القشتاليين «المنزعجين» الراغبين في مغادرة إسبانيا، معلناً أنه «ليس في نيتي إكراه أحد على العيش في ممالكي رغم إرادته». على أن هذا القرار لم يأت من باب الشهامة كما بدا. ففيليب عبر إعلان استعداده للسماح للمورسكيين القشتاليين بالمغادرة طوعاً، أرسل أيضاً إشارة مؤداها أنه لن يكره أحداً على المغادرة، حتى في الوقت الذي كان مسؤولوه يعدّون فيه العدة للطرد. ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا العرض لم يكن خالياً من الشروط.

فالمورسكيون الذين اختاروا المغادرة لم يسمح لهم إلا بأخذ قدر محدود من أموالهم، إذ كان عليهم أن يدفعوا نصف مدخراتهم وممتلكاتهم للتاج، وكانوا ملزمين بالمرور بمدينة برغش حيث كانوا يسجلون ويفتشون تحت الإشراف اليقظ من جانب سالاسار، للتأكد من عدم تجاوز النسبة المسموحة لهم من الأموال والأشياء الثمينة. وقد تمكن بعض المورسكيين الأغنياء أحياناً من استخدام علاقاتهم في تحويل أموالهم خارج البلاد عبر

حوالات ساعدهم فيها دبلوماسيون فرنسيون ومصرفيون برتغاليون، لكن كثيراً منهم لجأوا إلى تهريبها. ودفن بعضهم أموالهم وممتلكاتهم الثمينة في الريف، ثم استردوها بعد التفتيش أو أخفوا المجوهرات والأموال في أمتعتهم وملابسهم. وقد أمسك سالاسار عائلة موركسية هربت ذهباً وفضة في محور عجلات مجوف بعربة.

كانت العقوبات على هذه الخروقات قاسية فعلاً. فما لا يقل عن ثلاثين موركسياً، ممن عبروا من برغش، شنقوا على التهريب بأوامر من سالاسار، وحكم على العشرات بغرامات أو الجلد. وسالاسار المتمسك بالشكليات، والدقيق في اتباع الأوامر، كان مثالياً لمهمة ضمان أن يتربح التاج من إبعاد الموركسيين، فكان يرفق بتقاريره المنتظمة إلى رؤسائه قوائم مفصلة بالممتلكات الموركسية المصادرة من المجوهرات إلى الملاءات والأوشحة الحريرية وغيرها من قطع الملابس الثمينة. ورغم هذه الاشتراطات، فقد أحس كثير من الموركسيين بنوايا الملك وفضلوا المغادرة بإرادتهم. وفي الربيع، أخذت أعداد الموركسيين المارين ببرغش تتزايد كثيراً، فبحلول شهر إبريل كان نحو ستة عشر ألف شخص قد عبروا إلى فرنسا، وغصت البلدات الحدودية الفرنسية مثل مدينة سينت جين دي لوز Saint-Jean-de-Luz باللاجئين الموركسيين. وقد كان سالاسار قلقاً جداً من مغادرة «كثير من رجال الطبقة العليا الأغنياء» إلى أراض معادية، ولذلك طالب قبل الترحيل بغلق الحدود معها.

وفي العاشر من يوليو، أعيد فتح الحدود، حين أعلن فيليب أخيراً القرار الذي اتخذه قبل عام تقريباً، وأمر كل الموركسيين في قشتالة بمغادرة البلاد. وهنا أيضاً أثار نشر مرسوم الطرد سيلاً من مناشدات الاستثناء من جانب الموركسيين والنصارى القدامى على حد سواء. فكما كانت الحال في أندلوسيا، كان للموركسيين أحياناً أنصار أقوياء بين رجال

الدين وأرستقراطية ملاك الأراضي، منهم الدوق باسترانا Pastrana الذي طلب استثناء عشرة مورسكيين في ضِياعه القريبة من مدريد، منهم الأخوان ميغيل ولويس غرسيه Miguel and Luis García اللذان أكد أنهما كانا يعيشان حياة نصرانية نموذجية، وكانا «ماهرين جداً في أشغال الحرير». وكان الدوق مستميتاً جداً في الاحتفاظ بهؤلاء المُقْطَعين المهرة، وناشد الملك بأن يسمح لهم على أقل تقدير بإرجاء ترحيلهم إلى أن يعلّموا حرفتهم لمن كانوا سيحلون محلهم من النصارى القدامى.[9]

من غير المعروف ما إذا كان هذا الطلب قد لُبي للدوق، لكن فيليب ووزراءه كانوا يرتابون دائماً في شهادات «الحياة النصرانية النموذجية» بحق المورسكيين من جانب ملاك الأراضي النصارى، الذين رأوا أنهم وضعوا مصالحهم الاقتصادية الأنانية فوق مصلحة الدين. وبالمثل، نظر فيليب ومسؤولوه بارتياب إلى رجال الدين، الذين دافعوا عن المورسكيين، لأن كثيراً من الأديرة والكنائس اعتمدت أيضاً على عمل المورسكيين، لكن هذه المناشدات تطلبت إجراء تحقيقات. فكما في حالة غرناطة وأندلوسيا، أمر فيليب الأساقفة والكهنة في أنحاء قشتالة كافة بتقديم قوائم بأسماء المورسكيين في مناطقهم، والتحقق إن كانوا يعيشون كنصارى. وهنا أيضاً جاءت هذه التحقيقات إيجابية وخَلُصت عموماً إلى أن المورسكيين كانوا حريصين على حضور الطقوس الدينية بلا إكراه، وكانوا يُظهِرون إخلاصهم في الدين عبر «أعمال جيدة»، مثل الاعتراف بالذنوب المهلكة، أو استدعاء الكهنة لمسح الأموات بالزيت، والتزيد في ذلك.

على أن بعض الردود كانت أكثر حذراً. فقد أدرج أسقف بلد الوليد أسماء سبعين عائلة مورسكية في المدينة كان تدينها النصراني «غير مؤكد»، لكنه دفع مع ذلك بعدم ضرورة طردهم. وحين عرض مستشارو فيليب هذه النتائج والمقترحات عليه، أمر بأن «تعامل السبعون عائلة مثل

الباقين»[10]. وفي نوفمبر من ذلك العام، أصدرت الحكومة للأساقفة القشتاليين مجموعة معايير جديدة لتقييم السلوك النصراني للموركسيين في ضوئها. وبداية من هذا التاريخ، لم يعد كافياً أن يقوم الموركسيون بالتزاماتهم النصرانية، إذ بات عليهم أيضاً أن يؤدوا «أفعالاً إيجابية ضد الدين الإسلامي»، مثل شرب النبيذ وأكل لحم الخنزير وتجنب الاتصال بـ«أفراد أمتهم».

وعلى الرغم من أن الملك نبّه على الأساقفة بأن يكونوا «شديدي الفطنة في التمييز، وأن يعرفوا هدفهم جيداً»، فقد وجدت تحقيقاتهم مرة أخرى أن معظم الموركسيين كانوا يفون بالمتطلبات الجديدة، ومرة أخرى أيضاً أبدى فيليب ووزراؤه ترددهم في قبول هذه النتائج. فحين أفاد راعي أبرشية أوروبريسا Oropresa القريبة من آبلة أن الموركسيين في أبرشيته كانوا «ملمين بدينهم وتعاليمه بدرجة لا تقل بحال عن النصارى القدامى»، أمر سالاسار بإجراء ثلاثة تحقيقات أخرى، خَلصُت جميعها إلى النتائج نفسها. وطبقت إجراءات مماثلة في الأماكن الأخرى جميعها، إذ رفضت الحكومة قبول النتائج التي تناقض فرضياتها. وفي بعض الحالات، أعطيت استثناءات لأفراد أو جماعات موركسية كاملة، لكنها أبطلت بعد ذلك. وفي حالات أخرى، تجاهل فيليب ووزراؤه شهادات رجال الدين والمسؤولين، وأمروا بطرد الموركسيين. فقد دافع أسقف آبلة بقوة عن الموركسيين «أحفاد المُنَصّرين القدامى»، الذين كانوا يعيشون في المدينة «منذ زمن سحيق». وكان هؤلاء الموركسيون يشاركون النصارى في المهن والامتيازات نفسها، إذ كان مسموحاً لهم حمل الأسلحة والتصويت في المجلس البلدي، وكانوا يشكّلون جزءاً من المليشيا المحلية. وبعضهم قاتل في حروب إسبانيا في شمال إفريقيا.

أعطت هذه الاعتبارات للموركسيين في آبلة مهلة مؤقتة. لكن في

الثاني من يوليو 1611، جاءت نهاية إحدى أقدم الجماعات الموركسية في إسبانيا، حين جُمع 770 رجلاً وامرأة وطفلاً عند الفجر، واقتيدوا من المدينة إلى فرنسا «في أناقة وروح عالية كما لو كانوا في طريقهم إلى حفل زفاف بلا أي تعبير عن الحزن»، كما ذكر شاهد عيان نصراني[11]. كان تصلب الملك ووزرائه تفرضه جزئياً اعتبارات عملية، ذلك أن الحكومة لم تكن تستطيع أن تتحمل الإبقاء على السفن والجنود والمسؤولين في أماكن الطرد لآماد مفتوحة، وكان تقييم المناشدات والالتماسات عملية تستغرق وقتاً وتهدد بعرقلة عجلات البيروقراطية. ورأى الملك وكبار البيروقراطيين المسؤولين عن الطرد أن الحجم الضخم لطلبات الاستثناء من جانب النصارى والموركسيين جعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل فحصها حالة حالة، دون تعريض كامل المشروع للخطر. وكما أوضح سالاسار للملك في أغسطس، فإن موركسيين كثيرين جداً كانوا يدعون أنهم نصارى قدامى لدرجة «أنني أخشى أن تطلب الأماكن كلها بقاءهم»[12].

على أن تصلب فيليب ومسؤوليه لم ينتج عن المقتضيات البيروقراطية لعملية الطرد فحسب، وإنما كان أيضاً انعكاساً للتعصب الذي حرك الطرد في المقام الأول. ففي اجتماع مجلس الدولة في طليطلة في الثامن عشر من يونيو 1611، تقرر رفض كل التماسات الاستثناء، سواء قدمها موركسيون أو نصارى قدامى. كان من المسؤولين الذين اعتمدوا هذا القرار رئيس أساقفة طليطلة ورئيس محكمة التفتيش بيرناردو روخاس دي ساندوبال Bernardo Rojas de Sandoval عم ليرما، الذي أعلن أن الموركسيين جميعاً كانوا «أناساً مؤذين» يستحقون الطرد. وكان فيليب ومستشاره المقرب ليرما لا يقلان تصلباً عن ذلك. فحين كتب مسؤول باسكي إلى ليرما في فبراير 1612 سائلاً عما يجب أن يفعله مع لورينثو

بوتيستا Lorenzo Bautista الموريسكي المسّن المطرود من بلد الوليد، الذي عاد من فرنسا مع زوجته، تلقى الإجابة المقتضبة: «نفذ أوامر الطرد». بدا ذلك مختلفاً تماماً عما حدث في عام 1492، حين خيّر الملكان الكاثوليكيان اليهود بين النفي والتنصير، إذ كان المقصود من الطرد هو تعزيز الاندماج والحفاظ على دين المُنَصّرين، الذين كانوا قد اعتنقوا النصرانية فعلاً. لكن بعد أكثر من قرن، كان ورثتهما الهابسبورغيون غير مستعدين لتصديق إمكانية حدوث الاندماج، وتجاهلوا عموماً الأدلة المناقضة لاعتقادهم.

***

وحتى مع تكشف هذه الأحداث في قشتالة، كانت ماكنة الطرد تُجمَّع سراً في أراغون وقطلونية. ففي إبريل، أرسل أوغسطين ميخيا من بلنسية إلى سرقسطة للإشراف على إبعاد الموريسكيين من أراغون وقطلونية. في ذلك الوقت، كانت الشائعات حول نوايا الملك قد انتشرت، لدرجة أن كثيراً من الموريسكيين توقفوا عن العمل في الحقول وبدأوا بيع ممتلكاتهم، في حين حذّرت محكمة التفتيش الأراغونية من أن يتحولوا إلى قطع الطرق أو يثوروا إذا لم ينفذ الطرد سريعاً.

وفي التاسع والعشرين من مايو، أعلن مرسوم الطرد في أنحاء أراغون وقطلونية كافة، ونزلت فيالق ميخيا على الساحل، وبدأت في تأمين الحدود والممرات الجبلية. روّع هذا الاستعراض للقوة كلاً من الموريسكيين وحماتهم الأرستقراطيين، لدرجة أن أحداً منهم لم يحاول معارضة الإبعاد. وحتى حين ترك جنود ميخيا أماكنهم احتجاجاً على قلة مرتباتهم، تمكن ضباطهم من تجنيد ما يكفي من البدائل المحليين لمواصلة الطرد. ومرة أخرى طلب فيليب تقارير حول الموريسكيين من رجال الدين الأراغونيين، ومرة أخرى أيضاً جاءت نتائجها عكس توقعاته. فقد أرسل أسقف طرطوشة دون بيدرو مانريك Don Pedro Manrique

قائمة شاملة بالموريسكيين في أبرشيته تضم أسماءهم ومهنهم وشهادات من الكهنة والراهبات تصف مدى التزامهم الصادق بجميع واجباتهم الدينية[13].

كان من شأن هذا التقرير أن يعفي الموريسكيين في طرطوشة من المصير الذي لقيه سبعون ألفاً من مواطنيهم أجبر معظمهم على مغادرة أراغون وقطلونية، عبر ميناء لوس ألفاكوس القريب. وعبر اثنان وعشرون ألف موريسكي تقريباً إلى فرنسا في أقصى حرارة الصيف، في نزوح جماعي شهده عدوهم اللدود بيدرو أثنار كاردونا، الذي وصفهم بأنهم «كانوا في غاية الحزن والبكاء، وفي حالة من الفوضى واختلاط الأصوات، مثقلين بنسائهم وأطفالهم ومرضاهم المسنين وصغار السن، يغطيهم الغبار والعرق وهم يلهثون». وكان الموريسكيون المبعدون يتعرضون دائماً للاستغلال ولإساءات قاسية من جانب مرافقيهم الملكيين، الذين كانوا يأخذون منهم أجراً حتى على الشرب من الأنهار أو الجلوس في الظل. وأصدر ليرما أوامر بمنع هذا السلوك، لكن مع توسيع الطرد إلى مناطق إسبانيا كافة، لم يكن بمقدور السلطات دائماً أن توفر للموريسكيين الأراغونيين الطعام والملجأ، ناهيك عن ضمان أمنهم. وقد اتضح الإجهاد الذي نال من جهاز الطرد في رسالة إلى مجلس الدولة من قائد عام برشلونة، الذي اشتكى من عدم كفاية المجدفين على سفنه، التي كان يفترض أن تنقل الموريسكيين «لأن عدداً كبيراً ممن كانوا معه في موانئ الترحيل ماتوا» في بلنسية[14].

وتعرض الموريسكيون أيضاً لهجمات من قطاع الطرق، وبخاصة في قطلونية، التي شهدت انتشاراً وبائياً لقطاع الطرق بين عامي 1609 و1615. وفي حادثة إبان صيف عام 1612، تعرضت جماعة من مائتي موريسكي كانوا يسافرون من ليريدا Lérida إلى برشلونة إلى كمين من عصابة كبيرة

من قطاع الطرق كان بينهم خيالة مسلحون، جردوهم من كل أموالهم وممتلكاتهم. وحتى حين وصل الموريسكيون الحدود الفرنسية، فإنهم ظلوا عرضة للخطر. ففي وقت آخر من ذلك الصيف، أجبر أربعة عشر ألف موريسكي على العودة من قرية كانفرانك Canfranc الحدودية في جبال البرانس الأراغونية، وأن يقطعوا طريق العودة كاملاً إلى لوس ألفاكوس على الساحل سيراً على الأقدام. مات كثيرون منهم من المرض أو الإعياء، ووصلوا الميناء في حالة سيئة جداً، لدرجة أن السلطات خشيت من تفشي الطاعون على السفن التي كانت تنتظر لنقلهم. فبعد سنوات طويلة من التآمر مع الموريسكيين الأراغونيين، أصبح حاكم بيرنيه الدوق دي لا فورس أقل ترحيباً بالمنفيين الذين جاؤوا على حدود دوقيته. وفي يونيو، وجد زهاء خمسة آلاف موريسكي أنفسهم محاصرين بلا طعام على طول الحدود، حين رفض الدوق السماح لهم بدخول فرنسا، وهدد بذبحهم إذا حاولوا عبور الحدود. وفي الشهر التالي سمح للموريسكيين بدخول البلاد على دفعات منفصلة، وبعدها سمح لهم الدوق بعبور الحدود في مقابل تحصيل من عشرة إلى اثني عشر ريالاً على الفرد.

اشترطت أوامر الطرد في أراغون وقطلونية صراحة أن يترك الموريسكيون أطفالهم إذا أرادوا الإبحار إلى شمال إفريقيا، لكن كثيراً من الموريسكيين أبحروا بأطفالهم على سفن خاصة إلى فرنسا، وبعد ذلك أقنعوا البحارة بأخذهم إلى أراضٍ إسلامية. وآثر بعضهم الاستقرار في فرنسا التي لقوا فيها استقبالاً مختلطاً. فلم تكن السلطات الفرنسية متحمسة للوجود العابر لجماعة من الموريسكيين الفقراء على أراضيها، لكن هنري الرابع سمح أخيراً للموريسكيين بالبقاء الدائم في البلاد، بشرط أن يتحولوا إلى الكاثوليكية، وأن يستقروا في جنوب دوردوني Dordogne. وسمح للموريسكيين الذين رفضوا هذه الشروط بالسفر إلى أماكن أخرى

من الموانئ الفرنسية. وكما كانت الحال في إسبانيا، لم تكن المراسيم الملكية ضمانة للأمان، إذ تعرض المورسكيون المسافرون عبر الأراضي الفرنسية أو على السفن الفرنسية كثيراً للسرقة والابتزاز، مما حدا بالسلطان العثماني أحمد الأول أن يطلب من السلطات الفرنسية اتخاذ إجراءات أقوى لحمايتهم. وفي عام 1612، أرسل السلطان المغربي مولاي زيدان وفداً إلى فرنسا طلباً لتعويض المورسكيين الذين سرقوا في فرنسا، وكان من أعضاء الوفد المورسكي الغرناطي أحمد بن قاسم الحجري مترجم الكتب الرصاصية من الجبل المقدس. وفي وصفه لرحلته، ذكر الحجري كيف سلم رسالة مختومة من السلطان إلى بلاط الفرنجة اشترطت أن «يعاد كل ما سرق من الأندلسيين إليهم»، وذكرت «واحداً وعشرين قائداً بحرياً سرقوا الأندلسيين الذين استأجروا سفنهم» في بلدة أولون Olonne [15].

لقي التغارينو(1) الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا بوجه عام استقبالاً أفضل من نظرائهم البلنسيين. في حين ظل المسافرون الذين شقوا طريقهم عبر المناطق الداخلية القبلية الخارجة على القانون عرضة للنهب من العرب، لكن السلطان العثماني أمر أتباعه في شمال إفريقيا بالعناية بالمنفيين، الذين أنزلوا على شواطئهم، وقد أوضحت الجماعات «الأندلسية» سريعة النمو بالجزائر وتطوان وفاس وغيرها من المدن أن كثيراً من المورسكيين وجدوا ملجأ آمناً فيها. وقد حظي المورسكيون بأفضل استقبال في تونس، التي قدم لهم حاكمها عثمان داي(2) المؤن بأوامر من السلطان العثماني. لكن هؤلاء المورسكيين الناطقين بالإسبانية لم يكونوا دائماً محل ترحيب من جانب المسلمين المحليين، وفي بعض الحالات أجبر المورسكيون على

(1) التغارينو هو الاسم الذي أطلق على المسلمين الأراغونيين [المترجم].

(2) عثمان داي حاكم تونس العثماني (1593–1610)، قدم للأندلسيين المنفيين تسهيلات، منها منحهم الأراضي وإعفاؤهم من الضرائب لثلاث سنوات، حيث استقبلت تونس نحو ثمانين ألف مورسكي [المترجم].

إثبات أنهم ليسوا نصارى، بإظهار أنهم قد ختنوا أو بالموافقة على الختان. على أن الموريسكيين لم يكونوا مستعدين كلهم لفعل ذلك. وفي تطوان، قيل إن مجموعة من الموريسكيين ظلت ملتزمة بالنصرانية لدرجة أنها رفضت دخول المساجد، فرجم أفرادها حتى الموت.

***

من الصعب أن نتخيل -من منظور القرن الحادي والعشرين- مدى المشقة والرعب اللذين ألحقتهما هذه الرحلات بالمبعدين. فكثير من الموريسكيين لم يكونوا قد سبق أن غادروا بيوتهم وقراهم، ناهيك عن إسبانيا، وكانت معرفتهم بشمال إفريقيا لا تزيد على معرفتهم ببلدات ومدن أوروبا النصرانية التي مروا بها. فقد أجبر الفلاحون والحرفيون، وكُتاب العدل والتجار، ونساجو الحرير والبستانيون، والأغنياء والفقراء، وحتى الخياطون الموريسكيون الذين كانوا يلازمون سيدات البلاط، على أن يكونوا أبطالاً لإبعاد جماعي لم يبق منه سوى القليل من الأوصاف والروايات على لسان أبطاله.

قدمت مخطوطة مجهولة المؤلف من المخطوطات الألخامية «معلومات الطريق» للموريسكيين الراغبين في عبور فرنسا وإيطاليا، للذهاب إلى الأراضي الإسلامية. تقدم المخطوطة تفاصيل حول تكاليف الإسكان والطعام والنقل لكل مرحلة بالرحلة، وتوصي المنفيين باتباع حيل مختلفة لإخفاء هويتهم الإسلامية عن النصارى المعادين، منها التظاهر بأنهم مدينون فارون من دائنيهم، أو التظاهر بأنهم حجاج نصارى يقصدون زيارة الكنائس والأماكن المقدسة النصرانية. وقد كان لزاماً عليهم أن يحافظوا على هذا التظاهر على طول الطريق إلى أن يبلغوا البندقية؛ تلك المدينة الكونية، التي تبدأ فيها الحدود بين العالمين الإسلامي والنصراني في التلاشي، وفيها كان يمكن للمبعدين أن يطلبوا المساعدة صراحة:

> اذهب إلى الميدان لتشتري كل ما تريده. ستجد هناك أتراكاً بعمامات بيضاء ويهوداً بعمامات صفراء وتجاراً من الأتراك العظماء، يمكنك أن تسألهم عن أي شيء تريده، وسيرشدونك إليه بصدق. قل لهم إن لك إخوة في سالونيك وإنك تريد الذهاب إليهم، ستدفع دوكاتية واحدة لكل فرد، وستدفع في أثناء المرور مقابل ما تأخذه من الماء والحطب. اشترِ مؤناً لخمسة عشر يوماً، واشترِ يخنة وأرزاً وخلاً وزيتوناً أو غيرها من البقوليات البيضاء وخبزاً طازجاً يكفي لثمانية أيام، وكعكاً بعشرة باوندات للشخص الواحد[16].

وتوجد لمحات حول هذا الترحيل في الرسائل التي كتبها الموريسكيون المطرودون إلى أرباب أعمالهم أو أصدقائهم النصارى السابقين في إسبانيا. ففي الثاني والعشرين من نوفمبر 1610، كتب الموريسكي الغرناطي بيدرو إيرنانديث Pedro Hernández إلى سيدته السابقة دونا كتالينا دي بالديس Doña Catalina de Valdés واصفاً لها كيف أبحر هو وزوجته من مالقة، وقضيا اثني عشر يوماً في البحر قبل أن يسرقهم البحارة ويتركوهم على جزيرة مهجورة بعيداً عن ساحل شمال إفريقيا لا يلبسون سوى «سراويل من الكتان بلا أي عباءات أو ملابس». وشق الرجل وزوجته طريقهما أخيراً إلى تطوان، ومنها كتب إيرنانديث كيف أن «الله مخلصنا... خلصنا من الشيطان، وبسط علينا نعمته كي نعبده»[17].

وأبدى إيرنانديث- رغم محنته- رغبته في العودة إلى «أجمل بلد في العالم»، وناشد دونا كتالينا أن ترسل له مالاً كي يتمكن هو وزوجته من السفر إلى مارسيليا والهرب من «الناس الأشرار»، الذين وجدا نفسيهما بينهم. لم يكن هذا الحنين شاذاً، فقد حاول موريسكيون كثيرون بصعوبة

أن يتكيفوا مع البلدان التي استضافتهم، واشتاقوا إلى الأصدقاء والجيران والمناظر الطبيعية التي تركوها في إسبانيا. ومن هؤلاء ديبغو لويس مورليم Diego Luis Morlem؛ الموركسي من لامانشا، الذي سافر براً إلى فرنسا مع زوجته إليسا Elsa وهناك انضما إلى جماعة كبيرة من اللاجئين الموركسيين في مدينة سينت جين دي لوز، وقد كتب في العاشر من نوفمبر 1611 إلى مُقْطِعه السابق في قلعة رباح[1] عن مأزقه الذي كان يشاركه فيه بلا شك كثير من أبناء جلدته المبعدين:

> أود أن أحيط سموك علماً بالمعاناة والحنين اللذين نعايشهما هنا. وندعو الله أن يكفر بهما ذنوبنا، إذ إننا في حالة سيئة لدرجة أننا لا يمر علينا يوم أو ليلة دون أن نتذكر أراضينا وجيراننا الذين أبعدنا عنهم دون أي سبب أو إساءة من جانبنا. وقد اتفق بعضنا على أننا يمكن أن نثبت تحدرنا من النصارى القدامى خلال خط الذكور، ونرسل هذه المعلومات عبر ممثلين إلى مدريد، لأننا عازمون بكل قوة على مغادرة هذه المسالك المملة حيث وجدنا أنفسنا في أرض غريبة بعيداً عن أرضنا، التي نبكي دماً على فراقها، وننوي العودة إليها حتى لو شنقنا[18].

وكما هي الحال مع كل الشعوب التي بلا وطن، كان الموركسيون بلا حول أو قوة، ويعتمدون في بقائهم على رضا السكان، الذين كانوا يمرون ببلادهم. يتضح ذلك الضعف والخطر جليين في رسالة من الجزائر بتاريخ الخامس والعشرين من يوليو 1611 كتبها «الخريج مولينا» Molina

(1) Campo de Calatrava في اللغات الأوروبية [المترجم].

الموركسي الغرناطي من ترجلة[1] بإشتريهادورا إلى صديق نصراني يدعى دون خيرونيمو دي لوايسا Don Jerónimo de Loaysa[19]. ويبدو أن مولينا كان رجلاً موسراً في مدينته الأصلية، وتذكر بحنين زياراته المنتظمة إلى بيت لوايسا. وأخبر صديقه كيف سافر براً مع مجموعة من الموركسيين من ترجلة إلى ميناء قرطاجنة قبل أن يبحروا إلى مارسيليا التي «استُقبلنا فيها بطريقة حسنة وتلقينا وعوداً مغلظة بالحماية». لكن في غضون بضعة أيام من وصولهم في شهر مايو، اغتيل هنري الرابع على يد الكاثوليكي المتعصب فرانسوا رافيلاك François Ravaillac، وسرعان ما هوت فرنسا في الاضطراب السياسي. وعلى الفور أثيرت شكوك في تورط إسبانيا في الاغتيال، فوجد مولينا ورفاقه المنفيون أنفسهم متهمين من جانب الإدارات المحلية في مارسيليا بالتجسس لصالح فيليب الثالث لتمهيد الطريق نحو غزو إسباني لفرنسا. وربما أثيرت هذه الاتهامات كذريعة لابتزاز الموركسيين الذين جردهم المدعون عليهم من «جزء كبير» من مدخراتهم. وحين عيّنت الملكة الوصية ماري دي ميديشي Marie de Medici قاضياً لرد هذه الخسائر، وصفه مولينا بأنه «لا يقل شرهاً إلى المال عمن ابتزوهم أولاً»، وسافر الرجل الموركسي مع ألف من جماعته إلى ميناء ليفورنو الإيطالي، وفيه «حدث لنا الشيء نفسه، الذي وقع في مارسيليا».

كانت غالبية هؤلاء المنفيين، مثل مولينا نفسه، تنتمي إلى الطبقة الوسطى الموركسية المتعلمة، التي سرعان ما خاب أملها في المُقْطِعين الإيطاليين الذين «كانوا يريدون منا فحسب أن نزرع الحقول، ونعمل بالمهن الحقيرة الأخرى، التي لا يعرف معظم الناس كيف يقومون بها، ولم يتعلموها». وقد فكر مولينا ورفاقه في العودة إلى إسبانيا، لكنهم

(1) Trujillo في اللغات الأوروبية [المترجم].

غيروا رأيهم حين سمعوا تقارير من موركسيين آخرين من إشتريمادورا حول انتشار السرقة والاغتصاب على السفن التي أخذتهم من الموانئ الإسبانية. وبدلاً من ذلك، شقوا طريقهم إلى الجزائر، التي كانت تغص بالمنفيين الموركسيين من جميع أنحاء إسبانيا. وذكر مولينا لصديقه أن مضيفيه المسلمين «لم يكرهونا على أي شعائر روحية أو جسدية لجعلنا نرتد عما كنا عليه»، مما يوحي بأنه كان نصرانياً، وأن المنفيين الموركسيين الذين كانوا يُظهِرون دينهم النصراني، عوملوا أحياناً بدرجة من التسامح لم تكن معهودة دائماً في شمال إفريقيا، ناهيك عن إسبانيا. ومن الواضح أن مولينا كان رجلاً متديناً، ويبدو أنه وجد بعض العزاء في الاعتقاد بأن مصيره كان مقدراً من الله، ويستحيل تجنبه:

> لا أعتقد- سموك- أن ملك إسبانيا هو الذي أبعدنا عن أرضه، بل الوحي الإلهي، لأنني رأيت هنا نبوءات ترجع إلى أكثر من ألفي عام تنبأت بما حدث لنا وما سيحدث يقيناً، مفادها أن الله سيبعدنا عن أرض [إسبانيا] ويبث هذه النية في قلب الملك ومستشاريه، وأن غالبيتنا ستموت في البحر وعلى الأرض، وهو ما حدث في النهاية.

تنتمي هذه «النبوءات» إلى تقليد رؤيوي نصراني ظل يفتن كثيراً من النصارى الإسبان على مدار القرن السابع عشر، تمتد جذوره عبر الصوفي من القرون الوسطى يواكيم الفيوري[1] (1145-1202 تقريباً) إلى سفر الرؤيا والتزييف النصراني الذي أضيف إلى وسيطات الوحي العرافات القديسات[2]. كان جوهر هذا التقليد هو الاعتقاد بنهاية التاريخ، يليها

---

(1) Joachim of Fiore نسبة إلى بلدة فيور بجبال كالابريا Calabria الإيطالية [المترجم].

(2) وسيطة الوحي oracle لدى الإغريق كاهنة يعتقد أن الإله يجيب على لسانها عن الأسئلة =

حريق كوني يكون فاتحة لآخر الزمان وعودة المسيح أو المخلّص المنتظر[1]. وعلى مر القرون، اكتسب هذا التقليد تلوينات جديدة، اكتسى بعضها بعداً إسبانياً معادياً للإسلام. من ذلك نبوءة إيزيدور الإشبيلي Isidore of Seville بمجيء ملك قوي سيحكم إسبانيا ويطرد «نجاسات الإسبان» قبل أن يذهب لفتح أورشليم. كما وجدت رؤيا ميثوديوس الكذاب[2] بالقرن السابع مرتعاً خصباً بين النصارى السوريين، رداً على الفتوحات الإسلامية، وتنبأت الرؤيا بمجيء إمبراطور آخر الزمان، الذي يشن حرباً مظفرة ضد الإسلام نيابة عن النصرانية. وقد أدمج كثير من هذه النبوءات في النبوءات التي انتشرت في إسبانيا القرن السادس عشر. ومولينا كنصراني وضحية للطرد يبدو أنه اعتبر فيليب اليد التي أراد الله أن يحقق بها هذا الوعد.

***

كان أنصار الطرد النصارى يعتقدون أيضاً أنه مقدر إلهياً، لكن من منظور انتصاري، لا من منظور الظلم الذي يؤذن بعودة المخلّص. من ذلك أن مجلس الدولة درس في الثالث والعشرين من ديسمبر 1610

= حول أمور الغيب، ونبوءات العرافات Sibylline Oracles تشكل عبارات نبوئية مكتوبة بتفعيلة سداسية إغريقية تنسب إلى العرافّات Sibyls اللاتي كن ينطقن بالوحي الالهي في حالة من الجنون [المترجم].

(1) تشترك الأديان السماوية الثلاثة في فكرة المخلص الذي سيأتي في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت ظلماً: الماشيح في اليهودية، والمسيح في المسيحية، والمسيح والمهدي في الإسلام [المترجم].

(2) رؤيا ميثوديوس الكذاب نبوءة من القرن السابع الميلادي شكلت الخيال الأخروي للعالم المسيحي خلال العصور الوسطى، كتبت باللغة السريانية رداً على الفتح الإسلامي للشرق الأدنى ونسبت زيفاً إلى الأب ميثوديوس الأولمبي Methodus of Olympos (نسبة لمدينة أوليمبوس القديمة على الساحل الجنوبي لتركيا)، تضمنت موضوعات أخروية كثيرة مألوفة في المسيحية مثل ظهور المسيخ الدجال وسيطرته وغزوات يأجوج ومأجوج والمحن التي تسبق نهاية العالم [المترجم].

مذكرة من خايمي بليدا حول «العجائب والمعجزات التي أظهرها الرب في أثناء طرد الموركسيين» من بلنسية[20]. كان بليدا يقصد بمذكرته أن يستجدي تمويلاً رسمياً للتأريخ الذي كتبه لاحقاً للطرد الذي أوجز محتوياته بطريقة قصد بها أن ترضي الملك ووزراءه. ذكر بليدا الإشارات المختلفة التي لقي فيها الطرد استحساناً إلهياً، من الطقس الجيد الذي مكّن سفن الملك من إبعاد الموركسيين، إلى «الأشجار والحصاد» الوفير، الذي عم المملكة منذ رحيلهم. كان ذلك كله من نتاج خيال بليدا، ومنه أيضاً وصفه للصليب «الأبيض المتألق» العملاق الذي ظهر فوق لوس ألفاكوس في أثناء طرد الموركسيين من أراغون وظل في السماء طيلة فترة إبعادهم. ورأى الدومينيكي المتعصب أيضاً تدخلاً إلهياً في غزو إسبانيا لميناء العرائش المغربي في ذلك العام.

كانت الدراسة الجادة والمحترمة التي لقيتها هذه الوثيقة الغريبة من كبار رجال الدولة الإسبان مؤشراً على التداخل بين النبوءات الدينية وسياسة الدولة، الذي نظر البلاط الهابسبورغي من خلاله إلى الطرد. وسواء أكان فيليب ومستشاره المقرب ليرما اعتقدا حقاً بأن بلنسية أصبحت فجأة أكثر خصباً نتيجة لمغادرة الموركسيين، أم كانا يريدان أن يعتقد رعاياهما ذلك وحسب، فلا شك أن الرجلين نظرا إلى الطرد على أنه يلقى استحسان الرب وتمنيا أن يجلب هذا الرضا الإلهي منافع إيجابية على إسبانيا. ودون هذه التوقعات، يصعب فهم إصرار ليرما أمام مجلس الدولة في ديسمبر 1610 على أن «أعظم شيء فعله ملك العالم[3] سيظل ناقصاً» إذا لم يطرد الموركسيون «بلا استثناء»[21].

---

(3) لقب كان ملوك إسبانيا الهابسبورغية يطلقونه على أنفسهم نظراً لاتساع إمبراطوريتهم التي امتدت عبر أربع قارات، وكذلك من باب التطلع إلى قيادة العالم المسيحي وتوحيده بقيادة إسبانيا الكاثوليكية [المترجم].

في ذلك الوقت، كانت غالبية الموريسكيين قد أبعدت عن البلاد، وأزيل أي تهديد ربما شكّلوه على وحدة إسبانيا الدينية أو على أمن الدولة. والباقون إما استوعبوا تماماً في المجتمع النصراني لدرجة أنه كان يصعب حتى التعرف إلى أصولهم الموريسكية في المقام الأول، أو أن أعدادهم القليلة بين النصارى لم تعطهم الفرصة ليشكّلوا جماعات متماسكة كما كانت الحال سابقاً. ظاهرياً، تحققت الأهداف الأوسع، وكان يمكن إيقاف عملية الطرد عند هذه النقطة.

لكن تطهير إسبانيا من المسلمين لم يقصد به فحسب مجرد استئصال أقلية عرقية منحرفة أو مجرد العقاب على العصيان والثورة. فبالنسبة إلى الحكام الذين اعتبروا الفشل السياسي والعسكري علامة على السخط الإلهي، كان الطرد عملاً استرضائياً لله القدير، أريد به تغيير مسار التاريخ، وأن يكون فاتحة لعصر جديد ومجيد في حظوظ إسبانيا وتحقيق الهيبة والمكانة للمملكة التي أنجزت هذا التطهير. ولم يكن بليدا الوحيد الذي رأى في غزو العرائش ضئيل القيمة نسبياً العلامة الأولى على العصر الجديد الذي حلّ. ومن أجل ديمومة البعث الجديد، كان لزاماً على إسبانيا أن تتطهر تماماً من أي موريسكي على أراضيها. ولم يتوقف مصدر الدنس على الموريسكيين وحدهم. ففي صيف عام 1610، أوصى مجلس الدولة بطرد جماعة الغجر الإسبانية، الذين وصفهم بأنهم «أناس متشردون وضارون». لكن حملة التطهير الثانية على الغجر لم تنطلق قط، لأن مهندسي الطرد استغرقتهم محاولتهم المحبطة والعقيمة لضمان عدم بقاء أي موريسكي في البلاد.

20

النتيجة التامة

(1614-1611)

في الثالث والعشرين من مارس 1611، سجل كابريرا القرطبي أن فيليب حضر قداس شكر خاصاً في مدريد لإحياء ذكرى «الحدث السعيد المتمثل في طرد الموريسكيين».

حضر المراسم حشد رفيع المستوى من الوجهاء الأجانب والمحليين ضم السفير البابوي وكثيراً من السفراء الأجانب وأعضاء بارزين من الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين. اكتسى فيليب بملابس بيضاء من رأسه حتى أخمص قدميه في إشارة رمزية إلى نقاء إسبانيا الذي تحقق مؤخراً، وقاد موكباً مهيباً من كنيسة سانتا ماريا إلى دير ديسكالاس، وفيه شكر «مريم العذراء» على عونها في الطرد. وأرسل رئيس أساقفة غرناطة الجديد مذكرة اتسمت بالغلو لإحياء المناسبة، وصف فيها الطرد بأنه أحد عجائب الدنيا السبع، وشبّهه بالانتصارات النصرانية الكبرى على الإسلام، كمعركة بلاط الشهداء بالقرون الوسطى، والهزيمة الأحدث للأسطول العثماني في ليبانتو.

جرَت هذه الاحتفالات في وقت كانت فوائد الطرد فيه غائبة بوضوح عن كثير من مناطق البلاد. ففي مختلف أنحاء إسبانيا، خلّف

طرد الموريسكيين مشهداً من الخراب، بدءاً من البيوت الخاوية والأحياء والقرى المهجورة إلى انخفاض العائدات. وفي بلنسية، ورغم استحضار بليدا لعصر جديد من الوفرة، تواترت تقارير عن محاصيل لم تبذر، وأخرى لم تحصد، ومزارع كرمة وبساتين تعفنت ثمارها على سوقها لعدم وجود الأيدي الكافية لحصادها. وبلغ نقص القوة البشرية مداه إلى درجة جعلت ليرما يفكر في إمكانية توطين النصارى اليونانيين في الريف البلنسي، في حين حذّر كاراثينا الملك في ديسمبر 1609 من أنه قد يكون ضرورياً استخدام الموريسكيين من غرناطة لتعويض النقص[1]. وفي مناطق إسبانيا الأخرى اشتكى ملاك الأراضي العلمانيون والدينيون من نقص العمالة، وطلبت المجالس البلدية معونات مالية من التاج لتعويض ما خسرته جراء طرد الموريسكيين.

وفضلاً عن أن «الحدث السعيد» لم يكن يحظى بالشعبية التي أوحت بها الاحتفالات في مدريد، فقد كانت هناك أيضاً أدلة مزعجة على أن الطرد لم يكتمل. ففي ديسمبر 1610، أمر خوان دي ريبيرا، في الشهور الأخيرة من حياته، بإبعاد أربعة آلاف موريسكي من بلنسية كانوا قد استطاعوا البقاء في المملكة لأكثر من عام بعد بداية الطرد. وبعد ستة أشهر تقريباً، ظل نائب الملك كاراثينا يذكر لفيليب أن كثيراً من الموريسكيين «قد بقوا خفية». كان بعضهم يعملون في أراضي مُقْطِعيهم النصارى رغم الحظر الصارم لذلك. وكان هناك أيضاً الناجون من ثورة 1609 في مولا دي كورتيس، الذين واصلوا العيش في الكهوف في الجبال المحيطة، وهاجموا من حين إلى آخر المستوطنات النصرانية النائية.

وفي الخامس والعشرين من مايو 1611، أصدر كاراثينا أمراً همجياً وعد فيه بتقديم مكافأة عن كل موريسكي يؤتى به من مولا حياً أو ميتاً. تلت ذلك عمليات بشعة لاصطياد البشر، إذ تكالب صائدو الثروات النصارى

على هذه الجبال، وبدؤوا في العودة برؤوس المورسكيين للمطالبة بالمكافآت[1]، إلى أن تعهد ساكن نصراني في بلنسية يدعى سيميون ثاباتا Simeon Zapata بإقناع المورسكيين بالنزول من الجبل. وفي تجل لإنسانية كانت تغيب يقيناً عن بلنسية في تلك الأعوام، قضى ثاباتا شهوراً يجوب مولا دي كورتيس وحده، وأقنع المورسكيين في النهاية بمغادرة إسبانيا طوعاً. وبين يناير وفبراير 1612، اقتاد ثاباتا هؤلاء المورسكيين بنفسه إلى الساحل، وأرسل أخاه على إحدى السفن المتوجهة إلى الجزائر لضمان أمانهم[2].

وفي مناطق أخرى من إسبانيا، اختفى المورسكيون لتفادي المفوضين الذين جاءوا لإبعادهم ثم عادوا إلى بيوتهم بعد أن رحل المسؤولون الملكيون. وحصل بعضهم على شهادات من مسؤولين نصارى محليين تجيز لهم البقاء. وقد كانت هذه التطورات مصدر إحباط كبير للملك ووزرائه. فقبل أيام قليلة من احتفالات الشكر في مدريد، أمر فيليب ابن عمه المركيز كاربيو Marquis of Carpio بتنفيذ عملية طرد جديدة للمورسكيين في إشبيلية «لأنه من المفهوم أن كثيرين منهم لم يغادروا، وأن آخرين ممن غادروا رجعوا وتمكنوا من الاختفاء». ومن أجل ضمان أن «تنتهي هذه العملية بالنتيجة التامة إرضاء لله والملك»، أصر الملك على طرد كل هؤلاء المورسكيين «حتى لو كانت معهم شهادات بأنهم كانوا يعيشون كنصارى جيدين لأن هذه الوثائق مشكوك فيها»[3].

وفي أكتوبر 1612، عاش فيليب مأساة شخصية، حين ماتت زوجته المحبوبة مارغريت النمساوية في أثناء الولادة. قبل موتها، كانت مارغريت

(1) كان الواحد من «صيادي البشر» الإسبان يكافأ على عدد الرؤوس أو «القضبان» التي يعود بها إلى غرناطة، فقد كان الواحد منهم يقطع رأس أو «قضيب» فريسته ليريح نفسه من حمل الجثمان كاملاً، أو حتى الرأس [المترجم].

قد أسست دير التجسيد Convento de la Encarnación في مدريد شكراً لله على الطرد. لم يتزوج فيليب بعدها، وظل وفياً للمهمة التي أيدتها بكل إخلاص. وقد كان لدى ليرما هو الآخر مبرر لضمان أن إسبانيا قد «تطهرت تماماً من الموريسكيين حتى لا تبقى ذكرى لهؤلاء الناس»[4]. فشهرته ارتبطت بقوة بنجاح المشروع الذي فعل الكثير لإطلاقه، كما أن مكانته في البلاط تزعزعت كثيراً بعد اكتمال الطرد. ففي عام 1612، طُرِد رودريغو كالديرون Rodrigo Calderón؛ أحد أكثر أتباع ليرما فساداً من البلاط في عملية انتهت بإعدامه. كان هذا الحدث انتصاراً كبيراً لأعداء الدوق السياسيين وتأكيداً آخر على تراجع نفوذه[5]. وربما أسهمت هذه الظروف الشخصية في تقوية عزيمة الرجلين على «إكمال» عملية الطرد، التي اتضح أنها أكثر خلافية وضرراً وتعقيداً مما ظن أي منهما.

***

في الجزء الثاني من رواية دون كيخوتة التي كتبت بعد الطرد، قدم ثيرفانتس صورة أكثر وداً لإسبانيا الموريسكية من كتاباته السابقة حول الموضوع في شخصية الصديق الموريسكي المطرود لسانشو بانثا Sancho Panza، المدعو ريكوتي الأندلسي Ricote the Moor؛ صاحب دكان سابق في مدينة سانشو الأصلية. يلتقي الرجلان ثانية على غير المتوقع، حين يعود ريكوتي إلى إسبانيا من شمال إفريقيا متنكراً في هيئة حاج نصراني كي يستخرج كنزاً كان قد دفنه في قريته. نوى ريكوتي أن يأتي بزوجته وابنته من شمال إفريقيا بأخذهما إلى ألمانيا، لأنهما «نصرانيتان كاثوليكيتان، وعلى الرغم من أنني لست في تدينهم النصراني، فإنني من الداخل نصراني أكثر من كوني أندلسياً». يتحدث صاحب الدكان الموريسكي إلى سانشو عن «الرعب والفزع» الذي أحدثه أمر الملك بالطرد بين «أبناء أمتي»، ويندب المصير الكارثي الذي لاقاه كثير من الموريسكيين في شمال إفريقيا،

معلناً: «إننا لم نعرف حظنا السعيد إلا بعد أن فقدناه[1]، وجميعنا تقريباً يشتاقون بلهفة إلى العودة إلى إسبانيا لدرجة أن غالبية من يعرفون اللغة، وهم كثر، وأنا منهم، يعودون ويتركون زوجاتهم وأطفالهم بلا حماية حباً في إسبانيا»[6].

كانت هناك بالفعل نماذج واقعية من ريكوتي، نجحت في العودة إلى إسبانيا رغم الصعوبات الضخمة التي اعترضت طريقها. ومن هذه النماذج الرحلة الملحمية لدييغو دياث Diego Díaz المورسكي القشتالي من بلدة ديميل، الذي اعتقلته محكمة التفتيش في بلمونتي Belmonte بقونكة في عام 1633. وصف دياث في محاكمته كيف تلقى هو وعائلته أمر الطرد من إسبانيا في عام 1611، حين كان في أواخر العقد الثاني من عمره. حملت عائلته ممتلكاتهم على عربات، وسافرت إلى مدينة سينت جين دي لوز بفرنسا، وكما أخبر دياث المحكمة «رأيت البحر أولَ مرة، لكن البلد كانت رطبة وباردة، واللغة والعادات غريبة علينا، ولذلك اشتقنا للعودة إلى إسبانيا»[7].

تسلل دياث ورفيق له عائدين عبر الحدود، لكن سرعان ما اعتقل المورسكيان، وقضيا ثلاثة أشهر في السجن قبل أن يُبعدا ثانية إلى فرنسا.

---

(1) طبعاً هذا الوصف للجنة المفقودة من عند مؤلف الرواية، وهو شكل من الخطاب الانتصاري الذي يعلي من شأن الذات الوطنية على ما عداها، وبخاصة أعداؤها، وإلا فأين الجنة المفقودة من الأهوال التي عاشها المورسكيون في إسبانيا من قبل الطرد بزمن طويل؟ أليست هذه الجنة هي التي أدخلتهم في النصرانية تحت حد السيف وبعد قتل عشرات الآلاف منهم؟ أليست هي التي كانت تجبرهم على ممارسة شعائر النصرانية تحت شبح محكمة التفتيش الماثل دائماً وأبداً؟ أليست هي التي عذبتهم بأبشع الطرق وأعدمتهم في حفلات جماعية للحقد المقدس بتهم سخيفة تتعلق بعدم صدق الإيمان أو إظهار مفردات الثقافة الأندلسية أو الأكل على الأرض أو الاستحمام؟ إلا إن كان هذا الحب لإسبانيا كأرض وتضاريس ومناخ وأنهار وتربة خصبة، لكنه بالتأكيد ليس لإسبانيا كمجتمع وثقافة وناس. ومن المؤكد أن إبراز حسرة المبعدين على فراق إسبانيا روّج لها الكُتاب الإسبان في المقام الأول، لإظهار أن الطرد كان انتصاراً على الأندلسيين ومحاولة للتشفي بهم حتى بعد إبعادهم [المترجم].

وبعد أشهر قليلة استطاع أن يشق طريقه عائداً إلى ديميل التي عمل فيها خادماً. وفي عام 1612، اعتقل دياث للمرة الثانية، وأفلت بصعوبة من حكم بالتجديف على السفن عبر الموافقة على الإبحار مع مورسكيين آخرين من قرطاجنة إلى الجزائر. أنزل دياث ورفاقه على الشاطئ على بعد بضعة أميال من المدينة، وسجل الاستقبال الجيد الذي لقيه هو ورفاقه من الجنود والمدنيين المسلمين الذين «بعد أن واسونا وأطعمونا أخذونا إلى المدينة... واعتنوا بنا على أحسن ما يكون، وحملوا مَنْ لم يكن يستطيع المشي منا على ظهور خيول جيدة، وأركبوا النساء» على سُرج لينة خلف الرجال.

وعندما وصلوا الجزائر، زعم دياث أنه ختن قسراً، وأخبر المحكمة لاحقاً أن ضميره أنّبه كثيراً لدرجة أنه بحث عن رجل دين نصراني اعترف له بـ«ذنبه». على أن دياث ليس راوياً موثوقاً كلياً، وربما أراد بقصته أن يفلت من العقاب، ويخفي ماضيه الإسلامي السري. لكن لا مجال للشك في تصميمه على العودة إلى إسبانيا. وبعد أن أمن انتقالاً على مركب صيد مع طاقم من المورسكيين القطلونيين والأراغونيين، غادر الجزائر وسبح إلى الشاطئ حين بلغ الساحل الإسباني[1]. ثم شق طريقه إلى سرقسطة ومنها إلى فرنسا بحثاً عن أبيه وإخوته، ليكتشف أنهم إما ماتوا أو عادوا إلى إسبانيا. قرر دياث بعد ذلك السفر إلى روما بعد أن علم أن ختانه لا يغفره إلا البابا. وحين مر بأفينيون[2]، علم أنها أرض بابوية، وأن الغفران من أحد أساقفتها أو السفير البابوي له مفعول الغفران البابوي نفسه.

وأخيراً اعترف لراهب ناطق بالإسبانية، وعاد بشهادة غفران إلى إسبانيا

(1) إذن فمراكب الهجرة غير الشرعية من شمال إفريقيا إلى أوروبا عبر البحر المتوسط في هذه الأيام لها سلفها في أوائل القرن السابع عشر! [المترجم].

(2) مدينة أفينيون- كما ورد في حاشية سابقة- كانت تشتهر بقصور الباباوات، وعاش فيها كثير من الباباوات الحقيقيين والمزيفين [المترجم].

التي عمل فيها جزاراً في مناطق مختلفة من البلاد، قبل أن ينتهي به المطاف في بلمونتي بقونكة، التي أبلغت عنه فيها خادمة ساخطة محكمة التفتيش بتهمة الإسلام. أوضح ديات في محاكمته، وهو دفع منطقي، بـ«أنني لو أردت أن أتبع شريعة محمد لبقيت في الجزائر، وهي أرض تتمتع بالوفرة في كل شيء»، وتمكّن من إقناع محاكميه بالسماح له بالبقاء في البلاد.

أظهر مورسكيون كثيرون آخرون الرغبة العنيدة نفسها في العودة إلى وطنهم. سافر بعضهم من شمال إفريقيا إلى أوروبا، ثم شقوا طريقهم براً إلى إسبانيا، واستأجر آخرون سفناً لنقلهم إلى الساحل الإسباني. وقد اعْتُرِضت سفينة إنجليزية بالقرب من أليقنت بحمولة خمسمائة مورسكي. وأكد الربان توماس توللر Thomas Taller أنهم «أجبروه على العودة بهم إلى إسبانيا، ولو حتى كعبيد، قائلين إنهم يفضلون أن يكونوا عبيداً في أراض نصرانية على أن يعيشوا في أراضي المغاربة». وربما قصد توللر، بتأكيده الإكراه الذي تعرض له منهم، أن ينقذ نفسه من العقاب، لكنه على كل الأحوال أُمِر بإعادة ركابه إلى شمال إفريقيا. وفي مايو 1613، كتب نائب القاضي الأول في أراغون غاسبار دي كاستيلبي Gaspar de Castelví إلى فيليب ليسأله عما يرد به على ربان فرنسي من الجزائر طلب التوسط نيابة عن أربعمائة مورسكي أرادوا العودة إلى إسبانيا كي «يعيشوا ويموتوا كنصارى جيدين». وقد عرض هؤلاء المورسكيون، وفقاً للربان الفرنسي، أن يحضروا معهم بعض الأسرى النصارى في مقابل المعونة المالية من إسبانيا لدفع أجرة رحلتهم. وجاء رد فيليب مخادعاً، فقد أمر كاستيلبي بأن يقبل ذلك الترتيب إلى أن يصل الأسرى النصارى سالمين، وبعدها «يبعد المورسكيين إلى أي مكان يريدون، ما عدا إسبانيا»[8].

***

كان المورسكيون الذي يضبطون عائدين إلى إسبانيا يتعرضون لطيف

واسع من العقوبات القاسية، بدءاً من الجلد والسجن حتى أحكام طويلة بالتجديف على القوادس، وانتهاء بالإعدام. ففي يونيو 1613، طرد سالاسار ثمانمائة موريسكي ممن عادوا إلى بيوتهم في ألماغرو Almagro بلامانشا بعد الحكم على عدد كبير غيرهم بالعمل في السفن ومناجم الزئبق. لكن القمع الأشد لم يكن كافياً لإغلاق حدود إسبانيا النفّاذة، فواصل موريسكيون من كل الأعمار ومن الجنسين العودة إلى البلاد. ومع أن بعضهم عادوا إلى بلداتهم وقراهم، فقد كان يستحيل تعقب غيرهم، لأنهم، كما ذكر أحد مسؤولي فيليب من مالقة في نوفمبر 1610، «كانوا يستقرون في أي مكان لا يُعرَفون فيه»، ويمتزجون فيه مع السكان المحليين «على أنهم من النصارى القدامى».

وفي صيف عام 1611، أبعد نحو ستمائة موريسكي من بلدة بياروبيا دي لوس أوخوس Villarubia de los Ojos بلامانشا، واقتيدوا إلى مدريد. وفي أثناء الرحلة، فر مئتان وخمسون منهم من مرافقيهم احتجاجاً على طردهم، واحتلوا قصراً شاغراً يملكه مُقْطِعهم الكونت ساليناس Count of Salinas، الذي كان غائباً عن العاصمة. ومع أن بعض الموريسكيين الأكثر تشبثاً استطاعوا الحصول على استثناءات عبر هذا الاحتجاج، فإن الباقين اقتيدوا خلال برغش إلى فرنسا. وفي نهاية العام، تسلل كل هؤلاء الموريسكيين تقريباً عائدين إلى إسبانيا، وشقوا طريقهم ثانية إلى بياروبيا، وهناك اضطرت السلطات لتنفيذ طرد ثان. واستطاع كثير من الموريسكيين من البلدة أن يعودوا مرة أخرى، فأجري طرد ثالث من بياروبيا في عام 1613. وحتى بعد ذلك، كما تؤكد الدراسة المهمة للطرد في بياروبيا للمؤرخ الإنجليزي تريفور دادسون Trevor Dadson، رجع كثير من هؤلاء الموريسكيين إلى بيوتهم مرة رابعة، وربما نجحوا في البقاء فيها بشكل دائم[9].

اهتم الملك وكبار مسؤوليه كثيراً بالأدلة التي أفادت أن النصارى القدامى كانوا يساعدون الموركسيين في العودة إلى إسبانيا أو تجنب الطرد. ففي بياروبيا رفض النصارى شراء البيوت التي أخلاها جيرانهم الموركسيون، على ما يبدو، لأن مالكيها السابقين يمكن أن يعودوا إليها لاحقاً. وعلى الحدود الفرنسية، سمح المسؤولون الإسبان أحياناً للموركسيين المرضى والعجائز بالعودة إلى البلاد، بل وأعطوهم مالاً وطعاماً لرحلتهم. وفي بعض الحالات، سمح ملاك الأراضي لمُقْطَعيهم السابقين بالعودة سراً إلى ضِياعهم، وبخاصة في أراغون، التي كان من السهل على الموركسيين أن يتسللوا إليها عبر الحدود من فرنسا. وفي سبتمبر 1612، اشتكى سالاسار إلى ليرما من أن كثيراً من الموركسيين كانوا يعودون من فرنسا بتشجيع من مُقْطِعيهم السابقين، وتذمر من «ضعف الاهتمام الذي أبداه القضاة باعتقالهم وعقابهم».

نفذت الحكومة محاولات مختلفة لمنع هذا التواطؤ. ففي العشرين من إبريل 1613، صدر أمر ملكي يذكّر المسؤولين في أنحاء البلاد كافة بواجبهم بطرد «كل الموركسيين والموركسيات، الذين عادوا أو لم يغادروا البلاد» وشجب «المحاكم والأشخاص المختلفين»، الذين أعطوا الموركسيين «تقارير شريرة وبراهين زائفة» مكّنتهم من طلب الاستثناء. وفي الشهر التالي، اضطر فيليب لإصدار مرسوم آخر شجب فيه «إهمال» النصارى، الذين سمحوا «للأندلسيين والأتراك» بالعودة إلى إسبانيا، وأمر كل المسؤولين «أياً كانت منزلتهم ومكانتهم» بتنفيذ أوامر الطرد.

كانت مهمة فرض هذه الأوامر تقع بالدرجة الأولى على الكونت سالاسار الذي لم يكل أو يمل، إذ تولى وحده قيادة الطرد في قشتالة بعد موت ألونسو دي سوتومايور في عام 1610. أبدى ثيرفانتس لاحقاً تقديراً ساخراً لدور سالاسار في الطرد، حين حيّا ريكوتي الأندلسي الرجل الذي

تحمل «بتعقل وحصافة ويقظة وكذلك بإرهاب... ثقل مشروعه الواسع حتى إنجازه كاملاً، ولا تمتلك فنوننا أو حيلنا أو التماساتنا أو احتيالاتنا القدرة على إبهار عيون آرغوس[1]، التي تراقب دائماً لترى ما إذا كان أحدنا لايزال يكمن مختفياً، لينمو كجذر خفي مع الوقت ويحمل ثماراً سامة في إسبانيا»[10]. وقد تقرر مصير كثير من المورسكيين بفعل هذه «العيون الآرغوسية»، حيث كان سالاسار يركب جيئة وذهاباً عبر إسبانيا ليدقق الأنساب والسجلات المحلية بحثاً عن المورسكيين الذين أفلتوا من الطرد، فيطلب قوائم بأسماء المورسكيين من الإدارات المحلية، ويرفضها لكونها ناقصة أو خاطئة، ويصطاد المورسكيين الذين عادوا إلى البلاد.

كان سالاسار مصمماً أيضاً على إبطال الاستثناءات التي استطاع المورسكيون أن يحصلوا عليها من المحاكم المحلية. فرغم أوامر مجلس الدولة برفض كل هذه الالتماسات، ظل كثير من المورسكيين يتحدون طردهم بمبررات مختلفة، إذ تذرع بعضهم بالشيخوخة والوهن، وأصر غيرهم على أنهم كاثوليك جيدون، أو التمست بعض النساء الاستثناء نيابة عن أزواجهن المورسكيين، في حين أنكر آخرون نسبهم الأندلسي، أو ذهبوا إلى أن الطرد كان خرقاً لاتفاقات قانونية قديمة مع الحكام النصارى ترجع لقرون في الماضي. وكانت هذه الالتماسات تجد دائماً تأييداً

(1) آرغوس بانوبتس Argus Panoptes - في الميثولوجيا اليونانية - عملاق ذو مئة عين كان مكلفاً بحراسة البقرة إيو Io. كانت إيو وصيفة هيرا Hera زوجة زيوس كبير الآلهة، وأحب زيوس إيو واغتصبها، ثم حوّلها إلى بقرة حتى لا تتعرف عليها زوجته الغيورة هيرا، لكن هيرا العلمها بحقيقة البقرة طلبتها منه كهدية، وعيّنت لها أرغوس كثير الأعين لحراستها بعيداً عن زيوس. وتستمر الأسطورة إلى أن يرسل زيوس هيرميس Hermes لقتل أرغوس، وبعد موت الأخير حوّلت هيرا عيونه المئة إلى ذيل طاووس، وأطلقت هيرا البقرة إيو وأجبرتها على أن تهيم على وجهها في الأرض دون راحة، وأرسلت نعرة لتلسعها من حين إلى آخر. طافت إيو بمصر حيث وضعت ابنها يبلوس، الذي أصبح ملك مصر وأبا المصريين، في حين عاد ولداها كادموس ودانوس إلى بلاد اليونان [المترجم].

من مسؤولين دينيين وعلمانيين واصلوا تحدي هدف الطرد الحكومي، وبدا أحياناً أنهم يقوّضونه بقوة. ففي عام 1612، أمر رئيس أساقفة إشبيلية كهنته صراحة بعدم جمع قوائم «المورسكيين القدامى» في تحدٍّ صريح لأوامر الملك. وفي أغسطس من ذلك العام، أخبر السوط السابق لهورناتشوس ريغوريو لوبيث ماديرا سكرتير سالاسار عن كاهن «شديد الخبث» في بياروبيا دي لوس أوخوس يدعى الأب نارانخو Naranjo ادعى عدم وجود مورسكيين في أبرشيته. وفي صيف عام 1612، قبض المجلس البلدي في بلاسينثيا بإشتريمادورا على أحد أتباع سالاسار كان قد أرسل لجمع قوائم بأسماء المورسكيين في منطقتهم. ورغم احتجاجات سالاسار، ظل تابعه في السجن أكثرَ من عام.

كانت المعارضة النصرانية في معظمها تتخذ أشكالاً سرية. ففي بعض الحالات كان المسؤولون في أسفل السلم البيروقراطي يحاولون تأخير الطرد بطلب مزيد من التوضيحات من سالاسار أو بإبراز صعوبات في تنفيذ أوامره. كما تزوج بعض الرجال النصارى من مورسكيات لإنقاذهن من الطرد. ففي أكتوبر 1612، اشتكى سالاسار للملك من أن كثيراً من هؤلاء المورسكيات المتزوجات حديثاً كن يطلّقن أزواجهن بعد ذلك للحصول على درجات دينية بتواطؤ من الأديرة التي كانت «تبيع الدخول فيها، كما لو كان سلة من الإجاص»، وهي ظاهرة رأى سالاسار أنها كانت «تدمر المملكة وتروعها»[11].

كان الكونت المجتهد مجبراً دائماً على الاعتماد على مسؤولين «كثيري النسيان»، كان يشك في أنهم يقدمون قوائم ناقصة بالمورسكيين في مناطقهم، أو مجبراً على إصدار تعريفات جديدة للمورسكي لمواجهة التقييمات الإيجابية من رجال الدين المحليين. وحاول سالاسار أيضاً أن يفرض سلطة الملك على المحاكم والقضاة العلمانيين، الذين اتهمهم بتزويد

الموريسكيين بـ«تقارير ووسائل أخرى زائفة» مكّنتهم من طلب الاستثناء. وفي نوفمبر 1612، منح ليرما لسالاسار ترتيباً خاصاً مكّنه من الإشراف شخصياً على كل طلبات الاستثناءات لتجنب «التعقيد والتطويل والاحتيالات والارباكات» المنبثقة عن المحاكم العلمانية. ورغم التسلح بهذه السلطات الاستثنائية، لم يتمكن هذا البيروقراطي العنيد والقاسي قط من التغلب على هذه الأفعال.

من الواضح أن الإسبان لم يكونوا جميعاً يشاركون حكامهم الالتزام العنيد بهدف النقاء الديني. فالأرستقراطيون والكهنة والنصارى العاديون كلهم أيدوا الطرد بدرجات متفاوتة من الحماس. لكن أعضاء الجماعة الواحدة منها كانوا أيضاً مختلفين فيما بينهم. فلم يشأ بعضهم أن يخسر مصدراً مهماً للدخل، ورأى بعضهم أن الطرد كان ظالماً ولا يتفق مع النصرانية، ورفض آخرون إرسال العجائز والأطفال الصغار إلى ما اعتبروه موتاً محققاً، وكان هناك أيضاً من لم يوافقوا على طرد أصدقائهم وجيرانهم. ومع أن المؤرخين المحافظين يعتبرون الطرد دائماً أولوية عرقية أو وطنية ساحقة، فإن التواطؤ الذي اجتهد سالاسار لمنعه يوحي بصورة مختلفة تماماً لعملية طرد أطلقت ونفذت من أعلى، وظلت تعمل عاماً مؤلماً بعد آخر، حتى بعد فترة طويلة من انحسار الغبطة والشعور بالانتصار اللذين رافقا الإبعاد الجماعي الضخم في بلنسية.

***

ازداد هدف إكمال الطرد تعقيداً بسبب الأعداد الكبيرة من الأطفال الموريسكيين المعروفين باسم الموريسيكيو Morisquillos أو الموريسكيين الصغار، الذين بقوا في إسبانيا بعد طرد ذويهم وعائلاتهم. ففي إشبيلية وحدها، تخلف زهاء ثلاثمائة طفل بعد موجة الطرد الأولى من أندلوسيا. وفي يناير 1610، حذّر كاراثينا فيليب من أن «الأولاد والبنات الصغار

السن»، الكثيرين الذين بقوا في بلنسية، كانوا عرضة للاستعباد، وأوصى بأن يوضعوا في رعاية «أشخاص أغنياء من ذوي المكانة» إلى أن تتوافر بيوت دائمة لهم. وفي إبريل من ذلك العام، أحيط مجلس الدولة علماً بأن نحو ألفي طفل موركسي تحت عمر السابعة بقوا في بلنسية. وكان هناك أيضاً آلاف من الأطفال الأكبر سناً والمراهقين مبعثرين عبر المملكة. بعض هؤلاء الأطفال تخلى عنهم ذووهم، وبعضهم اختطفوا كعبيد أو احتفظ بهم المُقْطِعون النصارى، الذين رأوا فيهم وسيلة لإعادة إنتاج قوة عاملة موريسكية. ومُنع عدد من الأطفال من المغادرة، إما بالقوة أو الإقناع، من جانب كاثوليك متحمسين رأوا أن واجبهم الديني يحتم تنشئتهم كنصارى. وقد حاولت الإدارات المحلية أن تتعقب هؤلاء الأطفال وتجمع قوائم بأسمائهم وأعمارهم وسماتهم المميزة في سجلات رسمية، فضلاً عن أسماء الأوصياء عليهم، إن وجدوا.

من أمثلة ذلك سجل من بلدة أونيل Onil البلنسية يسجل الأطفال على هذا النحو: «خوان في الثالثة من العمر، أبيض وأشقر بعينين سوداوين وفم كبير»، في وصاية نصراني محلي يدعى خوان مولينا، و«أليسيا في الثالثة من العمر، فمها صغير»، و«أنطونيا في الثانية عشرة من العمر سمراء، وفمها كبير» والاثنتان في رعاية الدوقة مانداس[12]. كان كثير من هؤلاء الأوصياء من النساء، ويشير لقب الدونا Doña إلى حسبهن الاجتماعي، والأطفال الذين تركوا في رعايتهن ربما كانوا محظوظين، أياً كانت الظروف التي جاءت بهم إليهن. فكثير من الأطفال الموركسيين المسجلين في هذه السجلات لم يكن لهم أوصياء أو أسماء أو حتى أعمار. وكان بعضهم في عامه الأول أو الثاني من العمر، ويُميَّزون فقط بسماتهم الجسمية البارزة.

كان الأطفال الموركسيون مصدر قلق استحوذ على فيليب وكبار مسؤوليه الذين كانوا دائماً ممزقين بين واجبهم الديني نحو تنشئة هؤلاء

«الأبرياء» كنصارى جيدين، وبقايا التحيز والريبة التي اعتبرت حتى أصغر الأطفال «بذرة فاسدة» يمكن أن «تعدي» إسبانيا ثانية. وكان المراهقون والأطفال الأكبر سناً موضع اشتباه أكثر من الأطفال الأصغر سناً، لاحتمال تشربهم بعادات ومعتقدات ذويهم، وقدرتهم على إعادة إنتاجها في المستقبل. ولذلك كان هؤلاء الأطفال يراقبون دائماً عن قرب من جانب السلطات الدينية والعلمانية للتعرف على الأمارات الواضحة للفيروس الإسلامي، مثل النفور من لحم الخنزير. وفي مارس 1610، أعرب الدوق ليرما القوي نفسه عن القلق من التقارير حول الأولاد المورسكيين في بلنسية، الذين اكْتُشِف أنهم يلبسون «ميداليات على شكل أهلة».

لم تكن هذه الشكوك ترتبط بالضرورة بطول الوقت الذي قضاه هؤلاء الأطفال مع ذويهم. فبالنسبة إلى القطاعات الأكثر تشدداً بالمجتمع الإسباني التي كانت ترى أن الإسلام سمة متأصلة في «الدم» أو «الروح» الأندلسية، كان الأطفال الذين لم يبلغوا «سن الرشد» يشكّلون تهديداً محتملاً على النقاء الديني لإسبانيا، الذي تحقق بشق الأنفس. وحتى الأطفال الرضع الذين لم يكملوا عامهم الأول في الحياة قد لا يكونون أبرياء كما يبدون. فنظراً لعدم معرفة أصولهم وخلفيتهم دائماً، كان من المستحيل معرفة ما إذا كانوا قد عُمّدوا، وما إذا كان القربان المقدس قد قدم لهم بالطريقة الصحيحة. وحتى إذا كان الطفل المورسكي قد عمد وفقاً للطقوس الكاثوليكية، كان يظل هناك دائماً شيء من الشك في أن يحمل هؤلاء الأطفال «ذكرى من دين آبائهم» معهم في سن البلوغ.

هل تكفي التنشئة النصرانية لضمان أن «ينسي هؤلاء الأطفال منبتهم، ويصبحون نصارى كاثوليكيين مثاليين يحبون ديننا» بتعبير فيليب؟ وكيف يجب العناية بهم؟ وهل السلطات ملزمة أخلاقياً بتوفير الرعاية لهؤلاء الأطفال، أم كان من الأنسب من منظور منع «إعادة العدوى»

طردهم جميعاً إلى شمال إفريقيا بغض النظر عن مصيرهم هناك؟ أخضعت هذه الأسئلة لدراسة متأنية من جانب رجال الدين وعلماء الدين وكهنة الاعتراف الملكيين، الذين كان فيليب يطلب مشورتهم في هذه القضية. وفي ربيع عام 1610، خلص مجلس من علماء الدين في مدريد إلى أن الأطفال المورسكيين دون عمر السابعة يجب ألا يطردوا إلا إذا كانوا «ملوثين بدينهم» لدرجة يصعب معها تخليص أرواحهم. لكن المجلس ذكّر فيليب- مع ذلك- بأن هذه النتيجة ترقى إلى حكم الإعدام، وأن هذه النتيجة «لا تتفق مع الحماس المقدس لجلالتك». وبدلاً من ذلك، اقترحوا أن يعطى الأطفال المورسكيون جميعهم لعائلات نصرانية لتربيتهم ككاثوليك جيدين و«استخدامهم فيما بعد كخدم» لدفع ثمن تنشئتهم وتعليمهم. وفي مارس من ذلك العام، اقترح مجلس الدولة أن يوضع الأطفال المورسكيون في خدمة «الأساقفة والسادة» القشتاليين، وأوصوا بفصل الأولاد عن البنات لمنعهم من «الزواج والتكاثر»، وهو الاحتمال الذي كان يشغل رجال الدين ورجال الدولة الإسبان دائماً في أثناء هذه المناقشات. لم يَرُق للملك إقرار المجلس للعبودية، لكن فيليب نفسه كان دائماً غير قادر على اتخاذ قرار بشأن الأطفال المورسكيين. وأعلن في الشهر التالي، بدلاً من ذلك، أن الأطفال المورسكيين يجب أن تتبناهم عائلات نصرانية وتتعهدهم وتربيهم إلى أن يبلغوا عمر الثانية عشرة، وبعدها يخدمون عائلاتهم بالتبني لعدد غير محدد من الأعوام «في مقابل الجهد والتكلفة اللذين أنفقا في تنشئتهم وتربيتهم».

لم يكن الفرق بين هذا الشكل من العبودية المنزلية والعبودية الصريحة واضحاً تماماً، ومع ذلك فلم يمض غير شهر حتى غيّر فيليب رأيه، وأعلن نيته طرد كل الأطفال المورسكيين فوق عمر السابعة من بلنسية. لكن من الواضح أن هذا الأمر لم ينفذ. وفي شهر أغسطس، أمر رئيس الأساقفة

ريبيرا بإعادة معمودية كل الأطفال الموركسيين في بلنسية بغض النظر عن عمرهم لإزالة الشكوك المتبقية حول صحة معموديتهم الأصلية. وقد تعرض ريبيرا لانتقادات كثيرة على ما اعتبر خرقاً للمذهب الكاثوليكي، لكن إعادة التعميد لم يقصد بها بالضرورة دمج الأطفال الموركسيين في المجتمع النصراني، إذ يبدو أن بعض النصارى كانوا يتمنون ما أسماه خايمي بليدا «الأمل البسيط» بأن يموت هؤلاء الأطفال المعمَدون بعد ذلك، وهي النتيجة التي كانت تسمح للكنيسة بتخليص أرواحهم كنصارى، وفي الوقت نفسه تستأصل أي تهديد قد يشكّله هؤلاء الأطفال في المستقبل. على أن بليدا نفسه لم يكترث بالخلاص الروحي أو حتى البقاء المادي لهؤلاء الأطفال، ودعا إلى طردهم جميعا إلى شمال إفريقيا بغض النظر عن مصيرهم.

وبغض النظر عما إذا كان ريبيرا قد شاركه «الأمل البسيط» بأن يموت هؤلاء الأطفال، فقد رفض بشدة منح الأطفال الموركسيين الذين أعيد تعميدهم منزلة النصارى نفسها. وفي نوفمبر اقترح أن يباع الأطفال الموركسيون «كعبيد بأسعار منخفضة». ومن أجل ضمان ألا يصبحوا «لصوصاً ومومسات» أو يتورطوا أمام محكمة التفتيش أوصى ريبيرا سادتهم بأن «يوبخوهم ويضربوهم بالسياط ويكبلوهم لمعاقبتهم، وأيضاً أن يحبوهم ويعلموهم مهارات مفيدة». ورأى ريبيرا أيضاً في الاستعباد وسيلة لمنع هؤلاء الأطفال من الزواج، وبذا يُضمن «انقطاع توالد هذه الذرية الشريرة في هذه الممالك»[13].

لا أحد يعرف ما إذا كانت هذه المقترحات قد نفذت فعلاً، ولايزال مصير الأطفال الموركسيين يشكّل أحد ألغاز الطرد. وفي النهاية لم تكن هناك سياسة متماسكة واحدة. فبعضهم دفعوا بلا شك إلى السفن، وأرسلوا إلى مصير مجهول، وبعضهم استعبدوا أو ماتوا وهم في عناية

السلطات قبل أن يقرر مصيرهم. لكن غالبيتهم تربوا في عائلات نصرانية، ونسوا آباءهم وأمهاتهم المبعدين، والشوائب الموجودة في دمهم التي ألهبت القلق والاشمئزاز لدى علماء الدين ورجال الدولة.

* * *

كان التخبط بشأن الأطفال المورسكيين مؤشراً آخر على الهوة السحيقة بين الرؤية المجردة للنقاء الديني، الذي أراده فيليب ومسؤولوه من ناحية، والتعقيدات والصعوبات العملية أمام بلوغ هذا الهدف من ناحية أخرى. وبحلول عام 1613، كان الطرد قد فقد معظم كثافته الأولى، وتقلص جهازه الإداري بشدة. ومع أن سالاسار واصل محاولاته لاستئصال المورسكيين، الذين بقوا في البلاد أو عادوا إليها، فقد غدا بعض مستشاري فيليب متلهفين إلى إغلاق الموضوع، وارتابوا في أن سالاسار كان يطيل عملية الطرد لتعزيز نفوذه الشخصي.

وحدث آخر إبعاد واسع النطاق في مرسية، التي منح مورسكيون كثيرون فيها مهلة بفضل شهادات إيجابية من الإدارات المحلية. كان معظم السكان المورسكيين يتركزون في سلسلة من القرى في وادي ريكوتي Ricote الخصيب على نهر شقورة[1]، الذي منحه التاج لأخوية شنت ياقوب العسكرية القوية. خدم كثير من هؤلاء المورسكيين المرسيين كفرق استكشاف في جيوش فيليب الثاني في حرب البشرات، وربما يفسر ولاؤهم المثبت للدولة وحماتهم الأقوياء السبب في أنهم لم يبعدوا في مرحلة مبكرة من الطرد. لكن وجودهم لم ينس رغم ذلك. وفي عام 1612، أرسل مجلس الدولة كاهناً يدعى خوان دي بيريدا Juan de Pereda لإجراء بحث كامل للمورسكيين الباقين في مرسية. وفي تقرير مفصل من ثلاث وعشرين صفحة قائم على مقابلات مع نحو خمسين رجل دين محلياً،

(1) Segura في اللغات الأوروبية [المترجم].

كتب الأب بيريدا أن «الرأي العام» إزاء «الموريسكيين القدامى» في مرسية هو أنهم «نصارى جيدون وأتباع مخلصون»، يمتثلون لكل واجباتهم الكاثوليكية[14]. فلم يكن هؤلاء الموريسكيون يتلقون الأسرار المقدسة طوعاً فحسب، وإنما ذكر بيريدا أيضاً أنهم كانوا يقدمون تبرعات خيرية للأديرة المحلية ويقومون «بأفعال إيجابية ضد دين الإسلام»، وباستثناء بضع «نساء عجائز»، فإنهم لا يتحدثون اللغة العربية أو يتذكرونها. ووجد بيريدا أدلة دامغة على إخلاصهم للنصرانية في قرى وادي ريكوتي التي طور الموريسكيون فيها مواكب توبة ومناسك جنائزية خاصة، تقوم فيها «عذارى حافيات في أردية بيضاء» بحمل صلبان ثقيلة وهن «مغطيات وجوههن حداداً». وقد أعجب الكاهن بشكل خاص بالمواكب الليلية في هذه القرى، التي كانت النساء الموريسكيات يحضرن فيها صلوات في الكنائس المحلية وهن حاملات صلباناً وصوراً دينية وشموعاً ويبكين، في حين يقوم رجالهن بضرب أنفسهم بالسياط، وإخضاع لحمهم إلى «تأديب الدم».

أكد تقرير بيريدا شهادات سابقة عن الاندماج الكامل للسكان الموريسكيين الذين كان صدق تدينهم النصراني لا شك فيه. ومع ذلك، وعلى غرار ما حدث في مواقف سابقة، رفضت الحكومة في مدريد قبول النتائج التي تحدّت فرضياتها. وزعم أنصار النقاء المطلق الأشد عناداً أن بيريدا كان ضحية لخداع متقن من الموريسكيين المرسيين وحماتهم النصارى، وحرضوا الملك على طردهم. ونوقش مصير الموريسكيين في مرسية في عدة مناسبات على أعلى المستويات، وفي ربيع عام 1613 صوّت مجلس الدولة لصالح طرد كل الموريسكيين الباقين في مرسية بفارق صوت واحد كان لعم ليرما المتشدد بيرناردو دي ساندوبال. وقبل فيليب هذه التوصيات، وفي أكتوبر استدعي سالاسار إلى القصر الملكي في أرانخويث، وقدم له

الملك المرسوم الموقع بالطرد، الذي زعم فيه الملك أنه تلقى «معلومات حقيقية ومؤكدة جداً» أثبتت أن الموركسيين في مرسية «سيرتهم مخزية في كل شيء»، وأنه لذلك صمم على طردهم جميعاً.

كانت هذه الاتهامات تتناقض تماماً مع كل شيء ورد في تقرير بيريدا، ولم يقدم الملك أي أدلة جديدة تدعمها. لكن الأدلة لم تكن يوماً عاملاً مهماً في موقف الملك من الموركسيين. ففيليب المنعزل في عالمه المزخرف بالمآدب والقصور والمنتجعات الريفية، الخاضع لنفاق وتملق حاشيته ومحاسبيه، لم ير عشرات الآلاف من الرجال والنساء الذين غادروا إسبانيا بأوامره، ولم يكن مستعداً للتفكير في أي نسخة لإسبانيا الموركسية تناقض ما كان يعتقده.

وفي الثامن عشر من ديسمبر، دخل سالاسار وادي ريكوتي بنحو مئتين وثمانين جندياً من فيلق لومباردي، وأعطى الموركسيين عشرة أيام لبيع ممتلكاتهم والمغادرة. وفي يناير 1614 اقتيد زهاء سبعة آلاف موركسي إلى الساحل حيث كانت السفن تنتظر لنقلهم إلى شمال إفريقيا. نجح بعض الموركسيات في الإفلات من الطرد بالزواج من نصارى قدامى أو دخول الأديرة، وانسل موركسيون آخرون عبر الحدود إلى بلنسية ثم عادوا لاحقاً. وبهذا التهجير الجماعي الكئيب وغير المبرر وصل الطرد آخر مراحله. وفي الخامس والعشرين من يناير، أخبر سالاسار الملك بأن «طرد الموركسيين من وادي ريكوتي ومملكة مرسية أنجز فعلاً كما أمرت جلالتك، وبذلك لم يعد مكان في إسبانيا كلها يوجد فيه أي شخص يحمل اسم الموركسيين». وفي العشرين من فبراير، دعا مجلس الدولة في مذكرة إلى الملك تفوح بالضجر أكثر منها بالانتصار، إلى الإيقاف الرسمي لعملية رأى أعضاء المجلس أنها تجاوزت غرضها الأصلي:

ناقش المجلس الأهمية القصوى- خدمة لله ولجلالتك-

> لإيقاف التحقيقات والسلطات القضائية المرتبطة بموضوع الطرد وإنهائها. ويجب أن تقتصر جهودنا فقط على منع الذين طردوا من العودة ومعاقبة من فعلوا ذلك بواسطة القضاة العاديين... ويجب أن يؤمر الكونت سالاسار بكف يده عن هذا الأمر، ويجب ألا يقبل القضاة أي تحريات أخرى حول المورسكيين، إلا ما يتعلق منها بالعائدين... وبداية من اليوم فصاعداً لن يؤذى مَنْ لم يغادروا إسبانيا حتى لو كانت لهم قضايا معلقة بالمحاكم، ولن يجري الحديث عنهم، لأن هذا الأمر إن لم يوقف فلن ينتهي أبداً، وكذلك المظالم التي قد تنتج عنه[15].

وفي أغسطس من ذلك العام فقط، كان فيليب مستعداً لإعلان «الإنهاء بعد طرد كل المورسكيين» في مرسوم متناقض أمر أيضاً «كل المورسكيين الذين لم يغادروا البلاد أو عادوا إليها بأن يغادروا، وإلا تعرضوا للعبودية على السفن ومصادرة الممتلكات»[16]. لكن هذه الأوامر توحي بأن نهاية الطرد لم تأت بعد، مع أن فيليب ومسؤوليه قطعوا أشواطاً بعيدة على هذا الطريق. وكان سالاسار وحده ممانعاً لترك امتيازاته البيروقراطية. وحتى عام 1615، ظل يضغط على الملك للسماح له بإجراء المزيد من التحقيقات حول المورسكيين الذين بقوا في البلاد، لكن هذه الطلبات لم تُلب. وشهد شهر أغسطس 1614 الإنهاء الرسمي لعملية الطرد التي استنفدت أخيراً صبر مطلقيها. وفي أقل من خمسة أعوام، طرد حكام إسبانيا نحو ثلاثمائة ألف رجل وامرأة وطفل إلى المنفى أو أرسلوهم إلى الموت، واستأصلوا آخر بقايا الحضارة الأندلسية، التي بدأت قبل ألف عام تقريباً، حين وصلت جيوش طارق بن زياد أول مرة إلى الصخرة التي حملت اسمه.

21

الحساب

قبل فترة طويلة من إنهاء الطرد، كان أنصاره قد بدأوا محاولة متواصلة للترويج له كإنجاز ضخم أمام السكان الإسبان والعالم أجمع. كانت الدعاية ضرورية من وجهة نظر البلاط الهابسبورغي من أجل الشرف و«المكانة» اللذين أراد بلوغهما من خلال الطرد. ففي عام 1610، كلّف فيليب فنانين بلنسيين برسم سلسلة من اللوحات السردية تصوّر أحداثاً رئيسة من الطرد، ثم نسخت وقدمت كهدايا لكبار المسؤولين. وبين عامي 1611 و1618، نُشر ثلاثة وعشرون كتاباً ومخطوطة حول الطرد، من التواريخ والتبريرات النثرية إلى السرديات الشعرية المجهولة المؤلف، فضلاً عن كثير من الأوراق والأشعار الشعبية المجهولة المؤلف، المعروفة باسم «الأدب الخيطي» string literature، الذي سُمّي بهذا الاسم لأن هذه الكتيبات الرخيصة كانت تعرض على خيوط في أكشاك الباعة وعلى جانبي الشوارع. وكثير من الكتب المهمة حول الموضوع كتبت برعاية مالية من أفراد أقوياء في البلاط والحكومة، مثل كتاب خايمي بليدا الضخم: «تاريخ الأندلسيين في إسبانيا» (1618)، الذي تضمن إهداء متزلفاً إلى ليرما، امتدح الدوق على نبالة دمه و«حبه لله وحماسه الديني في تدمير الطائفة المحمدية»، وعلى دوره في تشجيع الملك، ليتبنى هذا «العمل

العظيم ضد الأندلسيين».

واحتفظ بليدا بالثناء الأكبر والأطول لفيليب نفسه، الذي اعتبره «الغازي الأخير والنهائي للأندلسيين بإسبانيا». وثمة تواريخ أخرى للطرد لم تكن أقل تملقاً من كتاب بليدا. فقد حيّا أثنار كاردونا «فيليب الملائكي مليكنا وحارسنا، وحامي الجنة الروحية للكنيسة النصرانية، ومُعَلِّم الجمهورية، وناشر الأمن في ربوعها، ونصير المضطهدين، وحامي الشريعة الإلهية والروحية». وأجزل بلاس بيردو الثناء على «أسد العائلة النمساوية»، الذي نشر السلام في ممالكه، ونقاها بطريقة إعجازية «بلا أسلحة أو عنف». وعلى الغلاف المصور لتأريخ داميان فونسيكا للطرد يصوّر فيليب في هيئة هرقل وهو يقتل تنيناً متعدد الرؤوس يرمز إلى «البدع السبع»[1]، التي كان الإسلام سابعها. وفي عام 1619، كما ذكر مؤرخ البلاط الأب بالتاسار بورينو، زار فيليب أحواض السفن بلشبونة، وهناك تملقوه بتمثيلية مجازية مأخوذة من الأساطير الكلاسيكية بعنوان: «خرافة حرب الجبابرة» صوّرت الملك في هيئة جوبيتر المنتصر، الذي يتصدى «للنوايا المرعبة» لجبابرة جبل أولمبياد[1][2].

ووضع عدد من الكُتاب فيليب في النبوءات الألفية[3] في تلك الفترة، ووصفوه بأنه إمبراطور آخر الزمان[4]، والخفي[5]، وأسد

(1) ثمة نسخ كثيرة من البدع تختلف وفقاً للفترة التاريخية والمذهب المسيحي، منها القول بعدم إلوهية المسيح، والقول بإن جسد المسيح وروحه بشريان، وتوحيد الإلوهية (الإسلام)، من بين أخرى [المترجم].

(2) جبل أولمبياد أو أولمبوس هو أعلى جبل باليونان، كان في الأساطير اليونانية موطن الآلهة الأولمبيين الاثني عشر بالعالم الإغريقي القديم، وعليه هزم الآلهة الجبابرة في «حرب الجبابرة» [المترجم].

(3) راجع حاشية سابقة للمترجم حول العصر الألفي السعيد في المسيحية [المترجم].

(4) إمبراطور آخر الزمان هو المسيح المخلّص [المترجم].

(5) راجع حاشية سابقة للمترجم حول الخفي [المترجم].

يهوده[1]، الذي قيض له الله أن يوحّد العالم النصراني في حريق كوني سيكون فاتحة للعصر الذهبي. وحث أثنار كاردونا فيليب على أن يتبع «انتصاره الفريد» بقيادة «الإسبان الذين ولِدوا تحت كوكبة القوس والرمح» لاسترداد أورشليم، في حين حثه بليدا على استثمار كنوزه القادمة من الإنديز في حرب مقدسة على الإمبراطورية العثمانية[2].

نحا هذا الإطراء إلى إطالة قامة حاكم كسول، اقتصرت خبرته بالحرب على مشاهدة «العروض البحرية» ومباريات المثاقفة، فضلاً عن أن تصوير الطرد كـ«معركة» بطولية لم يعكس المواجهة غير المتكافئة تماماً بين السكان الموركسيين العزّل والقوة المسلحة للدولة الإسبانية. فهذه التمثيلات تتبع تقاليد تملق البلاط، لكنها كانت أيضاً شكلاً من التلفيق والدعاية على طريقة القرن السابع عشر، أريد بها حشد الموافقة الشعبية على عملية طرد كانت شرعيتها دائماً موضع شك، ولم تكن نتائجها بحال من الأحوال إيجابية على نحو ما صوّر أنصارها.

***

وحتى أكثر الحكومات الملكية استبداداً تضطر إلى الاستجابة للرأي العام، ولا شك في أن الطرد لم يكن يحظى بالشعبية التي توقعها البلاط الهابسبورغي أو أرادها. كما أنه أحدث ردَّ فعلٍ دولياً لا يقل انقساماً. فأعلن الإنجليزي المتحول إلى الكاثوليكية السير توبي ماثيو Tobie Mathew، الزائر المنتظم للبلاط الإسباني أن «الأندلسيين» كانوا يستحقون الطرد على «نفاقهم الفظيع والراسخ والكامل في أمور الدين وأفعالهم اليومية والمستميتة ضد التاج». وفي عام 1611، أبدى السفير البندقي في إسبانيا

(1) كان أسد يهوده رمزاً لقبيلة يهوده الإسرائيلية في سفر التكوين بالتوراة، والملك داوود والمسيح كلاهما من قبيلة يهوده، التي ترجع إلى يعقوب، ولذلك يرمز الأسد إلى يهوده وإلى المسيح [المترجم].

أيضاً موافقته على الطرد، ووصف المورسكيين بأنهم «أسوأ ناس»[3]. لكن ثمة سياسيين أجانب آخرين كانوا أقل ترحيباً بالطرد. من هؤلاء، السفير الإنجليزي في مدريد اللورد فرانسيز كوتنغهام Francis Cottingham، الذي اعتبر الطرد «وحشية لم يُعرَف لها مثيل في أي عصر»[4]، وشجب الوزير الأول الفرنسي كاردينال ريشليو Cardinal Richelieu ما اعتبره «أكثر الأفعال حماقة وهمجية في تاريخ البشرية»[5].

وجاء رد البابوية أيضاً أكثر فتوراً مما أراد البلاط الهابسبورغي. ففي عام 1610، أرسل فيليب الراهب الدومينيكي البرتغالي داميان فونسيكا إلى روما من أجل حشد تأييد البابا بول الخامس للطرد، ونُشر دفاع فونسيكا باللغة الإيطالية قبل أن يترجم إلى الإسبانية في محاولة لحَشد التأييد لقرار الملك خارج إسبانيا. وحتى قبل الطرد كان فيليب متلهفاً إلى الحصول على الموافقة البابوية، وتكشف رسالة بعثت في السادس عشر من سبتمبر 1614 إلى السفير الإسباني في روما فرانثيسكو دي كاسترو أنه أخفق في نيل هذه الموافقة، ويبدو أن الرسالة كتبت رداً على انتقادات من جانب البابا بول بأن طرد الأطفال المورسكيين كان «عملاً قاسياً». ومن أجل إزالة هذه الفكرة لدى البابا، أمر فيليب سفيره بإطلاع البابا على التقارير الأخيرة التي أفادت بأن «أكثر من ثمانية آلاف أندلسي بلنسي» قد استقبلوا بطريقة حسنة، وخصصت لهم وظائف في الجزائر وتونس، في حين كان وجودهم يشكّل دليلاً قوياً على:

> أنه لو لم ينفذ الطرد في حينه، لوجدت نفسي في حالة هزيلة لا أتمكن فيها من اجتثاث الإسلام من ممالكي. لقد كانت العناية الإلهية هي التي أعانتني وأعطتني الرؤية والحزم لمتابعة هذا العمل. ولو سمحت لأولئك الأطفال بأن يكبروا في ممالكي، لأدى ذلك -خلال

بضعة أعوام- إلى تكاثر عدد أعداء ديننا الكاثوليكي
المقدس[6](1).

بيد أننا لا نعرف ما إذا كانت هذه التمثيلات قد نجحت فعلاً في إحداث الأثر المنشود، لكن قلق فيليب كان مؤشراً آخر على أن رواية التاج للطرد لم يكن يشاركه فيها دائماً جمهوره المستهدف. يفسر هذا التباين جزئياً الإحساس الغريب بالهبوط المفاجئ، الذي تجلى واضحاً حتى قبل إنهاء الطرد رسمياً. فمنذ عام 1611، وهو وقت مبكر، اقترح رئيس أساقفة غرناطة استحداث عطلة وطنية سنوية لإحياء ذكرى الطرد، وهو موضوع ناقشه فيليب ووزراؤه في مناسبات مختلفة، لكن هذه العطلة لم تقر قط. ولا يوجد محضر أو سجل يبيّن السبب وراء عدم إقرار التاج لاستحداث هذه العطلة، لكن التفسير الأكثر ترجيحاً هو أن حكام إسبانيا كانوا يدركون فيما بينهم أنها لن تكون عطلة شعبية، وأن كثيراً من رعاياهم لم يجدوا سبباً وجيهاً للاحتفال بالطرد.

وعلى النقيض من ذلك، خلّف رحيل المورسكيين في كثير من مناطق إسبانيا فجوات في الاقتصاد المحلي استغرق إصلاحها وقتاً طويلاً. ففي سيوداد ريل Ciudad Real؛ عاصمة لامانشا، انخفض عدد السكان من اثني عشر ألفاً إلى أقل من ألف بعد الطرد. وفي إشبيلية، أدى طرد المورسكيين إلى حرمان الميناء من معظم قوته العاملة من الحمّالين وعمال الأحواض. وفي أنحاء البلاد كافة، خسرت الكنائس والأديرة وملاك الأراضي العلمانيون العمال المهرة والعمال الزراعيين والبستانيين، الذين كان دخل هذه الكنائس وأولئك الملاك يعتمد عليهم، وفقدت المجالس البلدية مصدراً مهماً للضرائب. وفي بلد الوليد، ناشد رهبان الكاتدرائية

(1) معنى ذلك أن الأطفال المورسكيين طردوا أيضاً كما جاء في بعض توصيات مجلس الدولة [المترجم].

المحلية فيليب أن يعوضهم عن الهبات التي كان الموريسكيون السابقون يسهمون بها في عائداتها. وصدرت نداءات مماثلة من مناطق إسبانيا الأخرى لعدة أعوام بعد الطرد.

كان التأثير الاقتصادي للطرد على بلنسية أشد منه على غيرها، لأنها خسرت ثلاثين بالمائة من سكانها. وفي ذلك كتب المؤرخ غاسبار إسكولانو في عام 1611 واصفاً كيف حوّل الإبعاد الجماعي للموريسكيين «المملكة الأكثر ازدهاراً من الناحية الزراعية في إسبانيا إلى أرض مقفرة خربة»[7]. وبدت مستوطنات موريسكية كثيرة مهجورة، وظلت أراضيها بلا زراعة لأعوام كثيرة، مما دفع مُقْطِعيهم إلى الفاقة والخراب. ولم يكن البارونات هم المتضررون الوحيدون، إذ خسرت محكمة التفتيش الدخل الذي كانت تحصل عليه عبر الغرامات ومصادرة ممتلكات الموريسكيين، وخسرت الكنيسة الأعشار من الأبرشيات الموريسكية، وحُرِم التاج نفسه من الضرائب.

غير أن هذه الصورة للخراب لم تكن شاملة أو دائمة، فلم تتعرض بلنسية للانهيار الاقتصادي العام الذي خشيه خوان دي ريبيرا. صحيح أن بعض المحاصيل «الموريسكية» مثل السكر والأرز تدهورت طويلاً، لكن تعافت محاصيل أخرى مثل الكرم والقمح والحرير، وشهدت نهوضاً كذلك[8]. وتمكن بعض المُقْطِعين من التفاوض على عقود إيجار ملائمة مع مستوطنين نصارى حلوا محل المُقْطَعين الموريسكيين المطرودين، ولذلك لاحظ تقرير إلى ليرما أن «كثيراً من المُقْطِعين تكبدوا خسائر... في حين ربح آخرون». واستغل عدد من المُقْطِعين الإفلاس كفرصة للإفلات من الدائنين، أو للحصول على أسعار فائدة أدنى على ديونهم. وتربح آخرون من بيع الأراضي والممتلكات الموريسكية، ومنهم ليرما وعائلته، كما جاء في قصيدة هجائية خبيثة انتشرت في البلاط. تساءلت هذه القصيدة:

رحل مئة ألف موريسكي،
لكن بقيت هذه البيوت،
ترى على من وزّعت؟[9]

لم تكن هذه الادعاءات بلا أساس. ففي مايو 1610، ذكر السفير الإنجليزي؛ اللورد كوتنغهام، أن فيليب وزع بعض الإيرادات الناتجة عن بيع الممتلكات الموريسكية على ليرما وأقاربه، وكان للدوق أيضاً شبكة من الوكلاء في بلنسية كانت تشتري الأراضي والممتلكات نيابة عنه. وتربح بارونات آخرون أيضاً من هذه الصفقات، أو حصلوا على ألقاب جديدة ومنح من الأراضي تعويضاً لخسائرهم. فدوق غانديا الذي خشي في السابق من خراب بيته كوفئ على ولائه بسخاء حتى تمكّن من إعادة مكانة عائلة بورجيا إلى عظمتها السابقة.

لكن الجميع لم يستفيدوا من سخاء التاج في تسوية ما بعد الطرد. ففي عام 1614، أرسل مفوض ملكي إلى بلنسية لمعالجة القضايا الاقتصادية المعقدة الناتجة عن الطرد، وبخاصة المطالب المتعارضة للدائنين الذين ساعدت قروضهم في تمويل الأرستقراطية مالكة الأراضي البلنسية لأعوام كثيرة، والذين اشتكوا في النهاية من استغلال مدينيهم طرد الموريسكيين كذريعة للتهرب من التزاماتهم. وبعد عامين من المفاوضات الملتوية، سويت هذه النزاعات على حساب الدائنين الحضريين الذين أجبروا على قبول أسعار فائدة منخفضة في مقابل السداد، فيما احتفظ ملاك الأراضي المدينون بأطيانهم وإمكانية التعافي الاقتصادي. ومع ذلك، ظلت هذه الضِياع راكدة وغير منتجة لأعوام. فرغم التنبؤات المتفائلة بحلول مستوطنين نصارى سريعاً محل الموريسكيين، تردد النصارى دائماً في العمل في الداخل القاحل، الذي كانت تقع فيه معظم المستوطنات الموريسكية، ورفض كثيرون منهم قبول الإيجارات العالية والشروط الثقيلة التي

حاول البارونات البلنسيون أن يفرضوها على مُقْطَعيهم الجدد.

وأخيراً فرضت الحكومة المركزية قوانين لإعادة الاستيطان في محاولة منها لإرضاء كل من المُقْطَعين ومُقْطِعيهم، ومع ذلك ظلت سرعة إعادة الاستيطان بطيئة وغير منتظمة. ففي عام 1638، كانت متنا قرية مورسكية وخمس من أصل أربعمائة وثلاث وخمسين قرية في بلنسية لاتزال خاوية على عروشها، في حين بقيت المناطق المورسكية النائية بلا استيطان تماماً. وخلّف الطرد أيضاً ميراثاً مماثلاً من الركود والتدهور في أراغون، التي فقدت خمسة عشر بالمئة تقريباً من سكانها. فبعد ترحيل المورسكيين من ضفتي نهر إبرو، دخلت واحدة من أكثر المناطق الإسبانية خصباً في حالة من التدهور. وعلى غرار ما حدث في بلنسية، تعرض كثير من المُقْطِعين الأراغونيين للخراب والفقر بسبب فقدان مُقْطَعيهم. تمكن بعضهم من التعافي، ووجدوا نصارى يحلون محل المورسكيين المبعدين، لكن هؤلاء المستوطنين كافحوا لاستصلاح الأراضي الخصبة، التي أهملت منذ تهجير المورسكيين، ووقع كثيرون منهم في الدين أو تخلوا عن المحاولة، ولذلك بقيت أجزاء كثيرة من المملكة غير منتجة ومخلخلة السكان لسنوات طويلة.

***

لم يكن الكُتاب الذين احتفلوا بالطرد غافلين عن هذه النتائج السلبية، لكنهم إما غضوا الطرف عنها باعتبارها كبوات مؤقتة، أو قللوا من شأنها مقارنة بخلق إسبانيا التي توحدت بذلك على «دين كاثوليكي واحد، هو الرسولي الروماني»، بتعبير ماركوس دي واداالاخارا. كما قدم بعض الكُتاب استعداد إسبانيا المفترض لاجتياز الحرمان المادي كبرهان على عظمتها الروحية. فبالنسبة إلى بلاس بيردو كان «من الأفضل أن تضعف إسبانيا وتتعسر، شريطة أن تصبح نظيفة ومطهرة»، في حين أثنى خوان

دي سالاسار على فيليب على «حفاظه على نقاء ممالكه ودينها» وتطهير إسبانيا من «جماعة فاسدة وحقيرة»، وغضه الطرف عن التكلفة التي تحملها في عائداته.

وزعم بعض الكُتاب أن المجتمع الإسباني أصبح أكثر أمناً وانصياعاً للقانون عبر إبعاد الثقافة المورسكية الإجرامية. لكن ذلك لم يكن غير محض أوهام ودعاية. فحتى بعد فترة طويلة من الطرد، ظلت بلنسية تظهر ميلها المروّع إلى السرقة والقتل والإجرام الشبيه بأعمال المافيا. ففي عام 1689، ذكر نائب الملك في بلنسية للملك أن المملكة ابتليت بـ«عصابات من اللصوص وقطاع الطرق والقتلة والمجرمين من كل نوع، لا يتركون حياة المسافر أو محفظته، أو حتى الحصان الذي يستخدمه الفلاح للحرث»[10]. ولا توجد أدلة توحي بأن نسبة الجريمة انخفضت في المناطق الأخرى بالبلاد بعد مغادرة المورسكيين. وفي إشبيلية استمر نمو عالم الجريمة المؤلف من نصابين وقتلة مأجورين ولصوص، وظل يؤرق السلطات على مدار القرن. وفي مدريد، لاحظ تقرير رسمي في عام 1639 أنه «لا يمر يوم دون قتل أو إصابة على أيدي قطاع الطرق أو الجنود، أو سطو على البيوت، أو اعتداء على الفتيات وسرقتهن».

وفي عام 1613، رسم ماركوس دي وادالاخارا صورة شاعرية لإسبانيا ما بعد الطرد «تتدفق فيها البضائع بحرية براً وبحراً... فقد أصبحنا أحراراً على سواحلنا وشواطئنا من السرقات والهجمات الإفريقية، وتوقف الموت الذي كان يقع كل ساعة»[11]. وذلك يندرج أيضاً ضمن التفكير بالتمني. فطوال عملية الطرد، ظل القراصنة المسلمون والنصارى يهاجمون البلدات الساحلية والسفن الإسبانية، ومن الواضح أن هذه الهجمات ازدادت كثيراً بعد الطرد وفقاً للسفير الإنجليزي اللورد كوتنغهام، الذي أخبر مجلس شورى الملك في عام 1616 بأن «قوة قراصنة شمال إفريقيا بلغت

أوجها، في كل من المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط، حتى إنني لا أعرف شيئاً يكدر البلاط ويحزنه أكثر منها»[12].

وعلى نحو ما توقع دوق مدينة شذونة وآخرون، ضمت صفوف القراصنة أعداداً كبيرة من الموركسيين. ففي عام 1617، تحدث السياسي الإنجليزي البارز اللورد جورج كاريو George Carew إلى صديقه السير توماس رو Thomas Roe؛ السفير الإنجليزي في البلاط المغولي، عن موجة من القرصنة «التركية» تعم جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط، وبخاصة في إسبانيا نفسها التي «يغيرون فيها على القرى الساحلية، ويأخذون كثيراً من الأسرى، وقد اشتدت بسبب الأندلسيين المبعدين الذين كانوا يقطنون سابقاً في الساحل الشرقي من إسبانيا»[13]. ولاحظ كاريو أن «هؤلاء القراصنة أصبحوا ملاحين محترفين»، وأبدى قلقه من أن «تطال زياراتهم السواحل النصرانية البعيدة على المحيط». ومع أنه لا يمكن إرجاع الزيادة في القرصنة إلى الطرد وحده، فلا شك في أن الموركسيين المطرودين لجأوا إلى القرصنة إما لكسب قوتهم أو للانتقام من معذبيهم السابقين. وفي يونيو 1618، شن أسطول مكوّن من ستة آلاف قرصان من الجزائر، منهم مئتان وخمسون موركسياً، غارة ضخمة على لانثاروثي لاصطياد العبيد. وكان أشهر القراصنة الموركسيين ينتمون إلى الجماعة الموركسية الجهادية بهورناتشوس، التي استوطنت في ميناء سلا (الرباط) المغربي الخرب، على مصب نهر أبي رقراق. فإلى جانب تشكيلة من المرتدين النصارى من بلدان مختلفة، حوّل الهورناتشيون الميناء إلى جمهورية مستقلة للقراصنة لها أسطول مكون من أربعين سفينة، ولها قائد أعلى ومجلس حكم أو ديوان ينسق عملياتها ويوزع غنائمها.

وعلى مدى أكثر من نصف قرن، ظل «القراصنة السلاويون»[1] كما

(1) نسبة إلى ميناء سلا المغربي القديم [المترجم].

كانوا يعرفون في إنجلترا يعملون في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ووصلت سفنهم إلى القنال الإنجليزي وآيسلندا ونيوفندلند. وقد خُلّدت سمعتهم السيئة في رواية روبنسون كروز Robinson Crusoe لدانيل ديفو التي أسر بطلها «من جانب قرصان تركي من سلا» في أثناء بعثة تجارية إلى إفريقيا، واستعبد بعد ذلك، قبل أن يمهد هروبه بمساعدة «مورسكي» محلي الطريق لمغامراته اللاحقة.

تلقي هذه العوامل كلها ظلالاً من الشك على إنجاز الملك، لم تتمكن الدعاية من تبديدها كلياً. ولم تتحسن مكانة ليرما كثيراً بدوره في الطرد. ففي مارس 1618، عينه البابا بول الخامس كاردينالا، وهو ما اعتبره أعداؤه مناورة لتجنب الإعدام على ممارساته المالية الفاسدة. وفي أكتوبر من ذلك العام، نجحت ادعاءات الفساد من هذا النوع أخيراً في إقناع فيليب بإبعاد خليله عن البلاط في انقلاب أعده ابن ليرما نفسه. غادر الدوق مكتب فيليب باكيا، وانسحب إلى ضِياعه التي ظل فيها منبوذاً من دوائر السلطة حتى وفاته في عام 1625.

وفيليب نفسه لم يعمر طويلاً بعد السقوط السياسي لخليله. ففي فبراير 1621، مرض القديس الصغير بالحمى القرمزية، فصحته الضعيفة أنهكتها سنوات من النهم في الأكل، ولم يتعاف رغم ثلاث عمليات فصد أجراها أطباؤه، ورغم وضع بقايا القديس إيزيدور الشافية في غرفته. وحين واجه الموت، كان فيليب يعصره الندم على عيوبه كحاكم، وانتابه الفزع من احتمال طول المقام في المَطْهَر[1]. وبالتأكيد كان لديه الكثير مما يندم عليه. فبعد أن أمنّ فترة من السلام كان رعاياه المنهكون من الحرب في أمس الحاجة إليها، أخفق هو وليرما في استغلالها. فعلى مدى أعوام، ظل مستشاروه الأذكياء يدفعونه لاتخاذ إجراءات لحل المشكلات الاجتماعية

(1) المَطْهَر موطن تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل [المترجم].

والاقتصادية التي كانت تواجه البلاد، من التمويل الإسباني الفوضوي والنظام الضريبي القمعي إلى التراتبية الاجتماعية المنحرفة، التي كانت مثقلة بالأرستقراطيين والبيروقراطيين ورجال الدين وتفتقر إلى المزارعين للعمل في الأراضي. وفي عام 1619، نشر مجلس قشتالة تقريراً بتكليف من ليرما نفسه، اعتبر التخلخل السكاني في الريف أحد أخطر المشكلات التي كانت تواجه البلاد، وأوصى بإعادة توطين مخططة للمزارعين الماهرين في مناطق إسبانيا المهجورة.

وهذا بالضبط هو النشاط الذي كان الموريسكيون يبرعون فيه، لكنهم ذهبوا قرباناً لوهم النقاء الديني، الذي ظن الملك وخليله أنه سيعيد لإسبانيا عظمتها ويجلب الشرف والهيبة للعائلة المالكة. وفي الحادي والثلاثين من مارس 1621، مات فيليب بعد عيد ميلاده الرابع والأربعين بقليل، وانتقل العرش إلى ابنه فيليب الرابع (1621-1665). وفي خلال بضعة أعوام، طوى النسيان التوقعات الخائبة بالانبعاث الوطني التي أحاطت بالطرد كأنها لم تكن، وواصلت إسبانيا أفولها العنيد، الذي كان من عدة نواح مثيراً تماماً مثل صعودها إلى القوة.

***

وحتى قبل موت فيليب، كان السلام الهش الذي يسر الطرد قد بدأ في التلاشي. ففي عام 1618، أطلقت ثورة معادية للكاثوليكية في بوهيميا حرب الثلاثين عاماً[1]، أدخلت إسبانيا في دوامة أخرى من الصراع الديني الوحشي. وفي عام 1621، وفي أحد أفعاله الأخيرة كملك، رفض فيليب

(1) حرب الثلاثين عاماً: سلسلة من الحروب الدامية مزقت أوروبا من عام 1618 إلى 1648، بدأت كحرب دينية بين فرنسا والنمسا، وتورطت فيها معظم القوى الأوروبية آنذاك، ماعدا إنجلترا وروسيا، وجرى معظمها في أوروبا الوسطى، وخاضت فيها إسبانيا حروباً شرسة ضد فرنسا، كانت في الظاهر حروباً دينية وفي الحقيقة حروباً على السيطرة والنفوذ، انتهت بصلح وستفاليا عام 1648 [المترجم].

تجديد الهدنة مع المقاطعات الهولندية المتحدة، وأطلق مرحلة جديدة من النزاع، كانت الأطول بين حروب إسبانيا كلها. وبحلول عام 1625، عادت الجيوش الإسبانية للحرب في نزاعات متعددة، مع نشر ثلاثمائة ألف جندي في الخارج ونصف مليون آخرين معبئين في المليشيات. ورغم الجهود الضخمة التي بذلها الوزير الأول المقتدر لفيليب الرابع وخليفة ليرما الكونت أوليفاريس Count of Olivares، تمكّنت إسبانيا بالكاد من توفير المال والقوة البشرية لإسناد هذا العمل العسكري الواسع.

أشعلت الحرب نيران العصيان الحارقة في أنحاء ممتلكات إسبانيا الهابسبورغية كافة. فبين عامي 1640 و1652، أدت الثورة الانفصالية في قطلونية المعروفة بحرب الفلاحين[1] إلى جلب قوات فرنسية إلى الإمارة دعماً للثوار، وأرغمت إسبانيا في النهاية على التنازل عن جزء كبير من الأرض لعدوها اللدود. وأخذ الصرح المتهاوي للإمبراطورية الهابسبورغية الإسبانية في أوروبا يتآكل بفعل ثورات أخرى في بلنسية والبرتغال ونابولي وصقلية، وأخذ توازن القوة يتحول بثبات لصالح فرنسا. وفي عام 1643، أباد الجيش الفرنسي سبعة آلاف من خيرة جنود إسبانيا في معركة روكروى Rocroi في أسوأ هزيمة عسكرية في التاريخ الإسباني. وبعد أربعة أعوام، وضع السلام الذي جلبته ويستفاليا نهاية لحرب الثلاثين عاماً، وتأكد الضعف الإسباني بالاعتراف بسيادة المقاطعات الهولندية المتحدة في معاهدة مونستر Munster، التي كانت لحظة بارزة أنهت ثمانين عاماً من الحرب، وكانت أيضاً النهاية الرمزية «للقرن الذهبي» لإسبانيا.

(1) حرب الفلاحين أو الثورة القطلونية: ثورة شنها الفلاحون في قطلونية على الحكومة الإسبانية بسبب وجود القوات القشتالية على أراضيهم في أثناء حرب إسبانيا مع فرنسا في حرب الثلاثين عاماً، الذي أنهك الموارد القطلونية، استمرت إلى ما بعد ويستفاليا، وتحالفت فرنسا فيها مع الثوار واحتلت قطلونية، وانتهت بمعاهدة البرانس 1659 [المترجم].

ومع نهاية القرن السابع عشر، كانت إسبانيا تتأرجح على حافة الانهيار الإداري والمالي، ولم تعد الدولة قادرة على فرض سلطتها على رعاياها أو مقاومة اعتداءات أعدائها الخارجيين. وفي ذلك، أعلن المبعوث الفرنسي المركيز فيلار Marquis de Villars في عام 1668 أنه «يصعب وصف المدى الكامل للفوضى في حكومة إسبانيا»، ولاحظ أن «قوة الإسبان وسياستهم كانت تتراجع بثبات... منذ بداية القرن»[14]. وفي عام 1700، تلا موت الملك المجنون الذي لم ينجب أطفالاً؛ شارل الثاني، حرب الخلافة الإسبانية(1) واعتلاء ملك بوربوني للعرش الإسباني.

وقبل فترة طويلة من الانهيار الأخير للعائلة الهابسبورغية الإسبانية، كان كثير من الإسبان قد بدأوا في النظر إلى الطرد باعتباره أحد العوامل الرئيسة التي أسهمت في تدهور إسبانيا المذهل. وفي ذلك، كتب القسيس والسكرتير الملكي بيدرو فيرنانديث دي نافاريتي Pedro Fernández de Navarrete في تحليل متشائم لمشكلات إسبانيا الاقتصادية بعنوان «حماية الحكومات الملكية» في عام 1626 «أنها سياسة مؤذية للغاية أن تسحب الدولة ثقتها من رعاياها»، ألقى فيه باللائمة عن خلو قشتالة من السكان

(1) حرب الخلافة الإسبانية (1701–1714) حرب بدأت مع موت شارل الثاني ملك إسبانيا وآخر ملوك سلالة هابسبورغ الذي لم ينجب أبناء، فأورث كامل مملكته إلى فيليب دوق أنجو حفيد أخته غير الشقيقة ماريا تريزا– إليزابيث ملكة فرنسا– من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، الذي أصبح ملك إسبانيا باسم فيليب الخامس. أصبحت أسرة البوربون بذلك تحكم إسبانيا وفرنسا، فضلاً عن أن فيليب كان الوريث الشرعي لعرش فرنسا نفسها. طالب الإمبراطور الروماني المقدس ليوبولد الأول بالعرش الإسباني، وخافت القوى الأوروبية الأخرى، على رأسها بريطانيا العظمى والجمهورية الهولندية والبرتغال ودوقية سافوي، من توسع النفوذ الفرنسي، فاتحدت في حربها ضد مملكتي البوربون، وامتدت الحرب من التراب الأوروبي إلى العالم الجديد، وانتهت بتوقيع معاهدة أوتريخت في عام 1713 ومعاهدة راستات عام 1714 التي أقرت فيليب الخامس ملكا على إسبانيا، لكن مع استبعاده من خلافة العرش الفرنسي، للحيلولة دون الاتحاد المستقبلي بين مملكتي إسبانيا وفرنسا، وآلت معظم ممتلكات إسبانيا في إيطاليا وهولندا إلى النمسا، وتضعضعت الهيمنة الفرنسية على القارة الأوروبية [المترجم].

على «عمليات الطرد الكثيرة للأندلسيين واليهود أعداء ديننا الكاثوليكي المقدس». ومع أن نافاريتي أدان طرد الجماعتين باعتباره «قراراً سياسياً خاطئاً»، فإن موقفه من المورسكيين كان متناقضاً جداً. فمن ناحية وصف الطرد بأنه «نفذ بطريقة جيدة على يد ملكنا المقدس فيليب الثالث»، لكنه مع ذلك يلمّح إلى أنه لم يكن ضرورياً، وكتب في ذلك:

> سأذكر فقط أنه على الرغم من الأهمية الكبيرة لزيادة السكان في ممالكنا، كان الملوك الإسبان يفضلون دائماً أن تقلص الدولة أعدادها على الموافقة على وجود أخلاط ضارة قد تلوث الدم الجيد... فأصحاب العادات والدين المختلف ليسوا جيراناً، بل أعداء محليون... ورغم كل ذلك فإنني على قناعة بأننا لو وجدنا وسيلة لمنح [المورسكيين] بعض الشرف دون وصمهم بالعار قبل أن يقودهم يأسهم إلى هذه الأفكار الشريرة، لربما دخلوا من باب الشرف إلى معبد الفضيلة متوحدين مع الكنيسة الكاثوليكية وموالين لها، دون أن يدفعهم رأينا السيئ فيهم إلى الشر[15].

وبدأ أعضاء بارزون آخرون بالبلاط والحكومة أيضاً في إعادة تقييم الطرد مع اشتداد أزمة القوة البشرية في الريف. ففي الثامن والعشرين من سبتمبر 1622، بعد عام أو يزيد قليلاً على موت أبيه، اعترف فيليب الرابع رسمياً «بالضرر الكبير الذي سببه الطرد» في بلنسية في شكل انخفاض الإيجارات والتخلخل السكاني. وفي عام 1633، رفض فيليب اقتراحاً من مجلس قشتالة بطرد الغجر، على أساس أن هذا الخيار دُرِس ورُفِض قبل ذلك بسبب «فراغ هذه الممالك بعد طرد المورسكيين». وكانت أزمة التخلخل السكاني حادة جداً لدرجة أن كاهن الاعتراف الخاص بفيليب

اقترح دعوة الموريسكيين للعودة إلى البلاد، وقدم أوليفاريس اقتراحاً مماثلاً بإعادة اليهود. وحتى في عام 1690، بعد الطرد بفترة طويلة، زعم السفير المغربي في مدريد أنه سمع مسؤولي البلاط ينتقدون الطرد ودور ليرما فيه. وقد انعكس هذا التغير في المواقف على التصوير الثقافي المتعاطف مع الموريسكيين بل المحب لهم، الذي تجلى بعد الطرد، بدءاً من الجزء الثاني من دون كيخوته إلى مسرحية بيدرو كالديرون القوية «الحب بعد الموت». تصف حكاية كالديرون المأساوية للحب والانتقام المأخوذة من حادثة من تاريخ خينيس بيريث دي هيتا لحرب البشرات، كيف يتسلل الوجيه الموريسكي الطوزاني el Tuzaní إلى المعسكر النصراني بعد نهب غليرة، انتقاماً لموت حبيبته مليكة Maleca على يدي جندي إسباني قتلها لسرقة قلادتها. يعرض كالديرون شخصيات تاريخية حقيقية مثل ابن أمية ودون خوان النمساوي، ليصوّر الثورة الموريسكية باعتبارها ثورة جماعية ضد الظلم النصراني، ويبرز الفرق بين نبل أبطاله الموريسكيين والنهب القذر من جانب الجنود الإسبان.

تزامنت عملية إعادة تقييم الطرد مع رفض رسمي جزئي لقوانين نقاء الدم بإسبانيا التي شجبها أوليفاريس، لأنها «تناقض القانون الإلهي والقانون الطبيعي وقانون الأمم». وتركزت هذه الانتقادات عموماً على الخداع والمراوغة اللذين تسببها هذه القوانين وتأثيرها السلبي على طبقة النبلاء، أكثر من تركيزها على المبادئ التي تستند إليها. ومع أن فيليب الرابع حظر «الكتب الخضراء» سيئة السمعة، وهو ما استاءت منه الطبقة الأرستقراطية، فإن الاقتران بين نقاء الدم ونقاء الدين ظل يشكّل مَعْلَماً في الهوية الإسبانية لعدة قرون تالية، في نظر كل من الإسبان والأجانب على حد سواء. ففي قصيدته الهجائية «دون خوان»، التي كتبت في أوائل القرن

التاسع عشر، وصف اللورد بيرون بشكل هازئ والد بطله بأنه «هيدلج[1] حقيقي، خال من أي تلوث بالدم الأندلسي أو العبري، وقد تعقب أصله إلى سادة إسبانيا القوطيين». وحتى في منتصف القرن التاسع عشر، وجد الرحالة الإنجليزي ريتشارد فورد Richard Ford إسباناً كانوا لايزالون يتفاخرون بأنهم نصارى أصلاء غير ملوثين. ولم تُلغ محكمة التفتيش إلا في عام 1834. ولم يلغ التمييز بين النصارى القدامى والجدد رسمياً إلا في عام 1860، حين أقر البرلمان الإسباني أن المنضمين إلى الجيش لم يعودوا مطالبين بإحضار شهادات تثبت خلوهم «من أي مزيج من اليهود أو الأندلسيين».

على أن الأسف على النتائج الاقتصادية السلبية لحملات التطهير الكبرى التي نفذتها إسبانيا لم يكن يعني أن حكامها كانوا مهيئين لنقضها، وكذلك لم تترجم عملية إعادة التقييم إلى مزيد من التسامح نحو من بقوا في البلاد. ففي عام 1615، وصف السفير الإنجليزي جون ديغبي John Digby عرضاً تكفيرياً ضخماً شهده فيليب الثالث في طليطلة، تضمن موريسكياً محكوماً عليه بالإعدام «ظل على عناده متبعاً الدين الأندلسي، وأظهر الناس ضده قدراً غريباً من العنف، لدرجة أنهم قطعوه إربا وهو في طريقه إلى الإعدام»[16]. وتكشف هذه المواقف السبب في عدم دعوة المورسكيين أو اليهود للعودة إلى إسبانيا.

وحتى عام 1728 المتأخر كثيراً عن الطرد، حاكمت محكمة التفتيش مئة وستة مورسكيين في غرناطة، واتهمت مئة وتسعة عشر آخرين في العام التالي. وفي عام 1787، زعم الرحالة الإنجليزي جوزيف تاونسيند Joseph Townsend أنه «حتى يومنا هذا يعتقد أن المسلمين واليهود كثيرون في إسبانيا: المورسكيون في الجبال واليهود في كل المدن الكبرى، يتنكرون

(1) الهيدلج hidalgo إسباني من طبقة النبلاء الدنيا [المترجم].

بالدرجة الأولى وراء الحماس العام للامتثال الخارجي لكل تعاليم الكنيسة»[17]. ومع أن هذه الادعاءات كانت غير محتملة، فمن الواضح أن محكمة التفتيش كانت تصدقها. صحيح أن كثيراً من المورسكيين أفلتوا من الطرد، ونجحوا في البقاء في إسبانيا أو عادوا إليها بعد الطرد، لكن من الصعب تصديق أن المورسكيين أو اليهود كانت لديهم القدرة أو الرغبة في الحفاظ على هذا النفاق طوال هذه المدة الطويلة، حتى وإن ظلت بعض آثار الماضي جلية للمراقبين الأجانب ذوي العيون الفاحصة. ففي كتابه الموسوعي للمسافرين إلى إسبانيا (1845)، زار ريتشارد فورد بلدات البشرات التي وصف أهلها بأنهم «نصف أندلسيين على الرغم من أنهم يتحدثون الإسبانية»، ورأى أن لغتهم الإسبانية كانت «مصبوغة بقوة باللغة العربية». وذهل فورد على نحو خاص من مظهر الفلاحين في مرسية الريفية الذين «يضعون مناديل على رؤوسهم تشبه العمائم ويلبسون تنورات بيضاء، ويبدون عبر هذا التناقض بين الكتان الأبيض وبشرتهم البرونزية داكنين تماماً مثل الأندلسيين»[18].

ثمة إغراء في القول بأن هؤلاء «الأندلسيين» المرسيين هم أحفاد المورسكيين المُنَصّرين، الذين طردهم سالاسار في عام 1614 وأفلتوا من الطرد أو عادوا سراً إلى البلاد، لكن ذلك لا يمكن إثباته. ففي الأخير، تنتمي قصص المورسكيين الذي بقوا إلى تاريخ خفي ربما لن يحكى أبداً. لكن من الواضح أن فيليب وليرما لم ينجحا في استئصال «كل الذكريات الأندلسية» من إسبانيا. فقد نجا ميراث الماضي الأندلسي من حملة التطهير الكبرى، وعاش في عمارة إسبانيا ومنظرها الطبيعي، وفي أدبها ومطبخها، وفي آلاف الكلمات الإسبانية المستعارة من اللغة العربية. وبعد أكثر من مائتي عام من الطرد، ظلت إسبانيا الأندلسية تشكّل فصلاً منسياً ومخزياً من التاريخ الإسباني، ولم يكن المورسكيون أنفسهم يُذكَرون على

الإطلاق.

وفي القرن التاسع عشر فقط، بدأ كتاب أجانب من أمثال فورد وواشنطن إرفينغ في زيارة الخرائب الإسلامية المهملة بإسبانيا وتقديم رؤية رومانسية وإيجابية لإسبانيا الأندلسية لجمهور عالمي. وفي الفترة نفسها بدأ جيل جديد من المستعربين الإسبان، مثل باسكوال غايانغوس وميغيل آسين بالاسيوس Miguel Asín Palacios وإدواردو سافيدرا Eduardo Saavedra، في التنقيب في التراث الثقافي للأندلس، وبدأت الترجمات الأولى للمخطوطات الألخامية في تسليط الضوء على العالم المنسي لإسبانيا الموركسية، وبذلك انطلقت عملية قد تؤدي في النهاية إلى إعادة دمج الماضي الإسلامي في مجرى التاريخ الإسباني.

***

توجد آثار للموركسيين الذين غادروا إسبانيا أوضح بكثير ممن بقوا فيها. فالأماكن التي قصدتها رحلات تهجيرهم غطت مساحة واسعة، حيث وجد الموركسيون في مصر وتركيا والبلقان، وفي لبنان واليونان وإفريقيا جنوب الصحراء. واستقر بعضهم في سوريا، وفيها خصص لهم السلطان العثماني أراضي، وأنشئت مستعمرة موركسية صغيرة في مدينة تمبكتو بمالي المعاصرة التي بقيت فيها كتيبة من الجنود «الأندلسيين» بعد حملة استكشافية نيابة عن السلطان المغربي. وتفرق معظم الموركسيين عبر شمال إفريقيا في عشرات المدن والبلدات والقرى، من تطوان وفاس وطنجة إلى الجزائر وطرابلس. واستوطن زهاء ثمانين ألف موركسي في تونس، معظمهم في العاصمة تونس وحولها التي لاتزال تضم حياً يعرف بزقاق الأندلس. وانتقل آخرون إلى وادي مجردة العشبي وشبه جزيرة الرأس الطيب الخصبة اللذين ربما أدى انتشار بساتين الحمضيات فيهما إلى تذكير اللاجئين الموركسيين بالسهل المروي في بلنسية، والأمجاد المفقودة لمرج غرناطة.

اتجه هؤلاء المنفيون إلى العمل في بلدانهم الجديدة بالمهن نفسها التي كانوا يزاولونها في إسبانيا. فعمل بعضهم في الزراعة، وعمل آخرون حرفيين وصناعاً، وكيفوا مهاراتهم مع الاحتياجات المحلية أو أدخلوا تجديدات من عندهم، مثل القبعة اللبادية الحمراء المعروفة باسم الشاشية، التي لايزال التونسيون يلبسونها إلى اليوم. وعمل مورسكيون آخرون جنوداً لحكام شمال إفريقيا وسكرتيرين ومترجمين وتجاراً ودبلوماسيين. وبعد الطرد مباشرة شكّل كثيرون منهم جماعات متمايزة كانت تتطابق مع المناطق الإسبانية التي جاءوا منها. على أن تكيفهم مع الموقف الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه لم يكن سهلاً دائماً. وحتى حين كان المورسكيون يؤدون عبادات المسلمين، كان السكان المحليون يعتبرونهم دائماً نصارى أو مرتدين. وفي تونس، استاء كثير من التونسيين العاديين من الوضعية الضريبية الخاصة التي منحها للمورسكيين حاكم تونس المتعاطف معهم عثمان داي، ولم ينس السلطان العثماني أن يصدر أوامر جديدة إلى وريث عثمان الأقل تعاطفاً معهم لضمان حسن معاملة المنفيين.

واجه المورسكيون أيضاً صعوبات جمة في توطين أنفسهم على المنافي التي أبعدوا إليها. فكثير منهم لم يكونوا يتحدثون العربية، وغير ملمين بعادات البلدان التي وجدوا أنفسهم فيها وثقافاتها. وحتى المورسكيون الأكثر التزاماً بالإسلام، انتابهم شعور قوي بالشوق والحنين إلى الوطن الذي يسميه الإسبان أنيورانسا añoranza. وفي تونس، احتفل الشاعر المورسكي المنفي إبراهيم الطبيلي[1] بنفيه، باعتباره تحرراً من الظلم النصراني وكتب أشعاراً قاسية تهاجم الدين والمجتمع اللذين طردا أبناء

---

(1) إبراهيم الطيبيلي Ibrahim Taybili أو الطيب علي Al-Taybili فقيه وشاعر مورسكي ولد في طليطلة، ونفي إلى تونس. اسمه الإسباني خوان بريه Juan Perez. صدرت له بعض الكتابات الإسلامية في إسبانيا، ويرتبط اسمه بإنجيل برنابا المنحول، فقد كان من أوائل من أشاروا إليه في كتاباتهم [المترجم].

جلدته. لكن كان هناك أيضاً كتاب مورسكيون، من أمثال المنفى التونسي Refugiado de Tunis المجهول، كانت كتاباتهم دليلاً على الميراث الثقافي المتباين الذي أراد حكام إسبانيا استئصاله. احتفظ المنفي التونسي المسلم الورع بذكريات مريرة للمعاملة التي لقيها هو وإخوته في الدين من «الزنادقة النصارى» في وطنه الإسباني الذي «كنا فيه ندعو الله ليلاً ونهاراً كي ينقذنا من المحن والأخطار الكثيرة، وأردنا أن نأتي إلى ديار الإسلام حتى لو كانت جرداء». ومع ذلك، فقد كتب كتيباً عن المضاجعة الجنسية باللغة الإسبانية، وجاء مليئاً باقتباسات من أشعار لوبي دي بيغا وغونغرا Gongra استظهرها من الذاكرة[19].

انتابت مورسكيون كثيرون آخرون العواطف المتناقضة نفسها. ففي عام 1627، ذكر جاسوس إنجليزي في المغرب يدعى جون هاريسون John Harrison لحكومته أن الهورناتشيين الجهاديين في سلا عرضوا عليه أن يصبحوا أتباعاً لملك إنجلترا في مقابل حمايتهم من سلطان المغرب. وأيد هاريسون طلبهم، دافعاً بأنهم كانوا مستعدين لاعتناق البروتستانتية لأن «غالبيتهم كانت حائرة بين الدين الروماني الوثني[1] الذي نشأوا في ظله، والإسلام الذي يرزحون تحته الآن، ولا يعرفون بأي دين يجب أن يدينوا»[20]. ومع ذلك، فقد كتب وفد من الهورناتشيين إلى فيليب الرابع في عام 1631 يعرضون عليه تسليم سفنهم ومعداتهم لإسبانيا إذا سمح لهم بالعودة إلى بيوتهم السابقة في إشتريمادورا. ووضعوا شروطاً مختلفة، منها أن يبقى الهورناتشيون مورسكيين تماماً كي يتجنبوا «المشقات» التي سبقت الطرد، وألا يعيش كاهن أو راهب في البلدة، وأن يعفى السكان من ملاحقة محكمة التفتيش لعشرين عاماً.

ربما نتج هذا العرض الغريب جزئياً عن الحالة الخطرة للهورناتشيين

(1) يقصد الكاثوليكية بما أنه إنجليزي بروتستانتي [المترجم].

في العالم العاصف للسياسة المغربية، لكن تفكيرهم في العودة إلى إسبانيا مع كل ما يرتبط بذلك من أخطار كان مؤشراً آخر على التعلق القوي الذي كان كثير من الموركسيين يشعرون به نحو وطنهم. ولا توجد أدلة على أن هذا العرض قد لقي قبولاً، وليس من الوارد تماماً أن يكون قد قُبِل. وعلى مر السنين، تضاءل هذا الحنين مع اندماج الموركسيين في مجتمعاتهم الجديدة. ومع ذلك، فقد ظل كثيرون منهم يشكّلون جماعة «أندلسية» متميزة في البلدان التي استضافتهم. فمع أنهم مارسوا عبادات المسلمين وبنوا مساجد، فقد ظل كثيرون منهم يتحدثون الإسبانية فيما بينهم، ويتزوجون من الموركسيين. وأدمجوا سمات وموضوعات معمارية إسبانية في بيوتهم ومساجدهم الجديدة، وظلوا يطبخون طبخات من وطنهم السابق. وفي أفراح الزفاف والحفلات والمهرجانات كانوا يغنون الأغاني القديمة التي كانت محكمة التفتيش تحظرها، والتي شكّلت الأساس للموسيقى التونسية الوطنية المعروفة بالمالوف.

وفي عام 1720، وصف الأب فرانثيسكو خمينيس الكاهن الإسباني في مستشفى نصراني بتونس زيارة إلى بلدة تستور التونسية التي وجد فيها عدداً كبيراً من أحفاد «الأندلسيين والمسلمين الأراغونيين»، كان بعضهم لايزال يتحدث الإسبانية و«يتحدثون عن الأشياء نفسها التي يتحدث عنها الإسبان حين يتكلمون، لدرجة أنني شعرت بأني في إحدى قرى إسبانيا»[21]. وقابل الرحالة الإنجليزي من القرن التاسع عشر السير آرثر كابل بروك Arthur Capell Brooke أحفاد «الأندلسيين» في الجزائر الذين ظلوا فخورين بأصولهم الإسبانية. وإلى اليوم لاتزال آثار الهجرة الموركسية واضحة في بلدات شمال إفريقيا ومدنه، في الموسيقى «الأندلسية» بالمغرب والجزائر وفي مهرجانات المالوف السنوية في تونس التي لايزال الموسيقيون يعزفون فيها الآلات نفسها التي جلبها أسلافهم

معهم في أثناء حملة التطهير الكبرى في الفترة من عام 1609 إلى عام 1614، ومازالوا يغنون الأغنية التي انتقلت عبر القرون:

آه لو يبللك المطر المتساقط!

لقد كانت أحب أيامي في الأندلس،

لقد مر زماننا معاً سريعاً كحلم نائم

أو لحظة اختلست من الزمن[22]



Twitter: @ketab_n

خاتمة

تحذير من قلب التاريخ

كان إدراك القرن السابع عشر للطرد باعتباره نكبة قومية يقوم جزئياً على فكرة مبالغ فيها إزاء عدد المورسكيين الذين طردوا. ففيرنانديث دي نافاريتي اعتقد أن ثلاثة ملايين مورسكي قد أبعدوا، وثمة تقديرات تاريخية لاحقة لا تقل ضخامة عن هذا العدد[1]. واليوم، يقدّر معظم الدارسين أن إسبانيا فقدت بالطرد زهاء أربعة بالمئة من إجمالي سكانها، البالغ عددهم ثمانية ملايين شخص، ولذلك كان تأثيره القومي أقل كارثية مما تخيل نافاريتي ومعاصروه. لكن عواقب الطرد لا يمكن أن تقاس من منظور نتائجه الاقتصادية أو الإحصاءات السكانية وحسب. فإبعاد المورسكيين كان ذروة متصل تاريخي بدأ بتنصير اليهود في الفترة من عام 1391 إلى عام 1412، التي نقض حكام إسبانيا خلالها -بلا رحمة- المجتمع الأيبيري المتنوع دينياً وثقافياً، الموروث عن العصور الوسطى(1)، وفرضوا هوية كاثوليكية متجانسة واحدة على كل رعاياهم.

وبالنسبة إلى المتأسبن الأمريكي هنري لي، الذي كان يكتب في بداية القرن العشرين، فإن: «التعصب الذي طرد اليهود والمورسكيين يغطي

(1) أي المجتمع الذي ورثوه عن الأندلس الإسلامية، التي سمحت بتعايش أصحاب الديانات المختلفة جنباً إلى جنب، حتى وإن لم يمتزجوا تماماً [المترجم].

الأرض كنعش يشل طاقتها، ويجعل تعافيها مستحيلاً»، وحوّل إسبانيا إلى «جنة للكهنة والرهبان ومسؤولي محكمة التفتيش، حيث كانت كل حركة فكرية تقمع، وكل قناة تواصل مع العالم الخارجي تحرس، وكل جهد لتحسين العالم يعطل»[2]. وقد ظلت القوى الاجتماعية، التي جعلت هذا التحول ممكناً تحوم في إسبانيا لعدة قرون تالية، فخنقت تطورها الفكري والاجتماعي ووقفت عائقا أمام التحديث والإصلاح. وفي عام 1876، ألقى الشاعر والسياسي الإسباني غاسبار نونيث دي أرسي Gaspar Nuñez de Arce باللائمة عن التدهور الثقافي والفكري لإسبانيا على «الاضطهاد الديني الأشرس والأطول في تاريخ البشرية»، الذي تلا غزو غرناطة في عام 1492. وأدان دي أرسي طرد اليهود والموركسيين، ودفع بأن الحدثين أسهما في الضمور الثقافي اللاحق لإسبانيا[3]. وقد استغرق الأمر سنوات طويلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي والصراع المدني والدكتاتورية قبل أن تتمكن إسبانيا أخرى من الانبثاق من هذه الحالة الرجعية.

وفي الحرب الأهلية بين عامي 1936 و1939، أجهضت «الحملة الصليبية» الفرانكوية(1) التجربة الليبرالية للجمهورية الإسبانية بدعم من النازيين والكنيسة الكاثوليكية، وبمساعدة من المرتزقة المغاربة من شمال إفريقيا الذين شكّلوا قوات الصدمة بالنسبة إلى القوميين[4]. ورغم وجود التعددية الدينية من حيث المبدأ في ظل دكتاتورية فرانكو، احتفظت الكنيسة الكاثوليكية بمكانتها المهيمنة، وظلت الكاثوليكية في صميم الهوية القومية الإسبانية. وانصهرت «الكاثوليكية القومية» للنظام أيضاً مع مسحة قوية من الشوفينية الثقافية القشتالية، قمعت أي تعبير عن

(1) نسبة إلى الدكتاتور فرانثيسكو فرانكو (4 ديسمبر 1892 إلى 20 نوفمبر 1975)، الذي حكم إسبانيا من أكتوبر 1936 حتى وفاته في عام 1975، وصل إلى السلطة بعد الحرب الأهلية الإسبانية (1936–1939) التي تسبب فيها بانقلابه على حكومة الجبهة الشعبية، اعتمد في جيشه على قوة من الجنود المغاربة الريفيين (سكان الريف) مكونة من خمسين ألف جندي [المترجم].

الاختلاف الثقافي واللغوي للباسك والقطلونيين بطرق سبق أن خبرها الموركسيون.

كان فرانكو يُظهِر دائماً موقفاً متناقضاً من ماضي إسبانيا الإسلامي. فمن ناحية، مجّد الاسترداد باعتباره إنجازاً مجيداً للشعب الإسباني، ووضع نفسه ضمن تقاليد الملكين الكاثوليكيين، لدرجة أنه أثنى على طرد اليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية. لكن في فترة ما بعد الحرب، كان فرانكو يستدعي ماضي إسبانيا العربي-الإسلامي كثيراً في محاولاته لبناء علاقات جيدة مع العالم العربي، الذي قدم نفسه له باعتباره «سيدي فرانكو». واستغل النظام أيضاً بدهاء تراث إسبانيا الأندلسي والغجري في وقت العزلة السياسية عن بقية أوروبا، لجذب السياح الأجانب إلى البلاد في فترة الرخاء الاقتصادي بالستينيات.

وفي العقود التي تلت موت فرانكو، تغيرت إسبانيا بطرق كان يستحيل تخيلها. فأُقِرت التعددية الدينية في عام 1978 في أول دستور ديمقراطي للبلاد، واليوم تعد أرض بليدا وثيسنيروس من أكثر بلدان أوروبا تسامحاً، حتى أصبح زواج المثليين مشروعاً فيها، وحتى اتهم البابا السابق شعبها غير المتدين بأنهم وثنيون جدد. واليوم لم يعد الإسبان يحتفلون بتاريخ وصول كولومبوس إلى العالم الجديد بصفته «يوم العرق»[1]، ويستطيع الباسك والقطلونيون أن يتحدثوا لغاتهم ويطوروها دون أن يعتقلوا أو يؤمروا بأن «يتحدثوا النصرانية»[2] و«لغة الإمبراطورية». وفي العقدين الماضيين،

(1) يوم كولومبوس احتفال تحيي فيه إسبانيا ودول كثيرة في العالم الجديد في الثاني عشر من أكتوبر من كل عام ذكرى وصول كولومبوس إلى العالم الجديد، كان يسمى في إسبانيا «يوم العرق» day of the race أو «يوم الشعب الإسباني» في إشارة إلى سمو العرق أو الشعب الإسباني على ما عداه، وتحديداً على الشعوب الأصلية التي واجهها في العالم الجديد [المترجم].

(2) على أساس أن القشتالية أو الإسبانية هي لغة المسيحية أو الكاثوليكية، كما كان رجال السياسة والدين يزعمون على مر تاريخ إسبانيا ما بعد الأندلسية [المترجم].

تحولت الدولة ذات التاريخ الطويل مع التهجير والإبعاد مقصداً أساسياً للعمال المهاجرين من العالم الثالث. ونتيجة لأن إسبانيا أحد الموقعين على اتفاقية شنغن، التي ألغت التأشيرات داخل الاتحاد الأوروبي، فقد كُلّفت إسبانيا بإغلاق الحدود الجنوبية لأوروبا في وجه المهاجرين من إفريقيا. ومع ذلك، يعبر سنوياً آلاف المهاجرين غير الشرعيين البحر الأبيض المتوسط في مراكب مخروقة تعرف باسم الباتيرا pateras طلباً للعمل في إسبانيا أو أوروبا. ويقبض على غالبيتهم لدى وصولهم ويعادون إلى حيث جاؤوا، لكن يغرق آلاف منهم في أثناء المحاولة. ونجح آخرون في دخول البلاد بشكل غير قانوني، أو حصلوا على تصاريح عمل مراوغة جداً، وحوّل وجودهم كثيراً من المدن الإسبانية إلى عوالم ثقافية مصغرة من عالم البحر الأبيض المتوسط الأكبر.

كثير من هؤلاء المهاجرين مسلمون من شمال إفريقيا. فبعد قرون من الحرب المقدسة وحملات التطهير والطرد، أصبح للإسلام مرة أخرى وجود كبير في المجتمع الإسباني، ويقدّر عدد المسلمين في إسبانيا حالياً بمليون شخص، أي أكثر قليلاً من اثنين بالمئة من إجمالي سكان إسبانيا. وقد تهيأت بلاد قاطع رقاب الأندلسيين والاسترداد التي كانت الكاثوليكية فيها -حتى وقت قريب- حجر الزاوية لهويتها القومية، على نحو مذهل لعودة الإسلام بعدة طرق. ففي عام 1992، اعترفت الدولة رسمياً بالإسلام الإسباني في أثناء الذكرى الخمسمائة لفتح غرناطة، حين وقعت الحكومة الإسبانية سلسلة من اتفاقات التعاون مع منظمات تمثل المسلمين واليهود والبروتستانت. وجاءت لحظة فارقة أخرى في تصالح إسبانيا مع الماضي في عام 2003، حين بني مسجد جديد في البيازين بغرناطة قبالة قلعة قصر الحمراء مباشرة، بعد حملة دامت نحو عشرين عاماً من جانب المسلمين المحليين.

وربما كان التجلي الدامغ لتطور إسبانيا هو رد فعلها على تفجيرات محطة قطارات مدريد المروّعة في مارس 2004. فحتى بعد أن تأكد أن هذه الجريمة البشعة نفذها مسلمون من أصول شمال إفريقية لم يحدث رد فعل معاد للمسلمين، وقاومت الحكومة الاشتراكية التي وصلت إلى السلطة بعدئذ محاولات تصوير هذا العمل الوحشي ضمن نموذج «صدام الحضارات»، الذي كانت له الهيمنة في الأعوام الأخيرة. وفي عام 2006، شارك رئيس الوزراء الإسباني خوسيه لويس ثاباتيرو في رعاية تحالف الحضارات بالأمم المتحدة الذي حذّر بيان رسالته من أن «تصنيف المجتمعات المرنة والمتنوعة من الداخل عبر خطوط حضارية صارمة يتعارض مع الطرق الأكثر استنارة لفهم مسائل الهوية والدافعية والسلوك»[5].

ورغم هذا التبني الرسمي للتسامح، فلاتزال آثار ماضي قطع رؤوس الأندلسيين عصية على النسيان. ففي مارس 2001، دفع وزير الهجرة الإسباني إنريكو فيرنانديث ميراندا Enrique Fernández-Miranda بأن اندماج المهاجرين في المجتمع الإسباني سيكون أسهل إذا اعتنقوا الكاثوليكية. وفي عام 2003، وُزِّعت على الجنود الإسبان والأمريكيين اللاتينيين الذين شاركوا في غزو العراق صلبان القديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين. وفي عام 1982، سنّت الحكومة الإسبانية قانوناً يمنح الجنسية الإسبانية لأحفاد اليهود، الذين طردوا عام 1492، لكن الإجراء نفسه لم يُمنح لأحفاد الموريسكيين. وفي مارس 2005، كان مقرراً أن يزور الملك خوان كارلوس مدينة تطوان المغربية التي طالب فيها أحفاد الموريسكيين المطرودون باعتذار رسمي عما حدث. وزعم مؤرخ محلي بالمدينة أنه جمع سبعة آلاف اسم عائلة من أصل إسباني في المدينة، وأعلن: «نريد تعويضات أدبية عن الآلام التي تكبدناها. فنحن من الناحية النفسية

نشعر بالانتماء إلى هذا التاريخ وتلك العادات. والتقاليد الإسبانية هي تقاليدنا أيضاً»[6]. ألغى الملك زيارته بشكل مفاجئ لأسباب لم توضح، ولم يُلب هذا المطلب.

يكشف ذلك كله عن أن إسبانيا لم تتصالح كلياً مع ماضيها الإسلامي، أو حتى حاضرها. صحيح أن معاداة المسلمين في إسبانيا ليست باتساعها في بعض البلدان الأوروبية، لكنها لاتزال تكشف عن نفسها في الحملات المعارضة لبناء المساجد، من نوع المعارضة المحلية الشديدة لبناء الجامع الكبير في البيازين بغرناطة. كما أبدت الكنيسة الكاثوليكية، التي تآكل عدد رعيتها وفقدت مكانتها المهيمنة في المجتمع الإسباني قلقاً متزايداً من الوجود الإسلامي. وعلق رئيس الأساقفة الإسباني البارز الكاردينال أنطونيو ماريا روكو فاريلا Antonio María Rouco Varela على إلغاء الحكومة الاشتراكية للطبقات الدينية الإلزامية والشائعات حول وضع أديان أخرى، منها الإسلام، على قدم المساواة مع الكاثوليكية قائلاً: «بعض الناس يريدون أن يعيدونا إلى عام 711... وكأننا نسعى إلى محو أنفسنا من التاريخ»[7].

تزامن هذا الشعور بعدم الأمان حول مستقبل الكنيسة مع محاولة قوية من جانب الجماعات المسلمة بإسبانيا لنيل مكانة مساوية في المجتمع الإسباني. وكان من الأمور محل النزاع الحملة التي أطلقها المسلمون في قرطبة، للسماح لهم بإقامة صلاة الجمعة داخل الجامع الكبير الذي لايزال المسيحيون يتعبدون فيه في الكاتدرائية، التي لم تَرُق لشارل الأول سابقاً لأسباب جمالية. ذهب بعض أنصار الحملة إلى أن السماح بذلك سيجعل الجامع رمزاً للمصالحة، لكن السلطات الكنسية رفضت مراراً وتكراراً، متعللة بأن وجود المصلين المسلمين «سيشوش» على المسيحيين.

وعلى نحو ما حدث في أماكن أخرى بأوروبا، حاول اليمين الإسباني

استغلال «الحرب على الإرهاب»، وحشد هذه المخاوف لصالحه بربط الماضي بالحاضر، وهو الميل الذي انعكس في كتب مثل «إسبانيا تواجه الإسلام: من محمد إلى بن لادن» و«الجهاد في إسبانيا: هوس استرداد الأندلس». وفي الوقت الراهن تراجعت هذه الرؤى إلى الهوامش، لكن ذلك قد لا يدوم طويلاً مع استمرار التراجع الاقتصادي العالمي الحالي في تقويض ازدهار إسبانيا الهش.

وأياً كان ما يمكن أن يأتي به المستقبل، فإن ذكرى الأندلس لم تعد مصدراً للخزي. ففي كل عام يزور آلاف السياح البقايا المعمارية الرائعة لإسبانيا الأندلسية وقلعة قصر الحمراء والجامع الكبير بقرطبة ومدينة الزهراء والخيرالدة[1]. وبعيداً عن آثار الأمراء والخلفاء، ترقد بقايا التاريخ الأكثر تواضعاً، الذي كتب كلمة النهاية لذلك العالم. فمن حين إلى آخر، يكتشف البنّاؤون وعمال البناء بعضاً من المخطوطات الألخامية في تجاويف بالجدران وتحت ألواح الأرضيات. وفي عام 2004، اكتشفت مخطوطتان عربيتان في صندوق قديم في هورناتشوس، إحداهما تضم كتاباً للصلاة.

وفي قرية بالور بشرق البشرات، وضعت مجموعة من الإسبان اعتنقت الإسلام[2] لوحة صغيرة تقديراً لـ«ابن أمية والموريسكيين: أوج النضال من أجل حرية الأندلس». ويمكن للمسافرين الذين يأخذون الطريق

(1) الخيرالدة Giralda مئذنة مسجد من عهد الموحدين في إشبيلية تحولت إلى برج لأجراس كاتدرائية إشبيلية طولها خمسة وتسعون متراً ونصف، كانت من أهم رموز المدينة في العصور الوسطى [المترجم].

(2) مؤكد أنهم، أو بعضهم على الأقل، من أصول أندلسية، فاعتناق إسباني للإسلام لا يستلزم تمجيد تاريخ ابن أمية والأندلس، ناهيك عن معرفته بهم، إلا إذا كانوا من أحفاد ابن أمية والأندلسيين، وإنه لأمر غريب أن يحتفظ هؤلاء أو غيرهم بمعرفة أصولهم وتقاليدهم طوال هذه القرون من القمع الديني الوحشي [المترجم].

المتعرج الممتد من أرجبة إلى سيرانيفادا أن يتوقفوا للاستمتاع بالمناظر الخلابة لسهول البشرات من «بارانكو دي سانغري» Barranco de Sangre؛ أي وادي الدم، وهو ذلك الموقع الذي شهد المعركة المستميتة بين النصارى والموريسكيين في أثناء حرب البشرات، التي تقول الأسطورة إن الدم النصراني فيها صعد على التلال كي لا يختلط بدم الكفار.

لا يذهب زوار كثر إلى الجبال الوعرة أعلى نهر خوكار، التي كانت في الماضي «تيرا موريسكا»، أي أرض الموريسكيين. وهناك لاتزال توجد أساسات البيوت الموريسكية والحدائق الغناء، التي كانوا يزرعونها، وخرائب القلاع التي كانوا يلجؤون إليها في أوقات الخطر. وعلى أطراف بلدة كورتيس دي بالاس أسفل مولا دي كورتيس يوجد وادي هو الأجمل في إسبانيا كلها، لايزال المزارعون فيه يروون حقولهم عبر قنوات الري والآبار التي حفرها الموريسكيون. وهنا تفيض جداول الماء والنباتات المورقة ومنحدرات التلال الصخرية والسماء الزرقاء المشرقة والمنظر البعيد لخزان خوكار، تفيض جميعها بالصفاء والسلام، لدرجة يصعب معها أن تتخيل المشاهد الشنيعة التي وقعت سابقاً على الأجراف والمنحدرات القريبة التي قفزت من فوقها الموريسكيات ليضعن حداً لحياتهن في الشتاء الرهيب لعام 1609، ذلك أن مجموعة صغيرة من الرجال التافهين والمتعجرفين والمتعصبين اعتبروا وجودهن على التراب الإسباني مدنّساً[1].

(1) ثمة نظرية تفسر اندلاع النزعات الطائفية برغبة بضعة أشخاص – في كل حالة – أن يحشدوا جماعاتهم للفعل الطائفي بغرض الحصول على القوة، سواء كانت مالاً أو سلطة. ينطبق ذلك على الحركات الطائفية والانفصالية المعاصرة وعلى مروجي أفكار الصدام بين الحضارات الحاليين، كما ينطبق على قادة الحروب الدينية والحملات الصليبية والجهاد والفتوح قديماً. قدم هذه النظرية ماريو أبوستولوف في كتابه «العلاقات الحضارية المسيحية الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع»، الذي ترجمه المترجم للمركز القومي للترجمة، القاهرة (2010) [المترجم].

***

ما الدروس التي تعلمها قصة المورسكيين لقرننا الحالي، إن وجدت؟ بعد أربعمائة عام، قد ينظر بعضهم إلى حملة التطهير الكبرى التي نفذتها إسبانيا باعتبارها مأساة تاريخية بعيدة من عصر اتسم بالجهل والتعصب. وقد تبدو ظواهر مثل الهجاء الشرير من بليدا وأثنار كاردونا، والمشهد المسرحي الباروكي للعروض التكفيرية، واضطهاد الرجال والنساء على أكل الكُسكُسي أو غسل شعرهم، وسلاسل النسب للدم والدين، قد تبدو جميعاً تعبيرات مَرضية للحقد الديني لا مكان لها في الأزمان الأكثر استنارة. لكن هكذا كانت إسبانيا في القرن التاسع عشر، حين صوّرها المؤرخون الأوروبيون والأمريكيون الليبراليون باعتبارها معقل التخلف والجمود في أوروبا ما بعد التنوير. «كان التعصب في نظر إسبانيا دائماً هو مجدها، وفي نظر أوروبا هو خزيها»، هكذا كتب ريتشارد فورد في عام 1845. ومنذ ذلك الحين أنتج العالم الحديث حملات تطهير وطرد لا تحصى، لدرجة تجعل أي مجتمع لا يقنع بقدرته على العقلانية والتسامح.

ولم يثبت حتى الآن أن انتشار العلمانية يقي من هذه الأحداث. فالدولة العلمانية صراحة، من ألمانيا النازية إلى يوغسلافيا السابقة ورواندا، حاولت جميعها أن تحقق التجانس العرقي أو الثقافي داخل إقليم قومي واحد، من خلال الإبعاد المادي أو القتل الجماعي للسكان غير المرغوب فيهم أو «الفائضين» عن الحاجة. وكما كانت الحال في إسبانيا القرن السادس عشر، تقدم هذه الأفعال دائماً باعتبارها دفاعاً عن النفس من جانب الأغلبيات التي شرعت في تطهير أنفسها أو في حماية قيمها الجماعية من الفساد والتدنيس. يقلب أبطال هذه الحوادث دائماً توازن القوة بحيث تقدم الأغلبيات القوية أنفسها كضحايا لا كمضطهِدين، وأن وجودها تهدده الجماعة الأضعف، التي شرعوا في استئصالها. والتاريخ يعلمنا أنه

حين تؤخذ هذه الأفكار مأخذ المسلمات، يصير أي شيء ممكناً. في دفاعه عن المنشق سباستيان كاستليو Sebastian Castellio من القرن السادس عشر الذي كُتِب في وجود شبح هتلر، لاحظ الكاتب النمساوي إشتيفان سبيغ Stefan Zweig أن «كل عصر جديد يعري مجموعة جديدة من الأشخاص التعساء تُفرَّغ فيهم قوارير الكراهية الجماعية. يحدث ذلك أحياناً بسبب دينهم، وأحياناً بسبب لون بشرتهم أو عرقهم أو أصلهم أو نموذجهم الاجتماعي أو فلسفتهم، وفي النهاية يصبح أعضاء مجموعة صغيرة وضعيفة نسبياً أهدافاً لطاقات الإبادة الكامنة داخل كثير منا»[8].

واليوم، في مطلع القرن الحادي والعشرين، لاتزال «طاقات الإبادة» تطارد العالم المشبع بالإعلام، الذي تقوم فيه قوى اقتصادية مهولة وتغير تقني غير مسبوق بتذويب الحدود القومية والثقافية والتقريب بين أكثر الناس تبايناً على غير توقع منهم أو رغبة. ومن النتائج الأخرى أن هذا التقارب الشديد يصحبه تقارب جديد بين السياسة والدين، وانبعاث النزعة القومية والانفصالية، وتزايد التوتر العرقي والثقافي في كثير من البلدان المختلفة.

لم تسلم الدول الصناعية الغنية بالعالم الغربي نفسها من هذه الميول. ففي أوروبا والولايات المتحدة أطلقت مستويات الهجرة غير المسبوقة من العالم الثالث شعوراً عنصرياً كارهاً للأجانب. ففي حين كان ينظر إلى المهاجرين من أمريكا اللاتينية أو من مستعمرات أوروبا السابقة على أنهم مكونات أساسية لاقتصاد ما بعد الحرب، أخذت مدرسة فكرية مؤثرة في مطلع القرن الحادي والعشرين تصوّر التنوع الثقافي والعرقي الناتج عن تيارات الهجرة على أنه تهديد للهويات القومية الأساسية للبلدان التي تستقبلهم.

وفي بعض البلدان، ولّدت هذه التخوفات رد فعل ضد نموذج الاندماج متعدد الثقافات، الذي كان في السابق يحتفي بالتنوع الثقافي

باعتباره ظاهرة إيجابية، لصالح التأكيد من جديد على التجانس الثقافي. وزعم النقاد أن التعددية الثقافية «أخفقت»، ومهدت الطريق للانفصالية الثقافية والعرقية على حساب «التماسك الاجتماعي». وفي الولايات المتحدة حذّر العالم السياسي الراحل صامويل هتنغتون من «أسبنة» المجتمع الأمريكي، وادعى أن ميراث أمريكا البروتستانتي الأنجلو-أمريكي كان معرضاً لخطر التآكل، بسبب المهاجرين المكسيكيين الناطقين بالإسبانية، الذين حوّلوا أجزاء من الجنوب إلى «أمريكا مكسيكية» Mexamerica [9].

وفي حين كانت الجماعات المهاجرة السابقة تمتصها «البوتقة» الأمريكية، جادل هتنغتون بأن المكسيكيين يقاومون الاندماج ويحتفظون بولائهم اللغوي والثقافي وحتى السياسي لبلد المنشأ، لدرجة أن مستقبل «العقيدة القومية» الأمريكية بات في خطر. وفي أستراليا ألقى «حزب أستراليا أولاً» باللائمة على سياسات التعددية الثقافية «للرأسمالية الكونية بالنظام العالمي الجديد» عن تحويل أستراليا إلى «أمة من القبائل». وتكشفت مشاعر مماثلة في أوروبا التي أبدى فيها سياسيون من بلدان مختلفة انتقادات مماثلة لما قاله الوزير الدنمركي للشؤون الثقافية بريان ميكلسين Brian Mikkelsen، حين حذّر المؤتمر السنوي لحزب الشعب المحافظ الذي ينتمي إليه في عام 2005 من أن سياسات التعددية الثقافية بالدنمرك كانت تمهد الطريق لـ«مجتمع موازٍ تمارس فيه الأقليات قيمها ورؤاها غير الديمقراطية التي ترجع إلى القرون الوسطى»[10].

وفي الدنمرك، كما في غيرها من بلدان أوروبا، تركز رد الفعل ضد التعددية الثقافية بالدرجة الأولى على السكان المسلمين بالبلاد. تأوي أوروبا في الوقت الراهن ما بين خمسة عشر وثمانية عشر مليون مسلم، كانوا قد بدؤوا في التوافد عليها بأعداد كبيرة كعمال مهاجرين في أوائل

السبعينيات. كان من الممكن في البداية تمييز هؤلاء المهاجرين وفقاً لأصولهم القومية إلى أتراك أو بنغاليين أو باكستانيين أو مغربيين مثلاً، لكنهم وأحفادهم أصبحوا الآن يصوّرون على أنهم أعضاء في فئة متجانسة هي المسلمين، وهي فئة يتنامى النظر إليها بخوف وارتياب وكراهية. وقد تفاقمت هذه المشاعر بفعل هجمات الحادي عشر من سبتمبر و«الحرب على الإرهاب» وسلسلة الأعمال الوحشية التي تورطت فيها جماعات وأفراد مسلمون متطرفون، من تفجيرات مدريد ولندن إلى قتل ثيو فان غوخ[1] في هولندا. واجتمعت المخاوف الأمنية المتولّدة عن حالة الطوارئ الإرهابية المتواصلة مع «حروب الثقافة»، التي ميزت الأعوام الأخيرة، مثل الغضب من الرسوم الدنمركية، حتى أصبح الوجود الإسلامي في أوروبا يقدم دائماً كتهديد مشترك، ليس للثقافات القومية كل على حدة فحسب، وإنما لمستقبل الحضارة الأوروبية ذاتها أيضاً.

تحوي سرديات التهديد من هذا النوع طيفاً واسعاً من القناعات الإيديولوجية، وفي بعض الأحيان مواقف متناقضة، نجد فيها مدافعين ليبراليين عن حرية التعبير الثقافي يطالبون بمنع غطاء الرأس الإسلامي، وعلمانيين وملحدين يدعون إلى «إعادة تمسيح» re-Christianization أوروبا، وكاثوليكاً يقدمون أنفسهم كمدافعين عن التنوير، وفاشيين سابقين يدافعون عن جوهر أوروبا «اليهودي-المسيحي». لكن تشترك كل هذه المنظورات المختلفة في رؤية مماثلة للإسلام تعتبره النقيض البربري للحداثة، المصمم على فرض نفسه على العالم أجمع عبر التسلل

---

(1) ثيو فان غوخ Theo van Gogh (23 يوليو 1957 إلى 2 نوفمبر 2004) مخرج ومنتج سينمائي وكاتب صحفي ومؤلف وممثل هولندي، أنتج مع الكاتبة الصومالية الأصل أيان حرصي علي فيلماً بعنوان «الخضوع» Submission انتقدا فيه معاملة المرأة في الإسلام، وأثار الفيلم جدلاً بين المسلمين، وقتل بسببه في الثاني من نوفمبر 2004 على يد الهولندي مغربي الأصل محمد بويري [المترجم].

الثقافي الخفي أو العنف الصريح. وبهذا الإجماع المعادي للإسلام، يبدأ القرن الحادي والعشرين أحياناً في التلبس بروح القرن السادس عشر. ولا شك في أن مسافراً من زمن القرن السادس عشر الإسباني عبر أوروبا الحالية سيربكه تصوير مسلمي أوروبا كتهديد جماعي للعلمانية والتسامح الأوروبيين، ناهيك عن الإشارات المتكررة إلى جذور أوروبا «اليهودية-المسيحية». لكنه سيشعر بألفة يقيناً حين يسمع الخطاب الجدلي للبابا بنيديكت السادس عشر في سبتمبر 2006، الذي اقتبس فيه ملاحظة الإمبراطور المسيحي البيزنطي بالقرن الرابع عشر مانويل الثاني باليولوجوس بأن محمداً -عليه السلام- لم يجلب للتاريخ «غير أشياء شريرة وغير إنسانية»، مثل شنه الحرب كي «ينشر دينه بحد السيف»[11].

وإذا كانت بعض سرديات «التهديد الإسلامي» المعاصرة تُرجّع فيها أصداء كتب الجدل المعادية للإسلام بالقرون الوسطى في تصويرها للإسلام، باعتباره «دين السيف» العدواني من داخله، فإن بناء العدو الإسلامي المعاصر يصهر دائماً الثقافة والدين والسياسة بطرق لن يستغربها مطلقاً الزائر من إسبانيا الهابسبورغية. فكما كان مسؤولو القرن السادس عشر الإسبان ينظرون إلى الموريسكيين على أنهم «أعداء محليون» تربطهم صلات بقراصنة شمال إفريقيا والعثمانيين، يصوّر الصحفيون و«خبراء الإرهاب» مسلمي أوروبا على نحو متزايد باعتبارهم «العدو الداخلي»، الذي يرتبط بالإرهاب والأعداء خارج حدود أوروبا. وكما كان قضاة محكمة التفتيش ينظرون إلى الجماعات الموريسكية على أنها معاقل غامضة للإسلام والعصيان السريين، يصوّر لنا بعض هؤلاء المعلقين قارة تتخللها جيوب إسلامية عدائية، أو ما أسماه بعضهم «لندنستان»[1]، وهي مناطق

(1) لندنستان Londonistans إشارة إلى تحول لندن وغيرها من مدن أوروبا إلى حالة شبيهة بمدن باكستان وغيرها من دول جنوب ووسط آسيا [المترجم].

محرمة تقع كلياً خارج رقابة الدولة وسيطرتها، يكون منظر اللحية فيها أو قميص الشلوار[1] أو النقاب دليلاً على التنافر الثقافي أو رفض الاندماج.

وكما كانت الحال في القرن السادس عشر، يميل تصوير مسلمي أوروبا أنهم «جماعات مشتبه فيها» إلى تفسير الاختلاف الثقافي والديني، سواء الحقيقي أو المتخيل فحسب، على أنه تعبير عن تحد مقصود للأغلبية. وأصبح الوجه النسائي المغطى موضوعاً محدداً لهذا الاشتباه، حتى وإن كانت المعاني المرتبطة به قد تغيرت. ففي حين كان رجال الدين الإسبان يربطون الملحفة بالشهوانية النسائية، ويرونها تهديداً للأخلاق والفضيلة الكاثوليكية، أصبح الحجاب الإسلامي يفسر في الأعوام الأخيرة على أنه تهديد للعلمانية الأوروبية ورمز لاضطهاد النساء أو حتى كتهديد إرهابي، على نحو ما وصف مجلس الوزراء الهولندي البرقع في نوفمبر 2006 في أثناء مناقشات أنتجت قراراً بمنعه في الأماكن العامة في أنحاء هولندا كافة.

وهولندا ليست البلد الأوروبي الوحيد الذي استن تشريعاً يحظر البرقع والنقاب والحجاب. وسواء قدمت قوانين منع الحجاب على أنها دفاع عن حق المرأة في المساواة أو تشجيع للاندماج، فإنها تشترك جميعاً في فهم الإسلام على أنه ثقافة بدائية أو دين يجيز تشويه الأعضاء التناسلية ورجم المثليين واضطهاد النساء، ويفرض الجهاد العنيف كواجب ديني. وحتى الثناء على الإسلام في هذه السرديات بوصفه «دين سلام» نقياً، يخفي تحته تعصب دفين. تحتوي كل الأديان عناصر متناقضة ضمن مذاهبها وتقاليدها يمكن أن تستخدم أو يساء استخدامها وفقاً للظروف التاريخية والثقافية المحددة، والإسلام ليس استثناء لذلك. وهناك عناصر رجعية بين جماعات أوروبا المسلمة تشجب «انحطاط» الغرب وتتحدث

(1) قميص الشلوار أو شلوار قميص shalwar kameez: قميص وسروال فضفاضان يشبهان البيجامة للجنسين ينتشران في جنوب ووسط آسيا الإسلاميين [المترجم].

عن إعدام المرتدين والمثليين، وتتباهى بتفوق الحضارة الإسلامية. وهناك أقلية صغيرة من المتطرفين نفذت أو حاولت أن تنفذ عمليات قتل جماعي للمدنيين الأوروبيين. لكن هذه الجماعات تشكّل أقلية داخل الأقلية، وبخاصة حين تقارن بالإجماع العدائي، الذي يبدأ بالتشكل بين الإعلاميين والسياسيين، و«خبراء الإرهاب»، والناس العاديين الذي يصوّر مسلمي أوروبا أنهم أقلية خطرة ورجعية لن يتمكن أفرادها من التكيف مع المعايير الأوروبية.

يتجاهل هذا العداء الاختلافات بين المسلمين المتدينين والعلمانيين والتيارات الإسلامية المختلفة والتقاليد الثقافية المختلفة للمسلمين الأوروبيين، وبين مصطلحات «الأصولي» و«الإرهابي» و«الإسلامي»، مفضلاً الاستشهاد بأكثر الوعاظ تطرفاً ورجعية مثل أبي حمزة أو أبي قتادة كدليل على حالة تخلف ثقافي معممة. ومع أن هناك جماعات دينية أخرى، منها جماعات مسيحية، تتبنى هي الأخرى مواقف رجعية نحو النساء والمثليين، لكن هذه المواقف بين المسلمين تبرز وتضخم كدليل على تناقضهم الجماعي مع القيم المتفوقة لأوروبا العلمانية والمستنيرة والمتسامحة. وقد أخذت إحدى المدارس الفكرية المؤثرة المعادية للمسلمين في تصوير أوروبا على أنها قارة على شفى الانتحار الثقافي والتحول الوشيك إلى مستعمرة للإسلام تدعى أورابيا Eurabia [1]. والكتاب المحافظون واليمينيون في أوروبا والولايات المتحدة الذين يشتركون في هذه الأطروحة يدمجون دائماً رؤى خيالية لمستقبل مخيف، مع إشارات تاريخية إلى معركة بلاط الشهداء أو حصار فيينا في عام 1683 في تقديمهم لمهاجري أوروبا

(1) سُكّ مصطلح أورابيا Eurabia بالجمع بين مصطلح Europe [أوروبا] ومصطلح Arabia [بلاد العرب] للدلالة على تحول أوروبا إلى بلاد عرب جديدة، وإن كانوا يستخدمون المعنى للدلالة إلى المسلمين ككل وليس العرب تحديداً [المترجم].

المسلمين باعتبارهم طليعة لغزو إسلامي جديد[1]. وبالنسبة إلى أصحاب السيناريوهات الأورابية Eurabian من أمثال الكاتبة المولودة في مصر بات يور[2]، والإعلامية البريطانية المعادية للمسلمين ميلاني فيليبس[3]، فإن كل مسجد جديد وكل استثمار عربي وكل منحة عربية لجامعة أوروبية تأكيد للمرض الروحي لأوروبا وتذللها للإسلام، الذي جعل مؤسسات القارة في حالة من «الذمية»[4].

ثمة كُتاب آخرون، مثل المفكر الكاثوليكي الأمريكي جورج فيغل George Weigel والكاتب الصحفي الكندي مارك ستين Mark Steyn، يصوّرون لنا أوروبا انتحارية وماسوشية[5] ابتليت بأزمة معنوية حضارية قاتلة. وبالنسبة إلى المؤدلج الأمريكي المعادي للإسلام دانيال بايبس

(1) راجع حواشي سابقة للمترجم حول معركة بلاط الشهداء وحصاري فيينا [المترجم].

(2) بات يو Bat Yeor أو بنت النيل هو الاسم المستعار الذي تستخدمه المؤرخة والكاتبة البريطانية جيزيل ليتمان Gisele Littman التي ولدت في القاهرة في عام 1933 لعائلة يهودية، وهي مختصة في شؤون الأقليات المسيحية واليهودية في الشرق الأوسط وتعرف بمواقفها الانتقادية للإسلام [المترجم].

(3) ميلاني فيليبس Melanie Phillips (ولدت في 4 يونيو 1951) صحفية ومؤلفة بريطانية يهودية بدأت على يسار الطيف السياسي وانتقلت في التسعينات نحو اليمين، من مؤيدي دولة إسرائيل، ومعروفة بآرائها المعادية للإسلام والمهاجرين المسلمين في أوروبا [المترجم].

(4) الذمية dhimmitude إشارة إلى نظام أهل الذمة في الإسلام الذي أعطى لأهل الكتاب من غير المسلمين الحق في الاحتكام إلى شرائعهم وممارسة عباداتهم وشعائرهم وحكم جماعاتهم الدينية، وعلى الرغم من أنه أرقى كثيراً مما فعلته أوروبا بغير المسيحيين والمسيحيين المخالفين في المذهب، فإن الخط الفكري العام في الغرب يأخذ عليه أنه قسم المجتمع الواحد إلى ملل وطوائف، تعيش في مجتمع واحد دون أن تمتزج وتنصهر، وتُقدَّم تركيا العثمانية عادة مثالاً لهذه الحالة، ومع أنه انتقاد وجيه فإنه يتجاهل التعصب والإرهاب الديني الذي كان يمارس في أوروبا ضد المخالفين في الدين أو حتى المذهب داخل المسيحية نفسها، ومنه ما عرضه هذا الكتاب من أعمال وحشية مارستها إسبانيا بحق اليهود والمسلمين والبروتستانت وغير الكاثوليك عموماً [المترجم].

(5) الماسوشية أو المازوخية masochism انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بتعذيب ينزله به رفيقه، وتوسعاً هو تلذذ المرء بالاضطهاد [المترجم].

Daniel Pipes، تنشأ أورابيا عن «اغتراب أوروبا عن تقاليدها اليهودية-المسيحية ومقاعد الكنيسة الفارغة والافتتان بالإسلام»، في حين «يُظهِر المسلمون حماساً دينياً يتحول إلى عقلية جهادية ونزعة سيادية على غير المسلمين وانتظار أن تعتنق أوروبا الإسلام»[12].

مؤكد أن هؤلاء الجزعين الذين يحذّرون من هذا المستقبل الأورابي لا يدركون التشابه بين نظرياتهم المذعورة حول السيطرة الإسلامية والكتيبات المعادية للسامية مثل: «بروتوكولات حكماء صهيون»(1). ولا تأتي هذه الرؤى من مؤدلجين مهمشين على أقصى اليمين السياسي، وإنما من كُتاب مثل بايبس وستين وفيليبس يكتبون بانتظام في الصحف والمطبوعات الرئيسة. وفي حين حذّر الكُتاب الإسبان المعادون للموروسكيين في السابق من أن الموروسكيين كانوا يتناسلون بسرعة أكبر من النصارى، لا تخلو السرديات الأورابية من نبوءات سكانية رؤيوية مماثلة، ستؤدي فيها معدلات الولادة الإسلامية المتصاعدة ومعدلات الخصوبة المتراجعة بين الأوروبيين «العلمانيين» و«المسيحيين» إلى تحويل أوروبا إلى ما أسماه الصحفي الإيطالي الراحل أوريانا فالاسي Oriana Fallaci: «مقاطعة إسلامية، كما كانت إسبانيا والبرتغال في زمن الأندلسيين... تعج بالملالي والأئمة والمساجد والبراقع والعباءات»[13].

على أن معظم مروجي هذه السيناريوهات المفزعة يبدون أكثر اعتدالاً من فالاسي، الذي يذهب إلى أن المسلمين الذين «يتناسلون كثيراً» يفعلون ذلك كشكل من «الغزو» أو «الحرب الصليبية المضادة»[14]. لكن حتى الأكاديميون الوسطيون يدعمون هذه الأفكار أحياناً، ومنهم مؤرخ

---

(1) «بروتوكولات حكماء صهيون» مجموعة من النصوص تعرض خطة لسيطرة اليهود على العالم، نشرت لأول مرة في الإمبراطورية الروسية في عام 1903، يقال إنها ملفقة للإساءة إلى اليهود، ويعتبر تصديقها من أشكال معاداة السامية [المترجم].

برنستون بيرنارد لويس Bernard Lewis، الذي قال للصحيفة الألمانية داي فيلت Die Welt في يوليو 2004 إن «أوروبا ستكون فيها أغلبيات سكانية إسلامية بنهاية القرن الحادي والعشرين على الأكثر»، وهو الاحتمال الذي توقع أن يحوّل أوروبا إلى «جزء من المغرب العربي»[15]. وثمة معلقون آخرون وصفوا مستقبلاً مريعاً يبتلع فيه المسلمون أوروبا وتخرقها أعدادهم إلى أن يتمكنوا من فرض الشريعة على كل أوروبا. ويرجع بعض المعلقين ذلك التحول السكاني إلى معدلات المواليد المنخفضة بين السكان الأوروبيين كبار السن. في حين يزعم آخرون، ومنهم فالاسي، أن المسلمين الأوروبيين يزيدون أعدادهم للسيطرة على أوروبا، باعتبار ذلك نوعاً من الجهاد، وهي فكرة مجنونة كان خايمي بليدا وماركوس دي وادالاخارا سيشاركانه فيها بالتأكيد.

توجد أدلة كافية لإثبات أن هذه النبوءات السكانية غير موثوقة في أحسن الأحوال، ومضخمة أو وهمية في أسوأها. فوفقاً لمكتب المرجع السكاني Population Reference Bureau المحترم في أمريكا، فإن معدلات الخصوبة بين المسلمين تتراجع باستمرار، ليس فقط في أوروبا وإنما في شمال إفريقيا أيضاً[16]. كما فندت صحيفة فاينانشيال تايمز في مقالة في أغسطس 2007 النبوءات الأورابية عن التراجع السكاني، وأشارت إلى حدوث «عودة إلى الحالة الطبيعية في الخصوبة» في شمال أوروبا في الأعوام الأخيرة. وبالاستشهاد بأرقام من الأمم المتحدة وكتاب الحقائق العالمي لوكالة الاستخبارات المركزية توضح عدم وجود فرق كبير بين معدلات ولادة النساء الجزائريات في فرنسا والنساء الفرنسيات، خَلُصت المقالة إلى أن «الأسلمة، ناهيك عن تطبيق الشريعة، ليست احتمالاً سكانياً وارداً في أوروبا»[17].

ورغم وفرة الأدلة الإحصائية أسهل كثيراً مما كانت عليه الحال في

القرن السادس عشر، فإن التعصب وأوهام التراجع الثقافي يمكن أن تولّد منطقها الخاص، وتقود إلى فرضيات ومعتقدات تُقبَل بلا تمحيص، ويتم التصرف بناء عليها. فكما كانت الحال في القرن السادس عشر، تفترض هذه السيناريوهات السكانية عموماً أن المسلمين جميعاً جزء من كتلة واحدة ينقل أفرادها قيمهم الثقافية والدينية الثابتة من جيل لآخر. وهنا أيضاً نجد أن هذه الفرضيات لا تقتصر على الهوامش السياسية، بل يشترك فيها مؤرخون محترمون من أمثال مارتن غلبرت Martin Gilbert ونيل فيرغسون Naill Ferguson اللذين يتبنيان أطروحة أورابيا والكابوس السكاني الذي تحمله.

على أن عالم أورابيا الوهمي مجرد مكون واحد في مد متصاعد للعقلية المعادية للمسلمين في أنحاء أوروبا كافة، اتخذ أشكالاً مختلفة، من التغطية الإعلامية السلبية دائماً وغير الأمينة تماماً للمسلمين، إلى الهجمات المادية والحملات ضد بناء المساجد وأعمال التخريب ضد البنايات الإسلامية والحوادث الغريبة مثل «عرض الخنازير» في بولونيا الذي حمل فيه السكان المحليون رؤوس ونقانق خنازير إلى موقع مقترح لمسجد في محاولة لـ«تدنيسه».

لكن بوجه عام، يتجنب السياسيون الأوروبيون اللغة التي استخدمها جانكارلو جنتيليني Giancarlo Gentilini نائب رئيس بلدية تريبيزو Treviso الذي وصف المسلمين ذات مرة بأنهم «سرطان يجب أن يستأصل قبل أن يبدأ في الانتشار»[18]. ويميل الخطاب السياسي الإنجليزي المحترم لأن يكون أكثر تحفظاً من حفيد وينستون تشرشل، الذي حذّر من أن «سيطرة» الطائفة الديوبندية(1) على المساجد البريطانية تخلق «عش أفاع

(1) الديوبندية Deobandi حركة فكرية إحيائية في الإسلام السني الحنفي، اسمها مشتق من مدينة ديوبند الهندية، نشأت في الهند وباكستان وأفغانستان وبنغلاديش وامتدت إلى بريطانيا =

وسطنا»[19]. لكن كثيراً من السياسيين والمعلقين الإعلاميين الأوروبيين يشاركون تشرشل في الاعتقاد بأنه «على خلاف معظم فئات المهاجرين الأخرى، يقاوم المسلمون الاندماج، وفي الغالب الأعم يتابعون أجندات خاصة بهم». وفي سبتمبر 2000، دعا الكاردينال جاكومو بيفي Giacomo Biffi رئيس أساقفة بولونيا إلى الحد من الهجرة الإسلامية إلى أوروبا، متعللاً بأنه «في غالبية الحالات يأتي المسلمون هنا وهم عازمون على أن يظلوا غرباء عن تراثنا القائم على «الإنسانية» الفردية أو الاجتماعية في كل شيء أساسي وثمين»[20]. وتُرجّع في حجج بيفي أصداء الأحزاب اليمينية المتطرفة الأوروبية، مثل حزب فلامس بيلانغ Vlaams Belang البلجيكي، الذي قال زعيمه لصحيفة نيويورك تايمز ذات مرة: «يجب أن نوقف الغزو الإسلامي. فأنا أعتقد أنه يستحيل دمجك في بلادنا إذا كنت إسلامياً»[21].

كانت اتهامات مماثلة توجه لليهود في أوروبا القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتتجاهل هذه الفرضيات انبثاق التمييز والتحيز من داخل البلاد «المضيفة» نفسها، وترجع عدم حدوث الاندماج إلى العداء أو التنافر المتبقي من جانب «الضيوف» المهاجرين المنغلقين. ورداً على هذه المشكلة المدركة، نحا عدد متزايد من الحكومات الأوروبية إلى نموذج سلطوي للاندماج، يُطلَب فيه الاندماج و«التماسك الاجتماعي»، بدلاً من التفاوض عليه، ويُفرَض من خلال متطلبات صارمة للمواطنة واختبارات الاندماج المدني وثقافة ماكارثية(1) تطلب من المهاجرين الأوروبيين أن يثبتوا «اعتدالهم» لتبرير استمرار وجودهم.

= وجنوب إفريقيا، تهدف إلى المحافظة على الإسلام الصحيح ومقاومة المذاهب الهدامة والثقافة الأجنبية، ومن أعلامها المعاصرين الشيخ أبو الحسن الندوي [المترجم].

(1) نسبة إلى جوزيف مكارثي Joseph McCarthy عضو مجلس الشيوخ الأمريكي الذي قاد حملة لاضطهاد الشيوعيين في النصف الأول من العقد السادس من القرن العشرين، ويستخدم النسب إليه للإشارة إلى اتهامات الخيانة والتخريب غير المسندة بأدلة [المترجم].

كان الوجود الإسلامي مكوناً أساسياً في التشريعات الأخيرة التي استحدثت في عدد من البلدان الأوروبية بهدف التخلص من المهاجرين «غير المتوافقين»، من خلال اختبارات المواطنة والاندماج التي يفترض أنها تقيس قدرتهم على التعاطي مع أفكار التسامح والعلمانية الأوروبية. ففي عام 2005 استحدثت وزارة الداخلية بولاية بادين فيرتمبيرغ Baden Wurttemberg الألمانية اختباراً مدته ساعتين يقدم بالدرجة الأولى للمسلمين المتقدمين للحصول على المواطنة الألمانية، يسأل فيه المتقدمون أسئلة على مواقفهم من المثلية الجنسية وحرية التعبير والزيجات المرتبة[1]. ولاحقاً استحدثت اختبارات مماثلة في بلدان أوروبية أخرى. ففي مارس 2006، أدخلت الحكومة الهولندية اختبارا للاندماج المدني يُعرَض فيه على المهاجرين الراغبين في الحصول على المواطنة الهولندية فيلم فيديو بعنوان: «إلى هولندا» يعرض مثليين يقبلون بعضهم على شاطئ وامرأة عارية الصدر تخرج من البحر.

لا يستهدف الاختبار الهولندي المسلمين تحديداً، وإنما أقارب المهاجرين «من البلدان غير الغربية» الراغبين في الانضمام إلى عائلاتهم والمقيمين غير الهولنديين في هولندا، لكنه استحدث بعد سنوات كان الوجود الإسلامي فيها يتواتر بانتظام على ألسنة سياسيين وسطيين وشعبويين يمينيين من أمثال بيم فورتين Pim Fortyn، باعتباره التهديد الثقافي الأكبر للتسامح

(1) الزيجة المرتبة أو الزواج المرتب arranged marriage هو شكل من أشكال اختيار الزوج/ الزوجة ينتشر في جنوب ووسط وشرق آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا، يقرره ذوو العريس والعروس أو أفراد عائلاتهما الأكبر سناً، حيث يقومون هم باختيار العروس أو الموافقة على العريس، أو عن طريق طرف ثالث، مثل الخاطبة أو المكاتب الحديثة التي تقوم بعملها أو قريب أو صديق أو أحد المعارف، وهو ما أصبح يطلق عليه حالياً في الإعلام العربي مصطلح «زواج الصالونات». على أن هذا الشكل من اختيار الزوج/الزوجة يقوم على رضا العريس والعروس، كل ما هنالك أن طرفاً ثالثاً يساعدهما في التعارف، وهو لذلك يختلف عن الزواج بالإكراه forced marriage الذي يحدث رغم رفض أحد الطرفين أو كليهما [المترجم].

الليبرالي الهولندي. وقد تكشف نمط مماثل في أجزاء أخرى من أوروبا. وفي تطور آخر يعيد أصداء إسبانيا الهابسبورغية، اكتسبت هذه الحركة الدمجية إلحاحاً جديداً بفعل المخاوف الأمنية، وبات أي اختلاف ثقافي وديني إسلامي يخلط بسهولة بالتطرف السياسي والعنف الإرهابي. وهذه التصورات تقود على نحو متزايد إلى ميل إلى اعتبار الاندماج، بمعنى الامتثال الإلزامي للقيم المدركة للأغلبية، شرطاً أساسياً للأمن القومي.

في القرن السادس عشر أيضاً، كان المسؤولون الإسبان يعتبرون الخصائص الأندلسية المتبقية لدى المورسكيين دليلاً على العداء والخيانة السياسية والعصيان، وهو الاقتران الذي جعلهم دائماً مصممين على استئصال هذه الاختلافات بالقوة. لكن إذا كان تاريخ المورسكيين يقدم درساً واحداً للحاضر، فهو أن الدمج القسري ليس وسيلة فعالة لتهدئة المخاوف الأمنية، بل إن هذه العملية لا تيسر الاندماج. فمنذ اللحظة التي شرعت فيها الأغلبية الكاثوليكية الإسبانية في فرض ثقافتها وقيمها على مسلميها السابقين بالإكراه، وقعت في شرك شكوكها وتنبؤاتها غير الواقعية. وبدلاً من أن يشجع الإكراه الاندماج، ولّد سخطاً وتحدياً واغتراباً بين المورسكيين، عززت بدورها نظرة حكام إسبانيا إليهم على أنهم جماعة مشتبه فيها وخطرة.

هل أوروبا عرضة لخطر الاستسلام للعملية نفسها في تعاملها مع أقلياتها الإسلامية؟ أرى أننا لا يجب نبالغ في أوجه الشبه بين الحالتين. فلا توجد محكمة تفتيش لمراقبة السلوك الثقافي والديني لمسلمي أوروبا، واختبارات الاندماج والمواطنة لا تتساوى مع الزنازين والعروض التكفيرية. لكن أوروبا تبتعد أكثر فأكثر عن الوصف الشهير للاندماج، الذي قدمه وزير الداخلية البريطاني السابق روي جينكنز Roy Jenkins الذي يقول: «ليست عملية اندماج زائفة، بل فرص متساوية مصحوبة

بتنوع ثقافي في جو من التسامح المتبادل»[22]. وبدلاً من ذلك، أخذ عدد متزايد من البلدان الأوروبية يتبنون منطق إما/ أو، الذي فصله رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير في عام 2006، حين أصر على أن التسامح «هو الذي يصنع بريطانيا»، وأن كل المواطنين عليهم أن «يمتثلوا له أو ألا يأتوا هنا»[23]. تميل هذه الرؤى إلى التسليم بتفوق هذه القيم المهيمنة، وتفترض حتى أن كل المواطنين البريطانيين يشتركون آلياً في الالتزام بها. وهذه التصريحات بإصرارها الشديد على الهوية المتجانسة، التي تنتمي إليها هذه الأغلبية المتخيلة، تطلب الامتثال ثمنا لدخول الإقليم القومي، وهي مطالب تتركز على جماعات دينية أو ثقافية أو عرقية محددة ينظر إليها على أنها غريبة وأجنبية.

في هذه الظروف، يتحول الدفاع عن التسامح والهوية القومية بسهولة إلى مبرر لتعصب يرى القوامة في نفسه «وطغيان الأغلبية» الشمولي، الذي يصم الأقليات ويصوّرها أنها غير راغبة في أن تكون متسامحة أو غير قادرة على ذلك. صحيح أن عدداً من الحكومات الأوروبية تجاوزت سَجن وإبعاد «المهاجرين الاقتصاديين» وطالبي اللجوء «الزائفين» غير المرغوب فيهم، لكنها تستخدم اختبارات الاندماج كتبرير لطرد المهاجرين الذين يفترض أنهم غير متوافقين. ففي فرنسا، اقترح نيكولا ساركوزي حين كان وزيراً للداخلية طرد كل العائلات التي «تحتجز الزوجة رهينة في البيت دون أن تتعلم الفرنسية». وفي هولندا، تفرض غرامات على المهاجرين الذين يفشلون في اختبارات الاندماج الجديدة أو لا يُظهِرون تقدماً ملحوظاً بعد ستة أشهر. وفي سويسرا، دعا حزب الشعب إلى تغيير قانون العقوبات بحيث يمكن إبعاد كل الأجانب الذين يرتكبون جرائم بعد أن يقضوا أحكام السجن. وفي مارس 2006، درس وزراء داخلية البلدان الستة الأكبر في الاتحاد الأوروبي اقتراحاً يطالب المهاجرين بتعلم

لغة البلاد التي استضافتهم والتكيف مع معاييرها الاجتماعية وإلا فإنهم يتعرضون إلى الطرد.

وفي النرويج، اقترح حزب التقدم اليميني أن يفقد المهاجرون الذين لا يتعلم أطفالهم اللغة النرويجية الضمان الاجتماعي ومخصصات الطفولة، بغرض ضمان تمسكهم المستقبلي بـ«القيم النرويجية». وفي إسبانيا، أعدت الحكومة الإقليمية في بلنسية مشروع قانون جديداً يلزم كل المهاجرين بتوقيع عقد اجتماعي يتعهدون فيه «باحترام قوانين إسبانيا وبلنسية ومبادئهما وعاداتهما». ومع أن هذه التوجهات الدمجية لا تستهدف المسلمين تحديداً، فإنها وكذلك الهجوم على التعددية الثقافية الذي يرافقها دائماً، اكتسبا دفقاً جديداً بفعل التهديد المدرك للهجرة الإسلامية على القيم «الأساسية» لأوروبا.

ودفع بعض المعلقين بأن هذه الإجراءات قد لا تكفي لحماية تراث أوروبا من الحشود الإسلامية. واقترح المعلقون الليبراليون والمحافظون على حد سواء إيقاف الهجرة الإسلامية للحيلولة دون الأسلمة الثقافية لأوروبا. وهناك أيضاً من يؤكدون الحاجة إلى حلول أكثر صرامة. وفي ذلك كتب الناقد الأدبي الأمريكي بروس باور Bruce Bawer أن «المسؤولين الأوروبيين أمامهم طريق واضح للخروج من هذا الكابوس. فهم يمتلكون جيوشاً وشرطة وسجوناً، وبمقدورهم إبعاد حمولات طائرات يومياً، ويمكن أن يبدؤوا غداً في إنقاذ أوروبا»[24].

إن باور المثلي المسيحي، الذي يعيش في إسكندنافيا، ويكتب في صحيفة نيو يوركر وغيرها من المطبوعات الرائجة، هو مؤلف أحد نصوص أورابيا الأساسية «حين نامت أوروبا: كيف يدمر الإسلام المتطرف الغرب من الداخل»، الذي أثار جدلاً حين رشح لجائزة الحلقة القومية لنقاد الكتب في عام 2007. وأخذَ «الطريق الواضح» لباور، الذي كان في

السابق فضاء أقصى اليمين، يغلب على تيار الوسط. ففي عام 2006، قال الروائي مارتن أميس Martin Amis لمحاور تليفزيوني: «ثمة طريق محدد، وهو أن 'الجماعة الإسلامية يجب أن تعاني حتى ترتب بيتها'. لكن أي نوع من المعاناة؟ ليس الطرد، بل الإبعاد إلى أسفل السلم، بتقييد حرياتهم، بالتفتيش الذاتي للأشخاص، الذي يبدو أنهم من الشرق الأوسط أو من باكستان... وغيرها من الأمور التمييزية، حتى تتأذى الجماعة كلها، وتبدأ في التشدد مع أطفالها»[25].

زعم أميس لاحقاً أنه يقدم «تجربة فكرية» وليس اقتراحاً عملياً، لكن لا هو أو كثيرون من أولئك الذين اقترحوا الإبعاد في الأعوام الأخيرة يبدو أنهم يكترثون بالنتائج الإنسانية، ولا يبدو حتى أنهم ملمون بسابقاتها التاريخية[1]. وإذا كان حل «المشكلة الإسلامية» في إسبانيا حادثة بعيدة في التاريخ الأوروبي ولا يتذكرها الكثيرون، فإن الحل النازي «للمشكلة اليهودية» بأوروبا يقدم مثالاً أحدث لما يمكن أن يقود إليه هذا التفكير. لكننا ننسى دائماً أن النازيين نظروا إلى التهجير والإبعاد الإجباريين لليهود الألمان على أنه الحل. وكما أوضح الكاتب السويدي سفين ليندكيست

(1) يشكل عدم الإلمام بالسوابق التاريخية أحد أكثر الأسباب للتخبط في صياغة السياسات على المستوى الدولي والوطني، فمع أنه «لا جديد تحت الشمس» تقريباً في أمور تنظيم المجتمع الدولي والوطني، إلا أن غير الملمين بالتاريخ يتبنون أفكارا ورؤى تسببت في كوارث في الماضي، أو على الأقل ثبت فشلها مراراً وتكراراً، ويعتبرونها حلولاً جديدة «إبداعية»، مع أنها حلول قديمة لمشكلات قديمة. ينطبق ذلك على دعاة تقييد الهجرة إلى الغرب والتضييق على المهاجرين، كما ينطبق بالقدر نفسه على المهاجرين الذين يكافحون لدخول المجتمعات الغربية وما أن يدخلوها حتى ينفصلوا عنها في داخلها، وينطبق أيضاً على دعاة «الدولة الدينية» في دول «ثورات الربيع العربي» الذين يتخيلون أن مجتمعاتهم اليوم أبعد منها في الماضي عن الإسلام وأن ما يعتبرونه تطبيق الشريعة أو أسلمة الدولة سيقدم حلاً ناجزاً لكل مشكلات المجتمع، وهم غافلون عن أن أشد فترات التاريخ الإسلامي انحطاطاً هي تلك التي سادت فيها هذه الدعوات، إن لم تكن هذه الدعوات عينها تعبير عن التراجع وناتجة عنه [المترجم].

Sven Lindqvist فإن الخط الفاصل بين الطرد المادي والإبادة يمكن دائماً عبوره بسهولة[26].

بعد المحرقة، نقض الغرب التمييز العنصري «العلمي» أو «البيولوجي» ونظريات التفوق العرقي ونبذها كلياً، في عملية عجلت بها أيضاً تصفية الاستعمار ورفض العرق كمسوغ للهيمنة الإمبراطورية. لكن التعصب والكراهية يمكن أن يجدا دائماً قنوات جديدة للتعبير وطرقاً حديثة لاكتساء الشرعية. من ذلك أننا اليوم نجد كلاً من السياسيين اليمينيين المتطرفين والمدافعين الليبراليين عن التسامح الذين يحذّرون من التهديد الإسلامي لأوروبا يتحدثون غالباً عن الثقافات والأديان المتنافرة والصدامات الحضارية وليس عن العرق أو البيولوجيا، لكن هذه السرديات تشترك دائماً في الوظيفة عينها، فضلاً عن أنها يمكن أن تؤدي إلى نتائج لا تقل ترويعاً.

حذّر عالم الاقتصاد الفائز بجائزة نوبل أمورتو شين Amartya Sen من الميل الخطر لبناء «هويات جهادية» تأسيساً على حضارات يفترض أنها متناقضة ومن إمكانية العنف والديماغوغية اللذين تحويهما هذه المقولات[27]. ويرفض شين فكرة الانقسامات الواضحة بين الثقافات والحضارات، ويدفع بأن البشر هم حاصل جمع هوياتهم وانتماءاتهم «الجمعية» أو «المتنوعة» التي تنتشر عبر الحضارات. وما أحوجنا في هذه الأوقات الخطرة والمضطربة، لأن نتمسك بهذه الفكرة وأن نجد طرقاً لتطبيقها على أرض الواقع في أوروبا وخارجها. فبذور الكراهية والتعصب تكمن في كل المجتمعات، والبشرية يمكن أن تعود إلى الوراء كما يمكن أن تتقدم إلى الأمام. وبعد أربعمائة عام من تدمير الموركسيين، يقدم هذا الحدث مثالاً لما يمكن أن يحدث حين يستسلم المجتمع لأسوأ غرائزه ومخاوفه في محاولة من جانبه لطرد شياطينه المتخيلين.

هوامش الفصول

مقدمة

1. Danvila y Collado, La expulsión, p. 320.
2. Janer, Condición social, p. 123.
3. Menéndez Pelayo, Historia de los heterodoxos españoles, p. 340.
4. Fuller, Decisive Battles, vol. 1, p. 545.
5. Bertrand and Petrie, History of Spain, p. 228.
6. Claudio Sanchez-Albornoz, «España y el Islam,» Revista de Occidente 7 (1929), p. 27, cited in López-Baralt, Huellas del Islam, p. 32.
7. José Maria Aznar, «Seven Theses on Today's Terrorism» (lecture, Georgetown University, Washington, DC, September 21, 2004), cited in Aidi, «Interference of al-Andalus,» pp. 67–87.

تمهيد: «نهاية مآسي إسبانيا»

1. Chronicle of 754, cited in Tolan, Saracens, p. 81.
2. Bulliet, Case for Islamo-Christian Civilization, p. 31

   وكما يلاحظ بوليت أيضاً، فإن هذا الإسهام كثيراً ما تم تجاهله أو غض الطرف عنه في أوروبا، لكنه مع ذلك يظل مصدر فخر لكثير من المسلمين.
2. Fernando de Pulgar, Crónica de los Reyes Católicos por su secretatio Fernando de Pulgar, cited in Harvey, Islamic Spain, pp. 270–71.
4. "Morisco Appeal to the Ottoman Sultan,» trans. from Arabic by James T. Monroe, in Constable, Medieval Iberia, p. 365.
5. Bernáldez, Memorias del Reinado, p. 232.
6. Cited in Hillgarth, Spanish Kingdoms, vol. 2, p. 393.

1- الاستثناء الأيبيري

1. Cited in Fletcher, Moorish Spain, p. 135.
2. كان سيروت Cirot يشير بالدرجة الأولى إلى الأبطال المسلمين الذين يكتسون مسحة رومانسية في الأدب «الأندلسي» الإسباني في أواخر القرن السادس عشر، لكن هذه المسحة الرومانسية تكشفت قبل وقت طويل من هذه الفترة، وحافظت على بقائها، ولم تنحصر في إسبانيا فقط. من أجل مناقشات الولع الأندلسي وأفكار سيروت، انظر: Harvey, Muslims in Spain, pp. 198–201. وانظر أيضاً: أعمال سيروت Márquez Villanueva حول المشكلة المورسكية.
3. لاتزال هذه المهرجانات تشكّل جزءاً منتظماً من المهرجانات الصيفية للأحياء في كثير من القرى الإسبانية، مع أن محتواها خُفّف كثيراً في السنوات الأخيرة، فأصبحت دمى النبي محمد لا تحرق عموماً ولا تُغرَق في الآبار.
4. Cited in Aziz al-Azmeh, «Mortal Enemies, Invisible Neighbours: Northerners in Andalusi Eyes,» in Khadra Jayyusi and Marín, Legacy of Muslim Spain, p. 268.
5. See Richard Fletcher, «The Early Middle Ages,» in Carr, Spain, pp. 63–90.
6. Primera Crónica General de España, ed. Ramón Menéndez Pidal (Madrid, 1955), p. 313, cited in Tolan, Saracens, p. 188.
7. The Treaty of Tudmir (713), trans. from Arabic by Constable, Medieval Iberia, p. 37.
8. Paulus Alvarus, Indiculus luminosus, Corpus scriptorum muzarabicorum 35: 314–15, trans. Richard Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962), cited in Tolan, Saracens, p. 86.
9. Eulogius, Memoriale sanctorum, Corpus scriptorum muzarabicorum 2.1.1: 397–98, trans. Edward Colbert, The Martyrs of Córdoba, 850–859: A Study of the Sources (Washington, DC: Catholic University of America, 1962), cited in Tolan, Saracens, p. 86.
10. Cited in Harvey, Islamic Spain, p. 66.
11. Ibid., p. 125.

12. يبدو أن المسلمين والنصارى واليهود كانوا مندمجين تماماً في تيروال، وأن هذا التعايش ظل واضحاً في القرن السادس عشر. انظر: Halavais, Like Wheat to the Miller.
13. Cited in Meyerson, Muslims of Valencia, p. 45.
14. From James T. Monroe, Hispano-Arabic Poetry (Berkeley: University of California Press, 1974), p. 320.
15. "Viaje de León Rosmithal," in García Mercadal, Viajes de extranjeros, vol. 1, p. 298.

2- الغالبون

1. Moore, Formation of a Persecuting Society, p. 5.
2. Cited in Nirenberg, «Mass Conversion and Genealogical Mentalities,» p. 10.
3. Ibid., p. 12.
4. Ibid., p. 13.
5. توجد مراجعة لتطور فكرة نقاء الدم في العصر الاستعماري في Martínez, «Black Blood of New Spain,» pp. 479–520. وقد وجدت عالمة الأنثروبولوجيا ديان نيلسون، في غواتيمالا أواخر القرن العشرين، أن أحفاد المستعمرين الإسبان كانوا لايزالون يعرّفون أنفسهم بأنهم «بيض بلا شائبة من الدم الهندي». انظر:

   Diane M. Nelson, «Biopolitical Peace in Guatemala,» in Moore, Kosek, and Pandian, Race, Nature, pp. 122–46.
6. Pérez, Spanish Inquisition, p. 25.
7. Roth, Spanish Inquisition, pp. 81–82.
8. Charter of Expulsion of the Jews, trans. from Castilian by Edward Peters, in Constable, Medieval Iberia, pp. 353–54.
9. Bernáldez, Memorias del Reinado, p. 262. I have used the translation in Liss, Isabel the Queen, p. 273.
10. Letter from Ferdinand to Count of Aranda, March 31, 1492, cited in Kamen, Spanish Inquisition, p. 21.
11. Letter from Christopher Columbus to the Catholic Monarchs (1493), trans. from Castilian by William Phillips, in Constable, Medieval Iberia, p. 373.

3- المغلوبون

1. al-Maqqari, History of the Mohammedan Dynasties, p. 392.
2. ليس غريباً، بالنظر إلى طول المدة الزمنية وندرة البيانات السكانية الموثوقة حول عدد المهاجرين من العالم الإسلامي، ونسبة اعتناق الإسلام بين النصارى الأيبيريين، أن الدارسين لا يقبلون هذه الإحصاءات عموماً. ومنها، على سبيل المثال، تقدير غليك Glick لعدد السكان المسلمين الأيبيريين الأصليين بخمسة ملايين وستمائة ألف في عام 1100 في إسبانيا الإسلامية والمسيحية، الذي شكّك فيه هارفي Harvey دافعاً بأنه كبير جداً Islamic Spain, pp. 7–9. ومع ذلك يتفق المؤرخون جميعاً على الانخفاض المفاجئ في عدد السكان المسلمين بداية من عام 1100 فصاعداً.
3. In Boswell, Royal Treasure, p. 60.
4. From Abul Abbas Ahmad al-Wansharishi, Kitab al-mi'yar al-mugrib (Rabat: 1981), p. 141, trans. from the Arabic in Harvey, Islamic Spain, pp. 58–59.
5. Cited in Halavais, Like Wheat to the Miller, p. 17.
6. Cervantes, Don Quixote, pp. 365–66.
7. من أجل وصف مثير للمواقف من الاستحمام في فرنسا أوائل العصر الحديث وإشارات إلى إسبانيا، انظر: Vigarello, Concepts of Cleanliness.
8. Pulgar, Crónica, cited in Harvey, Islamic Spain, p. 271.

4- وعود مهدرة: غرناطة (1492–1500)

1. Cited in Harvey, Islamic Spain, p. 316.
2. Mármol y Carvajal, Historia de la rebelión, p. 63.
3. Bermúdez de Pedraza, Historia ecclesiastica, p. 187.
4. Munzer, Viaje por España.
5. Harvey, Islamic Spain, p. 328.
6. Ibid.
7. In Ladero Quesada, Los mudejares, colección documental, p. 236.
8. Prescott, History of the Reign, p. 458.

5- الثورة والتنصير القسري

1. See Suberbiola Martínez, Real Patronato, p. 206.
2. Cited in Harvey, Islamic Spain, pp. 338-39.
3. Martire d'Anghiera, Una Embajada, p. 164.
4. "Morisco Appeal," in Constable, Medieval Iberia, p. 369.
5. لا يقتصر هذا الاعتقاد على المؤرخين الحديثين. ففي رأي فراي خوسيه دي سيغونثا؛ مؤرخ القرن السادس عشر لأخوية إيرونيموس، أنه «لو وجد أساقفة أكثر ساروا على دربه، لما كانت هناك كل هذه الأرواح العنيدة في تمسكها بدياناتي موسى ومحمد في إسبانيا، ولا هؤلاء الزنادقة الكثيرون في الأمم الأخرى».

   José de Siguenza, Historia de la Orden de San Jerónimo (Madrid, 1907), p. 306, cited in Kamen, Spanish Inquisition, p. 70.
6. In Ladero Quesada, Los mudejares, colección documental, no. 127, p. 293.

6- الدين المنتصر

1. Antoine Lalaing, «Viajes de Felipe El «Hermoso» a España,» in García Mercadal, Viajes de extranjeros, p. 485.
2. Cited in Hillgarth, Spanish Kingdoms, p. 620.
3. Nader, Mendoza Family, p. 187.
4. Fray Antonio Guevara, «letra para un amigo secreto del autor,» cited in Janer, Condición social, p. 165.
5. In Barrios Aguilera, Granada morisca, p. 243.

7- المعقل الأخير: أراغون (1520-1526)

1. Cited in Harvey, Muslims in Spain, p. 87.
2. لم تكن هذه الظواهر تقتصر على إسبانيا. فبداية من العصور الوسطى، كانت ثورات الفلاحين تتخذ دائماً شكلاً دينياً، وكانت هذه الهبات تسبقها وتصاحبها دائماً طوالع ونذر مماثلة. انظر: Cohn, Pursuit of the Millennium.

3. توجد روايات كثيرة لهذه الأحداث في تاريخ المورسكيين، من أحدثها وأشهرها Benítez Sánchez-Blanco, Heroicas decisiones، الذي يتحدى كثيراً من الفرضيات التي قدمها مؤرخون سابقون حول مدى صحة عمليات التنصير تحت حد السيف.
4. لا يوجد بالطبع ارتباط مباشر بين هذين «الفتحين»، لكنهما يشتركان في عناصر السيادة الكاثوليكية فيما بعد الاسترداد. فالمستعمرون الذين أسقطوا الإمبراطورية الأزتكية استدعوا اسم القديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين، فيما أشار كورتيس إلى المعابد الأزتكية في رسائله المبكرة باسم الميثكيتا mezquita وهي المقابل الإسباني لكلمة «مسجد».
5. كانت ثورة الأخويات واحدة من عدة حوادث في التاريخ الإسباني الحديث المبكر، أشيع فيها أن الشخصية التوراتية «الخفي» تجلت فعلاً، أو كان يعتقد أنها على وشك التجلي. وكانت هذه الزيارات الوشيكة مؤشراً آخر للنبوءات الألفية التي سادت هذه الفترة، وهي نبوءات كانت تبحث دائماً عن تأكيد عبر الحركات الاجتماعية المتطرفة وشؤون الدولة على حد سواء.
6. حول هذه النقاشات، انظر: Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 131–32. وبورانات الذي كان يكتب في عام 1901 أيد الطرد بشدة، وقد أراد بكتابيه المهمين أن ينقل أطروحته التي كانت مبررة وحتمية تماماً.
7. Ibid., p. 136.
8. من أجل سردية مفصلة للأحداث في بني وزير، انظر: Pardo Molero, « 'Per salvar la sua ley,' » pp. 113–54.
9. Escolano, Decada primera, p. 1682.
10. See Harvey, Muslims in Spain, pp. 95–96.

8- «بيت مليء بالأفاعي والعقارب»

1. Letter in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 162–64.
2. وكذلك تجنبوا هذا الاتصال تماماً كما تثبت تقارير الكنائس الفارغة.
3. كان فرانثيسكو دي بورجيا استثناء في عائلته ذات التاريخ الصحي المعتل، وقد شهد في المنام الجثة الفاسدة لزوجة شارل الإمبراطورة إيزابيلا، التي ماتت بالحمى في عام 1539، وانضم بعدها إلى جمعية يسوع وطُوّب قديساً

فيما بعد تقديراً لورعه وحماسه الديني.

4. لم يكن ذلك ناتجاً بالضرورة عن كراهية الكاثوليكية من جانب آبائهم. فكثير من الصبية المورسكيين في البيازين كانوا أبناء حرفيين محليين، وكانوا يعملون مع آبائهم منذ سن مبكرة جداً، ولذلك كانوا يتركون المدرسة مبكراً. ومع زيادة عدد السكان النصارى القدامى بغرناطة في القرن السادس عشر، امتلأت فضاءاتهم بنصارى قدامى كانوا حريصين على أن يتلقى أطفالهم تعليماً كاثوليكياً بغرض إلحاقهم بالكهانة أو أي عمل بالكنيسة.

5. "Discurso antiguo en material de los moriscos,» in Janer, Condición Social, pp. 266–68.

6. Cited in Coleman, Creating Christian Granada, p. 153.

7. لم يحدث ذلك على المستوى القومي. وتوجد أدلة على مقاومة الزيجات المختلطة من كل من النصارى القدامى والمورسكيين في القرن السادس عشر. ومع ذلك كانت هذه الزيجات شائعة في بعض البلدات والجماعات الريفية، مثل تيروال ومناطق قشتالة التي كان المسلمون والنصارى مندمجين فيها لفترة أطول.

8. يوجد وصف مفصل لهذه التعقيدات في بلد الوليد، التي كانت منتشرة بلا شك في أماكن أخرى في

Manuel Moratinos García and Olatz Villanueva Zubizarreta, «Consecuencias del decreto de conversión al cristianismo de 1502 en la aljama mora de Valladolid,» Sharq al-Andalus 16–17 (1999–2002), pp. 117–39.

9. Cited in Cardaillac, Moriscos y cristianos, p. 328.

10. In Gallego Burín and Gámir Sandoval, Los moriscos, pp. 226–34.

11. حاكمت محكمة التفتيش البلنسية لوس أنخليس في عام 1544. من أجل مقتطفات من المحاكمة، انظر: Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 485–99.

12. Ibid., pp. 443–69. كانت محكمة التفتيش تعلم بنشاطات كاردونا منذ فترة، لكن قوة الإقطاعيين البلنسيين أخرّت محاكمته إلى عام 1570 حين شعرت المحكمة أنها قوية بما يكفي لاعتقاله ومحاكمته. وبالنظر إلى ثقل مخالفاته، جاء حكم كاردونا مخففاً نسبياً بالغرامة والعزل، لكنه مات بعد الحكم مباشرة.

13. Cited in Kamen, Spanish Inquisition, p. 223.

9– حياتان متوازيتان

1. See Harvey, Muslims in Spain, pp. 60–63.
2. Cited in Ehlers, Between Christians and Moriscos, p. 23.
3. Cited in Cardaillac, Moriscos y cristianos, p. 24. يحوي كتاب كارديالك حوادث مماثلة كثيرة تعتمد بشدة على سجلات محاكمات محكمة التفتيش.
4. Cited in Green, Inquisition, p. 200.
5. See Cervantes, Don Quixote, pp. 76–78.
6. ترجع فكرة اعتبار المخطوطات الألخامية «إنديز أدبية» عموماً إلى الكاتب وجامع الكتب سيرافين إستيبان كالديرون Serafin Estiban Calderon، الذي وصف هذه الكتابات بأنها «إنديز الأدب الإسباني، الذي لم يكتشف أو يستكشف» في كلمة في مبنى أتنيو دي مدريد Ateneo de Madrid في عام 1848.
7. لا يكفي المجال هنا لإعطاء الكتابات الألخامية حقها. من أجل تحليل ومناقشة مفصلين، انظر: Cheyne, Islam and the West, and Harvey, Muslims in Spain.
8. يوجد فحص مؤثر لأسطورة كركابونة وأهميتها في إسبانيا المورسكية في Perry, Handless Maiden, pp. 27–34.
9. Cited in Harvey, Muslims in Spain, p. 86.
10. Ibid., p. 182.
11. See Abadía Irache, «Los Zauzala,» pp. 331–40.
12. Cited in Coleman, Creating Christian Granada, p. 133.
13. يوجد تفسير لحياة كاستليو وأفكاره من منظور القرن العشرين في Zweig, Right to Heresy.

10– سنوات خطرة: (1556–1568)

1. Fray Antonio Baltasar Alvarez, cited in Felipe Fernández-Armesto, «The Improbable Empire,» in Carr, Spain, p. 140.
2. Cited in Sicroff, Los estatutos de sangre, p. 173.

3. Cited in Fisher, Barbary Legend, p. 62. ورغم اللعنة التي أعلنتها معظم الحكومات الأوروبية على جيوب القرصنة بشمال إفريقيا أو ربما بسببها، كانت هذه المدن تجذب دائماً المنبوذين الأوروبيين والهاربين من القانون أو من الأعراف المسيحية عموماً. يوجد وصف نابض بالحياة لهذا التاريخ المفقود في Wilson, Pirate Utopias.
4. يوجد تحليل قوي لمحنة ثيرفانتس في الجزائر وتأثيرها على أعماله في Garcés, Cervantes in Algiers.
5. Quoted in Braudel, Mediterranean, p. 882.
6. Cited in Kamen, Spanish Inquisition, p. 225.
7. Report in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 225–28.
8. In Monter, Frontiers of Heresy, p. 34.
9. Cited in Braudel, Mediterranean, p. 959.
10. المسؤول المقصود هنا، وهو الخريج أورتادو، كان يكتب من البشرات في صيف عام 1561، وأخبر الملك فيليب الثاني أيضاً بأن الموريسكيين كانوا يعانون بلا شكوى لأكثر من عشرين عاماً من «جرائم وإساءات وسرقات لا تحصى» على أيدي أولئك الذين كانوا يتهمونهم بالعصيان. انظر: Braudel, Mediterranean, p. 787.
11. AGS, Estado K, legajo (file) 1512, letter from don Francés de Álava to Gabriel de Cayas, October 29, 1569.

11– مرسوم غرناطة

1. لم يكن هذا التشريع جديداً على التاريخ الأوروبي، وإن كانت شدته ومداه غير مسبوقين في إسبانيا نفسها. ففي عام 1367، أصدر التاج الإنجليزي مرسوماً أصبح يعرف بقوانين كيلكيني Kilkenny statutes [1] حظر استخدام اللغة الغالية Gaelic وتصفيفات الشعر والملابس السلتية أو الكلتية وغيرها من العادات الأهلية الأخرى في المستعمرة. وأصدر هنري الثامن تشريعاً مماثلاً حين أعلن نفسه ملكاً لأيرلندا في عام 1540. انظر: Barbara Fuchs, «Spanish Lessons: Spenser and the Irish Moriscos,» Studies

(1) كيلكيني Kilkenny مدينة أيرلندية تقع حول نهر النور Nore.عقاطعة لينستر Leinster تعاقب عليها الغالبون، ومنهم النورمنديون والإنجليز [المترجم].

in English Literature, 1500–1800 42, no. 1 (Winter 2002), pp. 43-
.62

2. توجد نسخ مختلفة من هذه الوثيقة المهمة. وكل الاقتباسات التي استخدمتها هنا مأخوذة من Muley, Memorandum for the President.
3. Ibid., pp. 72–73.
4. يورد مارمول كارباخال بعض هذه الجفور في عمله المهم Historia de la rebelión, book 3, chap. 3, pp. 75–80. ويزدري المؤرخ الغرناطي «الريفيين المورسكيين الجهلة»، الذين وضعوا ثقتهم في هذه «الأوهام»، ونسي على ما يبدو أن السكان النصارى كانوا لا يقلون عنهم ميلاً لهذه النبوءات في القرن السادس عشر.
5. "Moorish Ballad of 1568,» in Lea, Moriscos of Spain, p. 435.
6. Hurtado de Mendoza, War in Granada, p. 47. مؤكد أن مندوسه لم يكن يعرف نص كلمة الصغير بالضبط، لكن هذه الكلمة المتخيلة، كما هي الحال مع كتابات المؤرخين الكلاسيكيين الذين أحبهم مندوسة، جاءت متفقة مع روح، إن لم يكن محتوى الأحداث التي كان يعرضها.

12- «حرب صغيرة قذرة»

1. King Philip II to Juan Vázquez, April 22, 1579, cited in Kamen, Philip of Spain, p. 131.
2. Hurtado de Mendoza, War in Granada, p. 69.
3. "Auto de Fe Celebrated in Granada, March 18, 1571,» in Homza, Spanish Inquisition, p. 245.
4. Mármol y Carvajal, Historia de la rebelión, book 4, chap. 8, p. 95.
5. See Braudel, Mediterranean, p. 1063
6. Pérez de Hita, La Guerra, p. 79–80.
7. For a detailed analysis of the participation of women in the Morisco revolt, see Perry, Handless Maiden, pp. 88–109.
8. Pérez de Hita, La Guerra, p. 187.

13- الهزيمة والعقاب

1. Cabrera de Córdoba, Historia de Felipe II, vol. 1, pp. 401–2.

2. تدعي أغرب الروايات وأبشعها لموت ابن أمية أنه وجد في السرير مع امرأتين، وأن قاتليه كانوا سكارى بالحشيش وخنقوه بحبل حريري. ويزعم آخرون أنه مات وهو يعلن أمنيته في أن يكون نصرانياً. لكن هذه الادعاءات لا يمكن التثبت منها، وإنما يجب بالنظر إليها بعين الشك.
3. Cited in Tazón Salces, Life and Times of Thomas Stukeley, p. 96.
4. Ibid., p. 123.
5. AGS, Estado K, legajo 1512, Francés de Álava to King Philip II, September 18, 1569.
6. William of Orange to Count John, February 20, 1570, cited in Parker, Philip II, p. 106.
7. Cited in Braudel, Mediterranean, p. 1070.
8. Don John of Austria to King Philip II, August 14, 1570, in Barrios Aguilera, Granada Morisca, p. 361.
9. Don John of Austria to Ruy Gómez, November 5, 1570, cited in Braudel, Mediterranean, p. 1072.
10. Pérez de Hita, La Guerra, pp. 352–53.
11. AGS, Cámara de Castilla, legajo 2157, report of the alcalde of Molina de Mosquera in Albacete, December 8, 1570, cited in Perry, Handless Maiden, p. 114.
12. AGS, Cámara de Castilla, legajo 2157, report to King Philip II, December 15, 1570.
13. AGS, Cámara de Castilla, legajo 2157, report of the governor of Mérida, January 4, 1571, in Perry, Handless Maiden, p. 113.
14. Cited in Ballester, Medicina, p. 45.
15. See Fernández Martín, Comediants, p. 164.

14– الخوف الكبير

1. نفذت هذه الحملة المشؤومة بتحريض من سباستيان وبدعم من الملك فيليب الثاني رغم بعض التردد. لم يعثر على جثة سباستيان، وولّد اختفاؤه الطائفة الغريبة والباقية المعروفة باسمه «السباستيانية» Sebastianismo في البرتغال، التي يعتقد أتباعها أنه سيعود يوماً ما.

1. 2. Report of Inquisition of Aragon, in Cardaillac, Moriscos y cristianos, pp. 454–59.

3. لم يعن تورط العثمانيين على هذه الجبهات أنهم تجاهلوا إسبانيا كلية. فهناك أدلة وثائقية تكشف أن السلطان العثماني فكر في إمكانية الاستجابة لطلبات المساعدة من الموريسكيين في أواخر القرن السادس عشر، حتى وإن لم تؤد هذه المداولات إلى نتائج عملية. انظر: Hess, «Ottoman Fifth Column,» ..pp. 1-25

4. Anonymous and undated document in Regla, Estudios sobre los moriscos, pp. 207–8.
5. Cited in Benítez Sánchez-Blanco, Heroicas decisiones, p. 297.
6. Ibid., p. 305.
7. "Los granadinos en Castilla» in García Arenal, Los moriscos, pp. 69–70.
8. Statistics from Jaime Contreras and Gustav Henningsen, «Forty-Four Thousand Cases of the Spanish Inquisition (1540–1700): Analysis of a Historical Data Bank,» in Henningsen and Tedeschi, Inquisition in Early Modern Europe, pp. 100–129.

9. توجد روايات كاملة لاضطهاد عائلة كومبانيرو في Monter, Frontiers of .Heresy, pp. 218–22

10. روايتي لهذه الحادثة المأساوية مأخوذة أساساً من Cordente, La morisca Beatriz de Padilla. يضم الجزء الأول من الكتاب إعادة بناء قصصية قوية لما حدث، ويضم الجزء الثاني وثائق حقيقية للقضية من سجلات محكمة التفتيش.

11. Cited in Epalza, «Caracterización del exilio musulman,» p. 221.

15- «أراذل الناس»

1. Enrique Cock, «Anales del Año Ochenta y Cinco en el cual el Rey Católico de España Don Felipe, con el Principe Don Felipe, Su hijo, fue a Monzon a tener las Cortes del Reino del Aragon,» in García

Mercadal, Viajes de extranjeros, p. 1308.
2. Cited in Woolard, «Bernardo de Aldrete and the Morisco Problem,» pp. 446–78.
3. Camilo Borghese, «Diario de la Relación de Viaje 1584,» in García Mercadal, Viajes de extranjeros, p. 1472.
4. توجد دراسة ممتازة «للكتابات التركية» وتطور اتجاهات آل هابسبورغ النمساويين إزاء العدو العثماني في Sutter Fichtner, Terror and Toleration.
5. See Tomaz Mastnak, «Europe and the Muslims: The Permanent Crusade?» in Qureshi and Sells, New Crusades, pp. 217–18.
6. Las Casas, Brevísima relación, p. 68.
7. Fonseca, Justa expulsión, p. 153.
8. Aznar Cardona, Expulsión justificada (folios 32–36R), extract in García Arenal, Los moriscos, pp. 227–35.
9. Cited in Cardaillac, Moriscos y cristianos, p. 95–96.
10. Guadalajara y Xavier, Memorable expulsión, folio 158.
11. Verdú, Engaños y desengaños, book 3, p. 137.
12. Fonseca, Justa expulsión, p. 170.
13. Report of Cortes of Castile, September 13, 1607, in García Arenal, Los moriscos, p. 220.
14. Cited in Caro Baroja, Los moriscos, p. 344.
15. انظر، على سبيل المثال، دراسات إشبيلية المورسكية في Pike, Aristocrats and Traders, pp. 154–70. See also Casey, «Moriscos,» pp. 19–41.
16. Bleda, Crónica, p. 896.
17. Lope de Obregón, Confutación del Alcoran y secta Mahometana (1555), cited in Bunes Ibarra, La imagen de los musulmanes, p. 236
18. نقلاً عن Wilson, Pirate Utopias, p. 161. يلاحظ ويلسون أن الخصائص نفسها التي بغضها بعض الرحالة والأسرى الأوروبيون كانت جذابة جداً كذلك لغيرهم من الأوروبيين، لدرجة أن بعضهم فضل أحياناً البقاء في شمال إفريقيا و«التحول إلى أتراك» على العودة إلى أوروبا.
19. نقلاً عن Bunes Ibarra, La imagen de los musulmanes, p. 239. أراد آيدو ببحثه أن يبرز محنة الأسرى النصارى في مدينة الجزائر، التي لم يزرها بنفسه مطلقاً. وثمة شكوك أيضاً فيه أنه هو الذي كتب الكتاب بنفسه.

انظر: Garcés, Cervantes in Algiers, pp. 33–34.

20. Archivo Historico Nacional, Madrid, Inquisición, legajo 1953, cited in Barrios Aguilera, Granada morisca, p. 243.
21. كشف النقاب عن كتابات «المنفى التونسي» لأول مرة في الأرشيفات الإسبانية على يد دارس الأدب لوبيث بارالت López-Baralt الذي نشر مقتطفات منها تحت عنوان: Un Kama Sutra español.
22. Francisco de Quevedo, Prematicas de aranceles generales, cited in Bunes Ibarra, Los moriscos, p. 19.
23. Quevedo, The Swindler, p. 107. Alpert translates «Morisco» as «half-Moor.»
24. Cervantes, Exemplary Stories, pp. 295-96.
25. Historia del Abencerraje y la Hermosa Jarifa, in Smith, Christians and Moors in Spain, vol. 2, p. 129.
26. Janer, Condición social, p. 98.
27. Fray Alonso Fernández, Historia de Plasencia, book 3, chap. 25, cited in García Arenal, Los moriscos, p. 68.
28. توجد رواية أكثر اكتمالاً لهذه الحادثة والسياسات المحلية المعقدة التي شكّلت نتيجتها في Berco, «Revealing the Other,» pp. 135–59.
29. Cited in Cardaillac, Moriscos y cristianos, p. 95.
30. Miguel José Hagerty, Los libros plúmbeos del Sacromonte (Madrid: Editora Nacional, 1980), cited in Woolard, «Bernardo de Aldrete,» p. 45.
31. Cited in Harvey, Muslims in Spain, p. 278.
32. توجد رواية تنم عن بحث متروٍّ لحياة ألونسو ديل كاستيو المتقلبة والملغزة، تقدم أيضاً بعض التفاصيل حول ميغيل دي لونا في Cabanelas Rodríguez, El morisco granadino.

16– في الطريق إلى الطرد

1. نقلاً عن Domínguez Ortiz and Vincent, Historia de los moriscos, p. 193. وفقاً لكل الروايات، كانت هورناتشوس مثالاً استثنائياً للعصيان والتمرد المورسكيين، حيث كان سكانها يمارسون الإسلام علناً وبتحد، ولم

يكونوا يأبهون بسلطة الدولة. وتتضح روحها الجماعية في وصف ذكره أحد أبنائها لكاهن محلي قال فيه: «أبونا، ابق في ديرك ولا تخرج للوعظ لأننا سئمنا منه تماماً. فنحن لسنا بحاجة إلى كهنة أو مشاف أو علاجات».
.Ibid., p. 93

2. AGS, Cámara de Castilla, legajo 2196, Bishop of Badajoz report on Moriscos, October 28, 1589.
3. Alonso Gutiérrez, report on the Morisco question, September 6, 1588, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 634–38.
4. Lisbon Junta recommendations for the conversion of the Moriscos, December 4, 1581, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 291–94.
5. Full text of Reinoso's recommendations, ibid., pp. 595–692.
6. Cited in Ehlers, Between Christians and Moriscos, p. 100.
7. Ibid., p. 105.
8. Ibid., p. 110.
9. Ibid., p. 118.
10. Bleda, Crónica, p. 938.
11. From Giovanni Botero, The Reason of State, cited in Tueller, Good and Faithful Christians, p. 103.
12. Doctor Estevan, Bishop of Orihuela to King Philip II, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 638–56.
13. Martín González de Cellorigo Oquendo, «Memorandum to the King on the Homicides, Offenses and Irreverences Against the Christian Religion, Committed by the Moriscos,» in Zayas, Los moriscos, pp. 387–407.

.14 Letter from Pedro de Franquesa e Esteve to King Philip II, February 7, 1598, in de Zayas, Los moriscos, pp. 353–60. يتألف كتاب دي ساياس Zayas في معظمه من سلسلة مهمة من الوثائق تتعلق بالمورسكيين كانت من المقتنيات الخاصة للمؤلف، وهي جزء من مجموعة من المخطوطات أحضرها أرستقراطي بريطاني من إسبانيا في أثناء حرب شبه الجزيرة وتعرف باسم مجموعة هولندا Holland collection.

15. Council of State memorandum, February 2, 1599, in de Zayas, Los moriscos, pp. 369–70.
16. Full text of Martín de Salvatierra paper in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, pp. 612–34.
17. Cited in López-Baralt, «Legacy of Islam,» p. 551.
18. Juan Bautista Pérez, Bishop of Segorbe to King Philip II, January 10, 1597, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 1, p. 364.
19. Braudel, Mediterranean, p. 797.
20. Francisco Vendramino, «Relación de viaje 1595,» in García Mercadal, Viajes de extranjeros, p. 1489.
21. For these and other similar examples, see Tueller, Good and Faithful Christians.

17– «خطر وشيك»: (1598–1609)

1. Cited in Domínguez Ortiz and Vincent, Historia de los moriscos, p. 161.
2. Cited in Casey, Kingdom of Valencia, p. 213.
3. Fernando Niño de Guevara to King Philip III, August 11, 1599, in Zayas, Los moriscos, p. 473.
4. Cited in Ehlers, Between Christians and Moriscos, p. 128.
5. Ibid., p. 134.
6. Text of Bleda's summary in Zayas, Los moriscos, pp. 411–65.
7. Gómez Davila y Toledo, Discursos, cited in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, p. 64.
8. AGS, Estado, legajo 212, extract, ibid., pp. 91–92.
9. Full text of Figueroa's memorandum, ibid., pp. 431–43.
10. Joseph Creswell, undated memoir, cited in Hillgarth, Mirror of Spain, p. 208.
11. Valencia, Tratado acerca.
12. Cited in Danvila y Collado, La expulsion, p. 240.
13. Janer, Condición social, p. 276.
14. Cited in Domínguez Ortiz and Vincent, Historia de los moriscos, p. 170.

15. Council of State minutes, January 30, 1608, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, pp. 457–74.
16. AGS, Estado 209, September 23, 1608.
17. تبادل سوبرينو رسائل مع أسقف سقوربة فليثيانو دي فيغيروا، الذي شاركه الرأي وذهب بعيداً حتى إلى حد القول إن «مليكنا لا يمكن أن يكون مرتاح الضمير بالأمر بطرد الموركسيين المعمَدين من إسبانيا»، وإنه كان من «أمارات الالتزام بالكاثوليكية أن نحفظ الدين فيهم». Figueroa to Sobrino, March 10, 1609, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, p. 505.
18. AGS, Estado, legajo 218, Council of State consulta, April 4, 1609.
19. AGS, Estado, legajo 218, letter from Don Pedro de Toledo to Andrés Prada, June 7, 1609.
20. "Carta de D. Manuel Ponce de León a Su Majestad," August 28, 1609, in García Arenal, Los moriscos, pp. 237–46.
21. Ribera to Andrés de Prada, August 23, 1609, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, p. 167.
22. Ribera to Lerma, August 30, 1609, ibid., pp. 169–70.

18– «المحرقة المستساغة»

1. يوجد نص كامل لمرسوم الطرد في García Arenal, Los moriscos, pp. 249–55.
2. فكر الملك ووزراؤه أيضاً في طرد الموركسيات المتزوجات من نصارى قدامى، لكنهم رفضوا هذا الخيار في آخر اجتماع لمجلس الدولة قبل الطرد عُقِد في الخامس عشر من سبتمبر بحضور الملك فيليب الثالث. أبدى الوزراء في هذا الاجتماع مخاوف من أن الزوجات الموركسيات قد ينحرفن إلى الزنا في شمال إفريقيا، ويلدن «أطفال زنا وأندلسيين». انظر: Council of State minutes in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, pp. 544–48.

3. انظر: «Memorandum on the Expulsion and the Measures That Should Be Put into Practice to Ameliorate the Ruin of the Kingdom,» September 1609, in García Arenal, Los moriscos, pp. 248–50. ومع أن سوبرينو وصف قرار الملك بأنه نتاج «حتمي للمصلحة الوطنية» ورحب بالإبعاد الذي تلاه «لهذا الشيء القبيح غير المحتمل»، فإنه ظل واعياً بألم «بالخراب والدمار»، اللذين كانا يحتمل أن يحلا ببلنسية.
4. For Ribera's sermon, see Márquez Villanueva, El problema morisco, pp. 295–318.
5. Cabrera de Córdoba, December 20, 1609, in Relaciones. كتب الجندي المخضرم وفرد الحاشية والمؤلف كابريرا القرطبي تاريخ عهد فيليب الثاني، ويمتلئ تأريخه المهم لبلاط فيليب الثالث بلمحات كاشفة عن الطرد من منظور الحكومة في مدريد.
6. Letter from Ribera to Lerma, October 7, 1609, in Janer, Condición social, pp. 304–5. ربما لم يكن اهتمام ريبيرا بالنصارى الفقراء في بلنسية تحركه فقط الشفقة أو الاستياء من الموريسكيين، وإنما الشعور بالذنب أيضاً، لأنه كان واعياً بلا شك بأنه كان مسؤولاً مثل الآخرين عن خسائرهم.
7. AGS, Estado, legajo 217, letter from Duke of Gandía to King Philip III, October 1, 1609.
8. In Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, pp. 199–200.
9. "Brief Relation of the Expulsion from Valencia,» in Lea, Moriscos of Spain, pp. 439–44.

109. Cited in Epalza, «Caracterización del exilio musulman,» p. 220.

11. Cited in Caro Baroja, Los moriscos, p. 356.
12. AGS, Estado, legajo 217, Caracena to King Philip III, October 3, 1609.
13. Cabrera de Córdoba, October 24, 1609, in Relaciones, p. 385.
14. "Statistics of Moriscos Embarked from the Grau of Valencia,» October 23, 1609, in Lapeyre, Géographie, doc. 3.
15. AGS, Estado, legajo 217, Caracena to King Philip III, December 9, 1609.
16. وردت هذه الحادثة المفزعة في Fonseca, Justa expulsion, book 5, chap.

3. كان فونسيكا في برشلونة حين وصل ريبيرا ببضاعته المسروقة، ووصف كيف اجتمعت «برشلونة كلها لترى الغنائم وتشتري منها». أعدم ريبيرا في الثاني عشر من ديسمبر عام 1609.

18. al-Maqqari, History of the Mohammedan Dynasties, p. 392.
19. Verdú, Engaños y desengaños, p. 144.
20. AGS, Estado, legajo 217.
21. Corral y Rojas, Relación, p. 36.
22. Ibid., p. 38.
23. Ibid.
24. AGS, Estado, legajo 217, letter from Juan de Córdoba to Mejía, December 10, 1609.
25. Ribera to King Philip III, February 10, 1610, in Janer, Condición social, p. 338.

19 – التكتم والخداع

1. Murcia town council to King Philip III, October 17, 1609, in Janer, Condición social, p. 318.
2. أرسلت مناشدة المجلس البلدي إلى مجلس الدولة مع رسالة مرافقة من القسيس المرسي المحلي، الذي ألح على أن الموريسكيين في مرسية كانوا متورطين في اتصالات تحريضية مع القراصنة، وحذّر من أن «صاحب الجلالة من مصلحته ألا يثق في المسؤولين وأعضاء مجلس هذه المدينة» (Janer, Condición social, p. 319). اضطرت هذه الادعاءات المتعارضة الملك ووزراءه إلى إجراء تحقيقات أو اتخاذ قرارهم بتصديق أحد الطرفين، وهي معضلة لم يواجهوها في بلنسية.
3. يوجد نص هذا المرسوم في Harvey, Muslims in Spain, pp. 402–4.
4. AGS, Estado, legajo 220, letter from the Duchess of Cardona, Marquesa of Comares, to King Philip III, January 18, 1610.
5. AGS, Estado, legajo 220, letter from Don Pedro Vaca de Castro to King Philip III, January 24, 1610.
6. AGS, Estado, legajo 220, letter from Don Pedro Vaca de Castro to King Philip III, January 24, 1610.

7. Cited in Domínguez Ortiz and Vincent, Historia de los moriscos, p. 189.
8. Agustín Durán, «On How and Why King Philip III Expelled the Moriscos from Spain,» cited in Caro Baroja, Los moriscos, p. 353.
9. AGS, Estado, legajo 2745, letter from Duke of Pastrana, undated.
10. AGS, Estado, legajo 2745, Council of State consulta to King Philip III, September 4, 1610.
11. Cited in Tapia Sánchez, La comunidad morisca de Ávila, p. 356.
12. Cited in Dadson, Los moriscos de Villarubia, p. 327.

AGS, Estado, legajo 241, information on Moriscos of Tortosa district from Don Pedro Manrique, Bishop of Tortosa, August 29, 1610.

13. AGS, Estado, legajo 220, undated letter to King Philip III.
14. Ahmad Bin Qassim al-Hajari, «Selections from Kitab Nasir al-Din ala al-Qawm al-Kafirin (The Book of the Protector of Religion against the Unbelievers),» in Matar, In the Lands of the Christians, p. 14.
15. Cited in López-Baralt, «Legacy of Islam,» pp. 540–41.
16. يوجد النص الكامل لهذه الرسالة في: Los moriscos de Villarubia, p. 339.
17. Diego Luis Morlem, November 10, 1611, in ibid., p. 980.
18. Licenciado Molina to Jerónimo de Loaysa, July 25, 1611, in Janer, Condición social, pp. 350–51.
19. AGS, Estado, legajo 2754, memorandum from Fray Jaime Bleda Valenciano, December 23, 1610.
20. AGS, Estado, legajo 235, Council of State, December 29, 1610.

20– النتيجة التامة؟ (1611–1614)

1. Caracena's letter cited in Dadson, Los moriscos de Villarubia, p. 337. مؤكد أن الملك فيليب الثالث لم تَرُق له هذه الإمكانية، ولم تبذل محاولات لتنفيذ أي من هذين الخيارين.
2. امتدحت قصيدة منسية لفيسينتي بيريث دي كولا Vicente Pérez de Culla بعنوان: Expulsion de los moriscos rebeldes de la Sierra y Muela de

جهود ثاباتا Cortes por Simeon Zapata Valenciano، وأثنت على تنفيذه لإبعاد «الخنازير الكفار الهمجيين البهيمين، الذين شكّلوا تهديداً جنونياً وغير إنسانيٍ ووقحاً للنصارى».

3. Cited in Harvey, Muslims in Spain, p. 329.
4. Council of State memo, September 9, 1612, cited in Dadson, Los moriscos de Villarubia, p. 793.

5. جاء سقوط كالديرون بعد القبض على رجل آخر من رجال ليرما يدعى بيدرو دي فرانكيسا استيبي Pedro de Franquesa e Esteve في عام 1607 بتهم اختلاس أموال الدولة. وقد نتج هذا الاعتقال جزئياً عن مكائد الملكة مارغريت، التي كانت مستاءة من نفوذ ليرما في البلاط، وكانت مهتمة بإسقاط كالديرون الذي لم يكن أقل فساداً. وقد كانت عداوتها له معروفة لدرجة أنه أشيع في البلاط أن كالديرون سمّمها. انظر: Sanchéz, Empress.

6. في Cervantes, Don Quixote, pp. 816–22. لا تعني النبرة الحنينية في تصوير ثيرفانتس لريكوتي أن الأول أقلع كلياً عن تحيزه المعادي للموريسكيين، الذي أبداه في «حوار الكلاب». فالمدافعون عن الطرد، ومنهم بليدا نفسه، كتبوا كثيراً عن تعلق الموريسكيين المنفيين بإسبانيا، كما لو كان ظاهرة عامة ووجدوا فيه إشباعا لأنفسهم الحاقدة. ويذهب ثيرفانتس أبعد من ذلك بأن يجعل ريكوتي يثني على حكمة الطرد «بمفردات قشتالية تماماً» وليس «أندلسية»، على أساس أنه «من غير المعقول أن تربي أفعي في صدرك، وتترك أعداء في بيتك. لقد كان من الحكمة أن نعاقب جميعاً بالنفي».

7. Inquisitorial trial extracts on Diego Díaz in García Arenal, Los moriscos, pp. 271–84.
8. Cited in Regla, Estudios, p. 115.

9. وردت هذه الحادثة في Dadson, Los moriscos de Villarubia كمثال آخر لما يسميه المؤلف «التصميم الخارق» لسكان بياروبيا على البقاء في بيوتهم. وفي سرده لتأثير الطرد على قلعة رباح، يكشف دادسون أن ديغو دي سيلفا مندوسه Diego de Silva y Mendoza؛ أي الكونت ساليناس كان معارضاً لطرد الموريسكيين من ضِياعه، وربما كان متواطئاً وراضياً عن «لجوئهم» إلى قصره في مدريد. ويؤكد دادسون أن ساليناس كان معارضاً للطرد، وفعل ما بوسعه لتأخيره، وهي ظاهرة رأى أنها تكررت في أجزاء أخرى من إسبانيا.

10. Cervantes, Don Quixote, p. 895.
11. AGS, Estado, legajo 252, extract in Lapeyre, Géographie, doc. 17.
12. AGS, Estado, legajo 252, Juan Hurtado de Mendoza, secretary of the Count of Salazar to King Philip III, October 1612.
13. Cited in Ehlers, Between Christians and Moriscos, pp. 147–48.
14. AGS, Estado, legajo 254, Juan de Pereda report on Moriscos of Murcia, April 1613.
15. AGS, Estado, legajo 2644, Council of State memorandum to King Philip III, February 20, 1614.
16. AGS, Estado, legajo 2644, undated.

21– الحساب

1. Baltasar Porreño, Dichos y hechos del señor rey D. Philipe II, el bueno, potentissimo, y glorious Monarca de las españas y las indias, Madrid, in Yanez, Memorias.

   كتب بالتاسار هذا الكتاب في عام 1639 للثناء على الملك فيليب الثالث في زمن فيليب الرابع، ويقدم لمحات ساحرة حول البلاط الهابسبورغي الإسباني. ويبالغ بالتاسار في الإطراء على الطرد الذي يعتبره «أعظم شيء عرفه التاريخ على الإطلاق»، وهي الادعاءات التي كان خواؤها قد بدأ يتكشف في وقت اعتلاء فيليب الرابع للعرش.

2. توجد دراسة لهذه النبوءات الدينية وطريقة نسجها في أساطير الطرد في: .Magnier, «Millenarian Prophecy»
3. Cited in Hillgarth, Mirror of Spain, p. 213.
4. Ibid., p. 211.
5. Cited in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. 2, p. 316.
6. Letter from King Philip III to Francisco de Castro, September 16, 1614, in Boronat y Barrachina, Los moriscos, vol. II, pp. 399–400.
7. لم يكن إسكولانو الكاهن والمؤرخ معارضاً للطرد في ذاته، الذي شبّهه بطرد الأرواح الشريرة. وكَتب في ذلك أنه كما «يترك الشيطان دائماً ندبة في جسم الإنسان الذي تلَبّسه... فإن وجود كثيرين منهم [أي الشياطين المورسكيين] في مملكة بلنسية لا بد أن يترك آلاف الندبات التي تسبب

البكاء لعدة قرون» في Decadas, book 2, p. 834, cited in Fuster, Poetas, .p. 122

8. يوجد تقييم للتأثير الاقتصادي بعيد المدى للطرد في بلنسية في: » Casey, .«Moriscos
9. Verse attributed to the Count of Villamediana, cited in Díaz-Plaja, Felipe III, p. 69.
10. Cited in Casey, Kingdom of Valencia, p. 212.
11. Marcos de Guadalajara, Memorable expulsion, in Janer, Condición social, p. 169.
12. Cited in Fisher, Barbary Pirates, p. 169.
13. Lord George Carew to Sir Thomas Roe, April 1617, in Maclean, Letters from George Lord Carew to Sir Thomas Roe, p. 111.
14. Cited in Elliott, Imperial Spain, p. 366.
15. Pedro Fernández de Navarrete, Conservación de monarquias 67-81, cited in Cruz, Discourses of Poverty, p. 181.
16. Cited in Hillgarth, Mirror of Spain, p. 222.
17. Townsend, Journey Through Spain, p. 84.
18. Ford, Handbook For Travellers in Spain, p. 613.
19. Cited in López-Baralt, «Legacy of Islam,» p. 551.
20. Cited in Wilson, Pirate Utopias, p. 167.
21. Cited in Kamen, Disinherited, p. 61.
22. Cited in Susan Rivers, «Exiles from Andalusia,» Saudi Aramco World, July/August 1991.

خاتمة: تحذير من قلب التاريخ

1. من ذلك على سبيل المثال أن جانيه Janer وهو يكتب في منتصف القرن التاسع عشر اعتقد أن «أكثر من مليون شخص» قد طردوا. Condición .social
2. Lea, Moriscos of Spain, pp. 400–401.
3. Arce, «La Intolerancia Religiosa.»
4. ومما زاد من سخرية الموقف أن عودة «المغاربة» إلى إسبانيا قوبلت دائماً بتمييز عنصري معادٍ للمسلمين من الجانب الجمهوري. يوجد تحليل لهذه

الحادثة ومناقشة جيدة للمواقف من الماضي الأندلسي في إسبانيا المعاصرة في «Aidi, «Interference of al-Andalus.

5. See Alliance of Civilizations: Report of the High-Level Group, November 13, 2006, available at www.unaoc.org/repository/HLG_Report.pdf, p. 3.
6. Cited in Aidi, «Interference of al-Andalus,» p. 77.
7. Cited in Tremlett, Ghosts of Spain, p. 320.
8. Zweig, Right to Heresy, p. 308.
9. See Samuel Huntington, Who Are We? America's Great Debate (New York: The Free Press, 2005).
10. "Denmark's Problems with Muslims,» International Herald Tribune, February 12, 2006.
11. For the official Vatican English translation of the pope's speech, see «Faith, Reason and the University,» Lecture of the Holy Father: Aula Magna of the University of Regensburg, September 12, 2006, available at www.zenit.org/english/visualizza.phtml?sid=9474.
12. Daniel Pipes, «Europe or Eurabia?» The Australian, April 19, 2008.
13. "Oriana Fallaci: Rage and Doubt of a Threatened Civilisation,» Sunday Times, March 16, 2003.

14. Fallaci Rage and the Pride p. 137. لم تكن فالاسي ككاتبة تنتقي كلماتها. فرغم اعترافها بالإلحاد ومعاداة الإكليروس، جاء نقدها المعادي للمسلمين دائماً مشابهاً تماماً لريبيرا وبليدا في تصويرها للمسلمين أنهم شكل من القذارة والدنس «يلوّث» الكنائس والقصور والمتاحف، وهم يستخدمون أحواض التعميد «مراحيض». وفي كثير من الأحيان يكون طلبها للرحمة بكنوز أوروبا الثقافية، مبرراً للعن والقذف بكلمات حاقدة مثل تصويرها للمهاجرين المسلمين الذي حوّلوا تورين Turin «مدينة كافور الرائعة إلى قصبة قذرة[1]».

---

(1) أخذ اسم القصبة المغربية من القصبات الأندلسية، وهي مبان حصينة كانت تتخذ مقراً للجند للدفاع عن منطقة معينة وتأمينها من الأخطار، ومن أمثلتها قصبة الوادية التي كانت مقراً لحامية الرباط وقصبة الجزائر وقصبة باجة [المترجم].

15. Europa Wird Am Ende Des Jahrhunderts Islamisch Sein,» Die Welt, July 28, 2004.
16. See Population Reference Bureau, «Do Muslims Have More Children Than Other Women in Western Europe?» February 2008, available at www.prb.org/ Articles/2008/muslimsineurope.aspx?p. 1.
17. "Head Count Belies Vision of Eurabia,» Financial Times, August 27, 2007.
18. "Treviso ofensiva leghista «I muselmani sono un tumore,' » La Repubblica, December 27, 2007.
19. "Islamist Danger,» letter to the editor, Daily Telegraph, September 18, 2007.
20. Cited in Cesari, When Islam and Democracy Meet, p. 131.
21. "Three to Watch: Populists of the Hard Right,» New York Times, April 21, 1996.
22. Cited Fekete, Integration, p. 11. Jenkins made this definition in 1966.
23. "Conform to Our Society, Says PM,» BBC News, December 8, 2006.
24. Bruce Bawer, «Europe's Stockholm Syndrome,» blog entry, January 26, 2007, www.brucebawer.com/blogarchive2007.htm.
25. Ginny Dougary, «The Voice of Experience,» The Times Magazine, September 9, 2006.
26. See Lindqvist, «Exterminate All the Brutes», p. 8. In Lindqvist's formulation, «The Latin exterminio means 'drive over the border,' terminus, 'exile, banish, exclude.' Hence the English exterminate, which means 'drive over the border to death, banish from life.' »
27. Sen, Identity and Violence.


Twitter: @ketab_n

مراجع الكتاب

المصادر الأولية

AGS (Archivo General de Simancas).

المصادر الأولية المطبوعة

Aznar Cardona, Pedro. *Expulsión justifi cada de los moriscos españoles*. Huesca, 1612.

Bermúdez de Pedraza, Francisco. *Historia ecclesiastica: Principios y progressos de la ciudad y religion católica de Granada; Corona de su poderoso reyno, y excelencias de su corona*. Granada, 1638.

Bernáldez, Andrés. *Memorias del reinado de los Reyes Católicos*. Madrid: Blas Tipografica, 1962.

Bleda, Jaime. *Crónica de los moros de España*. Valencia, 1618.

Cabrera de Córdoba, Luis. *Historia de Felipe II, rey de España*. vol. 1. Valladolid: Junta de Castilla y León, 1988.

———. *Relaciones de las cosas sucedidas en la corte de España desde 1599 hasta 1614*. Valladolid: Junta de Castilla y León, 1997.

Constable, Olivia Remie, ed. *Medieval Iberia: Readings from Christian, Muslim and Jewish Sources*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1997.

Corral y Rojas, Antonio. *Relación del rebelión y expulsion de los moriscos del reyno de Valencia*. Valladolid, 1613; Sociedad Valenciana, 1878.

Escolano, Gaspar. *Década primera de la historia de la insigne, y coronada ciudad y reyno de Valencia*. Valencia, 1611.

Fonseca, Damián. *Justa expulsión de los moriscos de España*. Rome, 1612.

García Arenal, Mercedes. *Los moriscos*. Granada: Universidad de Granada, 1996.

García Mercadal, José ed. *Viajes de extranjeros por España y Portugal: Desde los tiempos mas remotos hasta fi nes del siglo XVI*, vol. 1. Madrid: Aguilar, 1952.

Gómez de Castro, Alvar. *De las hazañas de Francisco Jimenez de Cisneros*. Madrid: Fundación Universitaria Española, 1984.

Guadalajara y Xavier, Marcos de. *Memorable expulsión y justissimo destierro de los moriscos españoles*. 1613.

Homza, Lu Ann, ed. and trans. *The Spanish Inquisition, 1478–1614: An Anthology of Sources*. Indianapolis: Hackett, 2006.

Hurtado de Mendoza, Diego. *The War in Granada*, trans. Martin Shuttleworth. London: Folio Society, 1982.
Las Casas, Bartolomé de. *Brevísima relación de la destrucción de las Indias*. Madrid: Sarpe, 1985.
MacLean, John, ed. *Letters from George Lord Carew to Sir Thomas Roe, Ambassador to the Court of the Great Mogul 1615–1617*. London: Camden Society, 1860.
al-Maqqari, Ahmad Ibn Muhammad. *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, trans. Pascual de Gayangos. London: W.H. Allen, 1840–43.
Mármol y Carvajal, Luis. *Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada*. Málaga: Editorial Arguval, 2004.
Martire d'Anghiera, Pietro, aka Pedro Martir de Anghieri. *Una embajada de los Reyes Católicos a Egipto*, trans. Luis García y García. Valladolid, 1947; Madrid, 1984.
Munzer, Jerónimo. *Viaje por España y Portugal: 1494–95*. Madrid: Polifemo, 1991.
Núñez Muley, Francisco. *A Memorandum for the President of the Royal Audiencia and Chancery Court of the City and Kingdom of Granada*, ed. and trans. Vincent Barletta. Chicago: University of Chicago Press, 2007.
Pérez de Hita, Gínes. *La guerra de los moriscos (Segunda parte de las guerras civiles de Granada)*. Granada: Universidad de Granada, 1998.
Santa Cruz, Alonso de. *Crónica de los Reyes Católicos* ,vol. 1. Seville: Escuela de Estudios Hispano-Americanos, 1951.
Valencia, Pedro de. *Tratado acerca de los moriscos de España*. Málaga: Editorial Algazara, 1997.
Verdú, Blas. *Engaños y desengaños del tiempo, con un discurso de la expulsión de los moriscos de España, y unos avisos de discreción*. Barcelona, 1612.
Yanez, Juan. *Memorias para la historia de don Felipe III*. Madrid, 1723.

المصادر الثانوية

Abadía Irache, Alejandro. «Los Zauzala: una familia de moriscos aragoneses.» *Destierros Aragoneses* 1: *Judíos y Moriscos* (1988).
Aidi, Hishaam D. «The Interference of al-Andalus: Spain, Islam, and the West.» *Social Text* 24, no. 2 87 (Summer 2006), pp. 67–87.
Alcántara, Miguel Lafuente. *Historia de Granada*, vol. 4. Granada: Universidad de Granada, 1992.
Alvarez, Lourdes María. «Prophecies of Apocalypse in Sixteenth-Century Morisco Writings and the Wondrous Tale of Tamim al-Dari.» *Medieval Encounters* 13, no. 13 (September 2007), pp. 566–601.
Anonymous, *Historia del Abencerraje y la Hermosa Jarifa*. Madrid: Castalia, 2007.
Arce, Gaspar Nuñez de. «La Intolerancia Religiosa.» *Revista Europea*, no. 118 (May 28, 1876).
Arigita, Elena. «Representing Islam in Spain: Muslim Identities and the Contestation of Leadership.» *Muslim World* 96, no. 4 (2006), pp. 563–84.

Barcelo Torres, María del Carmen. *Minorías islámicas en el país valenciano: Historia y dialecto*. Universidad de Valencia, 1984.

Barletta, Vincent. *Covert Gestures: Crypto-Islamic Literature as Cultural Practice in Early Modern Spain*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2005.

Barrios Aguilera, Manuel. *Granada morisca: La convivencia negada*. Granada: Editorial Comares, 2002.

——— and Valeriano Sánchez Ramos. *Martirios y mentalidad martirial en las Alpujarras*. Granada: Universidad de Granada, 2001.

Beinart, Haim. *The Expulsion of the Jews from Spain*. Oxford, UK, and Portland, OR: Littman Library of Jewish Civilization, 2002.

Benítez Sánchez-Blanco, Rafael. *Heroicas decisiones: La monarquía católica y los moriscos valencianos*. Valencia: Institución Alfonso el Magnánimo, 2001.

Bennassar, Bartolomé. *La España del Siglo de Oro*. Barcelona: Editorial Crítica, 2004.

Berco, Cristian. «Revealing the Other: Moriscos, Crime, and Local Politics in Toledo's Hinterland in the Late Sixteenth Century.» *Medieval Encounters* 8, no. 2–3 (December 2002), pp. 135–59.

Bertrand, Louis and Sir Charles Petrie. *The History of Spain: 711–1931*. London: Eyre and Spottiswoode, 1934.

Boase, Roger. «The Morisco Expulsion and Diaspora.» In *Cultures in Contact in Medieval Spain*, ed. David Hook and Barry Taylor. London: King's College, 1990.

Boronat y Barrachina, Pascual. *Los moriscos españoles y su expulsión*, 2 vols. Granada: Universidad de Granada, 1992.

Boswell, John. *The Royal Treasure: Muslim Communities Under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century*. New Haven, CT: Yale University Press, 1977.

Brandi, Karl. *The Emperor Charles V: The Growth and Destiny of a Man and of a World-Empire*, trans. C.V. Wedgwood. London: Jonathan Cape, 1939.

Braudel, Fernand. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*. London: Fontana, 1966.

Bulliet, Richard W. *The Case for Islamo-Christian Civilization*. New York: Columbia University Press, 2004.

Bunes Ibarra, Miguel Angel de. *La imagen de los musulmanes y del Norte de Africa en la España de los siglos XVI y XVII*. Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científi cas, 1989.

———. *Los moriscos en el pensamiento histórico: Historiografía de un grupo marginado*. Madrid: Ediciones Cátedra, 1983.

Burns, Robert I. *The Worlds of Alfonso the Learned and James the Conqueror: Intellect and Force in the Middle Ages*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1990.

Cabanelas Rodríguez, Darío. *El morisco granadino Alonso del Castillo*. Granada: Patronato de la Alhambra y Generalife, 1991.

Cardaillac, Luis. *Moriscos y cristianos: Un enfrentamiento polémico (1492–*

1640). Mexico City: Fondo de Cultura Económica, 1979.
Caro Baroja, Julio. *Los moriscos del reino de Granada*. Madrid: Alianza Editorial, 2003.
Carr, Raymond, ed. *Spain: A History*. New York: Oxford University Press, 2000.
Castro, Américo. *The Spaniards: An Introduction to Their History*, trans. Willard F. King and Selma Margaretten. Berkeley: University of California Press, 1971.
———. *The Structure of Spanish History*, trans. Edmund L. King. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954.
Casey, James. *Early Modern Spain: A Social History*. London: Routledge, 1999.
———. *The Kingdom of Valencia in the Seventeenth Century*. Cambridge University Press, 1979.
———. «Moriscos and the Depopulation of Valencia.» *Past and Present*, no. 50 (February 1971).
Cesari, Jocelyne. *When Islam and Democracy Meet: Muslims in Europe and the United States*. New York: Palgrave Macmillan, 2004.
Cervantes, Miguel de. *Don Quixote*, trans. J.M Cohen. London: Penguin Books, 1950.
———. *Exemplary Stories*, trans. Lesley Lipson. Oxford: Oxford University Press, 1998.
Cheyne, Anwar G. *Islam and the West: The Moriscos*. Albany: State University of New York Press, 1983.
Coenen, Erik. «Las Fuentes de *Amar Después de la Muerte*.» *Revista de Literatura* 69, no. 138 (July–December 2007), pp. 467–85.
Cohn, Norman. *The Pursuit of the Millennium: Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the late Middle Ages*. London: Paladin Books, 1978.
Coleman, David. *Creating Christian Granada: Society and Religious Culture in an Old-World Frontier City, 1492–1600*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2003.
Cordente, Heliodoro. *La morisca Beatriz de Padilla*. Madrid: Libertarias, 1994.
Crowley, Roger. *Empires of the Sea: The Final Battle for the Mediterranean, 1521–1580*. London: Faber & Faber, 2008.
Cruz, Anne J., *Discourses of Poverty: Social Reform and the Picaresque Novel in Early Modern Spain*. Toronto: University of Toronto Press, 1999.
Dadson, Trevor J. *Los moriscos de Villarubia de los Ojos (siglos XV–XVIII)*. Madrid: Editorial Iberoamerica, 2007.
———. «Offi cial Rhetoric Versus Local Reality: Propaganda and the Expulsion of the *Moriscos*.» In *Rhetoric and Reality in Early Modern Spain*, ed. Richard J. Pym. London: Tamesis Books, 2006.
Danvila y Collado, Manuel. *La expulsion de los moriscos españoles*. Madrid, 1889.
———. *La germania de Valencia: Discursos leidos ante la real academia de la historia*. Madrid, 1884.
Díaz-Plaja, Fernando. *Felipe III*. Barcelona: Planeta, 1997.
Domínguez Ortiz, Antonio. *The Golden Age of Spain 1516–1659*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1971.

——— and Bernard Vincent. *Historia de los moriscos*. Madrid: Alianza Universidad, 2003.
Echevarria, Ana. *The Fortress of the Faith: The Attitude Toward Muslims in Fifteenth-Century Spain*. Leiden: Brill, 1991.
Edwards, John. *The Jews in Christian Europe 1400-1700*. London: Routledge, 1988.
———. *Torquemada and the Inquisitors*. Stroud, Gloustershire, UK: Tempus Publishing, 2005.
Ehlers, Benjamin. *Between Christians and Moriscos: Juan de Ribera and Religious Reform in Valencia, 1568–1614*. Baltimore: John Hopkins University Press, 2006.
Elliott, J.H. *Imperial Spain, 1469–1716*. London: Penguin, 1963.
Epalza, Mikel de. «Caracterización del exilio musulman: La voz de mudéjares y moriscos,» *Destierros Aragoneses* 1: *Judíos y Moriscos* (1988).
———. *Los moriscos frente a la inquisición*. Madrid: Darek-Nyumba, 2001.
Fallaci, Oriana. *The Rage and the Pride*. New York, Rizzoli, 2002.
Fekete, Liz. *Integration, Islamophobia, and Civil Rights in Europe*. London: Institute of Race Relations, 2008.
Fernández Alvarez, Manuel. *Isabel la Católica*. Madrid: Espasa, 2003.
Fernández-Armesto, Felipe. *Ferdinand and Isabella*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1975.
Fernández y Gonzalez, F., *Estado social y político de los mudéjares de Castilla*. Madrid, 1866.
Fernández Martín, Luis. *Comediants, esclavos y moriscos en Valladolid: Siglos XVI y XVII*. Universidad de Valladolid, 1998.
Feros, Antonio. *Kingship and Favouritism in the Spain of Philip III, 1598–1621*. Cambridge University Press, 2000.
Fisher, Godfrey. *Barbary Legend: War, Trade and Piracy in North Africa 1415–1830*. Oxford, UK: Oxford University Press, 1957.
Fletcher, Richard. *Moorish Spain*. London: Phoenix, 1994.
Flores Arroyuelo, Francisco J. *Los ultimos moriscos (Valle de Ricote 1614)*. Salamanca: Academia Alfonso X el Sabio, 1989.
Ford, Richard. *A Handbook for Travellers in Spain, and Readers at Home*. Arundel, UK: Centaur Press, 1966.
Fuchs, Barbara. *Mimesis and Empire: The New World, Islam, and European Identities*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2001.
Fuller, J.F.C. *Decisive Battles of the Western World*, vol. 1. London: Cassell, 2001.
Fundación Bancaja. *La expulsión de los moriscos del reino de Valencia*. Valencia: Fundación Bancaja, 1997.
Fuster, Joan. *Poetas, moriscos y curas*. Madrid: Editorial Ciencia Nueva, 1969.
Gallego Burín, Antonio, and Alfonso Gámir Sandoval. *Los moriscos del reino de Granada según el sínodo de Guadix de 1554*. Granada: Universidad de Granada, 1996.
Garcés, María Antonia. *Cervantes in Algiers: A Captive's Tale*. Nashville: Vanderbilt University Press, 2002.

García Carcel, Ricardo. *Las germanias de Valencia*. Barcelona: Ediciones Peninsula, 1981.

García, Luis Ballester. *Medicina, ciencia y minorias marginados: Los moriscos*. Granada: Universidad de Granada, 1977.

García Martínez, Sebastian. *Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II*. Universidad de Valencia, 1977.

García Moratinos, Manuel, and Olatz Villanueva Zubizarreta, «Consequencias del decreto de conversión al cristianismo de 1502 en la aljama mora de Valladolid.» *Sharq al-Andalus*, no. 16–17 (1999–2002).

García Oro, José. *El cardenal Cisneros: Vida y empresas*. Madrid: Biblioteca de Autores Cristianos, 1992.

Glick, Thomas. *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979.

Green, Toby. *Inquisition: The Reign of Fear*. New York: Macmillan, 2000.

Halavais, Mary. *Like Wheat to the Miller: Community, Convivencia and the Construction of Muslim Identity in Sixteenth-Century Aragon*. New York: Columbia University Press, 2005.

Hale, John. *The Civilization of Europe in the Renaissance*. New York: Macmillan, 1994.

Haliczer, Stephen. *Inquisition and Society in the Kingdom of Valencia, 1478–1834*. Berkeley: University of California Press, 1990.

Halperin Donghi, Tulio. *Un confl icto nacional: Moriscos y cristianos en Valencia*. Valencia: Institució Alfonso de Magnánimo, 1980.

Harvey, L.P. *Islamic Spain, 1250 to 1500*. Chicago: University of Chicago Press, 1990.

———. *Muslims in Spain, 1500 to 1614*. Chicago: University of Chicago Press, 2005.

———. «Yuse Banegas: Un moro noble en Granada bajo los Reyes Católicos.» *Al-Andalus* 21, no. 2 (1956), pp. 297–302.

Henningsen, Gustav, and John Tedeschi, eds. *The Inquisition in Early Modern Europe: Studies on Sources and Methods*. DeKalb, IL: Northern Illinois University Press, 1986.

Hess, Andrew C. *The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth-Century Ibero-African Frontier*. Chicago: University of Chicago Press, 2007.

———. «An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-Century Spain.» *American Historical Review* 74, no. 1 (October 1968), pp. 1–25.

Hillgarth, Jocelyn N. *The Mirror of Spain, 1500-1700: The Formation of a Myth*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2000.

———. *The Spanish Kingdoms, 1250–1516*, 2 vols. Oxford, UK: Clarendon Press, 1976.

Janer, Florencio. *Condición social de los moriscos de España*. Madrid: Imprenta de la Real Academi a de las Historia, 1857.

Jonsson, Mar. «The Expulsion of the Moriscos from Spain in 1609–1614: The Destruction of an Islamic Periphery.» *Journal of Global History*, no. 2 (2007), pp. 195–212.

Kamen, Henry. *The Disinherited: Exile and the Making of Spanish Culture,*

1492–1975. New York: HarperCollins, 2007.
———. *Inquisition and Society in Spain in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1985.
———. *Philip of Spain*. New Haven, CT: Yale University Press. 1997.
———. *Spain, 1469–1714: A Society of Confl ict*. London: Longman, 1991.
———. *The Spanish Inquisition: An Historical Revision*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1997.
Kennedy, Hugh. *The Great Arab Conquests: How the Spread of Islam Changed the World We Live In*. London: Weidenfeld & Nicolson, 2007.
Khadra Jayyusi, Salma, and Manuela Marín, eds. *The Legacy of Muslim Spain*. Leiden: E.J. Brill, 1992.
Kleinschmidt, Harald. *Charles V: The World Emperor*. Stroud, Gloustershire, UK: Sutton Publishing, 2004.
Kubler, George, and Martin Soria. *Art and Architecture in Spain and Portugal and Their American Dominions, 1500 to 1800*. London: Penguin, 1959.
Ladero Quesada, Miguel Angel. *Castilla y la Conquista del Reino de Granada*. Valladolid: Editorial Sever-Cuesta, 1967.
———. *La España de los Reyes Católicos*. Madrid: Alianza Editorial, 2005.
———. *Granada después de la conquista*. Granada: Universidad de Granada, 1988.
———. *Los mudejares de Castilla en tiempos de Isabel I*. Valladolid: Instituto «Isabel la Católica» de Historia Eclesiástica, 1969.
Lafuente, Modesto. *Historia general de España*, vol. 7. Madrid, 1862.
Lane-Poole, Stanley. *The Story of the Moors in Spain*. Baltimore: Black Classic Press, 1990.
Lea, Henry C. *A History of the Inquisition of Spain*, 4 vols. London: Macmillan, 1906–1907.
———. *The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion*, Philadelphia: Lea Brothers, 1901.
Lapeyre, Henri. *Géographie de L'Espagne Morisque*. Paris: SEVPEN, 1959.
Lewis, David Levering. *God's Crusade: Islam and the Making of Europe, 570–1215*. New York: W.W. Norton, 2008.
Lindqvist, Sven. *«Exterminate All the Brutes»*, trans. Joan Tate. London: Granta Books, 2002.
Liss, Peggy. *Isabel the Queen: Life and Times*. New York: Oxford University Press, 1992.
López-Baralt, Luce. *Huellas del Islam en la literatura española*. Madrid: Hiperión, 1989.
———. «The Legacy of Islam in Spanish Literature.» In Khadra Jayyusi and Marín,
Legacy of Muslim Spain.
———. *Un Kama Sutra español*. Madrid: Libertarias, 1995.
Lynch, John. *Spain Under the Hapsburgs*, 2 vols. New York: New York University Press, 1984.
Magnier, Grace. «Millenarian Prophecy and the Mythifi cation of Philip III at the Time of the Expulsion of the Moriscos.» *Sharq al-Andalus* 16–17 (1999–

2002), pp. 187–209.
Márquez Villanueva, Francisco. *El problema morisco (desde otras laderas)*. Madrid: Libertarias, 1991.
Martínez, María Elena. «The Black Blood of New Spain: *Limpieza de Sangre*, Racial Violence and Gendered Power in Early Colonial Mexico.» *William and Mary Quarterly* 61, no. 3 (2004), pp. 479–520.
Matar, Nabil, ed. and trans. *In the Lands of Christians: Arabic Travel Writing in the Seventeenth Century*. London: Routledge, 2003.
Menéndez Pelayo, Marcelino. *Historia de los heterodoxos españoles*. Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científi cas, 1963.
Menocal, María Rosa. *The Ornament of the World: How Muslims, Jews and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*. Boston: Little, Brown, 2003.
Meyerson, Mark. *The Muslims of Valencia in the Age of Fernando and Isabel: Between Coexistence and Crusade*. Berkeley: University of California Press, 1991.
Monter, William. *Frontiers of Heresy: The Spanish Inquisition from the Basque Lands to Sicily*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1990.
Moore, Donald S., Jake Kosek, and Anand Pandian, eds. *Race, Nature, and the Politics of Difference*. Durham, NC: Duke University Press, 2003.
Moore, R.I. *The Formation of a Persecuting Society*. Malden, MA: Blackwell, 1996.
Nader, Helen. *The Mendoza Family in the Spanish Renaissance, 1350 to 1550*. Madison: University of Wisconsin Press, 1984.
Netanyahu, Benzion. *The Origins of the Inquisition in Fifteenth Century Spain*. New York: Random House, 1995.
Nicolle, David. *Granada 1492: The Reconquest of Spain*. New York: Osprey Publishing, 1998.
Nirenberg, David. *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.
———. «Mass Conversion and Genealogical Mentalities: Jews and Christians in Fifteenth-Century Spain.» *Past and Present*, no. 174 (February 2002).
Pardo Molero, Juan Francisco. «'Per salvar la sua ley': Historia del levantamiento, juicio y castigo de la villa de Benaguacil contra Carlos V (1525–1526).» *Sharq al- Andalus* 14–15 (1997–1998), pp. 113–54.
Parker, Geoffrey. *The Dutch Revolt*. London: Penguin, 1985.
———. *Philip II*. London: Hutchinson, 1979.
Payne, Stanley. *Spanish Catholicism: An Historical Overview*. Madison: University of Wisconsin Press, 1984.
Perceval, José María. *Todos son uno: Arquetipos, xenofobia y racismo; la imagen del morisco en la monarquía española durante los siglos XVI y XVII*. Almería: Instituto de Estudios Almerienses, 1997.
Pérez, Joseph. *The Spanish Inquisition*. London: Profi le Books, 2004.
Perry, Mary Elizabeth. *The Handless Maiden: Moriscos and the Politics of Religion in Early Modern Spain*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2007.

Pike, Ruth. *Aristocrats and Traders: Sevillian Society in the Sixteenth Century.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 1980.

Prescott, William H. *History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.* London: Swan Sonnenschein and Co., 1841.

Quevedo, Francisco de. *The Swindler.* In *Two Spanish Picaresque Novels*, trans. Michael Alpert. London: Penguin Books, 1969.

Qureshi, Emran, and Michael A. Sells, eds. *The New Crusades: Constructing the Muslim Enemy.* New York: Columbia University Press, 2003.

Rawlings, Helen. *Church, Religion, and Society in Early Modern Spain.* New York: Palgrave Macmillan, 2002.

Regla, Joan. *Estudios sobre los moriscos.* Barcelona: Ariel, 1974.

Ribera y Tarragó, Julian. *La música árabe y su infl uencia en la española.* Madrid: Editorial Voluntad, 1927.

Rodriguez-Salgado, M.J. «Christians, Civilised and Spanish: Multiple Indentities in Sixteenth-Century Spain.» *Transactions of the Royal Historical Society* 8 (1998), pp. 233–51.

Roth, Cecil. *The Spanish Inquisition.* New York: W.W. Norton, 1964.

Rummel, Erika. *Jiménez de Cisneros: On the Threshold of Spain's Golden Age.* Phoenix: Arizona State University, 1999

Sánchez, Magdalena S. *The Empress, the Queen, and the Nun: Women and Power at the Court of Philip II of Spain.* Baltimore: John Hopkins University Press, 1998.

Sen, Amartya. *Identity and Violence: The Illusion of Destiny.* New York: Penguin Books, 2006.

Sicroff, Albert. *Los estatutos de sangre: Controversias entre los siglos XV y XVII.* Madrid: Taurus Ediciones, 1985.

Smith, Colin, ed. *Christians and Moors in Spain, Vol. II: 1195–1614.* Warminster, UK: Aris & Phillips, 1989.

Spivakovsky, Erika. *Son of the Alhambra: Don Diego Hurtado de Mendoza, 1504–1575.* Austin: University of Texas Press, 1970.

Suberbiola Martínez, Jesús. *Real Patronato de Granada: El arzobispo Talavera, la Iglesia y el estado moderno (1486–1516), Estudio y Documentos.* Caja General de Ahorros de Granada, 1985.

Sutter Fichtner, Paula. *Terror and Toleration: The Hapsburg Empire Confronts Islam, 1526–1850.* London: Reaktion Books, 2008.

Tapia Sánchez, Serafi n de. *La comunidad morisca de Ávila.* Salamanca: Ediciones Universidad Salamanca, 1991.

Tazón Salces, Juan E. *The Life and Times of Thomas Stukeley (c. 1515–78).* Aldershot, UK: Ashgate Publishing, 2003.

Tolan, John V. *Saracens: Islam in the Medieval European Imagination.* New York: Columbia University Press, 2002.

Tremlett, Giles. *Ghosts of Spain: Travels Through a Country's Hidden Past.* London: Faber & Faber, 2000.

Townsend, Joseph. *A Journey Through Spain in the Years 1786 and 1787*, 3 vols. London: C. Dilly, 1791.

Tueller, James. *Good and Faithful Christians: Moriscos and Christians in Early*

Modern Spain. New Orleans: University Press of the South, 2002.
Vigarello, George. *Concepts of Cleanliness: Changing Attitudes in France Since the Middle Ages*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1988.
Vincent, Bernard. *Minorías y marginados en la España del siglo XVI*. Diputació de Granada, 1987.
Watt, Montgomery. *A History of Islamic Spain*. Edinburgh University Press, 1992.
Wheatcroft, Andrew. *The Hapsburgs: Embodying Empire*. New York: Penguin, 1996.
———. *Infi dels: A History of the Confl ict Between Christendom and Islam*. New York: Penguin, 2003.
Williams, Patrick. *The Great Favorite: The Duke of Lerma and the Court and Government of Philip III of Spain, 1598–1621*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2008.
———. *Philip II*. New York: Palgrave Macmillan, 2001.
Wilson, Peter Lamborn. *Pirate Utopias, Moorish Corsairs & European Renegadoes*. Brooklyn, NY: Autonomedia, 2003.
Woolard, Kathryn A. «Bernardo de Aldrete and the Morisco Problem: A Study in Early Modern Spanish Language Ideology.» *Comparative Studies in Society and History* (2002), pp. 446–80.
Zayas, Rodrigo de. *Los moriscos y el racismo de estado: Creación, persecución y deportación (1499–1612)*. Córdoba: Almuzara, 2006.
Zemon Davis, Natalie. *Trickster Travels: A Sixteenth-Century Muslim Between Worlds*. London: Faber & Faber, 2006.
Zweig, Stefan. *Erasmus* [and] *The Right to Heresy*, trans. Edin and Cedar Paul. London: Souvenir Press, 2006.


Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

مؤرخ وكاتب وإعلامي، بريطاني المولد. من أهم أعماله الأخرى «الماكنة الجهنمية: تاريخ الإرهاب»، الذي يرد فيه الإرهاب إلى جذوره التاريخية الأقدم، ويضعه في سياقه الدولي والثقافي الأوسع، ورواية «بيت أبي»، التي تبرز الشوق إلى الجذور، والبحث عنها.

نبذة عن المترجم:

كاتب ومترجم من مصر. من مؤلفاته: «التعليم والتحديث الثقافي: نقض الأسطورة» (المكتبة العصرية، 2010)، و«التعليم والمواطنة: واقع التربية المدنية في المدرسة المصرية» (مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان 2006، ومكتبة الأسرة 2008). ومن أهم أعماله المترجمة: «القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، تحت النشر)، و«مأساة سياسة القوى العظمى» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)، و«مولد الوفرة - كيف تشكل رخاء العالم الحديث» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)، و«الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة-مصر، 2011)، و«التقنية والثقافة في اليونان وروما القديمتين» (هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة-مشروع «كلمة»، 2011).

الدين والدم.. إبادة شعب الأندلس

تنتهي قصة الأندلس، أو أيبيريا الإسلامية، لدى الكثيرين عند عام 1492، ولا يعلمون أن ما يقرب من نصف مليون مسلم ظلوا يعيشون في إسبانيا بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية: غرناطة. لكن كيف كانت نهاية الأندلس، وماذا حدث لشعبها؟ هل غادروا البلاد إلى شمال إفريقيا، أو غيرها من بلاد المسلمين مع حكامهم المهزومين، أم بقوا فيها وعاشوا تحت الحكم الجديد؟ وماذا حدث لمن قبلوا العيش تحت حكم الممالك النصرانية، وكيف سارت حياتهم، وكيف كانت علاقاتهم بالدولة، والكنيسة، و«مواطنيهم» النصارى؟ هل ذابوا في المجتمعات النصرانية، وتلاشت خطوط الفصل الدينية والثقافية التي كانت تفصلهم عن النصارى في زمن الممالك الإسلامية؟ وكيف تعاملت الممالك النصرانية مع الاختلاف الديني والثقافي للمسلمين الذين خضعوا لسلطانها؟ يجيب كتاب «الدين والدم» عن هذه التساؤلات وغيرها، عبر تناول تاريخي رصين، ومحايد، ومتوازن، وشامل، لقصة الموريسكيين ومصيرهم المأساوي، بداية من سقوط غرناطة عام 1492، حتى طردهم النهائي من إسبانيا عام 1614.





